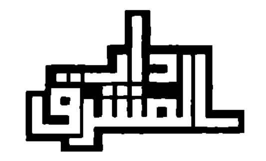


2020
8.1.2020
عارف حجاوي
آخر الشعر
رحلة النهاية للشعر العمودي في القرن العشرين
دار المشرق

آخِر الشعر

رحلة النهاية للشعر العمودي في القرن العشرين

عارف حجاوي



آخِر الشعر

الـفـهـرسـة أثـنـاء الـنـشـر ـ إعـداد دار الـمـشـرق

حجاوي، عارف
آخِر الشعر: رحلة النهاية للشعر العمودي في القرن العشرين/
عارف حجاوي.
٥٥٩ ص.
١. شعر. أ. العنوان.
892

«الآراء التي يتضمنها هذا الكتاب لا تعبر
بالضرورة عن وجهة نظر دار المشرق»

الطبعة الأولى، القاهرة، ٢٠١٨

دار المشرق

القاهرة ـ المعادي ـ شارع المعراج

almashriq.books@gmail.com

أبواب الكتاب

مقدمة

أشعر بارتعاش وأنا أشرع للمرة العاشرة بتعريش هذا الكتاب بمقدمة، فلعلي في هذه المرة أفلح في المضي بها حتى نهايتها لتُظلِّل ثمانمئة (بالضبط ٨٠٠) قطعة وقصيدة تضمها صفحات هذا الكتاب. وهو خامس خمسة كتب عرضتُ فيها للشعر العربي العمودي.

أحس بالإحساس الذي أحست به سيارة لي عتيقة، كان يسقط منها الجناح بعد الجناح، والغماز بعد الغماز، والطاسة بعد الطاسة. حرنت بي مرة في طريق فجئت لها بمن أصلحها، وسارت قليلاً. . ثم سقط منها عضو، فمشيت غير عابئ به. كل ما كنت أريده منها أن توصلني إلى مأمني، ولتذهب بعد ذلك إلى مدفن السيارات.

ووصلتُ، وذهبتْ.

وعاملت نفسي وأنا أكتب هذا الكتاب بالطريقة نفسها. كل ما كان يهمني أن أنتهي منه. وها قد أوشكت. كنت أفقد مع كل جزء من الأجزاء الخمسة ضرساً، و٢٣٠٩٧٨ شعرة؛ وكنت أكسب مع كل جزء خمسة كيلوغرامات، وخمس ملاعق من السكر في الدم.

قبل عامين قلت لسيدة مهذبة، وتلقائية، إنني أكتب كتاباً من ثلاثة آلاف صفحة، فسألتني: ألم تتأخر؟ قلت لها معابثاً: أنا بعدُ شاب. فقالت ما يجب أن يقوله كل عاقل، وكاذب: بل شيخ الشباب.

يصلح هذا الكتاب بأجزائه الخمسة أن يكون تاريخاً للنفس العربية مرويّاً بلسان الشعراء. وأكثر هذه الأجزاء التصاقاً بالأحداث هذا الجزء الذي بين يديك. أقبلت على «آخِر الشعر» متذمراً مما لحق اللغة من ارتباك. فالشعراء ما فتئوا يطمحون إلى أن تكون لهم فصاحة المتنبي، ولكن زمنهم يجبرهم على أن

يقولوا أشياء كثيرة لا تسعها لغة المتنبي، وأن يعبروا عن مشاعر لم يكن يشعر بها أحد في زمن المتنبي.

تعودت أن أكتب المقدمات الطوال لكل فصل، ولكل كتاب من كتب الشعر هذه. والسبب الخفي، ولا أظنني صرحت به في أي مقدمة سابقة، هو أن الكتاب يضم إبداعات ليس لي فيها من نصيب سوى الانتقاء والشرح، وإنني لأدقُّ كل شيء على الحاسوب ثم أضع علامات التشكيل، ثم أصنع الفهارس. فأين أنا من كل هذا؟ أين ذاتي؟ صحيح أنني موجود في الاختيارات نفسها، فأنا من يختار. لكن أنانيتي تأبى عليَّ إلا أن أطل برأسي في هذه المقدمات، كي أقول للناس: اسمعوا، هذا صوتي أنا. أنا الآن أحكي. هذا ما سماه الناس في زمننا «شهوة الحكي». هي شهوة موجودة عند كل من لم يضربهم الفصام وإخوته ضربات موجعة.

وبمناسبة الفصام، أي الشيزوفرينيا، فبين يدي الآن كتاب لرجل ضربتْ ألوان من الفصام ثلاثة أرباع أعمامه وأولاد أعمامه في مراحل مختلفة من أعمارهم، وهو ينتظر. الطبيب البرفسور سيدهارتا موخيرجي البنغالي الهندي بلغ السابعة والأربعين الآن. ونرجو له السلامة.

يعرف من يعرفني أنني مثل المراهقين لا أمضي في قراءة كتاب إلا وأزعج كل من حولي بالحديث عنه، وأبالغ في امتداحه كأنني لم أقرأ سواه. وهذا ما سأفعله الآن.

اسم الكتاب «الجين». وهو يتحدث عما تفعله جيناتنا، التي ورثناها عن آبائنا، في جسومنا وعقولنا. صدر الكتاب في العام الماضي، أي عام ٢٠١٦، عن دار سكرايبنر.

اهتمامي في الوقت الحاضر بالجينات ليس كاهتمامي بها وأنا في السادسة عشرة من عمري عندما كتبت للأستاذ محمد سليم اشتية، أبهج الله أيامه فقد كان أستاذاً وعالماً جليلاً، بحثاً في علم الوراثة. أيامئذ لم أكن سمعت بالجينات.

اختار صديقي نزار أن يكتب عن التطور، واخترت الوراثة. لا أدري إن كان أستاذنا الجليل، لم يكن جليلاً في السن أيامها بل شاباً حديث تخرج، أدرك القدر العظيم من الفائدة التي نلناها بسبب هذه البدعة التي ابتدعها. قد

أرادنا أن نكتب بحوثاً فكتبنا. لم أترك كتاباً في الموضوع أو فيما يقاربه في مكتبة نابلس العامة، العامرة بثلاثين ألف مجلد على أرففها، إلا نظرت فيه. ونالني ما ينال التلميذ من إطراء. وطويت الصفحة.

ستفتحُ لي الآن محضراً كي تحاكمني على قول كثيراً ما ردَّدتُه بأن المدارس لا تعلم المرء شيئاً. لكنني أدافع عن نفسي: المدرسة لم تعلمني شيئاً. الذي علمني هو فقط أن أستاذاً امتلك سعة العلم والقدرة على الخروج عن المنهاج، فطلب مني أن أذهب وأبحث بنفسي. هذا هو التعلُّم لا التعليم.

فهل أنا قلق لحال العرب؟

ولماذا هذا الاستطراد البعيد؟

هذا لأن الهند تسير، وأميركا تسير، والصين ونصف الدنيا تسير، ونحن أيضاً نسير.. لا ليس للخلف.. لكننا نسير ببطء شديد.

هل أنا قلق لحال العرب؟ ومن هم العرب؟ أيقض مضجعي أن أربعمئة مليون خامل يتعرضون للتجويع والتعطيش؟ وتسبق ذلك عملية تبدو عشوائية، وهي ككل عملية عشوائية تملك في أحشائها نظاماً خفياً، عملية عشوائية للتطهير.. يريد العالم قبل أن يأكلنا لقمة سائغة أن يسحب من عالمنا العربي النوابغ والعلماء، ثم لا بأس بتطهير ديني، فالكنائس العالمية تسحب، بطريقة غير مقصودة أبداً، ولكن لها نظامها الخفي، العرب المسيحيين لكي يلتحقوا بدول أخرى.

فلماذا لا نصنع شيئاً؟ الحكومة العربية في بلد من البلدان تمسك بزمامها عصابة من النهابين، الذين يرتعون في المال القادم عن طريق الاتجار بموجودات الوطن. إنهم مثل ذلك الشاب الذي تبدو عليه النعمة لأنه يبيع أساور أمه.

دول الغرب ليست شديدة التوق إلى نوابغنا فعندها من النوابغ ما يكفي، فقط هو شيء من الطمع. فإذا نبغ عندنا شاب بعد أن علمناه وكبرناه، وحرمنا إخوته من ثياب العيد لكي يدرس في الجامعة، فلا بأس من سرقته لكي يعمل في مختبرات لندن وباريس ونيويورك، وينتج علماً.

وبعد عقود من سرقة العقول دخل الغرب في مرحلة صناعة النبوغ. والوسيلة «الجينوم». ذلك المخطط العجيب للتركيبة الجينية للإنسان.

ما زال هذا العلم جنيناً، يرقد عليه العلماء في مختبراتهم، وهم أعلم الناس بأنهم يرقدون على بيضة سيخرج منها فرخ تمساح. لكن العلم شبِق.

بدأ العلماء يعبثون بالجينات. والنتائج تظهر بالتدريج. في كل يوم هناك أخبار عن فتوح جديدة. والهندسة الوراثية لا سقف لها. سيكون في مقدورهم أن يجهزوا على عديد من الأمراض الوراثية في مهدها، مثلما أجهزوا على كثير من الأمراض الجرثومية بالمضادات الحيوية، وشتى الأدوية. هذه ليست خرافات.. قبل مئة سنة كان متوسط عمر الفرد خمسين سنة، وهو الآن ثمانون. وبعد مئة سنة سيكون في البلدان المتقدمة أفراد كثْرٌ في عمر يقرب من مئة وخمسين سنة. وسيكون لديهم، بسبب الهندسة الجينية، ذاكرة جيدة وجسم صحيح. فتخيل ما سيكون عليه هؤلاء من الخبرة وسعة العلم. مثل هؤلاء الأفراد سيحكمون العالم. وبهم ستحكم دولهم العالم وتستعبده. هذه المرة الاستعباد سيكون بيولوجياً علمياً.

هذا الفرع من فروع العلم خطر بحق. ألم يكن علم الذرَّة في بداياته بريئاً؟

الويل للشعوب المتخلفة من الغد المظلم. ولا نركننَّ على الأخلاق. فبلدان أوروبا حرَّمت الرقيق قبل مئتي سنة، وبدا للناظر السطحي أنها تندفع في هذا الاتجاه بقوة أخلاقية عظيمة. ثم في أواخر القرن العشرين رأينا الشركات الأوروبية تؤجج نار الفتن في الكونغو لكي تحصل على المعادن النادرة بثمن بخس. والنتيجة.. مقتل خمسة ملايين إنسان. فاين أخلاق الأسلاف الذين «حرروا» العبيد؟

وانظر إلى أبراهام لنكولن «محرر العبيد»، واعلم أن مطلبه كان تحرير الأفراد ليشتغلوا عبيداً في مصانع الشمال، بدل أن يكونوا عبيداً في مزارع الجنوب. هذا تحليل قرأته، وليس عندي اقتباس. ولكنني أقتبس لك من كتاب بين يدي عن الحرب الأهلية الأميركية: «دخل لنكولن الحرب بادئاً للحفاظ على تماسك الاتحاد، وليس لتحرير العبيد، ولكن معارضي العبودية في الشمال، وانخراط العبيد الهاربين في جيش (الاتحاد) جعلاه يغير رأيه».

لا اختيار لنا في مسقط الرأس، ولو اخترنا لوُلدنا كلنا في سويسرا وكفي الله المؤمنين القتال. على أننا نحاول الفرار، ونرضى أن نعيش في البلدان المتقدمة ونظرات الكراهية تسلق وجوهنا السمراء. هذا لو لم يغرق المركب.

في الزمن القديم كان يأتي على الإمبراطورية وقت تشعر فيه أنها خالدة، ثم إذا هي تنهار وتسلم الراية إلى إمبراطورية أخرى. واليوم ثمة تغيير أساسي يطرأ على قواعد اللعبة. فالإمبراطوريات الغلابة ستؤسس قاعدة قوتها على نوعية الفرد. هذا المستوى البيولوجي من الهيمنة غير مسبوق في التاريخ. ههنا لا تصْدق مقولة «التاريخ يعيد نفسه».

العالم العربي يتلقى المياه النهرية من تركيا، وقليلاً من إيران، ومن إثيوبيا. وقد بدأ يعاني النقص. وهو يتلقى المياه السماوية من الغيوم. والذي حبس مياه الأنهار عنا قادر بعد حين أن يسوق الغيوم بعيداً عنا. وإذا كانوا يرسلون إلينا شحنات القمح اليوم فهذا لأنهم يأخذون مقابلها ولاء ومكاسب سياسية بعضها ظاهر وبعضها سيظهر. ولا قمح لمن لا يعود يملك ما يقايض به.

سأعود إلى مقولة كتاب «لماذا تفشل الدول»، وأظن أنني تطرقت إليه سابقاً، وكنت هجوته لما فيه من تكرار وتطويل بغير داع. لكن نظريته الأساسية مفيدة، وفيها قدر كبير من الصحة. يقول المؤلفان إن هناك طرازين من الحكومات: طراز تشاركي وطراز امتصاصي.

في الطراز التشاركي يشترك عدد كبير من الناس في تسيير البلد. ويتاح لمجموع الناس أن يختاروا مجموعة تدير البلد مدة من الزمن. فإذا لم تعجبهم طريقة إدارتها للبلد اختاروا غيرها. وتحدث أخطاء وربما كوارث، ويكون هناك مجال لتجاوزها.

في الطراز الامتصاصي تتولى أمر البلد عصابة يهمها امتصاص المال، والاحتفاظ بالسلطة. ومن مصلحة هذه العصابة ألا يحدث تطور كبير بعيداً عنها. هي تشجع فتح المصانع وتشجع التجارة والزراعة، لكن في حدود ضيقة. فلو أنها شجعت جموع الشعب على المشاركة فهذا سيجعل الشعب يملك القوة وسيجعله يغير الحكام. قد تكون العصابة مجموعة جنرالات، تقوم برشوة الجيش ببعض الامتيازات، فيكون الجيش قاعدة قوتها. وقد تكون العصابة زعماء العشائر، وقد تكون طائفة مذهبية. ولكنها في جميع أشكالها محتاجة إلى قوة قمع مسلحة، تكون في الغالب جيش البلاد الذي تقول العصابة إنه لحماية الوطن من أعداء الخارج، ويكون المطلوب منه في الغالب أن يحمي العصابة من الشعب.

في النمط الامتصاصي لا يسهل امتصاص الثروات من البلد مع وجود قوى روحية وأدبية وعلمية كثيرة. تفضل العصابة أن يتلهى الناس بتسلية رخيصة وتهريج إعلامي لا يرقِّي العقل. وتحرص على أن يكون العلم محصوراً في العصابة نفسها، وهو خطر أيضاً، إذ يمكن أن يتسرب إلى الجموع، الأفضل قليل جداً من العلم. يكفي أن يكون في البلد بضعة أطباء حقيقيين ماهرين لاستئصال الزائدة، وإجراء العمليات السريعة الضرورية، فأما إذا احتاج أحد أفراد العصابة إلى علاج معقد فهو يحمل علته إلى مستشفى كرومويل في لندن، أو مايو كلينيك في أميركا. العلم الواسع المنتشر بين أفراد الشعب ستنتج عنه بقع مضيئة لا يمكن للعصابة أن تتحكم بها.

ويمكن للنمط التشاركي أن يكون رأسمالياً منفلتاً كأميركا، أو رأسمالياً تكافلياً كألمانيا، أو قريباً من الاشتراكية كالسويد. وهذا النمط لا يحل، ولا يسعى لحل، التفاوت في الدخل بين الناس.

سهل على المرء أن يحدد بناء على هذه النظرية الهلامية طبيعة الحكم في بلده. وبلدان العرب متفاوتة، ولكنها في العموم لم تسر سيرة تشاركية بما يؤهلها لبدء إنتاج المعرفة.

ليس للشعر في هذا المقام الدور الريادي. لكنه يصرخ ـ وأحياناً يهمس ـ بالشكوى. ولأن الشاعر الجيد صادق وحر فهو يحفز. انظر إلى التونسيين: كم شتم الشابي الشعب، وكم عبر عن فكرة عميقة هي أن المهم ليس فقط التخلص من الاستعمار الفرنسي بل أن ننال الجدارة بهذا الاستقلال، وأن نكف عن العيش في الماضي. صرخة عزيزة وبديعة من شاب تخرج من الزيتونة، وكان مؤهلاً لمنصب القضاء الشرعي. (انظر باب الشابي في هذا الكتاب).

ومن الشعراء من يرقص ويغني، ويتغنى بالعروبة، وبجمال المرأة. لم لا. ومنهم من يمدح المناضلين، ومنهم من يمدح الوزير مدحاً جميلاً (إبراهيم ناجي). ومنهم من يرى زهرة في البستان فينظم لها قصيدة، فإذا القصيدة تتغلغل في عمق مشكلة المرأة في بلادنا، ذاك إلياس فرحات (القصيدة رقم ٢٢). وهذا شاعر يقول للعساكر إن ما قمتم بها ليس ثورات بل انقلابات تافهة (أبو سلمى ٢٧). وهذا شاعر يتغنى بالخمر، ويسأل نفسه عن علة الوجود (فهد العسكر، وعرار في كثير من قصائدهما). وهذا شاعر يحب المرأة حباً جماً، ويتألم للجدران التي أقامها في وجهه فقد البصر (البردُّوني)، وآخر يصب لعناته على

رجال الدين الأثرياء الذين لم يتصدقوا في زمن المجاعة (إلياس فرحات مرة أخرى).

لا يجتمع الشعراء الثلاثة عشر في هذا الكتاب على موضوع بعينه، ولا على أسلوب. لكن في مقدوري أن أقول لك: الـ ٨٠٠ قصيدة في هذا الكتاب تؤرخ أجمل تأريخ لمشاعر العرب في القرن العشرين. لكنها اختيرت لسبب آخر كل الآخَريَّة؛ اختيرت لأنها من أجمل الشعر. لم أختر بيتاً واحداً كي يؤرخ لحقبة أو يفسر حالة نفسية، لم أرد من هذه المختارات أن تكون تأريخاً لشيء، لكنها كانت رغم أنفي. واختياراتي هذه واقعة تحت شرط قاسٍ هو أنها من الشعر العمودي فحسب. فأما الشعر التفعيلي فنتركه حتى يحكمَ عليه الزمن. وفيه من الروائع ما فيه.

لو كنت أختار الشعر كي يروي قصة البلدان العربية لجعلت لكل بلد نصيباً. ولست أنكر أن في كل بلد عربي شعراً جميلاً. لكن الكتاب كتاب شعراء. فإذا كان لشاعر وسط قصيدة بديعة فهي لا ترد لأن صاحبها لم يرد. والشعراء الوسط بضعة آلاف، وما كان يمكنني أن أتعقبهم جميعاً. فاخترت كبارهم، ثم اخترت من شعر كبارهم. ولو كنت أنتمي إلى بلد غير بلدي لاختلف عملي. فأنا أسير بيئتي، أسير متحرراً من قيودي حيناً، وأرسف أحياناً. لماذا لم أختر شاعراً أندلسياً؟ لم أر أحداً من شعراء الأندلس تخلص من تقليد المشارقة.

جعلنا سلسلة «الزبدة» هذه أنطولوجيا للشعر العربي من بداياته إلى أن غيَّر طريقه وفكك البيت الخالد ذا الشطرين. وقد قرأت لإسماعيل أدهم، وللمستشرق الروسي كراتشكوفسكي كلاماً طيباً في عشرينيات القرن العشرين فحواه أنه آن لبيت الشعر العربي أن ينصرف عن هذا القالب الجامد.

وقد تفتح وعيي على رنة شعر التفعيلة، فقرأت نزاراً وفدوى طوقان وسميح القاسم ومحمود درويش ونازك الملائكة والسياب يافعاً. وأنا متحمس لشعر التفعيلة. لكن قلبي لا يطاوعني على الجزم بأن الشعر العمودي مات. أرجح، ترجيحاً فقط، أنه يلفظ أنفاسه الأخيرة. لقد ماتت بعض أوزانه كمخلع البسيط والمنسرح والمديد (هذا الأخير كان ميتاً منذ ألف سنة)، وخرج الوزن من الأذن العربية.

عموماً، هل للشعر مستقبل؟ لا أدري. الرواية هي الأدب الآن. حتى

الأغاني بدأت تتخلص من الشعر وصارت عبارة عن خواطر ملحنة.

فهل تشغلني «قضية الشعر»؟ لا، ولا أحب تسمية هذا الشيء «قضية». إذا غرد البلبل فهذا شأنه، وإذا سكت فلن آتي له ببلبلة تثير أشجانه لكي يغرد. صحيح أنني لن أخرجه من قفصه لكي أطبخه وأتعشى به. لكنني لست منشغلاً بتغريده. فإذا سكت فعندي اليوتيوب وعليه من الأغاني والموسيقى ما يمتعني.

ألا تشغلني «قضية اللغة» إذن؟ بلى، تشغلني جداً. ولكن ليس على طريقة من يشغلهم الشعر ويترنمون بجمال اللغة وأصالتها. تشغلني اللغة لأنه يشغلني العلم الذي أسلفت كلاماً كثيراً عنه. واللغة هي الحنفية التي سنشرب منها العلم.

ولو كنت رأيت أمة كبيرة تنهض علمياً بتبديل جلدها اللغوي، لرأيت في دعوات التخلي عن اللغة العربية في الجامعة وفي المدرسة ما يمكن أن يكون موضع نظر.

وضعت كتب هذه السلسلة منجمة على بضع سنين، فإن رأيتني أكرر بعض الآراء والمواقف فها قد بسطت عذري، ثم إن الذاكرة تتراجع، وكل شيء يتراجع.

عرفان

رافقني في نشر هذا الكتاب، وفي الكتب الأربعة التي سبقته من سلسلة «الزبدة» الصديق الأديب محمد عبد العزيز الهجين، تبرع أن يكون الوسيط بيني وبين الناشر. كأنه أدرك بحدس صائب، عندما قابلني أول مرة، أنني من أولئك القوم الذين يفرشون ملاءة الحديث في المجالس عن أمور يصنعونها، ثم لا يكونون «قادرين على التَّمام». كأنه عرف أنني أكتب الكتب لفقط أتحدث عنها أمام أصحابي، فإذا ما تمت تأليفاً فمكانها ملف أصفر في دهليز من دهاليز الحاسوب. فمد محمد يداً قوية وانتشل الكتاب من بين يدي جزءاً فجزءاً، ودفع به إلى الناشر. فله الشكر.

ورافقني في هذا الكتاب، وفي معظم ما سبقه من السلسلة، الصديق الشاعر عمران القفيني مصححاً أخطائي في الإملاء والنحو، ومعلقاً على اختياراتي، ومناقشاً شرحي. ولعله تنبه إلى أن أخطائي كانت تقل في الباب بعد الباب من أبواب هذا الجزء! هذا بسبب موالاته التدقيق والتقريع، وكثيراً

أيضاً.. التشجيع. على أنه لم يفلت باب من الأبواب من جريدة تصحيحات تأتيني من عمران على جناح الإيميل فأفزع إلى نسختي أنزهها عن الخطأ. فما بقي من أخطاء فهو رائحة الطين البشري التي ليس منها بد. قالوا: قد شاء ربك ألا يكون كاملاً إلا كتابه العزيز. وقالوا: من ألَّف فقد استَهدف، أي نصب نفسه هدفاً. وكنت أرضى أن أنصب نفسي هدفاً للنقد وللقدح، لو وجدت القارئ، لكنني أتيت في ذيل الزمن.

كل الذي يمكن أن آخذه أخذته، وكل ما يمكن أن أُعطيَه أعطيته، لقد وصلت قمة العمر وما كرهته، ولست خلفي ناظراً أرى الذي خلَّفته، من صاد ظبيةً كفته غيرَها ظبيته، غرست رمحي فوق قمتي وما تركته، لا ريح لا شمس بل البرد المخيفَ صمتُه، نزعت رمحي ثم إني كالعصا اتخذته، أريده يندقُّ في صدري لو استطعته، ما يصنع الشيخ إذا الهبوط حان وقته؟ عمَّا قليل سوف يخذل السراجَ زيته، وحينها يستبطئ الشيخَ ابنُه وبنتُه، يضيق ثوبه به يمل منه بيته، لم أر ذاك إنما كأنني رأيته، دعاؤهم «حسن الختام» لي وقد سمعته، يا سعدَ من في قمة العمر أتاه موته.

الدوحة ٢٨ نيسان/ أبريل ٢٠١٧
غرة شعبان ١٤٣٨

بشارة الخوري
(الأخطل الصغير)
(١٨٨٥ ـ ١٩٦٨).

كدت أفتح النار على أديب ميت. كنت مشحوناً عليه، غاضباً، وفتحت صفحة جديدة على الحاسوب، ولم أنقر حرفاً. تيبست أصابعي.

ما أشد فرحي أنني ارعويت.

ذهبت إلى كتاب من كتب ذلك الأديب. فتحته وقرأت فيه قليلاً، وقلت لنفسي جملة ظلت تتردد بين حيطان كتبي هذه التي أسميها «الزبدة»، والتي يختمها الكتاب الذي بين يديك، وهذه الجملة هي: الشاعر بجيده لا برديئه.

لعلك تظن أنني بدأت أفكر في الاعتذار عما سلف مني في حق الأكاديميين؟ لا، وما، وليس، وكلّا. وقد ينالهم مني بعد حين ما كان نالهم في مقدمات سابقة. على أنني أخبئ مديحاً لسيدة أكاديمية في ذيل هذه المقدمة.

تذكرت أنني قرأت لسعيد عقل نثراً حلواً، وشعراً حلواً. تذكرت قصائده العامية اللطيفة، وبعض شعره الفصيح، وكثيراً من نثره الرائق، ورجعت إلى بعض ذلك متصفحاً، فأمسكت عن الوقوع فيه. أمسكت وفي نفسي بعض من ذلك الغضب الأول.

لقد كتب سعيد عقل مقدمة لديوان الأخطل الصغير تصلح أن تُفرض فرضاً على كل متأدب وصحفي وبذيلها عبارة (لا تكتب هكذا). كان يجامل، ويتلوى في عباراته تلوياً تأباه كل لغة، ويأباه كل منطق. ولا نبخس الناس أشياءهم، فللرجل كتابة جميلة، بعضها يحلق عالياً في سماء الفن. ولا نؤاخذه في مواقفه

السياسية ولا في حملاته الساذجة، كحملته على الحرف العربي، فقد أخذنا أنفسنا بألا نقرع الحجة إلا بالحجة. فأما الشتم المحض فنقدمه إلى الدجالين.

في مكتبتي بضعة كتب تتناول الأدب الحديث، فهل هي المصادفة وحدها التي جعلت هذه الكتب جميعاً تتفق على أن تكون فارغة؟ كنت أريد أن أشبهها بأرانب الشوكولاطة التي يشترونها للأطفال في عيد الميلاد، يفرح بها الطفل، ويزيل عنها ورقة السلوفان ويحطمها، فإذا هي فارغة من الداخل، وليس بها من الشوكولاطة إلا هيكلها الخارجي الرقيق. ثم قلت في نفسي: لا والله، تلك الكتب ليس فيها أي نفع لا رقيق ولا سميك.

قدم الخوري ميخائيل إلى بيروت وسكن في ضاحية من ضواحيها، كان طبيباً عربياً. وعلم ابنه عبد الله الطب العربي، ففاق الابن أباه، وأخذ يجتهد ويطالع الكتب العربية والسريانية، وأخذ يطبب الناس، وأخذ الله يشفيهم. فكان الناس يحمدون الله ويشكرون الطبيب. وتملك عبد الله أملاكاً، وصار له من عقبة ستة: ثلاث بنات وثلاثة صبيان. وجاء السابع عام ١٨٨٥ فكان شاعرنا: بشارة ابن الطبيب عبد الله ابن الخوري ميخائيل. وعاش الطبيب العربي حتى الخامسة والتسعين، وتوفي قبل الحرب العالمية الأولى ببضع سنين، فلم يشهد ويلات المجاعة. بل ترك أولاده في حال حسنة في ظل الدولة العثمانية التي كانت لها في بيروت الكلمة العليا، بخلاف جبل لبنان الذي نال بعض استقلال تحت حماية الدول الأوروبية.

دخل بشارة الخوري الكتاب عند المعلم ضومط، وما كان هذا الكتاب سوى دكان على قارعة الطريق. لكنه كان يعلم الصبية العربية، ويحببهم في هذه اللغة العنيدة التي لم ينفع فيها تتريك ولا فرنسة في العهد العثماني ثم الانتدابي، فلما جاء الاستقلال الناجز نفع فيها كل شيء.

تربى بشارة على العربية. أصيب بفيروسها في سن طرية. ثم دخل المدرسة الأرثوذكسية الإكليركية، ثم مدرسة الحكمة، وفيهما درس العربية من كتب قادة النهضة اللغوية العربية في لبنان: ناصيف اليازجي وعبد الله البستاني، وغيرهما. قال إنه التقى في مدرسة الحكمة جبران خليل جبران «بشعره الخنفسي وقمبازه البلدي». ولك أن تتخيل جبران باللباس العربي.. ليس أمراً سهلاً. ودرس بشارة الخوري في مدرسة المزار في غزير، وكان ينال الجوائز في موضوعات اللغة العربية ولم ينل جوائز في موضوعات اللغة الفرنسية.

ثم درس في الفرير، فتعلم الفرنسية وبلغ بها مبلغ من يقرأ ويفهم. وغادر المدارس وهو في سن العشرين، فيمكننا القول إن بشارة الخوري، من بين الشعراء، نال دراسة شبه جامعية.

بعد المدارس بثلاث سنوات فتح جريدة «البرق». كان الدستور العثماني قد أُقِرَّ وتحررت الصحف وزال العهد الحميدي. لكن بيروت ابتليت بوالٍ عثماني صعب، قارعه بشارة فضيق الوالي عليه بعض التضييق ومنع جريدته من دخول المتصرفية. وعزل الوالي، وتنفس بشارة الصعداء. وكان يكتب الافتتاحية لكل عدد، وكان ينشر أشعاره في جريدته. أدخله أخوه الأكبر يوسف في الماسونية، ثم خرج منها سريعاً. ومع بداية الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ حل بلبنان زمن الجوع والخوف. الجوع لأن الدولة العثمانية أخذت المحاصيل لإطعام جيوشها، والخوف لأن السلطات التركية صبت على كثيرين في بلاد العرب سوط عذاب لأنهم تعاطفوا مع حركة التمرد على الدولة العثمانية بقيادة شريف مكة. وفي لبنان كان شنْق أحرار العرب على يد جمال باشا السفاح.

أغلق بشارة «البرق» مع بدايات الحرب، وتوارى في قرية بعيدة خوف الاعتقال، وما قد يكون أسوأ من الاعتقال، وغير اسمه وسمته. ولم يعد إلى بيته إلَّا بعد عامين. وباع في سني الحرب أملاكاً كي يعيل أهله. في هذه الفترة لقب نفسه الأخطل الصغير، وظل يكتب الشعر، بل كتب شعراً كثيراً. وعمل سنة موظفاً في شركة قمح.

وما انتهت الحرب عام ١٩١٨ حتى أعاد إصدار «البرق»، وراح ينشر فيها ما تجمع لديه من شعر. رحب بشارة بالانتداب الفرنسي، ١٩٢٠، وبلبنان الكبير الذي ضم إليه الفرنسيون البقاع. وتزوج في هذه السنة. ونال في السنة التي تلتها وسام المعارف من الفرنسيين. وكتب في السياسة وفي الاجتماع، وترشح للنيابة عام ١٩٢٥ مفرداً فسقط سقوطاً مدوياً لم يمنعه بعد بضع سنين من أن يصبح رئيس بلدية في برج حمود ببيروت. وتصاعدت انتقاداته للانتداب الفرنسي فأُغلقت البرق سنة ١٩٣٢. وجاء الاستقلال عام ١٩٤٣، ولم تساعده الحكومة حتى يعيد فتح جريدته. فاعتزل السياسة واكتفى بتلبية الدعوات لتكريم الأحياء وتأبين الأموات والمشاركة في المهرجانات الألفية. زار سوريا ومصر وفلسطين والعراق والسعودية. وفي عام ١٩٥٤ كرموه مرة في بيروت وأخرى في مصر، ثم كرموه تكريماً أكبر في بيروت عام ١٩٦١، وفي العام نفسه اشترك ابنه

عبد الله مع الشاعر سعيد عقل في تشذيب أشعاره ونشرها في ديوان لقبوه على غلافه أمير الشعراء. لكن اللقب لم يقنع أحداً، فبشارة الخوري لم يقل شعراً مهماً منذ أكثر من ثلاثين سنة. وفي هذه السنين العجاف واجه بشارة الخوري حملة نقدية من مارون عبود وأمين الريحاني وشبلي الملاط وإلياس أبو شبكة وحتى من سعيد عقل الذي عاد وصالحه.

كان من سوء حظه أنه عاش طويلاً بعد أن خمدت جذوة الشعر في قلبه. وكان من حسن حظه أن فيروز ومحمد عبد الوهاب وفريد الأطرش غنوا عدة قصائد له. فظل في البال، مشهوراً يعيش على قديمه، ولعل هذا بعض ما أثار حسد من لم ينالوا مثل شهرته.

عاش سنيه الأخيرة معتزلاً في بيته مع أولاده وأحفاده، فإن خرج فإلى مقهى بساحة الشهداء يجالس فيه المتأدبين والكأس. ومات عن ثلاث وثمانين سنة في عام ١٩٦٨.

كثير من هذه المعلومات أخذتُها عن رسالة ماجستير جامعية للسيدة سهام أبو جودة قدمتها للجامعة الأميركية في بيروت عام ١٩٧٠ بعد وفاة الشاعر بسنتين. وقد استندت الباحثة إلى أسرته ومعارفه وأوراقه. وكانت قد زارته مراراً، منذ ما قبل وفاته بثلاث سنين، زيارات تضمنت البحث في سيرته. ومما تذكره أنه قال لها، عندما سألته عن الطبعة الأخيرة «المعتمدة» لديوانه التي نسقها ابنه عبد الله وسعيد عقل: الله يسامحك يا عبد الله، الله يسامحك يا سعيد. غير أن الباحثة أشارت في موضع آخر من رسالتها، التي بلغت أربعمئة صفحة، إلى أن الشاعر لم يكن غيرَ راضٍ عن هذه الطبعة.

وهذه الطبعة هي التي اعتمدناها.

لباحث يريد أن «يصنع» ديوان بشارة الخوري صنعة علمية دون تشذيب فإن رسالة سهام أبو جودة تتضمن رصداً للقصائد ومظانها، هذا إن لم تكن قد صنعت مثل هذا الديوان ولم ندر به.

لا عذر لي في محافل العلم والنشر الأكاديمي الرصين في أنني اقتصرت على طبعة «مشذبة» في اختياراتي من شعر بشارة الخوري. لكنني لا أجد القاعدة البحثية المتينة التي تعينني، ولم أطالب نفسي بأن أرتحل في طلب العلم. وكان من حسن حظي أن وجدت رسالة جامعية محترمة توفر لي معلومات طيبة ومدققة عن حياة الشاعر.

بشارة الخوري شاعر حقيقي، توهج سنوات قلائل، ثم خبا.. وظل عائشاً. فإن قرأت مقالات مارون عبود الكثيرة، الموزعة في أكثر من كتاب من كتبه، التي ينقد فيها بلسانه الساخر المعروف شاعرنا المجبِل فاعلم أنها نقد لشعر شاعر أَجبَل أي أَنزَف أي انقطع ماؤه. ولكننا اليوم نسمع «جفنه علم الغزل» وننتظر الشطر الثاني «ومن العلم ما قتل» ونقول الله!

١ سنو وايت

نَمْ إنَّ قلبي فوقَ مَهْدِكَ، كلَّما ذَكَرَ الهوى صَلَّى عليكَ وسَلَّما
لو أنَّ بعضَ هَواكَ كان تَعَبُّداً وحياةِ عينِكَ ما دخلْتُ جَهَنَّما

٢ الموت الشهي

شَعرُها قِطعةٌ مِنَ الليلِ؛ والخَدّ قَبَّلَتْهُ شَمسُ الضُّحَى فَتَوَرَّدْ
وعلى صَدرِها، متى تَتَنَهَّدْ موجَةٌ هَزَّتِ الصَّغيرَيْنِ في المَهْدْ
فاشْرَأَبَّا كَمَنْ تَخَوَّفَ شَيَّا
إنْ مَشَتْ، فالقلوبُ تحتَ خُطاها لا تُبالي نَعيمَها مِنْ شَقَاها
إنَّ قلباً تَدوسُهُ قَدمَاها ودِماهُ تَبُلُّ ذيلَ رِداها
ذلكَ القلبُ ماتَ مَوتاً شَهِيَّا

٣ التلعثُم

ورشَفنا كأسَ الحُمَيَّا فباحَتْ بِالذي في الصدورِ مِنَّا الوُجوهُ

رشفنا كأس الحميا، الخمر، فبدا على وجوهنا ما نكتمه في صدورنا من عشق

قلتُ: أَهواكَ يا مَلاكي فَرَدَّتْ مُقلَتاهُ، لكنْ تَلَعْثَمَ فُوهُ

٤ بعض القلوب

إنَّ بعضَ القُلوبِ لا يُنْبِتُ الشُّكْـ ـرانَ، مَهما زَرَعْتَهُ إِحْسانا

٥ المسلول

عيناهُ عالقتانِ في نفقٍ كسِراجِ كوخٍ نصفِ متَّقِدِ

ويَمُجُّ أحياناً دماً، فَعَلى مِنديلِهِ قِطَعٌ مِنَ الكَبِدِ

٦ اسأل فمك

أَنْحَلْتَني بِالهَجْرِ ما أَظْلَمَكْ! فارحَمْ عسى الرحمنُ أنْ يَرحَمَكْ
ما كان أَحلَى قُبُلاتِ الهوى إنْ كنتَ لا تذكُرُ فاسْأَلْ فَمَكْ
مَولايَ إنْ واصَلْتَني بِالجَفا فمُتُّ في شَرْخِ الصِّبا مُغْرَمَكْ
قلْ لِلدُّجَى مَاتَ شَهيدَ الهوى فانْثُرْ على أَكفَانِهِ أَنْجُمَكْ

يريدها الديوان المطبوع، وفريد الأطرش «شهيدُ» بالضم، لكن الشاعر قالها شهيدَ فيما نحسب

٧ الفقير

وَيْحَ الفقيرِ فما تَراهُ يُلاقي سُدَّتْ عليهِ مَنافِذُ الأَرْزاقِ
عَلَقُ المَجاعَةِ مَصَّ بَعضَ دِمائِهِ وتَعَسُّفُ الحكَّامِ مَصَّ الباقي

العلق: دود يمص الدم

٨ الغواصة

ليتَنا في الكهفِ، حتى يَنْقَضي، لا شفاهُ اللَّهُ، جَهْلُ الدُّوَلِ
سَعَّرُوها، لو أصابَتْ جَبلاً رَاسِخاً، لانْهَدَّ رُكنُ الجَبلِ
يا لِعَيْنَيكَ تَرى غَوَّاصَةً نَزَلَتْ مِنْ لُجَّةٍ في الأَسْفَلِ

اللجة: البحر العميق

ولقد تُلْمَحُ في الماءِ، كما يُلْمَحُ المعنَى خِلالَ الجُمَلِ
عجباً لِلحُوتِ في أحشَائِهِ بَشَرٌ مَا يَأْمُروا يَمْتَثِلِ
حُوتُ يُونَانَ حَواهُ رَجُلاً وبِحُوتِ اليومِ كمْ مِنْ رَجُلِ

حوت يونان: حوت النبي يونس، فقد احتوى رجلاً واحداً، فأما الغواصة ففيها رجال كثر

وُجِدَتْ كيْ تَصِلَ السُّبْلَ، وقدْ صارَتِ اليومَ لِقَطْعِ السُّبُلِ

السفينة صنعت لتصل الطرق ما بين البلاد، والغواصة التي تغرق السفن تقطع الطرق. وهذا الكلام قيل وقد شهدت الحرب العالمية الأولى استعمال الغواصات في إغراق السفن

٩ ذات الموجتين

اَلـمَهَـا أَهْـدَتْ إِلـيْـهـا الـمُـقـلَـتَـيْـنْ والـظِّـبـا أَهْـدَتْ إِلـيْـهـا الـعُـنُـقَـا

المها: بقر الوحش ذو العيون الواسعة، الظبا: الظباء، الغزلان

فَـهُـمـا في الـحسـنِ أَسْـنَـى حِـلْـيَـتَـيْـنْ لِـلـعَـذارى، جَـلَّ مَـنْ قـد خَـلَـقـا
ودَرَى الـروضُ بِـتَـيْـنِ الـمِـنْـحَـتَـيْـنْ وقـديـمـاً يَـعـشَـقُ الـروضُ الـحِـسـانْ

بتين: بهاتين

فَـكـسـا بِـالـوَرْدِ مـنـهـا الـوَجْـنَـتَـيْـنْ وكَـسـا مَـبْـسِـمَـهـا بِـالأُقْـحُـوانْ
ورَمـى فـي صَـدْرِهـا رُمَّـانَـتَـيْـنْ مَـنْ رأى الـرُّمَّـانَ فـوق الـخَـيْـزُرانْ

يشبه قدها النحيل بالخيزران

فـهُـمـا في صـدرِهـا كـالـمَـوْجَـتَـيْـنْ أيُّ صَـبٍّ مـا تَـمَـنَّـى الـغَـرَقـا؟
أو هُـمـا ـ ولْـيَـسْـلَـما ـ كـالـتَّـوْأَمَـيْـنِ كـلَّـمـا هَـمَّـتْ بِـأمْـرٍ قَـلِـقَـا
ورَآهـا الـلـيـلُ فـاخـتـارَ الـمُـقـامْ ـ ولـقـد طَـاب لَـهُ ـ فـي شَـعْـرِهـا

أي أن شعرها أسود كالليل

وصَـبـا الـفـجـرُ فَـأضْـحـى حـينَ هَـامْ بِـهَـواهـا دُرَّةً فـي ثَـغْـرِهـا

صبا: عشِق

فـإذا مَـيٌّ كـمَـا شَـاءَ الـغَـرامْ مـا نَـجـا ذُو صَـبْـوَةٍ مِـنْ أَسْـرِهـا

١٠ المعتذر

قَـد أتـاكَ يَـعـتَـذِرُ لا تَـسَـلْـهُ مـا الـخَـبَـرُ
كـلَّـمـا أطَـلْـتَ لَـهُ فـي الـحـديـثِ يَـخْـتَـصِـرُ
فـي عُـيـونِـه خَـبَـرٌ لـيـسَ يَـكْـذِبُ الـنَّـظَـرُ
قـد وَهَـبْـتُـهُ عُـمُـري ضـاعَ عـنـدَه الـعُـمُـرُ
حُـبُّـنـا الـذي نَـشَـرُوا مِـنْ شَـذاهُ مـا نَـشَـرُوا
صُـوِّحَـتْ أَزاهِـرُهُ قـبـلَ يَـعْـقِـدُ الـثَّـمَـرُ

صوحت: جفت، يَعقد الثمر: يتحول من براعم إلى ثمار.. ونحن نقول الثمر يَعِقد، لا يُعقد..
لكن فيروز أرادت تفصيحها فجعلتها من باب ما لم يُسمَّ فاعله

عُـدْ، فَـعَـنْـكَ يُـؤْنِـسُـنِـي فِـي سَـمَـائِـهِ الـقَـمَـرُ

يؤنسني عنك، بدلاً منك، القمر

قـد وَفَـى بِـمَـوْعِـدِهِ حِـيـنَ خـانَـتِ الـبَـشَـرُ

١١ جفنه علم الغزل

جَـفْـنُـهُ عَـلَّـمَ الـغَـزَلْ ومِـنَ الـعِـلْـمِ مـا قَـتَـلْ

فَـحَـرَقْـنـا نُـفـوسَـنـا فـي جـحـيـمِ مِـنَ الـقُـبَـلْ

ونَـشَـدْنـا، ولـم نَـزَلْ حُـلُـمَ الـحُـبِّ والـشَّـبابْ

حُـلُـمَ الـزَّهْـرِ والـنَّـدَى حُـلُـمَ الـلَّـهْـوِ والـشَّـرابْ

هَـاتِـهـا مِـنْ يَـدِ الـرِّضَـا جُـرْعَـةً تـبـعـثُ الـجُـنـونْ

اسمع عبد الوهاب يغنيها، وفي الإعادة يقول «هاهاهاتها» وهذه خفة روح حلوة كالعسل من عبد الوهاب

كـيـفَ يَـشـكُـو مِـنَ الـظَّـمـا مَـنْ لـه هـذهِ الـعُـيـونْ

يـا حـبـيـبـي، أَكُـلَّـمـا ضَـمَّـنَـا لِـلـهَـوى مَـكـانْ

أَشْـعَـلُـوا الـنـارَ حَـوْلَـنـا فَـغَـدَوْنـا لـهـا دُخَـانْ

قُـلْ لِـمَـنْ لامَ فـي الـهـوى هـكـذا الـحـسـنُ قـد أَمَـرْ

إنْ عَـشِـقْـنـا، فَـعُـذْرُنـا أَنَّ فـي وَجـهِـنـا نَـظَـرْ

١٢ عش أنت

عِـشْ أنـتَ، إِنِّـي مُـتُّ بَـعـدَكْ وأَطِـلْ إلـى مـا شِـئـتَ صَـدَّكْ

كـانـتْ بَـقـايـا لِـلـغـرا مِ بِـمُـهْـجَـتي فَـخَـتَـمْـتُ بَـعْـدَكْ

مـا كـانَ ضَـرَّكَ لـو عَـدَلْـ تَ أَمَـا رأتْ عـيـنـاكَ قَـدَّكْ

كان حرياً بك أن تعدل لأن قدك معتدل رشيق

وجـعـلْـتَ مِـنْ جَـفْـنَـيَّ مُـتَّـ ـكَـأً ومِـنْ عَـيْـنَـيَّ مَـهـدَكْ

وحَـيـاةِ عَـيْـنِـكَ وَهْـيَ عِـنـ ـدي مِـثْـلَـمـا الـقـرآنُ عِـنْـدَكْ

يغنيها فريد الأطرش «مثلما الإيمان»، وهي هكذا في الطبعة الثانية من الديوان، غير أن الطبعة الأولى كانت في زمن أكثر استرخاء فجاءت بها كما الشاعر قالها

مـا قَـلْـبُ أُمِّـكَ إنْ تُـفَـا رِقْـهـا ولـم تَـبْـلُـغْ أَشُـدَّكْ..
فَـهَـوَتْ عـلـيـكَ بِـصَـدْرِهـا يـومَ الـفـراقِ لِـتَـسْـتَـرِدَّكْ..
بِـأَشَـدَّ مِـن خَـفَـقـانِ قَـلْـ ـبِـي يـومَ قـيـلِ خَـفَـرْتَ عَـهْـدَكْ

١٣ تبعات الهوى

يا حَبيبي لِأَجلِ عَيْنَيكَ مَا أَلـ ـقَـى ومَـا أَوَّلَ الـوُشـاةُ عَـلَـيَّـا

أوَّل: فسَّر وتجاوز الحقيقة

أأَنـا الـعـاشـقُ الـوحـيـدُ لِـتُـلـقَـى تَـبِـعَـاتُ الـهـوى عـلـى كَـتِـفَـيَّـا

١٤ يا نسيم الدجى

يا نَسيمَ الدُّجَى اللَّطِيفَ احْتَمِلْنِي لِـيَ عـهـدٌ عـنـدَ الـنَّـسـيـمِ لِـزَامُ

احتملني: احملني واذهب بي إلى الحبيب، اللزام: الملازم دوماً

كُـلُّـنـا نـاحِـلٌ: فـأَنْـتَ بَـراكَ الـلَّـ ـهُ، لَـكِـنْ أنـا بَـرانـيِ الـسَّـقـامُ

براك الله: برأك وخلقك، براني السقام: أهزلني وأنحلني

١٥ احتضار الشعر

حَفِظَ اللّهُ مُهجَةَ الشِّعرِ في الشَّر قِ وَوَقَّـاهُ عَـادِيـاتِ زَمـانِـهْ

عاديات: مصائب

كـانَ رَيْـحـانَـةَ الـمَـنـاذِرَةِ الـغُـرِّ ـ وراحَ الأَرْواحِ فـي غَـسَّـانِـهْ

كان الشعر ريحانة يشمها المناذرة الغر، السادة الكرام، في الحيرة؛ وكان راح الأرواح، أي خمر الأرواح، عند الغساسنة في الشام

مـا زَهـا مَـفْـرِقٌ بِـتـاجٍ إذا لـم يَـزْهُ بِـالـخـالِـداتِ مِـنْ تـيـجَـانِـهْ

لم يكن مفرق رأس ملك ليزهو، ويفتخر، بالتاج ما لم يكن مفتخراً بالأشعار الخالدة التي قيلت في الملك

يَـتَـمَـنَّـى الـمـلـوكُ لـو أَنْـعَـمَ الـلَّـ ـهُ عـلـيْـهِـمْ بِـسَـكْـرَةٍ فـي حَـانِـهْ
لـيـتَ شِـعـريِ مـاذا أَسـاءَ إلـى الأَيَّـ ـامِ حـتَّـى أَمْـعَـنَّ فـي عُـدوانِـهْ؟

ماذا أساء الشعر إلى الزمن حتى أسرف الزمن في التعدي عليه؟

فَهَوى مِنْ سَمائِهِ كَاسِفَ اللَّوْ نِ إلى هُوَّةِ الشَّقا وهَوَانِهْ
كُلَّما هَمَّ أنْ يُطَأْطِئَ لِلدَّهْـ ـرِ ثَناهُ العَرِيقُ مِنْ عُنفُوانِهْ

كلما نوى الشعر أن يخفض رأسه أبى له عنفوانه العريق ذلك

مُؤْثِرٌ أن يموتَ في كُوخِهِ الفَا نِي على الباقِياتِ مِن دِيوَانِهْ
يَحْمِلُ الاِبْتِسامَ في شَفَتَيْهِ والمَنايا تَسيلُ مِنْ أَرْدانِهْ

أردانه: أكمامه

كَسِراجٍ في جَوفِ دَيْرٍ قَديم هُرِقَتْ روحُهُ على جُدْرانِهْ

يشبه اضمحلال الشعر بسراج في دير وقد بدأ يخبو نوره فكأنه يهرق روحه ويسكبها على جدران الدير..

يَشْهَقُ الشَّهْقَةَ الخفيفةَ في الفَجْـ ـرِ ويُفْني أنفاسَهُ بِدُخانِهْ
كَعَليلٍ على فِراشٍ مِنَ السِّلِّ - بَعيدِ المَزارِ عن إخْوانِهْ
كُلَّما ألْحَفَ السُّعالُ عليهِ أطْعَمَ الموتَ قِطْعَةً مِن جَنانِهْ

١٦ رسائل فموية

فَرْخانِ في وَكْرٍ تَلاقَى جَانِحٌ وجَانِحٌ، ومِنقَرٌ ومِنقَرُ
يَختَلِسُ القُبلَةَ مِن مَبْسِمِها هل تَعرِفُ العُصفُورُ كيفَ يَنقُرُ؟
وَهْوَ إذا أَمْعَنَ في ارتِشافِها عَلَّمَنا كيفَ يَذوبُ السُّكَّرُ
رِسالَةٌ مِن فَمِهِ لِفَمِها كذا رِسالاتُ الهوى تُخْتَصَرُ
ما الحسنُ لولا الشِّعرُ إلَّا زَهْرَةٌ يَلهُو بها في لحظَتَيْنِ النَّظَرُ
لكنَّها إن أَدْرَكَتْها رِقَّةٌ مِنْ شاعِرٍ أو دَمعَةٌ تَنْحَدِرُ

لكنها: أي لكن الزهرة

سَالَتْ دِماءُ الخُلْدِ مِنْ أَوراقِها ونامَ تحتَ قَدَمَيْها القَدرُ

١٧ العمر لحظة

فانْهَبِ العَيْشَ لا أَبالَكَ نَهْباً واطَّرِحْ عنكَ وَجهَكَ المُسْتَعارا
لَستَ مَهْما عُمِّرْتَ غيرَ جَناحٍ حَطَّ في الدَّوْحِ لَحظَةً ثم طارا

جناح: طائر، الدوح: الشجرة الوارفة

١٨ يا عاقد الحاجبين

يا عاقِدَ الحاجِبَيْنِ على الجَبينِ اللُّجَيْنِ

اللجين: الفضة. الجبين اللجين: الجبين الذي من فضة، كقولك «الخاتم الذهب» و«السكة الحديد»

إن كُنتَ تَقصِدُ قَتلي قَتَلتَني مَرَّتَيْنِ

ولماذا مرتين؟ هي القافية.. أو لعل كل حاجب يقتله مرة

تَبدُو كَأَنْ لا تَراني ومِلْءُ عَينِكَ عَيْني
ومِثلُ فِعلِكَ فِعْلي وَيْلي مِنَ الأَحْمَقَيْنِ

أنا وأنت أحمقان في هذا التجاهل المتبادل

مَولايَ لم تُبْقِ مِنِّي حَيًّا سِوى رَمَقَيْنِ
سَتَحْرِمُ الشِّعْرَ مِنِّي وليسَ هذا بِهَيْنِ
أَخافُ تَدعُو القَوافي عليكَ في المَشْرِقَيْنِ

المشرقين: الشرق والغرب

١٩ رثاء شوقي

شوقي! أَتذْكُرُ إذْ عَالِيهُ مَوْعِدُنا نِمنَا وما نامَ دهرٌ عن مَقَادِرِهِ

عاليه: بلدة في لبنان كان ينزلها شوقي مصطافاً

وأنتَ تحتَ يَدِ الآسي ورأفَتِه وبينَ كلِّ ضعيفِ القلبِ خَائِرِهِ

كنت تحت يد الآسي، أي الطبيب، وبين أصحابك ذوي القلوب الضعيفة الخائفة عليك

ولِابتِسامَتِكَ الصَّفْراءِ رِجْفَتُها كالنجمِ خَلْفَ رقيقٍ مِنْ سَتائِرِهِ

كانت ابتسامتك الصفراء الراجفة ووجهك المخطوف اللون كالنجم خلف ستار من الغيوم

ونحنُ حَوْلَكَ عُكَّافٌ على صَنَمٍ في الجَاهِلِيَّةِ مَاضي البَطْشِ قَاهِرِهِ
سَأَلْتَنيهِ رِثاءً.. خُذْهُ مِنْ كَبِدي لا يُؤْخَذُ الشَّيْءُ إلَّا مِنْ مَصَادِرِهِ

٢٠ شقيقة النجوم

تَعجَّب الليلُ منها عندما بَرَزَتْ تُسَلْسِلُ النُّورَ في عَينَيْهِ عينَاها

كانت عيناها ترسل نوراً يضيء ظلام الليل

وتَمْتَمَتْ نَجمَةٌ في أُذْنِ جَارتِها لَمَّا رأتْها، وجُنَّتْ عند مِرآها
أُنْظُرْنَ، يا إخْوَتَا، هَذي شَقيقَتُنا فَمنْ تُراهُ على الغَبْراءِ أَلْقَاها؟
وكان بِالقُربِ منها كَوكَبٌ غَزِلٌ يُصْغي فلمَّا رآها، سَبَّحَ اللَّهَ
وراحَ يُقْسِمُ أنْ لا باتَ ليلَتَهُ إلّا على شَفَتَيْها لاثِماً فَاها

٢١ ثمن الهداية

لو لم يُخَضَّبْ بالدِّماءِ صَليبَهُ عِيسى لَمَا كان المَسيحَ الفادي
ومُحمَّدٌ لولا اضْطِهاد معاشِرٍ خُشُنٍ لَما كانَ الرسُولَ الهادي
آلَى الهُدى ألَّا يُطِلَّ على الورى إلَّا على جبلٍ مِنَ الأَجْسادِ

آلى: حلف

٢٢ إسقنيها

اِسقِنيها، بِأَبي أنتَ وأُمِّي لا لِتَجْلُو الهَمَّ عَنِّي، أنتَ هَمِّي

٢٣ رثاء حافظ إبراهيم

شاعِرَ النِّيلِ خُذْ بِناصِيَةِ النَّجْـ ـم، وَدَاعِبْ جَبينَهُ البَرَّاقا
أو فَعُدْ لِلحُقولِ دَغْدِغْ بِها الزَّهْـ ـر، ونَبِّهْ في صَدْرِها الأَشْواقا
أنتَ والنيلُ ضَفَّتانِ لِمِصْرٍ تُنْبِتانِ الأَذواقَ والأَرْزَاقا

٢٤ الصبا والجمال

هنأ بها غيتا كفوري حين فازت بلقب ملكة جمال عام ١٩٣٤، واسمعها من عبد الوهاب

اَلصِّبا والجَمالُ مِلْكُ يَديْكِ أيُّ تاجٍ أَعَزُّ مِن تَاجَيْكِ
نَصَبَ الحُسنُ عرشَهُ فسألْنا مَنْ تُراها لَه؟ فَدَلَّ عليكِ
فاسْكُبي رُوحَكَ الحَنونَ عليهِ كانْسِكابِ السَّماءِ في عَيْنَيْكِ
سَكِرَ الروضُ سَكْرَةً صَرَعَتْهُ عندَ مَجْرى العَبيرِ مِنْ نَهْدَيْكِ
قَتَلَ الوردُ نفسَه حَسَداً مِنـ ـكِ، وألقَى دِمَاهُ في وَجْنَتَيْكِ

التسويد للشاعر عمران القفيني

والـفَـراشـاتُ مَـلَّـتِ الـزَّهْـرَ لَـمَّـا حَـدَّثَـتْـهـا الأنـسـامُ عـن شَـفـتـيـكِ

٢٥ لبنان في سنة ١٩٣٤

لُبنانُ يا جنَّةَ الأرواحِ، ما فعلتْ بِكَ الليالي؟ فعادَ العُرْسُ مأسَاتا

قـد كَـبَّـروكَ، لِأَمْـرٍ صَـغَّـرُوكَ بِـهِ، قد فَخَّمُوا الاسم، لكنْ حَقَّرُوا الذَّاتا

في كُـلِّ طَـرْفَـةِ عـيـنٍ: أَنْـظُـمٌ جُـدُدٌ مِنْ سوءِ حَظِّكَ قد ظَنُّوكَ مَلهَاتا

أنظم: أنظمة وقوانين، ذلك في عهد الانتداب الفرنسي

كـأنَّـمـا كـنـتَ لَـوْحـاً فـي مَـكـاتِـبِـهِـمْ تَـمـضـي الأكُـفُّ بـهِ مَـحْـواً وإثـبـاتـا

اللوح في المكاتب، أي الكتاتيب، يكون صغيراً بيد التلميذ يكتب فيه الدرس، وعندما يحفظه يمحوه

فِـتـيـانَ لُـبـنـانَ! هُـبُّـوا مِـنْ رُقـادِكُـمُ سِـيَّـانِ مَـنْ نـامَ عـن حَـقٍّ ومَـن مـاتـا

٢٦ مولد المتنبي

تَـكَـشَّـفَ الـصُّـبْـحُ عـن طِـفـلٍ ومـارِدةٍ لـهُ عـلـى صـدرِهـا زَأْرٌ إذا غَـضِـبـا

التي ولدت المتنبي ليست امرأة عادية بل ماردة من المردة، وهو لا يبكي على صدرها بل يزأر

كـأنَّـهُ الـزِّئْـبَـقُ الـرَّجْـراجُ فـي يَـدِهـا أو خَـفْـقَـةُ الـبَـرقِ إمَّـا اهـتَـزَّ واضْـطَـربـا

نَـادى أَبُـوه ـ عَـظـيـمُ الـجِـنِّ ـ عِـتْـرَتَـهُ فَـأَقْـبَـلُـوا يـنـظُـرونَ الـبِـدْعَـةَ الـعَـجـبـا

عترته: قومه

مَـاذا نُـسَـمِّـيهِ؟ قـالَ الـبـعـضُ صـاعِـقَـةً فـقـالَ كـلَّا، فـقـالُـوا: عـاصِـفـاً، فَـأَبـى

فـقـامَ كـالـطَّـوْدِ مـنـهُـمْ مـارِدٌ لَـسِـنٌ وقـال: لـم تُـنـصِـفُـوهُ اسْـمـاً ولا لَـقَـبـا

الطود: الجبل

سَـنـبـعَـثُ الـفِـتـنـةَ الـكُـبـرى عـلـى يَـدِهِ فـنَـشْـغَـلُ الـنـاسَ والأقـلامَ والـكُـتُـبـا

ونـجـعلُ الـشِّـعـرَ رَبَّـاً يَـسـجُـدونَ لَـهُ، فَـإنْ غَـوَوْا فـلـقـدْ نِـلـنـا بِـهِ الأَرَبـا

واخْـتـالَ غـيـرَ قَـلـيـلٍ، ثـم قـالَ لَـهُـمْ: سَـمَّـيْـتُـهُ الـمـتـنـبِّـي، فـانْـتَـشَـوْا طَـرَبـا

هَـلِ الـنُّـبُـوَّةُ إلَّا ثَـورةٌ عَـصَـفَـتْ عـلـى الـتـقـالـيـدِ حـتـى تَـسـتَـحِـيلُ هَـبـا؟

هبا: هباء

مـا ضَـرَّ مُـوقِـدَهـا، والـخُـلْـدُ مَـنـزِلُـهُ، إذا رَمَـى نـفـسَـهُ فـي نـارِهـا حـطـبـا؟

طَلَبْتَ بالشِّعرِ دونَ الشِّعرِ مَرْتَبَةً   فشاءَ رَبُّكَ ألَّا تُدرِكَ الطَّلَبا

يخاطب شاعرنا المتنبي: لقد طلبت مرتبة أدنى من الشعر، هي الإمارة، فشاء الله ألا تنال طلبك

لولا طِماحُكَ ما غَنَّيْتَ قافِيَةً   بَوَّأْتَها الشَّمْسَ، أو قَلَّدْتَها الحِقَبا

لكن طموحك هو الذي جعلك تغني بالقصائد التي وضعتها في عين الشمس، وجعلتها عقوداً وقلائد في أعناق الدهر

أَضْرَمْتَ ثورتَكَ الهَوْجاءَ فالتَهَمَتْ   مِنَ القريضِ الهشيمَ الغَثَّ والخَشَبا

وغالَ شِعرُكَ شِعرَ الكائِدينَ لَهُ   لِنفسِهِمْ حَفَرَتْ أيديهِمُ التُّرُبا

الذين حسدوك ونصبوا لك المكائد قتلهم شعرك، فقد حفروا حفرة لأنفسهم بأيديهم

مَنعتَ عنهُمْ ضِياءَ الشمسِ فانْحَجَبُوا   فهل تَلُومُهُمُ إنْ مَزَّقُوا الحُجُبا

لم أَلْقَ كالشعرِ مَظلوماً، فقد حَشَدُوا   لِحَرْبِه حَسَدَ الحُسَّادِ والنُّوَبا

عَفواً نَبِيَّ القوافي، أَيُّ نابِغةٍ   لم يَزْرَعُوا حولَهُ البُهتَانَ والكَذِبا؟

يُرمَى بِكلِّ قَبيحٍ مِن مَثالِبِهِمْ   ويَرفَعُونَ لهُ الأنصابَ إنْ ذَهَبا

يرمى النابغة في حياته بالمثالب، المعايب، فإذا مات رفعوا له الأنصاب، التماثيل، لتخليده

مِثلَ المسيحِ تَغالَوْا في أَذِيَّتِهِ،   وأَلَّهُوهُ، ولكنْ بَعدَما صُلِبا

٢٧ الفردوسي

في حفل جامعة الحكمة بلبنان في ذكرى شاعر الفرس الفردوسي، ١٩٣٥

هلْ لِلأزاهِرِ عن أُمَّاتِها خَبَرٌ   عن شاعِرٍ سَكَبَ الأطيابَ في فيها؟

هل جاء الأزهار خبرٌ منقول عن أمهاتها يحدث عن شاعر منح الأزهار عبيرها؟

في جَنْبِ إيوانِ كِسرى مِن مَواهِبِهِ   إيوانُ شِعرٍ بهِ كِسرى زَها تِيها

شعر الفردوسي، الذي جاء بعد كسرى بمئات السنين، كان مفخرة للفرس فكأنه إيوان ثان بعد إيوان كسرى، وإيوان كسرى يفتخر بشعر الفردوسي

كأنَّ في كلِّ بيتٍ مِن قصائِدِه   روحاً تَغلغَلُ في الموتَى فتُحيِيها

أَشْرِقْ أبا قاسِمٍ كالشمسِ مُرتَجِلاً   أُنشودَةَ النورِ، إنَّ اللَّهَ مُوحيها

ما أَلْفُ عامٍ وإن طالَ الزمانُ بها   مِن ساعةٍ عِشْتَها إلَّا ثَوانيها

الأعوام الألف التي مرت على ميلادك ليست سوى بضع ثوان بالقياس إلى ساعة واحدة مملوءة بالإبداع من عمرك

أَهْدَيْتَ مِيراثَ كِسرى كُلَّ قافيةٍ   إن ماتَ قائِلُها ما ماتَ راوِيها
فَرُحْتَ تبعَثُها مِن عَبْقَرٍ شَرراً   مَوْصُولَةً بِأَوَالِيها تَوالِيها
عبقر: المكان الذي تعيش فيه شياطين الشعر الوهمية في تراث العرب، أواليها: أوائلها، تواليها: لواحقها

يا لِلعُقوقِ، أَيَبْني مَجْدَ أُمَّتِهِ   حتى إذا ساوَرَتْ نفْساً أمانِيها . .
ثمة حكايات عن تعرض الفردوسي للعقوق من السلطان بعد أن كتب ملحمة الشاهنامة

حتى إذا مَدَّ لِلآلاءِ رَاحَتَهُ   نحوَ الأَرِيكَةِ عَضَّتْهُ أَفَاعِيها
الآلاء: النعم، الجوائز، نحو الأريكة: نحو السلطان الجالس على سرير الملك

أإِنْ وَفَتْ أُمَّةٌ يوماً لِشاعِرِها   رَماهُ سَافِلُها عن قَوْسِ وَاشِيها
إذا أَساءَتْ إلى الآدابِ مَمْلَكَةٌ   فاصبِرْ عليها، فقد قامَتْ نواعِيها

٢٨ رثاء الكاظمي، ١٩٣٥

هل أَذْنَبَ الشيخُ حَيَّاً   حتى إذا ماتَ تابا
كنتم تهملون الشيخ الشاعر عبد المحسن الكاظمي في حياته، فهل كان مذنباً؟ وصرتم تمجدونه بعد موته، فهل تراه تاب ميتاً؟

وحينَ أَمْسَى غَنِيَّاً   عنكُمْ غَدَوْتُمْ صِحابا
عندما استغنى عنكم، بالموت، صرتم أصحاباً له

لو رُدَّتِ الروحُ فيهِ   لَازْوَرَّ عنكُمْ عِتَابا
لازورَّ: لأشاح بوجهه عنكم

أَهمَلْتُمُوهُ حُساماً   وصُنْتُمُوهُ قِرابا
الحسام السيف، والقراب غمده

٢٩ العنف والعنفوان

في ثورة ١٩٣٦ بفلسطين

سائِلِ العلياءَ عنَّا والزَّمانا   هل خَفَرنا ذِمَّةً مُذْ عَرَفَانا
اسأل العلياء، المجد، واسأل الزمان: هل خفرنا ذمة، خُنَّا عهداً، منذ أن عرفنا المجد والزمن؟

المُروءاتُ التي عاشتْ بِنا   لم تَزَلْ تجري سَعيراً في دِمَانا

يـا جِـهـاداً صَـفَّـقَ الـمـجـدُ لـه   لَـبِـسَ الـغـارُ عـلـيـه الأُرْجُـوَانـا

أيها الجهاد الذي انتشى له المجد، لقد اكتسى الغار، إكليل المجد، بسبب هذا الجهاد بالدم الأرجواني، الأحمر

شَـرَفٌ بـاهَـتْ فِـلَـسْـطـيـنُ بـه   وبِـنـاءٌ لِـلـمَـعـالـي لا يُـدَانـى

شَـرَفٌ لِـلـمَـوْتِ أنْ نُـطْـعِـمَـهُ   أَنْـفُـسـاً جَـبَّـارَةً تـأبَـى الـهـوانـا

وَرْدَةٌ مِـــنْ دَمِـــنـــا فـــي يَـــدِه   لـو أَتَـى الـنـارَ بِـهـا حَـالَـتْ جِـنـانـا

أنفسنا الجبارة هي وردة من دمنا في يد الموت، ولو أتى بها إلى الجحيم لتحولت إلى جنة

أُنـشُـروا الـهـولَ وصُـبُّـوا نـارَكُـمْ   كـيـفـمـا شِـئْـتُـمْ فـلـنْ تَـلْـقَـوْا جَـبـانـا

يخاطب المحتلين الإنجليز

غَـذَّتِ الأحـداثُ مِـنَّـا أَنْـفُـسـاً   لـم يَـزِدْهـا الـعُـنـفُ إلَّا عُـنـفُـوانـا

٣٠ ضامن الخلود

نَجِيُّ العُلَى حَرْبٌ على الشَّهَواتِ   حَـيِـيٌّ كَـمِـنـديـلٍ بِـصَـدْرِ فـتـاةِ

الشاب الشامخ الذي يناجي العلى، ويكلم المجد، معادٍ لشهواته مترفع عنها، وهو يمتلك الحياء فكأنه منديل في صدر فتاة لا يكاد يبرز. هذا المنديل مجاز بعيد وحلو، ويفتح لك باباً للخيال أيها الشهواني، وينسيك الشطر الأول

ولـكـنْ إذا الأوطـانُ نـادَتْ، أجابَـهـا   وَقَـاحٌ كَـنـابِ الـلَّـيـثِ عَـضَّ بِـشـاةِ

وقاح: صلب

مِن الجهلِ أن تَلْقَى المُهَنَّدَ بالعصا   وأن تَـدفَـعَ الأعـداءَ بِـالـصَّـلَـواتِ

أَبَى لَكَ طَبْعُ الصَّاعِقاتِ إذا هَوَتْ   عـلـى قُـضُـبِ الـمَـاذِيِّ مُـنْـجَـذِبـاتِ

أبى لك الاكتفاء بالصلوات طبعُك الذي يشبه طبع الصواعق عندما تنزل في المعركة راكبة قضب الماذي، قضبان الحديد أي السيوف، ومنجذبة إليها

وخِفْتَ فُجَاءاتِ الرَّدى، فَسبَقْتَها   بِـوَثْـبَـةِ جـبـارٍ إلـى الـذُّرُواتِ

خفت أن يفاجئك موت على فراشك فسبقته إلى المعركة لتقفز إلى ذرى المجد وتموت في المعركة

إذا ضَمِنَ المرءُ الخلودَ على الصِّبَا،   فـمـا عـمـرُهُ الـبَـاقـي سوى فَـضَـلاتِ

٣١ بغداد

قــولــي لِـشـمـسِـكِ لا تَـغـيـبـي   وتَــكَـبَّـدي فَـلَـكَ الـقُـلـوبِ

يا بغداد قولي لشمسك: لا تغيبي وتكبدي، توسَّطي، فلكاً ليس من أفلاك السماء بل هو فلك قلوبنا المحبة لك

بـغـدادُ، يـا وَطَـنَ الـجِـهـا   دِ ومُـرْضِـعَ الأدبِ الـخَـصـيـبِ

غَـنَّـاكِ دِجـلَـةُ والـفُـرا   تُ قَـصـائـدَ الـزمـنِ الـعـجـيـبِ

حـتـى إذا طَـلَـعَ الـرشـيـ   ـدُ ومـاجَ فـي الأُفُـقِ الـرَّحـيـبِ

صَـهَـرَ الـقـرونَ وصـاغَـهـا   تـاجـاً لِـمَـفْـرِقِـكِ الـحـبـيـبِ

بَـغـدادُ، مـا حـمـلَ الـسُّـرَى   مِـنِّـي، سـوى شَـبَـحٍ مُـريـبِ

السرى: سير الليل.. وقد حملني إليك وأنا النحيل ذو اللباس المريب

جَـفَـلَـتْ لـه الـصـحـراءُ والـ   ـتَـفَـتَ الـكـثـيـبُ إلى الـكـثـيـبِ

وتَـنَـصَّـتَـتْ زُمَـرُ الـجَـنـا   دِبِ مِـنْ فُـوَيْـهَـاتِ الـثُّـقُـوبِ

فويهات: تصغير فوَّهات

يَـتَـسـاءَلُـونَ، وقـد رَأَوْا   قَـيـسَ الـمُـلَـوَّحَ فـي شُـحـوبـي

والـتَّـمْـتَـمَـاتُ عـلـى الـشِّـفَـا   هِ مُـضَـرَّجـاتٍ بـالـنَّـسـيـبِ

يَـتـسـاءلـونَ: مَـنِ الـفـتـى الـ   ـعَـرَبِـيُّ فـي الـزِّيِّ الـغَـريـبِ؟

آلَـيْـتُ أَقْـتَـحِـمُ الـجَـحـيـ   ـمَ عـلـى جَـوادٍ مِـنْ ذُنـوبـي

حلفت أن أخاطر بالتفكير في المحرمات مما سيفضي بي إلى جهنم

فَـأَغُـوصُ فـي الأَبَـدِيَّـةِ الـ   ـخَـرسـاءِ والأَزَلِ الـقَـطُـوبِ

الأبدية: منتهى المستقبل، والأزل: منتهى الماضي، القطوب: المتجهم المكشر

آلـيـتُ: لَـكِـنِّـي ارْعَـوَيْـ   ـتُ وقلتُ: يا نَفسي اهْدَئي بي

ارعويت: تراجعت

مـهـمـا سَـمـا عَـقْـلُ الـحـكـيـ   ـمِ يَـزِلُّ عـن حُـجُـبِ الـغُـيـوبِ

٣٢ سكرة الحزن

سَكْرَةُ الحزنِ سَكْرَةٌ ليس يَصْحُو الـ   ـمَرءُ منها ما دامَ فوقَ التُّرابِ

تَتغذّى بِالذِّكرياتِ، وتَنمو بِمَآسي الأوطانِ والأحْبابِ

٣٣ زمن الغوغاء

يا أُمَّةً غدَتِ الذِّئابُ تَسُوسُها غرِقَتْ سَفينَتُها، فأينَ رَئيسُها؟
تَعْساً لها مِنْ أُمَّةٍ، فزَعيمُها جَلّادُها، وأَمينُها جاسُوسُها
رُشِيَتْ مآذِنُها، فلم تغضَبْ لها غَضَبَ الكِرامِ، وباعَها ناقُوسُها
إلّا شباباً كالربيعِ، تَهُزُّهُمْ نَسماتُها، ويَصُدُّهُمْ كابُوسُها
ليستْ مِنَ الأَشْبال فِتيةُ أُمَّةٍ إنْ سادَ أحمَقُها وعَزَّ خَسيسُها
أَيُحَكِّمُ الغَوغاءُ في أُدَبائِها ويَذُودُ عن سُفهائِها بُوليسُها
ومتى تُؤَيِّدْ بِالرَّعاعِ حُكومَةٌ: كانتْ أَحَطَّ مِنَ الرَّعاعِ نُفُوسُها
هَبَطُوا الجَحيمَ، فَرَدَّهُمْ بَوّابُها إذْ خافَ مِنْ إبليسِهِمْ إبليسُها

٣٤ أنا الثريا

ورُبَّ أخٍ رأى فَرَجاً بِذَمِّي فقلتُ رَضيتُ ذَمَّكَ لو شَفاكا
أَتَطْمَعُ أنْ تُحَلِّقَ لِلثُّرَيّا فتُطْفِئَها، عَدِمْتَ إذَنْ حِجاكا

حجاك: عقلك

٣٥ أبو العلاء المعري

يا لَها ثَورةٌ تَأَجَّجُ في صَدْ رِكَ، تُرْدِي الظُّنونُ فيها الظُّنونا
بَسْمَةُ الهُزْءِ، أينَ مِنها أبُو بَحْـ ـرٍ وفُولْتيرُ سَيِّدا الهازِئينا

أبو بحر: لعله يقصد أبا عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، ومن كان أبوه بحراً فلا بأس بتكنيته بأبيه

فَأَحايِينَ لا أرى لَكَ دُنيا وأَحايِينَ لا أرى لَكَ دِينا
لستُ أدري أأنتَ في وَصْفِكَ النَّفْـ ـسَ مُصيبٌ، أم الحَكيمُ ابنُ سِينا
أَيَراها وَرقاءَ مِنْ رَفْرَفِ الخُلْـ ـدِ، وتَبقَى لَديكَ ماءً وطِينا؟

شبه ابن سينا الروح بورقاء، أي بحمامة، جاءت من رفرف جنة الخلد، أي رياضها. قال ابن سينا: هَبطتْ إليكَ مِن المحلِّ الأرفعِ/ ورقاءُ ذاتُ تعزُّزٍ وتمنُّعِ. وأبو العلاء ينقل في بعض شعره أن الروح قد تفنى بفناء الجسد: والرُّوحُ أرضِيَّةٌ في رأيِ طَائفةٍ/ وعند قومٍ تَرَقَّى في السماواتِ

سِرُّ ذي النَّفْسِ، لا مَدَارِهُ روما أدركَتْهُ، ولا شُيوخُ أثينا

مداره: جمع مِدْرَه وهو الحكيم الشريف

رُبَّ شَاكٍ فَقْدَ العيونِ، ولا يَنْـ ـفَكُّ يَهدي العُيونَ لِلمُبْصِرينا

أبو العلاء يشكو فقد البصر، لكنه يهدي إلى المبصرين عيوناً

٣٦ أدب الشراب

وُلِدَ الهوَى والخَمْرُ لَيلةَ مَولِدي وسَيُحْملانِ مَعي على أَلْواحي

أَدَبُ الشَّرابِ إذا المُدامَةُ عَرْبَدَتْ في كأسِها أَلّا تَكونَ الصَّاحي

٣٧ عيد الجهاد

في ذكرى اعتقال المفوض الفرنسي رئيس الجمهورية وصحبه في قلعة راشيا عام ١٩٤٣

قُمْ نُقَبِّلْ ثغرَ الجِهادِ وجيدَهْ أَشرقَ الكونُ يَومَ جَدَّدَ عيدَهْ

والقصيدة قيلت في ذكرى حبس الرئيس وهو الحدث الذي أرهص باستقلال لبنان عن فرنسا

نحنُ والموتُ صاحِبانِ على الدهـ ـرِ حَشَدْنا أَرواحَنا وبُنُودَهْ

بنوده: راياته

نحنُ لا نَحْسَبُ الحياةَ حَياةً أَوْ نُفَدِّي أَوطانَنا المَعْبُودَةْ

قُلْ لِمَنْ حَدَّدَ القُيودَ: رُوَيْداً يَعرِفُ الحَقُّ أنْ يَفُكَّ قُيودَهْ

حدد القيود: جعلها من حديد

لن نَراها، إنْ لم نَمُتْ في هَواها، أُمَّةً حُرَّةً ودُنيا جَديدَةْ

٣٨ ظلم في التشارين الماضية

في ذكرى الاستقلال في تشرين الثاني ١٩٤٣

نَصَحْتُهُ بعدَ طُولِ الغَيِّ فانتَصَحا ونَهْنَهَ العَذْلُ مِنْ سُكْرِ الهوى فَصَحا

نهنه: خفَّف

قَلْبٌ تَمَرَّسَ بِاللَّذّاتِ وَهْوَ فَتىً كَبُرْعُمٍ لَمَسَتْهُ الريحُ فانْفَتَحا

يَبْكي ويَضحَكُ لا حُزناً ولا فَرحاً كَعاشِقٍ خَطَّ سَطراً في الهَوى ومَحا

مَا لِلأَقَاحِيَّةِ السَّمْرَاءِ قد صَرَفَتْ عنَّا هَواها، أَرَقُّ الحُسْنِ ما سَمَحا

أقحوانة شاعرنا سمراء.. على عكس الطبيعة، ولتكن من أي لون ما دامت قد صرفت عنه نظرها.. عموماً: أرق الحسن ما سمح، على عكس ما قال الشعراء في طول تاريخ الشعر العربي وعرضه. لا بأس، هي مقدمة غزلية لقصيدة وطنية

تِشْرينُ، قُلْ لِلتَّشارِينِ التي سَلَفَتْ لنا عِتابٌ، ولا نَرضاهُ إنْ جَرَحا..

يا شهر تشرين الثاني، شهر المناسبة الوطنية، قل للتشارين التي مضت في سالف الدهر إن لنا عتاباً ولا نرضى أن يكون جارحاً..

أَسمَى وأَكرَمُ عَفْوٍ أنتَ مَانِحُهُ عَفْوُ الذَّبيحِ عنِ السيفِ الذي ذَبَحا..

يطلب العفو من شهر المناسبة، وخير العفو عفو الذبيح عن سيف ذبحه..

ما ضَرَّنيِ، ولِسانُ الشِّعرِ يهتِفُ بيِ إذا تَبَسَّمَ وجهُ الدَّهرِ أو كَلَحا

ولا يهمني، وقد هتف بي هاتف الشعر ونزل علي وحيه، أكان الدهر ابتسم أم كلح، أي كشر.. لا شيء يهمني وأريد أن أقول الحق..

لكنَّهُ وَطَنٌ فَدَّيْتُ مهجَتَه بِمهجَتيِ، نَبَذَ الأحرارَ واطَّرَحا

الوطن قد طرح الأحرار جانباً ونبذهم

سَلِ البِحارَ، وقد ضاقَتْ بِفِتْيَتِهِ مِنْ كُلِّ مَنْ لم يُطِقْ كَدْحاً ومَنْ كَدَحا

اللبنانيون هاجروا وملأوا البحار سواء منهم من كان يطيق العمل الشاق أم من لا يطيقه

شَطْرانِ قَلبيَ، شَطْرٌ لِلمُقيمِ بِهِ على الوَفاءِ، وشَطْرٌ للَّذي نَزَحا

٣٩ مدح الملك عبد العزيز آل سعود

عبدَ العزيزِ! أصابَ العُربُ بُغْيَتَهُمْ لَمَّا طَلَعْتَ عليْهِمْ أنتَ والأَمَلُ

عبدَ العزيزِ! وما أَوْمَتْ أَكُفُّهُمُ إلَّا إليكَ، إذا قالوا: مَنِ الرَّجُلُ؟

٤٠ المصير

لَستَ تَدريِ، ولا أَنا مِنكَ أَدْرَى فَعلامَ الخِصامُ؟ فَالسِّلْمُ أَحرَى

يخاطب صاحباً: كلانا لا يدرى سر هذا الكون، فعلام الاختلاف والخصام

أَجْهَلُ الناسِ مُدَّعٍ يَحْسَبُ العِلْـ ـمَ كِتاباً، ويَحْسَبُ الفَنَّ سَطْرا

وَيْحَ هذي العُقولِ لَمْ تُصِبِ الرَّمْـ ـيَةَ يوماً إلَّا لِتُخْطِئَ عَشْرا

دونَ ما تَبْتَغيهِ، مِنْ كُنْهِ هذا الـ ـكَونِ سِرٌّ فيهِ الجَوابُ اسْتَقَرَّا

الجواب بشأن كنه الكون، حقيقته، موجود داخل سر

سَمِّهِ الضَّفَّةَ التي يَعْبُرُ الأَحْـ ـياءُ منها، أو سَمِّ ذلكَ جِسْرا

ليكن هذا العالم ضفة نعبر منها إلى ضفة الآخرة، أو ليكن جسراً

سَمِّهِ المَصْنَعَ الذي يَفْعَلُ التَّحْـ ـليلُ في جَوْفِهِ عجائِبَ كُبرى

يِتَلَقَّى الأجسامَ وَهْيَ جَمادٌ ثمَّ يُعطيكَها حَياةً وفِكرا

سَمِّهِ الهَازِئَ العَظيمَ إذا را قَكَ، أو سَمِّهِ، إذا شِئْتَ، قَبْرا

أو ليكن اسم الكون الهازئ العظيم الذي يهزأ بالبشر، أو ليكن اسمه قبراً.. فهو بهذا الاسم النهاية التي ليس بعدها بعث

٤١ منتهى الذل

إذا ما ضَربْتَ الكلبَ يَعوي، ورُبَّما تَقَحَّمَ مُؤْذِيهِ وعَضَّ بِنابِهِ

تقحم: هاجم

وفي الشَّرقِ ناسٌ لو سَحَقْتَ رؤُوسَهُمْ لَمَا نَبَسُوا فَلْيَخْجَلُوا مِنْ كِلابِهِ

بشارة الخوري (الأخطل الصغير)
فهرس القوافي

رشيد سليم الخوري
(الشاعر القَرَويّ)
(١٨٨٧ ـ ١٩٨٤)

قرأت أشعار رشيد سليم الخوري (الشاعر القَرَويّ) واخترت لك أطايبها. وشرحت بعض الألفاظ والمعاني.

القروي أكثر المهجريين محافظة على سلامة اللغة وروح الشعر العربي العمودي. وفي هذه المقدمة المفككة بعض ما قد تَطلُبُ معرفتَه من معلومات عن هذا الشاعر، وعن طريقة ترتيبي لهذه الباقة من شعره. وباقتي ليست أزهاراً منتقاة كيفما اتفق: هي أجمل ما في الحقل من أزهار. نعم، نخلت الديوان نخلاً، ومخضته مخضاً، ولم أغادر فيه بيتاً رائعاً إلا ضممته إلى هذه الباقة التي أقدمها إليك.

وصف طبعة الديوان التي منها أخذت

جمع الديوان وبوبه وقدَّم له «مكتب التدقيق اللغوي»، منشورات جروس برس/ طرابلس لبنان، ١٩٩٢.

الديوان في هذه الطبعة ينقل عن الطبعة السادسة من ديوان القروي التي صدرت بإشرافه قبل وفاته بعام. ثم زيد في هذه الطبعة الكثير من أوراقه الخاصة.

الطبعة مضبوطة ضبطاً ممتازاً. وفيها مقدمات بقلم الشاعر والمحقق تستغرق خمسين صفحة. وهي مرتبة على أحرف الهجاء خلافاً للطبعة السادسة المرتبة على أبواب ثمانية.

وفهرسها قليل الفائدة لأنه مرتب على الروي أيضاً. ولا ندري لم لا يفطن الناشرون إلى أنَّ فهرسهم هو مجرد تكرار لـمتن الكتاب. نفتح ديوان الشعر فنراه مرتباً على القوافي: الهمزيات ثم البائيات ثم التائيات إلى آخر قصائد الديوان. ثم يأتي الفهرس علة على القلب: يأتي وهو يفهرس لك القصائد بحسب ترتيبها في صفحات الديوان. فما نفع فهرس كهذا؟ هلا فهرستم على المعاني والأغراض؟ هلا صنعتم فهرساً تاريخياً يرتب القصائد بحسب تسلسلها الزمني؟ هلا استغنيتم عن الفهرس ووفرتم بضع صفحات؟

على أن ديوان القروي الذي اعتمدناه يتميز بأن مناسبات القصائد وملابساتها مكتوبة بقلـم القروي، حتى وإن ساقها أحياناً بضمير الغائب. وهذا ثمين. والرجل ناثر ذو قلـم جميل.

توفي الشاعر القروي في ٢٧ آب/أغسطس ١٩٨٤.

معلومات من مقدمة القروي لديوان من دواوينه، وكتبها عام ١٩٥٢

ولد في ٥/٤/١٨٨٧. أمه تقلا بنت أسعد بشارة الرحباني. وأبوه سليم بن طنوس الخوري. نزح جده من الشوير إلى البربارة، واشتغلت العائلة بالحدادة. أبوه درس في الكلية السورية الإنجيلية (الجامعة الأميركية اليوم) ومارس التعليم، ثم تجارة التبغ والحرير فأصاب ثروة معتدلة. وخَلَفَ جدَّه على مشيخة القرية، وكان له بعض النظم والنثر.

قيصر (الشاعر المدني) أخوه، ويصغره بأربع سنوات ونصف. وهاجر إلى صنبول (وهكذا يسمي القروي ساو باولو في البرازيل) وفتح محلاً. فكتوريا، هاجرت إلى الولايات المتحدة. فيليب: تغرب أيضاً. فؤاد: خطاط، مات إبان الحرب العالمية الأولى. أديب: هاجر إلى البرازيل. ونديم، ودعد.

رشيد سليم الخوري (الشاعر القروي) بِكْر أبويه.

تعلـم في مدارس القرية. كان ذا صوت جهير جميل. أنهى «الاستعدادية» في الكلية السورية الإنجيلية ببيروت. وعلَّم سبع سنوات. وتنقل في التعليم كثيراً سعياً وراء «أفضل الشروط».

طوله ١٧٨. ووزنه ٦٧ كيلو. لـم يدخن قط. وكان قليل احتساء الخمر. شرِهٌ إلى البرتقال، وسائر الفاكهة. أنيق؛ لبس الجوخة الإنجليزية حتى وعد

بلفور، ثم قاطعها. يغني ويعزف على العود، ويلحن. يطالع الأخبار العلمية. وقرأ كثيراً من القِصص الروسية مترجمة إلى العربية.

عرف كلمات إنجليزية قليلة، وكلمات برتغالية أقل (رغم العقود التي عاشها في البرازيل الناطقة بالبرتغالية). ولم يكمل قط مطالعة كتاب غير عربي. ويغترف من العربية اغترافاً.

أحب وبكى كثيراً، وأُحِب وأبكى أكثر، هكذا يزعم. ولم يكن مستهتراً. وكثيراً ما انتقل من مكان إقامته في سبيل خنق حب في مهده، إشفاقاً على صاحبته وعلى نفسه. كذا زعم.

وكان عشقه يتجدد في كل سنة دراسية، ومع كل انتقال. وابتُلي بالمعاصي كسائر الشباب. واستتر ما وسعه الاستتار. ولم يُخِلَّ في غرامياته بالآداب العامة. لم يتزوج قط.

توفي أبوه سنة ١٩١٠. وهاجر هو في سنة ١٩١٣ إلى البرازيل، إلى مدينة مريانا. ولبث عند عمه سنة، ثم حمل الكشة (صندوق من الزنك يملأونه بمختلف السلع، أو بسطات من الأقمشة يشدونها رزماً ويعلقونها بأكتافهم بسيور جلدية ويجولون بها في القرى) وانطلق. ثم ذهب إلى ريو دي جانيرو. وصار يعلم العزف على العود ارتزاقاً. وعلم سنةً في مدرسة جمعية «زهرة الإحسان» في الريو، ثم انتقل إلى صنبول (ساو باولو) عام ١٩١٥، وعلم في مدارس عربية وأجنبية، وفي البيوت. وتجول في الولايات البرازيلية معتمَداً لبعض المحلات التجارية.

أصبح شاعر صنبول. وتولى رئاسة تحرير جريدة «الرابطة» ثلاث سنوات عقيب وفاة الرئيس الأول خليل سعادة سنة ١٩٣٤.

هاجرت أمه وإخوته إلى البرازيل في سنة ١٩٢٤، مما قلب موازينه المالية.

فتح مصنعاً لربطات العنق، ثم باعه بعد ثلاث سنوات.

عرف معلومات أكثر عن الإسلام عام ١٩٢٧ من كتاب نظيرة زين الدين «الحجاب والسفور»، وكان شاكراً لها.

لقب نفسه الشاعر القروي عقب مقال لصحفي في المهجر قال فيه مستخِفّاً: (من هو هذا القروي؟ شاعر جرن الكبَّة؟)

معلومات أخرى عن الشاعر

ولد في الثقافة العربية، وعرف عن قرب الأجانب الذين فتحوا المدارس في بلاد الشرق، فقد كان معلماً بضع سنوات. وكره سعيهم لصبغ ثقافة البلاد بصبغة غربية، وكانت له معهم مناوشات. وظل، إلى النهاية، عروبياً يكره الغرب.

قال القروي ـ فيما نقله جورج طراد في كتابه (الشاعر القروي: آخر الأوراق) ـ: «يكهربني الجمال، وأضحك للنكتة البكر ضحكة ذات جلاجل وأجراس». هذه روح شاعر يحب القفشة البلاغية.

هاجمه ميخائيل نعيمة في كتابه النقدي «الغربال» في العشرينات، واستمرت العداوة بينهما حتى النهاية. وانتهيا معاً، فهما لدتان تقريباً والقروي أسنُّ بسنتين. القروي عاش سبعاً وتسعين، ونعيمة عاش تسعاً وتسعين.

ويصف جورج طراد في كتابه الممتاز عن الشاعر القروي قصصاً عن محاولات جرت لإصلاح ما بين الشيخين نعيمة والقروي، وكيف أخفقت كلها، ومات كل منهما عن عمر يقارب القرن ولما تمُتِ العداوة القديمة. وقد التقيت المؤلف في بيروت واستضفته في برنامج سأحكي لكم عنه بعد فقرات قلائل، وميزة كتابه أن المؤلف التقى بالقروي كثيراً وكان زائراً دائماً في بيته بقريته البربارة أو في بيت ابنة خالته ببيروت، واطلع على كثير من أوراقه ونشر بعضها مصوراً في كتابه.

رجع القروي إلى بلاده في عام ١٩٥٨. وأيد جمال عبد الناصر بقوة، ذلك أيام الوحدة بين مصر وسورية. وظل يقبض مرتباً من الحكومة السورية زمناً. ثم عاش في قريته البربارة بلبنان حتى مات. وككل من هاجروا قبل تقسيم البلاد على يد المستعمر الأوروبي، لم يستطع القروي أن يفهم أبداً أن لبنان بلد وسورية بلد آخر. ظل يرى البلدين بلداً واحداً مثلما كان الأمر قبل هجرته.

كلام عن شعره

القروي فحل، وشعره جزل. لغته سليمة، وساعَده اشتغاله بالتعليم. هو ذو بصر باللغة، وذو اطلاع على شعر القدماء. يبز القرويُّ في هذا كله رفيقه فرحات. ولكنه يشبه زميل مهجره فرحات في شغفه بالمعاني الغريبة، وفي أنه نشأ على حب الزجل، الشعر العامي اللبناني، القريب من شعر الفصحى في

عهوده المتأخرة من حيث وفرة ما فيه من نكت بلاغية ومعان مصنوعة.

يحب القروي أن يقص قصة في قصيدته، مثل إيليا أبو ماضي.

والقروي متأنق يشذب شعره، ولا كذلك فرحات. والقروي يمعن في اقتناص المعاني، يعرض له المعنى فيُريغه إلى أن يتفق له وضعه في صورة حسنة.

قد فرقت كلامي عن شعر القروي في أثناء شرحي للأبيات. وهو شعر سهل على جزالته، ولا يحتاج إلى كثير شرح. وأخاف إن أنا وضعت مقالاً ضافياً في المقدمة عن صفات شعر القروي أن يقرأ كلامي شاب ناشئ من محبي الأدب فيأخذ منه عبارات يضمنها بحثاً مدرسياً. وهذا سخف. أنصحه أن يقرأ شعر الرجل ويحس به.

لم أشرح كثيراً. ربما لأنني مللت شرح الشعر.

طبعت بعض الأبيات بخط مشدد حتى يجدها القارئ بسهولة، وحتى يتلمظ بها. هذه الأبيات المسوَّدة تسويداً تصلح للمذاكرة. وفيها إيجاز، أو طرافة، أو قوة، أو كل ذلك معاً. إنها فرائد الأبيات. وقد تجد قصيدة عامرة رائعة وليس بها بيت مشدد، ذلك لأن القصيدة جميلة بمجموعها، وفيها تماسك يمنع نزع بيت منها.

أكتبُ لك عن القروي بعد أن أضجرني التدقيق الكثير.

قد رتبت أبياته ترتيباً زمنياً بقدر ما أسعفتني المصادر. ولكنني لا أزعم الدقة في هذا الأمر. وعلى الدارس المحقق، إن أراد ترتيب ديوان القروي، أن يرجع إلى الدواوين في طبعاتها المختلفة، ولا سيما الأصلية، وإلى الجرائد.

وبالله عليكم! لماذا تشغلون أنفسكم في الجامعات بأشعار القدماء، وتلفِّقون رسائل دكتوراة لا ترقى في قيمتها العلمية إلى أخمص ما صنعه المستشرقون، عجزاً منكم وجهلاً وقلة فهم، وكسلاً؛ وتتركون أشعاراً أنتم أقدر على فهمها. أتنتظرون أن تصبح عتيقة، وأن تضيع مصادرها حتى تنهضوا لتحقيقها؟ الآن، اذهبوا واجمعوا شعر القروي من مصادره الأصلية في البرازيل وسورية ولبنان. وحققوه كاملاً وفهرسوه فهرسة علمية منظمة. وادرسوه إن شئتم، وإن كنت لا أثق بأي درس أو تعمق منكم أيها المتنطِّحون إلى حرف الدال. هذا بعيد عنكم. لتفهرسوا الأشياء ولتطبعوا الشعر طباعة سليمة،

ولتدققوا في تشكيله ومعانيه. وهذا شيء غير قليل. ولا أقول إن هذا قصاراكم، بل هذا ما لن تبلغوه إلا أن تُساطوا، إنه قصارى قصاراكم.

مجموعتي هذه من أشعار رشيد سليم الخوري (الشاعر القروي) هي مختارات وحسب. وقد سميْتُ كل قصيدة أو قطعة باسم من عندي. ولم أقعد رقيباً على الرجل. قد أُحِبُّ بعض آرائه وأكره بعضها. لكنني اخترت ما أعجبني بما هو شعر.

كنت أكتشفُ في التدقيق بعد التدقيق على نسختي هذه أغلاطاً وأوهاماً فأصلحها. ولا أزعم أنني نزهت المجموعة عن كل غلط ووهم. لكنني بذلت وسعي. وبذل وسعه معي الشاعر عمران القفيني، فقد أصلح لي أغلاط هذا الفصل، وكل فصل من فصول هذا الكتاب، متفضلاً عليَّ مطوقاً عنقي بجميله.

كلمة أخيرة

مضت على الأسطر السابقة في هذه المقدمة ثماني سنوات. فقد كنت فرغت من اختيار وشرح الشاعر القروي باكراً. وفي هذه السنوات الثماني حدثت في بلاد العرب ثورات وحروب أهلية، ولما كان «القروي» شاعر «القومية العربية» فإنني سأعيد قراءة ما قلته عنه وعن شعره في ذيول الأبيات، وقد يكون لي تعليق من وحي الأحداث، وقد لا يكون. وحدث في هذه السنوات، وقبل أن تنفجر المنطقة العربية بقليل، أن قصدتُ لبنان كي أصنع فلماً وثائقياً عن حال اللغة العربية في ذلك البلد. وصنعته. وسميته «عظام العربية في لبنان»، وهو ككل شيء في هذه الدنيا موجود على اليوتيوب، إلَّا أن ينفجر اليوتيوب فيما بين يومي هذا الذي أكتب فيه هذا الذيل على المقدمة، وهو تاسع أبريل/نيسان ٢٠١٧، وبين خروج الكتاب من بين تروس المطبعة إن كان سيقيض له أن يخرج.

سقت فريق التصوير إلى البربارة قرية الشاعر القروي، وبحثنا سويعة عن بيته. فوجدناه خالياً عليه سيماء الهجر. فجسنا في الحديقة المهجورة بين الأعشاب والأشواك. وهناك بين أشجار السرو وجدنا قبر القروي. فصورناه. ولكن، أين الصليب والهلال اللذين أوصى شاعرنا أن يوضعا على القبر؟ بعد طول البحث وجدنا قائماً من حديد صدئ في رأسه صليب يحتضنه هلال، وجدناه مخفياً وراء جدار، فصورناه.

وكان القروي أوصى أن تتلى على قبره الفاتحة والصلاة الربانية. فصاحبنا قال إنه عاش مسيحياً أرثوذكسياً ويموت مسيحياً أرثوذكسياً، لكن الإسلام كان متغلغلاً في ضميره من باب العروبة. وكنت قرأت أن الخوري رفض يوم الدفن أن يقرأ الصلاة الربانية على جثمان القروي. فتصديت للأمر، وقرأت منها على قبره ما أحفظ: أبانا الذي في السموات، ليتقدس اسمك، أعطنا خبزنا كفاف يومنا، لأن لك الملك والقدرة والمجد إلى أبد الدهور، آمين. وأردفت بالفاتحة.. مجرد احتياط، فقد يكون الشيخ رفض قراءتها أيضاً.

شاعرنا القروي شاعر غضوب. يحب الغزل ويسيل رقة، ثم يغضب غضبة مضرية في مسائل السياسة.

١ الدستور

كفى! يَكفي! لقدْ طَفَحَ الإناءُ   وضجَّ لهذهِ الفوضى الفضاءُ

أتى في عصرِهِ الدستورُ، لكنْ   كما طَلَعَتْ على الأعمى ذُكاءُ

ذُكاء: الشمس (الدستور العثماني صدر عام ١٩٠٨، وقَيَّد السلطان عبد الحميد)

فسادٌ في الدَّوائرِ، واختلالٌ   وظُلم في المحاكمِ، والْتِواءُ

٢ بلاد فوق الماء

قال الشاعر القروي بمناسبة غرق التَيتانك (وغرقت سنة ١٩١٢):

جالا بمُعتَرَكِ الصِّدامِ، فلم يُطِقْ   جَبَلُ الحديدِ مَعَ الجليدِ جِلادَا

جلاداً: عراكاً

فَهَوىَ إلى الأعماقِ يَلْبَسُ لُجَّهَا   كَفَناً، ويَفْتَرِشُ القَرارَ وِسَادَا

ضاقَتْ بلادُ الإنجليزِ بأهلِها   فَبَنَوْا لهمْ فوقَ البحارِ بِلادَا

٣ شيْبة

قال الشاعر القروي، وكان يقيم في بلدة «سوق الغرب» سنة ١٩١٣:

تَبدَّتْ، وميعادُ المشيبِ بَعيدُ   وجيشُ أَمانيِّ الشبابِ عَدِيدُ

ظهرت الشعرة البيضاء مبكرة، وما زال الشباب في عنفوانه وأماني الشباب جيش كبير

ولا عَجَبٌ أنْ وَلَّدَ الفحمُ ماسةً   بِرَأسِي، وضغطُ الحادثاتِ شديدُ

تشبيه مبتكر، ومصنوع بحذق

يلوحُ خلالَ الشَّعْرِ نُورُ بَياضِها   كما لاحَ في ليلِ الخطوبِ رشيدُ

وهذه الشعرة البيضاء تبدو بين أخواتها السود كما يبدو منيراً الشخص الرشيد (العاقل) وسط ليل الخطوب (سواد المصائب)، ورشيد اسم الشاعر

تجلَّتْ على عرشِ الشبابِ كَسَيِّدٍ   حوالَيْهِ مِنْ سُودِ الشُّعُورِ عبيدُ

الشعور: الشعرات

يخاطِبُنَا مِنْ قمةِ الرأسِ قائلاً:   ألا فاعلموا أنَّ الرَّشادَ يَسودُ

الشعرة البيضاء التي هي كالسيد تقول: الشيب وما يرمز إليه من رصانة سوف يسود

هِيَ الشَّعَرَاتُ البيضُ مِنْ دولةِ الهُدَى   مَنَادِيبُ، تَدْعُو للهُدَى، ووُفُودُ

مناديب: جمع مندوب، فالشعرات البيض موفدة من دولة الهدى (العقل) لتدعو الشاب إلى ترك الحماقات

لَهُنَّ اشتعالٌ في النَّوَاصِي كَألْسُنٍ   مِنَ النارِ، لَكِنْ ما لَهُنَّ خُمودُ

النواصي: جوانب الرأس

سأتْرُكُها تُعْدِي به أَخَواتِهَا   على مَهَلٍ، فالنَّزْعُ ليسَ يُفِيدُ

وفي نَزْعِها أغْدُو كقَاضِبِ كَرْمَةٍ   يُشَذِّبُ مِنْ أغصانِهَا، فَتَزِيدُ

قاضب الكرمة: الشخص الذي يشذب أغصان شجرة العنب لتنمو وتشتد

٤ دُمَّل الروح

قال الشاعر القروي على ضريح والد صديقه شكري زيدان الدمشقي:

أيها اللابسُ الجديدَ هَنِيئاً   ما تُلاقي مِنْ راحةٍ وحُبُورِ

قدْ يُمَلُّ الملبوسُ عاماً فَعَاماً   ولئنْ كانَ مِنْ نَفِيسِ الحريرِ

إنما الجسمُ دُمَّلُ الروحِ، يَسْتَأْ   صِلُهُ الموتُ عندَ بابِ الحَفِيرِ

٥ غزوة فَرَزْدَقية

لَبِسْتُ إلى العذراءِ جُبَّةَ راهبٍ   مِنَ الليلِ لم تَعْلَقْ بِها كفُّ ناسِجِ

جعل الليل ستاره، فالليل جبة لم ينسجها ناسج

وبتُّ حِيَالَ القصرِ أرْعَى إشارةً بأبْيَضَ: يعني جِئْ، وأحمرَ: لا تَجي

حيال: قربَ، أرعى: أراقب

تُطَوِّقُني أغصانُ دَوْحٍ، كأنَّها مَعاصِمُ مِنْ نُوَّارِها في دَمالِجِ

دوحٌ: شجرٌ ملتفٌ، الأغصان كأنها الأيدي، ونوّارها (زهرها) كالدمالج (الأساور)

إذا داعبَتْها الريحُ مادَتْ، فَخِلْتُني أُطِلُّ على غُمْدَانَ بينَ الهَوَادِجِ

تمايل الغصون فأحسب نفسي أطل على قصر غُمدان (قصر سيف بن ذي يزن) من بين الهوادج المتمايلة فوق الجمال

وما زِلْتُ، حتى اخْدَعْشَرَ الليلُ، أتَّقي بِأَفيائِها رَيْبَ العيونِ الحَوَادِجِ

اخْدعشَرَ الليل: صارت الساعة ١١؛ ظللت حتى الحادية عشرة أستتر بأفياء (ظلال) الغصون من خطر العيون الحوادج (المحدِّقة)

فلما أُزيحَ السِّجْفُ أَوْرَقَ طالِعي وأزهَرَ في مِنْديلِها المتَماوِجِ

السجف: الستر، أورق طالعي: ابتسم لي الحظ

وراحَ فؤادي واثباً في أضالِعي كَوَثبيَ في أعطافِ تلكَ المدَارِجِ

فؤادي يثب بين ضلوعي، مثل وثبي أنا فوق درجات القصر متوجهاً إلى الحبيبة

وقعتُ عليْها، وَهْيَ في رِعْدَةِ الهوى فلاذَتْ بِصَدْري، تَصْطَلي بِلَواعِجي

وقعت عليها (لقيتها) وهي في رعدة الهوى (ارتجافة اللقاء الغرامي) فلاذت بصدري (التجأت لصدري)، تتدفأ بلواعجي (حُرَقي)

ورُحْتُ بِرَوْضِ النَّهْدِ والخدِّ عابِثاً أُنَقِّلُ كفِّي بينَ فجٍّ وناضِجِ

وعينُ الهوى، تحتَ الظلامِ، بَصيرةٌ بِمَا عنهُ تَعْمَى تحتَ نورِ المَسَارِجِ

المسارج: المصابيح

وكَمْ فازَ في دُنيا الهوى عُدْمُ شاعرٍ بِمَا عَجَزَتْ عنهُ كنوزُ المهارِجِ

عدم الشاعر (فقره) كثيراً ما فاز في الحب بأمور تعجز عن تحقيقها كنوز المهارج (جمع مهراجا: وهو الأمير عند الهنود)

فقالتْ، وقد أحرجْتُها بِدُعَابتي: لكَ اللَّهُ، فانهجْ غيرَ هذي المنَاهِجِ

فقلتُ: ذَريني، أنتَهِبْ فرصةَ الهوى وأقضِ مِنَ العمرِ القصيرِ حَوائِجي

بِصَدري كنوزٌ للغرامِ خَبيئةٌ وهذا الذي شاهدتِ بعضُ نَماذَجي

فَتَنْتُ الغواني قبلما طَرَّ شارِبِي فَدائِيَ داءٌ مزمنٌ، لا تُعالِجي

طَرَّ شاربي: طلع

فما أنا مِمَّنْ يعشقُ الحبَّ ساذَجاً وإنْ كنتُ مُغْرَىً بالعَذَارى السَّواذِجِ

مغرى: مولع، السواذج: الساذجات. هذه القصيدة جواب لمن قال إن الشعر المهجري ليس فيه مجون. واختار القروي الجيم، والجزالة ترافق قافية الجيم كظلها، عندما يصبح لها ظل؛ وبإيجاز وقوة عبارة وتحليق خيال جاء بقصيدة بديعة. ومن كان قرأ رائية الفرزدق الذي تدلَّى فيها ليزني سيعرف أن القروي ضارعه وعارضه أحلى معارضة بقصيدةٍ بُرهانٍ على أن بعض الشعر العربي الذي انبعث في النصف الأول من القرن العشرين وقف جزلاً شامخاً مكاتِفاً الشعرَ القديم (تجد قصيدة الفرزدق في كتابنا «أول الشعر» في فصل الفرزدق، القصيدة رقم ٣٤)

٦ ممالك ظمأى للدماء

قال الشاعر القروي ونظمها سنة ١٩١٣ وكان يعلِّم في مدرسة سوق الغرب الأميركية. وامتنعت بعض الصحف عن نشرها، فنشرها في البرازيل عندما هاجر إليها في السنة نفسها:

تَفِرُّ مِنَ الموتِ النفوسُ جَوَازِعَاً مَحَيَّرَةً، فالنَّفْسُ بالنَّفْسِ تَعْثُرُ

فَمِنْ مُلْتَقَى الأجسادِ في الأرضِ مَحْشَرٌ ومِنْ مُلْتَقَى الأرواحِ في الجَوِّ مَحْشَرُ

مَمَالِكُ ظَمْأَى لِلدِّمَاءِ، ودوْلَةٌ لها مِنْ شَكَاوَى العَجْزِ سَيْفٌ ومِغْفَرُ

المغفر: زرد من حديد لحماية رقبة المحارب.. والدولة الضعيفة: الدولة العثمانية

بَكَتْ واشْتَكَتْ، كالطِّفْلِ يؤْلِمُ نفْسَهُ فكانَ البَلا مِنْهَا، ومِنْهَا التَّذَمُّرُ

ولو ذَكَرَتْ عبدَ الحميدِ لأَدْرَكَتْ مَثَارَ الشَّقَا، لو يُسْتَطاعُ التَّذَكُّرُ

مثار الشقا: أصل الشقاء. وكان عبد الحميد قد عزل عن السلطنة في عام ١٩٠٩. وكان عهده شديداً ومخابراته مخيفة. ولكن العهد الذي تلاه كان يكره العرب ويكرهونه

يكادَ يَفِرُّ الطِّرْسُ ذُعْراً لِذِكْرِهِ ويُحْجِمُ في الكَفِّ اليَرَاعُ المُسَطِّرُ

اليراع: القلم، الطرس: الورقة

إذا لاحَ، لاحَ الموتُ فيهِ مُجَسَّمَاً وإنْ غابَ يَسْتَدنِي أَذَاهُ التَّصَوُّرُ

يستدني: يُدني

فَيَبْلُغُ مِنْ أجسامِنَا، وهْوَ ظَاهِرٌ ويَبْلُغُ مِنْ أرواحِنَا، وهَوَ مُضْمَرُ

زَمَانٌ مُنَاجَاةُ الضَّمِيرِ شَجَاعَةٌ بِهِ، ومُنَاجَاةُ السَّمِيرِ تَهَوُّرُ

لَدُنْ كانَ مَوْتُ الناسِ حَتْفَ أُنوفِهِمْ   يُعَدُّ عَلَيْهِمْ نِعْمَةً لَيْسَ تُكْفَرُ

لدن (عندما) كان موت الناس حتف أنوفهم (في أَسِرَّتهم) يُعَدُّ نعمة لا تجحد. قصيدة مبكرة للشاعر قبل أن يغترب، وفيها برهان على فصاحة رشيد سليم الخوري «الشاعر القروي».. شاب في السادسة والعشرين ويملك هذه الجزالة!

٧ سفر نهايته سفر

قال القروي في مدينة مريانا بالبرازيل ١٩١٣:

سَفَرٌ نِهايَتُهُ سَفَرْ   مِثْلُ النَّسيمِ بِلا مَقَرّ

ضَجِرَ السُّرَى والسَّيْرُ مِنِّـ   ـي والبَواخِرُ والقُطُرْ

السرى: سير الليل، القطر: القطارات

حَتَّامَ أبقَى دائِراً   حولَ البَسِيطةِ كالقَمَرْ

أصطادُ أطيارَ السعا   دةِ وَهْيَ مِنْ وجهي تَفِرّ

عَبَثاً تدومُ سعادةٌ   إنْ لم يساعدْكَ القَدَرْ

أيُّوبُ سَلِّمْ صولَجا   نَكَ، لستَ أعظَمَ مَنْ صَبَرْ

لو ذُقْتَ يوماً ما أذو   قُ، لَكُنْتَ أوَّلَ مَنْ كَفَرْ

٨ الشاربان

قال في مدينة مريانا بالبرازيل سنة ١٩١٣:

قَالُوا حَلَقْتَ الشَّارِبَيْـ   ـنِ، وَيَا ضَيَاعَ الشَّارِبَيْنِ

فَأَجَبْتُهُمْ: بَلْ بِئْسَ ذَا   نِ، ولا رَأَتْ عَيْنَايَ ذَيْنِ

الشَّاغِلَيْنِ المزْعِجَيْـ   ـنِ الطَّالِعَيْنِ النَّازِلَيْنِ

وَيْلِي إذا مَا أَرْهَفَا   ذَنَبَيْهِمَا، كَالعَقْرَبَيْنِ

إنْ يَنْزِلا لَجَمَا فَمِي،   أَوْ يَصْعَدَا الْتَطَما بِعَيْنِي

وإذا هُما بُسِطَ الخِوَا   نُ، تَراهُمَا بَسَطَا اليَدَيْنِ

الخوان: المائدة

فَإذَا أردْتُ الشُّرْبَ يَمْـ   ـتَصَّانِ كَالإِسْفَنْجَتَيْنِ

فَكَأَنَّنِي بِهِمَا وَقَدْ   وَقَفَا بِبابِ المِنْخَرَيْنِ

عَـبْـدانِ مِـنْ أَشْـقَـى الـعـبـيــ ـدِ تَـقَـاضَـيَـا مَـلِـكَـاً بِـدَيْـنِ

٩ الكاسر والمكسور

قال في الريو دي جانيرو بالبرازيل ١٩١٤ :

العصفور :

يا باشِقُ ارْحَمْني، ورِقَّ لِحَالَتي دَعْـنـي لأفْـراخي الـصغـارِ أَطِـيـرُ

الباشق: طير كاسر كالصقر

ما في حياتِي للسِّوَى ضَرَرٌ، ولا ظُـلـمٌ، ويَـكْـفـي أنَّـنـي عُـصْـفـورُ

للسوى: للآخرين

فامْنُنْ عَلَيَّ بِعَفْوِكَ السَّامي، ولا تَسْلُبْ حياتي، فالكَبيرُ غَفُورُ

الباشق :

خلِّ البكاءَ، فليسَ دمعُكَ مُرْوِياً جَوْفي، ونَارُ الجوعِ فيهِ سَعِيرُ

أَنَـا إنْ رَثَـيْـتُ لأَنَّـةٍ، أو زَفْـرَةٍ أَيَـسُـدُّ جُـوعـي أَنَّـةٌ وزَفِـيـرُ؟

لو لم يَكُنْ بعضُ الطيورِ فَرَائِسَاً أَنَّـى تَـعِـيـشُ بَـوَاشِـقٌ ونُـسُـورُ

أنتَ الكبيرُ على البَعُوضِ لِضَعْفِهِ وأَنـا عـلـى هَـذا الـكـبـيـرِ كـبـيـرُ

فاصْبِرْ على حُكْمِ القَضاءِ، فإنَّما كأسُ القَضَاءِ على الجَمِيعِ تَدُورُ

الإنسان :

شـاءَ الـقـديـرُ وحَـتَّـمَ الـمـقْـدُورُ يا بَاشِقُ احْكُمْ، وارْضَ يا عُصْفُورُ

تلكَ الطبيعةُ، مَنْ يُغَيِّرُ حُكْمَهَا؟ هيهاتَ! ليسَ لِحُكْمِها تَغْييرُ

الثَّوْرُ يَقْنَعُ بِالحَشِيشِ، وإنْ يَكُنْ طـولَ الـنَّـهـارِ عـلـيْـهِ جَـارَ الـنِّـيـرُ

النير: الخشبة توضع على رقبة ثور الحراثة

والنَّحْلُ مِنْ أَرْيِ الأَزَاهِرِ يَغْتَذي ويَـقُـوتُ أنـواعَ الـدَّوَابِ شَـعِـيـرُ

الأري: العسل

والوحشُ قد عَافَ النَّباتَ، ولم يَكُنْ أبـداً عـلـى غـيـرِ الـلُّـحـومِ يُـغِـيـرُ

فَلِكُلِّ مخلوقٍ طعامٌ واحِدٌ ... يُرْضِيهِ، مَعْ أنَّ الطَّعامَ كَثيرُ
أمَّا ابنُ آدَمَ فَهْوَ أَشْرَهُ كائِنٍ ... فوقَ الثَّرَى، وعلى الجميعِ يَجُورُ
فالمرءُ مُلْتَحِفٌ رِداءَ رِيائِهِ ... لا يَخْدَعَنَّكَ شَكْلُهُ المَنْظُورُ
مَهْمَا بَدَا حَمَلاً وَدِيعاً طاهِراً ... لا شَكَّ يَكْمُنُ ضِمْنَهُ خِنْزِيرُ

١٠ يسيء ويغضب

قال في الريو دي جانيرو بالبرازيل ١٩١٤:

تَعَجَّبْتُ مِنْ غَدَراتِ الصديقِ ... وأعجبُ مِنْ ذاكَ أنْ أَتَعَجَّبْ
وبعضُ القلوبِ كطقسِ البرازيـ ... ـلِ، في كلِّ ثانيةٍ يتقَلَّبْ
يسيءُ إليكَ، ويغضبُ منكَ ... وكمْ مِنْ صديقٍ يسيءُ ويغضَبْ

١١ في رعاية الله

قال في الريو دي جانيرو بالبرازيل ١٩١٤:

أنا في غُرْبةٍ عنِ الأهلِ، لكنْ ... عنكَ، يا رَبُّ، يَسْتَحيِلُ اغترابُ
أنا طِفْلٌ، وأنتَ تحرسُ مهدِي ... فَلْتُكَشِّرْ عنِ النُّيوبِ الذئابُ

١٢ اتعبْ تربحِ التعب

إذا اللصوصُ أضاعوا مِنْ مُروءَتِهِمْ ... ضِعْفَ الغنيمةِ، فالمَسلوبُ مَنْ سَلَبا

المسلوب: خبر مقدم. الشرح: اللص يفقد شرفه، وهو أهم مما يغنمه في السرقة، لذا فالذي يسلب هو في الواقع المسلوب

وقد تَعودُ لكَ الأموالُ إن ذهبتْ ... ولا يعودُ حميدُ الصيتِ إن ذهبا

حميد الصيت: الصيت الحميد، كقولك (جزيل الشكر) بمعنى (الشكر الجزيل)

في المالِ همٌّ، وفي تحصيلِهِ تعبٌ، ... فالمرءُ يتعبُ حتى يربَحَ التَّعبا

١٣ جرأة الحلمتين

جُرْأَةُ الحَلْمتينِ تحتَ الصِّدَارِ ... علمتْنا في الحبِّ خَلْعَ العِذَارِ

الصدار: الصدرية، خلع العذار: التهور

خَبِّئي هذهِ المفاتِنَ عنَّا ... إنَّمَا الصَّدْرُ مَخْبَأُ الأَسْرَارِ

كيف لا تطمعُ الأكُفُّ بِكَنْزٍ دافعٍ نَفْسَهُ إلى النُّظَّارِ؟

١٤ عاد الرشيد

قال حين خرج الحسين بن علي وأبناؤه على الدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولى:

عادَ الرَّشيدُ وعادَ باهِرُ عصرِهِ سبحانَ مَنْ بَعَثَ الحُسَيْنَ لِنَشرِهِ

نشره: بعثه من القبر

الليلُ خيطٌ مِنْ حِدَادِ مَغيبِهِ والصبحُ سهمٌ مِنْ أشِعَّةِ فَجْرِه
مَلِكٌ على الإسلامِ أبدَى غَيْرَةً قَرَّتْ بها عينُ الرسولِ بِقَبْرِه
نَصَرَ المروءةَ، فالمسيحُ وأحمدٌ يتبادلانِ التَّهنِئاتِ بِنَصْرِه

١٥ طوباك

قال في جولة تجارية له في البرازيل، والقطار يشق السهول الواسعة، وقد رأى الشاعر البقر في الحقول:

طُوباكِ سارِحةً في القَفْرِ، طوباكِ إن كنتُ أحسُدُ مخلوقاً فإيَّاكِ

طوباك: طوبى لك، أدعو لكِ بالسعادة

الزُّهرُ مثلُكِ، في الآفاقِ تنتشرُ تغشى مروجَ العُلى، والليلُ معتكِرُ

الزُّهر: النجوم، مروج العلى: سهول السماء، يتخيل سهولاً في السماء، معتكر: مظلم

تَاللَّهِ! كم يتمنَّى عَيْشَكِ البشرُ ماذا تخافينَ في البيداءِ يا بَقَرُ؟
إن كنتِ تخشَيْنَ مِنْ أنيابِ فَتَّاكِ طوباكِ، فالجِلْدُ غيرُ العِرضِ، طوباكِ

تمزيق المفترس الفتاك جلدَك أهون من تمزُّق العرض

* * *

طُوباكِ في الصيفِ، والرمضاءُ تتَّقدُ والحَرُّ منهُ يذوبُ الجِلْدُ، والجَلَدُ

الرمضاء: الحر الشديد، الجَلَد: الصبر

هذا اللهيبُ الذي يُشوى به الجسدُ أشدُّ منه على أكبادِنا الحَسَدُ
إن كان منهُ الذي سوَّاكِ نجَّاكِ طوباكِ في لفحةِ الرمضاءِ، طوباكِ

* * *

تشكِينَ فصلَ الشتاءِ البارِدِ القاسي ... ماذا أقولُ أنا في عِشْرةِ الناسِ
نامي على الثلجِ، نامي ليسَ مِنْ بَاسِ ... فالثلجُ غيرُ فؤادٍ دونَ إحساسِ
وإن تكنْ هاطلاتُ الغيثِ تغشاكِ ... طوباكِ فالقَطْرُ غيرُ الدمعِ، طوباكِ

تغشاكِ: تحُلُّ بكِ

١٦ ذل الحفيد

قال إثر صدور وعد بلفور، وكان الناس بالبرازيل وقتئذ يحتفلون في أحد أعيادهم:

ذَرُوا الأفراحَ للشعبِ السعيدِ ... وخَلُّونَا لِهَمٍّ مُسْتَزِيدِ
وعنْ عيدِ المَسَاخِرِ أَبْعِدُونا ... فنحنُ مَسَاخِرٌ، مِنْ غيرِ عيدِ

عيد المساخر: عيد جميع القديسين (الهالوين)، ومن لوازمه ارتداء الملابس التنكرية

نرومُ تَنَكُّراً فيهِ، كأنَّا ... عُرِفْنَا قبلَ ذلكَ في الوُجودِ
وهلْ هذي الوجوهُ إذا انْتَسَبْنا ... تُزَكِّي أصلَنا عندَ الجُدودِ

هل الوجوه التنكرية تزكي (تؤيد) لدى أجدادنا انتسابنا إليهم؟

مضتْ شُمُّ الأنوفِ، فليسَ فِينا ... سوى بِيضٍ لَهُمْ شِيَمُ العبيدِ

شم الأنوف: الأنوف الشماء المرتفعة، يقصد الأجداد الكرام

ألا رَحِمَ المهيمنُ كلَّ جَدٍّ ... سعيدِ الجَدِّ، في المثوَى السَّعيدِ

رحم الله كل جد من أجدادنا سعيد الجد (الحظ) في مثواه لأنه مات قبل أن يرى ما حل بنا

كأنْ لم يُغْمِضِ العينينِ إلّا ... كراهَةَ أنْ يَرَى ذُلَّ الحَفيدِ

١٧ برازيلية

قال في إحدى جولاته التجارية في ولاية بارانا بالبرازيل سنة ١٩١٩:

وفاتنةٍ! كأنَّ اللَّهَ لمَّا ... حَبَاها الحُسْنَ ما رَاعَى الحِسَابا
برازِيليَّةٍ وَطَناً؛ ولكنْ، ... إلى الأعرابِ تَنْتَسِبُ انتسابا
كأنَّ الوردَ خَضَّبَ وَجْنَتَيْها ... وغَيْرَ الحُسْنِ لم تعرفْ خِضَابا
لِيالٍ أَرْبَعٌ مَرَّتْ علَيْنا ... نَهَبْناها مِنَ الدهرِ انتِهَابا

١٨ الحمار والعلف والغربة

قال وكتبها في البحر بين ريو غرندي دو سول وسنطس سنة ١٩٢٠:

دَفـنـتَ ربـيـعَ عـمـرِكَ فـي بـلادٍ ... بِـهـا طـالـتْ لـيـالِـيكَ الـقِـصَـارُ
يُـبـارِكُـهـا الـذي قـد حـازَ مَـالاً ... وقـيـمـةُ مـالِـهِ ذلٌّ وعـارُ
يـقـولُ لِـيَ: الـمَـعَـزَّةُ في حِـمَـاهـا، ... وبـئـسَ الـعِـزُّ يَـفْـهَـمُـهُ الـتِّـجَـارُ
ولا يَـنـسـى لـهـيـبَ الـسَّـوْطِ إلَّا، ... إذا مـا شـاهَـدَ الـعـلَـفَ، الـحِـمَـارُ
تـرومُ بِـمِـهـنـةِ الـتَّـجـوالِ مَـالاً ... وحـظُّـكَ والـغِـنَـى: مَـاءٌ ونـارُ

يخاطب نفسه الآن: تطلب بمهنة البائع المتجول أن تصبح غنياً؛ ولكنْ، أنت والغنى متنافران كالماء والنار

وفـي أُذُنَـيْـكَ صـوتٌ مُـسْـتَـمِـرٌّ: ... رَشِـيـدُ أَفِـقْ لـقـد صَـفَـرَ الـقِـطـارُ
أَرُومُ إلـى رُبَـى لـبـنـانَ عَـوْداً ... ويُـمْـسِـكُـنـي عَـنِ الـعَـوْدِ افـتِـقـارُ
ولـو خُـيِّـرْتُ لـم أَهْـجُـرْ بِـلادي ... ولـكـنْ لـيـسَ فـي الـعَـيْـشِ اخـتـيـارُ

١٩ بطل ميسلون

إنَّ بِـالـعَـظْـمَـةِ أعـلـى مَـثَـلٍ ... لِـلْـفِـدَى تَـنْـشُـدُه الـنَّـفْـسُ الأَبِـيَّـةْ

يوسف العظمة: وزير الحربية في حكومة فيصل بدمشق. خرج إلى ميسلون ليواجه الفرنسيين المحتلين بقيادة هنري غورو، واستشهد ١٩٢٠

وَدَّعَ الـغُـوطَـةَ يَـبْـغـي جَـنَّـةً ... غَـيْـرَهـا، تَـحْـتَ ظِـلالِ الـمَـشْـرَفِـيَّـةْ
يـا مُـعِـيـداً مَـجْـدَنـا الـضَّـائِـعَ! نَـمْ ... مُـسْـتَـريـحـاً فـي ظِـلالِ الأَبَـدِيَّـةْ

٢٠ نسي الصليبيون ما علمتهم

الـحقُّ مِـنْـكَ، ومِـنْ وُعُـودِكَ أكـبَـرُ ... فـاحْـسُـبْ حـسابَ الـحقِّ يـا مُـتَـجَـبِّـرُ
تَـعِـدُ الـوعـودَ، وتَـقْـتَـضـي إنـجـازَهَـا ... مُـهَـجَ الـعِـبَـادِ، خَـسِـئْـتَ يـا مُـسْـتَـعْـمِـرُ

تقتضي (تطلب) لإنجاز وعودك الاستعمارية أرواح الناس

لو كـنـتَ مِـنْ أهـلِ الـمكارمِ لـم تَـكُـنْ ... مِـنْ جَـيْـبِ غـيـرِكَ مُـحْـسِـنـاً، يَـا بَـلْـفُـرُ
يَـدْعُـوكَ شـعْـبُـكَ يـا صـلاحَ الـدينِ، قُـمْ ... تَـأْبَـى الـمـروءةُ أنْ تـنـامَ، ويَـسْـهَـروا
نَـسِـيَ الـصـلـيـبـيـونَ مـا عَـلَّـمْـتَـهُـمْ ... قـبـلَ الـرحـيـلِ، فَـعُـدْ إلَـيْـهِـمْ يَـذْكُـرُوا

أُمْنِيَّةُ الدنْيَا السلامُ، وإنَّما تحقيقُها فَرْضٌ على مَنْ يَقْدِرُ
هيهاتَ! والتَّسْلِيحُ أكْبَرُ هَمِّكُمْ والوحْشُ خَلْفَ جُلُودِكُمْ مُتَنَكِّرُ
ما رَوَّضَ التِّمْسَاحَ صَقْلُ أَدِيمِهِ مَهْمَا تَمَدَّنْتُم فأَنْتُمْ بَرْبَرُ

بربر: يقصد «برابرة»، وهم الأمم البدوية التي خربت المدن في أوروبا قبل النهضة

٢١ الموت شرط التكريم

قال في تأبين فرح أنطون، صنبول ١٩٢٢:

يا أيها الأُدَبا! مُوتوا لِنُكْرِمَكُمْ إنْ يَخْبُثِ العيشُ، قد تَحْلُو المَنِيَّاتُ

المنيات: الميتات

مَنْ لا يُكَرِّمُني إلَّا على جَدَثي فما تَكارِيمُهُ إلَّا إهاناتُ

جدثي: قبري

لو بعضُ إكرامِنا للنَّابغينَ بَدا مِنَّا لهم قبلَ أنْ ماتوا، لَما ماتوا

التسويد للشاعر عمران القفيني، شكر الله له بيض أياديه، وسود وجوه أعاديه، وأناله من الكرامة ما يرضينا ويرضيه

٢٢ فائدة الأعداء

قال سنة ١٩٢٢:

تَبارَكَ مَنْ رأى شَرَّاً فَأَغْضَى ومَنْ في الحُبِّ تُغْضِبُهُ فَيَرْضَى
أَحِبُّوا بَعْضَكُمْ يَا قَوْمُ بَعْضَا فقد مَلأَ الفسادُ الأرضَ بُغْضَا
وكادَ الحُبُّ بينَ الناسِ يَخْفَى

* * *

عَدُوِّي! أنتَ عَوْسَجَةُ الحديقَةْ وأنتَ الشَّوْكُ في وَرْدِ الحَقيقَةْ

العوسج: نبات شوكي

وأنتَ مَرارَةُ الخَمْرِ العتيقَةْ وأنتَ سَوادُ سَوْداءِ الشَّقِيقَةْ

السواد الذي في زهرة شقائق النعمان

تَزِيدُ جمالَها لُطْفَاً وظَرْفَا

* * *

عَدُوِّي! ليتَ عَيْنَكُ في فُؤَادي   لِتُصْلِحَ فيهِ مُسْتَتِرَ الفَسادِ
أَمَا سُخِّرْتَ مِنْ رَبِّ العِبَادِ   رَقِيباً لا يَنامُ عَنِ انْتِقادِ
ولا يُغْضي عَنِ الهَفَواتِ طَرْفَا

٢٣ لا فضل للشعراء

لا فضلَ للشعراءِ في وَثَباتِهِمْ   وَلَوَ انَّهُمْ فوقَ المَجَرَّةِ ساحُوا
فالشعرُ مِنْ نَفَحَاتِ وادي عبقرٍ   مِنَّا الكؤوسُ، ومِنْ هناكَ الرَّاحُ
لا نَستحِقُّ ثناءَكُمْ، إلَّا إذا   شُكِرَتْ على زُحَلِيَّةٍ أقداحُ

زحلية: خمر مصنوعة في زحلة، البلدة اللبنانية المشهورة بالعرق. والعرق شراب قوي، قال فيه الشارح: قالوا الأقاويل في البيرا وما اتفقوا/ وفضلوا الجن والويسكي وما صدقوا// وقال بو أحمد والسكر تعتعه/ للخمر مملكةٌ سلطانُها العرق

دعوَى المُدِلِّ على الأنامِ بِشعرِه   دَعوى الزُّجاجةِ أنَّها المِصباحُ

المدل: المفتخر

٢٤ نجمة من الشرق

طَلَعتْ عبقريةُ العلمِ والفنِّ   تَهادَى بِبَندِها الخفَّاقِ

تهادى: تتهادى، البند: الراية

وتُبَاهي مجدَ الملوكِ بِمَجدٍ   مُتَرامٍ، على المَمالِكِ باقِ

العبقرية تباهي الملوك بمجدها المترامي (الواسع) الذي يبقى على تبدُّل الممالك وزوالها

وإذا نجمةٌ مِنَ الشرقِ، لاحتْ   تَبْهَرُ العالمينَ بالإشراقِ
فَتَهاوَى الوَرى على قدمَيْها   سُجَّداً بالخُشوعِ والإطراقِ
وتوارتْ عباقرُ العلمِ والفنِّ   وراءَ السُّطورِ والأوراقِ
قيلَ: مَنْ هذهِ المَليكةُ؟ قالوا: إنَّها عبقريةُ الأخلاقِ

٢٥ آمنت بالأخرى

قال عام ١٩٢٣:

آمنتُ بالأُخرى، فليس وجودُنا   عَبَثاً، وليس مصيرُنا لِفَناءِ

ضَلَّ الذي حَسِبَ الشتاءَ نهايةً ... إنَّ الربيعَ مُوَكَّلٌ بشتاءِ

موكل: مرهون، أي أن الربيع مشروط بأن يجيء قبله الشتاء

٢٦ رثاء المنفلوطي

قال في تأبين المنفلوطي، وألقاها في النادي الحمصي في صنبول ١٩٢٤:

يا مُصْطَفَى! نَحْكي، ومِثْلُكَ ساكِتٌ؟ ... صَبْراً على هَذَيانِنا، يا مُصْطَفَى

إنَّ الجَهُولَ لَكَالمَنِيَّةِ، إنْ يَقُلْ ... يُعْيِ الفَصيحَ، ويُبْكِم المُتَفَلْسِفَا

إنْ لم يَكُنْ خَلْفَ الرِّثاءِ لِشَاعِرٍ ... عِظَةٌ، فَيَا شُعَراءُ خَلُّوا المَوْقِفَا

والحُرُّ، إنْ قَطَعَ الحِمَامُ خِطابَهُ، ... فَعَلَى أخيهِ الحُرِّ أنْ يَسْتَأْنِفَا

والشعرُ، إنْ فَسَدَ الزَّمانُ، فَخَيْرُهُ ... ما عَنَّفَ الأسماعَ، لا ما شَنَّفَا

حَتَّامَ، يا ابْنَ الطِّينِ، تَرْكَبُ لِلْهَوى ... طِرْفَاً، وتَسْحَبُ لِلْغَوايَةِ مُطْرَفَا

طرفاً: حصاناً، مطرفا: رداء

وغداً سَتَرْكَبُ مَرْكَباً تَبْكي إذا ... فكَّرْتَ فيهِ، وتَشْتَهي مَشْيَ الحَفَا

أَنْفِقْ، إذا أَوْلاكَ رَبُّكَ نِعْمَةً، ... وانْعَمْ، فَمَا أُولِيتَ كَيْ تَتَقَشَّفَا

أوليت: مُنِحتَ نعمة

وإذا مَرَرْتَ على الفقيرِ، فلا تُشِحْ ... مُتَأفِّفاً، والحقُّ أنْ يَتَأَفَّفَا

لم تَشْكُ إذْ أسْرَفْتَ في إرْهاقِهِ ... وشَكَوْتَ حينَ اضْطُرَّ أنْ يتبَلْشَفَا

يتبلشف: يتبع الحزب البلشفي، الحزب الشيوعي

ماتَ الكِرَامُ، فَلا تَرَى بينَ الوَرَى ... إلَّا شَحِيحاً، في الخَلاعةِ مُسْرِفَا

أَمَّا الأديبُ، فإنَّهُ كَخَيَالِهِ ... مَعْنىً مِنَ الأَعْضَاءِ يَسْكُنُ أَحْرُفَا

الأديب مهزول الجسم فكأنه ليس جسماً بل معنىً من المعاني، وهذا المعنى لا يسكن جسماً بل يسكن أحرفاً هي كلماته. والتسويد لعمران القفيني

عَبَثَاً يُنَزِّلُ كلَّ يومٍ لِلْوَرَى ... سِفْراً، ويُلْهَمُ كلَّ يَوْمٍ مُصْحَفَا

نَبْتُ الرُّبَى ونَدَى السماءِ كِفَافُهُ ... وعَفِيفُهُمْ هَضَمَ البلادَ، وما اكْتَفَى

إنْ لم يَكُنْ للناسِ، غيرَ طَعامِهِمْ، ... غَرَضٌ، فقدْ سَاوَى الخِوَانُ المِعْلَفَا

الخوان: منضدة الأكل، المعلف: المذود تأكل منه البهائم

٢٧ منتهى اليأس

هـلْ بـيـنَـكُـمْ مِـنْ رَاحِـمٍ قَـاتِـلٍ　　يُـزَحْـزِحُ الأيَّـامَ عَـنْ كَـاهِـلِـي

يريد قاتلاً يزيح الأيام (العمر) عن كاهله (ظهره)

يَـقْـذِفُ بـي فـي دَرَكِ الـلُّـجِّ، لا　　يَـلْـفِـظُـنـي مَـوْجٌ إلـى سَـاحِـلِ

يريد أن يقذفه هذا القاتل في درك (قاع) اللج (البحر)

يـا لِاشْـتِـهَـائـي جَـنَّـةً مِـنْ لَـظـىً　　آكُـلُ مِـنْ يَـانِـعِـهـا الآكِـلِ

يريد جنة ولكن من اللظى (الجمر)، لكي يأكل من يانعها (ثمرها الطري) الآكِلِ للبشر

فـي شَـجَـرٍ مِـنْ لَـهَـبٍ ثَـائِـرٍ　　عـلـى ضِـفَـافِ الـلَّـهَـبِ الـسَّـائِـلِ

مَـأْدُبَـةً تَـنْـحَـرُ ضِـيـفَـانَـهَـا　　آمِـنَـةَ الـوَارِشِ والـوَاغِـلِ

يريد مأدبة تذبح ضيفانها (ضيوفها)، وهي تأمن من الوارش (المتطفل على مائدة قوم) والواغل (المتطفل على مجلس الشراب)

وَابَـرْدَهَـا عِـنْـدي إذا اجْـحَـوْحَـمَـتْ　　كَـأُخْـتِـهـا فـي قَـفَـصِـي الـنَّـاحِـلِ

ما أبردها على قلبي إذا اشتد جحيمها، فهذا جحيم يشبه الجحيم الذي في قفصي الصدري الناحل (الهزيل)

لاقِـفَـةً فُـلْـكَ هُـمُـومـي مَـعـي　　ذَاهِـبَـةً بِـالـحِـمْـلِ والـحَـامِـلِ

يريد من هذه الجهنم أن تلتقف فُلك (سفينة) همومه، فتذهب بها وبراكبها

يـا مَـنْ يُـذَرِّيـنـي طَـحِـيـناً عَـلـى　　وَجْـهِ يَـبَـابٍ مُـحْـرِقٍ قَـاحِـلِ

مَـا رَشَـحَـتْ مِـنْ جَـوِّهِ قَـطْـرَةٌ　　يَـوْمـاً عـلـى نَـضْـرٍ ولا ذَابِـلِ

لاشِ حَـيَـاتـي يـا إلَـهِـي، ولـو　　حَـقَّـقْـتَ زَعْـمَ الـمُـلْـحِـدِ الـجَـاهِـلِ

يدعو ربه إلى أن يجعل حياته تتلاشى، حتى وإن كان بذلك يوافق ما يزعمه الملحد من تلاشي الروح

جِـسْـمـي ورُوحـي وأَغَـانِـيَّ. لا　　تُـبْـقِ عـلـى بَـاقٍ، ولا زَائِـلِ

إنِّـيَ أَبْـغـي عَـدَمـاً مُـطْـلَـقـاً　　يُـعْـيِـي عـلـى الـنَّـافِـخِ والـجَـابِـلِ

يريد عدما يعيي (يعجز) النافخ في الصور يوم القيامة، ويعجز الجابل الذي جبل النفوس من طين

أَقْسَى مِنَ الموتِ على النَّفْسِ أنْ　　تَـسْـعَـى إلى الـموتِ بِـلا طَـائِـلِ

مُتْ يا أخِي العامِلَ، مُتْ جَائِعاً　　ولا تَـسَـلْ عَـنْ لُـقْـمَـةِ الـعَـامِـلِ

إنْ فاتَكَ الخُبْزُ، فَلُكْ آيَةً وانْعَمْ بِمَوْتِ المؤمنِ الآمِلِ

إن عدمت الخبز أيها العامل فعليك أن تلوك الآيات المقدسة، وأن تموت ميتة مؤمن يملؤه الأمل بحياة أخرى

غداً لَكَ الخُلْدُ، فَمَا ضَرَّ أَنْ لم تَأْكُلِ اليومَ مَعَ الآكِلِ

قَبِّلْ يَدَ الظَّالم قَسْراً، ولا تَعْتَبْ على خالِقِهِ العَادِلِ

هلْ كانتِ الآلامُ مُذْ قُدِّرَتْ إلَّا نَصيبَ الرَّجُلِ الفاضِلِ

فَلْنَحْمَدِ المولَى على نِعْمَةٍ خُصَّتْ بِنَا مِنْ فَضْلِهِ الشَّامِلِ

يا سائلي عَنْ سِرِّ هذا الوَرَى أَقْصِرْ، وَقَاكَ اللَّهُ يا سائِلي

أقصر: كُفَّ

ما أَبْعَدَ الشَّكْوَى، على هَوْلِها، عَنْ بَعْضِ ما يَنْهَشُ في دَاخِلي

٢٨ الجنة الموعودة

قال في صنبول ١٩٢٤:

قد كنتُ مِنْ لُبْنَانَ في جَنَّةٍ ناضِرةٍ، لم أُلْفِها ناضِرَةْ

ولم أزلْ أصبُو إلى غيرِهَا حتَّى ركبْتُ اللُّجَّةَ الزَّاخِرَةْ

اللجة الزاخرة: البحر المرتفع الموج

فلم أشاهِدْ بَلَداً عامِراً أطيبَ مِنْ مَزْرَعَةٍ عَامِرَةْ

مهما كان البلد عامراً وكبيراً فحاجتي منه لا تتعدى حاجتي إلى مزرعة، هذا المعنى الذي لمحته

لكنْ هِيَ الآمالُ طَوَّاحَةٌ بِكُلِّ نَفْسٍ حرةٍ ثائِرَةْ

تَسْتَطْلِعُ الأسرارَ مفتُونَةً بِكُلِّ ما يَعْدُو مَدَى البَاصِرَةْ

يعدو مدى الباصرة (العين): يتجاوز مدى الرؤية

يا نفسُ! خَفْضاً مِنْ جَنَاحِ المنَى لأيِّ رَبْعٍ أنتِ بي طائِرَةْ

دنياكِ هذي لَنْ تَرَيْ غيرَها كوني مَلاكاً تَكُنِ الآخِرَةْ

٢٩ سمو عن الشكوى

قال في صنبول ١٩٢٤:

أنتَ حُرٌّ فَاسْتَوْطِنِ البَلَدَ الحُرَّ وصَاحِبْ مِنْ أَهْلِهِ إخْوَانا

واسْمُ عَنْ أنْ تَشْكُوْ إلى النَّاسِ فَقْراً وَلَئِنْ بِتَّ جَائِعاً ظَمْآنَا
بَسْمَةٌ تُظْهِرُ الفَقِيرَ غَنِيَّاً، دَمْعَةٌ تَمْسَخُ الشُّجَاعَ جَبَانَا
كُنْ إلَهَ النُّضَارِ، إنَّكَ عِنْدِي لَسْتَ شَيْئَاً ما لم تَكُنْ إنسانَا

النضار: الذهب

٣٠ فيض من حنان

تَحَيَّرَ بي عَدُوِّي إذْ تَجَنَّى عَلَيَّ، فَمَا سألتُ عَنِ التَّجَنِّي
وقابَلَ بينَ ما ألقاهُ مِنْهُ وما يَلْقَى مِنَ الإحسانِ مِنِّي
إلى أنْ ضاقَ بِالبَغْضَاءِ ذَرْعَاً وحَسَّنَ ظَنَّهُ بي حُسْنُ ظَنِّي
عَدُوِّي! ليسَ هذا الشَّهْدُ شَهْدِي وَلا المنُّ الذي اسْتَحْلَيْتَ مَنِّي

المنّ: طعام حلو، وهو أخو السلوى

فَلِي أُمٌّ حَنونٌ، أَرْضَعَتْنِي لِبَانَ الحُبِّ مِنْ صَدْرٍ أَحَنِّ

لبان: حليب

على بَسَمَاتِهَا فَتَّحْتُ عَيْنِي ومِنْ لَثَمَاتِها رَوَّيْتُ سِنِّي

لثمات: قبلات

كَمَا كانَتْ تُنَاغِينِي أُنَاغِي ومَا كانَتْ تُغَنِّينِي أُغَنِّي
سَقَانِي حُبُّهَا فوقَ احْتِيَاجِي فَفاضَ على الوَرَى ما فَاضَ عَنِّي

٣١ يا أم... يا حنونة

قال ونظمها بين ١٩٢٤ و١٩٢٥. وكانت أمه وصلت حديثاً إلى صنبول:

أَتَذْكُرُ كيفَ كانَ إلَهُ مُوسَى إلَهاً قاسِياً يَلْتَذُّ بِالدَّمْ
إذنْ فَإلَيْكَ كَيْفَ غَدَا إلَهاً رَحِيماً، إنْ تَأَلَّمْنا تَأَلَّمْ
رَوَى الراوُونَ أنْ عَثَرُوا بِمِصْرٍ عَلى دَرْجٍ غَريبِ الخَطِّ مُبْهَمْ

درْج: رقعة

فَقَالوا إنَّهُ، مِنْ قَبلِ عِيسَى، تُوُفِّيَ شاعِرٌ في الشَّرْقِ مُلْهَمْ
أَضَاعَ العُمْرَ في طَلَبِ المعَاصِي يُحَلِّلُ مَا كِتَابُ اللَّهِ حَرَّمْ

ولـكِـنْ، بِـرُّهُ الأَبَـوَيْـنِ غَـطَّـى مَـسَـاوِئَـهُ، فَـخُـلِّـصَ مِـنْ جَـهَـنَّـمْ
فَـنَـامَ بِـحِـضْـنِ إبراهـيـمَ، لـكِـنْ قُـبَـيْـلَ الـفـجـرِ شـاعِـرُنَـا تَـبَـرَّمْ

في إنجيل لوقا قصة نوم لِعَازَر الفقير بعد موته في حضن إبراهيم النبي

وقـامَ لِـرَبِّـهِ يَـشْـكـو ويَـبْـكـي بُـكَـاءً صَـيَّـرَ الـفِـرْدَوْسَ مَـأْتَـمْ
فَـهَـدَّأَ رَوْعَـهُ، وحَـنَـا عـلَـيْـهِ وطَـيَّـبَ قَـلْـبَـهُ بِـحَـنَـانِـهِ الـجَـمّ
وَوَسَّـدَهُ يَـدَيْـهِ ورُكْـبَـتَـيْـهِ ومَـالَ عـلـيـهِ بـالـتَّـقْـبيـلِ والـضَّـمْ
وقـالَ لِـعَـبْـدِهِ دَاوُدَ رَنِّـمْ لِـهـذَا الـبُـلْـبُـلِ الـبَـاكـي، فَـرَنَّـمْ

ونبي الله داود هو صاحب الصوت الجميل والأغاني المشهورة

فـنَـامَ بِـحِـضْـنِـهِ الأَبَـوِيِّ حِـيـنَـاً وعـادَ يُـسَـاقِـطُ الـعَـبَـراتِ عَـنْـدَمْ

العندم: نبت أحمر

إلى أنْ ضَـجَّ أهـلُ الـخُـلْـدِ غَـيْـظاً وصاحَ اللَّهُ مِنْ غَضَبٍ: إلى كَمْ..
أُطِـيـقُ تَـذَمُّـراً مِـنْ عَـبْـدِ سَـوْءٍ يُـجَـرَّعُ كَـوْثَـراً، فَـيَـقُـولُ: عَـلْـقَـمْ؟

حتى متى أحتمل التذمر من هذا الذي يشرب ماء نهر الجنة الكوثر ويقول إنه مرٌّ؟

أَرَى الـشُّـعَـراءَ جـازُوا الـحَـدَّ، إنِّـي أكـادُ لِـخَـلْـقِـيَ الـشُّـعَـراءَ أنْـدَمْ
عـلامَ بُـكَـاكَ يـا هـذَا؟ ومـاذَا دَهَـاكَ، فَـلا تَـنِـي تَـشْـكُـو؟ تَـكَـلَّـمْ

لا تني تشكو: لا تنقطع عن الشكوى

فَـصَـاحَ: الـعَـفْـوُ يـا مَـولايَ، مَـنْ لـي سِـوَاكَ، ومَـنْ سِـوَى الرَّحْمَنِ يَرْحَمْ
أَتَـيْـتُـكَ رَاجِـيـاً نَـقْـلـي لِـحِـضْـنٍ أَحَـبُّ إلَـيَّ مِـنْ هـذَا وأَكْـرَمْ
لِـحِـضْـنٍ طَـالـمـا قَـد نِـمْـتُ فِـيـهِ قَـرِيـرَ الـعَـيْـنِ، بـيـنَ الـضَّـمِّ والـشَّـمّ
أَمَـا أَلْـقَـيْـتَ رأْسَـكَ فـوقَ صَـدْرٍ حَـنُـونٍ خـافِـقٍ بِـمَـحَـبَّـةِ الأُمّ؟
فَـأَصْـغَـى سَـيِّـدُ الأكـوانِ لُـطْـفَـاً لِـشَـكْـوَى شَـاعِـرِ الـغَـبْـراءِ واهْـتَـمّ
وقَـالَ لِـنَـفْـسِـهِ: هـذا مُـحَـالٌ أَيَـعْـلَـمُ شـاعِـرٌ مَـا لَـسْـتُ أَعْـلَـمْ
أَيَـنْـعَـمُ خَـاطِـئٌ فـي الأرضِ قَـبْـلـي بِـمَـا أَنَـا لَـسْـتُ في الفِـرْدَوْسِ أَنْـعَـمْ
لأَكْـتَـشِـفَـنَّ هـذا الـسِّـرَّ يَـوْمـاً ولـو كُـلِّـفْـتُ أنْ أَشْـقَـى وأُعْـدَمْ

وكــانــتْ لَـيْـلَـةً؛ وإذا صَـبِـيٌّ صَـغِـيـرٌ نـائِمٌ فـي حِـضْـنِ مَـرْيَـمْ

هذه ترجمة شعرية للمفهوم المسيحي بألوهية المسيح، وقد لمعت فكرة القصيدة للقروي وهو ينظر في وجه أمه، يقول: «قلت لها بربك يا أمي، لا تحولي نظرك عني، لكأني أرى رؤيا شعرية غريبة لا عهد لي بمثلها قط. قالت: اسم الله حولك يا بني. يا أولاد لا «تعيطوا» ـ أي لا تصخبوا ـ عمكم ينظم. روحوا من هنا. ولبثتُ في ذهولي وموكب الإلهام يدنو مني وئيداً، أو أدنو منه، لا أدري، حتى شرعت أتبين معالمه وأستجلي شخوصه، فصحت وقد ملكتني نشوة الفن، وبدني يقشعر، والعرق يتصبب من جبيني: أماه بشراك، لقد جئتك بما لم يجئ به شاعر لأم».

٣٢ زهرة الحق

قال في تأبين سليمان البستاني في صنبول ١٩٢٥:

لا مِـنْ ثُـغـورِ الـغِـيـدِ فـي لـبـنـانِ أو مِـنْ خُـدودِ الـحُـورِ والـوِلْـدَانِ

بل مِنْ ضُلوعِ المجدِ، مِنْ قلبِ الهُدَى مِنْ مُـهْـجَـةِ التَّـقـوى، مِـنَ الإيـمـانِ

قد صـاغَـهـا الـرَّحـمـنُ أكـمـلَ زَهـرةٍ رَقَـصَـتْ لـهـا الأرواحُ فـي الأبـدانِ

فـإذا قَـضَـى بَـطَـلٌ مَـجـيـدٌ، أو مَـضَـى حـرٌّ، شـهـيـدَ مَـحَـبَّـةِ الأوطـانِ

تَـكْـسُـو الـنَّـضـارةُ عودَهـا، فَـيَـمِـيسُ في أَبْـهَـى الـعُـقـودِ، وأَبـهَـجِ الألـوانِ

وإذا خـلا وجـهُ الـثَّـرى مِـنْ ثـائـرٍ لِـلْـحَـقِّ مُـشْـتَـعِـلٍ بـه مُـتَـفـانِ

يَـعْـرُو الـبُـتَـيْـلاتِ الـذُّبُـولُ كـأنَّـهـا أَهْـدَابُ طَـرْفِ الـغَـادةِ الـوَسْـنـانِ

البتيلات: أوراق الزهرة، الوسنان: النعسان

وتـظـلُّ مُـطْـبَـقَـةَ الـجُـفُـونِ عَـلِـيـلَـةً حـتـى يُـتَـاحَ لـهـا شَـهِـيـدٌ ثَـانِ

يحدثنا عن زهرة تذبل، ولا تعود لها النضارة إلا إذا نزل دم شهيد جديد

ولَـرُبَّ عَـهْـدٍ طـالَ فـيـه ذُبـولُـهـا واشـتـدَّ خـوفُ الـواحِـدِ الـدَّيَّـانِ

دَرَسَـتْ ربوعُ الحقِّ مِنْ أهلِ الهُدى وطَـمَـتْ سيـولُ الـظُّـلـمِ والـطُّـغـيـانِ

وتَـطَـلَّـعَ الـرحـمـنُ مُـلْـتَـمِـسـاً لـهـا بَـطَـلاً يَـقِـيـهـا طَـارِقَ الـحَـدَثـانِ

طارق الحدثان: مصائب الزمن

مـا زالَ رَبُّ الـخَـلْـقِ فـي تَـجْـوَابِـه في الأرضِ، يَـعْـقِـدُ قَـاصِـيـاً بِـالـدَّاني

حـتَّـى أَفَـاءَ عـلـى الـشَّـآمِ بِـسَـاطُـهُ فَـطَـواهُ فـي إِحْـدَى قُـرَى لُـبـنـانِ

أفاء: أنعم

ورأى هـنـاكَ فَـتَـىً تَـوَقَّـدَ ذِهْـنُـهُ   فَـسَـرَى تـوقُّـدُهُ إلـى الأذهـانِ
خَـلَـعَ الـزمـانُ عـلـيـهِ طُولَ أَنَـاتِـهِ   فـالـدهـرُ فـي عـيْـنَيْـهِ بِضْـعُ ثـوانِ
خدَمَ السِّيَاسَةَ مُلْبِسَاً أغراضَـهـا   تـاجَ الـنـزاهـةِ، أشـرفَ الـتِّـيـجـانِ
مـا بـاعَ مِـنْ أجْـلِ الـوِسَـامِ بـلادَهُ   لِـلأجـنَـبِـيِّ بِـأَبـخـسِ الأَثـمـانِ
أهـدَى إلـى الـشُّـعَـراءِ فـي أوطـانِـه   نَـفَـثَـاتِ أَشْـعَـرِ شـاعـرٍ يـونـانـي

وكان المرثي قد ترجم إلياذة هوميروس شعراً إلى العربية

مـا زالَ يَـمـنـحُ مِـنْ أَشِـعَّـةِ فـضـلِـه   لـلـنـاسِ حـتَّـى صـارَ فـي الـعُـمْـيـانِ

ظل يكتب ويقرأ حتى ضعف بصره

وإذا عروسُ الـخُـلْـدِ فـي بُـرْدِ الـصِّـبَـا   تَـسْـبـي الـنُّـهَـى بِـجَـمـالِـهَـا الـفَـتَّـانِ

هذه الزهرة عادت للانتعاش لوشك سقوط شهيد

فَـتَـهَـلَّـلَ الـرحـمـنُ مِـنْ فَـرَحٍ، وقـد   فـاضَـتْ أشـعـةُ وجـهِـه الـنُّـورانـي
وحَنَا عليهَ، وقـالَ: إنَّـكَ خيرُ مَـنْ   يَـتَـعَـهَّـدُ الأزهـارَ يـا بُـسْـتَـانـي

تعليق عمران القفيني: (طريف شطره الأخير أيتما طرافة.. البستاني هو الذي يهتم بالحدائق وهو.. سليمان البستاني معاً)

فـإلـيـكَ فِـرْدَوْسـي، تَـوَلَّ وُرودَهُ   واعـمَـلْ مَـدَى الأَدْهـارِ فـي بُـسْـتَـانـي

٣٣ ذَنَب الأجنبي

قال وقد أهين صحفي قضى عمره في خدمة الاستعمار من جانب موظف فرنسي في حفلة عامة، وقالها في صنبول (ساو باولو بحسب تعريب القروي) ١٩٢٥:

جـادَ الـعـزيـزُ عـلـى الـذَّلـيـلِ بِـصَـفْـعَـةٍ   تَـرَكَـتْ بِـصَـحْـنِ الـخـدِّ طَـابـعَ خَـمْـسِـهِ
ومـضَـى الـعـزيـزُ يَـحُـكُّ راحَـةَ كَـفِّـهِ   ومـضَـى الـذَّلـيـلُ يَـحُـكُّ جِـلْـدَةَ رَأْسِـهِ
فَـظَـنَـنْـتُـهُ احْـتَـمـلَ الـهـوانَ لِـحِـكـمـة   حـتَّـى يـعـودَ بِـسَـيـفِـهِ وبِـتُـرْسِـهِ
حـتَّـى عـثـرتُ بِـهِ الـغَـدَاةَ، كـأَنَّـهُ   نَـسِـيَ الـذي قـد ذاقَـهُ فـي أَمْـسِـهِ
فسألتُ عنهُ، فقيلَ: هذا مَنْ سَعَى   لِـيُـحَـكِّـمَ الـجِـنْـسَ الـغـريـبَ بِـجِـنْـسِـهِ
مَـنْ كـانَ يَـرْضَـى بـالـهـوانِ لِـشَـعْـبِـهِ   لا بِـدْعَ أنْ يـرضَـى الـهـوانَ لِـنَـفْـسِـهِ

لا بِدْعَ: لا عَجَبَ

٣٤ وثباً إلى سنام التنك

قال وقد وصفت الصحف الغربية سنة ١٩٢٥ بإعجاب عظيم زحف سلطان الأطرش برجاله على السويداء لإنقاذ الأسير الذي قبضت عليه السلطات الفرنسية في بيت سلطان منتهكةً حرمة الضيافة العربية، والتقاء سلطان والدبابة (التنك) وهجومه عليها تحت وابل من النيران، وتعطيلها بعد هبر قبطانها ومعاونه بحد السيف هبراً:

خففتَ لِنَجْدةِ العاني سريعا غَضُوباً، لو رآكَ الليثُ رِيعا

العاني: الأسير، ريعَ: أُخيف

وحوْلَكَ مِنْ بني مَعروف جَمْعٌ بِهِمْ، وبِدُونِهِمْ، تُفْني الجُمُوعا

بنو معروف: الدروز

كأنَّكَ قائدٌ مِنْهُمْ هِضَاباً تَبِعْنَ إلى الوغى جَبلاً مَنِيعا

كأنك تقودهم وهم الهضاب، وأنت أمامهم كالجبل

تَخِذْتَهُمُ لدى الجُلَّى سُيُوفاً لها لَعَنَ الفَرَنْسِيُّ الدُّرُوعا

اتَّخذتهم في الجلّى (الخطب العظيم) سيوفاً لم تفلح في صدها دروع الفرنسي فلعن دروعه

وأيُّ دَرِيئَةٍ تَعْصِي حُساماً تَعَوَّدَ، في يمينِكَ، أنْ يُطِيعَا

دريئة: الترس

ألم يَلْبَسْ عِدَاكَ التَّنْكَ دِرْعاً فَسَلْهُمْ: هلْ وَقَى لَهُمُ ضُلُوعا

التنك: الدبابة

أَغَرْتَ عليهِ تَلْقَى النَّارَ بَرْداً ويَرْمِيها الذي يَرْمي هَلُوعَا

شننت عليه الغارة وأنت تلقى (تواجه) نيرانه وكأنها برد وسلام عليك، ولكنه يطلق هذه النيران مَن يطلقها هَلوعاً (خائفاً)

ولما صِرْتَ مِنْ مُهَجِ الأَعادي بِحَيثُ تُذيقُهَا السُّمَّ النَّقِيعَا
وَثَبْتَ إلى سَنَامِ التَّنْكِ وَثْبَاً عَجِيباً، عَلَّم النَّسْرَ الوُقُوعَا
وكَهْرَبْتَ البِطَاحَ بِحَدِّ عَضْبٍ بَهَرْتَ بِه العِدَى، فَهَوَوْا رُكُوعا

عضب: سيف

كَأَنَّ بِه إلى الإفْرَنْكِ جُوعاً وسيفُكَ، مثلُ ضيفِكَ، لنْ يَجُوعا
فَخَرَّ الجندُ فوقَ التَّنْكِ صَرْعَى وخَرَّ التَّنْكُ تَحْتَهُمُ صَرِيعا

فيا لَكِ غَارةً، لو لم تُذِعْهَا أَعَادِينا لَكَذَّبْنَا المُذِيعا
ويا لَكَ أطرشاً، لما دُعِينا لِثَأرٍ، كانَ أَسْمَعَنَا جَمِيعا
إذا حاولتَ رَفْعَ الضَّيْم، فاضرِبْ بسيفِ محمدٍ، واهْجُرْ يَسُوعَا
«أَحِبُّوا بعضَكُمْ بعضاً» وَعَظْنَا بِها ذئباً، فما نَجَّتْ قَطِيعا
أَلا أَنْزَلْتَ إنجيلاً جديداً يُعَلِّمُنَا إباءً، لا خُنُوعَا
شَفَعْتَ بِنَا أمامَ أبٍ رحيمٍ وما نحتاجُ عندَ أبٍ شَفِيعا

شفعت بنا أيها المسيح لدى الأب (الله، في تعبير مسيحي)، والأب لا يحتاج شفيعاً

أَجِرْنَا مِنْ عذابِ النِّيرِ، لا مِنْ عذابِ النارِ، إنْ تَكُ مُسْتطِيعا

النير: القهر، وأصله الخشبة توضع على رقبة ثور الحراثة

ويا لبنانُ! ماتَ بَنُوكَ مَوْتَاً وكنتُ أَظُنُّهُمْ هَجَعُوا هُجُوعا

الهجوع: النوم

بَدَتْ لكَ فرصةٌ لِتَعيشَ حُرَّاً فَحَاذِرْ أَنْ تَكُونَ لها مُضِيعا
ومَا لَكَ بعدَ هذا اليومِ يومٌ فإنْ لم تَسْتَطِعْ.. لنْ تَستَطِيعا

٣٥ أم الضباع في حوران

قال ونظمها أثناء احتدام الثورة الدرزية وقد راجت إشاعة تدليل فرنسا على سورية وتخليها عنها لإيطاليا:

بَدَتْ وَلْهَى، مُمَزَّقَةَ القِنَاعِ فقلتُ لها: فَدَيْتُكِ! لا تُراعي
فَدُونَ حِمَاكِ أبطالُ العَوَالي مُؤَزَّرَةٌ بأَبطالِ اليَرَاعِ

العوالي: الرماح، مؤزرة: مؤيدة، اليراع: القلم

رِمَاحٌ كالأفاعي مُشْرَعاتٌ وأقلامٌ كأنيابِ الأفاعي
أَطِلِّي واشْهَدي مِنْهُمْ هُجوماً تَرَيْ وَثْبَ القِلاعِ على القِلاعِ
وهلْ عَرَبيَّةٌ هذا أَخُوها تُرَاعُ إذا دَعا للحَرْبِ داعِ
فَرَنْسَةُ! ليسَ في حُورَانَ لَحْمٌ يَسُرُّ بَنِيكِ، يا أُمَّ الضِّبَاعِ
وهلْ لاقَيْتِ في حُورَانَ إلَّا مَآسِدَ، خِلْتِهَا جَهْلاً مَراعِي

المآسد: مرابض الأسود (مفردها مأسدة)

فَيَا باريسُ! عُودي عَنْ حِمَانا   وجُودِي جُودَ رُومَةَ بِالوَدَاعِ

فقد حكمت روما سورية قبل الفتح الإسلامي

لَقدْ لاقتْ قَدِيماً مَا كَفَاها   عَنَاءَ البَحْثِ عَنْ مُلْكٍ مُضَاعِ

٣٦ الحق الثاني

إن ضاعَ حقُّكَ لم يَضِعْ حَقَّانِ   لكَ في نِجَادِ السيفِ حقٌّ ثانِ

نجاد السيف: حمائله التي بها يشد في وسط الرجل وكتفه

ما ماتَ حَقُّ فَتىً لَهُ زَنْدٌ، لَهُ   كَفٌّ، لَها سَيْفٌ، لَهُ حَدَّانِ

فابْعَثْ سيوفَ الهندِ مِنْ أغمادِهَا   تَبْعَثْ بِهَا الموتَى مِنَ الأكفانِ

بِعَجائِبِ الهنديِّ حازَ التُّرْكُ ما   حازُوهُ، لا بِعَجَائِبِ العِبْراني

الهندي: السيف، العبراني: المسيح

والسيفُ، لا عِيسَى ولا أَضْرابُهُ،   خلَقَ «الكَمَالَ» لَهُمْ مِنَ النُّقْصَانِ

الكمال: في الكلمة معناها، وفيها إيماء إلى مصطفى كمال أتاتورك

لَمَّا شَكَوْنا جُوفَنِيلَ إلى الظُّبَى   فَشَكَا إلى جَمْعِيَّةِ القُرْصَانِ..

شكونا دي جوفنيل القائد الفرنسي إلى الظبى (شفرات السيوف) ودعوناها أن تؤدبه، فراح يشكونا إلى جمعية القرصان (عصبة الأمم)، وهي التي منحت الدول الأوروبية الوصاية على بلاد العرب

صاحَ: المروءةَ يا فِرَنْجُ! فليسَ لي   في صَدِّ غاراتِ الدُّرُوزِ يَدانِ

ليس لي يدان: لا قدرة لي

عَهْدِي بِهِمْ في السِّلم حُمْلاناً، فَوَا   رُغْبَاهُ بَعْدَهُمُ مِنَ الحُمْلانِ

كنت أظن الدروز حملاناً، خرافاً، وادعة.. فمن الآن فصاعداً الويل لي من الحملان إن كانوا كهؤلاء الأشاوس

للَّهِ مَنْظَرُهُمْ إذا هَزَجُوا، وقد   هَزُّوا الرِّمَاحَ لِغَارَةٍ وطِعَانِ

هزجوا: غنوا أهازيج الحرب

ونِسَاؤُهُمْ! لو تَشْهَدونَ نِساءَهُمْ   في الحربِ حامِلَةً على الشُّجْعانِ

يَنْفُخْنَ في أشْبَالِهِنَّ حَماسَةً   تَثِبُ الصدورُ لَها مِنَ الغَلَيَانِ

فَكَأَنَّهُمْ لَبِسوا بِهِنَّ جَوَانِحاً   طاروا بِها لِلْحربِ كالعِقْبَانِ

ولئِنْ نسيتُ، فَلَسْتُ أنسَى بَيْنَهُمْ   رَجُلَ الرِّجالِ، وفارسَ الفرسانِ
يُفْني الرجالَ بِأحدبٍ ومُقَوَّمٍ   ضِدَّيْنِ في اللَّبَّاتِ يَلْتَقِيانِ

الأحدب: السيف، المقوم: الرمح، اللبات: أعالي الصدور

ويكادُ يَفْتَرِسُ العدوَّ جوادُهُ   فكأنَّهُ أسدٌ على سِرْحانِ

سرحان: ذئب

فَذٌّ كُفِيتُ بِه سؤالَ النَاسِ: مَنْ   تَعْني؟ وهَلْ أعني سِوَى سُلْطانِ
لبنانُ، يا لبنانُ! بَلْ ما ضَرَّني   لو قلتُ: يا بَلَداً بِلا سُكَّانِ
إن كانَ لِلدِّينِ الدُّروزُ تَعَصَّبُوا   أَرِنَا التَّعَصُّبَ أنتَ لِلأوطَانِ
لم يبقَ غَيْرُكَ في الوَرَى مُسْتَعْبَداً   لم يبقَ غيرُكَ أيُّها اللُّبْنَاني
أوَلَيْسَ في لبنانَ عِرْقٌ نابِضٌ   أوَلَيْسَ في لبنانَ مِنْ مُتَفَانِ
أينَ التُّراثُ، تُراثُ أبطالِ الحِمَى   أينَ البَقِيَّةُ مِنْ بَني غَسَّانِ
لا تُنْكِروها، فَالدَّمُ العَرَبيُّ قد   جَلَّتْ أصالَتُهُ عنِ النُّكْرانِ

٣٧ الدوران والمداراة

لا تَخْدَعنَّكَ مِنْ ضِدٌّ مُسايَرَةٌ   فالماءُ، وهْوَ حَمِيمٌ، يُطْفِئُ النَّارا

الماء حتى وهو حميم (ساخن) يطفئ النار، فهو لا يغير طبعه، وكذا العدو

وَدُرْ، ودَارِ الوَرى تأمنْ غَوَائِلَهُمْ   ما أَخْطأَ الحَزْمَ مَنْ دَارى، ومَنْ دَارا

الورى: الناس، غوائلهم: دواهيهم، دارى: فهو يداري ويكاتم الخصوم، ودارَ: فهو يدور مع الأمور كما تدور

٣٨ رأيي من رأيك، ولكن..

يا مَنْ إذا مَدَحَ امرُؤٌ   شِعْرِي، تَوَلَّاهُ الكَمَدْ

الكمد: الغم

عُذْراً، أُخَيَّ، فَلَيْسَ لي   فيما يقولُ الناسُ يَدْ

ليس لي فيما يقولون يد: لا دخل لي فيما يقولون

رأيي كرأيِكَ، إنَّني   في الشِّعرِ أجهلُ مِنْ وَلَدْ
لكنْ، أقولُ كما تقو   لُ، فلا يصدِّقُني أحَدْ

٣٩ عيد السادة

قال في عيد استقلال البرازيل، بينما جُرح النكبة السورية، ١٩٢٥، ما زال دامياً:

دعْنيِ، فقرعُ طُبولِهِمْ ضَرْبٌ على ... أضلاعِ هذا اليائسِ المنكودِ
دعنيِ فهذا يومُهُمْ، لا شأنَ ليِ ... فيهِ، وعيِديَ غيرُ هذا العيدِ
أنا لا أشاركُ سادةً في عيدِهِمْ ... ما دمتُ عَبْداً يَنتمي لِعَبيدِ

٤٠ ليسقط المتفرنس

قال، وألقاها في ١٩٢٦ بحضور شاعر برازيلي كان زار سورية أثناء الثورة الدرزية:

ما في أُورُبَّةَ دولةٌ مَأْمونةٌ ... الكلُّ أعداءُ الشَّآمِ، فَكَنِّسُوا
وابْكُوا معيِ لُبْنانَ؛ إنَّ بُكاءَهُ ... فَرْضٌ على أهلِ الوفاءِ مُقَدَّسُ
وطنٌ تَحَيَّرَتِ العَبيدُ لِذُلِّهِ ... وأَذَلُّ منهُ رئيسُهُ والمجْلِسُ
في كلِّ كُرْسيٍّ تَسَنَّدَ نائِبٌ ... مُتَكَتِّفٌ أعمَى أَصَمٌّ أخرَسُ
فكأنَّ ذاكَ البرلَمانَ خُرَيْبَةٌ ... مَنْبُوشَةٌ، وهُمُ الرُّسُومُ الدُّرَّسُ
ولْيَحْيَ كلُّ مُدَافِعٍ عَنْ قومِهِ ... وبلادِهِ، ولْيَسْقُطِ المُتَفَرْنِسُ

٤١ الدمعة المحرِقة المغرِقة

قال، وقد غرست أمه في فناء الدار حبقة سمتها حبقة رشيد. وكانت تتفاءل إن اخضرت، وتتشاءم إن ذبلت. وأبصرها يوماً مخضرة نضرة، فقال:

قد كنتُ مِثْلَكَ أيُّها الحَبَقُ ... ليِ مَنْظَرٌ حُلْوٌ، وليِ عَبَقُ

الحبق: نبات عطري ينبت بكثرة في أغاني فيروز. و«المنجد» يقول: هو الريحان

تَهْفُو إليَّ عيونُ مَنْ نَظَرُوا ... وتَهِيمُ بيِ أرواحُ مَنْ نَشَقُوا
بَلْ كنتُ كَالحَسُّونِ مَسْرَحُهُ ... بينَ النجومِ، وعُشُّهُ الأُفُقُ

الحسون: عصفور مغرد، دون الكناري سعراً لأن الكناري أشقر أصفر، والحسون بني مموج، وقد تُجلِّل رأسَه حمرةٌ تزيد في سعره

واليومَ زَقْزَقَتيِ الأنينُ، وأجْـ ... ـنِحَتيِ الحَنِينُ، ومَهْدِيَ الأَرَقُ
مَلَّ الأَحِبَّةُ رُؤْيَتيِ، ونَبَتْ ... عَنِّيِ العُيونُ، ومالَتِ العُنُقُ

نَبَتْ: أشاحت

لـم يـبـقَ عِـنْـدِيَ مَـا يُـشَـفِّـعُـنـي   فـي الـحُـبِّ إلَّا الـدَّمْـعُ والـحُـرَقُ
أطـلَـقْـتُـهَـا فـي إِثْـرِ مَـنْ هَـجَـرُوا   والـلّـهُ أعـلـم كـيـفَ تَـنْـطَـلِـقُ
فَـلَـوَ انَّـهُـمْ خَـلْـفَ الـسُّـهَـى غَـرِقُـوا   وَلَـو انَّـهُـمْ فـي الـجَـنَّـةِ احْـتَـرَقُـوا

السهى: مجموعة نجوم. يقول: حتى لو كان الذين هجروني بعيدين خلف السهى فسيغرقون في سيل دموعي؛ ولو كانوا في الجنة، وهي برد وسلام، لاحترقوا من حرارة دموعي. وهذا من قول صاحب الموشح: لو صادف نوحُ دمع عيني غرقا/أو جرب لوعتي الخليل احترقا//أو حُمِّلتِ الجبال ما أحمله/صارت دكّاً وخرَّ موسى صَعِقا. والقروي عازف عود من شبابه الباكر، أتقن العود ولما يكن هناك عبد وهاب ولا أم كلثوم، وكانت بضاعة العازف في ذلك الزمن الغابر أغاني الناس والموشحات. ومطلع هذا الموشح «يا غصن نقا مكللاً بالذهب» وهو من الدوبيت، وعلى بحر مبتدع. وللشعر العربي المتأخر على هذا البحر أبيات كثيرة جُلُّها في الغزل. ولابن الفارض دوبيت (أي رباعية) يقول فيها: أهوى رَشَأً رُشَيِّقَ القدِّ حُلَيّ/ قد حكَّمه الغرامُ والوجدُ عَلَيّ//إن قلتُ: خُذِ الروحَ يَقُلْ لي: عَجباً/الروحُ لنا، فهاتِ مِنْ عندِكَ شَيّ. وقد تحير القدماء في «تفعيل» هذا البحر. وأدنى ما أراه إلى الأبيات المغناة «فَعِلُنْ مُتَفاعِلنْ فَعولنْ فَعِلُنْ». وابحث عن زحاف تلصقه بالتفعيلة الثالثة في الشطر الثالث. وقد دوَّن سليم الحلو «يا غصن نقا» على ميزان الأقصاق الخماسي بلا لازمة (شيء يحوج المغني إلى رئتين كمنفاخ البنشرجي)، وغنته فيروز على السربند، وغناه صباح فخري على السماعي الدارج، وغناه الشيخ إمام وإيقاع «الوحدة السائرة» في ذهنه (ولم يصاحبه رق). وكل هذه الإيقاعات يقيس موازير النغم قياساً طيباً مع مراعاة مواطن النبر في اللحن. ولا أكاد أجد موشحاً تحير الإيقاع فيه هذه الحيرة.

أتكِئُ على هذا الكلام المملوكي عن ثقافتنا العربية كي أخوض قليلاً في ثقافتنا الجديدة. في مواقع الإنترنت المتخصصة في الموسيقى، وفي تلك المتخصصة في الشعر ـ وقد شاء ربك أن يكون ذائقو الشعر العربي على جهل كثيف بالموسيقى، والعكس بالعكس ـ كلام كثير عن إيقاع «يا غصن نقا» وعن الدوبيت، ونقاش طيب الطيب كله في التفاصيل. وهو كلام هواة ولا شك. لكنهم ذواقون محبون لهذه المفردات الثقافية حدَّ الهوس. وهم قلة قليلة. هذه الثقافة كلها يرعاها أولئك الهواة ويحفظونها للمستقبل. ولكن الشباب في مجتمعاتنا العربية ذهب بعيداً. قل لي: من يسمع محمد عبد الوهاب اليوم؟ قمنا بعملية استبدال. ألغينا الشعر العمودي، ثم شعر التفعيلة، واكتفينا بأسطر نثرية يسميها أهلها «قصيدة النثر»، وألغينا مقاماتنا وإيقاعاتنا، وطهرنا آذاننا من طريقة الغناء القديمة، حتى عبد الحليم حافظ صار عتيقاً. وصار غناؤنا اليوم أقل تعقيداً من ناحية اللحن في اللحن، ومستنداً إلى توزيع بدائي. ليس لأن البساطة أفضل، ولا لأن الألحان البسيطة تعبر عن النفس الجديدة «للإنسان العربي الجديد» أحسن، ولكن لأن قديمنا المادي المحسوس انهزم ـ قديمنا في السياسة وفي خَلْق الثروة وفي الحرب ـ فكان لا بد من أن ينهزم قديمنا المعنوي غير المحسوس.. أي قديمنا في الثقافة. عدنا إلى حال طفولة ثقافية. حتى في كلمات

اللغة، صار معجم المتعلم العربي المتخرج لتوه من كلية الإعلام أو كلية علم الاجتماع محدوداً كمعجم الطفل. فإن شاء أن يتعلم علماً حقيقياً فالطريقة الوحيدة أن يذهب إلى جامعة خارج الوطن العربي، وأن يستبدل بلغته الأم لغة حية. . «أحيى» من العربية. ولست أدعو إلى العودة إلى مفردات الثقافة المملوكية في أدب أو في موسيقى، ولا أدعو إلى أي رجوع أو «إحياء». بل لا أدعو إلى شيء؛ لأنني لا أرى أفق المستقبل، فلو رأيته لبدأت أخمن كيف سيكون شكل ثقافته. على أنني ـ مثل كل الجمّاعين المدَّخرين، المشبهين موظفي الأرشيف في امتلاك غريزة الفهرسة ـ أحب لو احتفظنا بتراثنا. ومثل موظفي الأرشيف أيضاً لا أنظر كثيراً في فائدة المادة التي أفهرسها، أكتفي بأن أحفظها. لعلها تَلزَم

٤٢ ويل للذي لا يستعد

قال للمفوض الفرنسي، وقد أثار طغيانُه كثيرين من اللبنانيين ممن أيدوا الانتداب في البداية:

ألا قلْ للمفَوَّضِ قد هَزَلْنَا ... وإنَّ الهَزْلَ قد يَتْلوهُ جِدُّ
إذا ما الظلم جاوزَ كلَّ حدٍّ ... فَلِلصَّبرِ الجميلِ عليهِ حَدُّ
فلا تَلم المحِبَّ على جَفَاءٍ ... لقدْ أحْرَجْتَهُ يا مُستبِدُّ

لا تلم من كانوا يحبونك في لبنان، فاستبدادك أحرجهم

سَنُسْمِعُكَ الزَّمازِمَ عَنْ قَرِيبٍ ... فما مِنْ ثورةِ الأحرارِ بُدُّ

الزمازم: همهمات وصخب الجيش

تُخَوِّفُنَا المَنُونَ، وأنتَ أدْهَى ... لقدْ خَوَّفْتَنا مِمَّا نَوَدُّ

المنون: الموت. أنت أدهى من أن يغيب عنك أننا نود لقاء الموت. . المعنى الذي لمحته

ومَنْ أَنْبَاكَ أنَّ المجدَ سَهْلٌ ... وأنَّ طريقَ الاستقلالِ وَرْدُ

أنباك: أنبأك، أي أخبرك

أَيَطْمَعُ بالسيادةِ كلُّ قُطْرٍ ... ولُبْنَانٌ، أبو الأحرارِ، عبدُ؟
شعوبُ الأرضِ لِلنُّوَبِ استَعَدَّتْ ... فَويْلٌ للذي لا يستعِدُّ

٤٣ أدين بدين الحب

قال في صنبول ١٩٢٧:

لَطَمْتَ جِدارَ الأُفْقِ حتَّى تَصَدَّعَا ... وغَادَرْتَ بابَ اللانِهَايَةِ مُشْرَعا

وأَطْلَقْتَ وَرْقَاءَ ابنِ سِينَا، فَحَلَّقَتْ   تَرُودُ مَحَلاً في السَّمَاواتِ أَرْفَعَا

ورقاء: حمامة. وكان ابن سينا في قصيدة عينية شبه الروح بالحمامة، ترود: تبحث عن

ولـم تَـرَ مِـنْ خُـلْدٍ ولا مِـنْ مُـخَـلَّـدٍ   ولـم تَـرَ لا عَـرْشَـاً، ولا مُـتَـرَبَّـعَـا

متربع: مكان

* * *

تَزَعْزَعَ إيماني، وحاقَ بِيَ الأَسى   وودَّعْتُ عَهْداً لِلصَّلاةِ تَكَرَّسَا

وصِرْتُ، إذا لِلدِّينِ يُعْقَدُ مَجْلِسٌ،   عَقَدْتُ، وأهلَ الكُفْرِ، للكفرِ مَجْلِسَا

وإِذْ نـالَ مِنِّي العُجْبُ يَومَاً مَنَالَهُ   وفَارَتْ دِمائي في عُرُوقِي تَحَمُّسَا

العجب: التكبر

تَـذَكَّـرْتُ تَـهْـدِيـدَ الـوَلِـيـدِ لِـرَبِّـهِ   وأَلْقَيْتُ في النارِ الكِتَابَ المقَدَّسَا

الوليد بن يزيد خليفة أموي قيل إنه مزق المصحف، ونسب إليه أنه خاطب ربه قائلاً: أتوعد كل جبار عنيد// فها أنا ذاك جبار عنيد

* * *

أَلا كلُّ دِينٍ، مَا خَلا الحُبَّ، بِدْعَةٌ   أَلا كـلُّ عِـلـم، مَـا عَـدَاهُ، تَـوَهُّـمُ

ولا عَـجَـبٌ أنْ يُـنْـكِـرَ الـلَّـهَ كـافِـرٌ   فَماذا تَرَى مَنْ يَجْهَلُ الحُبَّ يَعْلَمُ!

* * *

كَشَفْتُ ضميرَ الدِّينِ يومَ كَشَفْتُهُ   ولـم أعـتـرفْ بِـالـلَّـهِ حَـتَّـى عَـرَفْـتُـهُ

كشفتُ ضمير الدين يوم كشفتُ الحب

فما أَنَا في الأكوانِ بَعْدُ بِبَاحِثٍ   وفـي كَـبِـدِي أَلْـفَـيْـتُـه، وأَلِـفْـتُـهُ

غَسَلْتُ مِنَ البَغْضَاءِ والحِقْدِ أَضْلُعِي   بِبَعْضِ الذي مِنْ كأْسِهِ قد رَشَفْتُهُ

من كأس الحب

* * *

أَرَى اللَّهَ لَفْظَاً بِالمكَارِمِ يَنْطِقُ   ودِيـنَـاً بِـمَـحْـمُـودِ الـفَـعَـالِ يُـصَـدَّقُ

كَفاكُمْ كَلاماً أَنْ تَلَوْتُمْ كَلامَهُ،   ومـا زَادَ عـنـه فـالـذي زَادَ أَحْـمَـقُ

ولـم يُـوصِـكُـمْ رَبِّي بَأَنْ تَتَشَدَّقُوا   ولـكـنَّـه أَوْصَـى بِـأَنْ تَـتَـصَـدَّقُـوا

* * *

فَيَا مَنْ تَمَنَّى أَنَّهُ كان رَائِيا　　كَرُؤْيَايَ؛ نَقِّ القَلْبَ، وامْشِ وَرَائِيَا

فَقدْ شِمْتُ وَجْهَ اللَّهِ في قَلْبِ مُخْلِصٍ　　صَريحٍ، ولو في الكُفْرِ، ليسَ مُرَائِيَا

شمت: رأيت بعد تفحص

مَضَى كلُّ ما أَبْقَى الغَنِيُّ لآلِهِ　　وظَلَّ الذي أَفْنَى على الفَضْلِ بَاقِيَا

ضاع كل ما خلفه الغنيُّ من المال لآله (لأهله)، وظل ما أنفقه على الخير باقياً

٤٤ الجيل الفاسد

خيرُ المَطَالِعِ تسليمٌ على الشُّهَدا　　أزْكَى الصلاةِ على أرواحِهِمْ أبَدا

ما في حياتِكَ يا لبنانُ مِنْ أَمَلٍ　　حتى يغادِرَكَ الجيلُ الذي فَسَدا

يا مَنْ يَرُومُ كؤوسَ العزِّ صَافيةً　　جَفَّتْ ينابيعُ لبنانٍ، فَرِدْ بَرَدَى

رد بردى: عليك أن تَرِدَ نهر بردى بدمشق

لا سِلمَ إنْ لم نُعِدْ للأَرْزِ نَضْرَتَه　　ولا انتصارَ بِغيرِ الشعبِ مُتَّحِدَا

٤٥ قل للمحنِّط

قال عام ١٩٣٠ في حفل تأبين أقيم لجبر دُومَط في صنبول:

يا صَوْلَةَ الجوعِ! كم ذلَّلتِ مِنْ أسدٍ　　يا دولةَ الجهلِ! كم رأَّسْتِ مِنْ ذَنَبِ

صولة: هجمة

كم فازَ بالمالِ دوني عاجِزٌ وَكِلٌ　　وكم تعبتُ، فلم أربحْ سوى التعبِ

وكل: متواكل كسول

كم غَيَّبَ القبرُ ذا مالٍ، فما اكترثتْ　　له المحافلُ في بُعْدٍ ولا قُرُبِ

لا يكسِبُ العلم إلَّا كلُّ مجتهدٍ　　وكم ثراءٍ بغيرِ الجِدِّ مكتَسَبِ

قل لِلمحَنِّطِ: ماذا قد حفظتَ لنا　　مِنْ ناضرِ العودِ، إلَّا يابسَ الحطبِ

ليس الملوكُ الأُلى خَلَّفْتَ غيرَ دُمَىً　　أبقتْ عليها بناتُ الدهرِ لِلَّعِبِ

الألى: الذين، بنات الدهر: المصائب

دافعتَ دُودَ البِلى عنها، ولو نَطَقَتْ　　تلك العظامُ لصاحتْ صيحةَ الغضبِ:

دود البلى: الدود الذي يساعد في تحلل الأجسام

ذَرْني لأُمِّيَ تَبْلَى في عناصِرِها عناصري، وتُصَفِّي نارُها ذَهبي

عظام الموتى تريد من خبير التحنيط أن يتركها لأمها الأرض لتتحلل فيها، ولكي يذهب الجسم وتبقى الروح، كما تصفي النار الذهب الخالص من خامه

إنَّ الملوكَ لَمَنْ تَلقَى مَوامِيَهُمْ مخبوءةً في بطونِ الكُتْبِ لا التُرَبِ

يقول: إن الملوك الحقيقيون لَهُمُ الذين يتركون أثراً في التاريخ، فمومياءاتهم هي آثارهم في الكتب، لا من تُحفَظ أجسادهم تحنيطاً. الترب: جمع تربة = مقبرة. التسويد لعمران القفيني

٤٦ نقاء الضمير

قال عندما تعرف إلى الشاعر عقل الجر:

سِرْ على الِأنْصُلِ الحِدَادِ، وحَاذِرْ شَوْكَةً تَنْخَسُ الضَّمِيرَ الحَيَّا

فَلَوِ الأَرْضُ فَحْمَةٌ، لم تُلَوِّثْ لَكَ يَومَ الحِسَابِ طِرْسَاً نَقِيَّا

الطرس: الورقة

٤٧ ترحيب بشاعر

قال ترحيباً بالشاعر عقل الجر في صنبول سنة ١٩٣٠:

لا تَلمني يا عَقْلُ إنْ أنَا قَصَّرْ تُ، فَهذا يا عَقْلُ شِعْرٌ بَدِيهي

إنَّهُ لَمحَةٌ مِنَ الحُبِّ في القَلْـ ـبِ، وجُزْءٌ مِنْ بَعْضِ مَا لَكَ فِيهِ

إنَّهُ كَالسَّمَاءِ تُبْدي لَكَ الزُّهْـ ـرَ، وتُخْفِي أَضْعَافَ مَا تُبْدِيهِ

الزهر: النجوم، وما نراه من نجوم السماء قليل من كثير

٤٨ رثاء فوزي المعلوف

قال في تأبين فوزي المعلوف بصنبول ١٩٣٠:

يَخْلَعُ الشاعرُ العظيمُ على الدُّنْـ ـيَا بُرُوداً كانتْ لَها أكفَانا

فَيُريكَ الأشياءَ ما شاءَ: أَشْخَا صاً تُحَاكِيهِ خَاطِراً، ولِسانا

تحاكيه: تشبهه

فَيُنَاغِي الأطيارَ حِيناً، وأَحْيَا نَاً يُنَاجِي الرِّيَاضَ والغُدْرَانا

ويَفِيضُ الحنانُ مِنْ قَلْبِهِ حَتَّـ ـى يَظُنَّ الوجودَ فاضَ حَنانا

وكأنَّ الحياةَ تَرْثي لما يَلْـ ـقَاهُ مِنْها طُولَ الحَياةِ هَوانَا

فَتُرِيهِ في الوَحْشِ إِنْسَاً، وفي الأَشْـ ـباحِ أَهْلاً، وفي السُّهَى أَوْطانَا

السهى: نجم في السماء

أَجْنَبِيٌّ عَنْ أهلِهِ وذَوِيهِ وغَرِيبٌ بينَ الوَرَى أَينَ كانا

٤٩ أدباء مغتربون

قال في مأتم جرجس إسكندر المعلوف سنة ١٩٣٠:

كَمْ خامِلٍ، لولا التِّجا رةُ كان أَنبَهَ مَنْ كَتَبْ

خامل: غير مشهور، أنبه: أشهر

ومُضَيَّعٍ بينَ البِضا عَةِ، وَهْوَ نابغةُ الأدبْ

وَارَحْمَتَا للنَّازِحِيـ ـنَ عنِ الشَّآمِ بِلا سَبَبْ

ذَهَبَ الزمانُ بِهِمْ، وهُمْ يَتَهافَتونَ على الذَّهَبْ

ولَوَ انَّهُمْ في أَرْضِهِمْ كَدَحُوا، لفازُوا بالأَرَبْ

ولأَحْرَزوا أضعافَ هـ ـذا الوَفْرِ، مَعْ نِصْفِ التَّعَبْ

٥٠ المريض

قال عام ١٩٣١:

ساهرٌ، لا تمتُّعاً، بل عَذاباً نائمٌ، لا استراحةً، بل عَياءَ

في مكانٍ، هَبْهُ السماءَ جمالاً، أَيرى المُدْنَفُ السماءَ سماءَ؟

المدنف: المريض، السماء: الاسم المفضل للجنة عند المسيحيين

يسمعُ الناسَ يَسرحونَ إلى الأعـ ـمالِ صُبحاً، ويَمْرحونَ مَساءَ

وهْوَ عنهمْ في قبضةِ الدَّاءِ، لا يمـ ـلِكُ إلَّا الإصْغاءَ والإغْضاءَ

إنْ يشاهِدْ مِنهُمْ، فوجهَ طبيبٍ عادَهُ، ثم عادَ من حيثُ جاءَ

أو نسيبٍ، إنْ زارَهُ، فكما زا رَ مُحِبٌّ قبراً، وملَّ البقاءَ

يَستحي حينَ يَسألُ الشيءَ مضطرَّ اً، ويحتاجُ غيرَهُ أشياءَ

وإذا حاولَ الكلامَ، فَهَمْساً يتلاشى، في كفِّهِ، إيماءَ

في هذا البيت الأخير تصوير دقيق وموجز إيجازاً حلواً للمريض الذي يطلب حاجته هامساً، لشدة المرض؛ وحتى همسته فهي تتلاشى على هيئة إيماءة من يده

٥١ بلغوه سلامي

عيدُ البَرِيَّةِ عيدُ المولِدِ النَّبَوِي ... في المشْرِقَيْنِ لَهُ، والمغْرِبيْنِ دَوِي
بَدا مِنَ القَفْرِ نُوراً لِلوَرَى وهُدىً ... يا لِلتَّمَدُّنِ! عَمَّ الكونَ مِنْ بَدَوِي
يَا صاحِبَ السَّيْفِ لم تُفْلَلْ مَضارِبُهُ ... اليومَ يَقْطُرُ ذُلّاً سَيْفُكَ الدَّمَوِي

يا صاحب السيف ـ الذي ـ لم تفلل (تتثلم) مضاربه (شفراته)

يا فَاتِحَ الأَرْضِ مَيْدَاناً لِقُوَّتِهِ ... صَارَتْ بِلادُكَ مَيْدَاناً لِكُلِّ قَوِي
يا قَوْمُ! هذا مَسِيحِيٌّ يُذَكِّرُكُمْ: ... لا يُنْهِضُ الشَّرْقَ إلَّا حُبُّنَا الأَخَوِي
فإِنْ ذَكَرْتُمْ رسولَ اللَّهِ تَكْرِمَةً ... فَبَلِّغُوهُ سَلامَ الشَّاعِرِ القَرَوِي

٥٢ جبل نحو المجد

أليسَ في العمرِ يومٌ أستريحُ بِه ... مِنْ شرِّ منتقِمٍ، أو لؤمِ منتقِدِ
مَنْ كانَ يطمعُ فيما نِلْتُ مِنْ شَرَفٍ ... فَلْيَشْدُ، ولْيَعْتَقِدْ شَدْوِي ومُعْتَقدي
لو كانَ يَدْرِي حَسودي ما أُكَابِدُهُ ... في الحقِّ، ما أَكَلَتْهُ جمرةُ الحَسدِ
إنِّي صَعِدْتُ إلى مجدي على جَبَلٍ ... مِمَّا تَهَدَّمَ مِنْ روحي ومِنْ جَسدي

٥٣ فرحان بلا سبب

قال في إيتاكيرا ١٩٣٢:

قُمتُ قبلَ الطيورِ أشدُو حُبُوراً ... لا أرى عِلَّةً لِفَرْطِ حُبُوري
مُؤْنِساً وَحْشَةَ الفضاءِ، كأَنِّي ... نَبَأٌ طَيِّبٌ سَرَى في الأثيرِ
وعلى وَجْنَتَيَّ لِلْوَرْدِ ظِلٌّ ... عائِمٌ فوقَ مَوْجَةٍ مِنْ نُورِ
أَتَهَادَى بينَ الغُصُونِ كَغُصْنٍ ... وأُنَاغِي العُصْفُورَ كالعُصْفُورِ
قلتُ: رَبِّي! أَزَالَ عَهْدُ شَقَائي؟ ... أَمْ أُرَانِي في عالَمٍ مَسْحُورِ؟
وإذا زهرةٌ كَوَجْنَةِ طِفْلٍ ... جَنْبَهَا شَوْكَةٌ كَنَابِ هَصُورِ

ناب هصور: ناب أسد

فَتَذَكَّرْتُ ليلةَ الأمسِ حُلماً ... مِنْهُ أَدْرَكْتُ سِرَّ هذا السُّرورِ
أنَّ كَفَّ الرحمنِ، تحتَ سُكُونِ اللَّـ ... ـيلِ، بالعَفْوِ غَلْغَلَتْ في سَرِيري

غلغلت: أي تغلغلت (هكذا يقولها اللبنانيون)

فَرَمَتْ نَفْحَةً مِنَ العِطْرِ في قَلْـ ـبي، وعادَتْ بِشَوكَةٍ مِنْ ضَميري
أي أن كف الرحمن أودعت قلبي نفحة عطر وعادت من قلبي منصرفة آخذة شوكة خلّصت من أذاها ضميري

٥٤ تضحية البخيل

يا مَنْ يَلومُ بخيلاً، قد حَكَمتُ لَهُ عليكَ: أَنَّكَ تَسْتَجدي، ويَمْتَنِعُ
إنَّ الأَشِحَّاءَ أَسْخَى الناسِ تَضْحِيَةً إذْ طالَما نَفَعُوا الدنيا، وما انْتَفَعوا
لم يَمنعُوا الناسَ يَوماً بعضَ ما جَمَعوا إلَّا لِكَيْ يمنَحوهُمْ كلَّ ما جَمَعوا
قالوا: النوائبُ للأَضْدادِ جامِعَةٌ حَلَّتْ بِهِمْ نُوَبُ الدنيا، وما اجتَمَعُوا
يتحدث الآن عن قومه المتفرقين المتنابذين
قومٌ إذا قَعَدوا في مَنْصِبٍ شَمَخُوا ناسِينَ كَمْ قَرَعوا بَاباً، وكَمْ رَكَعُوا
مَنْ لا يُحَرِّكُهُمْ ظُلمٌ يُجَوِّعُهُمْ أنَّى يُحَرِّكُهُمْ ظُلمٌ إذا شَبِعُوا

٥٥ تحية للعصامي

قال، وأُنشدت بالنيابة عنه في تكريم موسى كريم بصنبول لمرور خمسين عاماً على احترافه الصحافة:

أديبٌ عِصَامِيٌّ مَضَى في سَبِيلِهِ إلى النَّصْرِ، لم يُلْقِ السِّلاحَ ويَسْتَلْقِ
طَوَى العُمْرَ يَغْذُو الضَّادَ مِنْ ذَوْبِ قلبِهِ ولا يَبْتَغي غيرَ الحَلالِ مِنَ الرِّزْقِ

٥٦ يا حبذا وطني على حالاته

قال، وكان عدد من اللبنانيين يحتفلون في أيلول من كل سنة باستقلال لبنان مع بقاء الانتداب الفرنسي:

أروي بِدَجلةِ مَدْمَعي وفُرَاتِهِ وَطَناً، ولمَّا يبقَ غيرُ رُفَاتِهِ
خَلَتِ المحافلُ مِنْ بلابِلِه، فَلا تَقَعُ العيونُ على سِوى حَشَراتِه
حَسْبُ الحزينِ عليكَ أنَّكَ مائِتٌ قَدْ عَيَّدَتْ أحبابُهُ لِمماتِه
يكفي الذي يحزن عليك أيها الوطن أنك ميت يعيد أحبابه لموته، فهذه مصيبة بحد ذاتها
شَقُّوا لهُ الأعلامَ مِنْ أكفانِه وتَبادَلُوا الأنخابَ مِنْ عَبَراتِه
أعلامُ إذْلالٍ، كأنَّ خُفُوقَها في جَوِّهِ لَطْمٌ على وَجَناتِه

أَمُدَوِّنَ التاريخِ! مَرْحَمةً، ولا تذكرْ لَهُمْ لبنانَ في صَفَحاتِه
لا تُخبِرِ الأحفادَ أنَّ جُدُودَهُمْ لم يَشْهَرُوا سيفاً بِوَجْهِ عُدَاتِه
قالوا: أَتَعْشَقُه، وهذِي حالُه؟ يا حَبَّذا وطني على حالاتِه
العيشُ حُلوٌ في سبيلِ رُقِيِّهِ والموتُ أحلى في سبيلِ حياتِه

٥٧ سلام على كفر يوحد بيننا

قال، سنة ١٩٣٣ في صنبول، في حفل الجمعية الخيرية الإسلامية بعيد الفطر:

صِيَاماً إلى أنْ يُفْطِرَ السَّيْفُ بِالدَّم وصَمْتاً إلى أنْ يَصْدَحَ الحقُّ يَا فَمِي
لقد صَامَ هِنْدِيٌّ فَجَوَّعَ دَوْلَةً فهلْ ضَارَ عِلْجَاً صَوْمُ مِلْيونِ مُسْلِمِ

الهندي الذي أضرب عن الطعام فأربك بريطانيا هو غاندي

أُكَرِّمُ هذا العِيدَ تَكْرِيمَ شاعِرٍ يَتِيهُ بِآياتِ النَّبِيِّ المعَظَّمِ
ولكنَّني أَصْبو إلى عِيدِ أمَّةٍ مُحَرَّرَةِ الأعناقِ مِنْ رِقِّ أَعْجَمِي
هَبُونِيَ عِيداً يَجْعَلُ العُرْبَ أُمَّةً وسِيرُوا بِجُثْمَاني على دِينِ بَرْهَمِ

هبوني: امنحوني، برهم: البراهما وهو إله الخلق عند الهندوس

فقد مَزَّقَتْ هذِي المذاهِبُ شملَنَا وقد حَطَّمَتْنَا بينَ نَابٍ ومَنْسِمِ

المنسم: ظفر الجمل

سَلامٌ على كُفْرٍ يُوَحِّدُ بَيْنَنا وأهلاً وسهلاً بعدَهُ بِجَهَنَّمِ

٥٨ ظهور وصدور

العبقريُّ يَعافُ شُهرتَهُ فتجيئُهُ عفواً بِلا تَعَبِ
والمدَّعِي يُمْسِي ويصبحُ مِنْ دَعْوَاهُ في هَمٍّ وفي نَصَبِ

نصب: تعب

يَغْشَى المحافِلَ للظُّهورِ، ولَوْ قرأَ الصُّدُورَ لَجَدَّ في الهَرَبِ

لا يفُتْكَ أن (الظهور) و(الصدور) فيهما لعبة لفظية: إيهام بالطباق

٥٩ الشهرة والافتضاح

حَلَمْتُمْ أنَّكُمْ أمراءُ شِعرٍ فَمَا ذَنْبي إذا طَلَعَ الصباحُ

خمولُ الذِّكرِ للجُهَّالِ سِتْرٌ   وشُهرةُ مُدَّعي الأدبِ افتِضَاحُ
وكمْ في الشعرِ مِنْ كُثْبانِ رملٍ   تُكَوِّمُها، وتَسفِيها الرِّياحُ

٦٠ فرار مع المحبوبة

قال، ونظمها في إيتاكيرا على بعد ٢٠ كم من صنبول. وعاش هناك سبعة أشهر مع أمه وشقيقته في بيت وسط بستان جميل. وأنشدها في حفل بصنبول أقيم لرفيقه إلياس فرحات سنة ١٩٣٢ :

لمياءُ! هذا جَبينُ الفجرِ قد سَفَرا   وموسمُ الحبِّ عنَّا مُزْمِعٌ سَفَرا
وأَضْيَعُ الناسِ مَنْ يَمضي الشبابُ، ولا   يقضي مِنَ الحبِّ في أيامِهِ وَطَرا

يقضي وطراً: يلبي رغبته

طِيري نُنَقِّرْ مَعَ الأسرابِ في فُرَصٍ   إنْ طِرْنَ لنْ تَجِدي حَبَّاً ولا ثَمَرا
غداً نذوبُ إلى الأعنابِ مِنْ ظَمَأٍ   ونَهْبِطُ الكَرْمَ لا نَلقَى لَهَا أَثَرا
عيبٌ علينا نَكونُ البُلْبُلَيْنِ، ولا   نشاركُ الطيرَ في أعيادِها سَحَرا
أما تَرَيْنَ الدُّجَى لُمَّتْ غدائِرُهُ   سُوداً، فَنَشَّرَها رَأْدُ الضُّحَى شُقُرا

غدائره: خصلات شعره، رأد الضحى: عز الضحى واكتمال شمسه

والغابُ ألَّفَ جَوْقاً مِنْ عَشيرتِه: الريحَ والنهرَ والأطيارَ والشَّجَرا
والبدرُ كالنَّاشِئِ العَصْرِيِّ، عادَ ضُحَىً   مِنْ مَرْقَصِ النجمِ يشكُو الضَّعْفَ والخَوَرَا

الناشئ العصري: الشاب في أيامنا هذه؛ يشبِّهُ البدر مع زوال الليل بالشاب العائد من المرقص بعد سهرة امتدت حتى الصباح، فهو خائر القوى

يَمْشي إلى السَّاحِلِ الغربيِّ مُتَّئِدَاً   كالشَّيْخِ في سفحِ تلِّ الأُفْقِ مُنْحَدِرا

يعود فيشبِّه القمر وهو يسير متئداً (متمهلاً) بالشيخ الذي يهبط سفح جبل

والأرضُ حارَتْ: أَتَلْقَى الفجرَ ضاحِكةً   لأُمِّها الشمْسِ، أمْ تبكي ابْنَها القَمَرا
والصبحُ أرخَى نِقَاباً مِنْ أشعَّتِه   أخفَى بِهِ الزُّهْرَ لما أعْلَنَ الزَّهَرا

الزُّهر: النجوم، الزَّهَر: الورود

سبحانَ مَنْ أبدعَ الأَنْوَارَ مُعْجِزَةً   إنْ شاءَ أبْدَى بِها الأشياءَ، أو سَتَرا
ولِلجَداوِلِ أَنَّاتٌ مُرَجَّعَةٌ   كأنَّها فُجِّرَتْ مِنْ أَكْبُدِ الشُّعَرا

ولِـلـسَّـحـابِ ثَـنِـيَّـاتٌ مُـصَـفَّـفَـةٌ بيضٌ، كأنَّ عجوزاً جَعَّدَتْ شَعَرا

ثنيات: يقصد بها خصلات شعر

تُذَهِّبُ الشمسُ أطرافَ اللُّجَيْنِ بِهَا كـمـا تُـوَشِّـي يَـدُ الـزُّوقِـيَّـةِ الـحِـبَـرَا

اللجين: الفضة، الزوقية: بنت «الزوق»، القرية اللبنانية المشتهرة بالتطريز، الحِبَر: الأثواب

هيَّا إلى الغابِ، إنِّي قد بَنَيْتُ لنا مِـنَ الـرَّيـاحِـيـنِ عُـشّـاً لَـيِّـنـاً عَـطِـرا

تَحْنُو علينا ظلالُ الأَيْكِ، رَقَّطَها مِـنَ الأشـعَّـةِ كَـفٌّ تَـرْسُـمُ الـنَّـمِـرَا

تحنو علينا ظلال الأيك (الشجر)، وترقط أشعة الشمس الأماكن المظللة ببقع ضوء، تجعلها تشبه جلد النمر

إذا سَـئِـمْـنَـا ذُرَى أَفْـنَـانِـهـا سُـرُراً مَدَّتْ لنا الأرضُ مِنْ أعشابِها حُصُرا

ذرى أفنانها: قمم غصونها، سُرراً: تخوتاً، الحصر: بُسُط القش

فِرِّي إليهِ مَعي عندَ المساءِ، ولا تَـرْوِي إلـى بَـشَـرٍ مِـنْ أمـرِنَـا خَـبَـرا

إنِّي كريمٌ، أُحِبُّ المالَ مُشْتَرَكاً لكنْ غَيُورٌ: أريدُ الحسنَ مُحْتَكَرا

خَلِّ الـهُـيـامَ بِـجَـنَّـاتٍ مُـزَخْـرَفَـةٍ لِـشَـاعِـرٍ يَـعـشَـقُ الأوهـامَ والـصُّـوَرَا

اترك يا هذا الشغف بالجنات المزدانة للشعراء

نحنُ، الفلاسفةَ الحَمْقَى، لَنا وَلَعٌ بالغابِ، حتَّى غَدَوْنا نَكْرَهُ البَشَرا

لا يُنْبِتُ الدينُ بُغْضاً في مَزَارِعِنا مَهْمَا أخو الجهلِ مِنْ أشواكِهِ بَذَرَا

الـكـلُّ فـيـنـا جُـنـودٌ لـلإخـاءِ، فَـمَـا في دولـةِ الـشِّـعْـرِ نُـوَّابٌ، ولا وُزَرَا

نَسْتَعْذِبُ الموتَ مِنْ أجلِ الحياةِ، فَمَا يَجْنِي الورى الشَّهْدَ حتى نَجْنِيَ الإبَرَا

يشدد الشاعر عمران القفيني النكير على القروي قائلاً: «يا قروي هذا من: ولا بد دون الشهد من إبر النحل»، ونقول: هذه سرقة ليست بسرقة، فلشهرة بيت المتنبي نعدها من التضمين

عِفْنَا القشورَ، وهِمْنَا باللُّبابِ، فَلَا يُـزْرِي الـجـهـولُ عـلـيـنـا أنَّـنـا فُـقَـرا

يزري علينا: يعيب علينا

لا نَقْدُرُ الناسَ إلَّا بالعُقُولِ، ولا نُـقِـيـمُ لـلـمـالِ وَزنـاً، قَـلَّ أو كَـثُـرَا

نَقْدُر: نُقيِّم (ألا دع عنك الصرفيين المتجمدين الذين يقولون إنها «نقوِّم»، وكأنهم لم يسمعوا بتقويم الاعوجاج وتقويم الأسنان. «نقيِّم» معناها نحدد القيمة، ومنها التقييم، وهذه حيلة صرفية بارعة للعربية المعاصرة لتفريع اللفظ حتى يغطِّيَ معاني جديدة مع أمن اللبس. وأحسن مجمع القاهرة إذ أجازها)

نُورُ المسيحِ تجلَّى مِنْ مَذَاوِدِنا ... وسيفُ أحمدَ مِنْ صحرائِنا شُهِرَا

المذاود: المعالف، وقد وُضع عيسى الوليد في مذود

وهلْ سمعتَ بِغَنْدِي؟ إنَّهُ حَمَلٌ ... في الهندِ ثارَ على الضِّرْغَامِ وانتصَرَا

غندي: غاندي

إن كانَ عابَ عليهِ العُرْيَ مُسْتَتِرٌ ... فإنَّ آدمَ لولا الإثمُ ما اسْتَتَرا

ذاع أن البابا اعتذر عن لقاء غاندي لأن ثوبه لا يغطي ساقيه

هَزُّوا الحسامَ فلم يَحْفِلْ، وهزَّ لَهُمْ ... غُصْنَ السلامِ، فَهَزَّ البَحْرَ والجُزُرا

الجزر: يعني الجزر البريطانية التي هزها غاندي بدعوته اللاعنفية

وغادَرَ السيفَ يَحْكِي غِمْدَهُ فَلَلاً ... فاعْجَبْ لِغُصْنٍ يَفُلُّ الصارِمَ الذَّكَرَا

غادر(جعل) غاندي السيف يحكي (يشبه) غمده فللاً (تثلماً)، فما أعجب غصن السلام وهو يثلم الصارم (السيف) الذكر (القاسي)

٦١ ومن نحن عند العد كي نتعددا

قال عام ١٩٣٣ في بيونس آيرس ويذكر الملك فيصل ملك العراق وهو في أوروبا يفاوض، هذا قبيل وفاته في سويسرا. وألقيت في حفل كبير، حضره رئيس الأرجنتين:

يَمُدُّونَ، للتَّسليمِ، في لَنْدَنٍ يَدَاً ... ويُخْفُونَ للتَّسليحِ في نِينَوَى يَدا

وقالوا: مليكُ العُرْبِ في الغَرْبِ مُكْرَمٌ ... فقلتُ: إذنْ باتَ المليكُ مُهَدَّدا

نَصَحْتُكَ، لا تَمْدُدْ إلى أَبْرَصٍ يَدَاً ... ولو مَطَرَتْ كفَّاهُ دُرَّاً مُنَضَّدا

الأبرص: الذي به بياض من بهاق أو نحوه، ويعني البيض الأوروبيين، الدر المنضد: اللؤلؤ المنظوم في عقد

لأمرٍ يُلاقيكَ الفِرَنْجِيُّ باسِماً ... فَزِدْ حَذَراً مَا زادَ ذئبٌ تَوَدُّدَا

تراهُ صحيحَ الودِّ، وَهْوَ سقيمُهُ ... كما تُكْسِبُ الحمَّى الخدودَ تورُّدَا

وإنَّ الذي أَخْنَى على عادَ قَبْلَكُمْ ... لَيُخْنِي على أُورُبَّةَ اليومَ أو غَدَا

أخنى على عاد: أهلك قوم عاد

وأنْكَى العِدَى كلبٌ طليقٌ مُسَلَّحٌ ... يَهَدِّدُ في الأقفاصِ ليثاً مقيَّدَا

ومَزَّقَنا الإرشادُ عشرينَ دَوْلَةً ... ومَنْ نحنُ، عندَ العدِّ، كيْ نَتَعَدَّدَا

الإرشاد: الوصاية الأوروبية

لئنْ وَعَدونَا بالجلاءِ عَنِ الحِمَى فقد ضَرَبوا يومَ القيامةِ موعِدَا

٦٢ رثاء فيصل بن الحسين

قال، وألقاها في الحفلة التأبينية للملك فيصل بن الحسين، ملك العراق، سنة ١٩٣٣ :

لـنْ يَـفِيـكَ الـرِّثَـاءُ يـا سَـيِّدَ الـعُرْ ـبِ، ويَـا سِبْطَ سَـيِّدِ الـمُرْسَلِيـنـا

سبط: حفيد

وَلَـوَ انَّ الـسَّـحَـابَ كـانَ دُمُـوعـاً وَلَـوَ انَّ الـنُّـجُـومَ كُـنَّ عُـيـونَـا

يا حَجِيجاً يَطْوِي إلى الكَعْبَةِ البَطْـ ـحَاءِ طَيّاً، ويَسْتَحِثُّ الظُّعُونَا

البطحاء: مكان في مكة، يستحث الظعون: يحث الإبل على السير

كُنْ جَليداً عَلى الشَّدائِدِ، واسمَعْ نَـبَـأً رَنَّ فـي الـحِـجَـازِ رَنِـيـنَـا

وَطَـأِ الـرَّمْـلَ عـنـدَ مَـكَّـةَ وَطْـئـاً كَـانْطِبَاقِ الجُفُونِ رِفْقَاً ولِـينـا

لـيسَ هـذا رَمْلُ الحِجَازِ، ولـكـنْ هُوَ قلبُ الحِجَازِ أَمْسَى طَحِينَا

طحين: مطحون

٦٣ أفاعيل ذات الأساطيل

قال في رثاء الملك فيصل بن الحسين ١٩٣٣ :

يَهْنِئْكَ! لم تَرَ عيْناكَ الذي فَعَلَتْ ذاتُ الأَساطِيلِ مِنْ أهوالِهَا فِينا

ذات الأساطيل: بريطانيا

أَجْرَتْ مَراكِبَها مَشحونَةً قَذَراً وأَفْرَغَتْها يَهُوداً في فِلَسْطِينَا

قد أَنْزَلَتْهُمْ بِوادِينا على سَعَةٍ وشَرَّدَتْنَا حَيَارَى في بَوادِينا

وأَكْبَرُ النَّائباتِ السُّودِ نَائِبَةٌ أَحْبَابُنَا شَارَكُوا فِيها أَعَادِينَا

وقد أفتى البطريرك عريضة في ذلك الوقت بوجوب معاملة اليهود بشريعة المسيح وإيوائهم والانتفاع برساميلهم

لم يَكْفِ لُبْنَانَ مَا كادُوا لهُ فَغَدَا، وَهْوَ اللُّبَيْنَانُ، مَقْسُوماً لَبَانِينَا

يا سَيِّدَ الدِّينِ! هَلْ يُدْعَى مُعَلِّمُكُمْ عِيسَى بْنَ مَرْيَمَ، أَمْ مُوسَى وهَارُونا

لقَدْ رَحِمْتَ ثَعَابينَ اليَهُودِ، ألا فَارْحَمْ خِرَافَكَ، واحْسَبْهُمْ ثَعابِينَا

شبه المسيح رعاياه بالخراف: «أنا هو الراعي الصالح، والراعي الصالح يبذل نفسه عن الخراف» يوحنا أصحاح ١٠ ـ ١١

قالَ المسيحُ لَنا: حِبُّوا أَعَادِيَكُمْ   لَكِنَّهُ لم يَقُلْ: حِبُّوا الشَّيَاطِينَا

تسويد عمران القفيني

الدِّينُ قِبْلَتُنَا، لَكِنْ تِجَارَتُكُمْ   بِالدِّينِ تُكْرِهُنَا أَنْ نَكْرَهَ الدِّينَا

متاجرتكم بالدين تجبرنا على أن نكرهه

أَمَّلْتُمُ الرِّزْقَ مِنْ أَزْرَى الأَنامِ يَداً   يا لِلمصِيبَةِ! هل صِرْتُمْ مَجانينَا

هَبْكُمْ أَصَبْتُمْ، فإِنَّا لا نُرِيدُ غِنَىً   مِنَ اللُّصُوصِ المرَابينَ المرَائينَا

واللَّهِ لو دَاسَ في بَيْرُوتَ أطهَرُهُمْ   لَسَمَّمَتْ قَدَمَاهُ نَبْعَ صَنِّينَا

٦٤ وطن يحتاج إلى صفعة

قال سنة ١٩٣٤:

لَكَمْ تَحميكَ يا وَطني لُصوصٌ!   وكَمْ، يا قومِ، تَرْعاكُمْ ذِئابُ

سَنَقْتُلُكُمْ، ونُحْيِيكُمْ، إلى أنْ   يُمَزَّقَ عنْ عُيونِكُمُ الحِجابُ

وكَمْ كَفٌّ يطيرُ بِها صَوابٌ   وأخرى يُسْتَعادُ بِهَا الصَّوابُ

كف: صفعة

٦٥ لِمَن المآدب

قال وقد أدَبَت الجالية العربية في بيونس آيرس سنة ١٩٣٤ مأدبة سخية له ولرفيقه إلياس فرحات:

لمنِ المآدِبُ حَوْلَها الأَضْيافُ   وعَلامَ هذا البَذْلُ والإسْرَافُ

حَسْبُ البلابِلِ حَبَّتانِ وقَطْرَةٌ   وتَعُودُ لِلتَّغْرِيدِ، وَهْيَ خِفَافُ

واللَّهِ مَا ظَفِرَتْ يَداي بِلُقْمَةٍ   إلَّا عَرَانِيَ خَاطِرٌ رَجَّافُ

وتَمَثَّلَتْ ليَ في المضَارِبِ صِبْيَةٌ   خُمْصُ البُطُونِ، كَأَنَّهُمْ أَطْيافُ

خمص البطون: ضامرو البطون جوعاً

لَهُمُ الصَّحارَى والمجَاعَةُ والصَّدَى   ولَنَا النَّدَى، والخَمْرُ، والأَرْيَافُ

الصدى: العطش

أَشْبَالُ مَنْ نَشَرَ الكَتائِبَ سَيْفُهُ   وسَقَى السَّبَاسِبَ رُمْحُهُ الرَّعَّافُ

السباسب: الصحارى، الرعّاف: الذي يسيل منه الدم

أَنْجَالُ مَنْ كانتْ تَرُوحُ وتَغْتَدي كَالنَّمْلِ، حولَ خِوَانِهِ، الأَضْيافُ
أطفالُ سُلْطانٍ تَجوعُ، وطَالما شَبِعَتْ، بِفَضْلِ فَطُورِهِ، الآلافُ
أَنَّى تَطِيبُ لِذِي الشُّعُورِ لُماظَةٌ وتَسُوغُ في حَلْقِ الأَبِيِّ سُلافُ

لماظة: لقمة، سلاف: خمر

والشَّهْدُ، إنْ ذُكِرَ المُقِيمُ عَلَى الطَّوَى، سُمٌّ بِأَحْشَاءِ الكَرِيمِ زُعَافُ

الطوى: الجوع، سم زعاف: سم سريع القتل. تسويد عمران القفيني

٦٦ كلا أحمديها

قال سنة ١٩٣٥ في المهرجان التذكاري الذي أحيته العصبة الأندلسية لمرور ألف سنة على وفاة المتنبي:

نَبِيٌّ ولو ضَجَّتْ شُيوخٌ ورُهْبَانُ وهلْ بعدَ إعْجازِ ابنِ كِنْدَةَ بُرْهانُ

ابن كندة: المتنبي أحمد بن الحسين الكِنْدي

وكلُّ كلامٍ يَرفعُ النفسَ مُنْزَلٌ وكلُّ مَقالٍ يُفْسِدُ العقلَ بُهْتانُ
إذا افتخَرَتْ أَمُّ اللُّغاتِ على اللُّغَى وأَدْلَتْ بِفُرْقَانٍ، تَعَرَّضَ دِيوانُ

إذا افتخرت العربية على اللغات بالقرآن، فديوان المتنبي يزيدها فخراً

كِلا أَحْمَدَيْها جاءَ فيها بِمُعْجِزٍ فَلِلشَّرْعِ قرآنٌ، ولِلشِّعرِ قُرآنُ

ظل النقاد يقولون «الأحمدين» يعنون المتنبي وأحمد شوقي، حتى جاء القروي فقرن المتنبي بالرسول، وجعل ديوان المتنبي قرآن الشعر. لافتٌ ما في الشعر من الصنعة: هذه المزاوجة بين برهان ورهبان في البيت الأول، وأختها هنا بين «الشرع» و«الشعر». ومن محاسن شعر القروي أنه استعمل المحسنات البديعية بدون إفراط فجاءت حلوة سائغة، وكان المسلمون يحتملون منه جرأته لاستمساكه بالثقافة العربية الإسلامية، ولو كان بيننا اليوم في عام ٢٠٠٩، لكفروه تكفيراً

فيا لَكَ مِنْ نَسْرٍ لَهُ زَأْرُ ضَيْغَمٍ زَمَازِمُهُ في مِسْمَعِ الدَّهْرِ أَلْحَانُ

الزمازم: الأصوات المختلطة، وصاحب الكلمة المتنبي إذ يقول عن الجيش «وفي أذن الجوزاء منه زمازم»

تَخَطَّى سماءَ العَبقَرِيِّينَ، وانجَلَتْ لهُ خَلْفَ أكوانِ الأُناسِيِّ أَكْوَانُ
ونَزَّلْتَها للناسِ آياتِ حِكْمَةٍ جُواهِرُهَا في مَفْرِقِ الشِّعْرِ تِيجانُ

الآن يخاطب المتنبي. المفرق: الرأس

بِكَ اشتهر العَصْرُ الذي أنْتَ فَخْرُهُ وأنتَ لَهُ التارِيخُ والمجدُ والشَّانُ

عِيَالٌ على ذِكْرَاكَ ذِكْرى مُلُوكِهِ وأسماؤُهُمْ فيهِ على اسمِكَ ضِيفَانُ

الملوك الذين نذكرهم اليوم إنما يذكرون بسببك، فشهرتهم متطفلة على شهرتك أنت، وأسماؤهم بمثابة الضيفان، الضيوف، على اسمك

خَلَدْتَ، فَخَلَّدْتَ الزَّمانَ، وهَكَذا تموتُ وتَحْيَا بالنَّوابِغِ أَزْمَانُ

بِشَاعِرِها فَلْتَفْتَخِرْ كلُّ أُمَّةٍ يُهَدِّدُها بالموتِ والعارِ طُغْيانُ

إذا طُوِيَتْ أعلامُها فَهْوَ بَيْرَقٌ وإنْ أُخْمِدتْ أنفاسُها فَهْوَ بُرْكَانُ

أبا الشِّعْرِ! هذا مَحْفِلٌ مِنْ مَحَافِلٍ تَهُزُّ بِهَا الدُّنيا، بِذِكْرِكَ، قَحْطَانُ

والمتنبي كندي قحطاني يماني

صَحَا الدَّهْرُ فاسْتَسْقَاكَ كأساً جَدِيدةً طَوَى ألفَ عامٍ قَبْلَها وَهْوَ سَكْرَانُ

الآن بعد ألف عام على موت المتنبي يصحو العالم فيستسقي المتنبي (يطلب منه أن يسقيه) كأساً جديدة، وكان العالم قد ظل سكران ألف عام بخمرة المتنبي الشعرية

خَلا العرشُ بعدَ ابنِ الحُسَينِ على المدَى وعُطِّلَ مِنْ كِسْرَى البَلاغَةِ إيوَانُ

٦٧ الأم الحنون والإسلام

قال في الذكرى السنوية الأولى لوفاة الدكتور خليل سعادة ١٩٣٥:

لبنانُ! يا وَطَنَ الجَمالِ، ومُنْجِبَ الـ ـأبْطَالِ، والصُّيَّابَةِ الأعْلامِ

الصيابة: السادة

أُسْلِمتَ لِلأمِّ الحنونِ، فَقُلْ لَنا: أَوَجَدْتَها خَيراً مِنَ الإسْلامِ؟

الأم الحنون: ساخراً.. يعني فرنسا

٦٨ أمة مستريحة

قال وتليت في صنبول في سنة ١٩٣٥ في حفلة جمعية الشبيبة العربية الفلسطينية لمرور خمسة أعوام على إعدام الشهداء فؤاد حجازي، وعطا الزير، ومحمد جمجوم في فلسطين:

أنجبتنا أمةٌ، ما بَرِحَتْ تُنجِبُ الأبطالَ مِنْ عهدِ ثمودِ

رقَّصوا الخيلَ على الطَّعنِ، كما رقَّصوا الطَّيرَ على خَفْقِ البُنودِ

رقَّصوا الخيل تحتهم وهم يطعنون أعداءهم، ورقَّصوا الطيور الجارحة على خفق البنود (الرايات)؛ بينما هذه الجوارح تنتظر سقوط الأعداء لتنهش جثثهم، وهذا معنى قديم، ولكن ترقيص الخيل والطير جديد كل الجدة

لم تَضِرْنا راحةٌ بعدَ العَنا فالكَرَى يُغْمِضُ أجفانَ الأسودِ

٦٩ والأفاعي بنات عم العقارب

قال زمن الاعتداء الإيطالي على الحبشة ١٩٣٥ :

ما لِعينيكَ تَرعَيانِ الكواكبْ! أيَّ خَطْبٍ وَرَاءَهُنَّ تُرَاقِبْ

خطب: مصيبة، تراقب: تحْذر (هذا هو المعنى القديم لكلمة تراقب، وبه نفهم قول الشاعر: من راقب الناس مات هماً/وفاز باللذة الجسور، ومعناه: من كان يحذر منهم أصابه الهم، ويفوز باللذة الجسور الجريء. وسترى عند القروي كثيراً من الكلمات السهلة البريئة التي تشي - رغم بساطتها - بثقافته العربية الراسخة)

أنتَ، واللَّهِ، شاعرٌ عربيٌّ ضائعٌ بينَ قومِهِ والأجانبْ

حاملٌ فوقَ همِّهِ هَمَّ شعبٍ ساوَرَتْهُ الخُطوبُ مِنْ كلِّ جانبْ

ساورته: هاجمته، الخطوب: المصائب

بَلْبَلَتْ عقلَهُ المذاهبُ والأحـ ـزابُ، حتَّى سُدَّتْ عليهِ المذَاهبْ

المذاهب: العقائد، المذاهب الثانية: الطرق

كلُّ مَنْ يَدَّعي الكرامةَ مِنَّا فِيكَ يا غربُ كاذبٌ ثُمَّ كاذبْ

ربما كانَ مَنْ تُوَالي مِنَ الإفْـ ـرَنْجِ أدْهى عليكَ مِمَّنْ تُحارِبْ

لنْ يُعَادِيَ مِنْ أجلِكَ العِلْجُ عِلْجاً والأفاعي بناتُ عمِّ العقاربْ

عَبَثاً، والعَتَادُ سيفٌ ورمحٌ، تَتَنادَوْنَ للوَغَى يا أعَارِبْ

تتنادون: ينادي بعضكم بعضاً، للوغى: للحرب

ذهبتْ دولةُ الجَحافِلِ والرَّا ياتِ والخيلِ، والقَنَا والقَوَاضِبْ

القنا: الرماح، القواضب: السيوف

وأَتَتْ دولةُ القنابلِ، والغا زاتِ والسُّمِّ، والشِّهابِ الثَّاقِبْ

الثاقب: المشتعل

لَـم يَـعُـدْ يـنـفـعُ الأُسـودَ وُثُـوبٌ بعدَ أن طارَ بِالجناحِ الثَّعالبْ

لا تنفعنا الأسلحة، وكل الوسائل، العتيقة بعد أن اخترع الغرب الماكر الطائرات وصار يحارب بها

وَثَباتُ الأقدامِ في التُّرْبِ، لكنْ وَثَباتُ العقولِ فوقَ الكواكبْ

وثبة قدم الإنسان تبقيه على التراب، ولكن وثبة العقل ترفع المرء فوق الكواكب. يرى عمران القفيني في البيت جناساً لم نره، فهذا شرحه للبيت: (وثبات الأولى من الثبات والاستقرار والرسوخ، وهو يسخر من شعارات عربية مثل: لنا قدم راسخة ثابتة في هذه الأرض. أما الثانية فهي القفزة العلمية.. يسخر من ثبات قدم العربي وعقول الغرب وصلت الفضاء. واستغل ـ على ما أظن ـ الجناس بين وثبات ووثبات. هذا ما لمحته)

فاضْرِبِ البَازَ بِالعُقابِ، وحَارِبْ بِسِلاحِ العقولِ، أو لا تُحَارِبْ

الباز والعقاب: من الطيور الجارحة

٧٠ سؤال خبيث

قال، ونُشرت في مجلة «العصبة» سنة ١٩٣٥:

يا رَبِّ عَفوَكَ إنْ جَسَرْتُ فَقُمْتُ مُعْـ ـتَرِضَاً على الحُكْمِ الذي أَبْرَمْتَهُ

أَغْرَيتَ قَايِيناً بِهَابيلٍ: إذا قاييُنُ لم يَذْبَحْهُ، أَنْتَ ذَبَحْتَهُ

قايين: قابيل

هَبْ كانَ قَايينٌ بِشَرْعِكَ ظَالماً أَفَكُنْتَ أرحَمَ منه حينَ لَعَنْتَهُ؟

٧١ عش للعروبة

قال سنة ١٩٣٦ في صنبول:

عِشْ لِلعُروبَةِ هَاتِفَاً بِحَيَاتِها، ودَوَامِها

وامْدُدْ يَمِينَ الحُبِّ يا لُبْنانَها لِشَآمِها

أُنْظُرْ إلى آثارِها تُنْبِئْكَ عَنْ أَيَّامِها

هذا التُّرَاثُ يَمُتُّ مُعْـ ـظَمُهُ إلى إسْلامِها

مَا لي أراكَ بَرِئْتَ مِنْ دَمِهَا، ومِنْ أوطانِهَا

أَنَسِيتَ أَنَّكَ لَيْثُ نهـ ـضَتِهَا، ونَشْرُ بَيَانِها

اللبناني كان في طليعة من أنهضوا اللغة العربية بعد عصور مظلمة من الجهل

أتـقـولُ: لـسْـتُ مِـنَ الـشَّـآ ... مِ، وأنْـتَ فـي أحْـضَـانِـهـا
أتـهُـدُّ نـاطِـحَـةَ الـنُّـجُـو ... مِ، وأنـتَ مِـنْ أرْكَـانِـهـا

٧٢ «الأم الحنون»

قال احتفالاً برفع العلم السوري بجانب العلم البرازيلي فوق بناية جمعية الاتحاد السوري في «برتس» عام ١٩٣٦:

إنْ كُنْتَ لِلْحَقِّ، فَلْتَخضَعْ لَكَ الأُمَمُ ... أو كُنْتَ لِلظُّلم، لا حُيِّيتَ يَا عَلمُ
حَدِّثْ أخاكَ عَنِ الأمِّ الحَنُونِ، وعَنْ ... ناسٍ على نَاسِهِمْ، في حُبِّهَا، انْقَسَمُوا

الأم الحنون: لقب فرنسا عند محبيها في لبنان، ويستعمله كارهوها ساخرين

عَـدُّوا وِصَـايَـتَـهـا مِـنْ رَبِّـهِـمْ هِـبَـةً ... حتى مَحَا الفَجْرُ ما قد زَخْرَفَ الحُلمُ
كَمْ يَنْسُبُونَ إليها الفَضْلَ مِنْ قِدَمٍ ... والفَضْلُ، لو فَقِهُوا تَارِيخَهُمْ، لَهُمُ
أينَ العُلُوجُ الأُلَى أَقْسَامُهُمْ خِدَعٌ ... مِـنْ مَـاجِـدٍ عَـرَبِـيٍّ وَعْـدُهُ قَـسَـمُ؟

أين الأجانب، الذين أيمانهم حين يحلفون مجرد خداع، من العربي الماجد الذي يعِدُ وعداً فيكون وعده بمنزلة القسم؟

٧٣ حسب الورود تعطر بالماء

أحـبـبـتُ فـيـكِ بـسـاطـةً شـرقـيَّـةً ... فَـيـهـا الـجـمـالُ الأُنْـثـوِيُّ مُـجَـسَّـمُ
ليسَ التمدُّنُ، يا لُمَيَّةُ، غيرَ ما ... حُكَمَاءُ شَعْبِكِ مِنْ قديمٍ عَلموا
وحَـضَـارةُ الـغَـرْبِـيِّ بُـرْجُ حَـمَـاقَـةٍ ... كَـفٌّ تُـعَـمِّـرُهُ، وكَـفٌّ تَـهْـدِمُ

* * *

فـي بُـرْدَتَـيْـكِ مَـحـاسِـنٌ خَـلّابَـةٌ ... لـم يَـدْرِ قـيـمَـتَـهـا سِـوَى الـشـعَـرَاءِ
قَـرَوِيَّـةٌ وحَـيِـيَّـةٌ ونَـدِيَّـةٌ ... ونَـقِـيَّـةٌ كَـالـوردةِ الـبـيـضَـاءِ
لا تَعْرِفينَ مِنَ الطُّيُوبِ سِوى النَّدَى ... حَـسْـبُ الـوُرُودِ تَـعَـطُّـرٌ بِـالـمـاءِ

٧٤ غيرة

بِعينيْكِ آياتُ الكآبةِ والحُزْنِ ... أَمِنْ صاحبي هذا الذي بِكِ، أمْ مِنِّي؟
تقولينَ: مَنْ تَعْني؟ ووَاللَّهِ، إنما ... لِكَيْ تَستعِيدي ذِكْرَهُ، قلتِ: مَنْ تَعْني
إذا حَـدَّثـوا عـنـهُ تَـوَلَّـتْـكِ سَـكْـرَةٌ ... كَحَوَّاءَ عادَتْ بِالخَيالِ إلى عَدْنِ

وأَغمضْتِ لِلتَّذْكارِ عينيْكِ لَذَّةً ... وأَصغَيْتِ إِصغَاءَ الضَّريرِ إلى لَحْن

تعليق عمران القفيني: (ألا لا يفوتنا التسويد.. يا سلام!)

وأيُّ دليلٍ تَقتَضينَ على الهوى ... وماذا تَبَقَّى لي إذا حَدَّثوا عَنِّي

فَلا تَسأليني: ما رَأَيْتَ؟ فَإِنَّ لي ... مِنَ القلبِ ما يُغْني عَنِ العينِ والأُذْنِ

ولا تَحْلِفي لي بالذي كان بَيْننا ... عَشِيَّةَ مِنْ سَطْحٍ نَفِرُّ إلى غُصْنِ

لُمَيَّةُ! ما في حُبِّ مِثْلِيَ رَاحَةٌ ... ويَغدُو كثيرَ الظَّنِّ مَنْ كان في سِنِّي

تَجاوَزْتُ عَنْ جَهلِ الصِّبَا وغُرُورِهِ ... وفي العقلِ ما يُغْني الرَّشيدَ عَنِ الحُسْنِ

ولي خَمْرَةٌ غَيْرُ التي تَعْهَدِينَها ... إلى أَدَبي مَنْسُوبَةٌ، وإلى فَنِّي

٧٥ الحبيبة الغيور

كيفَ السبيلُ إلى رضَا حَسُّونَتِي ... إلَّا بِكَمٍّ فَمي، وقَصِّ جَناحِي

الحسون: طائر مغرد

لم تَهْوَني إلَّا لأَنِّيَ بُلْبُلٌ، ... وتَمُوتُ إنْ سَمِعَ الطيورُ صُدَاحِي

* * *

هلا سَمِعْتِ، إذا اسْتَكَنَّ الطيرُ في ... أَعْشاشِهِنَّ، تَنَهُّدِي ونَحِيبي

أَعَصَرْتُ إلَّا فيكِ مِنْدِيلي، وهلْ ... حَيَّرْتُ إلَّا في هَواكِ طَبيبي

عصره منديله في محبوبته كناية طريفة يفهم البريء منها أن صاحبنا بلل منديله بالدمع ثم عصره. وكان القروي عاشقاً عرف نساء كثيرات، وإن خص لمياء بالذكر. ومات أعزب، ولكنه صرح بأنه عرف العشق في كل صوره

* * *

يا مَنْ يُحَوِّلُني غُرَاباً نَاعِبَاً ... كَيْ لا تَمُوتَ لُمَيَّتِي وأَمُوتَا

هِيَ لا تُطِيقُ الصَّبْرَ إنْ فَتَنَ الوَرَى ... شَدْوِي، ولا أَنَا أَسْتَطيعُ سُكُوتَا

٧٦ ولكنها تتسلى العيون

أَتَتْ قُرَّةُ العينِ في الزَّمْهَرِيرِ ... تَصُبُّ الجَحِيمَ على صَبِّهَا

صبها: عاشقها

تَـسُـبُّ، فَـأَسْـمَـعُ شَـكْـوَى الـغَـرامِ ... يُـذِيـبُ الـجَـلامِـيـدَ فـي سَـبِّـهَـا

الجلاميد: الصخور. يقول: في سبابها أسمع رنة شكوى الغرام الذي يذيب الصخور

* * *

: إلى كَمْ تَخُونُ وأَصْفَحُ عَنْكَ ... لَـقَـد طَـفَـحَ الـكَـيْـلُ يـا غـادِرُ

هذا ما تقوله هي له

خِـدَاعُـكَ لَـيْـسَ لَـهُ آخِـرٌ ... ولَـكِـنَّ صَـبْـرِي لَـهُ آخِـرُ

لَعَمْرِي لقد صَدَقَ النَّاصِحُونَ ... فَـأَكْـذَبُ أهـلِ الـهـوى شـاعِـرُ

* * *

: لُـمَـيَّـةُ لـم يَـسْـلُـكِ الـقَـلْـبَ قُـطُّ ... ولا حَـالَـتِ الـرُّوحُ عَـنْ عَـهْـدِهَـا

لم يسلك: لم يعرف السلوان، والنسيان، عنك

ولـكِـنَّـهَـا تَـتَـسَـلَّـى الـعُـيُـونُ ... وتَـبْـقَـى الـقـلـوبُ عـلـى وُدِّهَـا

* * *

فَـسَـكَّـنَ إِعْـصَـارَهَـا نَـفْـحَـةٌ ... مِنَ السِّحْرِ نَـمَّـتْ بِـهـا شَـفَـتَـايَـا

وأَخْـمَـدَ بُـرْكَـانَـهَـا قَـطْـرَةٌ ... مِنَ الشِّعْرِ هَمَّتْ بِهَا مُقْلَتَايَا

ورُحْتُ مِنَ الوَجْدِ أَلْثِمُ فَاهَا ... فَكَادَتْ مِنَ الوَجْدِ تَأْكُلُ فَايَا

ألثم: أقبّل. فايا قبيحة، وأكل الفم قبيح

وأَحْـلِـفُ لَـسْـتُ أُحِـبُّ سِـوَاهَـا ... فَتَحْلِفُ: لَيْسَتْ تُطِيقُ سِوَايَا

فَـلَـم أَرَ فـي الـحُـبِّ مِـثْـلِـيَ كَـهْـلاً ... سعِيداً، تَمُوتُ عَلَيْهِ الصَّبَايَا

تعليق عمران القفيني: (جاء بكل القوافي أعلاه كي يقول لنا «الصبايا».. يخرب بيتك يا قروي يا شيطان!)

٧٧ ضجر من الحبيبة

لُـمَـيَّـةُ! هـذا الـحُـبُّ طـالَ عَـنـاؤُهُ ... ونَـاءَ كِـلانَـا بِـالـذي هُـوَ حـامِـلُـهْ

ناء: تَعِبَ

فَيَا لَيْتَ شِعْرِي! أنتِ بَعْدُ حَبِيبَةٌ ... أُغَازِلُها، أم أنتِ خَصْمٌ أُجَادِلُهْ

أَلا أَيْنَ عَهْدُ الأُنْسِ، أَيْنَ رِياضُهُ ... وأيـنَ أَغَـانِـيـهِ، وأَيـنَ بَـلابِـلُـهْ

وأينَ تَنَاغِينَا عَلى المرْجِ، كُلَّما مَشَيْنَا عليهِ اخْضَرَّ، واهْتَزَّ ذَابِلُهْ
وقد نَصَبَ الصَّفْصَافُ خَيْمَةَ شاعِرٍ عَليْنَا، وغَطَّتْ مَنْكِبَيْنَا جَدَائِلُهْ
تُشَيِّعُنَا عِنْدَ الوَدَاعِ طيورُهُ وتُبْكِي لِحِرْمانِ الجَنَاحِ جَداوِلُهْ

خرير الجداول بكاؤها، تبكي لأنه ليس لها أجنحة تطير بها مثل الطيور

تَبَخَّرَ حُلمٌ راوَدَ الجَفْنَ لَيْلَةً وطارَ، مَعَ الرِّيحِ، الذي كُنْتُ آمُلُهْ
تَوَهَّمْتُ أنِّي نَاعِمٌ بِرَفِيقَةٍ لِشَيْبِي، وقد غَالَتْ شَبَابِي غَوَائِلُهْ

ناعم برفيقة: مستمتع برفيقة، غالته غوائله: قتلته قواتله

إلى أَنْ تَبَدَّى لِي الذي كُنْتُ جاهِلاً ويا لَيْتَ أَنِّي آخِرَ الدَّهْرِ جَاهِلُهْ

آخرَ الدهر: حتى آخر الدهر

وَكُلُّ أَبِيِّ النَّفْسِ يَهْدِيهِ طَبْعُهُ إلى أيِّ حَدٍّ يُسْتَحَبُّ تَساهُلُهْ
وبِئْسَ قِرَانٌ بينَ يَومٍ وليلةٍ لَذَائِذُهُ تَمْضِي، وتَبْقَى سَلاسِلُهْ

قران: زواج

سَأَبْقَى وَحيداً في سَمائِي مُشَرَّداً كَأَنِّيَ بَدْرٌ أَنْكَرَتْهُ مَنَازِلُهْ

منازل القمر: بروجه، وأماكن نزوله في بحر السماء

ولم تَخْسَرِينِي لو تَكُونِي حَكِيمَةً ولَكِنَّنِي طَيْرٌ عَزيزٌ مُشَاكِلُهْ

عزيز مشاكله: نادر نظيره

وِصَالُكِ حُلْوٌ، بَيْدَ أَنِّي أَعَافُهُ وهَجْرُكِ صَعْبٌ، غَيْرَ أَنِّي أُحاوِلُهْ

٧٨ فردوسنا نحن

دَعِينِيَ مِنْ فِردَوْسِ عِيسى وأحمدٍ وقُومِي إلى فِرْدَوْسِنا نَتَنَعَّمُ
فَجَنَّتُهُمْ رُؤْيا رَأَوْها؛ وجَنَّتِي، بِحُبِّكِ، مِلءُ العَيْنِ والكَفِّ والفَمِ

٧٩ ندم على جرح الحبيب

ألقيتُ في سَمْعِ الحبيبِ كُلَيْمَةً جَرَحَتْ عواطِفَهُ، فَمَا أَقْسَانِي
قَطَعَ الحديثَ، وراحَ يَمْسَحُ جَفْنَهُ فودِدْتُ لو أُجْزَى بِقَطْعِ لِسَانِي
ومَضَى، ولي قَلْبٌ على آثَارِهِ، ويَدانِ بالأَذْيَالِ عَالِقَتَانِ

فَطَفِقْتُ مِنْ أَلمِي أُكَفْكِفُ أدْمُعِي ... ورَجَعْتُ مِنْ نَدَمِي أَعَضُّ بَنَانِي

وأقولُ: واخَجَلِي إذا لاقَيْتُه، ... فَبِأَيِّ وجْهٍ عابِسٍ يَلْقَانِي

حتَّى ظَفِرْتُ بِه، فَمَدَّ يَمِينَه ... ورَنَا إليَّ بِرِقَّةٍ وحَنانِ

وبَكَى وعانَقَنِي، وقالَ: عَدِمْتُنِي ... إن كانَ لِي جَلَدٌ على الهِجْرَانِ

قال لي الحبيب: عدمت نفسي إن كنت أقوى على الهجران

قلْ ما تشاءُ، ولا تَغِبْ عن ناظِري ... وفِدَاكِ ذُلِّي في الهَوى وهَوَاني

٨٠ تجديد العشق

قال في لقاء بعد فراق مع حبيبته لمياء:

أتانِي رسولٌ مِنْ لُمَيَّةَ، بَعْدَما ... حسِبتُ طَوالَ العُمْرِ لنْ نَتَحَاكَى

فَوَلَّيْتُ وجهِي شَطْرَ صَرْحٍ مُمَرَّدٍ ... يُطَاوِلُ بِالبُرْجِ الرفيعِ سِمَاكَا

صرح ممرد: قصر عالٍ، السِّمَاك: اسم نجم

تَقُولُ: أما مِنْ سالفِ العهدِ لَمحةٌ ... تَرانَا بِها قبلَ الرَّدَى، ونَرَاكا

وقالتْ، وبِي مِنْ حبِّهَا كالذي بِها: ... لِيَهْنِئْكَ ما ذُقْناهُ بعدَ نَوَاكا

هنيئاً لك عذابنا الذي ذقناه بعد فراقك

ورَعْياً لمنْ أَغْرَتْكَ بالهجرِ بعدَنا ... فقدْ علَّمتْنا كَمْ يدومُ هَوَاكا

رعاها الله تلك التي أغرتك، فقد عرَّفتْني كيف أن هواك قصير العمر

فأَكْنَنْتُ وجهِي فَرْعَها كَمُرَوَّعٍ ... مِنَ الطيرِ، لاقَى في الصعيدِ أَرَاكا

أكننت: خبأت، فرعها: شعرها، الصعيد: التراب، الأراك: نوع من الشجر

ورُحْتُ، كطفلٍ يلتقي الأمَّ، بَاكياً ... وعندَ لُمَيٍّ أَنَّني أَتَباكَى

فأَجْفَلَها دمعي كَوَرْدٍ بِصَدرِها ... تَنَثَّرَ أثناءَ العِنَاقِ، وَشَاكَا

شاكَ: صار شائكاً

وقالتْ: فِدَى عينيكَ ألفُ لميَّةٍ ... لِتَبْكِ عيونُ العالمينَ، عَدَاكا

أمِثْلُكَ يَبكِي؟ قلتُ: لو يُسعِدُ البُكا ... فقالتْ: حبيبي، مُرْ، جُعِلْتُ فِدَاكا

يسعد: يساعد

عيونيَ تَبْغي أمْ خدوديَ أم فَمي؟ فقلتُ لها: هذي، وتلكَ، وذاكا

على ما في البيت من صوغ طريف في شطره الثاني، فإن شطره الأول ناتئ عن الموقف. الحبيبة قد تقول «أتبغي عيوني»، هذا وارد؛ ولكنها لا تخير حبيبها بين خدودها وفمها إلا لسبب واحد.. أن يصنع الشاعر نكتة في الشطر الثاني.. نكتة سمجة، صبت على الموقف الغرامي ماء بارداً

وكبَّلْتُها بالسَّاعِدَيْنِ، فأسْلمتْ أسيرةَ وَجْدٍ، ما تُطِيقُ حَرَاكا

وبِتُّ أَعُلُّ الخمرَ والشَّهْدَ والنَّدَى أقولُ لها: هاتي، فَتُرْدِفُ: هاكَا

أعل: أشرب

إلى أنْ تَولَّانا الذي يَسْلُبُ الحِجَا ويَنْصِبُ للخُلْقِ المتينِ شِبَاكا

فلما هَصَرْتُ القدَّ، صاحتْ: قَتَلتَني لأَشْبَهُ شيءٍ بالعَداءِ هَوَاكا

هصرت: جذبت

أتلْبَثُ لا نَدْعُوكَ، إلَّا زَرَيْتَنا ولا نَخْتَلي، إلَّا أَضَعْتَ هُدَاكا

زريتنا: استهنت بنا، ازدريتنا

إذا غبتَ تَسْلُونا، وتَلْهُو بغيرِنا وإن أُبْتَ تُغْرينا بِطُول بُكَاكا

إليكَ، وإلَّا لَنْ تَرانِيَ بَعْدَها وإن كنتُ لا أَهوى الحياةَ بِلاكا

إليك: ابتعِدْ، بِلاكا: بدونك

فنبَّهَني الإنذارُ مِنْ سَكْرَةِ الهوى وعُدْتُ، كما شاءَ المَلاكُ، مَلاكا

٨١ المن والسلوى

ولِي كَبِدٌ تَهْوَى، ونَفْسٌ كبيرةٌ فلا تَعْجَبوا مِنِّي إذا بِتُّ لا أَهْوى

قلبي يحب، ولكن بسبب كبريائي ونفسي الكبيرة فلا تعجبوا إن كنت لا أظهر هذا الحب

أَضَلَّ حبيبي «التِّيهُ» لما لَثِمْتُه وأَشْبَعَني «مَنّاً»، فَأَشْبَعْتُهُ «سَلْوى»

التيه: التكبر، والتيه أيضاً الصحراء التي ضل فيها بنو إسرائيل، و«المن»: التذكير بالجميل، وهو كذلك الطعام الذي أنزله الله على بني إسرائيل، والسلوى: الهجران، وهو أيضاً طعام أنزله الله على بني إسرائيل. فالمعنى الظاهر: ضاع حبيبي في صحراء بني إسرائيل فأطعمني بعض طعامهم، وأطعمته بعضه. والمعنى المقصود: الكبرياء جَعلَتْ حبيبي يضل، فكان يتيه علي ويذكرني بجمائله، فصرت أهجره. هذه طريقة في الشعر أسرف فيها شعراء العصور النائمة، والقروي يستطرفها في الحين بعد الحين، وهنا صاغ منها عقداً براقاً

٨٢ الشيخ العابس

ألقاها في ١٩٣٧ في «غواشوبه» في حفل خيري نسائي، وكان الإنجليز في فلسطين قد أعدموا الشيخ فرحان السعدي عامئذ:

مـاذا هـنـاك؟ هـنـاكَ شـعـبٌ كـامـلٌ — لـلـمـوتِ رهــنَ أوامـرِ الـجـلادِ

مـاذا هـنـاك؟ هـنـاكَ شـيـخٌ عـابـسٌ — كـالـليـلِ مِـنْ مَـهْـدِ الـضِّـيـاءِ يُـنَـادي

تَـبًّـاً لـكـلِّ صَـلِـيـبِ عُـودٍ لـم يَـفُـرْ — دَمُـهُ لإعـدَامـي ولاسـتِـشْـهَـادي

صليب عود: رجل قوي عوده صُلب

الـشـيـخُ فـرحـانٌ يـنـاشـدُكُـمْ: أَمَـا — مِـنْ مُـحْـسِـنٍ؟ إنْ لـم يـكـنْ مِـنْ فـادِ

٨٣ جهاد فلسطين

قال في صنبول (تعريب ساو باولو على طريقة القروي) ١٩٣٨، وثورة فلسطين لمَّا تهدأ:

لـنـا كـلَّ يـوم غَـضْـبَـةٌ مُـضَـرِيَّـةٌ — تُـبَـرْهِـنُ أنَّ الـحـقَّ كَـالـلـهُ أَكْـبَـرُ

قال بشار: إذا ما غضبنا غضبة مضرية//هتكنا حجاب الشمس أو قطرت دما؛ فمن هنا جاءت الغضبة المضرية، ومضر هي «الشعب» الذي تنتسب إليه قبائل كثيرة منها قريش، ومنها عُقيل التي كان ولاء بشار فيها

ومَـنْ كـانَ فـي أجـدادِهِ مِـثْـلُ خـالِـدٍ — فَـمِـنْ آيِـهِ مـا تُـبْـصِـرونَ وأَكْـثَـرُ

آيه: آياته أي علاماته وبراهينه

فَـكُـلُّ فـتـاةٍ فـي فِـلَـسْـطِـيـنَ خَـوْلَـةٌ — وكـلُّ غُـلامٍ فـي فِـلَـسْـطِـيـنَ عَـنْـتَـرُ

٨٤ وعد بلفور

قال ونظمت عام ١٩٣٩ في أواخر أيام ثورة فلسطين:

وعــدُ بَــلْــفــورَ حُــجَّــةٌ — لــلــمُــمَــاري الــمــمــاذِقِ

المماري: المجادِل، المماذق: المخادع

أَوَتَــنْــفــي وَثــيــقــةٌ — عــشــراتِ الــوَثَــائــقِ؟

كَــرِهَ الــعــدلُ أنْ يَــرى — صَــاهِــلاً خَــلْــفَ نَــاهِــقِ

هَــا مَــيــامِــيــنُ خــالــدٍ — هَــا مَــغَــاويــرُ طــارقِ

ها هم ميامين خالد (جنود خالد بن الوليد المباركون)، ومغاوير (الذين يشنون الغارات) طارق بن زياد

هـــا هِـــرَقْـــلٌ مُـــشَـــرَّداً   لاحِـــقـــاً بـــالـــبَـــطَـــارقِ

هرقل قائد الروم الذي انسحب من بلاد الشام أمام جيش خالد، والبطارق قادة الروم

إنـــهـــا شـــمـــسُ مـــجـــدِكُـــمْ   غَـــرَبَـــتْ فـــي الـــمَـــشَـــارِقِ

أيها المحتلون الإنجليز، ها هي شمس عزتكم تغرب.. ولكن في المشرق عندنا

كَـــمْ خـــنـــقْـــتُـــمْ بَـــريـــئـــةً   فـــابْـــتُـــلِـــيـــتُـــمْ بِـــخـــانِـــقِ

دُحْـــرِجَـــتْ كـــبـــريـــاؤكُـــمْ   تـــحـــتَ أقـــدامِ ســـاحِـــقِ

وغـــدا الـــلـــيـــثُ هُـــزْأةً   لـــجـــمـــيـــعِ الـــخـــلائـــقِ

الليث: يعني بريطانيا، فشعارها الأسد

٨٥ جاهر بين الهامسين

وكمْ لي بِمَيْدَانِ الحوادثِ جولةٌ   مُقَلِّلَةُ الأصحابِ، مُكْثِرَةُ العِدَى

جَهَرْتُ، غداةَ الهَمْسُ بالحقِّ لعنةٌ   يَجُرُّ على مَنْ قالَهُ الفقرَ والرَّدَى

جهرت بالقول يوم كان الهمس بكلمة الحق لعنة على صاحبه

سيُعْرَفُ يوماً مَنْ دَعا مِمَّنِ ادَّعى   ومَنْ سَلَخَ الرِّئْبالَ مِمَّنْ تَصَيَّدَا

الرئبال: الأسد. هذا أبين من بيت المتنبي: (إذا اشتبهت دموع في خدود/ تبيَّن من بكى ممن تباكى)، وإن اتكأ عليه. هذه هي السرقة الحلال، فبيت القروي أدل على المعنى وأكثر انسجاماً مع السياق. ونقول لأبي الطيب: إذا اشتبهت دموع الباكي والمتباكي فكيف ستتبين هذا من هذا؟ لم تقل لنا، بل قلت إن الاشتباه وقع، وحتى رواية «اشتبكت» الضعيفة فهي لا تقيم البيت بأحسن مما أقامته «اشتبهت»

٨٦ صاحين نفرك عيوننا

قال في عيد المولد النبوي في صنبول ١٩٤٠:

نـــحـــنُ الأُلَـــى سُـــدْنَـــا الـــشُّـــعُـــو   بَ، ونَـــحْـــنُ مَـــدَّنَّـــا الأُمَـــمْ

أعـــطـــاهُـــمُ الـــلَّـــهُ الـــلـــســـا   نَ، ونـــحـــنُ أُعْـــطِـــيـــنـــا الـــقَـــلَـــمْ

هذا القلم قلم «ن والقلم وما يسطرون»، فسياق المولد النبوي يطلبها، ولم يكن غاب عن القروي أن الفينيقيين علموا الناس الكتابة، وفي البيت التالي إيماءة إلى أن هذا المعنى كان في باله

خُـــضْـــنَـــا الـــبـــحـــارَ زَمَـــانَ لـــم   يَـــكُ ظِـــلُّ ســـابِـــحَـــةٍ بِـــيَـــمّ

حـــتَّـــى إذا لـــم يَـــبْـــقَ شَـــطٌّ ـ   لـــم تَـــطَـــأْهُ لـــنـــا قَـــدَمْ

نـامـتْ عـيـونُ الـمـتْـعَـبـيــ ـنَ؛ وأيُّ عـيــنٍ لـم تَــنَــمْ؟
واسـتــيـقـظـتْ مَـشْـحُـورةً تـسـتـقـبـلُ الـعـهـدَ الأَهَـمّ
نــورُ الـنـبـوَّةِ فـاضَ مِــنْ مـهـدِ الـمـروءَةِ والـكَـرَمْ
وإذا الـعـروبـةُ فـي أَقَـا صـيِ الأرضِ خـافـقـةُ الـعَـلَـمْ

٨٧ نقول المسلمون المسلمونا

رأيتُكَ قد وقفتَ على الحِيادِ أأَنْتَ مِنَ الصِّحَابِ أمِ الأعادي؟

يخاطب اللبناني الواقف على الحياد إذ فرنسا المحتلة تضطهد الشعب في سوريا ولبنان

وكنتَ إذا عَدَتْ أَدْنَى العَوَادي على لُبْنانَ أقْلَقْتَ النَّوَادِي
وأَزْعَجْتَ الحَواضِرَ والبَوَادي

* * *

رضِينَا لِلتَّعَصُّبِ أنْ نَهُونا فأَغْمَضْنا على الضَّيْمِ العُيونا
نقولُ: المسْلمونَ المسْلمونا فَنَرْمِيهِمْ، ونحنُ الخائِنونا
نَبِيعُ بِدِرْهَمٍ مجدَ البِلادِ

* * *

بِرَبِّكَ قُلْ: مَتَى لبنانُ ثارا لِيُدْرِكَ مِنْ عُلُوجِ الغَرْبِ ثَارَا
متَى نَفَرَتْ إلى السَّيْفِ النَّصارى لِتَغْسِلَ بالدَّمِ المسفوكِ عارَا
وتُحْرِزَ مَرَّةً شَرَفَ الجِهَادِ

٨٨ الناخلة

هذه القصيدة تسمى الناخلة. في سنة ١٩٣٤ سمع الشاعر أن أنطون سعادة، ابن صديقه الراحل الدكتور خليل سعادة، أنشأ حزباً في لبنان. واضطهده الفرنسيون. وجاء سعادة إلى صنبول راجياً ضم القروي لحزبه القومي السوري الذي ينادي بقومية سورية لا عربية شاملة. وتناقشا ثماني عشرة ساعة، من التاسعة صباحاً حتى الثالثة فجراً. وبقي القروي عروبياً. وأخذ سعادة يعمل ضده في المهجر الأميركي الجنوبي من خلال جريدة «سورية الجديدة» التي أنشأها في صنبول، وجريدة «الزوبعة» في بيونس آيرس. وخاب أمل القروي في شاب ذكي يضيِّع ذكاءه في محاربته كأنه دولة استعمارية. وضاقت أحوال «سورية الجديدة» فأخذت إعلانات تجارية من تجار ميولهم استعمارية. وألقيت هذه القصيدة «الناخلة» في بيونس آيرس عام ١٩٤١:

مِـنْ كـلِّ قـاصٍ فـي الـبـلادِ ودَانِ   يَـتـراسَـلُ الـنَّـجـوى بَـنـو عـدنـانِ
أَيَخونُ عهدَ العُرْبِ لبنانٌ، ومِنْ   شُـعَـرائِـهِ فَـرَحـاتُ والـرَّيْـحَـانـي
إنّـي أُعِـيـذُكَ أنْ تـكـونَ مُـهَـدِّمَـاً   وأَبو «المحيطِ»، أَبوكَ، أولُ بانِ

يوجه خطاباً خفياً إلى رجل من أسرة البستاني ـ ومنها بطرس البستاني مؤلف قاموس «محيط المحيط» الصادر عام ١٨٧٠، وصاحب الفضل في تنشيط اللغة العربية ـ وكان ذلك الرجل المقصود بالبيت عدواً سياسياً للشاعر ولفكرة العروبة، لكن القصيدة الناخلة هذه جعلته يعتذر للشاعر (كما قال الشاعر في الحاشية)

لـبـنـانُ أكـبـرُ أن يُـعـابَ بِـزُمْـرةٍ   نَشَأتْ على التَّضليلِ والبُهْتانِ
زَعـمـوا بَـلاءَ الـشـرقِ مِـنْ أديـانِـهِ   ومُـرَادُهُـمْ دِيـنٌ مِـنَ الأديـانِ

يشير إلى حلفاء فرنسا بلبنان الذين غمز بعضهم في الدين الإسلامي

حتَّى إذا طَلَعَتْ عليهِمْ حُجَّتي   وانـشـقَّ لـلـمـرْتـابِ فـجـرُ بَـيـانـي
فَزِعوا إلى القومِ الذين عَهِدْتُهُمْ   لِـكَـرامـتـي فـوجـدْتُـهُـمْ لِـهَـوانـي
حِزْبانِ، حينَ قَضَى على زَعْمَيْهِما   فصلُ الخِطابِ، تحالَفَ الحزبانِ
يَـسـتـنـصِـرَانِ عـلـى أديـبٍ شـاعـرٍ   ما يَعْبُدانِ مِنَ الحُطَامِ الفَاني
وإذا شَهَرتَ على النَّعِيبِ عَداوةً   أَلَّـفْـتَ بـيـنَ الـبُـومِ والـغِـرْبـانِ
قلْ لليهودِ، وعابِدي أصنامِهِمْ   مِـنْ كـلِّ هَـضَّـامِ الـحـقـوقِ أنـانـي
ولـمـنْ يُـتَـاجِـرُ بـالـعُـلا مَـعْـقُـودةً   بِـسَـلاسـلٍ كَـتَـمـائِـمِ الـصِّـبـيـانِ. .

قل لمن يعتبر المعالي مجرد أوسمة معلقة في الصدور بسلاسل كأنها التمائم التي توضع على الأطفال لرد عين الحسود. .

مِنْ طَالِبِ النِّيشانِ، حتَّى صاحبِ النـ   ـيشانِ، حتى واهِبِ النيشانِ. .
أمـوالُـكُـمْ وضِـيَـاعُـكُـمْ وقُـصـورُكُـمْ   عـنـدي، وحـبَّـةَ خَـرْدَلٍ، سِـيَّـانِ
الـزُّهْـرُ تـعـرفُـنـي، وأعـرِفُـهـا، فَـمَـا   هَـمِّـي إذا جَـهِـلَ الـضَّـفـادِعُ شـانـي

الزهر: النجوم

والشمسُ يُخْفِيها القَتَامُ عَنِ الثَّرَى   لا عَنْ عيونِ «النَّسْرِ» و«الدَّبَرانِ»

القتام: الغبار، النسر: اسم نجم، والدبران: من منازل القمر

قالوا: سكتَّ، فقلتُ: أيُّ عجيبةٍ   في فُحْشٍ فاجِرَةٍ، وصَمْتِ حَصَانِ

حصان: امرأة طاهرة

أَيُـزِيـحُ قـاطـرةَ الـحـديـدِ مُـدَلَّـلٌ	عَـذْبُ الهَرِيرِ يعيشُ في الأحضانِ

الهرير: صوت القطة سوى المواء

وتُخِيفُ قُبَّعَةُ الحريرِ سَمَيْذَعاً	صَـالَـتْ يَـرَاعَـتُـهُ عـلـى الـتِّـيجـانِ

السميذع: السيد الشريف

الـحـقُّ سـلـطـانـي، ولـسـتُ بِـحَـاذِرٍ	في الحقِّ سلطاناً سوى سلطاني

أنـا مـا عَـنَـيْـتُ الأبـريـاءَ، فَـمَـا تُـرى	ذنبي إذا صاحَ المريبُ: عَنَاني

أَألامُ فـي مُـتَـطـفِّـلـيـنَ تَـعـرَّضـوا	فأصبْتُهُمْ، عَرَضاً، بِكَعْبِ سِناني

مـا طـابَ لـي والـلَّـهِ جَـرحُ أَعِـزَّةٍ	طابَ النزولُ لَهُمْ إلى الميدانِ

والـوردُ يُـدْمـي الكفَّ، لا يَعْنِيهِ إنْ	كانَ الصديقَ، أمِ العدوَّ، الجاني

أنـا ذلـكَ الإعـصـارُ، نَـسَّـافُ الـذُّرى	وأنَـا الـنـسـيـمُ، مُـدَاعِـبُ الأَفْـنَـانِ

أطْـوِي سـمـاواتِ الـخـيـالِ، وأنـثَـنـي	عِـطْـرُ الـجِـنـانِ يَـفُـوحُ مِـنْ أردَانـي

أرداني: أكمامي

ولـقَـدْ تُـحَـرِّكُـنـي أغـاريـدُ الـهـوى	مِـنْ بُـلـبُـلٍ، فَـأَعِـفُّ عَـنْ ثُـعـبـانِ

كَمَّتْ فَمي ذِكْرَى الجَمِيلِ، وزَحزَحَتْ	جـبـلَ الإسـاءةِ ذَرَّةُ الإحـسـانِ

**فَلَئِنْ نَقَدتُ، فما فقَدْتُ مُروءتي	عندَ الجِدَالِ، ولا جَهِلْتُ مَكاني**

**أدبٌ يَرُوعُكَ، راضياً أو ساخطاً	ولُغَى الهَزَارِ جَمِيعُهُنَّ أغَانِ**

يروعُ: يكون رائعاً، الهزار: العندليب

لا يُحْزِنَنَّكَ إنْ وَجَدتَ مِنَ العِدَى	مَنْ كنتَ تحسبُهُمْ مِنَ الإخوانِ

أَزِفَ الـدِّراسُ، وأيُّ بَـيْـدَرِ حِـنْـطَـةٍ	لـم يُـلْـفَ مَـخْـتَـلِـطـاً بَـكُـلِّ زَوَانِ

الدراس: فصل حبات القمح عن سنابلها، الزوان: حبوب تنبت بين القمح

أَعْـيَـتْـكَ تَـنْـقِـيَـةُ الـدَّقـيـقِ، فَـسَـخَّـرَتْ	ألـطـافُ ربِّـكَ مُـنْـخُـلَ الـخَـوَّانِ

الخوان: الخائن

لـم يَـعْـنِ هـذا الـشـعـبَ أنِّـيَ شَـاعِـرٌ	حـرٌّ، بـحـبِّ بـلادِهِ مُـتَـفـانِ

بلْ كُلُّ ما يَعْنِيهِ: هلْ أَنا مُسْلمٌ	لِـلَّـهِ، أمْ أنـا لـم أَزَلْ نَـصْـرانـي

مَـنْ يُـنْـبِـئُ الـمـلأَ الـذيـن أُحِـبُّـهُـمْ	فَـيُـكـافِـئـونَ الـحُـبَّ بـالـعُـدْوانِ:

أنِّي على دينِ العروبةِ، واقِفٌ ... قَلبي على سُبُحاتِها، ولِساني

سبحاتها: أنوارها

إنجيليَ الحبُّ المقيمُ لأهلِها، ... والذَّوْدُ عَنْ حُرُماتِها فُرْقَاني

أَرْضَيْتُ أحمدَ والمسيحَ بِثَورتي ... وحَمَاستي وتَسامُحي وحَناني

يا مسلمونَ، ويا نَصارَى، دينُكُمْ ... دينُ العروبةِ، واحدٌ، لا اثنانِ

سَتُجَدِّدونَ المُلْكَ مِنْ يَمَنٍ إلى ... مصرٍ إلى شامٍ إلى بَغْدَانِ

لا تَكْفُروا، أَفَما بُعِثْتُمْ مَرَّةً؟ ... لم لا يكونُ لمؤمنٍ بَعْثانِ

بُعثتم من الخمول بالإسلام، ولا بد من بعث آخر يعيد إليكم العزة

إن كانَ قد سَكَتَ العراقُ، فَمَوْقِفٌ ... مُتَبَدِّلٌ بتَبَدُّلِ الأزمانِ

وَلَسوفَ يعلم كلُّ غِرٍّ جاهلٍ ... ماذا تخبِّئُ هدأةُ البُرْكانِ

العُرْبُ شاخِصَةٌ إلى أهدافِهَا ... مرصوصةُ العَزَماتِ كالبُنيانِ

لَسْنَا، وإن زَعمَ الأذِلَّةُ، نَخْلَعُ النِّـ ... ـيرَ القديمَ، لأجلِ نِيرٍ ثانِ

النير: الظلم. خلعنا ظلم العثمانيين ولا نريد ظلم الفرنسيين

ثُرْنَا لِبَغْيِ الإنجليزِ، فَإِنْ بَغَى الـ ... ـجِرْمَانُ، قُلْ: ثُرْنا على الجِرْمَان

ونَظَلُّ نَخْلُقُ كلَّ يومٍ «طَارِقاً» ... حتى تَكُفَّ طَوارقُ الحَدَثانِ

طارق: طارق بن زياد، طوارق الحدثان: مصائب الزمن

٨٩ وقفة في الميناء

قال في سَنْطُس إبان الاحتلال الفرنسي لسورية ولبنان:

جمالُكَ يا مِيناءَ سَنْطُسَ أَشْجَاني ... وحَرَّكَ بِالذِّكْرَى سَوَاكِنَ أَشْجَاني

أَتَيْتُكَ أَبغي فيكَ تَفْريجَ كُرْبَتي ... فَعُدْتُ، وقد أَرْبَتْ على الرَّمْلِ أحزاني

أربت على الرمل: زادت، فصارت أكثر من حبات الرمل

فَما أَبْصَرَتْ عينايَ فيكَ سَفينةً ... على سَفَرٍ، إلَّا تَذَكَّرْتُ أوطاني

٩٠ يا برازيل

قال وقالها على شاطئ باراناغوا متشوقاً إلى ساحل لبنان:

يا نسيمَ البحرِ البَليلَ سَلامُ   زَارَكَ اليومَ صَبُّكَ المسْتَهامُ

البليل: الهواء المبتل بالندى، صبك المستهام: محبك العاشق

إنْ تَكُنْ مَا عَرَفْتَني، فَلَكَ العُذْ   رُ، فَقَدْ غَيَّرَ المحِبَّ السَّقَامُ

أَوَلَا تذكُرُ الغَلامَ رَشِيدَاً؟   إنَّني يا نَسيمُ ذاكَ الغُلامُ

طالما زُرْتَني إذا انتصفَ الليـ   ـلُ بِلُبنانَ، والأنامُ نِيَامُ

ورَفَعْتُ الغِطَاءَ عنِّي قَليلاً   فأحَسَّتْ بِمَزْحِكَ الأقْدامُ

وتنبَّهْتُ فاتِحاً لكَ صدراً   شَبَّ فيهِ إلى لِقَاكَ ضِرَامُ

ضرام: جمر، كناية عن شدة الشوق

فَتَغَلْغَلْتَ في الأضالِعِ أنفا   ساً لِطَافاً تَهفو إليْها العِظَامُ

يا نسيمَ المُحِيطِ! مَا هَكذا في   ساحِلِ البَحْرِ عندنَا الأنسامُ

يقارن بين نسيم البحر في لبنان ونسيم المحيط الأطلسي على شاطئ البرازيل

أنتَ إنْ زُرْتَ في المنامِ صَحيحاً   غَلْغَلَتْ في عِظَامِهِ الأسْقامُ

غلغلت: تغلغلت

ذاكَ أزْكَى شَمَّاً، وألْطَفُ ضَمَّاً   ذَاكَ تَشْفَى بِلمسِه الأجسامُ

أَسْبِقُ الفَجْرَ في الهُبُوطِ إلى البَحْـ   ـرِ، وكَمْ طَابَ لي بِه اسْتِحمامُ

طَاهِرَ القَلْبِ، لَسْتُ أُوجِسُ شَرّاً   جَاهِلاً ما تُخَبِّئُ الأيَّامُ

شَادِياً في النَّهارِ والليلِ، حتى   أَدْهَشَ الناسَ بُلْبُلٌ لا يَنامُ

غُرْفَتي السطحُ، زَيَّنَتْها سَمَاءٌ   تَتَدَلَّى مِنْ سقْفِهَا الأجرامُ

الأجرام: النجوم، وجعلها تتدلى من السماء بعد أن جعل السماء سقفاً وهو نائم على سطح البيت

وكأَنَّ النجومَ شِعْرٌ بَديعٌ   لا غُمُوضٌ فيهِ، ولا إبْهَامُ

رَسَمَتْهُ كَفُّ العَلِيِّ عُقُوداً   إنَّما اللَّهُ شاعرٌ رَسَّامُ

يا بَرَازِيلُ! لو أَفَضْتِ عَلَيَّ الـ   ـمالَ فَيْضَاً مَا طابَ فيكِ المُقامُ

أَجَمِيعُ الشهورِ فِيكِ شُبَاطٌ   أَوَمَا لِلشِّتَاءِ عنكِ انصِرَامُ؟

شباط: فبراير، انصرام: انصراف

مِثْلما تَنْقَضي الليالي سِرَاعاً ... هكذا فيكِ تنقضِي الأَعوامُ
وإذا بِالفَتَى مِنَ الهَمِّ شَيْخٌ ... تَعْتَريهِ الأَوْصَابُ والآلامُ

الأوصاب: الأوجاع

وكأَنَّ الوَرَى وُحُوشٌ بِآجَا ... مٍ، وتِلْكَ الشوارِعَ الآجَامُ

الورى: الناس، آجام: غابات

مَنْكِبٌ حَكَّ مَنْكِباً، وجَبِينٌ ... شَجَّ رأْساً، علامَ هذا الزِّحَامُ؟
يا لِشَوْقِي إلى مَحَاسِنِ قُطْرٍ ... هَبَطَ الوحيُ فيهِ والإلهامُ
وكُرُومٍ إنْ مَرَّ فيها غَرِيبٌ ... يَتَوارَى مِنْ وَجْهِهِ الكَرَّامُ

يتذكر بلوعة كروم بلاده التي يمر فيها الرجل الغريب ويأكل منها، فيتوارى صاحب الكرم منه حتى يتيح له حرية القطف والأكل بلا حرج

كلُّ حَيٍّ إلى الشَّآمِ سَيَمضي ... حينَ يَقْضي، إنَّ السَّمَاءَ الشَّآمُ

يقضي: يموت، السماء: الجنة

٩١ زغاليل تعيش على سبِّي

قال في صنبول (كذا يعرِّب القروي ساو باولو) ١٩٤١:

وكمْ نَشَراتٍ دَأْبُها أنْ تُهِينَني ... وأنْ أتَغاضَى عنْ إهاناتِها دَأْبي

نشرات: مجلات وجرائد

صبرتُ عليها ربعَ قرنٍ، فَلم أُجِبْ ... بِسُوءٍ، ولَم أَشْهَرْ على شَاتِمٍ حَرْبي
وهَوَّنَ عندي السَّبَّ أنَّ لِبَعْضِهِمْ ... زغاليلَ أطْفَالاً تعيشُ على سَبِّي

الزغاليل: أفراخ الحمام، ويذكرها الناس مثالاً على المخلوق الضعيف المحتاج للحماية؛ وهم يذكرونها دون غيرها لأنهم يرونها كثيراً.. على موائدهم

٩٢ وداعة

لَطِّفْ حديثَكَ، فالنُّفوسُ مَريضةٌ ... ومِنَ الكلامِ مُخَنِّنٌ ومُجَنِّنُ
كَمْ هادئٍ بالعُنْفِ ثارَ، وآبِدٍ ... كَالوَحْشِ رَوَّضَهُ الدُّعاءُ اللَّيِّنُ

الدعاء: المخاطَبَة

وإذا ابْتُلِيتَ بِجَاهِلٍ كُنْ عاقِلاً   حتَّى يقولَ العَقْلُ: وَيْحَكَ تَجْبُنُ؟

٩٣ حتى تكفَّ رياءها الشعراء

واهاً على الأدبِ الرفيعِ وأهلِهِ!   ضاعَ القياسُ، وضاعتِ الأُدباءُ

سكَتَ الطيورُ عن الغناءِ، فقامَ في   ذهنِ الدُّجى أنَّ النقيقَ غناءُ

في غياب الأدب الرفيع ظن الدجى (الليل) أن نقيق الضفادع، التي تبدأ النقيق عادة في الليل، غناء (المعنى: ظن العامة أن النظامين شعراء)

واللّهِ! لستُ أكفُّ عنْ قَرعِ العَصا   حتى تكُفَّ رياءَها الشعراءُ

قرع العصا: تعبير عتيق معناه «تنبيه الغافلين»، وليس معناه الضرب بالعصا. خَرِفَ أحد السادة من قدامى العرب فأوصى بأن يقرعوا له العصا، لتنبيهه، كلما خرج في كلامه عن العقل

شكوى ولا ألمٌ، وتشبيبٌ ولا   حبٌّ، وتأليهٌ ولا عظماءُ

يتبجَّحونَ بكلِّ مجدٍ غابرٍ   والظلم يشهدُ أنهُمْ جبناءُ

للعدلِ قِسْطاسٌ بكفِّيَ قائمٌ؛   العُرْبُ والإفرَنْجُ فيهِ سواءُ

قسطاس: ميزان

٩٤ لستُ شيئاً..

قال في عرس ابنة أخيه في صنبول ١٩٤٣:

علِّلانيِ بِالكأسِ إثرَ الكاسِ   واسْقِياني حتَّى تَطِيرَ حَوَاسِي

لسْتُ شيئاً إنْ لم أَدَعْ عُمَرَ الخَيَّـ   ـامَ خَلفيِ، في شُرْبِها، والنُّوَاسِي

٩٥ التعنيف

قال في تأبين ميشال المعلوف في العصبة الأندلسية ١٩٤٣:

قالُوا تَمَادَيْتَ في تَعْنِيفِهِ؛ صَدَقُوا   لمتُ الحبيبَ على مِقْدَارِ حُبِّيِهِ

مقدار حبيه: مقدار حبي إياه

سَيُدْرِكُ الطفلُ أنَّ الحُبَّ أَنْفَعُهُ   لا مِنْ مُدَلِّلِهِ بَلْ مِنْ مُرَبِّيهِ

هُمْ يَغْضَبونَ إذا نَبَّهْتُهُمْ؛ وأنا   مَا لي سِلاحٌ يَقِيهِمْ غَيْرُ تَنْبِيهِي

٩٦ محاسن الموت

قال في تأبين مؤسس العصبة الأندلسية ميشال معلوف في صنبول ١٩٤٣:

يا حَبَّذَا مُتَعُ الشَّبابِ، وحَبَّذَا … يومٌ يُطِلُّ على النُّفوسِ حِمَامُها

أَهْوَى المنِيَّةَ والحياةَ؛ جَمُالُ ذي … عِندي لذائِذُهَا، وتِلْكَ سَلامُها

لم يُغْنِ حُبُّ العَيْشِ عَنْ حُبِّ الرَّدَى … والعينُ، ما سَهِرَتْ، يَطِيبُ منامُها

فاخْتَرْ لِنَفْسِكَ مِيتَةً مَحْمُودَةً … حُسْنُ القَصيدةِ بَدْؤُها وخِتَامُها

٩٧ هَبُّوا كالألغام

ألقاها في ١٩٤٤ في حفل وضع حجر الأساس للمصح السوري في هضاب جردون بالبرازيل:

للَّهِ دمعُ سُروريِ يومَ هَبَّتِهِمْ … مِنْ ضَجْعَةِ الذُّلِّ كالألْغَامِ تَنْفَجِرُ

والحمدُ لِلظُّلم، إن الظُّلم علَّمهُمْ … أنَّ العروبةَ فيها العزُّ والظَّفَرُ

تَجَهَّمِي، واكْفَهِرِّي يا سماءُ لنا؛ … لا يُسْتَقَى مِنْ سَحابٍ أبيضٍ مَطَرُ

٩٨ المرضع والوليد

قال سنة ١٩٤٥، وعاتب فئة كانت تهكمت به لقصيدة سابقة:

شمسَ العروبةِ! عِيلَ صبرُ المُجْتَلِي … شُقِّي حجابَكِ قبلَ شَقِّ الرَّمْسِ لِي

نفد صبر المجتلي (المترقب) المنتظر بزوغَ شمس العروبة، فشُقِّي حجاب الغيوم واظهري قبل أن يُشَق لي الرمس (القبر)

وتَدَارَكِي مُسْتَعْجِلاً، لو لم يَخَفْ … سَبْقَ الحِمَامِ إليهِ، لم يَسْتعجِلِ

أدركيني فأنا مستعجل، ولولا خوفي أن يسبق الموت ويأخذني لما استعجلت

أَأَرى نَهارَكِ قبلَ إغماضِ الرَّدَى … جَفْنِيَّ في ليلِ الحَفِيرِ الأَلْيَلِ

الحفير: القبر، الأليل: الشديد الظلمة، يقولون «هذا ليل أليل»

فَلَقدْ يَرَى بِالرُّوحِ شَاعِرُ أُمَّةٍ … ما لا يَرَى غيرُ النَّبيِّ المرْسَلِ

مَنْ هامَ في حُبِّ الغَريبِ، فَلَسْتُ عَنْ … حُبِّ الأخِ العَرَبيِّ بِالمُتَحَوِّلِ

من هام بحب الغرباء فهو وشأنه، أما أنا فلا أتحول عن حب الأخ العربي

يا مِنْ يَعُدُّونَ الدِّفاعَ تَهَجُّماً … ويُؤَوِّلونَ النَّقْدَ شَرَّ مُؤَوَّلِ

وحياةِ لبنانٍ وأرْزَتِهِ، وما أقسَمْتُ إلَّا بالحبيبِ الأولِ
لولا ادِّرَاعيِ بِالمحبَّةِ لاغْتَدَتْ كَبِدي لِوَقْعِ نِبَالِكُمْ كالمنْخُلِ

لولا ادراعي المحبة (لُبْسيَ المحبةَ درعاً) لرميتموني بنبالكم (بسهامكم) حتى يصير كبدي مخرَّقاً مثل المنخل

أَبْكِي وأضحَكُ للعذابِ كَمُرْضِعٍ شَدَّ الوليدُ بِشَعْرِها المسْتَرْسِلِ
أمَّا الأُلَى شَمِتُوا بِمَنْكُوبِ الحِمَى والبائعونَ بِلادَهُمْ مِنْ دِيغُلِ

الشامتون بالوطن المنكوب، والذين باعوا بلادهم لديغول (زعيم الفرنسيين)..

والطَّالبونَ حِمَايَةَ البَاغِي، وهَا دَمُهُمْ على قَدَمَيْهِ، لمَّا يُغْسَلِ
فَهُمُ الأُلَى بين الإبَاءِ وبينَهُمْ ما بين أَعْلى الكائناتِ، وأسفَلِ
لم يهتِفِ الحرُّ الكريمُ بِمَحْفِلٍ إلَّا تَلاهُ طنينُهُمْ في المَحْفِلِ

٩٩ لم يُطِق صحبة الليوث

قال عن شخص عاشره في صنبول وحاول تقليد القروي في الشعر القومي، ثم يئس. فراح يدعو للمحبة والسلام مع إبداء نقمة هستيرية على صديقه ومعلمه القديم:

حَلَمَ الدُّبُّ بالسيادةِ يوماً واشتهى أن يكونَ ليثاً أغلبْ

أغلب: غليظ العنق

غيرَ أنَّ الزئيرَ أعياهُ، فارتدَّ ـمَغِيظاً، يُبَرِّدُ الغيظَ بالسَّبّ

أعياه: أعجزه، مغيظاً: مغتاظاً

ومضى يستشيرُ دُبَّاً حكيماً طالما جربَ الذي هُوَ جرَّبْ
قال: إنَّ الخمولَ يا صاحِ صَعْبٌ، بيْدَ أن الذي أحاولُ أصعبْ

الخمول: عدم الشهرة

فأفِدْني كيفَ السبيلُ إلى الشُّهـ ـرةِ قال: «السبيلُ أن تترهَّبْ
هكذا يدرِكُ الحكيمُ الأمانيِ راكباً للخلودِ أنْعَمَ مركِبْ
والذي لا يكونُ ليثاً خطيراً فليكنْ في الأقلِّ دُبَّاً مهذبْ»
ومضى دبُّنا التقيُّ مُذيعاً نبأً كاذباً بِبُوقٍ أكذبْ
زاعماً أنه نبيٌّ جديدٌ يا لَهُ مُرسَلاً بِنابٍ ومِخْلَبْ!

لم يُطِقْ صحبةَ الليوثِ، فأمسى ذاهباً في نِفاقِهِ ألفَ مذهبْ
فَهْوَ حِيناً ذِئْبٌ، وحيناً خَرُوفٌ وهْوَ، في أغلبِ الأحايينِ، ثعلبْ

يرى الطلبة في كلياتهم وجامعاتهم واتحادات الطلبة التي ينتمون إليها الكثير من مثل هذه المواقف. كل طالب نشط نقابياً أو سياسياً يريد أن يكون له طابع مميز. يريد أن يكون مناضلاً شرساً يجتمع حوله الآخرون، فإذا عجز عن ذلك سعى إلى أن يكون داعية سلام ووفاق، أو فيلسوفاً. كل طالب نشط يريد أن يكون صاحب دور محدد. والطالب الذي يختار دوراً ينسجم مع وضعه الطبقي، ومع طريقة تفكيره يصيب نجاحاً أكثر. والطالب الذي يركب الموجة ويتبع الحزب المناسب في الوقت المناسب يجد وظيفة بعد التخرج. ولعبة اتحادات الطلبة هي مجسم مصغر للحياة السياسية في البلد. وهي من أهم ما تمنحه الجامعة للطالب.. بالتأكيد أهم من الشهادة. في الجامعة ينفرز الطلبة، ويعرف القيادي نفسه، ويعرفه الآخرون. والطالب المتذبذب بين الفرق والأحزاب نموذج معروف، ووصف القروي أعلاه ينطبق على أكثر من مستوى في المجتمع

١٠٠ الانشطار في عهد الاستقلال

قال في مرور ٢٥ سنة على وفاة المعلم نعمة يافث. قيلت سنة ١٩٤٥:

عُدْ يا معلمُ، أو فابعثْ لنا أحَدا طالَ السُّرَى، وأَضَعْنا بَعدَكَ الرَّشَدا

السرى: سير الليل

ها رُبْعُ قرنٍ تَقَضَّى مُذْ رحلتَ، ومَا زالتْ سفينَتُنا تَجري بغيرِ هُدى
فَبَاتَ في عَهْدِ الاسْتِقلالِ مُنْشَطراً مَنْ كانَ في عهدِ الاستعمَارِ مُتَّحِدا

كان السوريون في المهجر متحدين، ومع الاستقلال أصبحت لبنان وسورية كيانين فانشطر الناس في المهجر فريقين

روحُ المعلمِ تأبَى أنْ تُطِلَّ إذا حَيَّاهُ في عِيدِه لبنانُ مُنْفَرِدَا
وليسَ يُسْعِدُهَا شيءٌ كَحِينَ تَرى يُمْنَى فتى الأرزِ في يُسْرَى فتى بَرَدَى

١٠١ في ذم السياسة

قال في مجلس طرب بين البساتين ١٩٤٥:

لَعَنَ اللَّهُ السِّياسَةْ إنها أصلُ التَّعَاسَةْ
خُلِقَ الجاهِلُ مَعْنِيَّـ ـاً بِمَا يُوجِعُ راسَهْ
مَقْعَدٌ بينَ البَسَاتيـ ـنِ، ولا دَسْتُ الرِّيَاسَةْ

دست الرياسة: مجلسها

فَـدَعُـوهَـا لِـذَوِيـهـا واجْـلِـسـوا: كُـلَّا وكَـاسَـهْ
كـلُّ مـالِ الأرضِ، لـولا الـ ـكَـيْـفُ، لا يَـسْـوَى نُـحَـاسَـةْ
والـحـيـاةُ الـحُـبُّ والـمـتـ ـعَـةُ، والـبَـاقـي كُـنَـاسَـةْ

١٠٢ رقصة الموت حول الرحى

مِنْ حَبَّةِ القَمْحِ اتَّخِذْ مَثَلَ النَّدَى يا مَنْ قَبَضْتَ عَنِ النَّدَى يُمْنَاكَا
هِيَ حَبَّةٌ أَعْطَتْكَ عَشْرَ سَنَابِلٍ لِتَجُودَ أنتَ بِحَبَّةٍ لِسِواكَا
حَلمتْ بِأَنْ سَتَعِيشُ في خُبْزِ القِرَى فَتَراقَصَتْ لِلموْتِ حَوْلَ رَحَاكَا

القرى: طعام الضيف، رحاك: حجر طاحونك

وكَأَنَّما الشَّقُّ الذي في وَسْطِهَا لَكَ قَائِلٌ: نِصْفِي يَخُصُّ أَخَاكَا

١٠٣ الباقي بعد الطرح

أيُّـهـا الـجـازِعُ مِـمَّـا فـي ظـلامِ الـرَّمْـسِ يَـلْـقَـى

الرمس: القبر

أنـتَ، لا بِـالـمـوتِ، بـلْ بـالـ ـعَـيْـشِ، يـا مـغـرورُ، تَـشْـقَـى
اطـرحِ الـخـوفَ مِـنَ الـمـ ـوتِ، فـمـاذا مـنـهُ يَـبْـقَـى؟

إذا قمت بعملية طرح، فطرحت الخوف من الموت لم يبق منه شيء

١٠٤ غرقوا به ولم نتبلل

قال في ١٩٤٦:

إنِّي لَصَدَّاحُ العروبةِ، طابَ لي شَـدْوِي على سَرَوَاتِهَا، وتَنَقُّلِي

سروات: شجرات السرو

سَنُعِيدُ صَرْحَ العِزِّ طَوْداً شَامِخاً ما أَحْقَرَ الماضيَ لَدَى المستقبَلِ

صرح: بناء فخم، طود: جبل

ما بَالُ مَنْ زَعَمَ الجلاءَ تَقَلْقَلَ الـ ـهَرَمُ الكبيرُ بِهِ، ولم يَتَقَلْقَلِ

ما لي أرى هؤلاء يقولون إن اتفاقية الجلاء، وجلا الفرنسيون عن سورية في هذا العام، أمر خطير اهتز له الهرم الكبير؟ لا، لم يهتز، فاتفاقية الجلاء خدعة (كذا فهمتُ المعنى)

لا تُخْدَعُوا بِرَحِيلِهِ عَنْ جِلَّقٍ وأَخُوهُ عَنْ بَغدادَ لَمَّا يَرْحَلِ

لا فرقَ إنْ نَزَفَ العدوُّ دماءَكُمْ مِنْ إِشْجَعٍ أو أَخْدَعٍ أو أَكْحَلِ

الإشجع: عرق من عروق الكف، الأخدع: عرق في العنق، الأكحل: عرق في الذراع

يا لِلْبُزَاةِ! عَلَيْهِ تَحْمِلُ حَمْلَةً، يومَ «المَصَانِعِ» مِثْلُها لم يُحْمَلِ

ألا يا أيها البزاة (النسور)! شنوا حملة على المحتل لم يشن مثلها في يوم (معركة) المصانع (التي خاضها عنترة بن شداد)

لو كانَ يُمْكِنُهُ رَمَى أعضاءَهُ عِنْدَ الهزيمةِ، واكتَفَى بالأَرْجُلِ

العدو من شدة بأسكم كان يتمنى لو يستطيع أن يتخلص من كل أعضاء جسمه، ويُبقي على الأرجل لكي يهرب منكم بسرعة. خيال طيب من شاعرنا

طارتْ شواهينُ العقولِ، وحَلَّقَتْ والصَّقْرُ، صقرُ قريشَ، لم يَتَمَلملِ

في الغرب طارت شواهين (جوارح) العقول وحلقت في الجو، وأما صقر قريش (كناية عن العرب) فهو لم يتململ بعد من نومه

كَمْ سَبْسَبٍ مُتَفَجِّرٍ عَنْ ثَرْوَةٍ غَرِقَ العُلوجُ بِهَا، ولم نَتَبَلَّلِ

كم يوجد من سبسب (صحراء) يتفجر بثروة النفط، ويغرق العلوج (الأجانب) في نفطنا، ونحن لا نكاد نتبلل به، لا يصيبنا شيء من خيره

لولا جمودُ الشَّرْقِ ما نَعِمُوا بِهَا والطَّيِّباتُ نصيبُ مَنْ لم يَكْسَلِ

١٠٥ شعراء رمل الشاطئ

قال في حفل تكريم الشاعر شكر الله الجر:

أينَ البلابلُ في إنشادِها سَحَرا مِنْ شاعرٍ عربيٍّ، إنْ شَدَا سَحَرا

كمْ يَدَّعي الشعرَ مَنْ لا يَشْعُرونَ بِه ولا يُعَادونَ إلَّا كُلَّ مَنْ شَعَرا

يَلْهُونَ مِنْهُ بأَوْزَانٍ مُسَجَّعَةٍ والشعْرُ مِنْهُمْ ومِنْ أوزانِهِمْ سَخِرَا

دعْهُمْ على الشاطئِ الرَّمْلِيِّ في لَعِبٍ إذا طَغَى الموجُ لم يَتْرُكْ لهُمْ أَثَرَا

يا نَافِثاً دُرَراً، يا بَاعِثاً شَرَراً يا جَالِياً غُرَراً، يا مُلْهِماً سُوَرا

كَمْ خاملٍ يَبْتَغي ذِكْراً، فَيُعْجِزُهُ يَوَدُّ لو أنَّه بِالسُّوءِ قد ذُكِرا

١٠٦ يا قريتي

واهاً على عَهْدِكِ يا قَرْيَتي أيامَ إلَّا فيكِ لم أعْرَفِ

فـي ضَـعَـةِ الـمـرءِ وِقَـاءٌ مِـنَ الـ ـهَـمِّ، ومِـنْ يَـسْـتَـعْـلِ يَـسْـتَـهْـدِفِ

يستعلي: يطلب العلو، يستهدِف: ينصب نفسه هدفاً. وقد قال القديم: «من ألَّف، فقد استهدَف»، ونحن ألفنا بضعة كتب، بعضها كهذا الكتاب لا يخرج عن كونه اجتراراً لإبداع ناسٍ آخرين، وبعضها غايته نقل الخبرة إلى الناشئة، ولم نر أحداً استهدفنا. لا بل قد كتبت كتاباً في سنة ٢٠٠٣ في السياسة، ونشرته في بلدٍ نقدت فيه رئيسه نقداً حاداً، فبعت ثماني نسخ، ولم يأبه بي أحد. وبعد ذلك كتبت شيئاً يسيراً مما كنت قلته في ذلك الكتاب في مقال بجريدة مغمورة فقامت علي القيامة. ساء ظني بالكِتاب، كل كتاب، ولكنه ظل الهدف الأسمى. فقد نشأت، ونشأ جيلي على أن غاية الإنجاز أن يكون لك كتب في السوق. وصار هذا خلقاً من أخلاقي، وهاجساً من هواجسي. فمهما انهارت سمعة الكتاب وخبا أثره لا يفقد هالة أظل أراها تطوقه

١٠٧ مدارس دوارس

قال وألقاها في صنبول (ساو باولو كما يعربها القروي) في زيارة فيليب حِتِّي:

أصبحَ الشرقُ مَعرِضاً لِلمدارسْ وصـروحُ الـعُـمـرانِ فـيـه دَوَارِسْ

دوارس: مهدَّمة

كـلُّـهـا تُـنـشِـئُ الـرجـالَ، ولـكـنْ لا لِقَرْعِ الخطوبِ، بلْ لِلمجالِسْ

قرع الخطوب: مواجهة المصائب

نَصرِفُ العمرَ بينَ صرفٍ ونَحْوٍ ونُـبـاهـي بِـعِـلْـمِـنـا، ونُـنـافِـسْ

كلُّنا مُقْعَدٌ إذا اسْتَصْرَخَ الحَقُّ- ولـكِـنْ فـي حَـلْبَـةِ الـقـولِ فَـارِسْ

استصرخ الحق: نادى مستنجداً

كَـلْـمٌ كَـلَّ قَـلْـبُ لـبـنـانَ مِـنْـهـا وجَـبِـيـنُ الـشَّـآمِ مِـنْـهـا عـابِـسْ

كلم: كلام، كلَّ: تعب

إنَّ عِـلْـمـاً لا يَـكْـفُـلُ الـرِّزْقَ خَـيْـرٌ منهُ، عندَ الغَرْبِيِّ، صُنْعُ المكَانِسْ

ثمة حالة من الهوس لا بد أن تصيب كل عاقل في بلدان متخلفة كبلداننا العربية. وسأشرحها قليلاً: من يقرأ شعر القروي وصحبه من شعراء النصف الأول من القرن العشرين يفهم أن الشعور بأننا متخلفون وقاعدون عن مسايرة البلدان المتطورة كان عارماً. شوقي مثلاً يردد هذه اللازمة في كثير من أشعاره. ثم جاء عبد الناصر، وشعر العرب أنهم أمة لها وزن. مجرد شعور. وانقضى زمن عبد الناصر ورجعنا إلى شعورنا الأول، ولعله الأقرب إلى الواقع. وعلى هذا فكل ما في حلق المواطن العربي اليوم (وأنا أكتب في أبريل/نيسان عام ٢٠٠٩) من مرارة ليس جديداً. إن ما يجعل هذا الشعور جارفاً لدى العربي، وزائداً عما يعتمل في أذهان شعوب أخرى

متخلفة هو أننا ندرّس أولادنا في المدارس أن تاريخنا كان مجيداً وناصعاً. والواقع أن تاريخنا، كتاريخ شعوب كثيرة، مزيج من النقاط المضيئة والمساحات المظلمة. نحن ناس عاديون، والمجد العربي شبيه بالمجد المكسيكي الذي عرف حضارة بائدة، وبالمجد الهندي، وبالمجد القديم لكل شعب. ولأننا في حالة نواح على الذات نمر بفترات كفر: نكفر بكل شيء لا يوصلنا إلى القنبلة الهيدروجينية، وتصنيع السيارة والطيارة. نكفر بكل معرفة سوى المعرفة التي تجعلنا نصبح شعباً متطوراً مادياً. لعل هذا الكفر خير من الإيمان بماض مجيد، والنوم على هذا الإيمان

١٠٨ الجحود

تَبَيَّنْتُ أسبابَ الضَّلالةِ والهُدى   فلم أَرَ بينَ العِلم والجهلِ فارِقَا

ألم يُصْبِحِ المخلوقُ بِالعِلم خَالِقاً   ومَا زالَ يَنْفي أنَّ لِلْكَوْنِ خَالِقَا

هُمُ الناسُ، إنْ لم يَعْشَقُوا الحَقَّ أَنْكَرُوا   ولَوْ لَمسُوا بِالرَّاحَتَيْنِ الحَقَائِقَا

الشرح من عمران القفيني: (يتساوى العلم والجهل ولا يصبح بينهما أي فارق، عندما يبدع العالم خلقاً جديداً باختراعاته ومع ذلك يظلّ ينكر أن الكون مخلوق لخالق. والناس بطبيعتهم ـ يقول القروي ـ يجب أن يتوفر لديهم عشق الحقيقة وحبها كي لا يصلوا درجة الإنكار. ولو لم يتوفر ذلك العشق أنكروا، حتى وإن صارت الحقيقة في متناول أيديهم.. لا بدّ من توفر حب الحقيقة أولاً.. كذا فهمتُ المعنى)

١٠٩ قناعة

قال ونظمها في مدينة كلدس سنة ١٩٤٦:

بلغتُ مِنَ الرزقِ الحلالِ كِفايتي   فيا أرضُ جُودي بالملايينِ، أو ضِنِّي

ضني: ابخلي

وربَّ قليلٍ، في فمِ الشكرِ، مُشْبعٌ   وربَّ كثيرٍ، في يدِ الكُفْرِ، لا يُغْني

الكفر: جحود النعمة، وعدم الرضا بالرزق

وإنِّي لَيَدْعوني الغِنَى، فأُجِيبُهُ   ويغمِزُني النجمُ البعيدُ، فَأَسْتَغْني

الشاعر متحير بين التجارة وما فيها من مال وبين الشعر وأضواء الشهرة

١١٠ إلى غير رجعة

قال على ضريح والدة صديقه إلياس عاصي ١٩٤٧:

نَضَبَ العُمْرُ دَمْعَةً إِثْرَ دَمْعَةْ   قُوتِلَ الدهرُ! لا يُغَيِّرُ طَبْعَهْ

نَشتَكي وَجْعَةً مِنَ الموتِ، لَكِنْ   نَشْتَكي مِنْ حياتِنا ألفَ وَجْعَةْ
رِحْلَةُ القبرِ لا قَوافِلَ فيها   كُلُّنا ذاهبٌ إلى غيرِ رَجْعَةْ

قوافل: إبل قافِلَةٌ (راجعة) من السفر

١١١ رثاء حسني غراب

قال في تأبين الشاعر حسني غراب بصنبول عام ١٩٥٠:

ولِلَّهِ يومٌ بَدَّدَ الشُّؤْمُ فَالَهُ   ولِلَّهِ قَلْبي مَا أَشَدَّ احْتِمَالَهُ
نَعاكَ ليَ النَّاعي، فَحَدَّقْتُ ذاهلاً   إليهِ، كأنِّي ما وَعَيْتُ مَقالَهُ
وأَثْبَتُّ مَا عَلَّلْتُ نفسي بِنَفْيِهِ   فلم يُجْدِني أَنِّي أَعَدْتُ سؤالَهُ
وأحسستُ أنَّ القبرَ هِيلَ تُرابُهُ   عليَّ، وأنَّ الكونَ ألقَى جِبَالَهُ

١١٢ دمنة الأيام

إنْ أنتَ لم تَجْنِ مِنْ روضِ الصِّبَا زَهَراً   فَلَيْسَ في دِمْنَةِ الأيَّامِ أزهارُ

دمنة الأيام: مزبلة العمر، يقصد الشيخوخة

وقيمةُ الشيءِ مِقْدَارُ الهُيَامِ بِهِ،   فإنْ زَهِدْتَ، فَما لِلماسِ مِقْدَارُ
لا تَعْقِدَنَّ على ذِي ثَرْوَةٍ أَمَلاً   فما تَصاحَبَ تُجَّارٌ وشُعَّارُ
والماءُ والنارُ شيءٌ إنْ فَصَلْتَهُمَا،   فإنْ وَصَلْتَ فلا ماءٌ ولا نارُ

١١٣ وماذا يغني الحب؟

قال يرثي الشاعر حسني غراب ١٩٥٠:

فِدَاكَ رَفيقٌ يَنْزِفُ الهَمُّ قلبَه   ويأْخُذُ منهُ الشِّعْرُ ما تَرَكَ الهَمُّ
ولو كانَ يُغْنِي الحُبُّ، أو يَدْفَعُ الرَّدَى   لما نَامَ تَحتَ التُّرْبِ حَيٌّ لهُ أُمُّ

١١٤ التطهير بالنار

قال في صنبول عام ١٩٥٠، في تأبين الأديب جميل صفدي:

اِهتِفْ بِكُلِّ فتىً حُرٍّ: هَلُمَّ أَخي!   وَلْنَمْحُ مَا سَطَّرَ الأنذالُ مِنْ عارِ
عليكَ بِالماءِ فَاغسِلْ ما استَطَعْتَ، فإنْ   لم ينفعِ الغَسْلُ، فالتَّطْهيرُ بالنَّارِ

١١٥ تاج الشعر وتاج الوزارة

قال القروي في حفل تكريم بصنبول لعمر أبو ريشة الوزير المفوض لسورية في البرازيل، وأبو ريشة شاعر مهم، ١٩٥٠:

طُفْ يا رَسولَ الفنِّ في مِعْراجِه ... متنقِّلاً كالشمسِ في أبراجِه

يا عمر أبو ريشة، يا رسول الفن، طف طوافاً في معراج الفن (سمائه)

لكَ في سماءِ العبقريةِ منزِلٌ ... يتهافتُ الشعراءُ دونَ رِتاجِه

رتاجه: بوابته

الفجْرُ مِنْ أبوابِه، والدهرُ مِنْ ... حُجَّابِه، والزُّهْرُ مِنْ حُجَّاجِه

الزهر: النجوم

مَنْ ذا يُهَنِّئُ بالوِزَارةِ شاعِراً ... التاجُ أرخَصُ درَّةٍ في تاجِه!

١١٦ إنزاف

قال سنة ١٩٥٣ ترحيباً بصديقه الشاعر سليمان داود الذي قدم من هيوستن بالولايات المتحدة:

ما بالُ شَيْطانيَ الثَّرثارِ أَنْكرَني ... كأنَّهُ مُذْ عَلاني الشَّيْبُ لم يَرَني

تَزْوَرُّ عَنِّي بَنَاتُ الوَحْيِ عَابِسَةً ... كأَنَّني ما نَظَمْتُ الشِّعْرَ في زَمَني

تزورُّ عني: تنفر مني، بنات الوحي: أبيات الشعر

عَهْدِي بِه كُلما اسْتَوْحَيْتُ نَزَّلَ لِي ... آيَ البَيانِ كَصَوْبِ العَارِضِ الهَتِنِ

عهدي بشيطاني الملهم أنني كلما استوحيت (طلبت الوحي الشعري) نزَّل لي الآيات الشعرية كصوب العارض الهتن (كانصباب السحاب الممطر)

قَرِيحَتِي، بعدَ ذاكَ الفَيْضِ، جَامِدَةٌ ... جُمُودَ عَقْلِيَّةِ الرَّجْعِيِّ في وَطَني

يا دهرُ! لم تُبْقِ لي شَيئاً أُسَرُّ بِه، ... الحمدُ للَّهِ، لا رُوحِي ولا بَدَني

ذَرْني مَعَ الشِّعْرِ في صَحْرَاءَ قَاحِلَةٍ ... ولا تَذَرْني جَدِيبَ الفِكْرِ في عَدَنِ

عَدَن: يقصد جنات عدْن

١١٧ صمصام بكف علي

ألقاها في النادي الحمصي بصنبول ١٩٥٦:

إنْ لم يَفِضْ مِنْ يَدَيْكَ القولُ، لا تَقُلِ ... لا مِنْبَرَ اليومَ، إلَّا مِنْبَرُ العَمَلِ

بِنْتُ الحِمَى ليسَ يَحْمِيها القَرِيضُ، ولا تَرْضَى عنِ السَّيْفِ، يومَ الثَّأْرِ، مِنْ بَدَلِ

القريض: الشعر

عارٌ إذا لم نَسِرْ، والناسُ قد وَصَلُوا وليسَ عاراً إذا سِرْنَا، ولم نَصِلِ

أما تَرَوْنَ جنودَ الوَحْدَةِ انتظَمُوا في كُلِّ مُضْطَرَبٍ ناءٍ ومُقْتَتَلِ

مضطَّرَب: مكان، مقتَتَل: ميدان

ونَاصِرٌ يَتَجَلَّى بَينَهُمْ قَمَراً لِلْهَدْيِ والحُسْنِ؛ مَهْمَا شِئْتَ فيهِ قُلِ

رَأْيٌ أصيلٌ، وعزمٌ غَيْرُ ذِي فَلَلٍ كأنَّما هُوَ صَمْصَامٌ بِكَفِّ عَلِي

صمصام: سيف، علي: ابن أبي طالب

١١٨ رثاء أبو ماضي

قال في حفل تأبين إيليا أبو ماضي بصنبول في آذار/مارس ١٩٥٨ وبعدها بشهرين غادر القروي إلى لبنان. ويقول القروي إن قنصل لبنان بصنبول (ساو باولو) أبرق للسلطات باعتقاله فور وصوله:

أَعِدِ البَشَاشَةَ للذينَ تَركْتَهُمْ رَهْنَ الكآبةِ في ظلامٍ كَالعَمَى

وأَغِثْ جَداوِلَكَ التي تَرْوِي الظَّمَا ويَكَادُ يقتُلُها، لِرُؤْيَتِكَ، الظَّمَا

«الجداول»: ديوان من دواوين إيليا أبو ماضي. يكاد يقتل الجداول العطش والشوق لرؤيتك

تَجْرِي زُلالاً في الطُّرُوسِ، وإنْ جَرَتْ لِنَوَاكَ مِنْ مُقَلِ الأَحِبَّةِ عَنْدَمَا

الطروس: الأوراق، نواك: فراقك، مقل: عيون، العندم: نبات أحمر كالدم، أما سموه أيضاً «دم الأخوين»؟

وقَلائِداً يُعْجِزْنَ أَبْرَعَ نَاظِمٍ حَتَّى لَيَحْلِفَ أنَّهُ لن يَنْظِمَا

القلائد: العقود، يعني قصائد إيليا

وخَمائلاً، كُلُّ الخمائِلِ بعدَها عُشْبٌ على أَقْدامِ جَنَّتِها نَمَا

«الخمائل»: من دواوين إيليا

تُنْمَى إلى وَطَنِ الجَمَالِ، وهَلْ لمنْ عَبَدُوا الجمالَ سِوَاكَ يا وَطني حِمَى

تنمى: تنتسب

أَنْكَرْتُ نَفْسِي بعدَ طولِ فِرَاقِه   فَكَأَنَّني ديوانُ شِعْرٍ تُرْجِمَا

بارعة جداً هذه الـ«ديوان شعر ترجما»، فديوان الشعر المترجم بعيد كل البعد عن الأصل ويكاد لا يعرف نفسه. وأن يأتي القروي بتشبيه عن ديوان شعر في رثائه لشاعر يعني أنه منغمس في موضوعه انغماساً

يا فيلسوفَ الشِّعرِ، يا ابْنَ الشَّمسِ يا   قَمَراً رَمَاهُ الأرْزُ أبْعَدَ مَنْ رَمَى

سِرٌّ وَحيدٌ في الحياةِ فَهِمْتُهُ   وسِواهُ ليسَ يَهُمُّني أنْ أفْهَمَا

أنَّ العُروبةَ حَقَّقَتْ أحلامَهَا   مَاذا يَشُوقُكَ بَعْدَها أنْ تَحْلُما

أَنَسِيرُ في رَكْبِ الحُسَيْنِ وفَيْصَلٍ   ونَخُونُ ناصِرَنَا الأبَرَّ الأكْرَمَا

تعريض بملكي الأردن والعراق، وتنويه برئيس مصر. كان فيصل الثاني في العراق وحسين بن طلال في الأردن قد عقدا وحدة بين البلدين قبل إلقاء القصيدة بشهر ناظرَيْنِ إلى الخطوات التمهيدية للوحدة بين مصر وسورية

عَرْشَيْنِ: هذا لا يُساوي دِرْهَماً   وعليهِ مَلْكٌ لَيْسَ يَمْلِكُ دِرْهَمَا

كان الأردن فقيراً، وكان ملكه قليل الموارد

وقِيادُ ذَا في كَفِّ قَاتِلِ جَدِّهِ   وأَبِيه، يَا لِلعاجِزَيْنِ كِلَيْهِمَا

فيصل الثاني ملك العراق كان واقعاً تحت سيطرة خاله عبد الإله الذي يتهمه الشاعر بتدبير قتل جده فيصل الأول (قيل بحقنة مسمومة)، وأبيه غازي في حادث سيارة (قيل بل ضرب على أم رأسه، ولا حادث في الأمر)

١١٩ عائد لأموت في وطني

قال وهو في البحر عائداً لوطنه:

بِنْتَ العُروبةِ هَيِّئي كَفَني   أنا عائِدٌ لأموتَ في وَطَني

أأجُودُ مِنْ خَلْفِ البِحَارِ لَهُ   بِالرُّوحِ، ثم أَضِنُّ بالبَدَنِ؟

١٢٠ بطل الجزائر

قال وهو يحضر احتفال مكتب تحرير الجزائر بدمشق في سنة ١٩٥٨:

لبَّيكَ يا بَطَلَ الجَزائِرْ   عُقِدَتْ على الثَّأرِ الخَنَاصِرْ

عُقدتِ الخناصر: عُقِد العزم

نَصْرٌ على الأعداءِ يَتْـ   ـلو النصرَ، فالدُّنْيا بَشَائِرْ

وجَـبَـابِـرُ الـطُّـغْـيـانِ كـالـــ ـحَـشَـراتِ تـحـتَ حِـذَاءِ نـاصِـرْ

وكانت مصر في زمن عبد الناصر تساعد ثوار الجزائر

الـشَّـعْـبُ كـالإعْـصـارِ يَـسْــ ـحَـقُ غـادِراً، وَيَـجُـرُّ غَـادِرْ

الـحَـرْبُ قـائِـمَـةٌ عـلـى سـاقٍ، فَـمَـا شَـأْنُ الـمَـنَـابِـرْ

والـنَّـصـرُ يُـؤْتَـاهُ الـمُـجَـا هِـدُ بِـالـخَـنَـاجِـرِ، لا الـحَـنَـاجِـرْ

١٢١ سبح لربك وانحر أنت في الشام

ألقاها على مدرج الجامعة السورية في ١٩٥٩ في مهرجان أحيته دمشق تكريما للشاعر. وكان عائداً للوطن العربي بعد اغترابه ٤٥ عاماً. وقد حاول رجال الأمن اللبنانيون اعتقاله فور وصوله، لكنه تخلص منهم وبلغ اللاذقية فدمشق:

حَتَّامَ تَحْسَبُها أضغاثَ أحلامِ سَبِّحْ لِرَبِّكَ وانحَرْ، أنتَ في الشامِ

لم يَأْذَنِ اللَّهُ يا بُوقَ العروبةِ أنْ تَقْضِيَ الحياةَ غريباً بين أعْجَامِ

الشام تخاطبه وتقول يا بوق العروبة (يا ناشر فضائلها) لم يشأ الله أن تقضي كل حياتك بين الأعاجم في المهجر

وكنتَ في أبعدِ الأمصارِ أقرَبَ مِنْ أهلِي إليَّ وأَخْوالِي وأعمامِي

وتقول له الشام: حتى وأنت بعيد كنت أقرب إلي من كل أهلي

أضناكَ طولُ السُّرَى والسَّيرِ يا وَلَدِي فاطْرَحْ رِدَاءَكَ، وامسحْ جُرْحَكَ الدَّامي

السرى: السير ليلاً

هذي عُيُونِي وجَنَّاتِي وفاكِهَتِي فَامْلأْ يَدَيْكَ، وبَرِّدْ قلبَكَ الظَّامي

يا يومَ جَدَّدَ فيَّ الخِضْرُ آيَتَهُ لما أطلَّتْ على بَيْروتَ أَعْلامي

الخضر: النبي المعروف بكثرة الأسفار

والوَحْشُ مُنْفَغِرُ الشِّدْقينِ يَرْصُدُني والبَغْيُ، أُسْطولُهُ خَلْفي وقُدَّامي

الوحش الفرنسي كان فاغراً فاه يرصدني، وكان أسطول الظلم يحيط بي عند وصولي إلى بيروت

فأَدْبَرَ البَغْيُ مَدْحُوراً، وعُدْتُ إلى سِرْبِي، وقُلْتُ لَها: يا مُقْلَتِي نَامِي

وبِتُّ لَيْلِي، وعَينُ اللَّهِ تحرُسُني حتى وَضَعْتُ بِأَغْلَى التُّرْبِ أَقدامي

أنَا العروبةُ لي في كلِّ مَمْلَكَةٍ إنجيلُ حُبٍّ، ولِي قُرْآنُ إِنْعامِ

وابْنِي فَتَى النِّيلِ حَلَّانِي بِجَوْهَرَةٍ عَزَّتْ على كُلِّ غَوَّاصٍ وعَوَّامِ

مَنْ يَبْكِ عَهْدَ المَوَامِي والدُّمَى فَأَنا، والحمدُ للَّهِ، قد حَطَّمْتُ أصنامي

الموامي: المومياءات، ويذكرها كثيراً دعاة الفرعونية بمصر

شَغَلْتُ قلبي بِحُبِّ المصْطفى، وغَدَتْ عُروبِتي مَثَلِي الأعلى وإِسْلامي

بِنَاصِري وبِأَسْوَانِي فَخَرْتُ، إذا بَاهَى الدَّعِيُّ بِفِرْعَونٍ، وأَهْرامِ

عبد الناصر كان قد شرع في بناء السد العالي قرب أسوان، الدعي: الفاسد النسب، والقروي هنا يغض ممن ذهبوا إلى أن مصر تنتسب إلى قدماء المصريين لا إلى العرب

عاشَ الذي أَدَّبَ الطَّاغي وكَبْكَبَهُ عَنِ القناةِ ذليلاً، خَافِضَ الهامِ

ليعش عبد الناصر الذي أدَّب الظالم وكبكبه (شرده) عن قناة السويس ذليلاً خافض الهام (الرأس)

دَعْ ذِكْرَ كلِّ عظيمٍ حينَ تَذْكُرُهُ وقِفْ دقيقةَ إِجْلالٍ وإِعظامِ

فَمَا رَمَى رَمْيَةً إلَّا مُسَدَّدَةً ولا خَطَا خُطْوَةً إلَّا بِإِلْهامِ

كمْ خُطْبَةٍ كالنَّدَى والجَمْرِ مِنْهُ شَفَتْ أكبادَنا، وشَوَتْ أكبادَ ظُلَّامِ

لا يَسْتَبينُ المصَلِّي في كنائِسِهِمْ إنْ كانَ يُصْغي لِقَسٍّ أو لِحَاخَامِ

يتهم رجال الدين في الغرب بممالأة اليهود، فكأن موعظة القس خطبة يلقيها الحاخام

حريةٌ لِملوكِ المالِ خاضعةٌ تُسَاق فِيها الرَّعايا سَوْقَ أَنْعَامِ

الحرية التي يتغنى بها الغرب هي حرية ملوك المال، والشعب يقاد كالماشية

فمَا الرئيسُ، وأتْبَاعُ الرئيسِ لَهُمْ إلَّا الأَرِقَّاءُ، في أَزْيَاءِ حُكَّامِ

والرؤساء والوزراء في الغرب أرقاء (عبيد) لكبار الأغنياء

قُلْ للأُلَى سَخِرُوا بي، وازْدَرَوْا أَدَبي مِنْ خائنٍ وشُعُوبِيٍّ ونَظَّامِ

وكُلِّ هَشَّامِ أعراضٍ لهُ قَلَمٌ وَغْدٌ، وليس له عِرْضٌ لِهَشَّامِ

قولوا لمن يهشم الأعراض بما يكتب، ولا يهشم شرفه أحد إذ ليس له شرف..

قولوا لَهُ «عَرَباً» تَقْضُوا عليهِ، فَإِنْ يَسْلم فَثَنُّوا بِقُرْآنٍ وإِسْلامِ

قولوا له كلمة «عرب» يمت، وإن بقي حياً فقولوا له «قرآن» أو «إسلام» فهذا يقضي عليه. يسخر من مقت بعضهم للعروبة وللإسلام

ما أقربَ الوَحْدَةَ الكُبرَى مُبَخِّرَةً أحلامَ كُلِّ شُعُوبِيٍّ وقَسَّامِ

قسام: مؤيد تقسيم بلاد العرب إلى دول

سِيَّانِ بَعْدَ التَّلاقي يا بِلادِيَ لَوْ خَلَدْتُ، أو حَكَمَ الطَّاغي بإِعْدَامي

أما رَجَعْتُ؟ ألم أَنْشَقْ هَوَاكِ؟ ألم أَلْثِمْ ثَرَاكِ؟ ألم أُسْمِعْكِ أَنْغامي
أُحِسُّ بالرَّاحَةِ الكبرى، كَأَنِّيَ قَدْ طَرَحْتُ في البحرِ عنِّي كُلَّ آثامي

١٢٢ المصيبة هي القنوط

إنْ شِئْتَ عِشْ، أو شِئْتَ مُتْ إنَّ الحياةَ لها شُرُوطْ
نُوَبٌ وأحزانٌ يُبَيِّضُ هَوْلُها سودَ الخُيُوطْ
ومَعَارِكُ الأطماعِ نا شِبَةٌ على كُلِّ الخُطُوطْ
عَمَّتْ بني الدُّنيا، فلا جُزُرٌ هناكَ ولا شُطُوطْ
والفَوْزُ بالنَّفْسِ القَوِيَّةِ، لا بِهَيْكَلِها مَنُوطْ
فَلَطَالَما سَقَطَ الشجاعُ، وقامَ مِنْ بَعْدِ السُّقُوطْ
لَيْسَتْ مصيبتُكَ المصيبةَ، بَلْ مُصِيبَتُكَ القُنُوطْ

١٢٣ التبرع بالتبرع

قال وأنشدها في نادي خريجي الجامعة الأميركية ١٩٥٩. وكان أمير كويتي تبرع بمال يدفع للقروي كل سنة، فتبرع القروي بالمال لخدمة العلم. وثارت في الصحف قصة حول صديق للقروي أراد أن يتحكم في إنفاق هذا المال:

وشيخٍ كريمٍ أطرَبَتْهُ قصائِدي وهَزَّتْهُ هزَّ العَضْبِ في كَفِّ فارِسِ

العضب: السيف

فأَسْنَهَني، ما دُمْتُ حيّاً، هَدِيَّةً تَلِيقُ بِسُلْطانٍ على العَرْشِ جالِسِ

أسنهني: رتب لي مالاً سنوياً

على عَبْقَرِيَّاتِ البلادِ حَبَسْتُها وأَعْظِمْ بِمَحْبُوسٍ عليهِ وحابِسِ
فلا هِيَ عندي في البُنُوكِ تَجَمَّدَتْ ولا ذابَ مِنْها دِرْهَمٌ في الخَسَائِسِ

١٢٤ اللقاء الحلم

قال وكتبها على نسخة من ديوانه أهداها لعبد الناصر عندما التقاه في عام ١٩٥٩ بدمشق:

مِنْ قَبْلِ أَنْ صِيغَ هذا الشِّعْرُ كُنْتَ بِهِ في كُلِّ قافيةٍ عَذْرَاءَ مُرْتَسِمَا
لُقْياكَ فَرْحَةُ عُرْسٍ لا انْتِهَاءَ لَهَا أَثِمْتُ إنْ كنتُ أَشْكُو بَعْدَها أَلَما
حُلم تَجَسَّدَ في عَيْنِي، ومَا بَرِحَتْ عَيني تُخَمِّنُهُ، مِنْ حُسْنِهِ، حُلُما

١٢٥ الوهم المعين

قال عام ١٩٦٠ يرثي قريبه الشاب ألبير ويصف حزن أمه:

لا تَلُمْ عمَّكَ المنكَّدَ يا أَلْـ ... ـبيرُ واغفِرْ له شَناعَةَ جُرْمِهْ
عمُّكَ الشيخُ حامِلٌ ألفَ هَمٍّ ... وَهْوَ لا يملِكُ النهوضَ بِهَمِّهْ
بُرْجُ مجدٍ أحبابُه تَتَباهَى ... أنها تسبِقُ الأعادي لِهَدْمِهْ
كَمْ صَديقٍ يَحارُ لُبُّكَ فيهِ ... لَسْتَ تَدْري تِرْيَاقَهُ مِنْ سُمِّهْ

الترياق: دواء السم

لم أفِدْ مِنْ مَدارسِ الخُبْثِ إلَّا ... أَنَّني أَعْجَزُ الوَرى عَنْ فَهْمِهْ
رَغْمَ عِلمي بِالنَّاسِ أُخْدَعُ، والمرْ ... ءُ مَسُوقٌ بِطَبْعِه، لا بِعِلْمِهْ
يا لَثَكْلَى تُخَاصِمُ القَدَرَ العَا ... تي، وتَشكُو لِرَبِّها مِنْ ظُلمهْ
غَابَ وجهُ الحبيبِ، فانْتَقَمَتْ مِنْ ... وجهِها تُلْهِبُ القلوبَ بِلَطْمِهْ
تَتَسلَّى بِوَهْمِ لُقْيَاهُ، مَا لِلْـ ... ـمَرْءِ عَوْنٌ على الرَّدَى غيرُ وَهْمِهْ

١٢٦ الكهل المتلفِّت

رَعَى اللّهُ عهداً كنتُ لِلْغيدِ فِتْنَةً ... إذا سِرْتُ، في الفِتْيَانِ، سِرْنَ وَرَايَا
فَبِتُّ ومَا لي في هَوَاهُنَّ مَطْمَعٌ ... وإنْ كانَ عِندي لِلشَّبَابِ بَقَايَا
إذا عَطَفَتْ لَيْلَى عليَّ بِبَسمةٍ ... تَلَفَّتُّ خَوفاً أَنَّها لِسِوايَا

١٢٧ طبيب النساء

سئمتُ الحبَّ، حتى لا أُبالي ... ولو هبطَ الجمالُ من السماءِ
أرى الجسدَ الشَّهِيَّ بِعَيْنِ آسٍ ... قديمِ العهدِ في طِبِّ النساءِ

آس: طبيب. ها قد عرفنا أن طبيب النساء لا يشتهي أجساد مريضاته

١٢٨ ميني جوب.. وفتوى

لِحَدِّ الرُّكْبَتينِ تُشَمِّرِينَا ... بِرَبِّكِ أيَّ نَهْرٍ تَعْبُرِينَا
مَضَى الخَلْخَالُ حِينَ السَّاقُ أَمْسَتْ ... تُطَوِّقُهَا عُيُونُ النَّاظِرِينَا

لا حاجة للخلخال فعيون الناس هي التي تطوق ساق الفتاة بدل أن يطوقها الخلخال

تَظُنِّينَ الرِّجَالَ بِلا شُعُورٍ لأنَّكِ رُبَّمَا لا تَشْعُرِينَا
فَيَا لَيْتَ الحِجَابَ هَوَى فَأمْسَى يَرُدُّ السَّاقَ عَنَّا لا الجَبِينَا
فَإنَّ السَّاقَ أجْدَرُ أنْ تُغَطَّى وإنَّ الوَجْهَ أوْلَى أنْ يَبِينَا

١٢٩ بدلة بقصيدة

قال وهي قصيدة وجدت ضمن مخطوطاته وأهداها لصديقه جبرائيل غرزوزي الخياط عام ١٩٦١:

خيَّطَ لي مِنْ فَضْلِهِ بَدْلَةً صَيْفِيَّةً، أجملَ مِنْ شِعْرِي
لم يَرْضَ أجْرَاً غيرَ عِطْرِ الثَّنَا ولم يُكَلِّفْنِي سِوَى الشُّكْرِ
لو لم يَكُنْ حُرَّاً لما هامَ بي ما هامَ بِالحُرِّ سِوى الحُرّ
يا آسرَ القلبِ بِمَعْروفِهِ ظَلَمْتَنِي واللَّهِ في السِّعْرِ

أي أنك منحتني بدلة وأخذت قلبي

١٣٠ طبيب يخيف الموت

قال وكتبها على نسخة من ديوانه الأعاصير أهداها إلى الدكتور فضلو حيدر:

إلى مُنقِذي مِنْ قبضةِ الموتِ، بَعْدَمَا تَنَاهَشَنِي أنْيَابُهُ ومَخَالِبُهْ

تناهشني: تتناهشني وتمزق لحمي (وتذكير الفعل في هذا الموضع فصيح، أما صيغة المضارع فثقيلة)

ولم يبقَ مِني غيرُ ظِلٍّ ابتسامةٍ على الثَّغرِ تُنْبِي أنَّنِي، بِكَ، غَالِبُهْ

تنبي: تنبئ، تشير

ومَنْ تَكُ، يا أُعجوبةَ الطبِّ، ساهراً بجانبِهِ، لا يَرْهَبِ الداءَ جانِبُهْ
كفى بكَ أنَّ الموتَ لم يَرْعَ صاحِباً، ويجتازُ مَنْ يَدْرِي بِأنَّكَ صاحِبُهْ

يكفيك أن الموت، الذي لا يحابي صاحباً له بل يعصف بالجميع، يتجاوز عمن يعلم بأنك صديق له

١٣١ رثاء شاعر

قال في رثاء محمد علي الحوماني ١٩٦٤:

الشِّعرُ يشكُو بَعْدَ بَيْنِكَ بَيْنَهُ يا عينَ عِزِّ الشِّعْرِ أنتَ، وزَيْنَهُ

الشعر يشكو بعد بينك (رحيلك) بينه (رحيله) هو أيضاً فلم يبق شعر بعدك

والطيرُ نائحةٌ على الغَرِدِ الذي نُعِيَ البَيانُ الفَذُّ يومَ نَعَيْنَهُ
والضَّادُ وَالِهَةٌ تُشَيِّعُ ساحِراً مِنْ جِنِّ عَبْقَرَ، في الضَّريحِ طَوَيْنَهُ
ولَكَمْ أَخٍ مُتَعَصِّبٍ، مِنْ كُرْهِهِ عَيْنَ العروبةِ كادَ يَفْقَأُ عَيْنَهُ
ومُغَلِّظٍ لَكَ بِالرَّسولِ يَمينَهُ، وصَداقَةُ الكُفّارِ تَفْضَحُ مَيْنَهُ

يحلف لك بالرسول أنه وطني ولكن صداقاته مع الكافرين بالعروبة تفضح مينه، أي كذبه

باعَ الأُخُوَّةَ للغريبِ بِدرهمٍ؛ المومِسَاتُ مِنَ الحَيا يَأْبَيْنَهُ
مَنْ كانتِ الأرقامُ خَمْرَةَ وَحْيِهِ شَتَّانَ بَينَكَ في الجِهَادِ وبَيْنَهُ

يهجو التجار

يا شَاعراً غَنَّى فَأطرَبَ رَبَّهُ ونَبِيَّهُ، وعَلِيَّهُ، وحُسَيْنَهُ

١٣٢ الشهاب الساطع

قال في سبيل تجديد العهد للرئيس شهاب ١٩٦٤ :

أَمُنْقِذَ لُبنانَ! جِئْنا نُبَايِعْ ونَنْشُدُكَ اللَّهَ ألَّا تُمانِعْ
أَنَحْيا عَبيداً لِدُستورِنا أَسُنَّتْ لقتلِ العبادِ الشرائعْ
مَخَرْتَ بزورَقِنا اليَمَّ، وهْوَ جِبالٌ وأوْدِيةٌ وزَوابِعْ
وطارَ الشِراعُ، وعَمَّ الظلامُ ولم يبقَ إلَّا شهابُكَ ساطِعْ
تَفُحُّ الثعابينُ مِنْ كُلِّ صَوْبٍ علينا، وتَعوي ذئابُ المطامعْ
يناديكَ لبنانُ مستنجِداً فإنْ لم تُلَبِّ، فلبنانُ ضائعْ

ولم يلبِّ فؤاد شهاب، ولم يقبل التجديد

١٣٣ يوم السويس

قال، ووجدت بين أوراقه مؤرخة في سنة ١٩٦٥ :

حليفُكَ ربٌّ ناصرٌ أنتَ عبدُهُ وجندُكَ، إنْ دارتْ رَحَى الحربِ، جندُهُ
وحَسْبُكَ مِنْ يومِ السُّوَيْسِ شَهَادةً بِأَنَّكَ عَضْبٌ يَفْلَقُ الطَّوْدَ حَدُّهُ

عضب: سيف، الطود: الجبل

ولا عـارَ فـي إغـمـادِ سـيـفٍ شـهـرتَـهُ   على «البَدْرِ» إنْ كانَ «ابنَ غريونَ» غِمْدُه

يشير إلى عودة جيش عبد الناصر عن محاربة الإمام البدر في اليمن، فإغماد ذلك السيف لا بأس به خصوصاً أنه أغمد، ليس في جرابه بل. . في «بن غوريون» رئيس وزراء إسرائيل أيام العدوان الثلاثي البريطاني ـ الفرنسي الإسرائيلي على مصر عام ١٩٥٦

وهـذا الـرِّبـاطُ الـمـالـئُ الـجـوَّ رهـبـةً   لِـصُـهْـيـونَ لا لِـلـمـسـلـمـيـنَ تُـعِـدُّهُ

الرباط: خيل المعركة، يعني التسلح

وأعظمُ مِنْ سَدٍّ على النيلِ، شِدْتَهُ   بـأَسـوانَ، سـدٌّ عِـنـدَ يـافـا تَـهُـدُّهُ

١٣٤ يا طويل العمر

وجدت القصيدة بين مخطوطات الشاعر بعنوان «الثورة الليبية»:

يـا طـويـلَ الـعُـمْـرِ! نَـحـنُ الـيـومَ فـي   عـصـرِ عِـلـم يُـنـكِـرُ الـجَـرْيَ الـوَئـيـدَا

الوئيد: البطيء

نَـفَـضَ الـغـربُ جـنـاحَـيْ قَـشْـعَـمٍ   نَـوَوِيٍّ، جـاوزَ الـنـجـمَ صُـعُـودَا

قشعم: نسر

ولَـبِـثْـنـا بـالأمـانـي قُـنَّـعـاً   حَسْبُنَا أنْ نَذْكُرَ المجدَ التَّلِيدا

التليد: الموروث

أنـتَ أغـنَـى مَـلِـكٍ فـوقَ الـثَّـرَى   قَـدْرَ مـا أنـتَ غـنـيٌّ، كُـنْ حَـمِـيـدا

يخاطب أحد ملوك الدول النفطية

وخـلـودُ الـذِّكْـرِ نـوعـانِ لِـمَـنْ   شـاءَ، فانظُرْ كيفَ تختارُ الخلودَا

إن في الـظَّـهْـرانِ شَـمـشُـونَ الأذَى   وعـدوَّ الـديـنِ والـدنـيـا الـلـدودَا

الظهران: مدينة النفط السعودية، شمشون: بطل جبار هدم البناء على من فيه، وقال القولة المشهورة «عليَّ وعلى أعدائي»، وشمشون الأذى: شركات النفط، فيما يبدو

أَمِـنَ الإسـلامِ أن تَـبْـقَـى لَـهُ   ذلكَ الصاحبَ والخِلَّ الوَدُودَا؟

وتَـظُـنُّ الـلَّـهَ يـرضَـى عـنـكَ إنْ   كنتَ خوفَ النقدِ تُعْطِينا النُّقُودا

إنَّ لـلـنـصـرِ سـبـيـلاً قـاصِـداً   إنْ سَـلَـكْـنـاهُ غَـدَا الـنـصـرُ أكـيـدَا

سبيلاً قاصداً: طريقاً مستوياً

أَمِّـمِ الـنـفـطَ، وأَسْـقِـطْـهُ نَـدىً   يُـصْـبِـحِ الـرمـلُ سِـلاحـاً وجُـنُـودا

أو فَـمَـوّتْـهُـمْ إلـيـهِ عَـطَـشـاً　　آخِذاً عَنْ دِيْغُلَ الدَّرْسَ المفيدا

ديغل: شارل ديغول، رئيس فرنسا، وكان يقاوم الهيمنة الأميركية، وظل مشغول البال باستقلال القرار الفرنسي سياسياً واقتصادياً (سياسته القائمة على تدخل الدولة في الاقتصاد لقيت، ولا تزال، مديحاً)

تُـرْجِـعِ الـقـدسَ إلـى أبـنـائِـهـا　　وتُـعِـدْ شعبَ فِلَسطينَ الشَّريدا

وتَـدُكَّ الـدولـةَ الـمـسـخَ الـتـي　　أقسَمَتْ، إنْ لم نُبْدْها، أن تُبِيدا

الدولة المسخ: يقصد إسرائيل

حَرَقوا الأقصى، ولـو أمْكَنَهُمْ　　جَعلوا الكعبةَ للنارِ وَقُودَا

والـفـدائـيُّـونَ! هَـلْ مِـنْ أمَّـةٍ　　أنجبتْ أطيبَ أو أصلبَ عُودا

١٣٥ فلسطين بكل مكان

قال على إثر تضحية طفلين فلسطينيين بنفسيهما وتفجيرهما الديناميت الذي تزنرا به فقضى على عدد من ضباط العدو في ناد لهم عام ١٩٧٠:

أنَا لـو ثَـمَانِيـنـي رَجَـعْـنَ ثَـمَـانـي　　لَـحَـزَمْـتُ أمتِـعَـتـي إلـى لـبـنـانِ

وأخذتُ عند حدودِهِ دَرْساً على الْـ　　ـأبطالِ أطفالِ الحِمَى إخْواني

وجعلتُ «تَلَّ أبيبَ» قِبْلَةَ نِقْمَتي　　ودَكَكْتُ قَلْعَتَها بِرَخْصِ بَنَاني

هذا هُوَ المجدُ الذي إنْ شِئْتَ أنْ　　تُكْسَى بِه فانزِلْ إلى الميدانِ

مَـجْـدُ الـفـدائـيِّ الـذي فَـتَـكَـاتُـهُ　　خَلَقَتْ فِلَسْطِيناً بِكُلِّ مَكَانِ

فَلْتَحْيَ تُرْبَتُهَا المقَدَّسَةُ التي　　وَلَدَتْ لنا هذا المسيحَ الثَّاني

بَطَلاً يَحُضُّ على الجِهَادِ مُمَزِّقَاً　　بِيَدِ العدالةِ بَيْرَقَ الطُّغْيَانِ

بَهَرَتْ شجاعَتُهُ الوَرَى بِخَوَارِقٍ　　لم تُرْوَ عَنْ إنْسٍ ولا عَنْ جَانِ

خوارق: معجزات

وَدَّ الصَّهايِنُ كُلما سَمِعُوا بِهَا　　لو أنَّهُمْ خُلِقُوا بِلا آذانِ

هذا هُوَ الحُبُّ المحرِّرُ، لا الذي　　يَسْتَعْبِدُ الإنسانَ للإنسانِ

هذا هُوَ الشرفُ الفِدَائيُّ الذي　　وَطَنـي يَتِيـهُ بِه على الأَوطانِ

شرفٌ أنَافَ على النُّجومِ، وجَاوَزَ السَّـ　　ـبْعَ الطِّبَاقَ، فَهُنَّ مِنْهُ ثَمَاني

أناف: جاوز

١٣٦ قبيل أكتوبر

قال قبل حرب ٧٣ بأسبوعين، وهي مهداة إلى روح غسان كنفاني:

أَيُّها المسلمونَ! اَللَّهُ أكبرْ   أَوَما حانَ أنْ نَثورَ ونَثْأَرْ
جُثَّةُ السِّلم أَنْتَنَتْ فاقْبُروها   قَبْلما هذهِ الملايينُ تُقْبَرْ
نحنُ أضعافُ شعبٍ فِتْنَامَ عَدّاً   فَلماذا لا نَدْفَعُ الشرَّ بِالشَّرْ
دَمَّرَ البغيُ أرضَهُمْ، فَتَحَدَّا   هُ مِنَ العزمِ جوهرٌ لا يُدَمَّرْ
كلَّ يومٍ يُلْقَى عليها جحيمٌ   مِنْ لَظىً، وَهْيَ كلَّ يومٍ أَصْبَرْ

كل يوم يلقَى على أرضهم جحيم من القنابل، وتزداد أرضهم صبراً

السِّلاحُ المرْكومُ مِنْ دونِ حَرْبٍ   لَيْتَهُ في يَدِ الفِدَائيِّ خِنْجَرْ
لو ضَمِنْتُمْ لهُ الكفاحَ طَلِيقاً   حَرَّرَ الأرضَ وحدَهُ وتَحَرَّرْ

١٣٧ المنسي أعظم

قال في رثاء إلياس فرحات، وتوفي عام ١٩٧٦:

على قَدْرِ سِنِّي، لا شُعُورِيَ، خُذْ مِنِّي   قَضَى مَعَكَ الشِّعْرُ المعَبِّرُ عَنْ حُزْني
تَضَاعَفَ بعدَ الفُرْقَةِ الحُبُّ بيْنَنا   وفي القُرْبِ ما يُنْئِي، وفي البُعْدِ ما يُدْني
حماقاتُ أطفالٍ صِغارٍ نَسِيتُها   ولم ينْطَبِعْ غيرُ الصَّداقَةِ في ذِهْني

وكانت بين القروي وفرحات خلافات تظهر وتختفي، غير أنهما كانا متفقين كل الاتفاق على حب العروبة

لَنا في ميادينِ الجِهَادِ مَلاحِمٌ   سيَنْقُلُها التاريخُ، قَرناً إلى قَرنِ
وأقْوى حِبالِ الوُدِّ حَبْلُ عُروبَةٍ   رَبَطْنَا بِهِ بينَ العَقِيدةِ، والفَنِّ

١٣٨ لم يبق منهم شاعر يرثيني

قال، وأهداها إلى روح الشاعر ميشيل مغربي، وفيها رثاء لأخيه قيصر الخوري الملقب بالشاعر المدني، ١٩٧٨:

ذَهَبَ الرِّفاقُ جميعُهُمْ مِنْ دُوني   لم يبقَ مِنْهُمْ شاعرٌ يَرْثِيني
وغَدَتْ عناوينُ الفُحولِ قُبُورَهُمْ   فَرَسائِلي قِطَعٌ مِنَ التَّأْبينِ
وَقَفُوا على أَوْطانِهِمْ أعمارَهُمْ   ورَضُوا مِنَ الدُّنْيا بِدُونِ الدُّونِ
ما هَمَّهُمْ جُوعٌ إذا شَبِعَ الحِمَى   فَكَأَنَّهُمْ خُلِقُوا بِغَيْرِ بُطُونِ

مِنْ كُلِّ مَنْ شَهِدَتْ أَيِمَّةِ يَعْرُبِ ... لِبَيانِه السِّحْرِيِّ، والتَّبْيِينِ
حَفِظَ الوَرَى أشعارَهُ، حتَّى غَدَا ... ديوانُهُ بِغِنَىً عَنِ التَّدوينِ
والشاعرُ المدَنِيُّ آخرُ دُرَّةٍ ... في عِقْدِهِمْ، تُشْرَى بِكُلِّ ثَمينِ
قَلْبٌ كَقَلْبِ الطِّفْلِ أوْ أنْقَى، فَإِنْ ... مُسَّتْ كرامَتُهُ فَلَيْثُ عَرِينِ
هَجَرَ النَّعِيمَ مَعي، وأَقْسَمَ أنَّهُ ... لَيْسَتْ تَطِيبُ لَهُ الحياةُ بِدُوني
ورَجَعْتُ، وهْوَ هُناكَ تَصْليهِ النَّوَى ... ناراً، فَيُطْفِئُهَا بِكَأْسِ مَنُونِ
ماذا أُؤَمِّلُ بعدُ مِنْ عَيْشي، وَهَا ... قَدَمَايَ غارِقَتانِ في التِّسْعِينِ
لولا البُكاءُ لَخِلْتُ أَنِّيَ مَيِّتٌ؛ ... حُصِرَتْ حَياتي كُلُّها بِعُيُوني
بِدُمُوعِيَ الحَرَّى أَبُلُّ تُرَابَهُمْ ... لِيُعَيدَ رَبِّي خَلْقَهُمْ مِنْ طِينِ

١٣٩ يا ابن أمي

قال في البربارة ١٩٨٢، وقد وُجدت القصيدة بين مخطوطاته وأوردها جورج طراد في كتابه عن القروي. والمعني فيها شقيقه أديب:

ربِّ إني ظُلمتُ مِنْ أقربِ النا ... سِ، فلا تَظْلِمنَّهُمْ يا رَبِّي
قالَ: بِعْني؛ فبِعْتُهُ كلَّ ما أمـ ... ـلِكُ، لم أحتفِظْ بِحَبَّةِ تُرْبِ
حَلَّ عِندي، والحربُ نارٌ وعارٌ ... ناعِماً آمِناً معي في سِرْبي

آمن في سربه: مطمئن بين أهله (تعبير قديم له أكثر من معنى، وفسرناه كما عناه الشاعر، ومرجعنا «لسان العرب»)

ثُمَّ أشركتُهُ بدفتَرِ وَفْري ... ساحِباً منهُ ما يشاءُ، كَسَحْبي
ما دَعاني لِحاجةٍ قَطُّ إلَّا، ... كنتُ في سرعةِ البُرَاقِ أُلَبِّي

البراق: الدابة التي صعد بها النبي إلى السماء، وهي سريعة كالبرق، وأسرع. ولئن كان الوزن اقتضاها، وأبى البرقَ، فهي أحلى

يَتَعَشَّى على هَوَاهُ، ويَمْضي ... سالِكاً في الظلام أخطرَ دَرْبِ
وأنا أسهرُ الليالي وحِيداً ... ليسَ إلَّا رَبِّي وسَلْوَى بِقُرْبي

سلوى: بنت خالته، وكانت ترعاه في شيخوخته

ثمَّ جاءَ الوكيلُ يَقرَعُ بابي ... منذراً يطلُبُ الصُّكوكَ بِعُجْبِ

العجب: الزهو والافتخار

يـا ابـنَ أُمِّـيِ! بِـأيِّ ذنـبٍ أُجَـازَى   منكَ هذا الجزاءَ، قلْ: أيٌ ذَنْبِ
أيـنَ أمـضـي؟ وأيَّ بـيـتٍ أُلاقـي   غيرَ بَيْتي لمُتْحَفي، ولِكُتْبي
ولِـنَـشْـرٍ كـأنَّـهُ فَـلَـقُ الـصُّبْـ   ـحِ ونـظـمٍ يُـرَقِّـصُ الـمـتـنـبِّي
يـا إلَـهـي إلـيـكَ وَكَّـلْـتُ أمـري   حَسْبُ نفسي رِضاً بِأنَّكَ حَسْبي

١٤٠ سلوى

قال والقصيدة مؤرخة في ١٩٨٢:

لـم تَـمُـتْ أمِّـي، فَـسَـلْـوى بـقـيـتْ   نـسـخـةً، عـنْ أصـلِـهـا لـم تَـفـرُقِ

سلوى: بنت خالته، وقد رعته هي وأولادها في شيخوخته بالبربارة

ضَـمِـنَـتْ رحـمـتُـهـا عـافِـيَـتـي   وشَـفَـتْ روحـيَ بِـالـحـبِّ الـنَّـقـي
كـلـمـا جُـنَّ وَرِيـدي سَـكَـبَـتْ   دمعَـهـا الـقَـانـيَ دمَـاً فـي عُـنُـقـي

يقول عمران القفيني عن هذا البيت: يا إلهي! فهل هذا طلب بتسويده؟

رَبِّ! لــي أمـــنـــيَّـــةٌ واحـــدةٌ   أنَّـــنـــا عـــنـــدَكَ يـــومـــاً نـــلْـــتَـــقـــي

١٤١ الغضب فضَّاح

أَغْضِبْ صديقَكَ تَستطِعْ سريرتَهُ   للسرِّ نافذتانِ: السُّكْرُ والغضبُ

سريرته: حقيقته الدفينة

ما صرَّحَ الحَوْضُ عمَّا في قَرارتِهِ   مِنْ راسبِ الطينِ، إلَّا وهْوَ مضطَربُ

صرح: بيَّن

١٤٢ اغفر لي ذنبك

مَـنْ شـاءَ ألَّا يـنـثـنـي صَـحْـبُـهُ   عـنْ حُـبِّـهِ، فَـلْـيَـحْـتَـمِـلْ صَـحْـبَـهْ
كَـمْ صـاحـبٍ، حِـرْصَـاً عـلى وُدِّهِ،   طـلـبـتُ أنْ يَـغـفِـرَ لـيِ ذَنْـبَـهْ

١٤٣ حسن الخلق

إذا فَرَطَتْ مِنْكَ الإساءةُ، فاعترِفْ   بِهَا، واعتذِرْ إنْ كنتَ حُرَّاً مُهَذَّبا
فإنْ قَبِلَ المُستَاءُ عُذْراً، شَكَرْتَهُ؛   وإنْ هُوَ لـم يَقْبَلْ، بَرِئْتَ وأَذْنَبا

١٤٤ الواجب

تَذَوَّقْتُ أنواعَ الشرابِ، فلم يَسُغْ بِحَلْقِيَ أشْهَى منْ حَلالِ المكاسبِ
ونمتُ على رِيشِ النَّعَامِ، فلم أَجِدْ فِراشاً وَثيراً مثلَ إتْمَامِ واجِبي

١٤٥ وقوفَ شحيح

إلَهِي منكَ أَنتظرُ الجَوابا فلستُ بِقَارعٍ لِسِواكَ بابا
وقفتُ بِذِلَّةٍ فيهِ كَأَنِّي أَبِيعُ، بِبابِ سُورِيٍّ، كِتابا

١٤٦ التعامي والعمى

طلَّقْتُ دنيايَ على حُبِّها كأنَّني حيٌّ بِها مَيْتُ

على حبها: رغم حبي لها (التعبير من الآية: «ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً» الإنسان ٨)

ما عُدْتُ أستَصعِبُ فيها العَمَى لِطُولِ ما عَنْها تَعامَيْتُ

١٤٧ الجناة والزناة

إذا قتلَ الفقرُ اليتيمَ، ولم يَجِدْ مُغيثاً، فَإنَّ الموسِرينَ جُنَاةُ
وإنْ وفَّرَ العِرْضَ الرغيفُ، ولم يُنَلْ رغيفٌ، فإنَّ الباخِلينَ زُنَاةُ

١٤٨ صاحب كالخاتم الجَرِج

كمْ بينَ صَحْبِكَ مِنْ غالٍ تَضِنُّ به بالرَّغْمِ مِنْ عِوَجٍ فيهِ ومِنْ هَوَجِ
تمشي وتصبحُ مَغْنِيّاً بِه، حَذِراً مِنْ أنْ تُضَيِّعَهُ، كالخاتِمِ الجَرِجِ

الخاتم الجرج: الواسع على الإصبع

١٤٩ عندما تتدحرج الأسماء

قالتْ: نسيتَ اسْمي؟ فقلتُ لها: اعذِري ذهبَ الشبابُ الغضُّ، وانقطعَ الرَّجا
ذِهني تَيَبَّسَ طينُه، حتى غَدَتْ تَتَدحرَجُ الأسماءُ عنه تَدَحْرُجَا

١٥٠ فكان من شراحي

كمْ شاعرٍ متفلسِفٍ أرْدَفتُه خلفي، فطارَ مُحَلِّقاً بِجَناحي

ومَضَى يُفَصِّلُ بعضَ ما أجْمَلْتُهُ لذوي العقولِ، فكانَ مِنْ شُرَّاحي

١٥١ لا تربية بالذل

لا ترضَ صَفْعاً، ولَوْ مِنْ كَفِّ والدةٍ ما قالَ ربُّكَ أنْ يُسْتَعْبَدَ الولدُ
ما أبعدَ العزَّ عنْ بيتٍ، وعَنْ وطنٍ بالذُّلِّ فيه تُرَبِّي الأمُّ مَنْ تَلِدُ

١٥٢ أمنيات الدود

يا عاقدَ الخيرِ في الدنيا على أملٍ كالخيطِ، آخرُهُ باللَّحْدِ مَعقودُ
الدُّودُ فيكَ يُمَنِّي نفسَهُ بِغَدٍ كما تَعَلَّلَ بالموجودِ موعودُ

الدود الكامن (كموناً معنوياً) في جسم الإنسان يعلل نفسه (يصبر نفسه) بحالته الحاضرة، ولكنه موعود بوجبة شهية بعد موت الإنسان

١٥٣ ملتمسو الرحمة

ولو كانَ عِنْدَ الناسِ لِلناسِ رحمةٌ لما التَمَسوها رُكَّعاً في المعَابِدِ

١٥٤ بيت القصيد

قال في عرس جاره إميل يمين:

مساؤُكَ عرسٌ، وفجرُكَ عِيدْ فأنتَ، بِرَغْمِ الليالي، سَعيدْ
مَسَرَّاتُ هذي الحياةِ قَصيدٌ ووَصْلُ الحبيبةِ بيتُ القَصيدْ

١٥٥ القصيدة الخالدة

لئنْ لم أكنْ أشْعَرَ الشاعِرينَ ولم أجْنِ مِنْ أَدَبي فائِدَةْ
فحسبيَ أنْ صُنْتُ ماءَ الجبينِ وتلكَ قَصيدَتِيَ الخالِدَةْ

١٥٦ جرأة الإقرار

رُبَّ ذنبٍ مَحَوْتُهُ بِاعتذاري وحَمَلتُ الوَرَى على إكباري
وإذا قيستِ الفضائلُ، فاقَتْ كَرَمَ العفوِ جُرأةُ الإقْرارِ

تعليق عمران القفيني: يريد التسويد جداً، قد فعلنا

١٥٧ طالب الشهرة

قُلْ لِلَّذي يُعلِنُ عَنْ نفسِه جاءَكَ ما تَهْوَى بِمَا تَكْرَهْ
ثلاثةٌ تَهْرُبُ مِنْ لاحِقٍ: الظِّلُّ، والمرأةُ، والشُّهْرَةْ

١٥٨ حد اللؤم

إذا اسْطَعْتَ كُنْ إمَّا مَسيحاً مُسَامِحاً عِدَاكَ، وإمَّا فارِسَ الحرْبِ عَنْتَرَا
فما اللُّؤْمُ إلَّا إِنْ حَقَدْتَ، فَلم تَكُنْ كَرِيماً فَتَعْفُو، أو شُجَاعاً فَتَثْأَرا

١٥٩ الأعشاب والأزهار

يا مَنْ يَلومُ ابنَ التُّرابِ لِشُغْلِهِ بِالفَلْسِ عَنْ شِعْرٍ وعنْ شُعَّارِ

ابن التراب: الإنسان، لشغله: لانشغاله

أَرَأَيْتَ في المرعَى حِمَاراً عاقِلاً يَلهو عَنِ الأعشابِ بالأزْهَارِ؟

١٦٠ الملبَّسة

حديثُكِ أشْهَى مِنْ حَنِينِ الصَّبَا إذا أَجَادَتْ يدُ العَوَّادِ في الضَّرْبِ مَلمسَهْ

الصبا: مقام موسيقي حزين، وإذا كان العوَّاد خائباً وزاد في «النوا بيمول» أو نَقَص فإن نكهة الصبا تضيع لاقترابه من مقام أشهر منه هو البياتي، لهذا قال الشاعر إن على العواد أن يجيد «في الضرب ملمسه»، وكان الخوري عازف عود وملحناً هاوياً

وثَغْرُكِ مُبْيَضُّ الثَّنايَا، كأنَّما لسانُكِ فيهِ لَوْزَةٌ في مُلَبَّسَةْ

انتشى شاعرنا بهذا التشبيه الذي وقع له، وكتب بالبيتين إلى أخيه، منبهاً إلى طرافة التشبيه.
والملبَّسة: حلوى من حبة لوز جافة ألبست جلباباً من السكر

١٦١ قم للمعلم

قال في رثاء العلامة داود قربان:

مَلأْتَ صدورَنا أدَباً وعِلماً ولم يملأْ لكَ التعليمُ كِيسا
وإنَّ مُعَلمي تاريخَ قَومي أَحَبُّ إليَّ مِنْ عِيسى ومُوسى

١٦٢ محنة الأديب

كأنِّيَ سِرْتُ مِنْ أَدَبي بِقَفْرٍ ومَا لِيَ مَلْجَأٌ مِنْ حَرِّ شَمْسِهْ

خيـالـيَ جَـنَّـةٌ، لَـكِـنْ لِـغَـيـري ... ومَـنْ ذا يَـسْـتَـظِـلُّ بِـظِـلِّ نَـفْـسِـهْ

١٦٣ رق الصناديق

تَشْكُو خزائِنُكُمْ ضِيقاً بثروتِكُمْ ... والناسُ يشكُونَ مِنْ فَقْرٍ، ومِنْ ضيقِ

وَدَّتْ ملايينُكُمْ لو كنتُ سيِّدَها، ... كيما تَحَرَّرَ مِنْ رِقِّ الصناديقِ

تود أموالكم لو أنني مالكها كيما تحرر (لكي تتحرر) من رق (عبودية) الصناديق

١٦٤ مصدر الحكمة

اسْتَقِ الحكمةَ، لا يَشْغَلْكَ مِنْ ... أيِّ يَنْبُوعٍ جَرَتْ، يا مُسْتَقِ

فشعاعُ الشمسِ يمتصُّ النَّدَى ... مِنْ فمِ الوَرْدِ، ووحلِ الطُّرُقِ

١٦٥ شكوى

علَيَّ حُقُوقٌ لم أَنَمْ عَنْ أدائِها ... فَمَا بالُ غيري يَسْتَبيحُ حُقُوقي

تَقَدَّمَني مَنْ كان خَلْفي، لأنَّني ... تَقُومُ على سَاقِ الأمانةِ سُوقي

١٦٦ ثلاثة أسلحة

شَرُّ السِّلاحِ ثَلاثَةٌ يُخْشَى عَلى ... أَصْحَابِهَا، وعَلى سِوَاهُمْ، فاتَّقِ

مُوسَى بِكَفِّ الطِّفْلِ، أو قَلم بِكَفِّـ ... النَّذْلِ، أوْ مَالٌ بِكَفِّ الأحْمَقِ

موسى: شفرة

١٦٧ أسوأ مما تتصورون

لا، لستِ يا نِفْسي كما وَصَفُوكِ ... فلقد عرفْتُكِ قَبلما عَرَفوكِ

اَللَّهُ أعلمُ بالذي أَخْفَيْتُه ... تَحْتَ البَرَاقِعِ مِنْ قبيحِ سُلُوكي

١٦٨ حمال وحمال

قُلْ لِلْغَنيِّ الذي بَاهَى بِثَرْوَتِهِ ... ولم يُبَاهِ بِأَخلاقٍ وأَفْعَالِ

لا تَضْحَكَنَّ على حَمَّالِ أمتِعةٍ ... فَلَسْتَ أنتَ سِوَى حَمَّالِ أموالِ

١٦٩ فضل الاستعطاء

تَلَقَّطْ شُذُورَ العِلم حيثُ وَجَدْتَهَا وَسَلْهَا، ولا يُخْجِلْكَ أَنَّكَ تَسْأَلُ

شذور: فتافيت الذهب

إذا كنتَ، في إِعْطائِكَ المالَ، فاضِلاً فإِنَّكَ، في اسْتِعَطائِكَ العِلم، أَفْضَلُ

١٧٠ المتسقِّط

يا مَنْ يَعُدُّ عَليَّ كلَّ صغيرةٍ إنْ لم تَكُنْ مُتَساهِلاً، كُنْ عادِلا

إنْ كنتَ مثليَ ناقِصاً فاعْذِرْ، وإِنْ تَكُ كامِلاً فاعْذِرْ، لِتَبْقَى كامِلا

عمران القفيني يقول: يا أخي هذا بيت غير عادي!

١٧١ تبديل الأجسام

يا حاسِبَ الأعمارِ لا تَعْجَبْ إِذا هذا قَضَى شَيْخاً وذاكَ غُلامَا

فَكَمَا تُبَدِّلُ غادةٌ أثوابَهَا بَعْضُ النُّفُوسِ يُبَدِّلُ الأَجْسَامَا

في البيتين إشارة إلى مذهب الحلول، فالذي يموت تذهب روحه إلى جسم آخر

١٧٢ لن تنالوا البر حتى

قُلْ لِمَنْ يُؤْتِي زَكَاةً لَيسَ يَرضَى اللَّهُ بِالدُّونْ

«لَنْ تَنَالُوا البِرَّ، حتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونْ»

١٧٣ نحن أعداء السلام

أمَّا السَّلامُ فإِنَّنا أعداؤُهُ حتَّى يَدِينَ بِحُبِّهِ أَقْوَانَا

لم يَعْتَرِفْ حُرٌّ بِإِنْسانِيَّةٍ إِلَّا إذا اعْتَرَفَتْ بِهِ إنسانَا

١٧٤ ثمن الحسد

يا حاسِدي! واللَّهِ يُحْزِنُني أَنّي جَلَبْتُ لِقَلْبِكَ الحُزُنَا

أَعْطَانِيَ المعْطِي بِلا ثَمَنٍ فَأَبَيْتَ إِلَّا دَفْعَكَ الثَّمَنَا

١٧٥ الأسْد حيث تكون كان عرينها

كُلُّ البِلادِ لِكُلِّ نفسٍ حُرَّةٍ وَطَنٌ، ولكنْ للقلوبِ حنينُها
لم تُكْسِبِ الوُجُرُ الثَّعالبَ هَيْبةً، والأُسْدُ حَيْثُ تَكونُ كانَ عرينُها

الوجر: جمع «الوجار» وهو بيت الثعلب

١٧٦ دينها قانونها

لا تَرْجُوَنَّ مِنَ الطَّبيعةِ رَحْمَةً إنَّ الطبيعةَ دِينُها قانُونُها
سَقَطَ الرَّضيعُ، فَمَا وَقَتْهُ سماؤُها تَلَفاً، ولا ذَرَفَتْ عليهِ عيونُها

١٧٧ للعداوة أصول

عَبَثاً تُحَاوِلُ، يا فلانُ، إثارَتي لِيَقولَ عنكَ الناسُ: خصمُ فُلانِ
لنْ يَسْتَحِقَّ عداوَتي إلَّا الذي عادَيْتُهُ أنا، لا الذي عَادَاني

١٧٨ زر الكهرباء

لم أنسَ حينَ غَشَوْتُ خِدْرَ لُمَيَّةٍ والليلُ يَغْمُرُنا بِجِلْبَابَيْنِ

غشوْت: أتيت، الخدر: مكان المرأة من البيت. يقصد أن شخصيهما مختفيان في جلبابين، فكل منهما يلبس جلباباً من الظلمة

عالَجْتُ زِرَّ الكَهْرَبَاءِ بِصَدْرِها فَأَنَرْتُ في العَيْنينِ مِصْبَاحَيْنِ

١٧٩ الباصق في مهب الرياح

أَيَا مَنْ تَعَوَّدَ سَبَّ الأَكارِ مِ نَزِّهْ لِسَانَكَ عَنْ طَعْنِهِ

نزه لسانك عن طعنه (الطعن الذي يقوم به هذا اللسان)

وبَصْقُ الفَتَى في مَهَبِّ الرِّياحِ يُعِيدُ البُصَاقَ إلى ذَقْنِهِ

١٨٠ ليس بالخبز وحده يكون البِرّ

تَذَكَّرْ حينَ كنتَ على يَدَيْهَا تُقَطِّرُ فيكَ مُهْجَتَها لِبَانَا
فَأَوْفِ جَزاءَهَا، واعطِفْ عليْها ولَقِّمْهَا مَعَ الخُبْزِ الحَنَانَا

١٨١ الأفكار المتجمدة

وَبَـرْدٍ تَـجْـمُـدُ الأَفْـكـارُ مِـنْـهُ　　إذا هُـنَّ انْـفَـصَـلْـنَ عَـنِ الـجَـنَـانِ
تَـكـادُ الـعـيـنُ تَـقْـرَؤُهـا حُـرُوفـاً　　مُـعَـلَّـقَـةً عـلـى طَـرَفِ الـلِّـسَـانِ

١٨٢ صاعداً على أعدائه

ولا تَـحْـفِـلُـوا بَـفَـحِـيـحِ أَفَـاعِـي الـ　　ـجُـحُـورِ، وأَنْـتُـمْ نُـسـورُ الـسُّـمُـوّ
فَـإِنَّ الـعِـدَى دَرَجَـاتُ الـعُـلَـى　　صَـعِـدْتُ عَـلَـيْـهـا عَـدُوّاً عَـدُوّ

١٨٣ الصديق سيف في يدي

إنَّ الـصَّـديـقَ لَـيُـشْـبِـهُ الـسَّـ　　ـيْـفَ الـمـجَـرَّدَ فـي يَـدَيَّـا
أَلْـقَـى بِـه نُـوَبَ الـزَّمـا　　نِ إذا عَـدَتْ يـومـاً عَـلَـيَّـا
والـخَـيْـرُ أَنْ أَغْـنَـى عَـنِ اسْـ　　ـتِـعْـمَـالِـهِ، مـا دُمْـتُ حَـيَّـا

١٨٤ اللذة والسعادة

الـلَّـذَّةُ الـكُـبْـرَى مَـشَـا　　عٌ لِـلـسَّـعـيـدِ ولِـلـشَّـقِـيّ
أَمَّـا الـحُـبُـورُ فـإنَّـه　　وَقْـفٌ عـلـى الـقَـلْـبِ الـنَّـقِـيّ

١٨٥ يريد أن يعانق المارة في الشارع

مَـنْ لِـنَـفْـسٍ تَـوَدُّ لـو تَـغْـمُـرُ الـكَـوْ　　نَ، هُـيَـامـاً بِـحُـسْـنِـهِ الـمـعْـبُـودِ
مَـثِّـلـوا لـيَ هـذا الـوُجـودَ بِـشَـيْءٍ　　أنَـا لا أَسْـتَـطـيـعُ ضَـمَّ الـوُجـودِ

هذان البيتان فيهما تصوير لمنتهى الفرح. بيتان كهذين لا يقولهما إلا من كان قلبه يغلي شعراً. رحمك الله يا قروي.. ما في شعرك من سياسة صرف الناس عما فيه من درر ثمينة. ولك في شعر السياسة شعر هو من أحلى الشعر. لبدوي الجبل هجاء رائع في عبد الناصر، ولك يا قروي مديح رائع في عبد الناصر. كأني سمعت بعض الحمقى يقولون إن الشعر السياسي يموت بانقضاء المرحلة! المرحلة تنقضي والشعر المضمخ بالعاطفة، حباً أو كرهاً، يبقى

١٨٦ غربة مضاعفة

مَـا الـبَـرازيـلُ مَـهْـجَـرِي　　لـيـسَ لُـبـنـانُ لـي حِـمَـى

إنَّ نَــفْـــســـي غَــرِيــبَــةٌ   تَـشْـتَـكِـي الـبُـعـدَ فـيِـهِـمَـا

١٨٧ الاختيار

بـنــاتُ حَــوَّاءَ أعــشــابٌ وأزهــارُ   فاسْتَلْهِمِ العقلَ، وانظرْ كيف تَخْتَارُ

ولا يَغُرَّنَّكَ الوَجْهُ الجميلُ، فكمْ   في الزَّهْرِ سُمٌّ، وكم في العُشْبِ عَقَّارُ

«العقَّار» بمعنى الدواء مشددة، لذا فالجمع «عقاقير» بقافين، و«العَقار» بمعنى المباني، غير مشددة، فجمعها «عقارات» بقاف واحدة

١٨٨ سوى شهوة..

صَرَفتُ عِنَانَ النفسِ عَنْ كلِّ شَهْوةٍ   سوى شهوةٍ قد رُكِّبَتْ في الطبائعِ

وكيفَ بِغَضِّ الطَّرْفِ عِنْ خمرةٍ جَرَتْ   دَماً في عُروقِي، أو لَظَىً في أَضَالِعي

رشيد سليم الخوري (الشاعر القروي)

فهرس القوافي

إيليا أبو ماضي
(١٨٨٩ ـ ١٩٥٧)

عن دراسة لجورج جحا فإن مولد إيليا أبو ماضي محقق من عدة مصادر على أنه في سنة ١٨٨٩. والأديب الإسكندري عبد العليم القباني وضع كتيباً عن إيليا أبو ماضي في فترته الإسكندرية خص قطعة صالحة منه بتحقيق عام مولده، وهو يقول إن أبو ماضي ولد قبل عام ١٨٨٩ ببضع سنوات، وقرائنه وجيهة. وثمة من قال، وأكد، أنه ولد في عام ١٨٩٥.

وقد شغلتنا حكاية تاريخ مولده، لأنها غدت مع اضطراب المصادر ـ وسبب الاضطراب أساساً شغف الناس بتقديم الفتوى السريعة الجازمة بغير علم. . وأنت تعرف طبعا أن مأواهم الآن جهنم الحمراء ـ أقول غدت الحكاية لغزاً مسلياً. مختار قرية المحيدثة أكد أن المولد كان في عام ١٨٨٩، ولكن السجلات المدنية في بكفيًا قالت: ١٨٩٢، وأشار الباحث جرجي إبراهيم نصر في مقال عام ١٩٦٦ إلى أن هذه السجلات تقريبية ولا تعويل عليها. فأما الكنيسة في المحيدثة نفسها فلا سجلات لديها تخص تلك الحقبة.

نعود إلى شهادتين لهما من القيمة فوق ما لكل المستندات المكتوبة: ميخائيل نعيمة قال للباحث جحا إنه وإيليا ولدا في السنة نفسها ١٨٨٩. وميخائيل رفيق إيليا في نيويورك، وزميله في الرابطة القلمية، فهو يعرفه عن قرب، ومنذ سن الشباب. وأنا وأنت نقيس أصدقاءنا في سن الشباب بأنفسنا، فالذي يكبرنا بسنة نعرف أنه يكبرنا بسنة، والذي يصغرنا بسنة نعرف أنه يصغرنا بسنة. فهذه السنة تصنع فرقاً في الوعي في السن الباكرة. وثمة شهادة أقوى.

تلك شهادة مراد أبو ماضي أخي إيليا الذي يكبره بسنتين. فقد نُشر في ديوان تبر وتراب، الذي أصدرته دار العلم للملايين بعد وفاة الشاعر، أن ميلاده

كان عام ١٨٩٠، فصحح مراد هذا الخطأ، في رسالة بعثها إلى سيدة من العائلة أرفق بها نسخة من الديوان، وجعله ١٨٨٩. ومن ذا يجهل عمر شقيقه المقارب له في السن؟ ثم إن مراداً صحب إيليا في دروس تلقياها على شاعر القرية، وصحبه في الإسكندرية وفي نيويورك، وكان لمراد من الشعر نصيب، فهو حتى في هذه قريب من أخيه المشهور. ولو كان في نفس مراد أبو ماضي أخي الشاعر قليل من الشك فيما بين ١٨٩٠، و١٨٨٩.. لما بادر إلى التصحيح، فالفارق سنة واحدة، وتصحيحه يدل على أنه يعرف بثقة تاريخ ميلاد أخيه.

وننصح الباحثين الكرام أن يمضوا في استقاء الفتاوى بشأن ميلاد إيليا أبو ماضي كي تستمر هذه التسلية.

إيليا أبو ماضي شاعر المحبة والابتسام. وكنت أريد أن أبدأ الحديث عنه بفقرة عن التسامح، ولكنني الليلة منشغل بشيء آخر. ومن بعض مَغارِم من يقرأني أنه يجد نفسه كالجالس بجانبي، ويرى نفسه مضطراً إلى أن ينشغل بما يشغلني. لكنَّ لقارئي غُنماً أرجو ألا ينساه، وهو فرحته إذ يقع على خطأ مطبعي أو لغوي. بعض معارفي يهاتفونني ليقولوا بصوت ملؤه الحبور إنهم عثروا على الغلطة الفلانية في الصفحة الفلانية في السطر الفلاني. أحدهم يجلس القرفصاء في المكالمة الهاتفية ويأخذ بمناقشتي في كلمة، ويحتر ويتصبب عرقه إذ يسمعني أقول له بين الدفقة والدفقة من كلامه: لا أدري، وربما، ولعلك على صواب، وسنصلحها في الطبعة المقبلة إن كانت ستكون طبعة مقبلة.

ولهؤلاء، أفرحَ اللهُ قلوبهم، وملأ بالبهجة صدورهم، أقول: إنني أبحث بقدر ما لدي من وقت، وأكتب بقدر ما عندي من علم، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها.

نعم، فتحت باب الحديث عن إيليا أبو ماضي وفي نفسي أن أتكلم عن المحبة والابتسام، لكنَّ ما يشغلني إنما هو التربيع.

أنا وأنت نعرف لماذا مساحة المربع مربَّعُ ضلعه. ونعرف أن نرسم داخل المربع مربعات صغاراً تثبت النظرية. ولكنني، أنا، لا أعرف لماذا يُربِّعون السرعة في الطاقة الحركية. ولعلك درست أن الشخص الذي يجري بسرعة أربعة أمتار في الثانية، ووزنه مئة كيلو، يعطي إذا اصطدم فجأة بجدار طاقةً مقدارها نصف وزنه مضروباً في مربع سرعته، فهذه ٥٠ كيلو لنصف وزنه + ١٦ لمربع سرعته = ٨٠٠ جول.

فلماذا يربعون السرعة؟ ولماذا يربعها آينشتاين في معادلته المشهورة؟ ولماذا لا ينصِّف آينشتاين الكتلة في معادلته مثلما هي منصَّفة في قانون الطاقة الحركية؟

يقول لك المعلم: احفظ القانون وطبقه، ولا تسأل لماذا؟

ومن نكد طالعي أنني أسأل بين الحين والحين بلماذا. لكنني عدلت منذ زمن عن الإغراق في التمحيص، لأنني اكتشفت أن عقلي لا يحب التجريد ولا يستطيعه إلا قليلاً. فأنا قانع من العلم بقراءات في كتب «العلم لِلجمهور». وقد رأيت، في بعض من عرفت، قدرة طيبة على التجريد، وعناداً في تحصيل الفهم العميق، وإلحاحاً على السؤال بلماذا. وشهدت إحباطاتهم لِما وجدوه من عدم ترحيب السوق المحلية بمواهبهم. فمنهم من هاجر، ومنهم من ارتضى حفظ القوانين العلمية والاكتفاء بتطبيقها، وتحفيظها لطلابه، ومطالبتهم بالاكتفاء بتطبيقها.

العقول العبقرية تكتشف قوانين الكون: ابن سينا والفارابي وغاليليو ونيوتن وآينشتاين؛ والعقول القوية تفهم القوانين؛ والعقول الراضِية تكتفي بالتطبيق. هناك من يبتدع نظاماً حاسوبياً متكاملاً (نظام تمييز الوجوه مثلاً)، وهناك من يبرمج، وهناك ـ في الدرجة الدنيا ـ محدثكم الذي ينقر على حاسوبه الهمزات والحركات، فإذا أخطأ ملأ قلوب بعض الناس حبوراً وهم قاعدون يتسقطون. أفرح الله قلوبهم.

لم يكن إيليا أبو ماضي عروبياً. فإن كنتَ متحمساً للعروبة فننصحك بالتروي بدل أن تطلق في وجهه فَحَّةً شمسيةً من الكراهية. ولم يكن شديد المجاملة للمسلمين، ككثير من الشعراء المسيحيين، فإن كنت مسلماً تطرب لما يبديه بعض المسيحيين من هذا النوع من المجاملة، فحنانيك، لا تحكم على الناس بخصلة واحدة؛ ولجهامة الصراحة أحب إلى قلب المؤمن من بشاشة المجاملة. ولم يكن إيليا أبو ماضي موقناً بالنشور. ولم يكن واضحاً في معاداته للاستعمار الغربي لبلادنا، ولم يكن متسامحاً مع أعدائه. لا بل كان له أعداء وخاض الخصومات. ولم يكن رومنسياً طول الوقت، كما قد تكون أوحت لك القصائد التي اختارها مؤلفو كتب المدارس.

كان إيليا أبو ماضي يحسن استعمال المفردة القديمة والأسلوب القديم عندما يريد، وكان فصيحاً في معظم الأحيان، غير أنه أسرف في التساهل في

النحو والصرف، كأنما كان يطرقه المعنى الفاتن فيذبح له مفردة؛ أو يستخفه ما يجد من تدفق قلمة على الورق فلا يريد أن يقف وقفة الباحث عن طريقة يؤدي بها المعنى ويرضي سيبويه في الوقت نفسه، فيستعجل، عارفاً أن ربة الشعر لا تمكث طويلاً على سن قلم يقضم الشاعر عقبه بين أسنانه.

لا حجة لمن يكثر التجوز وارتكاب أخطاء في النحو والصرف. هو يقول: أنا أعرف الوجه الصحيح، ولكنني مجترئ على اللغة؛ ونقول له: ونحن نعرف أنك كنت تعرف وجه الصواب، فوجه الصواب يعرفه التلامذة، ونعرف أنك اجترأت على اللغة. اجترِئ اجتراء من يبدع من جوف اللغة قالباً يحتضن معنى جديداً، لا اجتراء عاجز. وكان عند إيليا الاجتراءان.

فإن كنت تظن شاعرنا ذلك المتسامح الكبير في غير النحو والصرف، فإنني أقول لك: بل أنت المطالَب بأن تكون متسامحاً كبيراً وأنت تقرأه، حتى تستمتع بشعره. والذي انتقيته لك من شعره باقة كبيرة فيها شيء من كل شيء. وسترى الشاعر فيها من جوانبه المختلفة. على أنها، بعد، باقة مختارة. فيها تلك القصص المدرسية الحلوة: قصة التينة التي رفضت أن تحمل ثماراً، وقصة الملك والشاعر، وقصة إيليا عندما فكر بهدايا العيد. ولم نكثر من التسويد في هذه القصص لأن قصيدة القصة تكون متماسكة. غير أننا، في الحين بعد الحين، كنا نجد البيت البديع فنسوده حتى نلفت نظرك إليه.

ولد إيليا أبو ماضي في قرية المحيدثة بلبنان في عام ١٨٨٩، فهو قد وعى العهد العثماني. وأمسك بذيل النهضة الكبيرة للغة العربية التي قادها الجيل الذي سبق جيله في لبنان. تعلم الحرف، وكان مقبلاً على التعلم منذ سن الخامسة. ثم التحق بمدرسة تابعة للكنيسة في قرية مجاورة.

لعل ما قد ذكره بعضهم من استراق إيليا أبو ماضي السمع وهو طفل إلى ما يلقى من دروس في مدرسة البستان، التي أسسها شاعر المحيدثة الشيخ إبراهيم ميخائيل المنذر، مجرد تلفيق أكاديمي من تلك التلفيقات الكثيرة. فقد رأى بعضهم أن في المحيدثة مدرسة فجعل شاعرنا يتلصص على دروسها وهو طفل. والواقع أن المدرسة تأسست وإيليا في أميركا، وقد جاوز العشرين.

لكن شاعرنا عرف شعر إبراهيم المنذر، وجلس إليه طفلاً، مع أخيه مراد وأطفال القرية، يستمعون إلى بعض الدروس. هذا مطلع قصيدة للمنذر:

مـــن أنـــا والـــلَّـــه أدري، ولا   أحـد فـي الـكـون يـدري مـن أنـا

وتسمع فيها أخت الـ«لست أدري» المشهورة في طلاسم إيليا، وتتكرر فيها عبارة «من أنا» لتختم فقرات متتابعة منوعة القوافي، وهي على بحر الرمل أيضاً. وهذا يعيد إلى الذهن اقتباس إيليا فكرة قصيدته: (نسي الطين ساعة أنه طين حقير) من قصيدة شعبية، كما سيرد عليك في شرحنا لهذه القصيدة.

وثمة قصيدة أخرى للشيخ إبراهيم المنذر ظلت مشهورة حتى يومنا هذا لا يكاد يفلت من بين براثنها طفل، وفيها من الأسلوب القصصي وصوغ العبارة ما يشبه شعر إيليا، ولا نظن إيليا أفلت منها. ها هي قصيدة المنذر المشهورة، فلا نريد أن يخلو كتابنا منها:

أَغـرى امـرُؤٌ يـومـاً غـلامـاً جـاهـلاً   بِـنـقـودِه حـتـى يـنـالَ بـهِ الـوَطَـرْ

قـال ائْـتِـنـي بـفـؤادِ أُمِّـكَ يـا فـتـى   ولَـكَ الـدراهـمُ والـجـواهـرُ والـدُّرَرْ

فمضَى وأَغمَدَ خِنجراً في صدرِها   والـقـلـبُ أخـرجَـهُ وعـادَ عـلـى الأَثَـرْ

لـكـنَّـهُ مِـن فَـرْطِ سـرعـتِـه هـوى   فـتـدحْـرَجَ الـقـلـبُ الـمُـضَـرَّجُ إذْ عَـثَـرْ

نـاداهُ قـلـبُ الأمِّ وَهْـوَ مُـعَـفَّـرٌ:   ولدِي حبيبِي، هل أصابَكَ مِن ضَرَرْ؟

الولد يعرف شاعر قريته الذي يكبره بخمس عشرة سنة، ويسمع شعره. والمحيدثة قرية من أصغر القرى، كانت وما زالت (كان عدد سكانها عند مولد إيليا ١٥٠ نسمة). وكل ولد في كل قرية يعرف شاعر قريته؛ فما بالك بولد يقول أبياتاً من الزجل، وما بالك بشاعر القرية يكون في مستوى المنذر؟

كان أولاد ضاهر إيليا طانيوس أبو ماضي ستة. وكان حائكاً فقيراً، وأخذ يحث أبناءه على السفر لكسب الرزق. وأبناؤه خمسة ذكور وبنت هي جنى، وكانوا يدلعونها «أوجيني» بمضاعفة عدد الحروف. أليس الفرنسيون قد بدأوا يفرضون ثقافتهم على لبنان؟ والإمبراطورة أوجيني زوجة نابليون الثالث اشتهرت في الشرق بحضورها حفل تدشين قناة السويس وبدورها الطاغي في القصر قبل الإذلال الكبير في الحرب مع بروسيا.

ما كاد إيليا يتجاوز العاشرة حتى بعثه أبوه إلى مصر ليقف في دكان السجائر الذي يملكه خاله قبلان إسكندر في الإسكندرية. وأخوه مراد هاجر قبله إلى الإسكندرية. وكان من نعمة الله على إيليا أبو ماضي أنه لم يتعلم في

المدارس بعد سن العاشرة. تعلم على نفسه، وقرأ دواوين القدماء وأشعار المعاصرين، وقرأ عن الدنيا في مجلة كانت أهم من كل جامعات العالم العربي على مدى عقود كثيرة. تلك هي المقتطف.

ولأنني، أنا، تعلمت على مجلة، فسوف أقف هنا وقفة، راجياً من القارئ أن يتذكر أننا وصلنا في قصتنا إلى أن الطفل إيليا أبو ماضي كان في نحو العاشرة وهو يقف في دكان السجائر بالإسكندرية.

مجلتي التي علمتني كانت «العربي» الكويتية. كانت مجلة علم وأدب، فرئيس تحريرها ومؤسسها أحمد زكي عالم كيمياء، وهو أديب ذو قلم بليغ. علمتني «العربي» أن أحب العلم. والآن أتذكر تلك المقالات المتلاحقة التي كان يكتبها رئيس التحرير عن «العقل الإلكتروني». . هكذا سمَّى الكمبيوتر بالعربية قبل أن يرى الناس أي كمبيوتر بسنين كثيرة، وقبل أن يخترعوا له كلمة الحاسوب. كان أحمد زكي في الستينات يكتب لنا عن التطور في تقنية الكمبيوتر خطوة خطوة، وهو، بعد، خريج بريطانيا أمِّ الكمبيوتر. ومن مجلة العربي تعلمت الحرف نفسه. فقد أخفقَت المدرسة في تعليمي حتى الألفباء، وتعلمتها من تلك الأسطر التي تحت الصور في مجلة العربي. وبعض كراهيتي للمدارس والجامعات أنها لم تعلمني بل حبستني عن التعلم قدر استطاعتها.

كانت مجلة المقتطف بستاناً للعلم والأدب، فصاحبها يعقوب صَرُّوف عالم وأديب وصحفي.

أعطيك مثالاً.

كنت في مصر ذات سنة، ووجدتني ذات صباح في ميدان طلعت حرب، وقد أنهيت جولتي على المكتبات، وشربت قهوتي في «جروبي». أوقفت سيارة كي تقلني إلى بيتي، وكان لي في تلك السنة بمصر بيت. ركبت، وانطلقت السيارة بي. قلت في نفسي: أَوَبلغ بك كره السياحة يا رجل ألا تجد في مصر سوى المكتبات؟ ثم وجدتني أقول للسائق: أتعرف الفيوم؟ سؤال غير لائق لسائق في الثمانين من عمره. قال لي: طبعاً، فقلت له: هيَّا.

ولرحلة كهذه أن تستغرق ساعةً ذهاباً، وساعةً إياباً، وساعة أتناول فيها مع صاحبي الشيخ غداء على بحيرة قارون. فلماذا، إذن، عدت إلى بيتي في الساعة الثالثة من فجر اليوم التالي؟

ما كدنا نهم بالخروج من القاهرة حتى بدأت السيارة تصدر أصواتاً. ووقف السائق بجانب بيت، وطلب ماء. وسقى المحرك. وبعد كيلومتر أو أقل وقف ثانيةً. هل سأقول وقف ثالثةً ورابعةً؟ وماذا سأفعل حين أتعدى العشرة؟ هل سأقول وقف حادية عشر وثانية عشر؟ قد، والله وقف عشرات المرات.

على أطراف الفيوم، وفي شارع تكتنفه أشجار المانجا، وقفنا أمام مشغل ميكانيك خرج منه رجل ضخم الجثة. طلب منه سائقي الشيخ أن يلقي نظرة. فقال الرجل: هذا لا ينفع، أبداً أبداً، المحرك سيقفش منك. لكن سائقي هز رأسه واكتفى بطلب دلو ماء، وسقى المحرك. وفي كل مرة كان يسقي فيها المحرك كان يصدر عنه صوت غليان وتتصاعد الأبخرة.

ووصلنا بحيرة قارون في شبه معجزة. أقول شبه معجزة لأن المعجزة الحقيقية ستكون في طريق العودة.

تغدينا على شاطئ البحيرة، وسألت أسئلة كثيرة عن هذه البحيرة العجيبة. ولم أحظ بجواب.

قلت لشيخي: هيا بنا. فعرض عليَّ أن يلتمس لي سيارة تعيدني إلى القاهرة، فلا أعاني مشقة الركوب معه في سيارته العجيبة. لكن هيهات! قد انعقدت بيننا الصحبة، وكان لا بد من أن أعود معه.

اختار الطريق الصحراوي. كانت السيارة قد استراحت سويعة في الفيوم، فمضت بنا. وبعد بضعة كيلومترات بدأنا نسقي المحرك من ماء كثير حملناه من الفيوم في أوعية بلاستيك. في هذه المرحلة كنت قد أصبحت خبيراً في السقي. أصبُّ الماء في فوهة خزان التبريد فأراه يغلي، ويتدفق منه رشاش يكاد يلسع وجهي، ويتصاعد البخار فأميل بوجهي يمنة أو يسرة.. ثم أسقي.

بدأت الشمس تسقط ونحن في وسط الصحراء، وسقط معها محرك السيارة. وقفنا بجانب سيارتنا، تمر بنا الشاحنات، ولا يقف لنا أحد. واعتراني ما يعتري تائه الصحراء من مخاوف. ولكنني تقويت بصاحبي الشيخ الذي كان هادئ الأعصاب، واثقاً بمحرك سيارته ثقة لم أجد لها مسوغاً، فهي سيارة عتيقة من طراز رخيص، ونظام التبريد فيها قافش، والمحرك على وشك القفوش.

ظلت حارنة. وظلت ثقة صاحبي بسيارته عالية. القلق يأكل قلبي، ولا

يصده بعض صد سوى ثقة شيخي بسيارته. ثم تحركت السيارة. تحركت ببركة الله وبثقة صاحبي فيها. كانت الشمس قد غربت، فلاحت لنا من وراء الأفق أضواء القاهرة. وكان ماؤنا قد نفد، وبالدعوات الصالحات وصلنا إلى مكان يبعد مئة متر أو مئتين عن محطة وقود، ثم حرنت السيارة. فنزل شيخي ومعه وعاءان فارغان يستقي من المحطة. وبقيت في السيارة أحرسها، حرسها الله. . وكأنَّ الجنون بلغ بلصوص السيارات أن يسرقوا هذه العروس!

كان في بطارية هاتفي شَرطة واحدة، وأنهاها اتصال جاءني من زميلة تقوم بتصوير فلم وثائقي، قالت إن الأمن اعتقلها لعدم وجود إذن تصوير بحوزتها. فقلت لها إنني. . ولم تكتمل المكالمة. وعاد شيخي بالماء، وسقينا المحرك.

هذا ونحن قد تجاوزنا العشاء بقليل. فلماذا لم أصل إلى بيتي إلا في الثالثة فجراً؟ لن أطيل عليك.

عندما دخلنا مشارف القاهرة، وصار هناك بيوت، زيد في مهامي، بالإضافة إلى المساعدة في سقي المحرك، الزقَّ. قضيت وقتاً لا يعلمه إلا الله وأنا وراء السيارة أدفعها بالكفين دفعاً. ثم قد يراني بعض الشبان فيهرعون إلى المساعدة، ويشتغل المحرك، وأركب، وبعد أمتار أنزل وأزقّ، ونستقي من البيوت، ونسقي المحرك. . لم نتوقف عن السقي، ولا توقفت أنا عن الزق. وعلى مقربة من الأهرام، استقينا من كشك يبيع الشاي، وكلف الرجل نفسه فأعطانا ما عنده من ماء غسل الأكواب، وتكلف أن ذهب بعيداً لتزويدنا بماء أكثر. وجلست مع شيخي إلى مصطبة، وشربنا الشاي.

ومضينا. . يسوق وأزق. وهنا المعجزة: وصلت السيارة بعد بضع ساعات إلى ساحة تبعد عن بيتي أقل من خمسين متراً. وحرنت. ورغم أنني وصلت مأمني، فقد آليت لا أترك صاحبي إلا أن تتحرك سيارته. لكنها حرنت بطريقة جديدة، لقد أبى المحرك أن يعمل، وأبى حتى أن يصدر صوتاً. وكانت الساعة قد جاوزت الثانية ليلاً. وجاء شباب لديهم في السيارات خبرة. وفحصوا. هذه المرة كان المحرك قد قفش فعلاً. ولا فائدة. على بعد خمسين متراً من بيتي قرر المحرك أن يقفش. ليس في وسط الصحراء، ولا على مشارف القاهرة، بل على باب بيتي.

لم يعمل المحرك لا بماء ولا بغير ماء. فكان لا بد من ونش. وعز الأمر على شيخي، حتى مع استعدادي لدفع أجرة الونش. ثقته بسيارته منعته من قبول

العرض. وقعدنا وشربنا كوب شاي آخر، من كشك قريب. لعلك تعلم أن الناس في القاهرة لا ينامون!

لكنه لم يكن من الونش بد. وأرضيت الشيخ شاكر بما يقوم بكسبه طول نهاره، ودفعت للونش، وذهبت إلى فراشي.

عندما عاد الشيخ بعد يومين ليوصلني إلى المطار كانت معه سيارة ابنه: شيء عمره نحو أربعين سنة، وله على الجوانب أجنحه مدببة. طمأنني الشيخ إلى أن سيارته العتيدة، سيارة الفيوم تلك، بخير، وستقوم من علتها قريباً. وبدعوات الوالدين أوصلتني السيارة ذات الأجنحة المدببة إلى المطار في الموعد.

والشاهد في هذه القصة: بحيرة قارون. فإنني عندما عدت إلى مستقري أخذت أبحث عن أمر هذه البحيرة، فلم أجد في الإنترنت ما يشفي الغليل. ثم إنني وقعت على عدد من مجلة المقتطف صادر عام ١٩٠٦. نعم، قبل أكثر من مئة سنة نشرت المقتطف صفحتين دسمتين عن البحيرة ومصادر مياهها وعن أملاحها، وحتى عما يسكب فيها من مياه الصرف.

عود إلى إيليا أبو ماضي

وهو يعمل في دكان بيع السجائر بالإسكندرية قرأ إيليا أبو ماضي كثيراً، قرأ شعر شوقي وحافظ الذي كان يملأ الجرائد. فمن زعم أن إيليا أبو ماضي كان قليل حظ من الثقافة فهو أكاديمي يقيس الناس بمسطرة جامعته التي أخذ منها شهادته؛ رأى شاعرنا لا يحمل إعدادية ولا ثانوية فحكم عليه. ولكن إيليا أبو ماضي عاش بين العاشرة والعشرين في بلد تنيره مجلة المقتطف، ويعيش فيه شوقي وحافظ.

ونشر إيليا أبو ماضي شعراً في مجلة الزهور بالإسكندرية، وطبع بواكيره في ديوان. وظل يبيع السجائر ويدخن بعضها حتى قطع العشرين بسنتين أو ثلاث، ثم هاجر إلى أميركا. أقام في سنسناتي بأوهايو نحو أربع سنين يكسب الرزق بالتجارة، ثم توجه إلى نيويورك، وفيها التقى بجبران وميخائيل نعيمة. وفيها فتح جريدة سماها السمير، وظل يحررها ربع قرن حتى مات.

عندما كان في نحو الستين من عمره زار الشام ولبنان وكرموه تكريماً، ثم عاد إلى الولايات المتحدة. مات إيليا أبو ماضي عام ١٩٥٧، وقد قارب

السبعين. يقول لك بعض الأفاقين من كتاب المقالات إن شاعرنا كان يتمنى العودة إلى لبنان ليموت فيها، لو كان هذا هكذا ما كان شاعرنا سمى أولاده ريتشارد وإدوارد وروبرت، وزوجته عربية تتحدث العربية. وقد نشأ أولاده لا يتكلمون العربية. لا نقول هذا في معرض انتقاد، بل في معرض وصف، ولكل إنسان أن يختار لأولاده ما يراه مناسباً في مسألة التربية والتعليم قبل بلوغهم، فهذا، لو فاتك، حق من حقوق الإنسان المنصوص عليها في شرعة حقوق الإنسان الأممية. وأنا بعد محب لشخصية إيليا أبو ماضي: كان دمث الخلق، فإن هجا فهو لا يسمي المهجو باسمه، وكان رقيقاً، وحسن المعشر، وكان صريحاً لا يداجي في آرائه الفكرية والسياسية.

لم أطل البحث في تفاصيل حياته في مهجره الأميركي، فلست أملك أدوات البحث، ولكن باحثاً جاداً يقضي بعض الوقت في مراجعة أعداد مجلة السمير، وفيها مقالات كثيرة لإيليا يحكي فيها عن نفسه، ويمعن في التنقيب على طريقة المستشرقين سيخرج ببحث حقيقي، لا كتلك الأوراق التافهة التي تعج بالعبارات المزعجة الخالية من المعنى من قبيل «روحه الإنسانية العميقة» و«قلبه النابض بحب الوطن».

كما أنني لم أكن كثير الاهتمام بحياة شاعرنا بعد أن تجاوز الطفولة.. انكببت فقط على سنوات طفولته، وسعدت أيما سعادة عندما عثرت، بعد يومين مضنيين من البحث، على شاعر المحيدثة إبراهيم المنذر. فالمؤثر الأكبر في حياة الشاعر، وحياة كل إنسان، هو ما مر به في طفولته الباكرة. في الطفولة تمتد يد القدر إلى الإنسان وتدفعه في اتجاه.. ويظل يسير فيه. فإن كنت وزير معارف وأعطوك ميزانية ألف درهم للتعليم فاجعل منها، رعاك الله، سبعمئة للتعليم الابتدائي، واسرق الباقي. فإن كنت لا تسرق فلا أدري كيف صرت وزيراً!

١ ويغيب عنك فتشتهيه

إنَّ الـكَـرِيـمَ لَـكَـالـرَّبِـيـــعِ، تُـحِـبُّـهُ لِـلْـحُـسْـنِ فِـيـهْ
وتَـهَـشُّ عِـنْـدَ لِـقَـائِـهِ، ويـغـيـبُ عـنـكَ فَـتَـشْـتَـهِـيـهْ
لا يَـرتَـضِـي أبَـداً لِـصَـاحِـبِهِ الـذي لا يَـرْتَـضِـيـهْ

أي الذي لا يرتضيه.. لنفسه

وإذا الــلــيــالــيِ سَــاعَــفَــتْــ ـهُ لا يَــضِــلُّ، ولا يَــتِــيــهْ

إذا اغتنى لا يصبح ضالاً ولا تياهاً متكبراً

وتَــرَاهُ يَــبْــسِــمُ هَــازِئــاً في غَــمْــرَةِ الــخَــطْــبِ الــكَــرِيــهْ
وإذا تَــحَــرَّقَ حــاسِــدُو هُ بَــكَــى، وَرَقَّ لِــحَــاسِــدِيــهْ
كــالــوَرْدِ يَــنْــفَــحُ بِــالــشَّــذَى حــتــى أُنُــوفَ الــسَّــارِقِــيــهْ

٢ مصر وسيام والدستور

كــأنِّــي قــارىءٌ، والــلــيــلُ سِــفْــرٌ لــهُ بَــدْءٌ، ولــيــس لــهُ خــتــامُ

يقول: إن الليل طويل

كــذاكَ الــهَــمُّ: أَعْــسَــرَ مــا تَــرَاهُ إذا سَكَــتَ الــدُّجَى، وغَــفَــا الأنامُ
ولــولا أنَّ فــي مــصــرٍ مُــقَــامــيِ لَــعَــمْــرُ أبيكَ! ما طــالَ الــمقَــامُ
مَضَــى عــامٌ عــليَّ بِــأَرضِ مِصْــرٍ، وذا عــامٌ، وســوفَ يــجــيءُ عــامُ
ومــا مــصــرُ الــتي مَــلَــكَــتْ فؤادي ولــكــنْ، أهــلُــهــا قــومٌ كــرامُ
وِدَادُهُــمُ عــلــى الأيــامِ بــاقٍ وجــارُهُــمُ عــزيــزٌ لا يُــضــامُ
إلامَــا تَــمْــنَــعُ الــدستــورَ مِــصْــرٌ وقــد كــادتْ تــفــوزُ بِــهِ سِــيَــامُ؟

سيام: تايلاند

بَــنِــي مِــصْــرٍ! على الأحداثِ صَبراً فَقَبْلَ الصَّحْوِ، يَجْتَمِعُ الغَمَامُ

الصحو: انقشاع الغيم وانقطاع المطر

ولا يَــلْــحَــقْ بِــكُــمْ ضَــجَــرٌ، فــإنــي رأيــتُ الــظــلــمَ لــيــس لــهُ دَوَامُ
فــإنَّ الــلــيــلَ يُــعْــقِــبُــهُ صــبــاحٌ وإن الــحــربَ آخــرُهــا ســلامُ

٣ محتكر المصائب

فلا تــحــسَــبَــانــيِ أَذْرِفُ الدمعَ عــادَةً ولا تــحــسَــبَــانــيِ أُنْشِدُ الشِّعْرَ لاهِيا

عادةً: أي من قبيل العادة

ولــكــنَّــهــا نــفــسِــي إذا جَــاشَ جَــأْشُــهــا وفــاضَ عــلــيــهــا الــهــمُّ فَــاضَــتْ قَــوافِــيــا
رُمِــيــتُ مِــنَ الــدنــيــا بِــمَــا لــو قَــلِــيــلُــهُ رَمَــيْــتَ بِــهِ الأيــامَ صــارَتْ لَــيــالِــيَــا

فلا تشتَكُوا يا صَحْبُ بؤساً، فَإِنَّنِي ضَمِنْتُ الرَّزَايَا، واحتَكَرْتُ العَوادِيا

العوادي: المصائب

تَبَدَّلَتِ الدنيا مِنَ السِّلْمِ بِالوَغَى وصارَ بَنُوها العاقِلُونَ ضَوَارِيا

فَمَا تُنْبِتُ الغَبْراءُ غيرَ مَصَائِبٍ ومَا تُمْطِرُ الأَفلاكُ إِلَّا دَوَاهِيَا

الغبراء: الأرض، الأفلاك: يقصد السماء

٤ اتركني بحالي

رأيتُ الليالي ما تزالَ تَرُوعُني بِأحداثِها، ما لِلَّيَالي ومَا لِيَا؟

إذا لم تَكُنْ لي آسِيَاً أو مُؤَاسِياً فلا تَكُ لَوَّاماً، وَذَرْنِي ومَا بِيَا

آسياً: مداوياً

ألا حَبَّذَا مِنْ سالِفِ العيشِ مَا مَضَى ويا حَبَّذَا لو كانَ يَرْجِعُ ثَانِيا

زمانٌ كَقَلْبِ الطفلِ صَافٍ، وكالمنى لَذِيذٌ، ولكنْ كانَ كالحُلْمِ فَانِيا

٥ دعص ترجرج

بيضٌ تَرَائبُها، سُودٌ ذَوَائِبُها زُجٌّ حواجِبُها، كُحْلٌ مَآقِيها

الترائب: ما بين الصدر والعنق، الذوائب: خصلات الشعر، حواجب زُجٌّ: دقيقة، كُحْل: مكحولة

نُهودُها مِنْ ثَنَايا الثوبِ بارِزَةٌ كأنَّها تَشْتَكِي مِمَّا يُوَارِيها

والثوبُ قد ضاقَ عَنْ إخْفَائِها، فَنَبَا عنْها، فَيَا لَيْتَني بُرْدٌ لِأَحْمِيها

برد: ثوب

وتَحتَ ذلكَ خَصْرٌ يَسْتَقِلُّ بِهِ دِعْصٌ تَرَجْرَجَ، حتى كادَ يُلْقِيها

دعص: كثيب رمل؛ كذا كانوا يصفون مؤخرة المرأة.. لكن قبل ألف سنة يا إيليا

٦ ليتها دامت

يا أَشْهُراً مَرَّتْ سِرَاعاً كالمُنَى لو أَستطيعُ جعلْتُكُنَّ سِنِينَا

وأَمَرْتُ أنْ يَقِفَ الزمانُ عنِ السُّرى كِيلا نَمُرَّ بِساعةٍ تُبْكِينا

٧ إيليا الحزين على ترك الدين

قالوا: تَرَقّى سَليلُ الطينِ، قلتُ لَهُمْ: الآنَ تَمَّ شقاءُ العالمِ الآنَا

سليل الطين: من سلالة أصلها طين، أي الإنسان

إنَّ الحديدَ إذا ما لانَ صارَ مُدىً فكُنْ على حَذَرٍ مِنْهُ إذا لانَا

مدى: سكاكين

والمرءُ وَحْشٌ، ولكنْ حُسْنُ صورَتِهِ أَنْسَى بَلايَاه مَنْ سَمَّاهُ إنسانا
قد حاربَ الدينَ خَوفاً مِنْ زَواجِرِهِ كأنَّ بينَ الوَرى والدينِ عُدْوانَا

زواجره: نواهيه

إني لَيَأْخُذُني مِنْ أَمْرِهِ عَجَبٌ أَكُلَّما زادَ عِلْماً، زادَ كُفْرَانا؟
إذا ارتدَى المرْءُ ما في الأرضِ مِنْ بُرُدٍ وعافَ لِلدِّينِ بُرْداً عادَ عُرْيَانا

بُرُد: أثواب

٨ لم تخلق لغير المحبة

رثى بها مصطفى كامل المتوفى عام ١٩٠٨:

تُنَادِيكَ مِصْرُ الآنَ يا خيرَ رَاحِلٍ ويا خيرَ مَنْ يُرْجَى لِدَفْعِ المُلِمَّةِ
رفعتَ لِوَاءَ الحقِّ فوقَ رُبُوعِهَا فَضَمَّ إِليهِ كلَّ ذي وَطَنِيَّةِ
لَئِنْ تَكُ أَتْرَعْتَ القُلوبَ مَحبَّةً فَإِنكَ لم تُخْلَقْ لِغَيْرِ المحبَّةِ

أترعت: ملأت

فنَمْ آمِناً، وَفَّيْتَ قومَكَ قِسْطَهُمْ فَيَا طَالما نَامُوا، وأنتَ بِيَقْظَةِ
سيُبْقِي لكَ التاريخُ ذِكْراً مُخَلَّداً فقد كنتَ خيرَ الناسِ في خيرِ أُمَّةِ
عليكَ مِنَ الرحمنِ ألفُ تَحِيَّةٍ ومِنْ أرضِ مِصْرٍ ألفُ ألفِ تَحِيَّةِ

٩ أهلاً بالدستور

إلى حيثُ ألقتْ، يا زَمانَ المَظالمِ ولا عُدْتَ، يا عهدَ الشَّقَا المُتَقادِمِ

إلى حيث ألقت (إلى الجحيم) يا زمن الظلم والشقاء المتقادم (الموجود منذ زمن طويل). وتعبير «لدى حيث ألقت رحلها أم قشعم» من معلقة زهير، وقد فسره لسان العرب خمسة تفسيرات، وكلها لا ينطبق هنا. على أن جيلاً بعد جيل من العرب استخدم التعبير بمعنى «إلى جهنم الحمراء» وشايعهم إيليا

صَحِبْناكَ، لا خَوْفاً، ثلاثينَ حِجَّةً، ولكنَّها الدنيا، وضعفُ العَزَائمِ
فلا العلمُ مَرْمُوقٌ، ولا الحقُّ نافذٌ ولا حُرْمَةٌ تُرْعَى لِغَيرِ الدَّراهمِ
ويا أيها الدستورُ! أهلاً ومرحباً على الطَّائرِ الميْمُونِ، يا خيرَ قادِمِ

أقر الدستور في إستانبول عام ١٩٠٨، فقيد يدي السلطان عبد الحميد. وكان إيليا بمصر، وكانت تابعة بعض التبعية للدولة العثمانية

أَهَبْتَ فَفَرَّ الظُّلْمُ بِالأرضِ هَارِباً ونَكَّسَ خِزْيَاً رأسَهُ كلُّ ظالمِ

أهبت: دَعَوْتَ صارخاً

وفاضَتْ على ثَغْرِ الحزينِ ابتسامةٌ تُخَبِّرُ أنَّ الحزنَ ليس بِدَائمِ

١٠ عبد الحميد نم

ضيفَ سَالُونِيكَ! مَا لكَ في سِجْنِها ضَيْفٌ سِوَى السَّأَمِ

ضيف سالونيك: السلطان المخلوع عبد الحميد الثاني؛ فقد عزل ١٩٠٩ بعد انقلابه على الدستور الذي كان أقره في السنة الماضية، ونفي إلى سالونيكي باليونان، وكانت تحت حكم العثمانيين

ذاكَ ضَيْفٌ غيرُ مُحْتَشِمِ إنْ تُحَاوِلْ طَرْدَهُ يُقِمِ
جُرْتَ يا عبدَ الحميدِ بِنا غيرَ أنَّ الجَوْرَ لم يَدُمِ
كنتَ كالأيامِ، ما قَصَدَتْ بالرَّزَايا غيرَ ذي شَمَمِ

كنت مثل الأيام (الزمن) لا توجه الرزايا (المصائب) إلا لصاحب الشمم (العزة)

كنتَ مَسْلُوبَ الكَرى حَذَراً ولَقَدْ أُعْطِيتَهُ، فَنَمِ

كان عبد الحميد موسوساً دائم الخوف من الاغتيال، ومسلوب الكري، أي النوم، فالآن أعطي ما شاء من نوم

وَدَعِ الدنيا، وبَهْجَتَها ما أَرَى الحسناءَ لِلْهَرِمِ

١١ الراطنون الجهلة

يا أيها الشرقُ التعيسُ! انظرْ إلى الـ ـقومِ الذينَ شَدَدْتَ أَزْرَكَ فيهِمُ
ورَجَوْتَ ما يَرْجُوهُ كلُّ أَبٍ لَدَى أَبنائِهِ، إنَّ العقوقَ مُذَمَّمُ
ولَطَالما شِدْتَ القصورَ مِنَ المنَى خابَ الرَّجاءُ وساءَ ما تَتَوَهَّمُ
أَلْهَتْهُمُ الدنيا فهذا بِالطِّلا صَبٌّ، وهذا بِالحِسَانِ مُتَيَّمُ

الطلا: الخمر، صب: محب

فَتَنَتْهُمُ لغةُ الأعاجمِ، إنما ... لغةُ الأعاجمِ مِنْهُمُ تَتَبَرَّمُ
أمسى الذي تُهْدَى إليهِ لآلِئٌ ... وكأنما هو بِالحِجَارَةِ يُرْجَمُ
لا تَعْذِلِ الشعراءَ إنْ بَخِلُوا بِهِ ... إنَّ القريضَ على الغَبِيِّ مُحَرَّمُ
بِتْنَا، وبَاتَ الشرقُ يمشِي القَهْقَرَى، ... مَعْ ذاكَ نَحْسَبُ أنَّنا نَتَقَدَّمُ

١٢ العاشقة

جَنَحَتْ ذُكَاءُ إلى الغُرُوبِ، كأنما ... تَبْغي رُقَاداً، أو تُرِيدُ مَقِيلا

ذكاء: الشمس، المقيل: نوم القيلولة ظهراً

وتناثرتْ قِطَعُ السحابِ كأنها الْـ ... ـجَيْشُ اللُّهامُ، إذا انْثَنَى مَفْلُولا

الجيش اللهام: الكبير الذي يلتهم كل شيء، مفلولاً: منهزماً

قد باتَ كلُّ مُسَهَّدٍ طَوْعَ الرُّقا ... دِ، وَكُلُّ جَفْنٍ بِالكَرَى مَكْحُولا
إلَّا مُهَفْهَفَةً بِهَا نَزَلَ الهَوَى ... ضَيْفاً، ولَكِنْ لا يُرِيدُ رَحيلا

مهفهفة: امرأة رشيقة

ماءُ الحَيَاءِ يَجُولُ في وَجَنَاتِها ... فَكَأَنَّ في تِلْكَ الكُؤوسِ شَمُولا

شمول: خمر

والخَدُّ أَبْهَجُ ما يَكُونُ مُوَرَّداً ... والطَّرْفُ أَفْتَنُ مَا يَكُونُ كَحِيلا

الطرف: العين

نَظَرَتْ؛ ورُبَّ مَنِيَّةٍ مِنْ نَظْرَةٍ ... قد كانَ عنها رَبُّهَا مَشْغُولا

نظرت تلك الفتاة، ورُبَّ منية (ميتة) بالعشق كان رب النظرة (أي صاحبها) مشغولاً عما تحمله من عشق قاتل.

فإذا عشِقْتَ فلا تَلُمْ أحَداً سِوَى ... عَيْنَيْكَ، إنَّ مِنَ العيونِ قَتُولا
وإذا تَمَلَّكَتِ الصبابةُ في امْرِئٍ ... لم يُجْدِ عَذْلُ العاذِلِينَ فَتِيلا

١٣ السرور يُختلق

أمْسَتْ ثِيابِي، وكلُّها خِرَقُ ... تُشْبِهُ رَوْضاً أَلْوانُهُ فِرَقُ

ألوانه فرق: ألوانه متفرقة متعددة

مِـنْ أَزْرَقٍ كـالـسـمـاءِ، جَـاوَرَهُ   أَحْـمَـرُ قَـانٍ كـأَنَّـهُ الـشَّـفَـقُ
كـأنَّ قـوسَ الـسـحـابِ بـاتَ عَـلـى   جِـسْـمـي رداءً، ومَـا أنـا الأُفُـقُ

قوس السحاب: قوس قزح

هـذا هُـوَ الـكـرْنَـفَالُ، فـاسْـتَـبِـقُـوا   إلـيـهِ، فَـهْـوَ الـسُّـرورُ يُـخْـتَـلَـقُ

اخترت القصيدة لعبارة: «فهو السرور يختلق». خالجني مثل هذا الشعور في كرنفال في ألمانيا. انفجر الناس بالفرح انفجاراً.. راحوا يختلقونه اختلاقاً؛ وكانوا أمسِ جادِّين عابسين، وسيكونون في الغد كذلك. الفرح عندهم له مواسم، وله حساب دقيق

١٤ الناس مع الواقف

تـأمَّـلَ فـي أمـسِـهِ الـدَّابِـرِ   فـكـادَ يُـجَـنُّ مِـنَ الـحَـاضِـرِ

الدابر: المنصرم

أضـاعَ الـغِـنى، وأضـاعَ الـصِّـحابَ   وَرُبَّ مـريـضٍ بِـلا زائـرِ
ويـا طَـالـمـا أَحْـدَقُـوا بـالـفـتـى   كَـمَـا تُـحْـدِقُ الـجُـنْـدُ بِـالـظَّـافِـرِ

أَحْدقوا: أحاطوا

فَـلَـمَّـا انـقضَـى مـجـدُهُ، أَعْـرَضُـوا   ومـا الـنـاسُ إلَّا مَـعَ الـقـادِرِ
أشـدُّ مِـنَ الـدهـرِ مَـكْـراً بَـنُـوهُ   فَـوَيْـلٌ لِـمَـنْ لـيـسَ بِـالـمـاكِـرِ
قَـضَـى لـيـلَـهُ سـاهِـيـاً سـاهِـراً   إلـى كـوكـبٍ مـثـلِـهِ سـاهـرِ
بَـكَـى، ثـم صـاحَ: أحـتَّـى الـنُّـجـومُ   تَـصُـدُّ عَـنِ الـرَّجُـلِ الـعـاثِـرِ

العاثر: المتعثر الفاشل

وأغْـمَـدَ فـي صـدرِهِ مُـدْيَـةً   أشـدَّ مَـضـاءً مِـنَ الـبـاتِـرِ

مدية: سكين، الباتر: السيف

١٥ الإرهاب الفكري

قـالـتْ: سَـكَـتَّ، ومَـا سَـكَـتَّ سُـدَى   أَعْـيَـا الـكـلامُ عـلـيـكَ، أم نَـفِـدَا؟

سألته: أسَكتَّ عجزاً عن الكلام؟

مـا خَـانَـنـي فِـكـري، ولا قَـلَـمـي   لـكـنْ، رأيـتُ الـشِّـعـرَ قـد كَـسَـدَا

يجيبها

كـان الـشـبـابُ، وكـان لـي أَمَـلٌ كـالـبحرِ عُـمـقاً، كـالـزمـانِ مَـدَى
وصَـحَـابَـةٌ مـثـلُ الـريـاضِ شَـذَىً وصَـوَاحِـبٌ كَـوُرودِهَـا عَـدَدَا
لـكـنـنـي لـمَّـا مَـدَدْتُ يَـدي وأَدَرْتُ طَـرْفـي. . لـم أَجِـدْ أَحَـدا
وَقْـعُ الـخُـطُـوبِ عَـلَـيَّ أَخْـرَسَـنـي وكـذا الـعـواصـفُ، تُـسْكِـتُ الـغَـرِدَا

الغرد: المغرد

قـوْمـي، وقـد أَطْـرَبْـتُـهُـمْ زَمَـنـاً، سـاقُـوا إلـيَّ الـحُـزْنَ والـكَـمَـدَا
هُـمْ هَـدَّدونـيَ حـيـنَ صِـحْـتُ بِـهِـمْ صَـيْـحَـاتـيَ الـشَّـعْـواءَ مُـنْـتَـقِـدَا
وسـمـعـتُ صَـائـحَـهُـمْ يـقـولُ لَـهُـمْ: هَـيَّـا اقـتُـلُـوهُ حـيـثُـمَـا وُجِـدَا
أَرْتَـاعُ إنْ أبـصـرْتُ واحِـدَهُـمْ ذُعْـرَ الـشُّـوَيْـهَـةِ أبـصـرتْ أسـدَا
وإذا رقـدتُ، رقـدتُ مُـضـطـرِبَـاً وإذا صـحـوتُ، صـحـوتُ مُـرتَـعِـدَا
لـكـنـنـي لـمَّـا مَـدَدْتُ يـدي وأَدَرْتُ طَـرْفـي. . لـم أَجِـدْ أَحَـدَا

١٦ خير علاج

لـمـا سَـكَـتُّ حَـسِـبْـتَ أَنَّـكَ نَـاجِ هَـيْـهَـاتَ! إنـي كـالـمَـنُـونِ أُفَـاجِـي

أفاجي: أفاجئ

تَـالـلـهِ تَـطْـمَـعُ بِـالـسَّـلامَـةِ بَـعْـدَمـا ألـقـاكَ جـهـلُـكَ فـي يـدِ الأَمـواجِ
إنِّـي أنـا الأسـدُ الـهَـصُـورُ بَـسَـالَـةً وَيْـلٌ لِـقَـوْمٍ حـاوَلُـوا إخْـرَاجـي
حاولـتَ أنْ تَـهْـتَـاجَنـي عنْ مَرْبِضـي لِتَـنَـالَ ذِكْـراً، خِـبْـتَ يـا ذا الـرَّاجـي
عـارٌ إذا أَنْـشَـبْـتُ فـيـكَ مَـخَـالـبـي إذْ لـيـسَ مِـنْ خُـلُـقـي افـتـراسُ نِـعَـاجِ
والـشِّـعْـرُ تـاجٌ لـوْ عَـلِـمْـتَ، ولـم تَـكُـنْ مِـمَّـنْ يَـلِـيـقُ بِـحَـمْـلِ هـذا الـتَّـاجِ
خُـذْهَـا مُـثَـقَّـفَـةً، إذا وَقَـعَـتْ عَـلـى جَـبَـلٍ لأُزْعِـجَ أَيَّـمَـا إزْعَـاجِ

خذها مثقفة: خذها قصيدة مبريَّة مقومة (مثل الرمح المثقف)

أنـا خـيـرُ مَـنْ قـالَ الـقَـوافـيَ مَـادِحَـاً أنـا خـيـرُ مَـنْ قـالَ الـقـوافـيَ هَـاجـي
قـد كـنـتُ أَزهَـدُ فـي الـهِـجَـا لـوْ لـم يَـكُـنْ لَـكَ، يـا مَـريـضَ الـعُـجْـبِ، خـيـرَ عِـلاجِ

العجب: التكبر

١٧ أنا وصاحبي

إنِّـي إذا نَـزلَ الـبَـلاءُ بِـصـاحـبـي   دافعتُ عنهُ بِنَاجِذِي وبِمِخْلَبِي

النَّاجِذ: الضرس

وشَدَدْتُ ساعِدَهُ الضعيفَ بِساعِدِي   وسَتَرْتُ مَنْكِبَهُ العَرِيَّ بِمَنْكِبي

وأرى مَـسـاوِئَـهُ كـأنِّـيَ لا أَرَى   وأَرَى مـحـاسِـنَـه، وإن لـم تُـكـتَـبِ

١٨ غصن وحطبة

نظمها بلسان فتاة أرغمها ذووها على الاقتران برجل طاعن في السن:

لـيَ بَـعْـلٌ ظـنَّـهُ الـنـاسُ أبـي   صَـدِّقـونـي إنَّـهُ.. غَـيْـرُ أَبـي

أبي الأولى: أبي، أَبِي الثانية: من الإباء والعزة

وأنـا مـا زلـتُ فـي شَـرْخِ الـصِّـبَـا   فـلـمـاذا فَـرَّطَ الأَهْـلـونَ بـي

شرخ الصبا: أول الشباب

لـيتَ ما بيـنـي وبـيـنَ الـنوم مِـنْ   فُـرْقَـةٍ بـيـنـي وبـيـنَ الأَشْـيَـبِ

يَـخْـضِـبُ الـشَّـعْـرَ، ولـكـنْ عَـبَـثاً   لـيـسَ تَـخْـفَـى لُـغَـةُ الـمُـسْـتَـعْـرِبِ

قُـلْ لأهـلِ الأرضِ: لا تَـخْـشُـوُا   الـرَّدَى إنـه مُـشْـتَـغِـلٌ فـي طَـلـبـي

إنـمـا الـغُـصْـنُ إذا هَـبَّ الـهـوا   مـالَ لِـلأغْـصـانِ، لا لِـلـحَـطَـبِ

١٩ كذابات.. غدارات

إني بَلَوْتُ الغانياتِ، فلم أجدْ   فِيهِنَّ، قَطُّ، مَليحةً لا تَكْذِبُ

بلوت: اختبرت

وخَبِرْتُهُنَّ، فما لِبِكْرٍ حُرْمَةٌ   تُرْعَى، وأَغْدَرُ مَنْ رأيتُ الثَّيِّبُ

الثيب: التي سبق لها زواج

لا يَخْدَعنَّكَ ضعفُهُنَّ، فإنما   بالضعفِ أَهْلَكَتِ الهِزَبْرَ الأرنبُ

فالأرنب جعلته يغرق في البركة عندما رأى فيها خياله في القصة المشهورة

٢٠ إني راحل

أَزِفَ الرحيلُ، وحانَ أنْ نَتَفَرَّقَا   فإلى اللِّقَا، يا صَاحِبَيَّ إلى اللِّقَا

ولقد ركبتُ البحرَ يَزْأَرُ هَائجاً ... كالليثِ فارَقَ شِبْلَهُ، بلْ أَحْنَقَا

تتنازَعُ الأمواجُ فيهِ بَعْضَهَا ... بَعْضاً، على جَهْلٍ تَنَازُعَنَا البَقَا

تتنازع الأمواج مثلما يتنازع البشر في صراع البقاء

بَيْنَا يَرَاهَا الطَّرْفُ سُوراً قَائماً ... فإذا بِهَا حَالَتْ فَصَارَتْ خَنْدَقَا

«نُويُرْكُ»! يا بِنْتَ البُخَارِ، بِنَا اقْصِدِي ... فَلَعَلَّنَا بالغربِ نَنْسَى المَشْرِقَا

نويرك: نيويورك اسم السفينة التي أخذته إلى أميركا، والباخرة هي بنت البخار الذي تسير به، فإن شئت أن تجعلها بنت البحار بالحاء فلا بأس

وَطَنٌ أَرَدْنَاهُ على حُبِّ العُلَى ... فَأَبَى سِوَى أَنْ يَسْتَكِينَ إلى الشَّقَا

كالعَبْدِ يَخْشَى، بعدَمَا أَفْنَى الصِّبَا ... يَلْهُو به ساداتُهُ، أَنْ يُعْتَقَا

أَوَكُلَّمَا جاءَ الزَّمَانُ بِمُصْلِحٍ ... في أَهْلِهِ قالوا: طَغَى وتَزَنْدَقَا؟

فكأنما لم يَكْفِهِ ما قد جَنَوْا ... وكأنَّما لم يَكْفِهِمْ أَنْ أَخْفَقَا

مَشَتِ الجَهَالَةُ فيهِ تَسْحَبُ ذيلَها ... تِيهاً، ورَاحَ العلمُ يَمْشِي مُطْرِقَا

فيه: أي في الوطن، تيهاً: تكبُّراً

شَعْبٌ، كَما شاءَ التَّخَاذُلُ والهَوَى، ... مُتَفَرِّقٌ، ويَكادُ أنْ يَتَمَزَّقَا

لم يعتقِدْ بِالعِلْمِ، وَهْوَ حَقَائِقٌ ... لكنَّهُ اعْتَقَدَ التَّمائِمَ والرُّقَى

التمائم: الخرز الذي يوضع في العنق لدرء الحسد، والرقى الحجُب التي يكتبونها للغرض نفسه

وحكومةٌ، ما إنْ تُزَحْزِحُ أَحْمَقاً ... عَنْ رأسِها، حَتَّى تُوَلِّيَ أَحْمَقَا

بغدادُ في خَطَرٍ، ومِصْرُ رَهِينَةٌ ... وغَداً تَنَالُ يدُ المطَامِعِ جِلَّقَا

جلق: دمشق

قيل، اعشَقُوها، قلتُ: لم يَبْقَ لَنَا ... مَعَهَا قلوبٌ، كَيْ نُحِبَّ ونَعْشَقَا

نقد طه حسين إيليا ابو ماضي على مثل هذه الـ«لم يبقَ» التي يقتضي الوزن قراءتها «لم يبقى». ولو قال إيليا (قيل اعشقوها، قلت: ما بقيت لنا) لوفر على نفسه نقدة من نقدات طه الكثيرات المؤلمات له؟

إنْ لم تَكُنْ ذاتُ البَنِينِ شَفِيقَةً ... هَيْهَاتَ تَلْقَى، مِنْ بَنِيها، مُشْفِقَا

شفيق ومشفق: حنون

٢١ سكرانة بشبابها

هُوَ البخلُ طَبعٌ في الرجالِ مُذَمَّمٌ ولكنه في الغِيدِ شيءٌ مُحَبَّبُ

كَلِفْتُ بِها بيضاءَ سَكْرَى من الصِّبَا وما شربتْ خمراً، ولا هِيَ تَشْربُ

كلفت بها: أغرمت بها

ولو أنَّ رُهْبانَ الصَّوامِعِ أبْصَرُوا مَلاحَتَها، واللَّهِ لم يَتَرَهَّبُوا

٢٢ إني لأصحبه على علاته

ليَ صاحبٌ دخلَ الغرورُ فؤادَهُ إن الغرورَ، أُخَيَّ، من أعدائي

أهوى اللقاءَ بِهِ، ويَهوى ضِدَّه فكأنَّما الموتُ الزُّؤامُ لِقَائي

الموت الزؤام: الموت السريع

إنـي لأَصْحَبُهُ على عِلَّاتِهِ والبدرُ مِنْ قِدَمٍ أخو الظَّلماءِ

فاخْفِضْ جناحَكَ للأنامِ تَفُزْ بِهِمْ إن التواضعَ شيمةُ الحُكماءِ

لو أُعْجِبَ القمرُ المنيرُ بنفسِهِ لرَأَيْتَهُ يَهوي إلى الغبراءِ

الغبراء: الأرض. ما أقبح أن يضطر المرء إلى مجاملة عشرات الناس لأنه لا يريد أن يكون له أعداء. لم يكن المتنبي كذلك أبداً، ولا ابن الرومي. وكثير جداً من الشعراء، ومن عامة الناس، يملكون جرأة خلق الأعداء واحتمالهم. كثير من السادة والزعماء جريئون على الأعداء، وكثير من السادة ومن الزعماء مهروا أيضاً في السير بين قطرات المطر وحرصوا على عدم خلق الأعداء، أو الاكتفاء بالحد الأدنى منهم. فلا يفتخرنَّ أحد بقلة، أو بكثرة أعدائه. على أنني وجدت الغرور أمراً كريهاً، ومعبراً عن نقص يجده المرء في نفسه، كما قال القديم. وأكثر ما وجدت الغرور مضحكاً وكريهاً في مذيعي التلفزيون الذين قلت بضاعتهم من العقل والثقافة، فهم مجرد أبواق. ويشعرون بخسة في نفوسهم لقلة ما عندهم من الفهم والعلم والاطلاع فيزدادون تيهاً. وأما المذيع المتمكن فتراه يزداد تواضعاً كلما ازداد شهرة

٢٣ النجدة الروسية للأرمن

أَعِدْ حديثَكَ عِندي أيها الرجلُ وقلْ كما قالتِ الأنباءُ والرُّسُلُ

الرسل: المرسَلون لجمع الأخبار أو لتبليغها

فاجمعْ رواياتِهِمْ، واملأْ بِهَا أُذُنِي حتى تَراني كَأَنِّي شارِبٌ ثَمِلُ

يا ابنَ الملُوكِ الأُلى قد شادَ واحِدُهُمْ ... ما لم تُشَيِّدْهُ أمْلاكٌ، ولا دُوَلُ

أملاك: ملوك، يخاطب القائد الروسي الدوق الأكبر نقولا الذي هزم الترك عن مدينة أرضروم شرق تركيا في فبراير/شباط ١٩١٦

تَوَهَّمَ التُّرْكُ، لمَّا حانَ حَيْنُهُمُ، ... أنَّ الأُلَى وَتَرُوا آباءَهُمْ غَفَلُوا

توهم الأتراك لما حان حينهم (هلاكهم) أن الذين وتر (ظلم) الأتراك آباءهم قد نسوا الوتر (الثأر)

حتَّى طَلَعْتَ مِنَ القَوْقَازِ في لَجِبٍ ... تَضِيقُ عنهُ فِجَاجُ الأرضِ، والسُّبُلُ

لجب: ذو ضجيج، يقصد الجيش الكبير، فجاج: وديان، السبل: الطرق

بِكُلِّ أَرْوَعَ، ما في قلبِهِ خَوَرٌ ... عندَ الصِّدَامِ، ولا في زَنْدِهِ شَلَلُ

أروع: شجاع، خور: جبن

وكُلِّ مُنْجَرِدٍ، في سَرْجِهِ أسدٌ ... في كَفِّهِ خَذِمٌ، في حَدِّهِ الأَجَلُ

منجرد: حصان، في سرجه أسد: يركبه فارس شجاع، خذم: سيف

وكلِّ راعِفَةٍ، بِالموْتِ هادِرةٍ ... كأنَّها الشاعرُ المَطبوعُ يَرْتَجِلُ

الراعفة: الرمح يقطر دماً، وبما أنه سيجعلها في البيت التالي بندقية فقد صار الرعف بعيداً عنها

سوداءُ تقذِفُ مِنْ فوُهَاتِها حُمَماً ... هِيَ الصَّواعِقُ، إلَّا أنها شُعَلُ

فأَسْلَمُوا أَرْضَرُومَاً، لا طَوَاعِيَةً ... لو كانَ في وُسْعِهِمْ إمْسَاكُهَا بَخِلُوا

وفَرَّ قائدُهُمْ، لَمَّا عَرَضْتَ لَهُ ... كما يَفِرُّ، أمَامَ القَشْعَمِ، الحَجَلُ

القشعم: النسر، الحجل: من الطيور

لم يَقْصُرِ الرُّمْحُ عنْ إدراكِ مُهْجَتِهِ ... لكنْ حَمَى صدْرَهُ، وقعَ الظُّبَا، الكَفَلُ

لم يكن الرمح قصيراً عن الوصول إلى قلب قائدهم، ولكنه هرب فحمى كفلُه (مؤخرته) صدَره من وقع الظبا (السيوف)، أي أنه تلقى الضربات بمؤخرته

تعلَّمَ الرَّكضَ، حتى ليسَ تَلْحَقُهُ ... هُوجُ الرِّيَاحِ، ولا خيلٌ، ولا إبِلُ

هوج الرياح: الرياح الهوجاء الشديدة

وباتَ أنورُ في يَلْدِيزَ مُخْتَبِئاً ... لأُمِّهِ وأَبِيهِ الثُّكْلُ والهَبَلُ

أنور باشا: وزير الحربية العثماني، يلديز: قصر يلدِز في إستانبول، الثكل والهبل: فقد الولد

في وَجْهِهِ صُفْرَةٌ حَارَ الطبيبُ بِهَا ... ما يَصْنَعُ الطبُّ فِيمَنْ داؤُهُ الخَبَلُ؟

لم يبقَ فيهِ دَمٌ كَيمَا يُجَمِّعَهُ ... في وجهِهِ، عندَ ذِكْرِ الخَيْبَةِ، الخَجَلُ

مصكوك صكاً حلواً هذا البيت، والمعنى جديد

يَـزِيـدُ وَحْـشَـتَـهُ إعـراضُ عُـوَّدِهِ ويَنْكَأُ الجُرْحَ في أحشائِهِ العَذَلُ

عوده: زائروه وهو مريض، ينكأ الجرح: يفتحه، العَذَل: اللوم

إذا تَمَثَّلَ جيشَ التُّرْكِ مُنْدَحِراً ضاقتْ بِهِ، مِثْلَمَا ضاقتْ بِذَا، الحِيَلُ

عندما يتذكر هزيمة جيش الترك تضيق حيلته، أي لا يدري ما يصنع، مثلما ضاقت حيلة الجيش

يا كاشفَ الضُّرِّ عَمَّنْ طالَ صبْرُهُمُ على النوائبِ، لا مَرَّتْ بِكَ العِلَلُ

أيها الأمير الروسي، أدعو ألا تصيبك الأسقام

أطْلَقْتَهُمْ مِنْ قُيُود الظُّلْمِ فانْطَلقُوا وكلُّهُمْ ألسُنٌ تَدعُو وتَبْتَهِلُ

لو كان يُنْشِرُ مَيْتاً غَيْرُ بارئِهِ أنْشَرْتَ، بعدَ الرَّدَى، أرواحَ مَنْ قُتِلُوا

قد جاءَ مَنْ يَمْنَعُ الضَّعْفَى ويُرْغِمُكُمْ أن تَحْمِلُوا عَنْهُمُ النِّيرَ الذي حَمَلُوا

يمنع: يحمي

أَمَّنْتَ أرْمِينِيا مِمَّا تُحَاذِرُهُ فلن تَعِيثَ بِهَا الأوغَادُ والسِّفَلُ

تعيث: تخرِّب، وكان للترك قتل ذريع في الأرمن في سنة ١٩١٥

مزَّقْتَ جمعَهُمُ تمزيقَ مُقْتَدِرٍ على المهَنَّدِ، بعدَ اللَّهِ، يَتَّكِلُ

أي أنه يتوكل على السيف، بعد توكله على الله

ألبَسْتَهُمْ ثوبَ عَارٍ لا تُطَهِّرُهُ نارُ الجَحِيمِ، ولو في حَرِّها اغْتَسَلُوا

جَاوِيدُ فوق فِرَاشِ الذُّلِّ مُضْطَجِعٌ وطَلْعتٌ بِرِدَاءِ الخوفِ مُشْتَمِلُ

جاويد باشا: وزير من جماعة الاتحاد والترقي، طلعت باشا: الصدر الأعظم، رئيس وزراء

لا تعرفُ الأمْنَ أرواحٌ تُرَوِّعُهَا ثلاثةٌ: أنتَ والنيرانُ والأَسَلُ؟

الأسل: الرماح

أَجْرَيْتَ خوفَ المنايَا في عُرُوقِهِمُ فلن يعيشَ لهُمْ نَسْلٌ إذا نَسَلُوا

قد ماتَ كهْلُهُمُ مِنْ قبلِ مِيتَتِهِ وشاخَ ناشِئُهُمْ مِنْ قبلِ يَكْتَهِلُ

قصيدة حلوة الرنين عتيقة الطراز، تطير بجناحي أبي الطيب وأبي تمام، ولكن أصالتها مستمدة من شعور أبو ماضي العميق بالحدث، فهو متالم للأرمن ومقتلتهم، وحاقد على الأتراك، ولا سيما بعد اتباع جماعة الاتحاد والترقي سياسة التتريك، وتشددهم في معاملة العرب أثناء الحرب العالمية الأولى

٢٤ كلنا قابيل

استحر القتل في سنة ١٩١٦ في أتون الحرب العالمية الأولى:

كَمْ، قبلَ هذا الجيلِ، وَلَّى جيلُ ... هيهاتَ، ليسَ إلى البَقَاءِ سبيلُ
ضَحِكَ الشبابُ مِنَ الكُهُولِ فأَغْرَقوا، ... واستَيْقَظُوا؛ فإذا الشبابُ كُهُولُ
نَأْتي، ونَمْضي، والزمانُ مخلَّدٌ ... الصبحُ صبحٌ، والأصيلُ أَصيلُ
يـا أرضَ أورُبَّـا! ويـا أبنـاءَهَـا! ... في عُنُقِ مَنْ هذا الدمُ المَطْلُولُ؟

المطلول: المسفوك هدراً

مَـزَّقْتُـمْ أقْسَـامَـكُـمْ وعُـهـودَكُـمْ ... ولـقـد تـكـونُ كـأنَّـهَـا الـتَّـنْـزيـلُ
قابيلُ، يا جَدَّ الورَى، نَمْ هانِئاً ... كُلُّ امْرِئٍ في ثوبِهِ قَابيلُ

٢٥ ضد الحكم التركي

رجالَ التُّرْكِ! ما نَبْغي انتقاضاً ... لَعَمْرُكُمْ! ولا نَبْغي انتقامَا
ولكِنَّا نُطالِبُكُمْ بحقٍّ ... ونَكْرَهُ مَنْ يريدُ لنا اهْتِضَامَا

اهتضام: ظلم

حَمَلْنَا نِيرَ ظُلْمِكُمْ قُروناً ... فَأَبْلاهَا، وأَبْلَانَا، ودَامَا

ظلمكم أبلى قروناً من الزمن، وأبلانا، واستمرّ

رَعَيْتُمْ أَرْضَنا، فَتَرَكْتُمُوهَا ... إذا وَقَعَ الجرادُ رَعَى الرُّغَامَا

الرغام: التراب

خَفِ التُّرْكِيَّ يَحْلِفُ بِالمثاني ... وخَفْهُ كُلَّمَا صلَّى وصَامَا
وقالوا: نَحْنُ لِلإسْلَامِ سورٌ ... وإنَّ بِنَا الخلافَةَ والإمَاما
فَهَلْ في دينِ أحمدَ أنْ يَجُورُوا ... وهلْ في دينِ أحمدَ أنْ نُضامَا
سَنُوقِدُهَا تُعِيرُ الشمسَ نَاراً ... ويُعْيي أَمْرُها الجيشَ اللُّهَامَا

الجيش اللهام: الجيش الكبير

وعِلْمُ المرءِ أنَّ الموتَ آتٍ ... يُهَوِّنُ عندَهُ الموتَ الزُّؤَامَا

الموت الزؤام: السريع

٢٦ عرب وأتراك

أرضَ آبائِنا! عليكِ سلامٌ وسَقى اللّهُ أنفُسَ الآباءِ
ما هَجَرْناكِ إذْ هجرناكِ طَوْعاً لا تَظّني العُقُوقَ في الأبْناءِ
واغترابُ القَوِيِّ عِزٌّ وفخرٌ واغترابُ الضعيفِ بَدْءُ الفَناءِ
نحنُ، في دولةٍ تَلاشَتْ قُوَاها، كالنُّضَارِ المَدفونِ في الغَبْراءِ

النضار: الذهب، الغبراء: الأرض

أوْ كَمِثْلِ الجنينِ، ماتَتْ بِهِ الحا ملُ حَيّاً، يَجُولُ في الأحشاءِ
عَجَباً كيف أصبحَ الأصلُ فَرعاً والضُّحى كيفَ حلَّ في الظلماءِ

الأصل: يعني العرب، فقد أصبحوا الآن فرعاً وصار الأتراك الحاكمون هم الأصل

ما كَفَتْنَا مَظالم التُّرْكِ حتى زحفوا كالجرادِ أو كالوباءِ
سوف يَدْرونَ أنَّما العُرْبُ قَوْمٌ لا يُبالونَ غَيْرَ رَبِّ السماءِ
يومَ لا تُنْبِتُ السهولُ سوى النَّا سِ، وغيرَ الأسِنَّةِ السَّمراءِ

أدب وتاريخ: الأدب أولاً: يرى إيليا أن العرب هم الأصل، وأن الدولة العثمانية ظلمتهم بجعلهم العنصر الثاني فيها. يرى العرب ذهباً مدفوناً في بطن الدولة العثمانية، أو ـ وهذا التشبيه الأجمل ـ جنيناً يتحرك في بطن أم ميتة. ويتوعد الأتراك بحرب شعواء عليهم بينما هم منشغلون في الحرب العالمية الأولى وقد أفقروا بلاد الشام وأخذوا خيراتها ورجالها للمجهود الحربي، وحكموها بالحديد والنار. وسيأتي يوم تنبت الأرض فيه ناساً وسلاحاً يحرر بلاد العرب من نير الأتراك. هذا التشبيه جميل أيضاً. الواقع أن العرب ثاروا على الأتراك والأتراك منهزمون في الحرب الأولى، وثاروا بسلاح أوروبي وبقرار أوروبي، فظلوا تابعين للمستعمر.

التاريخ: في أواخر أيام الدولة العثمانية كان العرب مرتاحي البال؛ نعم، مرتاحي البال. رغم مظالم جمال باشا السفاح، ورغم التجنيد الإجباري. كانوا مرتاحي البال لأنهم كانوا يملكون سبباً خارجياً كبيراً لتخلفهم وانحسار مجدهم السياسي والثقافي: ذلك السبب هو أن دولة الأتراك تحكمهم. مثلهم في ذلك مثل موظف قليل المهارات، كسول، له مدير حمار. فكلما ليم على تقصيره قال انظروا إلى مديري. فيرون المدير أحمر من الموظف فيسكتون، ويحس الموظف براحة بال. ولو أطيح بذلك المدير فالموظف سينكشف. نعم، كان العرب والدولة العثمانية كشهاب الدين وأخيه.

كان العرب المسيحيون في بلاد الشام يكرهون الحكم العثماني أكثر مما يكرهه العرب المسلمون، فإستانبول تعطل عليهم الانتفاع بعلاقاتهم بدول أوروبا، هذه العلاقات التي فرضتها قناصل أوروبا فرضاً على الدولة العثمانية الهرمة. كان المسيحيون العرب بوابة لأوروبا لدخول المنطقة دخولاً استعمارياً. في تلك الحقبة

كان المسيحيون عروبيين جداً، فهم عرب قبل كل شيء، وهذا الانتماء العروبي يصب في مسعاهم لإزالة الكابوس العثماني. كان منهم من اندفع وراء الحلم، وأراد أن يبني دولة عربية، وكان منهم من أراد التخلص من الحكم العثماني بأي ثمن، ثم لا يبالي إن تحققت مصالحه عن طريق ارتباط قوي بأوروبا أو عن طريق الاستقلال الحقيقي.
وأنا أضع إيليا أبو ماضي في الخانة الثانية. إن العلاقة بين مسيحيي بلاد الشام وأوروبا علاقة مشحونة بالتعقيد، وهي بحاجة إلى كثير من الدرس والفحص، ولا عذر لباحث يقدم على مثل هذه الدراسة وهو منفوخ بالغرض (بالإيديولوجيا) كالطبل. قد كان للمسلمين مصالح مع إستانبول، وكان لهم مصالح مع أوروبا، المحتل الجديد.
وكل ما يميز المسيحيين أنهم مالوا إلى أوروبا أكثر لأن الدولة العثمانية لم تكن تعطيهم امتيازات، بينما الوحش الأوروبي المقبل كان يعدهم بكثير منها، وكان قد بدأ بمنحهم الامتيازات قبل عقود من الحرب العالمية الأولى، حتى يكونوا بوابته إلى الشرق الأوسط. إيليا أبو ماضي لم يكن مفكراً سياسياً ولا مؤرخاً. وكان في تلك الفترة الفاصلة شاباً في أواسط العشرين، ومن مهجره المصري ثم الأميركي رأى الدنيا بعين العربي الذي أزعجته إستانبول عن وطنه، وراح يرحب بالغازي الأوروبي ترحيباً ساذجاً، لكنه ترحيب نابع من القلب، واقرأ القصيدة المقبلة..

٢٧ منقذ المسيح

أَلَنْبي! لَوْ طَبَعْنا الشمسَ يوماً   وقَلَّدْنَاكَها سَيْفاً صَفِيحَا

يريد أن يذيب الشمس ويطبع (يصك) منها سيفاً للجنرال ألنبي، الجنرال البريطاني الذي احتل القدس من العثمانيين

ورَصَّعناهُ بِالشُّهُبِ الدَّرارِي   لَما زِدْنَاكَ فَخْراً، أو مَدِيحَا

غَضِبْتَ على الهِلالِ، فَخَرَّ ذُعْراً   وَلُحْتَ لَهُ، فَحَاذَرَ أنْ يَلُوحَا

الهلال: شعار الدولة العثمانية

مَشَتْ بِكَ هِمَّةٌ فَوْقَ الثُّرَيَّا   فَزَلْزَلْتَ المَعَاقِلَ والصُّرُوحَا

مِنَ الوادِي، إلى صحراءِ سِينا   إلى أنْ زُرْتَ ذَيَّاكَ الضَّرِيحَا

الوادي: مصر، ذياك الضريحا: ذاك الضريح، أي (قبر المسيح) بكنيسة القيامة في القدس

فَكَانَ الجُنْدُ كُلُّهُمُ يَشُوعَاً   وكانتْ كُلُّ سُورِيَّا أرِيحَا

يشوع بن نون: القائد الذي أرسله موسى لحرب الجبارين، وقد هَدَم أسوار أريحا واحتلها

فإنْ يَكُنِ المسيحُ فَدَى البَرَايَا   فإنَّكَ أنتَ أنقذتَ المسيحَا

كان إيليا أبو ماضي قد انتقل في السنة الفائتة إلى نيويورك، وفي قصيدته هذه تأثر - بالإضافة إلى ما يكنه من مشاعر كراهية للترك - بما نشرته الصحف الأميركية، مثال ذلك مانشيت صحيفة «النيويورك هيرالد»: (البريطانيون ينقذون القدس بعد ٦٧٣ سنة

من الحكم الإسلامي). بل لقد كانت القدس تحت الحكم الإسلامي منذ عمر بن الخطاب، ولكن الصحيفة اعتبرت احتلال الصليبيين للقدس ـ وذبحهم سبعين ألفاً من المدنيين فيها ـ بدء التاريخ.

٢٨ الشاب المهموم وجارته

ما بالُ هذا الفتىَ في الدارِ مُعتزِلاً كـمـا تَـوَحَّـدَ نُـسَّـاكٌ ورُهْـبـانُ
يـمـرُّ بـالـقـربِ مِنَّـا، لا يـكـلِّـمُـنـا ولِـلـحـديـثِ مَجَالٌ، وَهْوَ مِلْسَانُ

ملسان: أبو لسان

وإنْ نُـكَـلِّـمْـهُ لا يَـفْـقَـهْ مَـقَـالَـتَـنـا إلَّا كـمـا يَـفْـقَـهُ الـتَّـسْـبـيـحَ سَـكْـرانُ
كـأنـمـا نِـيـطَـتِ الـدنـيـا بِـعَـاتِـقِـهِ كـأنـمـا كـلُّ عُـضْـوٍ فـيـهِ بُـركـانُ

كأنه موكَّل بشؤون الدنيا فهو يحملها على عاتقه (ظهره)

فلا ابتسامُ ذواتِ الغُنْجِ يطرِبُهُ ولا ابْنَةُ الحَانِ تُصْبِيهِ ولا الحَانُ

ابنة الحان: الخمرة، تصبيه: تستميله

أما لَهُ جِيرَةٌ في الأرضِ يَأْلَفُهُمْ؟ يا جَارَتِي، كانَ لي أهلٌ وجيرانُ
فَبَتَّتِ الحربُ ما بَيْني وبَيْنَهُمُ، كـمـا تَـقَـطَّـعُ أَمْـرَاسٌ وخِـيـطَـانُ

بتَّت: قطعت، تَقَطَّعُ: تتقطع، أمراس: حبال. ما كان أغناه عن هذه الخيطان، أفيُقطِّع المرء الخيطان بعد أن قطّع الحبال؟

فلا المغانِي التي أَشْتَاقُ رؤْيَتَها تلكَ المغانِي، ولا السكانُ سكانُ
ولـو يَـبُـثُّ بَـنُـو لُـبْـنَـانَ لـوعَـتَـهُـمْ لاهتزّتِ الأرضُ لـمَّا اهتزَّ لُبنانُ
قالتْ: شَكَوْتَ الذي بِالخلقِ كُلِّهِمُ ومـا كَـذَبْـتُـكَ إنَّ الـحـربَ طُوفانُ
وإنَّ قَـوْمـي طـيـورٌ غـيـرُ كـاسِـرةٍ سَطَتْ عليْها شَوَاهِينٌ وعِقْبانُ

الشواهين والعقبان: من الطيور الكواسر

لا تضحكوا، وبِأَرضِ الشامِ نائِحَةٌ ولا تـنـامُـوا، وفـي لـبـنـانَ سـهـرانُ

٢٩ تحية لمصر

أشْقَى البَرِيَّةِ نَفْساً، صَاحِبُ الهِمَمِ وأتعسُ الخلقِ حَظّاً، صاحبُ القَلَمِ
ويـلَ الـلَّـيـالـي! لـقـد قَـلَّـدْنَـنِـي ذَرِبَـاً أدنىَ إلى مُهْجَتي مِنْ مُهْجَةِ الخَصِمِ

ويل للزمن فقد قلدني (منحني) ذرباً (لساناً حاداً) ضرره أقرب إلى قلبي من قلب الخصم

ما حَدَّثَتْنِيَ نَفْسِي أنْ أُحَطِّمَهُ ... إلَّا خَشِيتُ على نَفْسِي مِنَ النَّدَمِ
يَأْبىَ الشَّقَاءُ، الذي يَدْعُونَهُ أَدَباً، ... أنْ يَضْحَكَ الطِّرْسُ إلَّا إنْ سَفَكْتُ دَمِي

الطرس: الورقة

أصبَحْتُ أنْحَلَ مِنْ طَيْفٍ، وأَحْيَرَ مِنْ ... ضَبٍّ، وأَسْهَرَ مِنْ رَاعٍ على غَنَمِ

قيل الضب (وهو من زواحف الصحراء) يفارق جحره ثم يحار ولا يهتدي إليه

ليس الوقوفُ على الأَطْلالِ مِنْ خُلُقِي ... ولا البكاءُ على ما فاتَ مِنْ شِيَمِي
لكنَّ مِصْراً، وما نَفْسِي بِنَاسِيَةٍ، ... مَلِيكَةُ الشرقِ ذاتُ النِّيلِ والهرمِ
صَرَفْتُ شَطْرَ الصِّبَا فيها، فَما خَشِيَتْ ... نَفْسِي العِثَارَ، ولا نَفْسِي مِنَ الوَصَمِ

الوصم: الإهانة

في فِتْيَةٍ كالنجومِ الزُّهْرِ أَوْجُهُهُمْ؛ ... ما فِيهِمُ غيرُ مَطْبُوعٍ على الكَرَمِ
جادَ الكِنانةَ عنِّي وَابِلٌ غَدِقٌ ... وإنْ يَكُ النِّيلُ يُغْنِيها عَنِ الدِّيَمِ

وابل غدق: مطر كثير، الديم: السحب

الشرقُ تاجٌ، ومِصْرٌ مِنْهُ دُرَّتُهُ ... والشرقُ جيشٌ، ومِصْرٌ حاملُ العَلَمِ
ما زِلْتُ، والدهرُ تنْبُو عِنْ يَدي يَدُهُ، ... حتى نَبَتْ ضِلَّةً عِنْ أَرْضِهَا قَدَمِي

ظللتُ والزمن تنبو (تنحرف) يده عن يدي (لا يواتيني السعد) حتى نبت ضلة (انحَرَفَتْ، ويا للضلال) قدمي عن مصر ففارقتها

أَصْبحتُ في مَعْشَرٍ تَقْذَى العيونُ بِهِمْ ... شَرٌّ مِنَ الدَّاءِ في الأحشاءِ والتُّخَمِ
مِنْ كلِّ فَظٍّ يُرِيكَ القِرْدَ، مُحْتَشِماً ... ويَضْحَكُ القِرْدُ مِنْهُ غيرَ مُحْتَشِمِ

يهجو أهل زمنه، فالواحد منهم فظ تراه محتشماً (متزناً) فكأنما يريك في شخصه صورة القرد، ويراه القرد فيضحك منه غير محتشم (دون أن يخجل)

مِنَ الأَعَارِبِ، لَكِنْ حينَ أُنْشِدُهُ ... جواهرَ الشِّعْرِ ألقاهُ مِنَ العَجَمِ
لا عَيْبَ في مَنْطِقِي، لكنْ بِهِ صَمَمٌ ... إنَّ الصَّوادِحَ خُرْسٌ عندَ ذي الصَّمَمِ

الصوادح: البلابل

٣٠ الإنسان يغزو الجو

ما أظنُّ النعيمَ فيه الذي في الـ ... ـأرضِ من بهجةٍ، ومن لألاءِ

النعيم: الجنة، اللألاء: الفرح التام

كلُّ ما في الوُجودِ للمرءِ عبدٌ وَهْوَ عبدُ الشَّهْواتِ والأهْوَاءِ
سادَ في الكونِ مِثْلَما سادَ فيهِ خالقُ الكونِ مبدعُ الأشياءِ
فَهْوَ في الماءِ سابحٌ، وعلى الغَبْـ ـراءِ مَاشٍ، وطائرٌ في الفضاءِ
وهْوَ بين النجومِ يَسْتَرِقُ السَّمْـ ـعَ، ولا يَتَّقي رُجُومَ السماءِ

رجوم السماء: الشهب الهاوية

مَشْهَدٌ رَوَّعَ الدَّراريِ، فَباتَتْ حَائِراتٍ في القُبَّةِ الزرقاءِ

الدراري: النجوم، القبة الزرقاء: السماء

نافراتٍ كأنها ظَبَياتٌ رَأَتِ القَانِصينَ في البيداءِ

٣١ بطل الشام

حَيِّ الشَّآمَ: مُهَنَّداً وكِتَابا والغُوطَةَ الخضراءَ والمحْرابا

المحراب: لعله يقصد الجامع الأموي

لَيْسَتْ قِبَاباً ما رأيتُ، وإنَّما عَزْمٌ تَمَرَّدَ، فاسْتَطالَ قِبَابا
بِأَبي وأُمِّي في العَرَاءِ مُوَسَّدٌ بَعَثَ الحياةَ مَطَامِعَاً ورِغَابَا
لما ثَوَى في مَيْسَلُونَ تَرَنَّحَتْ هَضَباتُهَا، وتَنَفَّسَتْ أَطْيَابَا

هذا يوسف العظمة شهيد ميسلون الذي وقف أمام الفرنسيين الغزاة

ما كانَ يُوسُفُ واحِداً، بلْ مَوْكِباً للنُّورِ، غَلْغَلَ في الشموسِ فَغَابَا

غلغل: تغلغل

هذا الذي اشتاقَ الكَرَى تحتَ الثَّرَى كيْ لا يَرَى في جِلَّقَ الأَغْرابَا

جلق: دمشق

٣٢ أرضٌ زجاجٌ وحذاءٌ زئبق

جاءَ الشتاءُ جِيئَةَ المفَاجِي

المفاجي: المفاجئ

وأَمْسَكَ الناسُ عنِ اللِّجَاجِ

اللجاج: الجدل

وانـقَـبَـضَ الـنـهـرُ عـن الـهِـيـاجِ
إذا أردتُ الـسَّـيْـرَ فـي مِـنْـهَـاجـي
منهاجي: طريقي

طـالَ عِـثَـارِي فِـيـهِ، وانْـزِلاجـي
كـأنَّـنـي أمـشـي عَـلَـى زُجَـاجِ
مُـحْـتَـذِيَـاً بِـالـزِّئْـبَـقِ الـرَّجْـرَاجِ
كـأنـنـي ألـبـس حـذاءً مـن زئـبـق
إنْ لَـجَّ هـذا الـقُـرُّ فـي إحْـراجـي
لج: ألح، القر: البرد

لأرْفَـعَـنَّ لِـلـسَّـمَـا احـتِـجَـاجـي

٣٣ عتب يؤول إلى انتقاد

وَرُبَّـتَ سَـاهـرٍ فـي بَـعْـلَـبَـكٍّ يُـشاطِـرُ جَـفْـنُـهُ الـنَّـجمَ الـسُّـهَـادَا
ربت: ربَّ، يتألم الشاعر لآلام أهله، فمنهم ساهر في بعلبك يشارك النجم السهر

يـزيـدُ الـلـيـلُ كـربـتَـهُ اشـتـداداً وفَـرْطُ الـهَـمِّ لـيـلـتَـهُ سَـوادَا
إذا مَـالَ الـنُّـعـاسُ بِـأخْـدَعَـيْـهِ ثَـنَـى الـذُّعْـرُ الـكَـرَى عَـنْـهُ، وذَادَا
الأخدعان: عِرقان في جانبي العنق، ذاد: منع

بِـهِ الـداءانِ مِـنْ سَـغَـبٍ وخَـوفٍ فـمـا ذاقَ الـطـعـامَ، ولا الـرُّقَـادَا
سغب: جوع

أتَـفْـتَـرِشُ الـحَـريـرَ وتَـرْتَـديـهِ ويَـفْـتَـرِشُ الـجَـنَـادِلَ والـقَـتَـادَا
أيها الحاكم باسم المحتل الفرنسي إنك تفترش الحرير وابن البلد يفترش الجنادل (الصخور)، والقتاد (الشوك)

أتَـدْفَـعُ بِـالـغَـوِيِّ إلـى الـتَّـمَـادي وتَـعْـجَـبُ بَـعـدَ ذلـكَ إنْ تَـمَـادى
الغوي (الظالم) هو المحتل

سَـكَـتَّ فـقـامَ فـي الأذهـانِ شـكٌّ وقـلـتَ، فـأصـبـحَ الـشَّـكُّ اعـتِـقَـادَا

تَجَهَّمْتَ القَرِيضَ فَفَاضَ عَتْبَاً   وإنْ أَحْرَجْتَهُ فاضَ انتِقَادَا

تجهمت القريض: تجاهلت الشعر. يقول: الحكام المحليون الذين أقامهم الفرنسي في سوريا ولبنان سكتوا عن أفاعيله فشك الناس في نواياهم، وعندما تكلموا مبررين هذه الأفاعيل زال الشك وتأكد الناس من أن الحكام أدوات بيد المحتل. وهؤلاء الحكام يتجاهلون تحذيرات الشعراء فينالهم من الشعراء العتب، وبعد العتب يأتي الانتقاد

٣٤ في اللاذقية ضجة

ما بالُ قوميَ نائمينَ عنِ العُلَى   ولقد تَنَبَّهَ للعُلَى الثَّقَلانِ

الثقلان: الإنس والجن، يقصد الجميع

تُبَّاعُ أحمدَ والمسيحِ، هَوَادةً!   ما العهدُ أنْ يَتَنَكَّرَ الأَخَوَانِ

هوادة: تمهلوا

اللَّهُ رَبُّ الشِّرْعَتَيْنِ، وَرَبُّكُمْ   فإلى مَتَى في الدينِ تَخْتَصِمانِ؟

مهما يَكُنْ مِنْ فَارِقٍ؛ فَكِلاكُمَا   يُنْمَى إلى قَحْطَانَ أو غَسَّانِ

ينمى: يُنسَب

فُخُذوا بِأسبابِ الوِفَاقِ، وطَهِّروا   أكبادَكُمْ مِنْ لُوثَةِ الأضْغَانِ

لوثة الأضغان: جنون الأحقاد

فيمَا يُحِيقُ بأرضِكُمْ ونُفوسِكُمْ   شُغْلٌ لِمُشْتَغِلٍ عَنِ الأديانِ

يحيق: يحيط

لا رأيَ يَجْمَعُكُمْ إذا اختلفَ القَنَا   وتلاقتِ الفُرْسانُ بالفُرْسانِ

اختلف القنا: تشابكت الرماح

لا ذنبَ للأقدارِ في إذلالِكُمْ   هذا جزاءُ الغافِلِ المُتَوَاني

٣٥ الحمى وتقويم الأضلاع

مرضْتُ، فأرواحُ الصِّحابِ كَئيبةٌ   بِهَا ما بِنَفْسِي، لَيْتَ نَفْسِي لَها فِدَى

تُزَفُّ حِيالِي، كُلَّما أَغْمَضَ الكَرى   جُفوني، جَمَاعاتٌ ومَثْنَىً ومَوْحَدَا

يتراءى له أن العُوَّاد يزورونه جماعاتٍ وأفراداً

تَـراءَى، فـآنـاً كـالـبُدُورِ سَـوَافِـراً وآوِنَـةً مِـثْـلَ الـجُـمَـانِ مُـنَـضَّـدَا

ترائى: تتراءى، الجمان: اللؤلؤ

أَحِـنُّ إلـيـهـا رَائِـحَـاتٍ وَغُـوَّدَاً سَـلامٌ عـلـيـهـا رائِـحَـاتٍ وغُـوَّدَا

تَـهَشُّ إليـهـا مُقْبِلَاتٍ جَوَارِحي كمَا طَرِبَ السَّاري رَأَى النورَ فاهتَدَى

وأُلْقِي إليها السَّمْعَ، ما طالَ هَمْسُهَا كـذلكَ يَسْتَرْعِي الأَذَانُ الموَحِّدَا

ويَغْلِبُ نَفْسِي الحزنُ عند رحيلِها كما تَحزنُ الأزهارُ زايَلَهَا النَّدَى

مَبِيتِي علـى مِثْلِ الـوَثِيرِ لِيَانَـةً وأَحْسَبُنِي فوقَ الأسِنَّةِ والـمُدَى

المدى: السكاكين. و(مثل الوثير) لا معنى لها فالفراش وثير أي موطّأ ممهّد، وهذه من إهمالات الشاعر وتجوزاته

لقد تُوشِكُ الحُمَّى، إذا جَدَّ جِدُّهَا تُـقَـوِّمُ مِـنْ أَضْـلاعِـيَ الـمُـتَـأَوِّدَا

المتأود: المعوجّ. المعنى قديم والصياغة حلوة موفقة

تُصَوِّرُ لي طَيْفَ الخيالِ حقيقةً وأحسَبُ شَخصاً واحِداً مُتعدِّدَا

هذه هلوسات الحمى، يحسب أحلامه حقيقة ويرى الشخص شخصين

لقد ضَعْضَعَتْنِي، وَهْيَ سِرٌّ، ولم يَكُنْ يُضَعْضِعُنِي صَرْفُ الزمانِ إذا عَدَا

إذا ما أنا أَسْنَدْتُ رأسِي إلى يدي رَمَتْنِيَ مِنْها بالذي يُوهِنُ اليَدَا

يوهن: يُتْعِب

تَغَلْغَلَ في جِسْمِي النحيلِ أُوَارُها فَلَوْ لم أَقُدَّ الثَّوْبَ عنهُ تَوَقَّدَا

أوارها: حرُّها

رَأَيْتُ الذي لم يُبْصِرِ الناسُ نَائِماً وطُفْتُ الدُّنَى، شَرْقاً وغرباً، مُوَسَّدَا

رأى في هلوسة الحمى الأعاجيب

فَما ساءَني إلّا شَمَاتَةُ مَعْشَرٍ رَجَوْتُ بِهِمْ عندَ الشَّدَائِدِ مُسْعِدَا

وَوَدَّ أُنَاسٌ لو يُعَاجِلُني الرَّدَى كَأَنِّيَ أرجُو فِيْهِمُ أَنْ أُخَلَّدَا

وما ضَمِنُوا أن لا يَمُوتُوا، وإنما يَوَدُّ زَوالَ الشمسِ مَنْ كَانَ أَرْمَدَا

ولكنَّنِي أَعفُو، ولِلْغَيْظِ سَوْرَةٌ أُعَلِّمُ أَعدائِي المرُوءَةَ والنَّدَى

سورة: شدَّة

أَلا رُبَّ غِرٍّ خَامَرَ الشَّكُّ نفسَهُ   فلما رَآنيِ أَبْصَرَ البَحرَ مُزْبِدَا

رب غر (أحمق) خامر (داخَلَ) الشك نفسه بأني ضعيف، فلم رآني رأى كيف يكون البحر هائجاً يعلوه الزبد

فأصبحَ يَخْشانيِ، وقد بِتُّ سَاكِتاً   كما كَان يَخْشانيِ وقد كُنْتُ مُنْشِدَا

ومَنْ نالَ مِنْهُ السيفُ، وَهْوَ مُجَرَّدٌ،   تَهَيَّبَ أنْ يَرْنُو إلى السَّيْفِ مُغْمَدَا

٣٦ وجعد جبهتي تجعيدا

لَيتَ الذي خلقَ العيونَ السُّودَا   خلقَ القلوبَ الخافقاتِ حَدِيدَا

عَوِّدْ فُؤادَكَ مِنْ نِبَالِ لِحَاظِهَا   أوْ مُتْ، كما شاءَ الغرامُ، شهيدَا

إنْ أنتَ أبصرتَ الجمالَ، ولم تَهِمْ   كنتَ امْرَءاً خَشِنَ الطِّبَاعِ، بَلِيدَا

وإذا طلبتَ مَعَ الصَّبَابَةِ لَذَّةً   فلقد طلبتَ الضائعَ الموجودَا

هيَ نظرَةٌ عَرَضَتْ، فصارتْ في الحَشَا   ناراً، وصارَ لها الفؤادُ وَقُودَا

إن كنتَ تدرِي ما الغرامُ، فَدَاوِني   أو لا، فَخَلِّ العَذْلَ والتَّفْنِيدَا

التفنيد: اللوم والتخطئة

يا هندُ! قد أَفْنَى المِطَالُ تَصَبُّرِي   وفَنِيتُ، حتى ما أخافُ مَزِيدَا

ما هذهِ البِيضُ التي أَبْصَرْتِهَا   في لِمَّتِي إلَّا الليالِي السُّودَا

لِمَّتي: شعري

هذا الذي أَبْلَى الشبابَ، وَرَدَّهُ   خَلَقاً، وجَعَّدَ جَبْهَتِي تَجْعِيدَا

خلقاً: مهترئاً

٣٧ قصيدة الطين

نَسِيَ الطينُ ساعةً أنَّهُ طِيـ   ـنٌ حَقِيرٌ، فصالَ تِيهاً، وعَرْبَدْ

الطين: الإنسان المخلوق من طين، التيه: التكبر

وكَسَا الخَزُّ جِسْمَهُ فَتَبَاهَى،   وحَوَى المالَ كِيسُهُ فَتَمَرَّدْ

الخز: الحرير

يا أخيِ! لا تَمِلْ بِوَجْهِكَ عني،   ما أنا فَحْمَةٌ، ولا أنتَ فَرْقَدْ

فرقد: اسم نجم في السماء

أنتَ لم تَصْنَعِ الحريرَ الذي تَلْـ ـبَسُ، واللؤلُؤَ الذي تَتَقَلَّدْ
أيها المزْدَهي، إذا مَسَّكَ السُّقْـ ـمُ ألا تشتكي، ألا تَتَنَهَّدْ؟
إنَّ طيرَ الأَرَاكِ ليسَ يُبَالي أنتَ أَصْغَيْتَ، أم أنا، إنْ غَرَّدْ

الأراك: نوع شجر

أَلَكَ الحقلُ؟ هذهِ النحلُ تَجْبي الشَّـ ـهْدَ مِنْ زَهْرِهِ، ولا تَتَرَدَّدْ
وأرى لِلنِّمَالِ مُلْكاً كبيراً قد بَنَتْهُ بِالكدْحِ فيهِ، وبِالكَدّ
أنتَ في شَرْعِهَا دخيلٌ على الحقْـ ـلِ، ولصٌّ جَنَى عليْها، فَأَفْسَدْ
لو مَلَكْتَ الحقولَ في الأرضِ طُرّاً لم تكنْ مِنْ فَرَاشَةِ الحقلِ أَسْعَدْ

طراً: جميعاً

أَجَميلٌ؟ ما أنتَ أبْهَى مِنَ الوَرْ دَةِ ذاتِ الشَّذَى، ولا أنتَ أَجْوَدْ

أجود: أكثر جوداً وكرماً

أم عَزِيزٌ؟ ولِلْبَعُوضَةِ مِنْ خَدَّ يْكَ قُوتٌ، وفي يَدَيْكَ المهَنَّدْ

تمتص البعوضة دمك حتى والسيف بيدك

أم قَوِيٌّ؟ إذنْ: مُرِ النَّوْمَ إذْ يَغْـ ـشَاكَ والليلَ، عنْ جُفُونِكَ يَرْتَدّ

فلتأمر النوم إذ يغشاك والليلَ (يأتيك مع الليل) أن يرتد عن جفونك

وامنعِ الشَّيْبَ أنْ يُلِمَّ بِفَوْدَيْـ ـكَ، ومُرْ تَلْبَثِ النَّضَارَةُ في الخَدّ

الفودان: السالفان، ولتأمر النضارة ـ أن ـ تلبثَ في خدك ولا تفارقه

أيها الطينُ! لستَ أنقَى وأسمَى مِنْ تُرابِ تَدُوسُ، أو تَتَوَسَّدْ
سُدْتَ أو لم تَسُدْ، فما أنتَ إلّا حَيَوَانٌ مُسَيَّرٌ مُسْتَعْبَدْ
إنَّ قَصْراً سَمَكْتَهُ سوفَ يَنْدَكُّـ وثَوْباً حَبَكْتَهُ سوفَ يَنْقَدّ

سمكته: رفعته، ينقد: يتقطع

لا يَكُنْ لِلْخِصَامِ قَلْبُكَ مَأْوَى إنَّ قلبي لِلحُبِّ أصبحَ معبَدْ

سوَّد الأديب الأردني روكس بن زائد العُزَيزي فصولاً في اتهام إيليا أبو ماضي بأنه نقل فكرة هذه القصيدة وقسطاً من كلامها من قصيدةٍ بدوية أردنية. وفي المعركة التي قامت حول قصيدة الطين طرافة، ويورد روكس من البراهين ما هو جدير بالاستماع إليه

٣٨ بئس المصير

كانتْ تُمازِحُني وتَضْحَكُ، فانْتهى ... دَوْرُ المُزَاحِ، فَضِحْكُها تَفْكِيرُ
قالتْ، وقد سَلَخَ ابتسامَتَها الأسى: ... صَدَقَ الذي قالَ، الحياةُ غرورُ
أَكَذا نموتُ، وتَنْقضي أحلامُنا ... في لَحظةٍ، وإلى الترابِ نَصِيرُ؟
وتَموجُ دِيدانُ الثَّرى في أَكْبُدٍ ... كانتْ تَمُوجُ بِها المُنَى، وتَمُورُ

تمور: تموج

خيرٌ، إذَنْ، مِنَّا الأُلى لم يُولَدُوا ... ومِنَ الأنامِ جَلامِدٌ وصُخورُ

أفضل منا من لم يولد، وأفضل من البشر الجلامد، أي الصخور

فأجبْتُها: لِتَكُنْ لِدِيدَانِ الثَّرى ... أجسامُنا، إن الجُسومَ قُشُورُ
لا تَجْزَعِي! فالموتُ ليسَ يَضِيرُنا ... فَلَنا إِيَابٌ بعدَهُ، ونُشُورُ
فإذا طَوَتْنا الأرضُ عن أَزْهَارِهَا ... وخَلا الدُّجى مِنَّا، وفيه بُدُورُ
فسَتَرْجِعِينَ خَمِيلةً مِعْطَارةً ... أنا في ذَرَاها بُلْبُلٌ مَسحورُ
أو نَسْمَةً، أنا هَمْسُها وحَفِيفُها ... أبداً تُطَوِّفُ في الرُّبى، وتَدُورُ
تَغْشَى الخَمَائِلَ في الصَّباحِ بَلِيلَةً ... وتَؤُوبُ، حينَ تؤوبُ، وَهْيَ عَبيرُ
أو نَلْتَقِي عندَ الكثيبِ، على رِضاً ... وقناعةٍ، صَفْصافَةٌ وغَدِيرُ
تَمْتَدُّ فيهِ، وفي ثَراهُ، عروقُها ... ويسيلُ تحتَ فروعِها، ويَسِيرُ

جذور الصفصافة تمتد في تراب الكثيب، والغدير ينساب تحت أغصانها

يَأْوِي إذا اشتدَّ الهجيرُ إليْهِما ... اَلنَّاسِكَانِ: الظَّبْيُ والعُصْفورُ

الهجير: الحَرّ

لَهُمَا سَكِينَتُها، ووارفُ ظِلِّها ... والماءُ، إنْ عَطِشَا، لَدَيْهِ وفيرُ
فَتَبَسَّمَتْ، وبَدا الرِّضَى في وجهِها ... إذْ راقَها التمثيلُ والتَّصْويرُ
عالَجْتُهَا بِالوَهْمِ، فَهْيَ قَرِيرَةٌ ... وَلَكَمْ أفادَ الموجَعَ التَّخْديرُ

قريرة: سعيدة

ثم افترقْنا ضاحِكَيْنِ إلى غَدٍ ... والشُّهْبُ تَهْمِسُ فَوقَنا، وتُشِيرُ

هِيَ كالمسافِرِ، آبَ بعدَ مَشَقَّةٍ وأنا كَأَنِّيَ قائدٌ مَنْصُورُ

صديقته كمسافر رجع بعد تعب، وهو مثل قائد منتصر بعد أن أقنعها بجدوى الحياة

لكِنَّني، لما أَوَيْتُ لِمَضْجَعي خَشُنَ الفِرَاشُ عَلَيَّ، وَهْوَ وَثِيرُ

حَامَتْ على رُوحيِ الشُّكوكُ، كأنها وكأَنَّهُنَّ: فَريسةٌ وصُقُورُ

كأن روحي فريسة وكأن الشكوك صقور

أكذَا نموتُ، وتَنْقَضي أحلامُنَا في لحظةٍ، وإلى التراب نَصِيرُ؟

خَيْرٌ، إذنْ، مِنَّا الأُلى لم يُولَدُوا ومِنَ الأنامِ جَنادِلٌ وصُخُورُ

٣٩ يا شهر أيار

أيَّارُ يا شاعرَ الشهورِ وبسمةَ الحبِّ في الدُّهورِ

وخالقَ الزَّهْرِ في الرَّوابي وخالقَ العِطْرِ في الزهورِ

قد كِدْتَ تُحْيِي الموتَى البَوالي وتُنْبِتُ العشبَ في الصخورِ

ألا قال: «قد كدت تحيي عظام موتى»، فيسلمَ من زحاف غير مستحب في مخلع البسيط، ويفر من هذه البوالي التي تذكر المرء بالبول

وتجعلُ الشوكَ ذا أَريجٍ وتجعلُ الصخرَ ذا شعورِ

تَشكُو إليكَ الشِّتاءَ نَفسي وما جَنَاهُ مِنَ الشُّرورِ

كَمْ لَذَعَ الزَّمْهَريرُ جِلْدي ودَبَّ حتى إلى ضَميري

وكَمْ ليالٍ جَلَسْتُ وَحْدي مُنْقَبِضَ الصدرِ كالأسيرِ

والشُّهْبُ مُرْتاعَةٌ كَطَيْرٍ مُخْتَبِئاتٍ مِنَ الصُّقُورِ

وساعةٍ وجهُهَا صَفِيقٌ كأَنَّهُ وجهُ مُسْتَعيرِ

صفيق: صلب، قليل الحياء، والتشبيه طريف، والمستعير هو من يأتي ليستعير منك حاجة

أبطأَ في السَّيْرِ عَقرباها فأبطأَ الوقتُ في المسيرِ

الوقت يمر بطيئاً بسبب بطء عقارب الساعة، طريف هذا

حتى كأنَّ الزمانَ أعمَى يمشي على الشوكِ في الوُعُورِ

لقد تَوَلَّى الشتاءُ عَنَّا فَصَفِّقي، يا مُنَىَ، وَطِيري

لو عاش إيليا في العصر العباسي لمدح النقاد كثيراً شعره الباكر فهو شعر معانٍ، مليء بالتشبيهات الطريفة والمعاني المتقنة الصَّوْغ كتشبيهات هذه القصيدة. ولكن شاعرنا صار في شعره المتأخر رومنسياً أكثر، وإنسانياً تفاؤلياً أكثر، أحياناً بشيء من

السذاجة. على أن هذا المنحى ضمن لإيليا أبو ماضي شهرة عريضة لم تفقها في القرن العشرين سوى شهرة شوقي ونزار قباني. وأنبه القارئ العزيز إلى أن الأكاديميين ألهبوا ظهر صاحبنا، بعضهم يريده أن يكتب الشعر الإنساني المحض ليس غير، ويعيب عليه تلك القصائد الباكرة التي كانت تتردد في جنباتها أساليب المتنبي. سلمى الخضراء الجيوسي جلدته بقسوة في دراستها شعره، ولعل كونها كتبت الدراسة بالإنجليزية جعلها تقع أسيرة مفاهيم شعرية بعيدة عن أجواء الشعر العربي. لم ترضني طريقتها ألبتة فقد حاكمت شعر إيليا محاكمة استشراقية. وأما جورج جحا، في أطروحته للجامعة الأميركية ١٩٦٠، فقد كان يقترب في بعض نقداته من صورة المعلم الذي يحمل العصا ويشير بها. لم أرض عن تقريعه لإيليا في أحد قصائده بـ: (عدم وضوح المفهوم الوطني عند أبي ماضي، فهو على الرغم من دعوته إلى الوحدة وإلى مقاومة الأتراك، عرباً لا طوائف، لم يخل من بعض الرواسب القديمة، رواسب الحنين إلى حماة الأقليات الدينية، ورواسب الخلط بين الشعور الوطني والإحساس الديني)، وأرى أن إيليا عبر أقوى وأجمل تعبير عن شعوره، ولا أطلب منه أكثر من ذلك

٤٠ فرعنوه فتفرعن

كان في ماضِي الليالِي أُمَّةٌ   خَلَعَ العزُّ عليْها حِبَرَهْ

حبره: أثوابه

ومَشَى الدهرُ إليها طائعاً   فَمَشَتْ تَائِهَةً مُفْتَخِرَةْ

تائهة: فيها تيه وكبرياء

كان فيها مَلِكٌ ذو فِطنةٍ   حازمٌ، يصفَحُ عِنْدَ المَقْدِرَةْ

ماتَ عنها. فأقامَتْ مَلِكاً   طائشَ الرأيِ، كثيرَ الثَّرْثَرَةْ

حولَهُ عُصبةُ سُوءٍ، كلما   جاءَ إدًّا، أقبَلَتْ مُعْتَذِرَةْ

جاء إدًّا: ارتكب عملاً سيئاً

وتمادَى القومُ في غَفْلَتِهِمْ   فتمادَى في الملاهِي المنْكَرَةْ

كان فيِها شاعرٌ مُشْتَهِرٌ   ذو قَوَافٍ بَيْنَها مُشْتَهِرَةْ

كان في الأمة شاعر مشهور له قصائد مشهورة بين أبناء هذه الأمة

تَعِسُ الحظِّ، وهلْ أتعسُ مِنْ   شاعرٍ في أُمَّةٍ مُحْتَضَرَةْ

مَرَّ يوماً، فَرَأى أَشْيِخَةً   جلسوا يَبْكُونَ عندَ المَقْبَرَةْ

أشيخة: رجال عجائز

قال شيخٌ مِنْهُمْ مُحْدَوْدِبٌ ودموعُ اليأسِ تَغْشَى بَصَرَهْ:
هُوَ مَلْكٌ كانَ فِينا ومَضَى، فَمَضَتْ أيامُنا المزدهِرَةْ
فانتَهى التاجُ إلى مُعْتَسِفٍ لم يَزَلْ بالتَّاجِ حتى نَثَرَهْ

معتسف: متجبر، نثره: نثر جواهر التاج وأتلفه

كلما جاءَ إليهِ خائِنٌ واشِياً قَرَّبَهُ، واسْتَوْزَرَهْ
فإذا جاءَ إليهِ ناصِحٌ شَكَّ في نِيَّتِهِ، فانْتَهَرَهْ
هَزِأَ الشَّاعرُ مِنْهُمْ قائلاً: بلغَ السُّوسُ أصولَ الشَّجَرَةْ
لو فعلتُمْ فِعْلَ أجدادِكُمُ ما قَضَى الظَّالمُ منكُمْ وَطَرَهْ
ما لَكُمْ تَشكُونَ مِنْ مُحْتَكِمٍ رُضْتُمُ أَلْسُنَكُمْ أنْ تَشْكُرَهْ

محتكم: حاكم

كيف لا يَبْغي ويَطْغَى آمِرٌ يَتَّقي أَشْجَعُكُمْ أنْ يَنْظُرَهْ؟
ما استحالَ الهِرُّ لَيْثاً، إنَّما أُسُدُ الآجامِ صارتْ هِرَرَةْ

الآجام: الأدغال

٤١ تقديس الراحلين

مِنَ المَرْمَرِ المسْنُونِ صَاغُوا مِثَالَهُ وطَافُوا بِهِ، في كُلِّ نَاحِيَةٍ، زُمَر

المسنون: الصقيل. . صنعوا له تمثالاً وطافوا حول التمثال جماعاتٍ. . وقوله «في كل ناحية» يوحي بأنه حملوا تمثال المرمر وجالوا به، وهذا لا يكون مع تمثال مرمر

وقالوا: صَنَعْناهُ لتخليدِ رَسْمِهِ، فقلتُ: ألا يَفْنَى، كما فَنِيَ الأَثَرْ
وقالوا: غنيٌّ كان يَسْخُو بمالِهِ، فقلتُ لهمْ: هل كان أسخَى مِنَ المطَرْ؟
وقالوا: قويٌّ عاشَ يحمي ذِمَارَنَا، فقلتُ لهمْ: هلْ كان أقوَى مِنَ القَدَرْ؟

يحمي ذمارنا: يحمي شرفنا ومالنا

أكانَ غَنِياً أم قوِيّاً، فإنَّه بمالِكُمُ استغْنى، وقوَّتِكُمْ ظَفِرْ
فلَم يَتَعَشَّقْكُمْ، ولا هِمْتُمُ بِهِ كما خِلْتُمُ، لكنَّهُ النَّفْعُ والضَّرَرْ
ولم تَرْفَعُوا التِّمْثَالَ للبأسِ والنَّدَى ولكنْ لِضَعْفٍ في نُفُوسِكُمُ استَتَرْ
فَلَسْتُمْ تحبُّونَ الغَنِيَّ إذا افْتَقَرْ ولستمْ تحبُّونَ القويَّ إذا انْدَحَرْ

رأيتُكُمُ: لا تَعْرُجُونَ بِرَوْضَةٍ إذا لم يكنْ في الروضِ فَيْءٌ ولا ثَمَرْ

تعرجون بروضة: أي تُعرِّجون على روضة وتقصدونها

ولا تَعْلِفُونَ الشاةَ إلا لِتُسْمِنُوا، ولا تَقْتَنُونَ الخيلَ إلَّا على سَفَرْ

إذا كانَ حُبُّ الفضلِ للفَضْلِ شَأْنُكُمْ ولم تُخْطِئُوا في الحِسِّ والسَّمْعِ والبَصَرْ . .

فما بالُكُمْ لم تُكْرِمُوا الليلَ والضُّحَى ولم تَنْصِبُوا التِّمْثَالَ للشمسِ والقَمَرْ؟

٤٢ مسيحيون ومسلمون

ما كانَ أَحْوَجَ سوريًا إلى بَطَلٍ يَرُدُّ بالسيفِ عنها كلَّ مُفْتَرِسِ

ويجعلُ الحُبَّ دينَ القاطِنِينَ بِهَا دِينٌ يُقَرِّبُ بينَ البيْتِ والقُدُسِ

البيت: الكعبة قبلة المسلمين، والقدس مدينة مقدسة عند المسيحيين، وغير المسيحيين

حتى أَرَى ضاربَ الناقوسِ يُطْرِبُهُ صوتُ الأَذَانِ، وهَذا رَنَّةُ الجَرَسِ

٤٣ مقام التفجع

رثاء المطران رفائيل هواويني:

هذا مَقامٌ، لا التَّفَجُّعُ سُبَّةٌ فيهِ، ولا الصبرُ الجميلُ جميلُ

ما أحمقَ الإنسانَ! يَسْكُنُ لِلْمُنَى والموتُ يَخْطِرُ حولَهُ ويَجُولُ

يسكن للمنى: يطمئن للأماني

يَهوَى الحياةَ، كأنما هو خالدٌ أبداً، ويعلمُ أنه سَيَزُولُ

٤٤ المرأة وقهر الرجال

أَيُّها القلبُ الذي في أضلُعي إنما اللذَّةُ جَهْلٌ فاجْهَلِ

تَجْمُلُ الرِّقَّةُ في العَضْبِ، فإنْ كنتَ تَهْواهَا، فَكُنْ كالمُنْصُلِ

العضب والمنصل: السيف

هِيَ في الغِيدِ الغَوانِي قُوَّةٌ وهْيَ ضَعْفٌ في فؤادِ الرَّجُلِ

تُقْتَلُ الشاةُ، ولا ذَنْبَ لها هِيَ، لولا ضعفُها، لم تُقْتَلِ

كلما فَكَّرْتُ في حاضِرِنا عاقَنِي اليأسُ عن المُستَقْبَلِ

سَجَّلَ العارَ علَيْنَا مَعْشَرٌ سَجَّلُوا المرأةَ بينَ الهَمَلِ

ولـهـا فـي كـلِّ بـابٍ وِقْـفَـةٌ كـامْـرِئِ الـقَـيْسِ حِيـالَ الطَّـلَـلِ
تَتَّـقِـي قَـوْلَ: اغْرُبِـي، خَشْيَـتَهَـا قَـوْلَـةَ الـقـائـلِ: يـا هـذي ادْخُلِـي

تتجنب أن يقول لها زوجها انصرفي، وتكره أيضاً أن يقول لها ادخلي البيت، لما تعاني معه من هوان

فَهْيَ كـالعُصْفُورِ وافَى، صَادِيَاً، فَـرَأَى الـصَّـيَّـادَ عـنـدَ الـمَـنْـهَـلِ

وافى: أقبل، صادياً: عطشان، المنهل: مورد الماء

كـامِنَـاً، فـانصَـاعَ، يُـدْنِيـهِ الظَّـمَـا ثـم يُـقْـصِـيـهِ اتِّـقَـاءُ الأَجَـلِ

٤٥ مديح ألَنبي

لـلَّـهِ مَـا أَحْـلَـى الـبَـشِـيـرَ وقـولَـهُ سقطَ الهلالُ إلى الحضيضِ، ودَالا

الهلال: شعار الدولة العثمانية، دال: انتهى زمنه

بـالأمسِ قَطَّعَـتِ الجزيرةُ قَيْدَهـا ورَمَـتْ بِـوَجْـهِ الـغـاشِـم الأَغْـلالا

الجزيرة: الجزيرة العربية التي ثارت بالعثمانيين في الحرب العالمية الأولى

أَبناتِ أُورَشَلِيمَ! ضَمِّخْنَ الثَّرَى بِالطِّيبِ، وامْلأنَ الدُّروبَ جَمَالا
حـتـى يَـمُـرَّ الـفـاتِـحُـونَ، فَإِنَّـهُـمْ كَـشُّـوا الأَذَى عَـنْـكُـنَّ، والإِذْلالا

كشوا: نفضوا، الفاتحون: يقصد جيوش الحلفاء

يـا قـائدَ الـصِّيـدِ الـغَـطَـارِفَةِ الأُلَى تُحْنَى الرؤوسُ، لِذِكرِهِمْ، إِجْلالا

الصيد: الأسياد، الغطارفة: الأسياد، وقائدهم الذي احتل القدس كان الإنجليزي إدموند ألنبي

ظَنَّ الـمَـغـولُ جُنُـودَهُـمْ تَـحْمِيهِـمُ والـقِـرْدُ يَـحْـسَـبُـهُ أبـوهُ غَـزَالا

المغول: يقصد الأتراك

كَمْ جَحْفَلٍ بَعَثُوا إليكَ مَعَ الدُّجَى لاقَـاهُ جَيْشُـكَ، والـصبـاحَ، فَزَالا

والصباح: عند الصباح

طَـارَدْتَـهُـمْ، فوقَ الـجبالِ وتَـحْتَـهَـا، كـالـلـيْـثِ يَـطْـرُدُ دُونَـهُ الأَوْعَـالا
فـمـلأتَ هـاتِـيـكَ الأَبـاطِـحَ والـرُّبَـى بِـجُـسُـومِـهِـمْ، ومَـلأْتَـهُـمْ أَهْـوَالا
وحَمَيْتَ، إِلَّا السُّهْدَ، عن أجفَانِهِمْ ومَـنَـعْـتَ، إِلَّا عَـنْـهُـمُ، الأَوْجَـالا

وصَنَعْتَ مِنْ أَسْيَافِهِمْ ودُرُوعِهِمْ لِـرِقـابِـهِـمْ وزُنُـودِهِـمْ أَغْـلالا
لو لم تُسَاقِطْهُمْ إليكَ جِبالُهُمْ عـنـدَ الـضُّـحَـى زَلْـزَلْـتَـهـا زِلْـزَالا
هُنِّئْتَ بِالنَّصْرِ المبِينِ، فَإِنَّهُ نَـصْـرٌ يَـعِـزُّ عـلـى سِـوَاكَ مَـنَـالا
أَرْضَيْتَ مُوسى والمسِيحَ وأَحْمَداً والـنـاسَ أجـمـعَ، والإِلَـهَ تَـعـالَـى

٤٦ أيهذا الشاكي

أَيُّـهَـذا الـشَّـاكـي، ومـا بِـكَ داءٌ كـيـفَ تـغـدُو إذا غَـدَوْتَ عَـلـيـلا؟

تشكو وليس بك مرض، فكيف لو مرضت؟

إن شَـرَّ الـجُـنَـاةِ فـي الأرضِ نَـفْـسٌ تَـتَـوقَّـى، قـبـلَ الـرَّحـيـلِ، الـرَّحـيـلا
وتـرَىَ الـشـوكَ فـي الـورودِ، وتَـعْـمَـى أنْ تَـرى فـوقَـهـا الـنَّـدىَ إكْـلـيـلا
هُـوَ عِـبْءٌ عـلـى الـحـيـاةِ ثـقـيـلٌ مَـنْ يَـظُـنُّ الـحـيـاةَ عِـبْـئـاً ثَـقـيـلا
والـذي نـفْـسُـهُ بِـغَـيْـرِ جَـمـالٍ لا يَـرى فـي الـوجـودِ شـيـئـاً جَـمـيـلا
لـيـس أشـقَـى مِـمَّـنْ يَـرى الـعـيـشَ مُـرّاً ويَـظُـنُّ الـلَّـذَّاتِ فـيـه فُـضُـولا
أحْـكَـمُ الـنـاسِ فـي الـحـيـاةِ أُنـاسٌ عَـلَّـلُـوهـا، فـأَحْـسَـنـوا الـتَّـعـلـيـلا
فَـتَـمَـتَّـعْ بِـالـصـبـحِ مـا دمـتَ فـيـهِ لا تَـخَـفْ أنْ يَـزولَ، حـتـى يَـزُولا
وإذا مَـــا أَظَـــلَّ رأسَـــكَ هَـــمٌّ قَـصِّـرِ الـبـحـثَ فـيـهِ، كَـيْـلا يَـطـولا
أدركـتْ كُـنْـهَـهَـا طـيـورُ الـرَّوابـي فَـمِـنَ الـعـارِ أن تَـظَـلَّ جَـهُـولا
مـا تَـراهـا؟ والـحـقـلُ مِـلْـكُ سِـوَاهـا، تَـخِـذَتْ فـيـهِ مَـسْـرَحـاً ومَـقِـيـلا
تَـتَـغَـنَّـى، والـصَّـقْـرُ قـد مَـلَـكَ الـجَـوَّ- عـلـيـهـا، والـصَّـائِـدونَ الـسَّـبِـيـلا
تَـتَـغَـنَّـى، وقـد رَأَتْ بَـعْـضَـهـا يُـؤْ- خَـذُ حَـيَّـاً، والـبَـعْـضَ يَـقْـضـي قَـتِـيـلا
تَـتَـغَـنَّـى، وعُـمْـرُهـا بـعـضُ عـامٍ، أَفَـتَـبْـكـي، وقـد تـعـيـشُ طَـويـلا؟
فَـهْـيَ فـوقَ الـغُـصـونِ فـي الـفَـجْـرِ تَـتْـلُـو سُـوَرَ الـوَجْـدِ والـهـوىَ تَـرْتِـيـلا
وَهْـيَ طَـوْراً عـلـى الـثَّـرَى واقِـعـاتٌ تَـلْـقُـطُ الـحَـبَّ، أو تَـجُـرُّ الـذُّيُـولا
كـلـمـا أمـسـكَ الـغـصـونَ سُـكـونٌ صَـفَّـقَـتْ لِـلْـغـصـونِ حـتـى تَـمِـيـلا
فـإذا ذَهَّـبَ الأصـيـلُ الـروابـيَ وقـفـتْ فـوقَـهـا تُـنَـاجِـي الأَصِـيـلا
فـاطْـلُـبِ الـلـهـوَ، مِـثْـلَـمَـا تَـطْـلُـبُ الأَطْـ- ـيـارُ عـنـدَ الـهـجـيـرِ ظِـلّاً ظَـلِـيـلا

وتَعَلَّمْ حُبَّ الطَّبيعةِ مِنْها ... واتْرُكِ القالَ لِلْوَرى، والقِيلا

فالذي يَتَّقي العواذِلَ يَلْقَى ... كلَّ حينٍ في كلِّ شَخْصٍ عَذُولا

أنتَ لِلأَرْضِ أَوَّلاً وأخيراً ... كنتَ مَلْكاً، أو كنتَ عَبْداً ذَلِيلا

لا خلودٌ تحتَ السَّماءِ لِحَيٍّ ... فَلِمَاذا تُرَاوِدُ المستحيلا؟

كلُّ نَجْمٍ إلى الأفولِ، ولَكِنْ ... آفَةُ النجمِ أنْ يخافَ الأُفُولا

غايةُ الوَرْدِ في الرياضِ ذُبُولٌ، ... كنْ حَكِيماً، واسْبِقْ إليهِ الذُّبُولا

وإذا ما وجدتَ في الأرضِ ظِلّاً ... فَتَفَيَّأْ بِهِ، إلى أنْ يَحُولا

يحول: يتحول وينتقل

وتوقَّعْ، إذا السماءُ اكْفَهَرَّتْ ... مَطَراً في السهولِ، يُحْيِي السُّهولا

قلْ لِقَوْمٍ يَسْتَنْزِفُون المآقي: ... هلْ شَفَيْتُمْ، مَعَ البُكَاءِ، غَلِيلا؟

ما أَتَيْنَا إلى الحياةِ لِنَشْقَى ... فَأَرِيحُوا، أهلَ العُقُولِ، العُقُولا

كلُّ مَنْ يجمعُ الهمومَ عَلَيْهِ ... أَخَذَتْهُ الهمومُ أَخْذاً وَبِيلا

كُنْ هَزَاراً في عُشِّهِ يَتَغَنَّى ... ومَعَ الكَبْلِ، لا يُبَالي الكُبُولا

يتغنى طليقاً في عشه، فإذا كبله الناس أي حبسوه في قفص ظل يتغنى

لا غُراباً يُطارِدُ الدُّودَ في الأر ... ضِ، وبُومَاً في الليلِ يَبْكي الطُّلولا

كُنْ غديراً يسيرُ في الأرضِ رَقرا ... قاً، فَيَسْقي، مِنْ جانِبَيْهِ الحقولا

تستَحِمُّ النجومُ فيهِ، ويَلْقَى ... كلُّ شخْصٍ، وكلُّ شيءٍ مَثِيلا

أي يرى المرء صورته في الغدير الصافي

لا وِعَاءً يُقَيِّدُ الماءَ، حتى ... تَسْتَحِيلَ المياهُ فيهِ وُحُولا

كُنْ مَعَ الفَجْرِ نَسْمَةً تُوسِعُ الأزْ ... هارَ شَمّاً، وتَارَةً تَقْبِيلا

لا سَمُوماً مَعَ السَّوافي اللواتي ... تَمْلأُ الأرضَ في الظلامِ عَوِيلا

السموم: ريح حارة، السوافي: الرياح ذات الغبار

ومَعَ الليلِ كَوْكباً يُؤْنِسُ الغَا ... باتِ والنَّهْرَ والرُّبى والسهولا

لا دُجَىً يَكْرَهُ العوالمَ والنا ... سَ، فَيُلْقي على الجميعِ سُدُولا

سدولاً: ستوراً

أيُّـهَـذا الـشَّـاكـيِ! ومـا بِـكَ داءٌ   كُنْ جَميلاً، تَرَ الوُجُودَ جميلا

٤٧ اسقني ما حرَّموا

حـمـلَ الـشـمـسَ إلـيـنـا قـمـرٌ   فـي سـمـاءٍ، نـحـنُ فـيـهـا أَنـجُـمُ

الشمس يقصد بها الكأس، والقمر الفتاة، والسماء مجلس الشراب

شَـادِنٌ حَـكَّـمَـهُ الـحُـسْـنُ بِـنَـا   وسِـوَى الـحُـسْـنِ بِنَـا لا يَـحْـكُـمُ

شادن: غزال

أَسْبَلَ الشَّعْرَ، فَيَا عَيْنِي اسْهَرِي   إنَّـهُ لـيـلٌ طـويـلٌ مُـظْـلِـمُ

صَـنَـمٌ فـي خَـدِّهِ الـنـارُ، وفـي   كَـفِّـهِ ضَـرَّتُـهـا تَـضْـطَـرِمُ

هذا المحبوب صنم (فائق الجمال) في خده احمرار كالنار، وفي كفه الخمر وهي ضرة النار لأنها محمرة كأنها تضطرم (تلتهب)

بِنْتُ كَرْمٍ لم يَهِمْ فيها سِوَى   كـلُّ صَـبٍّ هـامَ فـيـهِ الـكَـرَمُ

حُـبِـسَـتْ فـي دَنِّـهَـا مِـنْ قِـدَمٍ   مَـا لـهـا ذَنْـبٌ، ولَـكِـنْ ظَـلَـمُـوا

حَرَّمُوهَا حِينما خَافوا عَلَيْـ   ـهَا سِوَاهُمْ، فاسْقِنِي مَا حَرَّموا

إنَّـهـا سِـرٌّ فَـشَـا بـيـنَ الـوَرى   وإذا الـسـرُّ فَـشَـا، لا يُـكْـتَـمُ

هذه خمرية يحسدك عليها النواسي يا إيليا

٤٨ خاطرتان

يـا سـيِّـدَ الـمـنْـشِـديـنَ طُـرًّا   وصـاحـبَ الـمـنطـقِ الـمُـبِـيـنِ

يخاطب البلبل

لـو كـنـتَ بُـومـاً، أو كُـنْـتَ نَـسْـرَا   مـا بِـتَّ فـي أسـرِكَ الـمُـهِـيـنِ

خُـلِـقْـتَ لـمَّـا خُـلِـقْـتَ، حُـرًّا   فَـزَجَّـكَ الـحُـسْـنُ فـي الـسـجـونِ

* * *

أعـجـبُ مـا فـي بَـنـي الـتُّـرَابِ   قـتـالُـهُـمْ فـوقَـهُ عـلـيـهِ

قـد صَـيَّـروا الأرضَ كـالـكِـتـابِ   وانْـحَـشَـروا بـيـنَ دَفَّـتَـيْـهِ

واسـتـعـجـلوا الـمـوتَ بِـالـعَـذابِ   وكُـلُّـهُـمْ صـائِـرٌ إلـيـهِ

٤٩ الخامل

سَكَتَّ خوفاً، وقلتَ الصَّفْحُ مِنْ خُلُقي ... ونِمْتَ جُبْناً، وقلتَ الحِلْمُ مِنْ شِيَمي

وإنما أنتَ، والأقوامُ قد عَلِمُوا، ... لولا خُمُولُكَ لم تَسْكُتْ ولم تَنَمِ

٥٠ منع البوم أن يُصاد..

وثَقِيلٍ، كأَنَّهُ بَرْدُ كَانُو ... نَ، قَلِيلِ الحَيَاءِ، جَمِّ الكَلامِ

كانون الأول: ديسمبر، كانون الثاني: يناير

ليس يَدْرِي بِأَنَّهُ ليسَ يَدْرِي ... إنَّ بعضَ الأَنامِ كالأَنعامِ

يَتَمَنَّى، يا بُعْدَ ما يَتَمَنَّى ... لو جَرى ذِكْرُهُ على الأَقْلامِ

مَنَعَ البُومَ أنْ يُصَادَ ويُرْمَى ... كونُهُ غيرَ صَالحٍ لِلطَّعَامِ

يُرمَى: يُرمَى بالسهام لصيده

٥١ حُجة المغتربين

رسالة من لبنان إلى أبنائه المهاجرين. قالها في حفلة:

لبنانُ! لا تَعْذِلْ بَنِيكَ إذا هُمُ ... رَكِبوا إلى العلياءِ كلَّ سَفِينِ

لم يَهْجُروكَ مَلالَةً، لكنَّهُمْ ... خُلِقُوا لِصَيدِ اللؤلؤِ المكْنونِ

فأجابني والدَّمْعُ ملءُ جُفُونِهِ: ... كَمْ ذا تُسَلِّيني، ولا تُسْلِيني

تُسْليني: تنسيني

الأرْمَنِيُّ على سُفُوحيَ والربى ... يَبْنِي الحصونَ لنفسِهِ بِحُصوني

وبنو يَهُوذا يَنْصِبونَ خِيامَهُمْ ... في ظلِّ أوْدِيَتي وفوقَ حُزُوني

حزوني: هضابي

وبَنيَّ عَنِّيَ غافِلُونَ كأنني ... قد صرتُ في الأشياءِ غيرَ ثَمِينِ

أنتمْ دُيونٌ لي على آمِيرِكا ... ومِنَ المُروءةِ أنْ تُرَدَّ دُيُوني

آميركا: أميركا، ومدها ليستقيم الوزن

أَوَليسَ مِنْ سُخْرِ القضاءِ وهُزْئِهِ ... أنْ يَأْخُذَ المثْري مِنَ المِسْكينِ

٥٢ الثري العالة

إذا بـنـى رجـلٌ قَـصْـراً وزَخْـرَفَـهُ　　سُقْنَا إليهِ التَّهاني وامْتَدَحْناهُ
وما بَنَى قصرَهُ إلّا لِيَحْجُبَ عن　　أبـصـارِنـا فـي زواياهُ خَطايـاهُ
ونَمْدَحُ المرءَ مِنْ خَزٍّ ملابِسُهُ　　وذلكَ الخَزُّ لم تَنْسُجْهُ كَفَّاهُ

الخز: الحرير

٥٣ نعاج نيويورك

أحسنُ الأيامِ في العصرِ انقضَتْ　　آهِ لو ينشُرُها مَنْ قد طَوَاها
صرتُ في نْيويُرْكَ طَيْفاً شارِداً　　مَعْ طُيوفٍ حائراتٍ في سُرَاها

سراها: سيرها الليلي

طَرَحَتْ عنها رُؤَاها، ومَضَتْ　　تَنْشُدُ المجدَ الذي فيه شَقَاها
كَنِعَاجٍ عَمِيَتْ أبصارُها　　ووَهَتْ في طَلَبِ العُشْبِ قُوَاها

وهت: تعبت

كُلَّمَا جَدَّتْ لِكَيْ تُدْرِكَهُ　　وَجَدَتْهُ صارَ في الأرضِ وَرَاهَا

٥٤ لبنان في حماية الله

اِثنانِ أَعْيَا الدهرَ أنْ يُبْلِيهِمَا:　　لبنانُ، والأملُ الذي لِذَويهِ
نَشْتاقُهُ والصيفُ فوقَ هِضَابِه　　ونُحِبُّهُ والثلجُ في وِادِيهِ
وَطَني سَتَبْقَى الأرضُ عنديَ كلُّها،　　حتى أعودَ إليهِ، أرضَ التِّيهِ
سألوا الجمالَ، فقالَ: هذا هَيْكَلي　　والشِّعْرَ، قال: بَنَيْتُ عَرْشِيَ فيهِ
غَيْري يَراهُ سِياسَةً وطَوائفاً　　ويَظَلُّ يَزْعُمُ أَنَّهُ رائِيهِ
لا يُسْفِرُ الحُسْنُ النَّزيهُ لِنَاظِرٍ　　ما دام منهُ الطَّرْفُ غيرَ نَزيهِ

الطرف: النظر

ولِمَنْ يَقُولونَ: الفِرَنْجُ حُمَاتُهُ،　　اَللَّهُ قبلَ سُيوفِهِمْ حَامِيهِ

٥٥ طباخو السم في أوروبا

وارَحْمَتاهُ لأورُبَّا! فَما فَتَكَتْ　　أَفْعى بِأَفْعى، كَأَهلِيها بِأَهلِيها

لم يبقَ غيرُ الضَّوَارِي في خَلائِقِها ومِـنْ حَـضَـارَتِـهـا إلّا مَـخَـازِيـهـا

الضواري: الوحوش، خلائقها: ناسها

كانتْ تُعِدُّ الدَّوَاهي في مَصانِعِها لِغَيْرِهـا، فـأصـابَـتْـهـا دَواهِـيـهـا

وكـلُّ طـابِـخ سُـمٍّ سـوفَ يـأكُـلُـهُ وكـلُّ حـافِـرِ بـئـرٍ واقـعٌ فـيـهـا

لـو دامَ إيمانُـهـا لـم تَـنْطَلِقْ سَقَرٌ بِذُورِها، والأفاعِي في مَغَانِيها

لكنْ أَكَبَّتْ على الآلاتِ تَعْبُدُها وتَسْتَعينُ بِـهـا مِنْ دونِ بَارِيـهـا

باريها: خالقها

٥٦ حنين إلى عصر الرشيد

كَمْ بينَ طَيَّاتِ العصورِ الخاليةْ عِـظَـةٍ لأبـنـاءِ الـدُّهـورِ الآتِـيَـةْ

فـإذا مـشى فِـيـنـا الـفَـنـاءُ فَـرَاعَـنـا خَلَقَ الخيالُ لنا الحياةَ الثَّانِيةْ

كَمْ تَعْشَقُ الدنيا وتُنْكِرُ صَدَّها أنسيتَ أنَّ الخُلْفَ طَبْعُ الغَانِيةْ؟

عدم الوفاء بالوعد من طبع الفتاة الجميلة

خلِّ الغرورَ بِـمـا لَدَيْكَ، فإنمـا دُنْـيـاكَ زَائـلـةٌ، ونَـفْـسُـكَ فَـانِـيـةْ

إنَّ الأُلَى وَطِئَتْ نِعَالُهُمُ السُّهَى وَطِئَتْ جِبَاهَهُمُ نِعَالُ الماشِيَةْ

السهى: نجم بعيد، يقول: الذين بلغوا المجد ماتوا وداست قبورهم المواشي

لـو أنَّ حَيَّاً خـالـدٌ فـوقَ الـثَّـرَى مـا مـاتَ هـارونٌ، وزالَ مُـعَـاوِيَـةْ

أو كـانَ عـزٌّ دائـمـاً، مَـا أصـبـحـتْ بـغـدادُ في عَـدَدِ الـطُّـلـولِ الـبَـالِـيَـةْ

أَخْنَتْ عليها الحادثاتُ، فَدُورُها خِرَبٌ تَعَاوَرُها الرِّياحُ السَّافِيَةْ

أخنت عليها (أهلكتها) الحادثات (المصائب) فبيوتها خِرَبٌ تعاورها (تتناوبها) الرياح السافية (المحملة بالأتربة)

واجتاحَ مُجْتَاحُ العُروشِ مُلُوكَها فـكـأنَّـهُـمْ أعـجـازُ نَـخْـلٍ خَـاوِيَـةْ

مجتاح العروش: الزمن، أعجاز نخل خاوية: أُصولُ نَخْلٍ خَاوِيةٌ سَاقطَة فارِغة

أيـن الـقـصـورُ الـشـاهـقـاتُ وأهـلُـهـا بـاد الـجـمـيـعُ فـمـا لـهُـمْ مِـن بـاقِـيـةْ

دَرَسَـتْ مـعـالِـمُـهـا وغَـيَّـرَهـا الـبِـلَـى ولقد تُرَى حُلَلَ المَحاسِنِ كَاسِيَةْ

درست (امحت) معالمها وغيرها البلى (التحلل)، وكانت ترى كاسية (مكسوة) بحلل (بثياب) المحاسن

أيامَ كانَ لِكُلِّ حُسْنٍ شاعِرٌ كَلِفٌ بِهِ، ولِكُلِّ شِعْرٍ راوِيَةْ

الراوية: الذي يحفظ ويروي أشعار غيره

أيامَ دجلَةُ مُطْمئِنٌّ هادِئٌ جَذْلانُ يَهْزَأُ بالبُحورِ الطَّامِيَةْ

دجلة كان مفتخراً على كل البحور التي تفيض بمائها، والبحر تعني النهر أيضاً

النيلُ خادِمُهُ الأمينُ؛ وعبدُهُ نهرُ الفراتِ وكلُّ عينٍ جارِيةْ

في عصر هارون الرشيد كانت مصر تتبع دار الخلافة في بغداد

تهوَى الكواكبُ أنَّها حَصْباؤُهُ أو أنَّها شَجَرٌ عليْهِ حَانِيَةْ

حانية: منحنية

وتوَدُّ كلُّ سَحَابةٍ مَرَّتْ بِهِ لو أنَّه سُحُبٌ عليها هَامِيَةْ

هامية: هاطلة بالمطر

وتَرى الغَزَالَةُ طيفَها عندَ الضُّحَى في سطحِهِ، فَتَبِيتُ عَطْشَى راوِيَةْ

الغزالة: الشمس، وحقها ألا تحلى بأل فغزالة علم على الشمس

أيامَ كانَ الشرقُ مرهوبَ الحِمَى يكسُو الجلالُ سهولَهُ ورَوَابِيَهْ

أيامَ هارونٌ يُدِيرُ شُؤُونَها، يا عصرَهارونٍ عليكَ سَلامِيَهْ

فَتَحَضَّرَ البادُونَ في أيَّامِهِ واسْتَأْنَسَتْ حتى الوُحوشُ الضَّارِيَةْ

إيهٍ أبا المأمونِ! ذِكْرُكَ آبِدٌ في الأرضِ مثلَ الشامِخَاتِ الرَّاسِيَةْ

أبو المأمون: هارون الرشيد، آبد: خالد للأبد، الشامخات الراسية: الجبال

يا ويحَ هذا الشرقِ بَعْدَكَ! إنَّهُ لِلضَّعْفِ باتَ على شَفِيرِ الهَاوِيَةْ

ما كانَ يقنعُ بالنجومِ وَسَائِدَاً واليومَ يقنعُ أهلُهُ بِالعَافِيَةْ

أَبَني الغَطَارِفَةِ الجبابِرَةِ الأُلَى وَطِئُوا اللُّوَارَ، ودَوَّخوا إسْبَانِيَةْ

يا أبناء الغطارفة (السادة) الألى (الذين) وطئوا (داسوا) اللوار (نهر يصب في الأطلسي، وبقربه وقعت معركة بلاط الشهداء على بعد ٣٠٠ كم من باريس) ودوَّخوا إسبانية

لا أَسْتَفِزُّكُمُ لِمِثْلِ فُتُوحِهِمْ لكنْ إلى حِفْظِ البَقَايا البَاقِيَةْ

يا لِلرِّجَالِ! أما عَلِمْتُمْ أنَّكُمْ، إنْ لم تَثُورُوا، أمَّةٌ مُتَلاشِيَةْ؟

٥٧ بعد الموت

غَـلِـطَ الـقـائـلُ إنَّـا خـالـدونْ   كُـلُّـنَـا بـعـدَ الـرَّدَى هَـيُّ بْـنُ بَـيّ

هي بن بي: واحد من الناس ليس له أي صفة

* * *

لو عَرَفْنَا ما الذي قبلَ الوُجُودْ   لَعَرَفْنَا ما الذي بعدَ الفَنَاءْ

نَحنُ لو كُنَّا، كمَا قَالوُا، نَعُودْ   لم تَخَفْ أنفسُنا رَيْبَ القَضَاءْ

إنما القولُ بأنَّا لِلْخُلودْ   فِكْرَةٌ أَوْجَدَها حُبُّ البَقَاءْ

* * *

نَعْشَقُ البُقْيَا لأنَّا زَائِلُونْ   والأمَانِي حَيَّةٌ في كُلِّ حَيّ

* * *

زَعَمُوا الأرواحَ تَبْقَى سَرْمَدَا   خَدَعُونا. نَحْنُ والشَّمْعُ سَوَاءْ

سرمداً: للأبد

يَلْبَثُ النورُ بِها مُتَّقِدَا   فإذا ما احترقتْ بَادَ الضِّيَاءْ

أينَ كانَ النورُ؟ أنَّى وُجِدَا؟   كيف وَلَّى عندَما زالَ البِنَاءْ؟

البناء جسم الشمعة، وبزواله زال النور. كذا جسم الإنسان.. يزول فتزول الروح

* * *

شَمْعَتي فيها لِطُلَّابِ اليَقِينْ   آيةٌ تَدْفَعُ عنهُمْ كُلَّ غَيّ

آية: برهان

* * *

ليستِ الروحُ سِوى هذا الجَسَدْ   مَعَهُ جاءتْ ومَعْهُ تَرْجِعُ

لم تَكُنْ موجودةً قبلَ وُجِدْ   ولهذا حِينَ يمضي تَتْبَعُ

فَمِنَ الزُّورِ المُوَشَّى والفَنَدْ   قولُنا: الأرواحُ لَيستْ تُصْرَعُ

الفند: العجز

* * *

تَـلْبَـثُ الأَفـيـاءُ مـا دَامَ الـغُـصُـونْ فـإذا مـا ذَهَـبـتْ لـم يَـبْـقَ فَـيّ

* * *

لـو تكـونُ الـروحُ ما لا يـضْمَحِـلّ ما جَـزِعْـنَـا كُـلَّـمـا جِـسْـمٌ هَـمَـدْ
لـو تَـكُـونُ الـروحُ جِـسْـماً مُـسْـتَـقِـلّ لَـرآهـا مَـنْ يَـرَى هـذا الـجَـسَـدْ
كـلُّ ما في الأرضِ مِنْ عَيْنٍ وظِلّ سـوفَ يَـنْـحَـلُّ كَـمـا انْـحَـلَّ الـزَّبَـدْ

* * *

ولـئـنْ صـحَّ بـأنَّـا مُـنْـشَـرونْ جـازَ أنْ يُـعْـقِـبَ ذاكَ الـنَّـشْـرَ طَـيّ

* * *

لـيـتَ مَـنْ قـالـوا بِـأَنَّـا كـالـزُّهُـورْ خَـبِّـرونَـا أيـنَ تَـمْـضـي الـرائـحَـةْ؟
أتُـرى تَـبـقـى كـألـحـانِ الـدُّهـورْ؟ أم تَـلاشَـى مِـثْـلَ صـوتِ الـنَّـائـحَـةْ؟

تلاشى: تتلاشى

لـيـتَ شِـعْـرِي أيُّ خُـلْـدٍ لِـلْـبُـذورْ بـعـدَ أن تُـلْـقَـى بِـنَـارٍ لافِـحَـةْ؟

* * *

قـلْ لِـمَـنْ يَـخْـبِـطُ في لـيـلِ الـظُّـنُـونْ لـيـسَ بـعـدَ الـمـوتِ لِـلـظـامِـئِ رِيّ

* * *

مِـثْـلَـمَـا يَـذْهَـبُ لـونُ الـوَرَقَـةْ عـنـدمـا تَـيْـبَـسُ في الأرضِ الأُصُـولْ
مِـثْـلَـمَـا يُـفْـقَـدُ نُـورُ الـحَـدَقَـةْ حِـيـنَ أَقْـضِـي، هـكـذا نَـفْـسِـي تَـزُولْ
كَـتَـلاشِـي الـشَّـمْـعَـةِ الـمـحْـتَـرِقَـةْ تَـتَـلاشَـى بـيـنَ ضِـحْـكٍ وعَـوِيـلْ

* * *

أنَـا بـعـدَ الـمـوتِ شـيـئـاً لا أَكُـونْ حـيـثُ إنِّـي لـم أَكُـنْ مِـنْ قـبـلُ شَـيّ

* * *

إيـهِ أَبْـنَـاءَ الـثَّـرَى نَـسْـلَ الـقُـرُودْ عِـلِّـلُـوا أنْـفُـسَـكُـمْ بـالـتُّـرَّهَـاتْ
اِلْـبَـسُـوا في صَـحْـوِكُـمْ ثـوبَ الـجُـمُـودْ واحْـلُـمُـوا في نـومِـكُـمْ بِـالـمـعْـجِـزاتْ
فَـسَـيَـأْتـي زَمَـنٌ غـيـرُ بَـعِـيـدْ تَـتَـهـادى بَـيْـنَـكُـمْ فـيـهِ إيَـاةْ

إياة: هالة الشمس. فالكرة الأرضية قد تعود لتلتحم بأمها الشمس!

* * *

وَيَـحِـلُّ الـلَّـهُ فـي مَـاءٍ وطِـيـنْ   فَيَراهُ الشَّيْخُ، والشَّابُ الأُحَيّ!

عندئذ، عندما نلتحم بأمنا الشمس سنرى نجوم الظهر ويحل فينا الله، فيراه الشيخ الكبير والشاب الأحي (تصغير الأحوى أي المسمر الضارب إلى حمرة، والتعبير من بيت لابن الفارض في يائيته المشهورة، و«الشاب» هنا مثلها هناك كاسرة البيت فلا بد لك من قراءتها بإسقاط الألف. وأخطأ في فهم «الأحي» صاحب المقدمة الطويلة لمجموع أشعار أبو ماضي زهير ميرزا، فجعلها «الأكثر حياة»، وتابعه في سوء فهمه مَن تابعه من الدارسين)

وإنما فسرنا الأبيات الأخيرة هذا التفسير المباشر لأن روح القصيدة روح دارويني مادي خالص. ولا نراه قال إن الله يحل في الماء والطين ـ وهذا تلوين سمفوني على كلمة جبران (أما أنت إذا أحببت فلا تقل «الله في قلبي» لكن قل «أنا في قلب الله») ـ قلنا لا نراه قالها إلا ساخراً ناقضاً هذه الفكرة

٥٨ كل امرئٍ وجنته

لا تَسَلْنِي عنِ السماءِ، فما عِنـ   ـديَ إلَّا الـنُّـعـوتُ والأسـمـاءُ

لا تسألني عن السماء (الجنة) فليس عندي سوى الأوصاف والأسماء (معلومات قليلة عنها)

فـسـمـاءُ الـراعـيِ، كـمـا يَـتَـمَـنَّـا   هـا، مُـروجٌ فـسـيـحـةٌ خـضـراءُ

وَهْـيَ عـنـدَ الأمِّ الـتي اخْـتَـرَمَ الـمو   تُ بَـنِـيـهـا، وضَـلَّ عنـهـا الـعزاءُ. .

اخترم: أهلَكَ

مَـوْضِـعٌ لا يَـنَـالُـهُـمْ فـيـهِ ضَـيْـمٌ   لا، ولا يُـدْرِكُ الـشـبـابَ الـفَـنَـاءُ

وكَـذا يُـولَـدُ الـرجـاءُ مـن الـيـأ   سِ إذا مَـاتَ فـي الـقـلـوبِ الـرجـاءُ

وهْـيَ عـنـدَ الـفـقـيرِ أرضٌ وراءَ الـ   ـأُفْقِ، فـيـهـا ما يـشـتـهـي الـفـقـراءُ

وهْيَ عندَ المظلومِ أرضٌ كَهَذي الـ   ـأَرْضِ، لَكِنْ قد شاعَ فيها الإخاءُ

وهْيَ عندَ الخليعِ أرضٌ تَمِيسُ الـ   ـحُـورُ فـيـهـا، وتَـدْفُـقُ الـصَّـهْـبَـاءُ

الخليع: المتهتك اللامبالي، تميس الحور: تتمايل الجميلات، تدفق الصهباء: تتدفق الخمر

لـيـس بـيـنَ الـصَّـلاحِ والـشَّـرِّ حَـدٌّ   كـالـذي شـاءَ وَضْـعَـهُ الأنـبـيـاءُ

وإذا لـم يـكـنْ عـفـافٌ وفِـسْـقٌ   لـم تـكـنْ حِـشْـمَـةٌ، ولا اسْـتِـحـيـاءُ

كُـلُّ قـلـبٍ لـه الـسـمـاءُ الـتي يَـهْـ   ـوى، وإنْ شئتَ كُلُّ قَـلْـبٍ سـمـاءُ

كل قلب له جنته، لا بل كل قلب لكل إنسان هو جنة

رُبَّ شيءٍ كالجوهرِ الفردِ فَذٌّ   عَدَّدَتْهُ الأغراضُ والأهواءُ

ثمة شيء فذ (متفرد) كالجوهر الفرد (الأصل الواحد) ولكنه يتعدد بتعدد حاجاتنا واهوائنا

كلُّ ما تَقْصُرُ المداركُ عنهُ   كائنٌ مِثْلَما الظنونُ تشاءُ

ما تقصر المدارك (العقول) عن فهمه كائن (صائر) بحسب ما تهوى الظنون. لا أدري إن كنت ستقول إنها من الشعر المدرسي! لكن فيها حكمة عامة. فكلنا يتصور السعادة في زمن سيأتي، ويتصورها بحسب شهوات قلبه. والجنة هي التصوير الأكبر للسعادة الشاملة، ولكن الشاعر يكتشف أن لكل إنسان جنته الخاصة. ويطلق بعض الأحكام التي تستوقف المرء: فلولا وجود الفِسق لما وُجد العفاف. وليس هناك حد قاطع واضح بين الخير والشر

٥٩ حجر متعطش للشهرة

سمِعَ الليلُ ذو النجومِ أنيناً   وهْوَ يَغْشَى المدينةَ البيضاءَ

يغشى المدينة: يأتيها

فانحنى فوقَها كَمُسْتَرِقِ الهَمْـ   ـسِ، يُطِيلُ السُّكوتَ والإصغاءَ

انحنى الليل فوق المدينة مصغياً

فرأى أهلَها نِياماً كأهلِ الـ   ـكهفِ، لا جَلْبَةٌ ولا ضَوْضَاءَ

ورأى السَّدَّ خلفَها مُحْكَمَ البُنْـ   ـيانِ، والماءَ يُشْبِهُ الصحراءَ

كانَ ذاكَ الأنينُ من حَجَرٍ في السَّـ   ـدِّ يَشكُو المقادِرَ العمياءَ

أيُّ شَأْنٍ، يَقولُ، في الكون شَأْني؟   لستُ شيئاً فيهِ، ولستُ هَبَاءَ

لا رُخامٌ أنا فَأُنْحَتُ تِمثا   لاً، ولا صخرةٌ تكونُ بِنَاءَ

لستُ دُرّاً تُنافِسُ الغادةُ الحسـ   ـناءُ فيهِ المليحةَ الحسناءَ

فَلْأُغادِرْ هذا الوجودَ وأَمضي   بسلامٍ، إنِي كرهتُ البقاءَ

وَهَوى من مَكانِه، وَهْوَ يَشكُو الـ   ـأرضَ والشُّهْبَ والدجى والسماءَ

فَتَحَ الفجرُ جَفنَهُ، فإذا الطُّو   فانُ يَغْشَى المدينةَ البيضاءَ

٦٠ محاولة في الاعتزال

سئمَتْ نفسيَ الحياةَ معَ النا   سِ، ومَلَّتْ حتى مِنَ الأحبابِ

قالتِ: اخْرُجْ مِنَ المدينةِ للقَفْـ   ـرِ، فَفِيهِ النَّجاةُ مِنْ أَوْصَابي

القفر: الخلاء، أوصابي: آلامي

وَلْأَكُنْ كالغُرَابِ رِزْقِيَ في الحقْـ ـلِ، وفي السفْحِ مَجْثَمِي واضْطِرَابِي

مجثم: موضع، اضطرابي: حركتي

يا لِنفسي! فَإِنَّها فَتَنَتْني بالحديثِ المنمَّقِ الخلابِ

إنما نَفْسِيَ التي مَلَّتِ العُمْـ ـرانَ، مَلَّتْ في الغَابِ صمتَ الغابِ

عَلَّمتْني الحياةُ في القفرِ أَنِّي، أينما كنتُ، ساكنٌ في الترابِ

وسأبقى، ما دمتُ في قفصِ الصَّلْـ ـصَالِ، عبدَ المُنى أسيرَ الرِّغَابِ

الصلصال: الطين

خِلْتُ أنِّي في القفرِ أصبحتُ وَحْدي فإذا الناسُ كلُّهُمْ في ثِيَابي

٦١ أنا والعُلَّيْقة

ذاتُ شَوْكٍ كالحِرَابِ أوْ كأظْفارِ العُقَابِ

يصف العليقة، وهي نبتة شوكية لها ثمر كالتوت، ويستعملونها في التسييج، لكنها تعلق بملابس الماشي وتعرقله، ولا يرى شاعرنا فيها نفعاً

رَبَضَتْ في الغابِ كاللِّصِّ لِفَتْكٍ واسْتِلابِ

قلتُ: يا ساكِنَةَ الغا بِ، ويا بنتَ الترابِ

لا تَلِجِّي في اجتذابي، أو فَلِجِّي في اجْتِذابي

لا تَلجِّي: لا تُلِحّي

إنَّ عُوداً فيه ماءٌ ليسَ عوداً لاحْتِطَابِ

يقصد بالعود ذي الماء نفسه، فهو ما زال معطاء

لم أَهَبْ كلَّ الذي عِنْـ ـدِي، ولم يَفْرَغْ وِطَابي

وطابي: وعائي

أَنَا نَهْرٌ، لم أُتَمِّمْ بعدُ في الأرضِ انسيابي

وبِنَفسي ألفُ مَعْنىً لم يُضَمَّنْ في كِتابِ

وإذا لم يبقَ في غَيْـ ـمِيَ ماءٌ لانسِكَابِ

وإذا ما صِرْتُ كالعُلَّـ ـيْقِ تِمْثَالَ اكتئابِ

فاجْذُبيني إن يَكُنْ مِنِّـ ـيَ نَفْعٌ للترابِ

جعل الموت عليقة تريد جذبه للتراب لكنه ما زال يملك قوة الحياة والعطاء

جئتُ، لا أعلمُ مِنْ أيْـ ـنَ، ولكنّي أتيتُ
ولقدْ أبصرتُ قُدّا مي طريقاً، فمشيتُ

قرر محمد عبد الوهاب أن يجعلها «أمامي» بدل «قدامي» فكسر الوزن واستراح من كلمةٍ ظنها عامية، وجعلها عبد الحليم (أبصرت للدنيا طريقاً) فاتزن له البيت وظلت «قدامي» خارج معبد الغناء العاطفي

وسأبقى ماشياً، إنْ شئتُ هذا أم أَبَيْتُ
كيف جئتُ؟ كيفَ أبصَرْ تُ طريقي؟ لستُ أدري!

لو نظرت إلى البيت الأول واستكْنَهْتَه لوجدته بسيطاً مثل الماء، لكنه على بساطته يحمل النصف الأول من السؤال الوجودي الثقيل: من أين جئنا؟ والجواب بالطبع: لست أدري. والنصف الآخر من السؤال الوجودي: وأين المقر؟ سيطرحه الشاعر بعد بضعة أبيات. وسيطرحه بقوة. وفي مقدمتنا أشرنا إلى قصيدة لشاعر من قرية أبو ماضي نراها الموحي لشاعرنا بطلاسمه

* * *

قد سألتُ البحرَ يوماً: هَل أنا يا بحرُ مِنْكَا؟
هل صحيحٌ ما رواهُ بعضُهُمْ عني وعنكا؟
أم تُرَى ما زعموا زُو راً وبُهْتَاناً وإفْكَا؟
ضَحِكتْ أمواجُهُ مِنِّـ ـي وقالتْ: لست أدري!

ولماذا البحر؟ لأن إيليا قرأ في مصر المقالات الكثيرة، في المقتطف وغير المقتطف، التي عرضت نظريات نشوء الخلق السائدة في أوروبا آنذاك، وجلها يقول إن أول ما ظهر من خلق ظهر في الماء. وهذه النظريات ما زالت الأشيع عند علماء الأحياء حتى يومنا

* * *

أنتَ يا بحرُ أسيرٌ، آهِ ما أعظمَ أسرَكْ
أنتَ مثلي أيها الجبَّـ ـارُ، لا تَمْلِكُ أمرَكْ
أشبهتْ حالُكَ حالِي، وحَكَى عُذْرِيَ عُذْرَكْ

حكى: شابَهَ

فمتى أنجُو مِنَ الأسْـ ـرِ وتَنْجُو؟ لست أدري!

* * *

قد سألتُ السُّحْبَ في الآ فاقِ، هل تذكُرُ رملَكْ
وسألتُ الشَجَرَ المُو رِقَ، هل يَعْرِفُ فضلَكْ
وسألتُ الدُّرَّ في الأعْ ناقِ، هل تَذْكُرُ أصلَكْ
وكأنّي خِلْتُها قا لتْ جميعاً: لست أدري!

* * *

يَرقُصُ الموجُ، وفي قا عِكَ حربٌ لن تزولا

أي في قاع البحر

تخلُقُ الأسماكَ لكنْ، تخلُقُ الحوتَ الأكُولا
قد جمعتَ الموتَ في صد رِكَ، والعيشَ الجميلا
ليت شِعْرِي: أنتَ مَهْدٌ أم ضَرِيحٌ؟ لست أدري!

* * *

فيكَ مثلي، أيها الجبَّـ ـارُ، أصدافٌ ورملُ
إنما أنتَ بِلا ظِـ ـلٍّ، ولي في الأرضِ ظِلُّ
إنما أنتَ بِلا عقْـ ـلٍ ولي، يا بحرُ، عقلُ
فلماذا، يا تُرَى، أمْـ ـضي وتَبْقَى؟ لست أدري!

* * *

إن في صدريَ، يَا بحـ ـرُ، لأسرَاراً عِجَابا
نَزَلَ السِّتْرُ عليها، وأنا كنتُ الحِجَابَا
ولذا أزْدَادُ بُعْداً، كلما ازدَدْتُ اقتِرَابَا
وأرَانِي، كلما أو شَكْتُ أدري، لست أدري!

* * *

قيلَ: أدْرَى الناسِ بالأسـ ـرارِ سُكَّانُ الصَّوامِعْ
قلتُ: إن صَحَّ الذي قـ ـالوا، فإن السِّرَّ شائِعْ
عَجَبَاً! كيفَ تَرى الشمـ ـسَ عيونٌ في البراقِعْ؟

كيف يرى الحقيقة ناس مستورون في صوامعهم كأنهم يضعون البراقع على وجوههم؟

والـــتـــي لـــم تَـــتَـــبَــرْقَــعْ لا تَـــرَاهَـــا؟ لـــســـت أدري!

* * *

قــد دخــلــتُ الــديــرَ عــنــدَ الــفــجــرِ، كــالــفــجــرِ الــطــروبْ
وتــركــتُ الــديــرَ عــنــدَ الــلَّــيــلِ، كــالــلــيــلِ الــغــضــوبْ
كــانَ فــي نَــفْــسِــيَ كــربٌ، صــارَ فــي نــفــســي كُــرُوبْ
أَمِــنَ الــديــرِ أَمِ الــلَّــيــلِ اكــتــئــابــيِ؟ لــســت أدري!

* * *

أَوَرَاءَ الــقــبــرِ، بــعــدَ الــمــوتِ، بــعــثٌ ونُــشُــورُ
فَــحَــيَــاةٌ فَــخُــلُــودٌ، أم فــنــاءٌ ودثــورُ
أكــلامُ الــنــاسِ صِــدْقٌ، أم كــلامُ الــنــاسِ زُورُ
أصــحــيــحٌ أنَّ بــعــضَ الــنَّــاسِ يَــدْري؟ لــســت أدري!

* * *

إن أَكُــنْ أُبْــعَــثُ بــعــدَ الــمــوتِ جُــثْــمــانَــاً وعَــقْــلا
أَتُــرَى أُبْــعَــثُ بَــعْــضــاً، أم تُــرَى أُبْــعَــثُ كُــلَّا؟
أَتُــرَى أُبْــعَــثُ طِــفــلاً، أَم تُــرَى أُبْــعَــثُ كَــهْــلا؟
ثــمَّ هــل أعــرِفُ بــعــدَ الــمــوتِ ذاتــيِ؟ لــســت أدري!

* * *

لــم أجــدْ فــي الــقــصــرِ شــيــئــاً لــيــسَ فــي الــكــوخِ الــمَــهِــيــنِ
أنــا، فــي هــذا وهــذا، عــبــدُ شَــكٍّ ويَــقِــيــنِ
وســجــيــنُ الــخَــالِــدَيْــنِ: الــلَّــيــلِ والــصــبــحِ الــمــبِــيــنِ
هــل أنــا فــي الــقــصــرِ أم فــي الــكــوخِ أَرْقَــى؟ لــســت أدري!

* * *

أيــن ضِــحْــكِــي وبُــكَــائــيِ، وأنــا طــفــلٌ صَــغــيــرُ
أيــن جَــهْــلــيِ ومَــرَاحــيِ، وأنــا غَــضٌّ غَــريــرُ
أيــنَ أحــلامــيِ، وكــانــتْ كــيــفَــمَــا سِــرْتُ تَــسِــيــرُ
كُــلُّــهــا ضــاعــتْ، ولــكــنْ كــيــفَ ضــاعــتْ؟ لــست أدري!

* * *

أأنــا أفــصــحُ مِــنْ عُــصْــ ـفــورةِ الــوادي وأعــذبْ
ومِــنَ الــزهــرةِ أَشْــهــى، وشــذى الــزهــرةِ أطــيــبْ

يقصد: أأنا أطيب من شذى الزهرة؟ (وقد قللنا من علامات الاستفهام فيما سيأتي فكل القصيدة أسئلة)

ومِــنَ الــحَــيَّــةِ أدْهَــى، ومِــنَ الــنَّــمْــلَــةِ أغــربْ
أم أنــا أَوْضَــعُ مِــنْ هَــ ـذي وأَدْنــى؟ لــســت أدري!

أوضع: أحقر

* * *

كُــلُّــهــا مِــثْــلِــيَ تَــحــيَــا، كُــلُّــهــا مِــثْــلِــي تَــمُــوتُ
ولــهــا مِــثْــلِــي شَــرَابٌ، ولــهــا مِــثْــلِــيَ قُــوتُ
وانــتــبــاهٌ ورُقــادٌ، وحــديــثٌ وسُــكُــوتُ
فَــبِــمَــا أَمْــتَــازُ عــنــهــا لــيــتَ شِــعْــرِي؟ لــســت أدري!

* * *

أنــا كــالــصَّــهْــبَــاءِ، لــكــنْ أنــا صَــهْــبَــائــي وَدَنِّــي
أَصْــلُــهــا خَــافٍ كَــأَصْــلــي، سِــجْــنُــهــا طِــيــنٌ كَــسِــجْــنــي

الصهباء، أي الخمر، يضعونها في خابية فخارية ويسدونها بطين ويختمون عليه، فهذا سجنها، والإنسان مخلوق من طين وجسده سجن روحه

ويُــزَاحُ الــخَــتْــمُ عَــنْــهــا مِــثْــلَــمــا يَــنْــشَــقُّ عَــنِّــي
وهــي لا تَــفْــقَــهُ مَــعْــنَــا هــا، وإنِّــي.. لــســت أدري!

* * *

غَــلِــطَ الــقــائــلُ: إنَّ الــ ـخــمــرَ بِــنْــتُ الــخَــابِــيَــةْ

الخابية: الجرة الكبيرة

فَــهْــيَ، قــبــلَ الــزِّقِّ، كــانــتْ فــي عُــروقِ الــدَّالِــيَــةْ

الزق: قربة كبيرة من جلد لنقل الخمر

وحَــوَاهــا قــبــلَ رَحْــمِ الــ ـكَــرْمِ رَحْــمُ الــغَــادِيَــةْ

الغادية: السحابة

إنما مِنْ قبلِ هذا، أينَ كانتْ؟ لستُ أدري!

* * *

أنا لا أَذْكُرُ شَيئاً مِنْ حياتي الماضِيَةْ
أنا لا أعرفُ شيئاً مِنْ حياتِي الآتِيةْ
لِيَ ذَاتٌ، غيرَ أنِّي لَسْتُ أدري مَا هِيَهْ
فَمَتَى تعرفُ ذاتِي كُنْهَ ذَاتِي؟ لستُ أدري!

* * *

إنَّنِي جئتُ وأمضِي، وأنا لا أَعْلَمُ
أنا لُغْزٌ، وذَهَابِي كَمَجيئي طِلْسَمُ
والذي أَوْجَدَ هذا اللُّغْزَ لُغْزٌ مُبْهَمُ
لا تُجَادِلْ. ذو الحِجَا من قالَ إنِّي. لستُ أدري!

٦٣ عجائز موسرات

عرج صاحب الديوان في إحدى سفراته على فندق فخم، فلم ير إلَّا عجائز، فقال:

لِمَنْ يَضُوعُ العَبِيرُ؟ لِمَنْ تُغَنِّي الطيورُ؟

يضوع: يفوح

ولا جمالٌ أنيقٌ ولا شبابٌ نَضيرُ
بل مُومِيَاتٌ، عليها أَطَالِسٌ، وحَرِيرُ

أطالس: ثياب حرير

راحتْ تُقَعْقِعُ حولِي فَكَادَ عَقْلِي يَطِيرُ
ولاذَ قلبِي بِصَدْرِي كأنَّهُ عُصفورُ
لاحتْ لهُ في الأعَالي بَوَاشِقٌ وصقورُ

بواشق: جوارح

وقالَ: ضُويِقْتَ، فاهْرُبْ قلتُ: الفِرَارُ عَسِيرُ
ما لِي جَنَاحٌ، ولا لِي سَيَّارَةٌ، أو بَعِيرُ
هذِي العصورُ الخَوَالِي تَطوفُ بِي، وتَدُورُ

العصور الخوالي: الأزمانُ الماضية.. يقصد أولئك العجائز

مِـنْ كـلِّ شَـمْـطَـاءَ وَلَّـى شَـبَـابُـهـا، والـغُـرُورُ

شمطاء: اختلط بياض شعرها بسواده. أليس تكون المرأة غادرت صباها إذا ذهب غرورها النسوي! لكنني أقول لك شيئاً: التي كانت جميلة في صباها، تصبح عجوزاً ويغادرها الجمال ولا يغادرها الغرور. ما أصعب أن تتعامل مع امرأة كانت جميلة!

يـا طـالـبَ الـشَّـهْـدِ أَقْـصِـرْ لـم يَـبْـقَ إلّا الـقَـفِـيـرُ

أقصر: أكْفُف، القفير: الخلية، يقول: ذهب العسل وبقي هيكل الخلية

كـأنـمـا الـوجـهُ مـنـهـا قـد عَـضَّـهُ الـزَّمْـهَـرِيـرُ

كـالـبـدرِ حـيـنَ تَـرَاهُ يُـعِـيـنُـكَ الـنَّـاظُـورُ

يشبه وجوه العجوز بالقمر عندما تراه بالمنظار، فترى فيه رقشاً ونقشاً

تـبـدو لِـعَـيْـنَـيْـكَ فـيـهِ بَـرَازِخٌ وبُـحُـورُ

البرزخ: الأرض الفاصلة بين ماءين (شيء في التضاريس)

وأنْـجُـدٌ ووِهَـادٌ لـكـنَّـهُ مَـهْـجـورُ

أنجد: هضاب، وهاد: منخفضات

ولِـلْـيَـدَيْـنِ ارتـعـاشٌ، ولِـلْـعـظـامِ صَـرِيـرُ

أمَّـا الـعـيـونُ فَـغَـارَتْ ولا تَـزَالُ تَـغُـورُ

مَـغَـاوِرٌ، بَـلْ صَـحَـارَى، بـل أَكْـهُـفٌ، بـل قُـبُـورُ

والـخَـصْـرُ! عَـفْـواً وصَـفْـحَـاً! كـانـتْ لَـهُـنَّ خُـصُـورُ

هُـنَّ الـسَّـعَـالَـى، ولـكـنْ سُـعَـالُـهُـنَّ كـثـيـرُ

السعالى: الغيلان

حـديـثُـهُـنَّ انْـتِـفَـاضٌ وضِـحْـكُـهُـنَّ هَـرِيـرُ

هرير: صوت الكلب أو القط يخرج من جوفه

ومَـشْـيُـهُـنَّ ارتـبـاكٌ وتـارةً تَـقْـدِيـرُ

وصف طيب لمشي العجائز، يقدرن تقديراً موضع القدم لعجز النظر وارتعاش الجسم

فـي فُـنْـدُقٍ أنـا، أم فـي جَـهَـنَّـمٍ مَـحْـشُـورُ؟

لو حشروا شارح هذه الأبيات دهراً مع جوزفين تيوسون الممثلة الإنجليزية التي بلغت السادسة والثمانين، والتي كانت في صباها جاحظة العينين، لعاش هانئاً ناعم البال. هي امرأة مبتسمة. نعم، حتى وهي تقترب من التسعين يتألق في وجهها الابتسام والرضا

٦٤ الأسوأ من العدو

ألقى صاحب الديوان هذه القصيدة في الحفلة التي أقامتها جمعية الشبان المسلمين في مسرح «أكاديمي أوف ميوزك» في بروكلين لتأبين موسى كاظم الحسيني:

كَمْ مَعْشَرٍ خِلْنَاهُمُ أنصارَنا ... فإذا هُمُ لِعُدَاتِنا أنصارُ
رقدَ العِدَى فتَحَمَّسوا، حتى إذا ... جَدَّ الوَغَى رَكِبُوا العُقَابَ وطَارُوا
شَرٌّ مِنَ الخَصْمِ اللدودِ على الفَتَى ... الصاحِبُ المُتَذَبْذِبُ الخَوَّارُ

الخوار: الجبان، المتذبذب: أنت تعرفه جيداً لكثرة من رأيت منهم. ونحن في زمن رديء مليء بالذين ليست لهم كلمة، الذين يكثرون من الوعود ثم يرجعون عنها، وحقاً قال إيليا فهؤلاء شر من الخصوم الألداء

٦٥ مهنتي كشاعر

قالتْ وَصَفْتَ لنا الرَّحيقَ، وكوبَها ... وصَرِيعَها، ومُدِيرَها، والعَاصِرَا

الرحيق: الخمر، صريعها: شاربها الذي ألقته أرضاً وهو سكران، مديرها: الذي يديرها على الجالسين ويسقي الناس

والحقلَ والفلاحَ فيهِ سائراً ... عندَ المسَا يَرْعَى القَطيعَ السَّائرا
ووقفتَ عندَ البحرِ يَهْدُرُ موجُهُ ... فرجعتَ بالألفاظِ بَحْراً هادِرَا
صَوَّرْتَ في القِرْطَاسِ حتى الخاطِرَا ... فَخَلَبْتَنَا، وسَحَرْتَ حتى السَّاحِرَا

القرطاس: الورق، خلبتنا: خدعت حواسنا بسحرك

وأَرَيْتَنَا، في كُلِّ قَفْرٍ، رَوْضَةً ... وأَرَيْتَنَا، في كُلِّ رَوْضٍ، طَائِرا
لكنْ، إذا سَألَ امْرُؤٌ عنكَ امْرَأً ... أَبصَرْتَ مُحْتَاراً يُخَاطِبُ حائِرَا
مَنْ أنتَ يا هذا؟ فقلتُ لها: أَنا ... كالكهرَباءِ، أُرَى خَفِيَّاً ظاهِرَا
قالتْ: لَعَمْرُكَ زِدْتَ نَفْسِي ضَلَّةً ... ما كان ضَرَّكَ لو وصفتَ الشاعِرا؟

ضلة: حيرة

* * *

فأجبتُها: هُوَ مَنْ يُسَائلُ نفسَهُ ... عَنْ نفسِهِ، في صُبْحِهِ ومسائِهِ
ويَرَى أُفُولَ النَّجْمِ، قبلَ أُفُولِهِ ... ويَرى فَنَاءَ الشيءِ، قبلَ فَنَائِهِ
إن نامَ، لم ترقُدْ هواجسُ رُوحِهِ ... وإذا استفاقَ، رأيْتهِ كالتَّائِهِ

قالتْ: أتعرِفُ مَنْ وَصَفْتَ، فقلتُ: مَنْ   قالتْ: وصفتَ الفيلسوفَ الكافِرَا
يا شاعرَ الدُّنيا، وَفِيكَ حَصَافَةٌ،   ما كانَ ضَرَّكَ لو وصفتَ الشاعِرَا؟

* * *

فقلتُ: هُوَ امْرُؤٌ يَهْوَى العُقَارَا   كما يَهوى مُغَازَلَةَ العَذَارَى
ويَحْسَبُ مِهْرَجانَ الناسِ مَأْتَمْ   بِلا خَمْرٍ، وجَنَّتَهُمْ جهنَّمْ
مَلُولٌ، لا يَدُومُ على وَلاءِ   ولكنْ، لا يَدُومُ على عَدَاءِ
ويُوشِكُ أنْ يُقَهْقِهَ في الجِنَازَةْ   ويَرْقُصَ كالعواصفِ في المَفازَةْ

المفازة: الصحراء

يُعَنِّفُهُ الصِّحَابُ، فلا يُنِيبُ   ويَزجُرُهُ المَشيبُ، فلا يَتُوبُ

ينيب: يتراجع

فقالتْ: جئتَ بِالكَلِمِ البديعِ   ولكنْ ما وصفتَ سوى الخَليعِ

* * *

وخِفْتُ إعراضَها عَنِّي، فقلتُ: إِذَنْ   هُوَ الذي أَبَداً يَبْكِي مِنَ الزَّمَنِ
كأنَّما ليسَ في الدنيا سِوَاهُ فَتَىً   مُعَرَّضٌ لِخُطُوبِ الدهرِ والمحَنِ
يَشْكُو السَّقَامَ، وما في جِسْمِهِ مَرَضٌ   والسُّهْدَ، وَهْوَ قريبُ العَهْدِ بالوَسَنِ
فقاطَعَتْنِي، وقالتْ: قد بَعُدْتَ بِنَا،   ما ذي الصفاتُ صفاتِ الشاعرِ الفَطِنِ

* * *

قلتُ: مَهلاً، إذا ضَلَلْتُ وعُذْراً   ربما أخْطَأ الحكيمُ وضَلَّا
هُوَ.. مَنْ تَرْسُمُ الجَمالَ يَداهُ   فَنَراهُ في الطِّرْسِ أَشْهَى وأَحْلَى

الطرس: الورقة

أَفَمَا ذا مَنْ تَبْتَغِينَ، وأَبْغي   وَصْفَهُ؟ قَالتِ المليحةُ: كلَّا

أفليس هذا هو الذي تطلبين، وأطلب أنا أيضاً وصفه؟

* * *

يا هذِهِ! إنِي عَيِيتُ بِوَصْفِهِ   وعَجِزْتُ عنْ إدراكِ مَكْنونَاتِهِ
لا تستطيعُ الخمرُ سَرْدَ صِفاتِها   والروضُ وصفَ زهورِهِ ونَبَاتِهِ

هُوَ مَنْ نَرَاهُ سائراً فوقَ الثَّرَى وكأنَّ فوقَ فؤادِهِ خُطُواتِهِ
هُوَ مَنْ يعيشُ لِغَيْرِهِ، ويَظُنُّهُ مَنْ ليسَ يفهمُهُ، يعيشُ لِذَاتِهِ

٦٦ إنما الغبطة فكرة

أقبلَ العيدُ؛ ولكنْ، ليسَ في الناسِ المَسَرَّةْ

دعاء المسيحيين في العيد: المجد لله في الأعالي، وعلى الأرض السلام، وفي الناس المسرة

لا أرَى إلا وُجوهاً كَالحاتٍ مُكْفَهِرَّةْ
وشِفَاهاً تَحْذَرُ الضِّحْـ ـكَ كَأنَّ الضِّحْكَ جَمْرَةْ
ليسَ للقومِ حديثٌ غيرُ شَكْوى مُسْتَمِرَّةْ
لا تَسَلْ ماذا عَرَاهُمْ، كُلُّهُمْ يَجْهَلُ أَمْرَهْ
أيها الشَّاكي الليالي! إنما الغِبْطَةُ فِكْرَةْ
ربما اسْتَوْطَنَتِ الكو خَ، وما في الكوخِ كِسْرَةْ
وخَلَتْ منها القصورُ الـ ـعالياتُ المُشْمَخِرَّةْ
تَلْمَسُ الغُصْنَ المُعَرَّى، فإذا في الغصنِ نَضْرَةْ
وإذا رَفَّتْ على القَفْـ ـرِ، اسْتَوى ماءً وخُضْرَةْ
وإذا مَسَّتْ حَصَاةً، صَقَلَتْهَا فَهْيَ دُرَّةْ
أيها العابِسُ! لنْ تُعْـ ـطَى على التَّقْطِيبِ أُجْرَةْ
لا تَكُنْ مُرّاً، ولا تَجْـ ـعَلْ حياةَ الغَيْرِ مُرَّةْ

٦٧ قِلِ الروح..

يعارض إيليا ابو ماضي ابن سينا في قصيدة له مشهورة عن الروح:

أنَا لَسْتُ بِالحسناءِ أوّلَ مُولَعِ هِيَ مَطْمَعُ الدنيا، كما هِيَ مَطْمَعِي
ولَكَمْ دخلتُ إلى القصورِ مُفَتِّشاً عنها، وعُجْتُ بِدَارِسَاتِ الأَرْبُعِ

عجت بدارسات الأربع: مررت بالبيوت الخربة

إنْ لاحَ طيفٌ قلتُ: يا عينُ أنْظرِي، أو رَنَّ صوتٌ، قلتُ: يا أُذْنُ اسمَعِي
فإذا الذي في القصرِ مِثْليَ حائرٌ وإذا الذي في القَفْرِ مِثْلِيَ لا يَعِي
قالوا: تَوَرَّعْ، إنَّها مَحْجُوبَةٌ إلَّا عَنِ المُتَزَهِّدِ المُتَوَرِّعِ

هذه الحسناء، وهي الروح، محجوبة ولا تظهر إلا للتقي الورع

فَوَأَدْتُ أَفْراحِي، وطَلَّقْتُ المنَى ... ونَسَخْتُ آيَاتِ الهوى مِنْ أَضْلُعِي

نسخت: ألغيت

وهَجَعْتُ، أَحْسَبُ أنها بِنْتُ الرُّؤَى ... فَصَحَوْتُ أَسْخَرُ بِالنِّيَامِ الهُجَّعِ

نام يحسب أن الروح تأتي في الأحلام

لما حَلَمْتُ بِها حَلَمْتُ بِزَهْرَةٍ ... لا تُجْتَنَى، وبِنَجْمَةٍ لم تَطْلُعِ

ثم انتبهتُ، فلم أجدْ في مَخْدَعِي ... إلّا ضَلالِيَ، والفِرَاشَ، ومَخْدَعِي

مَنْ كانَ يشربُ مِنْ جَداوِلِ وَهْمِهِ ... قَطَعَ الحياةَ بِغُلَّةٍ لم تُنْقَعِ

بغلة لم تُنقع: بعطش لم يُرْوَ

ذهبَ الربيعُ فلم تَكُنْ في الجَدْوَلِ الشَّـ ... ـادِي، ولا الرَّوْضِ الأَغَنِّ المُمْرِعِ

ذهب الربيع فلم تكن الروح موجودة في الجدول الشادي (المترنم)، ولا في الروض الأغنّ (الكثير الشجر)، الممرع (الخصب)

وأتَى الشتاءُ فلم تَكُنْ في غَيْمِهِ الـ ... ـبَاكِي، ولا في رَعْدِهِ المتَفَجِّعِ

ولَمَحتُ وامِضَةَ البُرُوقِ، فَخِلْتُهَا ... فِيها، فلم تَكُ في البُرُوقِ اللُّمَّعِ

حتَّى إذا نَشَرَ القنوطُ ضَبَابَهُ ... فوقِي، فَغَيَّبَنِي، وغَيَّبَ مَوْضِعِي

عَصَرَ الأَسَى رُوحِي، فَسَالَتْ أَدْمُعاً ... فَلَمَحْتُها، ولمستُها في أَدْمُعِي

وعلمتُ، حينَ العلمُ لا يُجْدِي الفَتَى، ... أنَّ التي ضَيَّعْتُها كانتْ مَعِي

٦٨ عندما تصبح الروح ريحاً

سَأَلْتُ، وقد مَرَّتِ الشَّمْأَلُ ... تَنُوحُ، وآوِنَةً تُعْوِلُ

الشمأل: ريح الشمال، تعول: تنوح

إلى أيِّما غايَةٍ تَرْكُضِينَ؟ ... ألا مُسْتَقَرٌّ، ألا مَوْئِلُ؟

موئل: ملاذ

لقد طَرَحَ الغصنُ أوراقَهُ ... مِنَ الذُّعْرِ، واضطربَ الجدولُ

وضلَّ الطريقَ إلى عُشِّهِ، ... فَهَامَ على وجهِهِ، البُلْبُلُ

وكادتْ تَخِرُّ لديْكِ الهضابُ ... وتركُضُ قُدَّامَكِ الأَجْبُلُ

أَيَعْدُو وراءَكِ جيشٌ كثيفٌ ... أَمِثْلُكِ يُرْهِبُهُ الجَحْفَلُ؟

فـجـاوَبَـنـي هـاتِـفٌ فـي الـظـلامِ: غَـلِـطْـتَ، فـمَـا هـذهِ الـشَّـمْـأَلُ
ولـكـنَّـهَـا أَنْـفُـسُ الـغَـابِـرِيـنَ تَـجُـوسُ الـديـارَ، ولا تَـنْـزِلُ

الغابرون: الماضون، تجوس: تطوف

مِنَ البَحرِ تَصْعَدُ هذي الغُيوثُ وتَـهْـطِلُ في الـبحـرِ، إذ تَـهْـطِـلُ
هُـمُ فـي الـشرابِ الـذي نَـحْـتَـسي وهُـمْ فـي الـطـعـامِ الـذي نَـأْكُـلُ
وهُـمْ فـي الـهـواءِ الـذي حَـوْلـنـا وفـي مـا نَـقـولُ، ومـا نـفـعـلُ
فَمَنْ حَسِبَ العيشَ دنيا وأُخْرَى فـذا رَجُـلٌ عـقـلُـهُ أحْـوَلُ

٦٩ الثقيل والتمثيل

نُبِّئْتُ أَنَّـكَ تَـعْـشَـقُ الـتَّـمْـثـيـلا عِشْقَاً يُمَثِّلُ في حَشَاكَ فُصُولا
وتَكَادُ مِنْ فَرْطِ الصَّبَابَةِ والجَوَى أنْ تَهْجُرَ المشْروبَ والمأكُولا
عَلَّلْتَ نَفْسَكَ بالمُحَالِ، فأَصْبَحَتْ في غَمْرَةٍ، وغَدَوْتَ أنتَ عَلِيلا
تَأْبَى المـرَاسِحُ أنْ تُنِيلَكَ وُدَّهَا إنَّ المـرَاسِحَ لا تُـحِبُّ ثَقِيلا

المراسح: المسارح

٧٠ هاجس الفناء

لـم أنْسَ حينَ مَشَتْ إليَّ تلومُني لـمَّا رَأَتْـنيَ بَـاسِـمَـاً مُـتَـهَـلِّـلا
قـالـتْ ـ أَتَـطْـرَبُ والـمـنـايَـا حُـوَّمٌ في الأرضِ، كيفَ رَمَتْ أصابَتْ مَقْتَلا؟
أنظُرْ، فقد خَلَتِ البيوتُ مِنَ الشبا بِ؛ ولا جَمَالَ لِمَنْزِلٍ مِنْهُمْ خَلا
فسألتُهَا: أَوَلَيْسَ مِنْ أجْلِ العُلَى وهَنَائِنَا خَاضُوا الوَغَى؟ قَالتْ: بَلَى
يـا هَـذِهِ، أَإِذا بَـكَـيْـتُ لِـبُـعْـدِهِـمْ يَتَبَسَّمُونَ؟ أَجَابَتِ الحسناءُ: لا
كُفِّي المَلاَمَ إذنْ، فَمَا أَنَا جَاهِلٌ ما تَعْلَمِينَ، وكيف لِي أنْ أَجْهَلا؟
لكنْ، بَعَثْتُ الفِكْرَ في آثارِهِمْ: في البحرِ، في الأَجْوَاءِ، في عُرْضِ الفَلا
فرأيتُ نورَ المجْدِ فوقَ بُنُودِهِمْ ورأَيْتُهُمْ يَمْشُونَ مِنْ نَصْرٍ إِلى..

بنودهم: راياتهم، من نصر إلى: (من نصر إلى نصر)

سَدُّوا على البَاغِي المَسَالِكَ كُلَّهَا فالموتُ إنْ وَلَّى، وإنْ هُوَ أَقْبَلا

فإذا شَمَمْتِ اليومَ رائحةَ الدِّمَا ءِ، وطَالَعَتْ عيناكِ آثارَ البِلَى
البلى: تحلل الجسم

فاسْتَبْشِرِي، فَغَداً إذا النَّقْعُ انجَلَى ستعودُ دُنيانا أَحَبَّ وأَجْمَلا
النقع: الغبار

٧١ مباهج الحياة

قالها في مهرجان برِدْجفيل:

كَمْ تَشتَكِي، وتقولُ إنَّكَ مُعْدَمُ والأرضُ مِلْكُكَ، والسَّمَا، والأَنْجُمُ
ولَكَ الحقولُ وزهرُها وأريجُها ونسيمُها، والبلبلُ المُتَرَنِّمُ
والماءُ حولَكَ فِضَّةٌ رَقْرَاقَةٌ والشمسُ فوقَكَ عَسْجَدٌ يَتَضَرَّمُ
عسجد: ذهب، يتضرم: يتوقَّد

والنُّورُ يَبْنِي في السُّفُوحِ وفي الذُّرَى دُوراً مُزَخْرَفَةً، وحِيناً يَهْدِمُ
فَكَأَنَّهُ الفنانُ يَعرِضُ، عابِثاً، آياتِهِ قُدَّامَ مَنْ يَتَعَلَّمُ
وكأنهُ، لِصَفائِهِ وسَنَائِهِ، بحرٌ تعومُ بهِ الطيورُ الحُوَّمُ
هَشَّتْ لَكَ الدنيا، فَمَا لَكَ واجِماً، وتَبَسَّمَتْ، فَعَلامَ لا تَتَبَسَّمُ؟
إنْ كنتَ مُكْتئباً لِعِزٍّ قد مَضَى هَيْهاتَ يُرْجِعُهُ إليكَ تَنَدُّمُ
أو كنتَ تُشْفِقُ مِنْ حُلولِ مُصيبةٍ هيهاتَ يَمْنَعُ أنْ تَحُلَّ تَجَهُّمُ
أو كنتَ جاوَزْتَ الشبابَ، فلا تَقُلْ شاخَ الزمانُ، فإنهُ لا يَهْرَمُ
أنظُرْ! فما زالتْ تُطِلُّ مِنَ الثَّرَى صُوَرٌ، تَكَادُ لِحُسْنِها تَتَكَلَّمُ
ما بينَ أشجَارٍ كأنَّ غُصونَها أيدٍ تُصَفِّقُ تارةً، وتُسَلِّمُ
وعيونِ ماءٍ دافِقَاتٍ في الثَّرَى تَشْفي السَّقِيمَ، كأنما هِيَ زَمْزَمُ
ومَسَارِحٍ فَتَنَ النسيمَ جمالُها فَسَرى يُدَنْدِنُ تارةً، ويُهَمْهِمُ
فكأنهُ صَبٌّ بِبَابِ حَبيبةٍ مُتَوَسِّلٌ، مُسْتَعْطِفٌ، مُسْتَرْحِمُ
والجدولُ الجَذْلانُ يَضحكُ لاهِياً والنَّرْجِسُ الوَلْهانُ مُغْفٍ يَحْلُمُ
الجذلان: الفرحان

وعلى الصَّعِيدِ مُلاءَةٌ مِنْ سُنْدُسٍ وعلى الهِضابِ لِكُلِّ حُسْنٍ مِيسَمُ
الصعيد: التراب، ملاءة من سندس: بساط من حرير، المِيسم: علامة الحسن

فَهُنَا مَكَانٌ بِالأريجِ مُعَطَّرٌ   وهُنَاكَ طَوْدٌ بِالشُّعَاعِ مُعَمَّمُ

طود: جبل

صُوَرٌ وآيَاتٌ تَفِيضُ بَشَاشَةً   حتى كأنَّ اللَّهَ فِيها يَبْسِمُ

أَتَزُورُ رُوحَكَ جَنَّةٌ فَتَفُوتُها   كَيْمَا تَزُورُكَ بِالظُّنُونِ جَهَنَّمُ؟

وتَرى الحقيقةَ هيْكلاً مُتجسِّداً   فَتَعافُها، لِوَسَاوِسٍ تُتَوَهَّمُ؟

يَا مَنْ يَحِنُّ إلى غَدٍ في يومِهِ   قد بِعْتَ ما تَدْرِي بما لا تَعْلَمُ

أنتَ الغنيُّ إذا ظَفِرْتَ بِصاحِبٍ   مِنْهُمْ، وعِنْدَكَ لِلْعَواطِفِ مَنْجَمُ

رَفَعُوا لِدِينِهِمُ لِوَاءً عالِياً   ولَهُمْ لِوَاءٌ في العروبةِ مُعْلَمُ

معلم: ذو علامة مميزة

لا فَضْلَ لي إنْ رُحْتُ أُعلِنُ فضلَهُمْ   بِقَصائدِي، إنَّ الضُّحَى لا يُكْتَمُ

لَكِنَّنِي أَخْشَى مَقَالَةَ قائلٍ:   هذا الذي يُثْنِي عَلَيْهِمْ مِنْهُمُ

أَحبابَنَا! ما أجْمَلَ الدنيا بِكُمْ   لا تَقْبُحُ الدنيا وفِيها أَنْتُمُ

٧٢ نفسي تسألني

سَأَلَتْنِي، وقد رجعتُ إليها   وعلى مَفْرِقِي غبارُ السِّنينَا:

نفسه تسأله وقد اجتمع غبار السنين (الشيب) على مفرقه (رأسه)

أيَّ شيءٍ وجدتَ في الأرضِ بَعْدِي؟   قلتُ: إني وجدتُ ماءً وطِينا

الماء والطين: الإنسان

جمعَ الحُسْنَ والدَّمامَةَ والإقْـ   ـدَامَ والخوفَ والنُّهَى والجُنونا

النهى: العقل

وشباباً سَكْرانَ مِنْ خمرةِ الوَهْـ   ـمِ يَخَالُ المُحَالَ أمراً يَقِينا

فإذا شاخَتِ الرُّؤَى، وتَلاشَتْ   وصَحَا، باتَ جَزْمُهُ تَخْمِينا

لا يزالُ الإيمانُ نَوْعاً مِنَ الرَّهْـ   ـبَةِ، والحُسْنُ لِلْغُرورِ خَدِينَا

خديناً: خليلاً مرافقاً

لا يزالُ الغَنِيُّ يختالُ في الأر   ضِ، وإنْ كانَ جاهِلاً مَأْفُونا

مأفون: أحمق

كلُّ مَنْ قدْ لقِيتُ مِثْلُكِ، يا نفـ ـسِيَ، فيـمَا تُـبْديـنَ أو تُـخْـفِـينا
فـانـظُـرِي مَـرَّةً إلـيـكِ مَـلِـيَّـاً تُـبْـصِـرِي الأَوَّلِـيـنَ والآخِـرِيـنـا

مليًّا: طويلاً

٧٣ قصيدة إيليا البلشفية

كُـلُـوا واشـرَبـوا أيُّـهـا الأغـنـيـاءُ وإن مَـلأَ الـسِّـكَّـكَ الـجـائـعـونْ
ولا تـلْـبَـسـوا الـخَـزَّ إلا جَـديـداً وإنْ لَـبِـسَ الـخِـرَقَ الـبَـائـسـونْ

الخز: الحرير

فـلا تُـبْـصِـرونَ ضَـحـايـا الـطَّـوَى ولا يُـبْـصِـرونَ الـذي تَـصْـنـعـونْ

الطوى: الجوع

وإنْ سـاءَكُـمْ أنَّـهُـمْ فـي الـوجـودِ وأزعـجَـكُـمْ أنَّـهُـمْ يُـعْـوِلُـونْ
مُـرُوا، فَـتَـصُـولَ الـجنودُ عَـلَـيْـهِـمْ تُـعَـلِّـمُـهُـمْ كيف فَـتْـكُ الـمـنُـونْ

فلتأمروا الجنود أن يصولوا (يهجموا) عليهم

وتـلـكَ الـعِـصِـيُّ لِـتَـلْـكَ الـرؤوسِ وتـلـكَ الـحِـرَابُ لِـتِـلْـكَ الـبُـطُـونْ
وتلكَ الـسُّـجونُ لِـمَـنْ شِـدْتُـمُـوهـا؟ إذا لـم تَـزُجُّـوهُـمُ فـي الـسُّـجـونْ
وقـولـوا: كـذا قـد أرادَ الإلَـهُ، وإن قَـدَّرَ الـلَّـهُ شـيـئـاً يَـكُـونْ
ويـا فـقـراءُ! لـمـاذا الـتَّـشَـكِّـي؟ ألا تَـسْـتَـحُـونَ، ألا تَـخْـجَـلـونْ؟
دَعُـوا الأغـنـيـاءَ ولَـذَّاتِـهِـمْ فَـهُـمْ، مِـثْـلَ لـذَّاتِـهِـمْ، زائِـلـونْ
سـيُـمْـسُـونَ فـي سَـقَـرٍ خَـالِـدِيـنْ وتُـمْـسُـونَ فـي جَـنَّـةٍ تَـنْـعَـمُـونْ
فـلا تَـعـطَـشـونَ، ولا تَـسْـغَـبـونَ، ولا يَـرْتَـوونَ، ولا يَـشْـبَـعـونْ

تسغبون: تجوعون

لَـكُـمْ وحْـدَكُـمْ مَـلَـكُـوتُ الـسَّـمـاءِ فَـمـا بـالُـكُـمْ لـسـتُـمُ تَـقْـنَـعونْ؟
سـتَـتَّـكِـئـونَ مَـعَ الأنـبـيـاءِ تُـظَـلِّـلُـكُـمْ وارفـاتُ الـغُـصُـونْ
وتَـسْـقِـيكُـمُ الـخَـمـرَ حُـورٌ حِـسَـانٌ كـمـا يِـشْـتَـهـيـنَ، كـمـا تَـشْـتـهـونْ
كـذا وَعَـدَ الـلَّـهُ أهـلَ الـتُّـقَـى وأنـتـمْ هُـمُ، أيُّـهـا الـمُـتْـعَـبُـونْ
ألا تـؤمـنـونَ بِـقَـولِ الـكِـتـابِ؟ فـويـلٌ لـكُـمْ! إنَّـكُـمْ كـافِـرونْ

٧٤ الدنيا والأخرى

زعمَ المرءُ أنّما هُوَ ربٌّ، كَمْ يَلُوكُ الكلامَ هذا الإلَهُ!
في التُّرابِ الذي تَدُوسُ عليهِ ألفُ دُنيا وعالَمٍ لا تَراهُ
أنتَ جُزْءٌ مِنَ الكيانِ وَفِيهِ كَثَراهُ، كَنَبْتِهِ، كَحَصاهُ
كالوُرودِ التي تُحِبُّ شَذاها والبَعُوضِ الذي تَخافُ أذاهُ
مَا لِحَيٍّ بِالموتِ عَنْهُ انفصالٌ إنَّ دُنْياهُ هَذهِ أُخْراهُ

٧٥الله والحب وجهنم

قالَ قومٌ: إنَّ المحبةَ إثمٌ ويْحَ بعضِ النفوسِ ما أَغْبَاها
إن نَفْساً لَمْ يُشْرِقِ الحبُّ فيها هِيَ نَفْسٌ لم تَدْرِ ما مَعْنَاها
خَوَّفوني جَهَنَّماً ولَظَاها أيُّ شيءٍ جَهَنَّمٌ ولَظَاها؟
ليسَ عندَ الإلَهِ نارٌ لِذي حُبٍّ ـ ونَارُ الإنسانِ لا أخْشَاها!
أنا بالحبِّ قد وصلتُ إلى نفـ ـسي، وبالحبِّ قدْ عَرَفْتُ اللّهَ

٧٦ وارحمتا للبائسين

قدْ عَضَّهُ اليأسُ الشديدُ بِنَابِهِ في نَفْسِهِ، والجوعُ في الأحشاءِ
فأقامَ حِلْسَ الدارِ، وَهْوَ كأنهُ ـ لِخُلُوِّ تِلكَ الدارِ ـ في بَيْداءِ

حلسَ الدار: ملازماً للدار ملازمة الحلس (البَرْذَعة) للدابة

طَرَدَ الكرى، وأقامَ يَشكو لَيْلَهُ: يا ليلُ طُلْتَ، وطالَ فيكَ عَنائي
يا ليلُ! حَسْبِي ما لقيتُ من الشَّقا رُحْماكَ؛ والأيَّامُ من أعدائي
وارحْمَتا للبائسينَ فإنَّهُمْ مَوْتَى، وتَحْسَبُهُمْ من الأحياءِ
إني وَجَدْتُ حُظوظَهُمْ مُسْوَدَّةً فكأنما قُدَّتْ من الظلماءِ

قُدَّتْ: قُطِعتْ

لا تَسألونِي المدحَ، أو وَصْفَ الدُّمَى إنـي نَبَذْتُ سَفاسِفَ الشعراءِ

الدمى: النساء الحسان، سفاسف: تفاهات

لم يَفهموا ما الشعرُ، إلّا أنَّه قَدْ باتَ واسِطَةً إلى الإثْراءِ

إن يَغْضَبوا مما أقولُ، فَطَالما كَرِهَ الأديبَ جماعةُ الغوغاءِ
أَوَكُلَّما نَصرَ الحقيقةَ فاضلٌ قامتْ عليهِ قيامةُ السفهاءِ
أنا ما وقفتُ اليومَ فيكُمْ مَوْقِفي إلا لأَنْدُبَ حالةَ التُّعَساءِ
قُلْ للغنيِّ المسْتَعِزِّ بمالِهِ: مَهْلاً لقد أسرفتَ في الخُيَلاءِ

الخيلاء: الغرور

جُبِلَ الفقيرُ أخوكَ من طينٍ ومن ماءٍ، ومن طينٍ جُبِلْتَ وماءِ
أَتَضِنُّ بالدينارِ في إسعافِهِ وتجودُ بالآلافِ في الفحشاءِ؟
أنا لا أُذَكِّرُ مِنْكُمُ أهلَ النَّدى ليس الصحيحُ بِحَاجةٍ لدواءِ
إن كانتِ الفقراءُ لا تَجْزِيكُمُ فاللَّهُ يَجْزِيكُمْ عن الفقراءِ

٧٧ قصيدة تحْيي الصخر والحطب

ألقيت في حفلة تكريم الشاعر مسعود سماحة:

يا شاعرَ «الديرِ» كمْ هَلْهَلْتَ قافيةً غَنَّى الرواةُ بها، واختالتِ الكتبُ

الدير: دير القمر بلدة سماحة، هلهل القوافي: قال شعراً عذباً

مَرَّتْ على هَضَباتِ الديرِ هائمةً فكادَ يُورِقُ فيها الصخْرُ والحَطَبُ

٧٨ هدايا للناقصين

خرجَ الناسُ يشترونَ هدايا الـ ـعِيدِ لِلأصْدِقَاءِ والأحبابِ
فتمنيتُ لو تُسَاعِفُني الدُّنْـ ـيا فَأَقْضي في العيدِ بعضَ رِغَابي
كنتُ أُهدي، إذنْ، مِنَ الصبرِ أرْطا لاً إلى المُنْشِئينَ والكُتَّابِ
وإلى كلِّ نابغٍ عبقريٍّ: أُمَّةً أَهْلُها ذَوو أَلْبابِ
وإلى كُلِّ شاعرٍ عربيٍّ: سَلَّةً مِنْ فَوَاكِهِ الألقابِ
وإلى مَعْشرِ الكُسالَى: قُصُوراً مِنْ لُجَيْنٍ وعَسْجَدٍ، في السَّحابِ

اللجين: الفضة، العسجد: الذهب

عَلَّني أستريحُ مِنْهُمْ، فَقدْ صا روا كَظِلِّي في جِيئتي وذَهابي
وإلى ذي الغِنى الذي يرهَبُ الفقـ ـرَ: ازديادَ الذي بِهِ مِنْ عَذابِ
كُلَّما عَدَّ مالَهُ مُطْمَئِنَّاً أبصرَ الفقرَ واقفاً بِالبابِ

وإلى المؤمنينَ: شيئاً مِنَ الشَّكِّ ـ وبعضَ الإيمانِ للمُرْتابِ
وإلى مَنْ يَسُبُّني في غِيابي: شَرَفاً كيْ يصونَهُ مِنْ سِبَابي

أهدي من يسبني شرفاً كي يحافظ عليه، فلا يعطيني فرصة لأسبَّ هذا الشرف

وإلى حَاسِدِيَّ: عُمْراً طويلاً لِيَدومَ الأسى بِهِمْ مِمَّا بي
وَلَوَ انَّ الزَّمانَ صاحبُ عقلٍ كنتُ أُهْدي إلى الزَّمانِ عِتابي
لم يكنْ لي الذي أردتُ، فَحَسْبي أنَّني بِالمُنى ملأتُ وِطَابي

الوطاب: القِربة

٧٩ أجل، شيخ الشباب

قصيدة بعث بها إلى صديقه الشاعر مسعود سماحة:

«مسعودُ» أَهْونْ بِالمشِيـ ـبِ، فَمَا امَّحَى إلَّا الخِضَابْ

أي أن سواد الشعر كان خضاباً (صبغة)

إنْ شابَ مِنْكَ المفْرِقا نِ، فَمَا أظنُّ القلبَ شابْ
إنْ قيلَ إنَّكَ صِرْتَ شَيْـ ـخاً، قُلْ: أَجَلْ، شيخَ الشَّبَابْ
لا يُدْرِكُ الهرمُ النُّجو مَ، وأنتَ في الدنيا شِهابْ
وإذا يُعَابُ على المشِيـ ـبِ فتىً، فَمَنْ ذا لا يُعَابْ؟
أو كانَ يُمْدَحُ بِالسَّوا دِ، فَمَنْ تَرَى مَدَحَ الغُرَابْ؟

٨٠ دِهقان الفصحى

في عبد الله البستاني صاحب معجم «البستان»:

يا مَيِّتاً فيهِ جمالُ الحَيَاةْ ما حَازَ منكَ اللَّحْدُ إلَّا الرُّفَاتْ
أنتَ الفتى البَاقي بِآثارِهِ ما أنتَ بِالمَرءِ إذا ماتَ ماتْ
يا حُجَّةَ الفُصْحَى ودِهْقَانَهَا وبَحْرَهَا الطَّامي، وشيخَ الثِّقَاتْ

دهقانها: الخبير بها، الطامي: الفائض، الثقات: الموثوقون

سَلَخْتَهَا سَبْعِينَ مِنْ أَجْلِهَا في عَالمِ الطِّرْسِ، ودنيا الدَّوَاةْ

سلختها سبعين: قضيت سبعين سنة من أجل الفصحى، الطرس: الورقة

النـاسُ مِـنْ حـولِـكَ فـيِ قِـيـلِـهِـمْ   وأنـتَ كـالـعـابِـدِ وقـتَ الـصَّـلَاةْ
غَـنِـيـتَ بِـالـضَّـادِ وأَسـرارِهَـا   عَـنِ الـغَـوَانـيِ والـطِّـلَا والـسُّـقَـاةْ

غنيت: صرت مستغنياً، الطلا: الخمر

أنـتَ الـذي رَدَّ إلـيـهـا الـصِّـبَـا   إنَّ الـهـوى يَـجْـتَـرِحُ الـمُـعْـجِـزَاتْ
فـاخْـتَـلَـجَـتْ أوضـاعُـهَـا بِـالـمـنَـى   وجَالَ ماءُ الـحُـسْـنِ في الـمُـفْـرَداتْ

تصوير غريب لنهضة اللغة العربية فأوضاعها تختلج بأماني التجديد وبالحياة، وماء الحسن يجري في مفرداتها

٨١ في مدح جريدة

يحيّي مطبوعة مرآة الغرب في سنتها التاسعة عشرة:

ألا إنَّ حُـسْـنـاً لا يُـرافِـقُـهُ الـنُّـهَـى،   وإنْ دامَ يـومـاً، لا يـدومُ لَـهُ قَـدْرُ

النهى: العقل

هيَ الشمسُ، تبدو كلَّ يومٍ جديدةً   يَروحُ بها لـيـلٌ، ويأتـي بِهَا فَجْرُ

هذه الجريدة مثل الشمس فهي في كل يوم جديدة

لِـكُـلِّ فـتـاةٍ خِـدْرُهـا وسِـوَارُهـا   ولـكنَّ هـذيِ، كُلُّ قلـبٍ لـهـا خِدْرُ

خدر: مكان النساء خلف الستر

إذا رَضِيَتْ، فَالنُّورُ في كَلِماتِهَا   وإن غضبتْ، فَهْيَ الأسِنَّةُ والجَمْرُ
ولا غَرْوَ أنْ عزَّتْ، وهانَ خُصُومُها   فَلِلْحَقِّ، مَهْمَا جَعْجَعَ الباطلُ، النَّصْرُ
فَكَمْ مُرْجِفٍ أَغْرَاهُ فيها سُكُوتُها   فَلَمَّا أهابتْ، كادَ يَقْتُلُهُ الذُّعْرُ

أهابت: استعدَّت، مرجف: ناشر شائعات

ولا غَرْوَ أنْ أَهْدَى لها الشِّعْرُ وَحْيَهُ   فَيَا طالما سارتْ، وسارَ بِها الشِّعْرُ
وإنْ يَكُنِ الأحرارُ مِنْ نُصَرائِها   فَكَمْ نَصَرَ الأحرارَ صاحبُها الحُرُّ
ففي العُسْرِ، لم يَجْهَرْ بِشَكْوَى لِسَانُهُ   وفي اليُسْرِ، لم يلعبْ بِأَعْطَافِهِ الكِبْرُ

لم يلعب بأعطافه الكبر: لم يتملَّكه التكبر

٨٢ عندما أصغى البحر

قالها في حفلة تكريم سامي الشوا التي أقامتها له الجالية في مدينة نيويورك عندما زارها:

عِنْدِي لكمْ نبأٌ عجيبٌ شيِّقٌ ... سأقُصُّهُ، وعليكُمُ تَفْسِيرُهُ
إنِّي رأيتُ البحرَ أخرسَ ساهِياً ... كالشيخِ، طالَ بِما مَضَى تفكيرُهُ
فسألتُ نفسيَ، حائِراً مُتَلَجْلِجاً ... يا ليتَ شِعرِيَ! أينَ ضاعَ هديرُهُ؟

متلجلج: متلعثم

بالأمسِ؛ قالتْ موجةٌ ثرثارةٌ ... ومَضَتْ، فَأَكْملتِ الحديثَ صخورُهُ:
بالأمسِ، مَرَّ بِنا فتىً مِنْ قومِكُمْ ... رَقَّتْ شمائِلُهُ، ودقَّ شعورُهُ
يلهُو بأوتارِ الكَمَنْجَةِ، والدُّجى ... مَرْخِيَّةٌ فوقَ العُبَابِ ستورُهُ
فَشَجَا الخِضَمَّ نشيدُهُ وهُتَافُهُ ... فَسَهَا، فضاعَ هديرُهُ وزئيرُهُ

الخضم: البحر

يا ضيفَنَا! والأُنْسُ أنتَ رَسولُهُ ... وبشيرُهُ، والفنُّ أنتَ أميرُهُ
لو شاعَ في الفِرْدَوْسِ أنَّكَ بينَنا ... لَمَشَتْ إليْنا سافِرَاتٍ حورُهُ
يا شاعرَ الألحانِ! إنِّيَ شاعرٌ ... أمسى ضئيلاً، عندَ نورِكَ، نورُهُ
أسمى الكلامِ الشعرُ، إلَّا أنَّهُ ... أسْماهُ ما أَعْيَا الفَتَى تصويرُهُ

أسمى الكلام الشعر، وأسمى نوع من الشعر ما عجز المرء عن تصويره في كلمات: وهذا هو الموسيقى

وأَحَبُّ أزهارِ الحدائقِ وَردُهَا ... وأَحَبُّ مِنْ وَرْدِ الرياضِ عبيرُهُ

٨٣ الولادة الثانية

رثاء سليمان البستاني (١٨٥٦ ـ ١٩٢٥) الذي مات في نيويورك، وهو مترجم الإلياذة شعراً إلى العربية:

شاعِرٌ، كانَ يَرْقُصُ الدَّهرُ أَحْيا ... نَاً، ويَبْكِي حِيناً على نَغَمَاتِهِ
مُنْشِئٌ رَقَّ لَفْظُهُ كَسَجَايَا ... هُ، ورَفَّ الجَمالُ في جَنَبَاتِهْ
تَوَّجَ الضَّادَ بالمَلاحَةِ، حَتَّى ... خالَهَا القومُ بَعْضَ مُخْتَرعَاتِهْ
فَتَحَ الموتُ، حينَ أغمضَ عينَيْـ ... ـهِ، عُيونَ الوَرَى على حَسَناتِهْ

فَـهْـوَ مَـاضٍ لَـهُ جَـلالَـةُ آتٍ   مِـنْ فُـتُـوحـاتِـهِ، ومِـنْ غَـزَواتِـهْ
والـفَـتَـى الـعَـبْـقَـرِيُّ يُـولَـدُ إِذْ يُـو   لَـدُ فـي مَـهْـدِهِ، ويـومَ مَـمَـاتِـهْ

٨٤ الناس هم الآحاد

في اليوبيل الذهبي لمجلة المقتطف (وأنشئت عام ١٨٧٦):

تشْقَى متى تَشْقَى الشعوبُ بِجَهلِها   وتَـعِـزُّ، حـيـنَ تَـعِـزُّ، بـالأَفْـرَادِ
لَـهُـمُ الـزَّمـانُ: قـديـمُـهُ وحـديـثُـهُ   ما الـنـاسُ في الدُّنيا سِوىَ الآحَادِ

٨٥ سبب اهتزاز نخيل مصر

أرسل الشاعر مسعود سماحة إلى صاحب الديوان القصيدة التالية مصحوبة ببعض البن:

يَـضُـوعُ عـبـيـرُهـا بِـرِمـالِ نَـجْـدٍ   ويَـعْـبَـقُ عِـطْـرُهـا بِـقُـصـورِ مِـصْـرِ
يضوع: يفوح

ويُـزْرِي طـعـمُـهـا، حُـلْـواً ومُـرّاً،   بـمـا فـي الأرضِ مِـنْ حُـلْـوٍ ومُـرِّ
يزري: يحقِّر

وسَـمْـرَاءٍ، إذا زَارتْ صَـبَـاحـاً   أَحَـبَّ إِلَـيَّ مِـنْ بِـيـضٍ وسُـمْـرِ
يَـحُـوكُ لَـهَـا الـبـخَـارُ رِدَاءَ نَـدٍّ   ويَـكْـسُـوهـا الـحَـبـابُ وِشَـاحَ دُرِّ
النّدّ: نوع من البَخور، الحباب: الفقاقيع، الدر: اللؤلؤ

كَـسَـرْتُ الـدَّنَّ مِـنْ عَـهْـدٍ بَـعِـيـدٍ   فَأَمْسَتْ، بَعْدَ خَمْرِ الدَّنِّ، خَمري
فإنْ حَـلَّـتْ قُـوَاكَ جُـيُـوشُ ضَـعْـفٍ   وَهَـالَـكَ عِـبْءُ هَـمٍّ مُـسْـبَـطِـرِّ
مسبطر: ممتد

عَـلَـيـكَ بِـقَـهْـوةٍ رَقَّـتْ وراقـتْ   كَشِعرِكَ، لا يُجَارَى، أو كَشِعْرِي

فأجابه إيليا أبو ماضي:

إذا دارتْ عـلـى الـجُـلَّاسِ هَـشُّـوا   كـأنَّ كـؤوسَـهـا أخـبـارُ نَـصْـرِ
فـلـو عَـرَفَـتْ مَـزَايَـاهـا الـغَـوانـي   لَـعُـلِّـقَ حَـبُّـهـا فـي كُـلِّ نَـحْـرِ
النحر: ما بين الرقبة والصدر

كـأنَّ حـبـوبَـهـا، خُـضْـراً وصُـفْـراً،   فُـصـوصُ زُمُـرُّدٍ، وشُـذُورُ تِـبْـرِ
شذور التبر: حبيبات الذهب الخام

ألستَ ترى إليها كيفَ تَطْغَى ... وكيفَ تثورُ، إنْ مُسَّتْ بِجَمْرِ
كأنَّ نخيلَ مِصْرٍ قد حَسَاها ... وإلَّا.. ما اهتزازُ نخيلِ مِصْرٍ؟
وما هِيَ قهوةٌ تُطْهَى وتُحْسَى ... ولكنْ، نَفحَةٌ مِنْ رُوحِ حُرٍّ
حَوَى في شعرِهِ عَبَثَ ابنِ هانيٍ ... وزادَ عليهِ فلسفةَ المعرِّي

هذه ليست قهوة فحسب، إنها هدية شاعر حر جمع في شعره عبث الحسن بن هانئ (أبي نواس)، وفلسفة المعري

٨٦ هجاء السياسة

لم يبقَ ما يُسْلَيكَ غيرُ الكاسِ ... فاشربْ، ودعْ للناسِ ما لِلناسِ

يسليك: ينسيك

وانسَ الهمومَ، فليسَ يَسْعَدُ ذاكِرٌ ... واسقِ النُّجُومَ، فإنَّها جُلَّاسي
واهجُرْ أحاديثَ السياسةِ، والأُلىَ ... يتعلقونَ بحبلِ كلِّ سياسي
إني نبذتُ ثِمَارَهَا مُذْ ذُقْتُها ... ووجدتُ طعمَ الغدرِ في أضْرَاسي
وغسلتُ منها راحَتِي، فَغَسَلْتُها ... مِنْ سائرِ الأَوْضَارِ والأَدْنَاسِ

الأوضار: الأوساخ

وتركتُهَا لاثنَيْنِ: غِرٍّ سَاذَجٍ ... ومُشَعْوِذٍ مُتَذَبْذِبٍ دَسَّاسِ
نرجُو الخلاصَ بِغَاشِمٍ مِنْ غَاشِمٍ ... لا يُنْقِذُ النَّخَّاسُ مِنْ نَخَّاسِ

النخاس: تاجر العبيد

ونَقِيسُ ما بينَ الثُّرَيَّا والثَّرَى ... وأمورُنا تَجْرِي بِغَيْرِ قِيَاسِ
ونكادُ نَفْتَرِشُ الثَّرَى، وبِأَرْضِنا ... لِلأَجْنَبِيِّ مَوَائِدٌ وكَرَاسي
ونَبيتُ نَفْخَرُ بِالصَّوارِمِ والقَنا ... ورِقَابُنا ممدودةٌ للفَاسِ

٨٧ لماذا يشربونها

يَشْرَبُ بِنْتَ الكَرْمِ بعضُ الناسِ ... لِكُرْبَةٍ في النفسِ، أو وُسْوَاسِ
وبعضُهمْ، لأنَّهُ قد ظَفِرَا ... وبعضُهمْ، لأنه قد خَسِرا
وبعضُهمْ، لأنه في فَرَحِ ... وبعضُهمْ، لأنه في تَرَحِ
وبعضُهمْ، كيْ يَسْتَرِدَّ الأَمْسَا ... وبعضُهمْ يَجْرَعُهَا كيْ يَنْسَى

وبعضُهمْ، لِيَسْتَفِيدَ قُوَّةْ   وبعضُهمْ، لِسَوْرَةِ الفُتُوَّةْ

السورة: القوة المندفعة

وبعضُهمْ، كيما يَحُلَّ مُشْكِلَةْ   وبعضُهمْ، لأنه لا شُغلَ لَهْ

وبعضُهمْ، يَشْرَبُها أحيانَا   وبعضُهمْ، في أيِّ وقتٍ كانَا

وبعضُهمْ، مَعْ زُمْرَةِ النُّدْمانِ   وبعضُهمْ، في وَحْدَةِ الرُّهْبانِ

وسِرُّ هذا أنَّها كالدنيا   تُؤذي، ولكنْ مَعْ أذاها تُهْوَى

٨٨ الإبريق المزهوّ

ألا أيها الإبريقُ! ما لَكَ والصَّلَفْ   فَمَا أنتَ بِلَّوْرٌ، ولا أنتَ مِنْ صَدَفْ

الصلف: التكبر

وما أنتَ إلا كالأَبَاريقِ كُلِّها   تُرابٌ مَهِينٌ، قد تَرَقَّى إلى خَزَفْ

أرَى لَكَ أنْفاً شَامخاً، غيرَ أنهُ   تَلَفَّعَ أثوابَ الغُبَارِ، وما أَنِفْ

تلفع أثواب الغبار: التف بالغبار. كانت الأباريق تصنع من الفخار، وللإبريق ثقب ينزل منه الماء للشارب فهذا أنفه

ومَسَّتْهُ أيْدي الأدْنِياءِ، فَمَا شَكَا   ومَصَّتْهُ أفواهُ الطَّغَامِ، فَمَا وَجَفْ

الطغام: السفلة، وجف: ارتعش

وفِيكَ اعتزازٌ، ليسَ لِلدِّيكِ مِثْلُهُ   ولستَ بِذي رِيشٍ تَضَاعَفَ كالزَّغَفْ

الزغف: أطراف الغصون الدقيقة

وأنْصَتُّ أَسْتَوْحِيهِ شَيئاً يقولُهُ   كَمَا يَسكتُ الزُّوَّارُ في مَعْرِضِ التُّحَفْ

معرض التحف: المتحف

وبعدَ ثَوانٍ خِلْتُ أنِّي سَمِعْتُهُ   يُثَرْثِرُ مثلَ الشيخِ أدْرَكَهُ الخَرَفْ

فقالَ: سقيتُ الناسَ، قلتُ لهُ: أجلْ   سقيتَهُمُ ماءَ السحابِ الذي وَكَفْ

وكف: هطل

فقالَ: لِيَذْكُرْ فَضْلِيَ الماءُ ولْيُشِدْ   بِمَدْحِي، ألم أَحْمِلْهُ؟ قلتُ: لكَ الشَّرَفْ!

فقالَ: ألم أَحْفَظْهُ؟ قلتُ: ظَلَمْتَهُ   فَلَوْلاهُ لم تُنْقَلْ، ولولاكَ ما وَقَفْ

الشاعر يقصد بإبريق الفخار المتكبر الإنسان الذي صنعه الله من طين، وأحلى ما في القصيدة أنه لم يصرح بذلك

٨٩ ضياع صديق

عَجَباً لِمَنْ أَمْسَى، وكلُّ فَخَارِهِ ... بِنُضَارِهِ المَخْبوُءِ في الصُّنْدُوقِ

نضار: ذهب

ماذَا يقولُ إذا اللصوصُ مَضَوْا بِهِ ... وأقامَ بعدَ نُضَارِهِ المسْرُوقِ؟

أقام: بقي موجوداً

إنْ يَرْفَعِ المالُ الكريمَ، فإنَّهُ ... لِلنَّذْلِ مثلُ الحَبْلِ لِلمَشْنُوقِ

لمَّا صَديقيَ صارَ مِنْ أهلِ الغِنَى ... أيقنتُ أنِّيَ قد أضعتُ صديقي

٩٠ متحير في الهدية

أيَّ شيءٍ في العيدِ أُهْدِي إليكِ ... يا مَلاكي؟ وكلُّ شيءٍ لديكِ

أَسِوَاراً؟ أم دُمْلُجاً مِنْ نُضَارٍ؟ ... لا أُحِبُّ القيودَ في مِعْصَمَيْكِ

دملج: سوار، نضار: ذهب

أم خمُوراً؟ وليس في الأرضِ خمرٌ ... كالتي تَسْكُبِينَ مِنْ لَحْظَيْكِ

أم وُروداً؟ والوردُ أجمَلُهُ عِنـ ... ـدي الذي قد نَشَقْتُ مِنْ خَدَّيْكِ

أجمل ورد عندي الورد الذي أشمه من خديك، فخداك كالورد

أم عَقِيقاً كَمُهْجَتي يَتَلَظَّى؟ ... والعَقِيقُ الثَّمينُ في شَفَتَيْكِ

والعقيق حجر كريم أحمر

ليس عِندي شَيءٌ أعزُّ مِنَ الرُّو ... حِ، ورُوحِي مَرْهونَةٌ في يَدَيْكِ

يغنيها ناظم الغزالي. وفي البيت الأخير يجعل عندي مفتوحة الياء فيكسر، ولو كسر الياء لفتح لنفسه باباً أوسع للمد والتطريب

٩١ قصيدة في مدح شراب الحمير

كانَ على خِوَانِ ربِّ المالِ ... كأسانِ: مِنْ خَمْرٍ، ومِنْ زُلالِ

خوان: مائدة، زلال: ماء

فقالتِ السُّلافَةُ الثَّرْثارةْ: ... عنديِ حديثٌ، فاسْمَعي يا جَارَةْ

السلافة: الخمر

أنـا الـتـي تَـخْـضَـعُ لـيِ الـرُّؤوسُ أنـا الـتـي يَـعْـبُـدُنـي الـمـجُـوسُ
وزَوْجَـةٍ عَـلَّـمْـتُـهـا الـخِـيَـانَـةْ ووالـدٍ أَنْـسَـيْـتُـهُ الأَمَـانَـةْ
وحَـدَثٍ خَـدَعْـتُـهُ، فـانْـخَـدَعَـا، حتى إذا ما شَـبَّ عَضَّ الإصْبَعَا

عضّ الإصبع: أي نَدِم

فَـسَـمِـعَ الـمـاءُ، فَـهَـاجَ غَـضَـبَـا وقـالَ: مَـهْـلاً، بَـلَـغَ الـسَّـيْـلُ الـزُّبَـى

بلغ السيل الزبى: بلغت الأمور منتهى الخطورة، والزُّبْيَة حفرة يحفرونها فوق تلة حتى يقع فيها الأسد فيصيدونه، فما يبلغها السيل إلا وقد عاث المطر في الأرض فساداً

حـيـثُ أكـونُ جَـارِيَـاً، يَـكُـونُ الـوَرْدُ والأَقَـاحُ والـنِّـسْـرِيـنُ
إنَّ الـمُـروجَ الـخُـضْـرَ لا يُـحْـيِـيـهَـا غـيـرُ وُجـودِي حـوْلَـهـا، وفَـيـهـا
وجَلَسَ العشاقُ حَوْلِي في السَّحَرْ على بِسَاطِ العُشْبِ في ضَوْءِ القَمرْ
كَـم اشْـتَـهَـوْا، إذْ سَـمِـعُـوا خَـرِيـرِي لـو أنَّـنـي أَسِـيـرُ فـي الـصُّـدُورِ
وأُمُّـكِ، الـكَـرْمَـةُ، يـا صَـهْـبَـاءُ! ما وُجِدَتْ في الأرضِ، لولا الماءُ

٩٢ الطبيعة ديناً

وسـائِـلَـةٍ: أيُّ الـمـذاهِـبِ مَـذْهـبِـي وهلْ كانَ فَرْعاً في الدياناتِ أم أَصْلا؟
وأيُّ نَـبِـيٍّ مُـرْسَـلٍ أَقْـتَـدي بِـهِ وأيُّ كِتَابٍ مُنْزَلٍ عِنْدِيَ الأَغْلى؟
فقلتُ لهَا: لا يَقْتَنِي المرءُ مَذْهَباً، وإنْ جَلَّ، إلَّا كانَ في عُنْقِهِ غُلَّا

غلاً: قيداً

فَـمَـا مـذهـبُ الإنسـانِ إلا زُجَاجَـةٌ تُـقَـيِّـدُهُ خَـمْـراً، وتَـضْـبِـطُـهُ خَـلَّا

المذهب كالزجاجة التي تحتوي الخمر، ولشدة التخمير يتحول الخمر إلى خل فيفسد

فإنْ كانَ قُبْحَاً، لم يُبَدِّلْهُ لونُها جَمَالاً؛ ولا نُبْلاً، إذا لم يَكُنْ نُبْلا
أنـا آدَمِـيٌّ كـانَ يَـحْـسَـبُ أَنَّـهُ هُوَ الكائنُ الأَسْمَى، وشِرْعَتُهُ الفُضْلَى
وأنَّ لَهُ الدنيا، التي هُوَ بَعْضُها، وأنَّ لـهُ الأُخرىَ إذا صامَ أو صَلَّى
أَمُنُّ على الصَّادِي إذا ما سَقَيْتُهُ وأُلْزِمُهُ شُكْرِي، ولستُ أَنا الوَبْلا

الصادي: العطشان، الوبل: المطر المنهمر

وأُزْهَى إذا أَطْعَمْتُ جَوْعَانَ لُقْمَةً كأنِّي خَلَقْتُ الحَبَّ في الحقلِ، والحَقْلا

أنا أُزهى: أنا أفتخر

تَتَلْمَذْتُ للإنسانِ في الدهرِ حِقْبَةً فَلَقَّنَنِي غَيّاً، وعَلَّمَني جَهْلا
نَهَانِيَ عَنْ قتلِ النُّفوسِ، وعندما رأى غِرَّةً مني، تَعَلَّمَ بيِ القَتْلا
وكادَ يُرِيني الإثْمَ في كلِّ ما أرَى، وكلَّ نِظامٍ، غَيْرَ ما سَنَّ، مُخْتَلَّا
إلى أنْ رأيتُ النجمَ يَطْلُعُ في الدُّجى لِذِي مُقْلَةٍ حَسْرَى، وذِي مُقْلَةٍ جَذْلَى

مقلة حسرى: عين ضعيفة البصر، جذلى: سعيدة

وشاهدتُ كيفَ النهرُ يَبْذُلُ ماءَهُ فلا يَبْتَغي شُكْراً، ولا يَدَّعي فَضْلا
وكيفَ تُغَذِّي الأرضُ ألأَمَ نَبْتِهَا وأَقْبَحَهُ شَكْلاً، كَأَحْسَنِهِ شَكْلا
وصارَ نَبِيِّي كُلُّ ما يُطْلِقُ العَقْلا وصَارَ كِتَابي الكونُ، لا صُحُفٌ تُتْلَى
ودِيني الذي اختَارَ الغَدِيرُ لِنَفْسِهِ ويا حُسْنَ ما اختارَ الغديرُ، وما أَحْلَى
تَجِيءُ إليهِ الطيرُ عَطْشَى فَتَرْتَوي وإنْ وَرَدَتْهُ الإبْلُ، لم يَزْجُرِ الإبْلا
ويَغْتَسِلُ الذِّئْبُ الأثيمُ بمائِهِ فلا إثمُ ذا يُمْحَى، ولا طُهْرُ ذا يَبْلَى
وإن مَرَّ بي طِفْلٌ رأيتُ بِهِ الوَرَى مِنَ المَثَلِ الأدنَى، إلى المَثَلِ الأعْلَى
فيا لَكِ دنيا حُسْنُهَا بعضُ قبحِها ويا لَكَ كَوْناً قد حَوَى بَعْضُهُ الكُلّا

٩٣ القلب والعقل

ألقاها في حفلة تكريم الشاعر جورج صيدح عندما زار نيويورك:

سَيَّرْتُ في فجرِ الحياةِ سفينَتي واختَرْتُ قَلْبِي أنْ يَكُونَ إمَامِي

إمامي: مرشدي

فَجَرَتْ على الأمواجِ قَصْراً مِنْ رُؤَىً مِلءَ الفَضَا، مِلءَ المدَى المتَرامي
أتَلَقَّفُ اللذَّاتِ غيرَ مُحَاذِرٍ وأَعُبُّ في الزَّلَّاتِ والآثَامِ
حتى إذا هَتَفَ المَشيبُ بِلِمَّتي ودَنَتْ يَدُ الماحِي إلى أحْلامي

لمتي: شعر رأسي

صَرَخَ الحِجَا بي سَاخِطاً مُتَهَكِّماً: هذا الغِنَى شَرٌّ مِنَ الإعْدَامِ

الحجا: العقل، الإعدام: الفقر

أَسْلَمْتَني لِلْقَلْبِ، وَهْوَ مُضَلِّلٌ فَأَضَرَّنِي، وأَضَرَّكَ استسلامي
وأَرَادَ عَقْلِي أنْ يَقُودَ سَفينتي لِلشَّطِّ في بحرِ الحياةِ الطَّامي

فَطَوَيْتُ أعلامَ الهَوى، وهَجَرْتُها ... ونَسِيتُ حتَّى أنَّها أعلامي
وحَسِبْتُ آلامي انتهتْ لمَّا انتهَى، ... فإذا النهايةُ أعْظَمُ الآلامِ
أَبْغِي الثراءَ، ولم يَكُنْ مِنْ مَطْلَبِي، ... وأرى الجمالَ بِناظِرٍ مُتَعامِ
فإذا أنا، والأرضُ مُلْكِي والسَّمَا، ... قد صِرْتُ عبدَ الناسِ، عبدَ حُطَامِي

حطامي: ثروتي

فَتَضَايَقَ القلبُ السَّجينُ، وقالَ لي: ... يا أيُّها الجاني! قَتَلْتَ هُيَامي
أَسْلَمْتَنِي للعقْلِ، وَهْوَ مُضَلِّلٌ ... فَأَضَرَّني، وأَضَرَّكَ استسلامي
المالُ! مَنْ ذا يَشْتَرِيهِ كُلَّهُ ... مِنِّي، بِلَيْلِ صَبَابَةٍ وغَرَامِ
لا تَسْأَلوني اليومَ عَنْ قِيثارَتي ... قيثارتي خَشَبٌ بِلا أَنْغَامِ

٩٤ ابتسم

قالَ: السماءُ كئيبةٌ! وتَجَهَّمَا ... قلتُ: ابتسِمْ، يَكفِي التَّجَهُّمُ في السَّما
قالَ: الصِّبا وَلَّى، فقلتُ لهُ: ابْتَسِمْ ... لن يُرْجِعَ الأَسَفُ الصِّبَا المُتَصَرِّمَا!
قالَ: التي كانتْ سمائيَ في الهَوى ... صارتْ لِنَفسيَ في الغَرامِ جَهَنَّمَا

سمائي: جنتي

خانتْ عُهُوديَ، بَعْدَمَا مَلَّكْتُهَا ... قلبِي، فكيف أُطِيقُ أنْ أَتَبَسَّما؟
قلتُ: ابتسمْ واطربْ، فَلَوْ قارنْتَها ... قَضَّيْتَ عمرَكَ كلَّهُ مُتَأَلِّما

قارنتها: تزوجتها

قالَ: التجارةُ في صِرَاعٍ هائلٍ ... مثلَ المسافِرِ، كادَ يَقْتُلُه الظَّمَا
أو غادةٍ مَسْلُولةٍ محتاجَةٍ ... لِدَمٍ، وتَنْفُثُ، كُلَّما لَهَثَتْ، دَمَا
قلتُ: ابتسمْ، ما أنتَ جالبُ دائِها ... وشفائِها، فإذا ابتسمتَ فَرُبَّمَا
أَيَكونُ غيرُكَ مُجرِماً، وتبيتُ في ... وَجَلٍ، كأنكَ أنتَ صِرْتَ المُجرِما
قالَ: اللَّيالِي جَرَّعَتْنِيَ عَلْقَماً ... قلتُ: ابتسمْ، ولَئِنْ جَرَعْتَ العَلقَما
فَلَعلَّ غيرَكَ إنْ رآكَ مُرَنِّماً ... طَرَحَ الكآبةَ جانباً، وترنَّما
فاضحكْ، فإن الشُّهْبَ تضحكُ، والدُّجَى ... مُتَلاطِمٌ، ولِذَا نُحِبُّ الأَنْجُما
قالَ: البشاشةُ ليس تُسْعِدُ كائناً ... يأتِي إلى الدنيا ويَذْهَبُ مُرْغَما

قلتُ: ابتسمْ ما دامَ بينَكَ والرَّدَى   شِبْرٌ، فإنكَ بَعْدُ لنْ تَتَبَسَّما

٩٥ ابتسم أكثر

ألقاها في المأدبة التي أقامتها الطائفة الأرثوذكسية على شرف المندوب البطريركي المطران ثيودوسيوس أبو رجيلي في بروكلين ـ نيويورك:

كنْ بَلْسَماً إنْ صارَ دهرُكَ أَرْقَمَا   وحَلاوَةً إن صارَ غيرُكَ عَلْقَمَا

بلسم: صمغ يداوي الجراح، الأرقم: الأفعى

إنَّ الحياةَ حَبَتْكَ كُلَّ كنوزِها   لا تَبْخَلَنَّ على الحياةِ بِبَعْضِ مَا..

ببعض ما: أي ببعض ما حَبَتْك

مَنْ ذا يُكَافِىءُ زَهْرةً فَوَّاحَةً!   أو مَنْ يُثِيبُ البلبلَ المترَنِّما!

أيقِظْ شعورَكَ بالمحبَّةِ إنْ غَفَا   لولا الشعورُ، الناسُ كانُوا كالدُّمَى

ما الكأسُ، لولا الخمرُ، غيرَ زُجَاجةٍ   والمرءُ، لولا الحُبُّ، إلَّا أَعْظُمَا

كَرِهَ الدُّجَى فاسْوَدَّ، إلَّا شُهْبَهُ   بَقِيَتْ، لِتَضْحَكَ منهُ كيفَ تَجَهَّمَا

الكراهية جعلت الليل أسود، لكن نجومه بقيت لامعة لتضحك من عبوسه

لو تعشَقُ البيداءُ أصبحَ رملُها   زَهْراً، وصارَ سرابُها الخَدَّاعُ مَا

ما: ماء

لوْ لم يَكُنْ في الأرضِ إلَّا مُبْغِضٌ   لَتَبَرَّمَتْ بِوُجودِهِ، وتَبَرَّمَا

لاحَ الجمالُ لِذي نُهىً فَأَحَبَّهُ   وراَهُ ذو جهلٍ فَظَنَّ، ورَجَّمَا

نهى: عقل، رجَّم: تشكك

لا تَطْلُبَنَّ مَحَبَّةً مِنْ جاهلٍ   المرءُ ليس يُحِبُّ حتى يَفْهَما

وارْفُقْ بِأَبناءِ الغَبَاءِ كَأَنَّهُمْ   مَرْضَى، فإنَّ الجهلَ شيءٌ كَالعَمَى

يا مَنْ أَتَانَا بِالسلامِ مُبَشِّراً   هَشَّ الحِمَى لمَّا دَخَلْتَ إلىَ الحِمَى

يمدح المطران أبو رجيلي

وَصَفُوكَ بالتقْوَى، وقالوا: جِهْبِذٌ   عَلَّامَةٌ، ولقدْ وَجَدْتُكَ مِثْلَمَا

الجِهبِذ: الحاذق، مثلما: أي مثلما وصفوك

وإذا كتبتَ ففي الطُّرُوسِ حَدَائِقٌ   وَشَّىَ حَوَاشِيَها اليَرَاعُ ونَمْنَمَا

الطروس: الأوراق، اليراع: القلم، نمنمَ: زَخْرَفَ

وإذا وقفتَ على المنابرِ أَوْشَكَتْ — أخشابُهَا، لِلزَّهْوِ، أنْ تَتَكَلَّمَا
إنْ كنتَ قد أَخْطَاكَ سِرْبَالُ الغِنَى — عاشَ ابنُ مَرْيَمَ ليسَ يَمْلِكُ دِرْهَما

سربال: لباس، ابن مريم: المسيح

نامَ الرعاةُ عنِ الخِرَافِ، ولم تَنَمْ — فإليكَ نَشْكُو الهَاجِعِينَ النُّوَّمَا

الرعاة: يقصد كبار رجال الدين

كَمْ رَوَّعُوا بِجَهَنَّمٍ أرواحَنَا — فتألَّمتْ مِنْ قبلِ أنْ تَتَألما
زَعَمُوا الإلهَ أعدَّهَا لِعَذابِنَا — حَاشا، وربُّكَ رَحْمَةٌ، أَنْ يَظْلِمَا
ما كانَ مَنْ أَمَرَ الوَرَى أنْ يَرْحَمُوا — أعداءَهُمْ، إلَّا أرقَّ وأرْحَمَا
ليستْ جَهَنَّمُ غيرَ فكرةِ تاجِرٍ، — اللَّهُ لم يَخْلُقْ لنا إلَّا السَّمَا

السما: الجنة

٩٦ فلسطين

بلادُهُمُ عُرْضَةٌ للضَّيَاعِ — وأُمَّتُهُمْ عُرْضَةٌ للفَنا
يريدُ اليهودُ بأنْ يَصْلُبُوها — وتَأْبى فِلَسْطينُ أنْ تُذْعِنا
ألا ليتَ بَلْفُورَ أعطاكُمُ — بلاداً لَهُ، لا بِلاداً لَنا
فَلَنْدَنُ أَرْحَبُ من قُدْسِنَا — وأنتُمْ أَحَبُّ إلى لَنْدَنا
ويا عَجَباً لَكُمُ! تُوغِرُونَ — على العَرَبِ التِّمْزَ والهَدْسَنَا

توغرون: تشحنون حقداً، التمز: نهر لندن، الهدسن: نهر يصب في نيويورك، يقصد الإنجليز والأميركان

وكلُّ خَطِيئَاتِهِمْ أنهُمْ — يقولونَ: لا تَسْرِقوا بَيْتَنَا
فَلَيْسَتْ فلسطينُ أرضاً مَشَاعاً — فَتُعْطَى لِمنْ شاءَ أنْ يَسْكُنا
وإمَّا أَبَيْتُمْ فأُوصِيكُمُ — بأنْ تَحمِلُوا مَعْكُمُ الأَكْفُنا

إما: إذا

فإنا سنَجْعَلُ مِنْ أرضِها — لنا وَطَناً، ولَكُمْ مَدْفَنَا

٩٧ لكم أكتبُ

يا رفيقِي! أنَا لولا — أنتَ، مَا وَقَّعْتُ لَحْنا

كـنـتَ فـي سِـرِّيَ لـمَّـا كـنـتُ وَحْـدِي أَتَـغَـنَّـى
إنَّ بـعـضَ الـقـولِ فَـنٌّ فـاجـعـلِ الإصـغـاءَ فَـنَّـا
ربـمـا كـنـتُ غَـنِـيَّـاً غـيـرَ أنـي بِـكَ أَغْـنـى
مـا لِـصَـوتٍ، أُغْـلِـقَـتْ مِـنْ دونِـهِ الأسـمـاعُ، مَـعـنـى
لـسـتَ مِـنِّـي إنْ حَـسِـبْـتَ الـشِّـعْـرَ ألـفـاظـاً ووَزْنـا

هذه القصيدة نهديها للشعراء الذين يقولون إنهم يكتبون لأنفسهم فقط

٩٨ الشاعر والملك ومعركة الخلود

أَمَـرَ الـسـلـطـانُ بـالـشـا عـرِ يـومـاً، فَـأَتـاهُ
فـي كِـسَـاءٍ حَـائِـلِ الـصِّـبْـغَـةِ واهٍ جـانِـبَـاهُ

الكساء الحائل الصبغة: الثوب قد بهت لونه، واهٍ جانباه: مهترئ من جنبيه

وحِـذَاءٍ أوشَـكَـتْ تُـفْـلِـتُ مِـنْـهُ قَـدَمَـاهُ
قـالَ: صِـفْ جَـاهِـي، فـفـي وَصْـفِـكَ لـي لِـلـشِّـعْـرِ جـاهُ
إنَّ لـيِ الـقَـصْـرَ الـذي لا تـبـلُـغُ الـطـيـرُ ذُرَاهُ

ذراه: أعاليه

ولـيَ الـرَّوْضُ الـذي يَـعْـبَـقُ بـالـمِـسْـكِ ثَـرَاهُ
ولـيَ الـجـيـشُ الـذي تَـرْشَـحُ بـالـمـوتِ ظُـبَـاهُ

ظباه: شفرات سيوفه

ولـيَ الـغـابـاتُ والـشُّـمُّ الـرَّواسـي والـمـيـاهُ

الشم الرواسي: الجبال

ولـيَ الـنَّـاسُ، وبـؤسُ الـنَّـاسِ مِـنِّـي والـرَّفَـاهُ
إنَّ هـذا الـكـونَ مِـلْـكـي، أنـا فـي الـكـونِ إلَـهُ
ضَـحِـكَ الـشَّـاعـرُ مِـمَّـا سَـمِـعَـتْـهُ أُذُنَـاهُ
وتَـمَـنَّـى أنْ يُـدَاجِـي، فَـعَـصَـتْـهُ شَـفَـتَـاهُ

يداجي: ينافق

قـالَ: إنِّـي لا أَرَى الأمـرَ كـمـا أنـتَ تَـرَاهُ

إنَّ مُـلْـكـيِ قـد طَـوَى مُـلْــ ـكَــكَ عَـــنِّـــي ومَـــحَـــاهُ

* * *

والـجـيـشُ مَـعْـقُـودٌ لِـوَاؤُكَ فـوقَـهُ ما دُمْـتَ تَـكْـسـوهُ وتُـطْـعِـمُـهُ
لِـلْـخُـبـزِ طـاعـتُـهُ وحُـسْـنُ وَلائِـهِ هُـوَ لاتُـهُ الـكُـبْـرى وبَـرْهَـمُـهُ

اللات: صنم جاهلي، البرهم: إله هندوسي

فـإذا يَـجـوعُ بِـظِـلِّ عَـرْشِـكَ لَـيْـلَـةً فَـهُـوَ الـذي بِـيَـدَيْـهِ يَـحْـطِـمُـهُ

* * *

والـبـحـرُ، قـد ظَـفِـرَتْ يَـدَاكَ بِـدُرِّهِ وحَصَاهُ، لَكِنْ هَلْ مَلَكْتَ هَدِيرَهُ؟
هُـوَ لـلـرِّيـاحِ، تَـهُـزُّهُ وتُـثـيـرُهُ، والشُّهْبُ تَسْمَعُ في الظلامِ زئيرَهُ
للـشـاعـرِ الـمـفـتـونِ يَـخْـلُـقُ لاهِـيـاً مِـنْ مـوجِـهِ حُـوراً ويَـعْـشَـقُ حُـورَهُ
يـا مَـنْ يَـصـيـدُ الـدُّرَّ مِـنْ أعـمـاقِـهِ أخـذَتْ يَـداكَ مِـنَ الـجـلـيـلِ حَـقِـيـرَهُ
لا تَـدَّعـيـهِ، فَـلَـيْـسَ يُـمْـلَـكُ، إنَّـهُ كـالـروضِ جَـهْـدُكَ أنْ تَـشُـمَّ عبيـرَهُ

* * *

فـاحْـتَـدَمَ الـسـلـطـانُ أيَّ احـتِـدَامْ ولاحَ حُـبُّ الـبـطـشِ فـي مُـقْـلَـتَـيْـهْ

احتدم: اغتاظ

وصَـاح بـالـجـلادِ: هـاتِ الـحُـسـامْ! فـأسـرعَ الـجَـلَّادُ يـسـعَـى إلـيْـهْ
فـقـالَ: دَحْـرِجْ رأسَ هـذا الـغـلامْ فـرأسُـهُ عِـبءٌ عـلـى كَـتِـفَـيْـهْ
سـمْـعـاً وطـوْعـاً، سـيِّـدي! وانْـتَـضَـى عَـضْـبَـاً يـمـوجُ الـمـوتُ في شَـفْـرَتَـيْـهْ

عضب: سيف

ولـم يـكـنْ إلا كَـبَـرْقٍ أَضَـا حـتـى أطـارَ الـرأسَ عَـنْ مَـنْـكِـبَـيْـهْ

أضا: أضاء

* * *

أجـلْ، هـكـذا هَـلَـكَ الـشـاعـرُ كـمـا يَـهْـلِـكُ الآثِـمُ الـمـذْنِـبُ
فَـمَـا غُـصَّ فـي رَوْضَـةٍ طـائـرُ ولـم يَـنْـطَـفِـئْ في الـسَّـمَـا كـوكـبُ
وكُـوفِـئَ عَـنْ قَـتْـلِـهِ الـقـاتـلُ بـمـالٍ جـزيـلٍ، وخـدٌّ أسـيـلْ

نال جارية خدها أسيل أي طويل

فـقـالَ لَـهُ خُـلْـقُـهُ الـسـافِـلُ: ألا لـيـتَ لـيِ كـلَّ يـومٍ قَـتِـيـلْ!

* * *

فـي لـيـلـةٍ طـامِـسَـةِ الأنـجـمْ تـسـلَّـلَ الـمـوتُ إلـى الـقَـصْـرِ
بـيـنَ حِـرَابِ الـجُـنْـدِ والأَسْـهُـمْ والأَسْـيُـفِ الـهِـنْـدِيَّـةِ الـحُـمْـرِ
إلـى سـريـرِ الـمـلِـكِ الأعـظـمْ إلـى أمـيـرِ الـبَـرِّ والـبَـحْـرِ
فـفـارقَ الـدنـيـا ولَـمَّـا تَـزَلْ فـيـهـا خـمـورٌ وأَغَـارِيـدُ
فـلـمْ يَـمِـدْ حُـزْنـاً عَـلَـيْـهِ الـجَـبَـلْ ولا ذَوَى فـي الـروضِ أُمْـلُـودُ

لم يمد: لم يمل، ذوى: ذبل، أملود: غصن

* * *

في حَوْمَةِ الموتِ، وظِلِّ البِلَى قـدِ التَقَى السُّلْطانُ والشَّاعِرُ

حومة الموت: ساحة الموت، البلى: تحلل الجسم

هـذا بِـلا مـجـدٍ، وهـذا بِـلا ذُلٍّ، فـلا بَـاغٍ ولا ثَـائِـرُ

باغ: ظالم، ثائر: طالب ثأر

عـانَقَتِ الأسمالُ تِلْكَ الحُلَى واصْطَحَبَ المقهُورُ والقَاهِرُ

الأسمال: الملابس الممزقة، الحلى: الثياب الغالية

* * *

وتَـوَالَـتِ الأجْـيـالُ تَـطَّـرِدُ جِـيـلٌ يَـغِـيـبُ، وآخـرٌ يَـفِـدُ
أَخْنَتْ على القَصْرِ المنِيفِ، فَلا الـ ـجُـدْرانُ قَـائِـمَـةٌ، ولا الـعَـمَـدُ

أخنت: أهلكت، العمد: الأعمدة

ومَشَتْ على الجيشِ الكثيفِ، فَلَا خَـيْـلٌ مُـسَـوَّمَـةٌ، ولا زَرَدُ

مسومة: عليها علامات بالكي أو نحوه، زرد: دروع

ذَهبَتْ بِمَنْ صَلَحُوا ومَنْ فَسَدُوا ومَضَتْ بِمَنْ تَعِسُوا ومَنْ سَعِدُوا
وَطَـوَتْ مُـلُـوكـاً مـا لَـهُـمْ عَـدَدُ فَـكَـأَنَّـهُـمْ في الأرضِ ما وُجِدوا
والـشـاعـرُ الـمـقـتـولُ بـاقِـيَـةٌ أقـوالُـهُ، فـكـأنَّـهـا الأَبَـدُ
الـشـيـخُ يَـلْـمَـسُ في جـوانِـبِـهـا صُوَرَ الـهَـوَى، والـحِـكْـمـةَ الـوَلَـدُ

٩٩ كن وردة طيبها حتى لسارقها

خذْ ما استطعتَ مِنَ الدنيا وأَهْلِيها   لكنْ تَعلَّمْ قليلاً كيف تُعْطيها
كُنْ وردةً طِيبُها حتى لِسَارِقِها   لا دِمْنَةً خُبْثُها حتى لِسَاقِيها

دمنة: مزبلة

أكانَ في الكونِ نورٌ تَسْتَضِيءُ بِهِ   لوِ السماءُ طَوَتْ عنَّا دَرارِيها؟

الدراري: النجوم

أو كانَ في الأرضِ أزهارٌ لها أَرَجٌ   لو كانتِ الأرضُ لا تُبْدي أَقاحِيها؟
يا عابدَ المالِ قُلْ لي: هَلْ وجدتَ بِهِ   رُوحاً تُواسِيكَ، أو رُوحاً تُوَاسِيها
حتامَ، يا صاحِ، تُخْفِيهِ وتَطْمُرُهُ   كأنما هُوَ سَوْءَاتٌ تُوارِيها؟
وتَحْرِمُ النفسَ لَذَّاتٍ لها خُلِقَتْ   ولم تُصَاحِبْكَ، يا هذا، لِتُؤْذِيها
أنظرْ إلى الماءِ إنَّ البَذْلَ شِيمَتُهُ   يأتي الحقولَ فَيَرْوِيها ويُحْيِيها
فَمَا تَعَكَّرَ إلَّا وهْوَ مُنْحَبِسٌ   والنفسُ كالماءِ، تَحْكِيهِ ويَحْكِيها
السَّجْنُ لِلماءِ يُؤْذِيهِ ويُفْسِدُهُ   والسَّجْنُ للنفسِ يُؤْذِيها ويُضْنِيها
وانظرْ إلى النارِ! إنَّ الفَتْكَ عادتُها   لكِنَّ عادتَها الشَّنْعَاءَ تُرْدِيها
تُفْنِي القُرى والمغَاني وَهْيَ ضَاحِكَةٌ   لِجَهْلِهَا أنَّ ما تُفْنِيهِ يُفْنِيها
لا شيءَ يُدْرَكُ في الدنيا بِلا تَعَبٍ   مَنِ اشْتَهى الخمرَ فَلْيَزْرَعْ دَوَالِيها

١٠٠ تعمير وتخريب

يا لهفةَ النفسِ على غابَةٍ   كنتُ وهِنداً نَلتقي فيها
تكادُ مِنْ لُطْفِ مَعانِيها   يَشْرَبُها خاطِرُ رَائِيها
للّهِ في الغابَةِ أيّامُنا   ما عابَها إلّا تَلاشِيها
تَسْكُتُ، إذْ نَشْكُو، شحاريرُها   كأنَّما التغريدُ يُؤْذِيها
وفوقَنا الأغصانُ مَعقودَةٌ   ذوائِبٌ طالَ تَدَلِّيها

ذوائب: خصلات شعر

إذا هَزَزْنَاها على غِرَّةٍ   أَلْقَتْ مِنَ الذُّعْرِ لآلِيها
نَسِيرُ مِنْ كَهْفٍ إلى جدولٍ   نكتشفُ الأرضَ ونَطْوِيها

وتَـخْـتَـبِـي هـنـدُ، فَـأَشْـتـاقُـهـا وأَخْـتَـبِـي عـنـهـا، فـأُغْـرِيـهـا
كَمْ أوْهَمَتْنِي الخوفَ مِنْ طَارِئٍ تُشْجِي بِذَا نَفْسِي، فَتُشْجِيها

كأنه يريد القول: تريد بذلك أن تشجي نفسي وتحزنها، فتشجيها فعلاً

فَرُحْتُ أعدُو نَحْوَها مُشْفِقاً فكانَ مَا حاذَرْتُ تَمْوِيها!
اللـهَ! لـو دامَ زمانُ الـهَـوى تَـعْـبَـثُ مِـنِّـي وأُجَـارِيـهـا!
لا غَابَتِي اليومَ كَعَهْدِي بِها ولا الـتـي أحْـبَـبْتُـهـا فِـيـهـا
ولا تِـلالٌ كَـنُـهُـودِ الـدُّمَـى ولا سُـفُـوحٌ كَـتَـرَاقِـيـهـا

الدمى: الحسان، التراقي: عظام تحت الكتف

قَـد بَـدَّلَ الإنـسـانُ أطْوارَهـا واغـتـصـبَ الـطَّـيـرَ مَـآوِيـهـا

أي اغتصب من الطير مآويها (أعشاشها)

وفَـتَّ بِـالـبـارُودِ جُـلْـمُـودَهـا واجْـتَـثَّ بـالـفَـأْسِ دَوالِـيـهـا

جلمود: صخر، الدوالي: شجيرات العنب

يـا لَـهْـفَـةَ الـنـفسِ عـلـى غَـابـةٍ كـنـتُ وهِـنْـداً نَـلْـتَـقي فـيـهـا
نَـبْـكِـي مِنَ اليأسِ على شَوْكِها وكَـانَ يُـدْمِـيـنـي ويُـدْمِـيـهـا
كـانـتْ تُـغَـطِّـيـنـا بِـأَوْرَاقِـهـا فـصـارتِ الـدُّورُ تُـغَـطِّـيـهـا!

١٠١ اليتيم

الـيـتـيـمُ الـذي يَـلُـوحُ زَرِيّـاً لـيـسَ شيئاً لـو تـعـلـمونَ زَرِيّـا
إنَّـهُ غَـرْسَـةٌ سَـتُـطْـلِـعُ يـومـاً ثـمـراً طَـيِّـبـاً، وزَهْـراً جَـنِـيّـا
ربـمـا كـانَ أوْدَعَ الـلَّـهُ فـيـهِ فَيْلَسوفاً، أو شاعراً، أو نبيّا
إن يَكُ الموتُ قد مَضَى بِأَبِيهِ ما مَضَى بِالشُّعورِ فِيكَ وفِيّا
لا تـقُـولـوا مَـنْ أمُّـه؟ مَـنْ أَبُـوه؟ فَـأَبُـوه وأُمُّـهُ سُـورِيّـا

١٠٢ البشر والقناعة

كـانَ زمـانٌ لـم يَـزَلْ كـائِـنـاً، وحـالـةٌ، مـا بَـرِحَـتْ بـاقـيَـةْ
مـلَّ بَـنُـو الإنـسـانِ أطـوارَهُـمْ وبَـرِمُـوا بِـالـسُّـقْـمِ والـعـافـيَـةْ

فاسْتَصْرَخُوا خالِقَهُمْ واشْتَهَوْا — لو أنّه كَوَّنَهُمْ ثانِيَةْ
وبَلَغَتْ أصواتُهُمْ عرشَهُ — في ليلةٍ مُقمرةٍ صافِيةْ
فقالَ، إني فاعلٌ ما اشْتَهَوْا — لعلَّ فيهِ حِكْمَةً خافيةْ
وشاهَدُوهُ هابِطاً مِنْ عَلٌ — فاحْتَشَدُوا في السَّهْلِ والرَّابيةْ
فقال ربُّ العرشِ: ما خَطْبُكُمْ، — ما بالُكُمْ، صَرْخَاتُكُمْ عاليةْ؟

الفتى:

قالَ الفتى: يا ربِّ إنَّ الصِّبا — مَصْدَرُ أحزانِي وآلامي
أَلْبَسْتَنِيهِ مُونِقَاً، بَعدما — أَبْلاهُ أخوالِي وأعمامي

مونق: جميل

وصارَ في مَذْهَبِهِمْ عَصْرُهُ — فترةَ زَلّاتٍ وآثامِ

عصر الشباب بحسب الأهل هو عصر الأخطاء والذنوب

فاخْتَلَفَتْ حالي وحالاتُهُمْ — كأنني في غيرِ أقْوَامي
عِنْدَهُمُ الروضةُ: أشجَارُها — والروضُ عنديِ: الزَّهَرُ النَّامي
والطيرُ لَحْمٌ ودمٌ عندهُمْ — وليس عنديِ غيرَ أنْغَامِ
عبءٌ على نفسِيَ هذا الصِّبا — الجائِشُ المسْتَوْفِزُ الطَّامي

المستوفز: الثائر، الطامي: الجياش المتحمس

خذْهُ، وخذْ قلبِي وأحلامَهُ — فإنني أشقَى بِأَحلامِي
ومُرْ يَمُرَّ الدهرُ في لَحْظَةٍ — كالطيفِ أو كالبرقِ قُدَّامي
وازرعْ نجومَ الشيبِ في لِمَّتي — فَيَنْجَلي حِنْدِسُ أوهامي

لمتي: شعر رأسي، حندس: ظلمة

فأُبْصِرُ الحكمَةَ في ضَوْئِهِ — إني إليها جائعٌ ظَامي

الشيخ:

وجاءَ شيخٌ حائرٌ واجِفٌ — مُشْتَعِلَ اللِّمَّةِ بالي الإهابْ

واجف: مضطرب، اللمة: شعر الرأس، الإهاب: الجِلد

كأنما زَلْزَلَةٌ تَحْتَهُ — لِمَا بِهِ مِنْ رَعْشَةٍ واضْطِرابْ

فصاحَ: يا رَبَّاهُ خُذْ حِكْمَتي ... واردُدْ على عَبْدِكَ عَصْرَ الشبابْ
إنَّ أماني الروحِ أزْهارُهَا ... وإنَّ روحي اليومَ قَفْرٌ يَبَابْ

قفر ويباب: خلاء أجرد

تِلْكَ الأمانيُّ، على كِذْبِها، ... لم تَكُنِ اللذةُ فيها كِذَابْ
زالتْ وما زِلْتُ، وإن الشَّقَا ... أنْ تُطْمَسَ الآيُ، ويَبْقَى الكتابْ
وتُسْلَبَ السَّرْحَةُ أوراقَها ... ولم تزلْ أعراقُها في التُّرَابْ

السرحة: الشجرة، أعراقها: جذورها

مُرْ تَقِفِ الأيامُ عَنْ سيرِها ... فإنَّها تَركُضُ مثلَ السحابْ
وضعْ أمامي، لا ورائي، المُنَى ... وطوِّلِ الدَّرْبَ، وزِدْ في الصِّعَابْ
ما لَذَّتي بالماءِ أَرْوَى بِهِ ... بلْ لَذَّتي بِالعَدْوِ خلفَ السَّرابْ

الحسناء:

وقالتِ الحسناءُ: يا خالقي ... وَهَبْتَني الحسنَ فَأَشقَيْتَني
وَجْهي سَنِيٌّ مُشْرِقٌ، إنَّما ... مَرْعَى عيونِ الخلقِ وجْهي السَّنِي

سني: مضيء

إنْ عَشِقَتْ نفسي فويلٌ لها ... والويلُ لي إنْ رجلٌ حَبَّني
لم يبقَ في روحِيَ مِنْ موضعٍ ... يا ربِّ لم يُخْدَشْ، ولم يُطْعَنِ
إنَّ الغِنَى في الوجهِ لي آفةٌ ... فَلَيْتَ أنِّي دُمْيَةٌ لَيْتَني

الجارية:

وسكتَتْ، فصاحتِ الجارِيَةْ ... باكيةً مِنْ بُؤْسِها شاكِيَةْ:
ذَنبي إلى هذا الوَرى خِلقَتي ... فهلْ أنا المجرمةُ الجانيةْ؟
لو كنتُ حسناءَ بَلَغْتُ العُلى ... فَلِلْجَمالِ الرُّتْبةُ العالِيَةْ
فباتَ مَنْ أَسْجُدُ قُدَّامَهُ ... صَاغِرَةً، يَسْجُدُ قُدَّامِيَهْ

الفقير:

وأقبلَ الصُّعْلُوكُ مُسْتَرحِماً ... في مقلَتَيْهِ شَبَحُ اليَأْسِ
يصْرُخُ: يا ربَّاهُ حتى مَتَى ... تُحَكِّمُ الموسِرَ في نَفْسي
وتضعُ التاجَ على رأسِهِ ... وتضعُ الشَّوكَ على رأسي؟

يا ربِّ لا تَنقُلْهُ عَنْ أُنْسِهِ   وإنَّما انْقُلني إلى الأُنْسِ
فإنْ تَشأْ أنْ لا يَذُوقَ الهَنا   قَلبي، فَجَرِّدْني مِنَ الحِسِّ
لو لم يَكُنْ غيريَ في غِبْطَةٍ   ما شَعَرَتْ روحِيَ بِالبُؤْسِ

الغني:

وقال ذو الثَّرْوَةِ: ما أَشْتهي   لا أَشْتَهي أَنِّيَ ذو ثَرْوَةِ

مهما اشتهيت فلا أشتهي الغنى

أنفقتُ أيامي على جمعِها   وخِلْتُني أدركتُ أمْنِيَّتي
فاستعبدتْني في زمانِ الصِّبا   وأوقَرَتْ بِالهَمِّ شَيخوخَتي

أوقرت: أثقلت

قد مَلَكَتْني قَبْلَما حُزْتُها   ومَلَكْتُني وَهْيَ في حَوْزَتي
كَنَحْلَةٍ أَمْسَكَها شَهْدُها   مِنَ الجَناحينِ فَلَمْ تُفْلِتِ
حَسِبْتُها تُكْسِبُني قُوَّةً   فافْتَرَسَتْ قوَّتُها قُوَّتي
لا تَنْظُرِ الأضواءَ في حُجْرَتي   وانظرْ إلى الظَّلماءِ في مُهْجتي
ولا يَغُرَّنَّكَ قَصْري فَما   قَصْري سوى سِجْنٍ لِحُرِّيَّتي
إنِّيَ في الصرحِ الرفيعِ الذُّرى   كَطائرٍ، في قَفَصٍ، مَيِّتِ
كَمْ في عُبَابِ البحرِ مِنْ سابحٍ   قد ماتَ ظَمآناً إلى قَطْرَةِ
مَوْتُ الطَّوَى شَرٌّ ولكِنَّما   أفظَعُ منهُ الموتُ بِالتُّخْمَةِ

الطوى: الجوع

والخوفُ مِنْ كارثةٍ لم تَقَعْ   أَمَضُّ مِنْ كَارِثَةٍ حَلَّتِ

أمضُّ: أوجَعُ

كم مِنْ فقيرٍ مَرَّ بي ضَاحِكاً   كأنَّما يَسْخَرُ مِنْ غُصَّتي
قد اخْتَفَتْ ذاتيَ في بُرْدَتي   فما يرى الخلقُ سوى بُرْدَتي

بردتي: ثوبي

فَهُمْ إذا ما سَلَّمُوا سَلَّمُوا   على خُيُوطِ البُرْدِ والحُلَّةِ

البرد: الثوب، الحلة: الثوب

ربَّاهُ أَطْلِقْ مِنْ عِقَالِ الغِنَى روحي، فإنِّي مِنْهُ في مِحْنَةِ
وانزعْ مَعَ الدينارِ مِنْ قَبضتي صلابَةَ الدينارِ مِنْ سِحْنَتي

سحنة: وجه

وحَوِّلِ المالَ إلى واحَةٍ وحَوِّلِ القصرَ إلى خَيْمَةِ

في الأصل (وحول المال إلى راحة) وجعلناها واحة، وقلما غيَّرنا لشاعر شيئاً، فإن غيرنا قلنا إننا غيرنا

الأبله:

وصَرَخَ الأَبْلَهُ مُسْتَفْسِراً ما القصدُ مِنْ خَلْقي كَذا والمُرَادْ؟
ألم يَكُنْ يَكْمُلُ هذا الوَرى إلَّا إذا أوجَدْتَني في فَسَادْ؟
في صورةِ الناسِ وحاجَاتِهِمْ: مِنْ مَطْعَمٍ أو مَشْرَبٍ أو رُقَادْ..

أنا مثل الناس في هذه الأمور.. الطعام والشراب والنوم.. لكن..

لكِنَّ لُبِّي غَيْرُ أَلْبَابِهِمْ فإنهُ مُكْتَنَفٌ بالسَّوَادْ
إنْ كنتُ إنساناً فَلِمْ يا تُرى لَسْتُ بإدْراكي كَباقي العِبَادْ؟
أَوْ لَمْ أَكُنْ مِنْهُمْ، فَمُرْني أَكُنْ جَرَادَةً أو أرْنَباً أو جَوَادْ
فالنِّدُّ لا يَعْدَمُ مَعْ نِدِّهِ ذَريعةً للسِّلْمِ أو لِلجِهَادْ
لا تَسْخَرُ النملةُ من نملةٍ وليس يُزْري بالقَرادِ القَرادْ

القراد: من الحشرات الماصة دم الحيوان، تعلق بين شعر العنز أو وبر الجمل أو صوف الخروف

الأديب:

وجاءَ بعدَ الأبلهِ المُسْتَريبْ الألْمعِيُّ العَبْقَرِيُّ اللبيبْ
فقالَ: إنِّي تائِهٌ حائِرٌ أنا غريبٌ في مكانٍ غريبْ
أبَحَثُ عنْ نفسي فَلا أَهْتدي وليس يَهْديني إليها أَرِيبْ
لو أنَّني كنتُ بِلا فِطْنَةٍ سِرْتُ ولم تَكْثُرْ أمامي الدُّرُوبْ
ما العقلُ، يا ربِّ، سِوَى مِحْنَةٍ لَولاهُ لم تُكْتَبْ عليَّ الذُّنُوبْ

الخاتمة:

لما وَعَى اللَّهُ شَكَايَا الوَرى قالَ لَهُمْ: كُونوا كَمَا تَشْتَهونْ
فاسَتَبْشَرَ الشَّيْخُ، وسُرَّ الفَتَى والكاعبُ الحسناءُ والحَيْزَبُونْ

الكاعب: الفتاة، الحيزبون: العجوز الهرمة

لكِنَّهُمْ لما اضْمَحَلَّ الدُّجَى لم يَجِدُوا غَيْرَ الذي كَانَا
هَمْ حَدَّدُوا القُبْحَ فكانَ الجَمَالْ وعَرَّفُوا الخيرَ فَكانَ الطَّلاحْ

الطلاح: الشر

وليسَ مِنْ نقصٍ ولا مِنْ كَمَالْ فالشَّوْكُ في التَّحقيقِ مِثْلُ الأَقَاحْ
وذَرَّةُ الرَّمْلِ كَكُلِّ الجِبَالْ وكالذي عَزَّ الذي هَانَا

١٠٣ بلادي

إني مررتُ على الرياضِ الحَالِيَةْ وسمعتُ أنغامَ الطيورِ الشَّادِيَةْ
فَطَرِبْتُ، لكنْ لم يُحِبَّ فُؤادِيَهْ كطيورِ أرضي أو زهورِ بِلادي

* * *

وشربتُ ماءَ النيلِ شيخِ الأنْهُرِ فكأنَّني قد ذُقْتُ ماءَ الكوثَرِ
نَهْرٌ تَبَارَكَ مِنْ قديمِ الأَعْصُرِ عَذْبٌ، ولكنْ لا كَمَاءِ بِلادي

* * *

قالوا: أليسَ الحُسْنُ في كلِّ الدُّنَى فَعَلامَ لم تَمْدَحْ سِوَاها مَوْطِنا
فأَجَبْتُهُمْ: إنِّي أُحِبُّ الأَحْسَنَا أَبَداً، وأَحْسَنُ ما رأيتُ بِلادي

* * *

الكَوكَبُ الوَضَّاحُ يَبْقَى كَوْكَبا وَلَئِنْ تَسَتَّرَ بِالدُّجَى، وتَنَقَّبَا
لَيْسَ الضَّبَابُ بِسَالِبٍ حُسْنَ الرُّبى والبُؤْسُ لا يَمْحُو جَمَالَ بِلادي

١٠٤ حديث الأغصان

أُصْغِي إلى النَّسَماتِ تَرْوِي للربى ما قالتِ الأشجارُ للغُدْرَانِ
وإلى الأزاهِرِ كلما مَرَّتْ بها عذراءُ ذاتُ مَلاحَةٍ وبَيَانِ
مُتَهَامِسَاتٍ: ما نَظُنُّ فُلانَةً أَحَداً بها أولى مِنَ ابنِ فُلَانِ
يا ليتَ يَنْثُرُنا الغرامُ عَلَيْهِما مِنْ قَبْلِ يَنْثُرُنا الخَرِيفُ الجَاني

الأزهار تتهامس وتتمنى أن ينثرها الغرام على العروسين قبل أن ينثرها الخريف ويجني عليها

١٠٥ وتركتهم يتعثرون ورائي

في حفلة اليوبيل الفضي لجريدة «السمير»:

تلكَ السِّنُونُ الغارِباتُ وَرائي ... سِفْرٌ كَتبتُ حروفَه بِدِمائي

جريدة السمير تتحدث عن نفسها

ما عِشْتُها لأَعُدَّها بلْ عشتُها ... لِتَبِينَ في سِيمائِها سِيمائي

سيماء: سحنة. تقول الجريدة: لم أعش تلك السنين الطويلة لأعدها وأفخر بطول العمر، لكنني أردت أن أترك بصمتي على تلك السنين

لاحتْ ليَ العلياءُ في آفاقِها ... فأَرَدْتُها دَرْباً إلى العلياءِ

اتخذت من السنين طريقاً للمجد

وعِبادةً للحقِّ أينَ وجدتُهُ ... والحسنِ في الأحياءِ والأشياءِ

وملأت تلك السنين بعبادة الحق والجمال

تلكَ السِّنُونُ، بِبُؤْسِها ونعيمِها، ... مالتْ بِعُودِي، وانطَوَتْ بِرُوَائي

يتحدث عن نفسه الآن: فالسنين التي أخرج خلالها جريدة السمير، قوست عوده (قامته)، وجعلت رُواءه (نضارته) ينطوي (يذوي)

أين الشبابُ أَلُفُّ أحلامي بِه ... ليس الشبابُ الآنَ لي بِرِداءِ

نَفْسِي تُحِسُّ كأنما أثقالُها ... قد خُيِّرَتْ فَتَخَيَّرتْ أعضائي

السنين اختارت أن تلقي بأثقالها على جسمه

شُكراً لأعدائي! فَلَوْلا عَيْثُهُمْ ... لم أَدْرِ أَنَّهُمُ من الغَوْغاءِ

العيث: الإفساد

ذَنْبِي إلى الحسَّادِ أنِّيَ فُتُّهُمْ ... وتركتُهُمْ يتعثرونَ ورائي

شكراً لكلِ فتىً مزجتُ بِروحِهِ ... روحي، فَطَابَ ولاؤه وولائي

مَنْ كانَ يحلُمُ بالسماءِ فإنني ... في قلبِ إنسانٍ وجدتُ سمائي

السماء: الجنة

ليس الجمالُ هُوَ الجمالَ بِذَاتِه ... الحسنُ يوجدُ حينَ يوجدُ راءِ

تلكَ السِّنُونُ، عَقِيمُها كَوَلُودِهَا ... حُلوٌ لَدَيَّ، كذا يَشاءُ وَفائي

يا من يَقولُ: ظَلَمْتَ نفسَكَ فاتَّئِدْ؛ ... دعنيِ، فلسْتَ بِحَامِلٍ أعبائي

اتئد: تمهل

ما العمرُ؟ إنْ هُوَ كالإناءِ، وإنَّني بالطِّيبِ الغالي ملأتُ إنائي

إن هو كالإناء: ما هو إلا كالإناء

فإذا بَقِيتُ، فَلِلْجمالِ بَقائي وإذا فَنِيتُ، ففي الجمالِ فَنائي

١٠٦ أبْلتْ نِعالي ألسن السفهاء

إني حَلَمْتُ كأنما أنا سائرٌ في روضةٍ خَلَّابةٍ غَنَّاءِ
وإذا بِصوتٍ كالهَريرِ يَطِنُّ في أُذُني، وأنيابٍ تَصِرُّ ورائي

الهرير: صوت الكلب دون النباح، صرير الأنياب: صوتها يحتكُّ بعضها ببعض

فإذا ورائيَ في الحديقةِ نابحٌ ضَاري المَحاجِرِ، ضَامِرُ الأحشاءِ

هذا الكلب في محاجر عينيه قسوة، وهو نحيل

كادتْ تُطِلُّ عروقُهُ من جلدِهِ وتُطِلُّ مَعْهَا شهوةٌ لِدِمائي
أشفقْتُ يَعْلَقُ نابُه بِردائي فرفسْتُهُ غَضَباً، فطارَ حِذائي
ومضى به لِرِفاقِه، فَتَهَلَّلوا وتقاسموهُ، فكان خيْرَ عَشاءِ
لا يَعْجَبَنْ أحدُ رآنيَ حافياً أَبْلَتْ نِعاليَ ألسُنُ السُّفهاءِ

١٠٧ شاهدته بعيونهم

رسالة إلى الشاعر القروي ألقيت في الحفلة الوداعية التي أقيمت في ولاية تكساس وقد تعذر على الشاعر حضورها:

وإذا تلوحُ ليَ الجبالُ ذَكَرتُهُ فالشاعرُ القَرَوِيُّ طَوْدُ إِباءِ

طود: جبل

من كانَ يحلُمُ بالغديرِ، فإنه يبدُوُ له في كلِّ قطرةِ ماءِ
إن كنتُ لم أَرَهُ فقد شاهدْتُهُ بِعُيُونِ أصحابي، وذاكَ عَزائي

١٠٨ إلى الشرق انتسابي

ألقيت بمناسبة زيارة وزير خارجية سورية للولايات المتحدة عام ١٩٥٢:

ليس بيِ داءٌ، ولكنِّي امْرُؤٌ لَسْتُ في أرضِي، ولا بينَ صِحَابِي
مَرَّتِ الأعوامُ تَتْلُو بعضَها: لِلْوَرَى ضِحْكِي، ولِي وَحْدِي اكْتِئابِي

كلما استَوْلَدْتُ نَفْسِي أَمَلاً مَدَّتِ الدنيا لهُ كفَّ اغتِصابِ

استولدت نفسي: أخرجت منها

أفلتَتْ مِني حَلاواتُ الرُّؤى عندما أفلَتَ مِنْ كَفِّي شَبابي

أيها السائلُ عَنِّي: مَنْ أنا؟ أَنا كالشمسِ إلى الشرقِ انتِسابي

إنني المخُ في أوجُهِكُمْ دَفْقَةَ النُّورِ على تِلْكَ الرَّوابي

وأرى أطيافَ عصرٍ باهرٍ طالعٍ كالشمسِ مِنْ خلفِ الحِجَابِ

لَيْتَهُ يُسْرِعُ كيْ أُبْصِرَهُ قبلَ أن أغدُو تُرَاباً في ترابِ

١٠٩ التينة الحمقاء

وتينةٍ غَضَّةِ الأفْنانِ بَاسِقَةٍ قالتْ لأَتْرَابِهَا، والصَّيْفُ يُحْتَضَرُ

تينة: شجرة تين، باسقة: عالية، أترابها: صاحباتها

بِئْسَ القَضَاءُ الذي في الأرضِ أَوْجَدَني عِندِي الجمالُ، وغيرِي عندَهُ النَّظَرُ

لأَحْبِسَنَّ على نفسِي عوارِفَها فلا يَبِينُ لها في غيرِهَا أَثَرُ

عوارفها: معروفها

كمْ ذا أُكَلِّفُ نفسيَ فوقَ طاقَتِها! وليسَ لِي، بل لِغَيري، الفَيْءُ والثَّمَرُ

إني مُفَصَّلَةٌ ظِلِّي على جَسدي فلا يكونُ بهِ طُولٌ، ولا قِصَرُ

ولستُ مُثْمِرَةً إلّا على ثِقَةٍ أن ليسَ يَطْرُقُني طيرٌ، ولا بَشَرُ

يطرقني: يزورني

عادَ الربيعُ إلى الدُّنيا بِمَوْكِبِهِ، فازَّيَّنَتْ، واكتستْ بالسُّنْدُسِ الشَّجَرُ

السندس: الحرير الأخضر

وظَلَّتِ التينةُ الحمقاءُ عَارِيَةً كأنَّهَا وَتَدٌ في الأرضِ، أو حَجَرُ

ولمْ يُطِقْ صاحبُ البستانِ رؤيَتَها، فَاجْتَثَّها، فَهَوَتْ في النارِ تَسْتَعِرُ

اجتثها: قطعها من أساسها

منْ ليسَ يسخُو بِمَا تَسْخُو الحياةُ بِهِ فإنه أحمقٌ بِالحِرْصِ يَنتحِرُ

الحرص: البخل

١١٠ موت الحسن بموت الشاعر

رثى بها رفيقه الشاعر نسيب عريضه:

لم يَبْرَحِ الروضُ فيهِ الماءُ والزَّهَرُ ولم يَزَلْ في السماءِ الشَّمسُ والقمرُ

لم يبرح: ما زال

لكنها الآن في أذهانِنَا صورُ شَوْهاءُ، لا القلبُ يهواها ولا النظرُ

لكن الروض والزهر والشمس والقمر الآن مجرد صور شوهاء (مشوهة) في عيوننا

قد انْطوَى حسنُها لمَّا انْطوى الشَّاعِرْ

* * *

لَسَوفَ يَرْجِعُ عِطْراً في الرَّيَاحِينِ أو نَسْمَةً تَتَهَادَى في البساتينِ

أو بَسْمَةً في ثُغُورِ الخُرَّدِ العِينِ فالموتُ ما هَدَّ إلَّا هيكلَ الطينِ

الخرَّد: الحسان، العين: ذوات الأعين الواسعة

لا تَحْزَنُوا، فَنَسِيبٌ غائبٌ حاضِرْ

١١١ أيلول مونتريال

من قصيدة يصف بها المناظر التي مر بها في طريقه إلى مونتريال:

الحسنُ حولَكَ في الوِهَادِ وفي الذُّرَى فانظرْ: ألستَ تَرى الجَمَالَ كما أَرَى؟

الوهاد: الوديان

أيلولُ يمشي في الحقولِ وفي الربى والأرضُ في أيلولَ أحسنُ مَنْظَرا

لا تَحْسَبِ الأنهارَ ماءً راقِصاً هذي أغانيهِ اسْتَحالتْ أَنْهُرَا

أغاني أيلول/ سبتمبر تحولت إلى أنهار

وانظرْ إلى الأشجارِ تخلعُ أَخْضَراً عنْها، وتَلْبَسُ أحمراً أو أصفرا

١١٢ اخضيرار قلب يابس

ألقاها في «الحفلة التكريمية» التي أقيمت على شرفه في لوس انجلوس برعاية الجمعية السورية ـ اللبنانية:

ما لُوسُ أَنْجِلِسٍ سوى أُنْشُودةٍ اَللّهُ غَنَّاهَا، فَجُنَّ لها الوَرَى

وزَّعْتُ نفسي في النُّفُوسِ مَحَبَّةً   لا شَاكياً ألماً، ولا مُتَضَجِّرا
ومشيتُ في الدنيا بقلبٍ يابسٍ   حتى لَقِيتُ أَحِبَّتي، فاخْضَوْضَرا

١١٣ ليت الفراق ويومه لم يخلق

ألقاها في الحفلة التكريمية التي أقامتها له الجالية في مونتريال:

لا تَقْلَقي يومَ النَّوى، أو فاقْلَقي   يا نفسُ! كلُّ تَجَمُّعٍ لِتَفَرُّقِ
اَللهُ قَدَّرَ أنْ تَمَسَّ يدُ الأَسَى   أرواحَنا، كَيْمَا تَرِقَّ وتَرْتَقي
أَوْفَى على الشُّهْبِ الدُّجى، فَتَأَلَّقَتْ   لولا اعتكارُ الليلِ لم تتألَّقِ

أوفى الدجى: أقبَلَ الليل، اعتكار: اسوداد

والفحمُ ليسَ يُضِيءُ إنْ لم يَضطَرِمْ   والنَّدُّ ليسَ يَضُوعُ إنْ لم يُحْرَقِ

يضطرم: يلتهب، الند: من البخور، يضوع: تفوح رائحته

لا أضرِبُ الأمثالَ مَدْحاً للنَّوى   ليتَ الفراقَ ويومَهُ لم يُخْلَقِ
عَنَّفْتُ قلبي حينَ طالَ خفوقُهُ   فأجابَ: بل لُمْني إذا لم أَخْفُقِ
للَّهِ مُونْتِريَالُكُمْ ذاتُ الحُلَى   ومدينةُ الطَّوْدِ الأَشَمِّ الأَبْلَقِ

الحلى: الزينة، الطود: الجبل، الأشم: المرتفع، الأبلق: الأبيض

كمْ وَقفةٍ ليَ عندَ شاطئِ نهرِها   لا أستقي منهُ، وروحيَ تَسْتَقي
مُتَعَلِّماً منهُ التواضعَ والنَّدى   والصفحَ عنْ عَبَثِ الجَهُولِ الأَحْمَقِ
أعطَى الحقولَ حياتَها، ومضَى كأنْ   لم يُعْطِهَا شَيئاً، ولم يَتَصَدَّقِ
ضَيَّعْتُ عندَ الواعِظِينَ سعادَتي   ووجدتُها في وَاعِظٍ لم يَنْطِقِ
للَّهِ مُونْتِرْيَالُكُمْ وجَلالُهَا   هِيَ رُومَةُ الصُّغْرَى، وضَرَّةُ جِلَّقِ
رَقَّتْ عَلَيَّ نُجومُها، وتَواضَعَتْ   حتَّى لَكِدْتُ أُحِسُّهَا في مَفْرِقي
سأَطيرُ عنها في غَدٍ بِحُشَاشَةٍ   مَكْلُومَةٍ، وبِنَاظِرٍ مُغْرَوْرِقِ

حشاشة مكلومة: قلب مجروح، ناظر مغرورق: عين دامعة

وتظلُّ صورتُها تلوحُ لِخَاطري   بَعضُ الرُّؤَى سَلوَى، وإنْ لم تَصْدُقِ

١١٤ فتية دان الزمان لهم

ألقاها في الحفلة التكريمية التي أقامها له صديقه مالك الدوماني في كاليفورنيا:

يا ليْتَما رجعَ الزمانُ الأولُ   زمنُ الشبابِ الضاحكُ المتَهَلِّلُ

عهدٌ تَرَحَّلَتِ البَشاشةُ إذ مَضَى ... وأتَى الأَسى، فأقامَ لا يَتَرَحَّلُ

أقام: مكث

وأنا وصَحْبي لا نُفكِّرُ في غَدٍ ... فكأنَّ ليسَ غَدٌ ولا مُسْتَقْبَلُ
نتوهَّمُ الدنيا، لِفَرْطِ غرورِنَا، ... كَمُلَتْ بِنا، وبِغَيْرِنَا لا تَكْمُلُ
ونَظُنُّ أنَّ الروضَ يَنْشُرُ عِطْرَهُ ... مِنْ أجلِنا، ولَنا يُغني البُلْبُلُ
لا شيءَ يُزْعِجُ في الحياةِ نفوسَنا ... لا طارِئٌ، لا عارِضٌ، لا مُشْكِلُ
فكأنَّنَا في عالمٍ غيرِ الذي ... تتزاحمُ الأَيْدِي بِهِ والأَرْجُلُ
الناسُ في طَلَبِ المعاشِ، وهَمُّنا ... كأسٌ مُشَعْشَعَةٌ، وطَرْفٌ أَكْحَلُ

مشعشعة: ممزوجة

إني تأمَّلْتُ الأنامَ، فراعَني ... كيفَ الحياةُ بِهِمْ تَجِدُّ وتَهْزِلُ
الذِّكْرُ أَثْمَنُ ما اقْتَنَيْتَ وتَقْتَني ... والحبُّ أَنْفَسُ ما بَذَلْتَ وتَبْذُلُ
قيلَ اغتَنَى زيدٌ، فَلَيْتَكَ مِثْلُهُ؛ ... أنا مِثْلُهُ، إنْ لم أقلْ: أنا أَفْضَلُ
الشمسُ لي ولَهُ، ولألاءُ الضُّحَى ... والنيِّرَاتُ؛ ومِثْلُنَا المُتَسَوِّلُ
أما النُّضَارُ فإنَّهُ، يا صاحبي ... عَرَضٌ يَزُولُ، وسِلْعَةٌ تَتَنَقَّلُ

النضار: الذهب، عرض: شيء عارض

١١٥ راحة البال المفقودة

ليتَ الذي خَلَقَ الحياةَ جميلةً ... لم يُسْدِلِ الأستارَ فوقَ جمالِهَا

ليت خالق الحياة لم يجعلها تنتهي وينسدل الستار على جمالها

بلْ ليتَهُ سَلَبَ العقولَ، فلم يَكُنْ ... أحدٌ يُعَلِّلُ نفسَهُ بِمَنالِهَا
للَّهِ كَمْ تُغْري الفَتَى بِوِصَالِها ... وتَضِنُّ، حتى في الكَرَى، بِوِصَالِها
تَدْنِيهِ مِنْ أبوابِهَا بِيَمينِها ... وتَرُدُّهُ عَنْ خِدْرِها بِشِمَالِها
قد كنتُ أَحْسَبُني أَمِنْتُ ضَلالَهَا ... فإذا الذي خَمَّنْتُ كُلُّ ضَلالِها
إنَّ النفوسَ تَغُرُّها آمالُهَا ... وتَظَلُّ عاكِفَةً على آمالِهَا
ذهبَ الصِّبَا وأنا أعالجُ سِرَّها ... مُتَحَيِّراً في كُنْهِهَا، ومَآلِهَا
حتى رأيتُ الشمسَ تُلْقِي نورَها ... في الأرضِ، فوقَ سهولِها وجِبالِهَا

ورأيتُ أحقرَ ما بَنَاهُ عَنْكَبٌ مُتَلَفِّفاً، ومُطَوَّقاً بِحِبَالِهَا
فَعَلِمْتُ أنَّ النَّفْسَ، تَخْطِرُ في الحُلَى والوَشْيِ، مِثْلُ النَّفْسِ في أَسْمَالِهَا

الحلى: الحُليّ، أسمالها: ملابسها الممزقة

لَيْسَتْ حياتُكَ غيرَ ما صَوَّرْتَهَا، أنتَ الحياةُ: بِصَمْتِها ومَقَالِهَا
ولقد نَظَرْتُ إلى الحمائمِ في الرُّبَى فَعَجِبْتُ مِنْ حالِ الأنامِ وحَالِهَا
تشدُو، وصائدُهَا يَمُدُّ لها الرَّدَى، فاعْجَبْ لِمُحْسِنَةٍ إلى مُغْتَالِهَا
فَغَبَطْتُهَا في أمنِهَا وسَلامِهَا ووددْتُ لوْ أُعْطِيتُ راحةَ بالِهَا
وجعلتُ مَذْهَبَهَا لِنَفْسِيَ مَذْهَباً ونَسَجْتُ أخْلاقي على مِنْوَالِهَا
نِسْيَانُكَ الجَانِي المسِيءَ فَضِيلَةٌ وخمُودُ نارٍ، جَدَّ في إشْعَالِهَا
فارْبَأْ بِنَفْسِكَ، والحياةُ قصيرةٌ، أن تجعلَ الأضغانَ مِنْ أَحْمَالِهَا

اربأ بنفسك: ترفّعْ، الأضغان: الأحقاد

زمنَ الشبابِ! رحلتَ غيرَ مُذَمَّمٍ وتركتَ لِلْحَسَراتِ قلبِي الوالِهَا
دَبَّتْ عقارِبُهَا إِلَيْهِ تَنُوشُهُ ورَمَتْ بقايَاهُ إلى أَصْلالِهَا

عقارب الحسرات تنوش (تتخاطف) قلبي، وترمي بقاياه إلى أصلالها (أفاعيها)

يا جَنَّةً عُوجِلْتُ عن أثمارِهَا ولَذاذَةً عُرِّيتُ مِنْ سِرْبَالِهَا

سربالها: لباسها

١١٦ الفناء النووي

إذا سَحَقَتْ أرضَنَا القُنْبُلَةْ كما يَسْحَقُ الحَجَرُ الخَرْدَلَةْ
ودَبَّ الفَنَا في ذَوَاتِ الجَنَاحِ وغَلْغَلَ في النَّبْتِ، فَاسْتَأْصَلَهْ

غلغل: تغلغل

وفي الماشياتِ، وفي الزاحفاتِ عليْها، إلى آخرِ السِّلْسِلَةْ
وضاعَ الزَّمانُ ومِقْيَاسُهُ وأَشْبَهَ آخِرُهُ أوَّلَهْ
ولم يبقَ حَيٌّ على سَطْحِهَا وأصبحَ عِزْرِيلُ لا شُغْلَ لَهْ
فذلكَ خَطْبٌ يَهُولُ النُّفُوسَ تَصَوُّرُهُ، قبلَ أنْ تَحْمِلَهْ
ولكنَّ أَمْراً يُعَزِّي الجَمِيعَ إذا سَحَقَتْ أرضَنَا القُنْبُلَةْ

فَلَنْ يَدَعَ المَوتُ حَيّاً يَلُومُ ... سِوَاهُ، على هَذِهِ المَقْتَلَةْ

١١٧ المغامرون المبادرون

ألقاها في المأدبة التي أقامها المجلس المِلّي في مونتريال، كندا، لمناسبة مرور ٤٠ سنة على تأسيسه:

الأَربَعونَ لَوَ انَّها تَتَكَلَّمُ ... لَرَوَتْ لنَا قصصَ العَظَائِمِ عَنْكُمُ
ولَحَدَّثَتْنا كيفَ عَنْ أَعْشَاشِكُمْ ... طِرْتُمْ، بِأَجنحةِ المنَى، إذْ طِرْتُمُ
يومَ الفِراقِ كَظَمْتُمُ آلامَكُمْ ... وأَخَفُّ مِنْ ألمِ الفِرَاقِ جَهَنَّمُ
وبَكَى الأَحِبَّةُ حَوْلَكُمْ، وجُفونُكُمْ ... تَعْصي البُكَا؛ حُزْنُ الجَبَابِرِ أَبْكَمُ
وغَزَوْتُمُ الآفاقَ، لا زَادٌ لَكُمْ ... إلَّا الصِّبَا المتَوَثِّبُ المتَضَرِّمُ

المتضرم: المتوقد

تَتَخيَّلُونَ البحرَ شُقَّ لِتَعْبُرُوا ... وانْدَاحَ بينَ الشَّاطِئَيْنِ لِتَسْلَموا

انداح: انبسط

والدُّرَّ مَخْبُوءاً لَكُمْ في قاعِهِ ... كَيْ تُخْرِجُوهُ، وتَغْنَمُوا مَا شِئْتُمُ
والموجَ إذْ يَطْغَى، ويَهْدُرُ حَوْلَكُمْ ... جَوْقَاً لِطَرْدِ هُمُومِكُمْ يَتَرَنَّمُ
وإذا النجومُ تألقتْ تحتَ الدُّجَى ... خِلْتُمْ لأَجْلِكُمُ تُضِيءُ الأَنْجُمُ
وحَسِبْتُمُ شُمَّ الجبالِ سَلالِماً ... نُصِبَتْ لَكُمْ كَيْ تَصْعَدُوا، فَصَعِدْتُمُ
ولَكَمْ تَلَثَّمَتِ الحَقَائِقُ بالرُّؤَى ... كالأرضِ يَغْشَاها السَّرابُ المُوهِمُ

كثيراً ما نغلِّف الحقائق الصعبة بأحلامنا فلا نراها صعبة، فهذه الحقائق كأرض مجدبة ولكننا نتخيل فوقها سراباً وهمياً

لِتُطِلَّ مِنْ أرواحِنا أشواقُها ... فَنَطُوفَ حَوْلَ خُدُورِهَا ونُحَوِّمُ

خدورها: بيوتها

لم تَقْنَعُوا كالخَامِلِينَ بِأَنَّكُمْ ... لَكُمُ شرابٌ، في الحياةِ، ومَطْعَمُ

مطعم: طعام

أو أنْ يَكونَ تُراثُكُمْ كَتُرَاثِهِمْ ... قَصْرٌ عَفَا، أو هَيْكَلٌ مُتَرَدِّمُ

عفا: انهدم

وحَدِيثُ أسْلافٍ قدِ الْتَحَفُوا الفَنَا   فَهُمْ سَوَاءٌ، في القِياسِ، وجُرْهُمُ
مَنْ يَقْتَرِبْ مِنْ أمسِ يَبْعُدْ عَنْ غَدٍ   ويَعِشْ مَعَ الموتَى، ويُصْبِحْ مِنْهُمُ
المجدُ مَطْلَبُكُمْ، وأنتمْ سُهَّدٌ   والمجدُ حُلْمُكُمُ، وأنتُمْ نُوَّمُ

سهَّد: ساهرون

لا شيءَ صَعْبٌ عِندكُمْ، حتى الرَّدَى،   الصَّعْبُ عندَ نفوسِكُمْ أنْ تُحْجِمُوا
يا بِضْعَةً مِنْ أُمَّةٍ، هِيَ أُمَّةٌ   في ذاتِها، ولَها طِرَازٌ مُعْلَمُ

طراز مُعْلم: نمط مميز

فِيكُمْ جميعُ صِفَاتِهَا وخِلالِهَا   والروضُ يَحْويهِ، عُطُوراً، قُمْقُمُ
حَدَّثْتُ نفسي، والقطارُ يَخُبُّ بِي   عَجْلانَ يَخْتَرِقُ الدُّجى ويُدَمْدِمُ

يخب: يركض، يدمدم: يقول دم دم دم

فسألتُها مُستفهِماً، ولربَّما   سألَ العليمُ سِواهُ عما يَعْلَمُ
ما أحسنُ الأيَّامِ؟ قالتْ: يومُكُمْ   والناسِ؟ فابْتَدَرَتْ وقالتْ: أَنْتُمُ
والدُّوَرِ؟ قالتْ: دُوَرُكُمْ، والمالِ؟ قا   لَتْ: إنَّ أحسَنَهُ الذي أَنْفَقْتُمُ
ما كانَ أكملَ يومَكُمْ وأَتَمَّهُ   لو لم يكنْ في مَهْدِ عِيسى مَأْتَمُ

مهد عيسى: فلسطين

وكذَا الحياةُ: قديمُها وحديثُها،   ذِكْرَى نُسَرُّ بِهَا، وذِكْرَى تُؤْلِمُ

١١٨ جهنم الحقيقية

بالأمسِ بادَرَني صَديـ   ـقٌ حائرٌ يَسْتَفْهِمُ
: أَجَهَنَّمٌ نارٌ، كَما   زعمَ الهُدَاةُ، وعَلَّمُوا؟
أم زَمْهَرِيرٌ قارِسٌ   قاسٍ، وكَوْنٌ مُظْلِمُ؟
فأَجَبْتُهُ: ما الزَّمْهَريـ   ـرُ، ومَا اللَّظَى المُتَضَرِّمُ..

المتضرم: المتوقد

بِجَهَنَّمٍ، لكِنَّما: أنْ لا تُحِبَّ جَهَنَّمُ

١١٩ ثابر على تهديمها

ألقاها في حفل تكريم كمال جنبلاط، الزعيم اللبناني:

تلكَ المنازلُ، كيف حالُ مُقيمِها ... إنَّا قَنِعْنَا بعدَها بِرُسومِها
نَشْتاقُها، في بؤسِنَا ونعيمِنَا ... ونحبُّها، في بؤسِهَا ونعيمِها
يا حامِلاً، في نفسِهِ وحديثِهِ، ... أحلامَ أرْزَتِها، ولُطْفَ نسيمِها
حدِّثْ بَنِيها: شَيْخَهُمْ وفَتَاهُمُ ... عنْ ليثِ غابَتِها، وظَبْيِ صَرِيمِها

الصريم: الأرض الرملية المنعزلة

حَدِّثْهُمُ عنْ ليلِها ونجومِها ... وعنِ الهَوى في ليلِها ونجومِها
وعنِ الشُّطوطِ الحالماتِ بِعودةٍ ... للغائِبينَ، ورَجْعةٍ لِنعيمِها
وعنِ الروابِي الشاخِصَاتِ إلى السَّما ... العالقاتِ رؤوسُها بِغُيومِها
فكأنَّها سُحُبٌ هَوَتْ مِنْ حَالِقٍ ... ورَسَتْ على وجْهِ الثَّرَى بِهُمُومِها

حالق: جبل عالٍ

وعن الأُلى مَلَكُوا، فلم يَتَوَرَّعُوا ... عنْ سَلْبِ أَعْزَلِها، وظُلمِ يَتيمِها
الجاهليةُ، آهِ مِنْ أصنامِها ... بُورِكْتَ، يا مَنْ جَدَّ في تحطيمِها
والطائفيةُ، أنتَ أوَّلُ مِعْوَلٍ ... في سورِها. ثَابِرْ على تَهْديمِها

١٢٠ خمر المعاني

في حفلة ميلاد ديوانه الخمائل:

ما هُوَ الشِّعْرُ، إنَّنِي ما رأيتُ اثْـ ... ـنينِ إلَّا وفيهِ يَخْتَصِمانِ
قالَ قومٌ: وَحْيٌ يُنَزِّلُهُ اللَّـ ... ـهُ، وقومٌ: نَفْثٌ مِنَ الشَّيْطَانِ
نحنُ، أهلَ الخيالِ، أسعدُ خَلْقِ اللَّـ ... ـهِ حتى في حالةِ الحِرْمَانِ
كَمْ زَهِدْنا بِثَرْوةٍ مِنْ نُضَارٍ ... وقَنِعْنا بِثَروةٍ مِنْ أَماني

نضار: ذهب

إنْ ظَمِئْنا، وعَزَّ أنْ نَرِدَ المـا ... ءَ، رَوَانا تَصَوُّرُ الغُدْرانِ
وإذا غابتِ النجومُ اهتدينا ... بالرُّؤَى، بالرجاءِ، بالإيمانِ

لا يَعُدَّ الوَرَى علينا اللَّيالي ... نحنُ قومٌ نعيشُ في الأزْمَانِ

لا يعدَّ: ينهاهم عن أن يعدُّوا

رُدَّ عَنِّي الكؤوسَ، يا أيها السَّا ... قي، فَرُوحي نَشْوَى بِخَمْرِ المعَاني

أيها الليلُ! أنتَ أبهى مِنَ الفَجْـ ... ـرِ، وإنْ كنتَ أسودَ الطَيْلَسانِ

الطيلسان: الثوب. قال المعري: رب ليل كأنه الصبح في الحسن وإن كان أسود الطيلسان

١٢١ نظرتَ إلى العُوَّاد تسألهم عني

أبي! خانَني فيكَ الرَّدى فتَقَوَّضَتْ ... مَقَاصِيرُ أحلامي كَبَيْتٍ مِنَ التِّبْنِ

تقوضت: تهدمت، مقاصير: غرف

وما صُوَرُ الأشياءِ بَعْدَكَ غيرَها، ... ولكنَّما، قد شوَّهَتْهَا يدُ الحُزْنِ

فَوَاهاً لَوَ انِّي كنتُ في القومِ عندما ... نظرتَ إلى العُوَّادِ، تَسْأَلُهُمْ عني

العواد: زوار المريض

وكنتَ إذا حَدَّثْتَ، حَدَّثَ شاعِرٌ ... لَبيبٌ، دقيقُ الفَهْمِ والذوقِ والفَنِّ

يعني أنك أنت شاعر ودقيق الفهم الخ.

فما استَشْعَرَ المصْغِي إليكَ مَلامَةً، ... ولا قلتَ، إلَّا قالَ مِنْ طَرَبٍ: زِدْني

نظنُّ لنا الدنيا ومَا في رِحَابِها، ... وليستْ لنا، إلَّا كما البحرُ للسُّفْنِ

تروحُ وتَغدو حُرَّةً في عُبَابِهِ ... كما يَتَهادَى ساكِنُ السِّجْنِ في السِّجْنِ

وَزَنْتُ بِسِرِّ الموتِ فلسفةَ الوَرَى ... فشَالَتْ، وكانتْ جَعْجَعَاتٍ بِلا طِحْنِ

شالت: ارتفعت كفتها، أي أن فلسفة الناس أخف من سر الموت، الجعجعة بلا طحن مثَلٌ، معناه صوت الجرش ولكن بلا طِحن (طحين)

فَأَصْدَقُ أهلِ الأرضِ مَعْرِفةً بِهِ ... كأكثَرِهِمْ جهلاً، يُرَجِّمُ بالظَنِّ

يرجم: يتشكك

١٢٢ وطن النجوم

وطنَ النجومِ! أنا هنا ... حَدِّقْ.. أَتَذْكُرُ مَنْ أنا؟

أَلَمحْتَ في الماضي البعيـ ... ـدِ فَتىً غَرِيراً أَرْعَنا؟

غرير: صغير بلا تجربة

جَــذْلانَ يَــمْــرَحُ فــي حُــقــو   لِــكَ كــالــنَّــسِــيــمِ مُــدَنْــدِنَــا

جذلان: فرحان

الـمـقْـتَـنَـى الـمـمْـلـوكُ مَـلْـ   ـعَـبُـهُ، وغَـيْـرُ الـمـقْـتَـنَـى

يعني يلعب في بيتهم وفي بيوت وحدائق الجيران، ولا فرق عنده

يَــتَــسَــلَّــقُ الأشْــجــارَ، لا   ضَــجَــراً يُــحِــسُّ، ولا وَنَــى

ونى: تعب

ويــعــودُ بِــالأغْــصــانِ يَــبْــ   ــرِيــهــا سُــيُــوفــاً، أو قَــنَــا

قنا: رماح

ويَــخُــوضُ فــي وَحْــلِ الــشِّــتَــا   ءِ مُــهَــلِّــلاً مُــتَــيَــمِّــنَــا

متيمِّناً: مستبشراً

لا يَــتَّــقِــي شَــرَّ الــعــيــو   نِ، ولا يــخــافُ الألْــسُــنَــا

ولَــكَــمْ تَــشَــيْــطَــنَ، كــيْ يَــقُــو   لَ الــنــاسُ عــنــه: تَــشَــيْــطَــنَــا

أنــا ذلــكَ الــولــدُ الــذي   دنــيــاهُ كــانــتْ هَــهُــنَــا

عــاشَ الــجــمــالُ مُــشَــرَّداً   فــي الأرضِ يَــنْــشُــدُ مَــسْــكَــنَــا

ينشد: يبحث عن

حــتــى انــكــشــفــتَ لــهُ، فَــأَلْــ   ـقَــى رَحْــلَــهُ، وتَــوَطَّــنَــا

واســتــعــرضَ الــفَــنُّ الــجَــمَــا   لَ، فَــكُــنْــتَ أنــتَ الأَحْــسَــنَــا

لِــلَّــهِ سِــرٌّ فــيــكَ، يــا   لــبــنــانُ، لــم يُــعْــلَــنْ لــنــا

زَعَــمُــوا سَــلَــوْتُــكَ، لَــيْــتَــهُــمْ   نَــسَــبُــوا إلــيَّ الــمُــمْــكِــنَــا

سلوتك: نسيتك

فــالــمــرءُ قــد يَــنْــسَــى الــمُــسِــيــ   ءَ الــمــفْــتــرِي، والــمُــحْــسِــنَــا

والــخــمــرَ، والــحــســنــاءَ، والــ   ـوَتَــرَ الــمــرَنَّــحَ، والــغِــنَــا

المرنح: المهتزّ

ومــرارةَ الــفَــقْــرِ الــمُــذِلِّ   بَــلَــى، ولَــذَّاتِ الــغِــنَــى

لــكــنَّــهُ مَــهْــمَــا سَــلا   هــيــهــاتَ يَــسْــلُــو الــمَــوْطِــنَــا

١٢٣ كيف خُلقتْ للناس عيون

إلى روح خليل مطران:

عــــنـــدمـــا أبْـــدَعَ هـــذا الـــ ـكـــونَ ربُّ الـــعـــالـــمـــيـــنـــا
ورأى كـــلَّ الـــذي فـــيـــ ـهِ جَـــمـــيـــلاً وثَـــمـــيـــنـــا
خَـلَـقَ الـشـاعـرَ كـيْ يَـخـ ـلُـقَ لـلـنـاسِ عُـيُـونـا
مَــنْ سِــواهُ ثــائــرٌ، فــيــ ـهِ وَقَــارُ الــنَّــاسِــكِــيــنــا
مَــنْ سِــواهُ عــابــدٌ، فــيــ ـهِ جُــنــونُ الــثــائــريــنــا
مَــنْ سِــواهُ عــانَــقَ الــلَّــهَ ـ يَــقِــيــنــاً، لا ظُــنــونــا

١٢٤ منتظراً الموت

ما لِلْقُبورِ كأنَّما لا ساكِنٌ فيها، وقد حَوَتِ العصورَ الماضِيَةْ
طَوَتِ الملايينَ الكثيرةَ قبلَنا، ولسوفَ تَطْوِينا وتَبْقَى خَالِيَةْ
أينَ المهَا وعيونُها وفُتُونُها؟ أينَ الجبابِرُ والملوكُ العَاتِيَةْ؟
زالوا مِنَ الدنيا كأنْ لم يُولَدُوا، سَحَقَتْهُمُ كفُّ القضاءِ القاسِيَةْ
إن الحياةَ قصيدةٌ: أعمارُنا أبياتُها، والموتُ فيها القافيةْ
متِّعْ لِحَاظَكَ في النجومِ وحسنِها فَلَسَوْفَ تَمضي، والكواكبُ باقِيَةْ

إيليا أبو ماضي
فهرس القوافي

إلياس فرحات

(١٨٩٣ ـ ١٩٧٦)

إلياس فرحات شعلة فصاحة وشموخ وحماسة للعروبة.. وهو شعلة جرأة. وبسبب هذه الجرأة كان أصحاب المقالات يمرون به بهدوء مرورهم بجانب سور المقبرة؛ يذكرون الاسم ثم يُغِذُّون السير للحديث عن مهجري آخر. كان جريئاً مع الدين وعلى الدين، وكان جريئاً في معاداته للمتفرنسين في لبنان. وقد صنع خيراً إذ طبع دواوينه بالبرازيل في سنتي ١٩٣٢، و١٩٥٤. ومن هذه الدواوين الأربعة: الربيع، والصيف، والخريف، ورباعيات فرحات، استقينا مختاراتنا. فلو لم يطبع مختاراته لكاد يتلاشى اسمه فيمن تلاشت أسماؤهم من عشرات الشعراء في المهجر. ونقول «كاد يتلاشى» ولا نجزم لأن لشاعرنا قصيدة لم يستطع أحد أن يتجاهلها. تلك هي «حياة مشقات»، أو «حديث النفس» كما تسمّي كتب المدارس تلك القطعة منها، التي تبدأ بعبارة «أقول لنفسي».

لا، ليس فرحات من أصحاب الواحدة، أولئك الذين صنعت لهم ذكرَهم قصيدة واحدة. فله واحدات كثيرات. على أن «حياة مشقات» قصيدة مكتوبة بالعرق والجوع. وستراها فيما سيأتيك مما اخترناه. لكنك سترى أيضاً صرخاته الجريئة وغزلياته الرائقة.

نشأ فرحات في تربة الزجل اللبناني كإيليا أبو ماضي، بل أكثر من إيليا بكثير. كان إلياس فرحات زجالاً مكتمل الأداة وهو بعدُ فتى مراهق. وكان يحضر الحفلات، ويقارع الزجالين الكبار. على أن القرية التي نشأ فيها كانت «عاصمة» مهمة من عواصم الفصحى، فمن كفر شيما انطلق اليازجي وأبناؤه، وشبلي الشميل، والأَخَوان تقلا صاحبا جريدة الأهرام، ليصنعوا للفصحى

نهضة. وأنعم الله على شاعرنا أن ألجأه إلى ترك المدرسة وهو في العاشرة من عمره بعد أن تعلم القراءة في مدرسة الدير.. فعرف كيف يبدع.

اشتغل صبيَّ نجارٍ في زحلة القريبة، واشتغل في تقشيش الكراسي، ثم في تنضيد الحروف بمطبعة جريدة الوطن لشبلي ملاط، وجريدة الحقيقة للشيخ أحمد الأزهري في بيروت.. وكانت بيروت آنذاك على بعد بضعة كيلومترات من كفر شيما، وقد التصقت بها الآن. والتقى إلياس بأهل الأدب واللغة وسمعهم. وأتى دمشق للعمل وهو في السادسة عشرة من عمره، ولعله مشى إليها.. فقد تورمت رجلاه ومكث في السرير أشهراً، ثم عاد إلى قريته كفر شيما.

وعزم على الهجرة إلى البرازيل لينضم إلى نحو ستين ألف شامي سبقوه إلى هناك، وكان في السابعة عشرة. وقبل الرحيل أخذ خصلة من شعر محبوبته حتى يكون عهد بالوفاء. ظن أنه يمكث في البرازيل بضع سنين يلمُّ فيها المال من على الأرصفة في كيس ويعود ليتزوج الحبيبة. لكنه سرعان ما لاقى خيبتين: جاءه أن محبوبته تزوجت، ووجد أرصفة البرازيل كأرصفة لبنان. فكان لا بد من الكشة. و«الكشة» مصطلح مهم لمن شاء أن يتعرف على حياة أولئك المهجريين. هي حقيبة أو شبه حقيبة، أو صندوق أو شبه صندوق مع سيور تجعله يمتطي عاتق البائع. ويطوف به البائع في حواري القرى وفيه المناديل الملونة، وربطات العنق، وما إلى ذلك من الطرائف يبيعها فقير إلى فقراء.

قضى فرحات أكثر من عشر سنين يطوف ببضاعته. والتقى في البرازيل الأدباء والشعراء، تنقَّل من مدينة إلى مدينة وتحسنت أحواله، ورافق شقيقين له في العمل بالمحلات التجارية، غير أنه لم يكن رجل تجارة. ظل يكتب الشعر، ولكنَّ بعده عن موطن الزجل أمات الزجل على لسانه، وحلت الفصحى.

ماذا ننتظر من شاب لم يتجاوز السنة الرابعة الابتدائية في مدرسة الدير؟ فصحى مهشمة طبعاً. فأما الوزن فأطاعه سريعاً، فهو زجال، وأما النحو فظل عصياً عليه بضع سنين. كان رفيق مهجره الشاعر القروي يقول له: أنت تكتب الشعر ولا تقرأه، فكل كلامك لحن في لحن.

وتزوج فتاة لبنانية وأنجبا: ليلى وخالد وعصام وسعاد. وذكرنا أسماء أبناء فرحات لكي تقارنها بأسماء أبناء إيليا أبو ماضي: ريتشارد، وإدوارد، وروبرت. ههنا يكمن فارق مهم بين المهجر في أميركا الشمالية، والمهجر في أميركا

الجنوبية. كان جو المهجريين في أميركا الجنوبية أعرب وأقرب إلى التمسك بقديم اللغة وفصيحها وبالعروبة. وكان لشاعرنا اتصال بالمراسلة بالحركة العربية التي قادها الشريف حسين وأبناؤه من مكة. وكان له في زميله الشاعر القروي سند مهم في تعضيد الفكرة العربية، وكلاهما رفض فكرة القومية السورية، ونأى عن زعيمها أنطون سعادة. ولم يكن القروي وفرحات كالسمن على العسل تماماً في العلاقة الشخصية، ربما لاشتراكهما في شيء آخر: النزق وحدة الطبع.

عاد إلياس فرحات إلى لبنان في زيارة، ولكنه توفي في البرازيل وعمره ثلاث وثمانون.

أيكون شعر فرحات انتفع بأن صاحبه لم يكن ذلق اللسان بالفصحى ذلاقته بالعامية اللبنانية؟ أيكون هذا وفر له بعض الحماية من «المنبرية» التي اتهم بها صديقه القروي صاحب اللفظ السليم واللغة القويمة والصوت الجَهْوري الجميل؟ ربما. على أن في شعر فرحات غضباً كثيراً، وحماسة وطنية. ولأن فرحات لم يقرأ كثيراً ولم يدرس اللغة درساً منظماً فقد بقيت في شعره بساطة جميلة، ثم إن شعره سلم من اللحن، وخصوصاً عندما قرر دفن أول مجموعة شعرية له، بعد أن كاد يدفع بها إلى المطبعة.

كانت فصحاه بسيطة وسلسة، وخالية من التعمل. لقد نبتت في أرض بريئة من ألاعيب البديعيين والنحاة.

١ كيف تعلمتُ الشعر

يقولونَ: عَمَّنْ أخذتَ القَريضَ؟ ... ومِمَّنْ تعلَّمتَ نظمَ الدُّرَرْ؟

القريض: الشعر

وأينَ درستَ العَروضَ، وكيفَ ... تَلقَّنتَ هذا البيانَ الأغَرّ؟

وما كنتَ يوماً بِطالبِ عِلْمٍ ... فإنَّا عرَفناكَ منذُ الصِّغَرْ

فقلتُ: أخذتُ القريضَ صَبيّاً ... عنِ الطَّيْرِ، وَهْيَ تُغنِّي السَّحَرْ

وعَنْ ضَحِكاتِ مياهِ الجداوِ ... لِ فوقَ الجلاميدِ تحتَ الشَّجَرْ

الجلاميد: الصخور

وعنْ زَفَراتِ المحبِّ الأديبِ ... يزاحِمُهُ الموسِرُ المحتَقَرْ

وعنْ نَظَراتِ الحِسانِ اللواتي ... يَكَدْنَ يُغَلغِلْنَها في الحَجَرْ

لئِنْ كنتُ لم أدخُلِ المَدرساتِ صغيراً، ولا بعدَها في الكِبَرْ
فذا الكونُ جامعةُ الجامعاتِ وذا الدهرُ أستاذُها المعتَبَرْ

فذا الكون: فهذا الكون

فمَنْ يَحْيَ يَوماً ولا يَستَفِيدُ أعمى البصيرةِ أعمَى البَصَرْ

لعله فاته أن يجعلها: «فمن يحيَ يوماً ولا يستفدْ.. فأعمى البصيرة أعمى البصر». وفي القصيدة نفسها بعض التفسير.. فلم يكن فرحات خريج مدارس، ولم يكن كصاحبه رشيد سليم الخوري (الشاعر القروي) معلماً في المدارس قبل اغترابه

٢ الطفولة

تُرْجِعُني الذِّكرى إلى (الكَسَّارَةْ) إلى مَقَرِّ الحبِّ والطهارَةْ
إلى اجتماعي بِبَناتِ الحارَةْ نَلعَبُ طَوْراً بِالحَصى، وتارَةْ..
يُشْغِلْنَني مَعْهُنَّ بِالصِّنَّارَةْ

* * *

نُقيمُ فيما بيننا الأفراحا فنأكلُ الرُّمَّانَ والتفاحَا
ونملأُ الأكوابَ والأقداحا ماءً طَهوراً سائِغاً قَرَاحَا
نَصْبِغُهُ حتى يُحَاكي الرَّاحَا

يحاكي الراح: يشبه الخمر. وفي قريته كفر شيما المسيحية كان فرحات الصبي ربما رأى الكبار يشربون النبيذ الأحمر

* * *

وطالما جَعَلْنني عَرِيسا واخْتَرْنَ إحداهُنَّ لي عرُوسَا
ثمَّ يُزَيِّنَّ لها الملبوسَا بالريشِ حتى يُشبِهَ الطَّاووسَا
وتُطرِبَ العيونَ والنفوسَا

* * *

يصنعنَ لي شَوارِباً مِنْ صوفِ يَجْزُزْنَها مِنْ أَلْيَةِ الخَرُوفِ
ويَبْتَدِئْنَ بِالغِنَا اللطيفِ والرقصِ والنَّقرِ على الدُّفوفِ
وكلُّها مِنْ تَنَكٍ معروفِ

* * *

أما إذا اجتمعتُ بالصِّبيانِ فشأنُنا إذ ذاكَ شأنٌ ثانِ
نُقَلِّدُ الفُرسانَ في الميدانِ لكنْ على خيلٍ مِنَ القُضْبانِ
مُلْجَمَةٍ بِالقِشْرِ والخِيطانِ

أي لها لجام من ألياف الشجر ومن الخيطان

٣ لولاك ما دار الفلك

حبيبي تعالَ تَجِدْ منزلَكْ مُعَدًّا كما كانَ مِنْ قبلُ لَكْ
تعالَ! فما احتلَّ قلبي سِواكَ وغَيرُكَ في خاطِري ما سَلَكْ
فَلَوْلاكَ لم تَبْدُ هذي النجومُ ولولاكَ ما دارَ هذا الفَلَكْ

٤ استرحام

قِفْ عندَ حَدِّكَ يا زماني ودَعِ الهجومَ، فقدْ كَفاني
جاوزتَ وَيْحَكَ كلَّ حَدٍّ واعتَدَيْتَ على كِيَاني
يا دهرُ ويحكَ، هُدنةً! تبقَى ولو بعضَ الثَّواني

يطلب من الزمن هدنة

كيْ أستعيدَ بِهَا قُوا يَ وأَسْتَعِدَّ لِما أُعاني
أنا أَعْزَلٌ، والفتكُ بي يا دهرُ مِنْ شِيَمِ الجَبَانِ

٥ الشاعر التعس

سعادةَ نفسي! متى نَلْتَقي لَعَلَّكِ، لِلآنَ، لم تُخْلَقي
وتَحْسُدُني أنني شاعرٌ جُموعٌ ترى الخيرَ في المنطِقِ

المنطق: الكلام، ومن ضمنه الشعر

وتزعُمُ أنِّي سعيدٌ بِشِعري ولكنَّ ذا الزعمَ لم يَصْدُقِ

ذا الزعم: هذا الزعم

فهلْ مَنْ يعيشُ بِقَوْلِ «أَجَدْتَ» و«يا لَكَ مِنْ شاعرٍ مُفْلِقِ»؟

أهناك من يقتات بقول الناس له «أحسنت»؟

وما هَمَّني إنْ يَخُنِّي الزَّمانُ وإنْ يُرْعِدِ الدَّهرُ، أو يُبْرِقِ

خُلِقْتُ شَقِيّاً، وعِشْتُ شَقِيّاً وأَحسبُ أني أموتُ شَقي

٦ أضعتُ الكلام

لَكَمْ قلتُ إنّي إذا ما التقينَا سأُطفي، بِبَثِّ هُيَامي، الأُوَامَا

الأوام: العطش

وأُظْهِرُ ما بي، لِتَعلمَ أني غَدَوْتُ لأَهلِ الغرامِ إمَاما
ولمَّا التقينا، وقالتْ: سَلامٌ، أَضَعْتُ النُّهى، وفَقَدْتُ الكَلاما

النهى: العقل

٧ ما للفقير صديق

سأَلَتْ، ولهفتُها تَعوقُ لسانَها، والعهدُ في ذاكَ اللسانِ طَليقُ
قالتْ: أَمَا لَكَ مِنْ شَقِيقٍ في الورى؟ فأجَبْتُها: أصلُ البَلاءِ شَقِيقُ
قالتْ: أمَا لَكَ مِنْ صديقٍ مخلصٍ؟ فأجبْتُها: مَا لِلفقيرِ صديقُ

٨ رغم اختلاف اللغة

أحِنُّ إلى الغابِ، حيثُ الشُّرورُ هنالِكَ نيرانُها خَامِدَةْ
أحنُّ إلى حيثُ لا يجلسُ الغَدْ رُ قُربَ الوفاءِ إلى مائِدَةْ
فهلْ مِنْ فتاةٍ كَعَابٍ، تَكونُ رِيَاحُ مَطامِعِهَا رَاكِدَةْ

الكعاب: الفتاة برز صدرها

تَحِنُّ حنيني، وتُلقي على الكوْ نِ نَظرةَ عاقِلَةٍ راشِدَةْ
فأمنَحُها مُهجَتي، ونَعيشُ بَعيدَيْنِ عَنْ عُصْبةٍ جاحِدَةْ
ويفرحُ قلبي الحزينُ بِهَا كما يفرحُ الطفلُ بِالوالِدَةْ
ولستُ أُبالي، ولو كَلَّمَتْني بإِحدى لغاتِ الورى البَائِدَةْ
إذا ما لغاتُ الشِّفَاهِ اختلفْنَ فَمَا لِلْقلوبِ سوى واحِدَةْ
خُفُوقٌ يَخِرُّ لديْهِ البيانُ وتَعْنُو المَعاني لَهُ ساجِدَةْ

تعنو: تخضع

٩ الخوف اللذيذ

لستُ بِناسٍ لذيذَ قُبْلَتِها ... وما غَشَا القلبَ مِنْ حُمَيَّاها

حميَّاها: شدتها

ودَعْوَةً لِلْوصالِ مُغْرِيةً ... تَقْبَلُها تارةً وتَأْبَاها

غرامُها بِالرِّضَاءِ يأمُرُها ... وخوفُها مِنْهُ عنْهُ يَنْهاهَا

خوفها من الغرام ينهاها عن الرضا

ولَذَّةُ الحبِّ لا يُوَلِّدُها ... في النفسِ شيءٌ كَخَوفِ عُقْبَاها

عقباها: نتيجتها

١٠ حسرة

أرى في الحَشَا نارَ الفُتُوَّةِ تَنْطَفي ... فَأَشْعُرُ أنِّي ضَائعٌ كَدُخَانِهَا

الحشا: جوف الإنسان، يقصد القلب

تَوَلَّى الصِّبَا إلَّا قليلاً، وَلَيْتَني ... تَمَتَّعْتُ مِنْ أثمارِهِ في أوانِهَا

١١ عمامة فيصل

قال إلياس فرحات إثر عودة الأمير فيصل من فرساي بعد أن فاوض بشأن سورية، ١٩١٩:

اَلعرشُ عرشُكَ يا فتى عدنانِ ... أَبطأْتَ أم أسرعتَ في الإعلانِ

وإذا العروشُ على القلوبِ تأسَّسَتْ ... أَمِنَتْ بِهِنَّ طَوارِقَ الحَدَثانِ

طوارق الحدثان: مصائب الزمن

أَعْجَزْتَ في باريسَ كلَّ محنَّكٍ ... جَمِّ البلاغةِ، ساحِرِ التِّبْيَانِ

وطَلَعْتَ بينَ ملوكِهِمْ بِعِمَامَةٍ ... جمعتْ جميعَ مفاخِرِ الأزمانِ

بَصَرَتْ بِها تيجانُهُمْ فأصابَها ... حسدٌ أذابَ لآلِئَ التيجانِ

أَفَهمْتَهُمْ أنَّ الشَّآمَ لأهلِها ... أهلِ العُلى والمجدِ مِنْ غسَّانِ

كان الغساسنة ملوكاً في الشام قبل الإسلام. تعليق عمران القفيني: (يا فرحات، قد جرتك القافية جراً للغساسنة. كان من فخرت بهم «من غسان» تبعاً للروم يخوضون بأمرهم حروباً بالوكالة مع العرب الآخرين)

لو كان عِنْدَ الضَأْنِ بأسُ ضَرَاغِمٍ ما اسْتَمْرَأَ الإنسانُ لحمَ الضَّانِ

التسويد: عمران القفيني

إنِّي، وإنْ كنتُ القَصِيَّ، فإنَّ لي عَيْناً تَرى ما لا يَراهُ الدَّاني

مولايَ إنَّ لِشَعبِنا بِسُمُوِّكُمْ أملاً يكادُ يكونُ كالإيمانِ

طَبِّبْ بِحِكْمتِكَ الشَّآمَ، فإنَّها كادتْ تموتُ بِعِلَّةِ الأديانِ

سبب التسويد ما تشهده بلاد الشام من طائفية هي بعض أسباب الحرب الأهلية، ونكتب في ربيع عام ٢٠١٧. ولئن كان الشاعر يخاطب فيصلاً الأول، وكان ملكاً عربياً متسامحاً رأيناه، بعد أن ترك الشام وحكم العراق نحو اثنتي عشرة سنة، يعامل الناس بخلق رفيع، ونقرأ ما كتبه عنه الشاعر الجواهري الذي عمل في مكتبه بضع سنين، فنجد أن فيصلاً كان متواضعاً شريفاً، ونجده يمسح بمرهم الكرم والأصالة على الفرقة الطائفية.. لكن الزمن كان أقوى منه. وستجد في كتابنا هذا وفي الكتاب الذي سبقه ضمن سلسلة «الزبدة» شعراً كثيراً في مدح فيصل، وشعراً أكثر في رثائه. وفي هذا البيت المسود يقول الشاعر لفيصل، الذي مَلَك في الشام قليلاً قبل العراق، «طبب بحكمتك الشآم». ومضت بعد هذا البيت ٩٧ سنة، فهل وقع العرب في الشام والعراق على حكيم يطببهم من مرض الطائفية؟ معنا ثلاث سنوات فنحن نحب «القرون» بالمعنيين

١٢ العُقبى لك

يا ليلُ خُذْ بِيَدِ العُزُو بةِ، واهدِهَا خيرَ السَّبيلْ

لم يبقَ لي فيها وفيـ ـكَ مِنَ الرَّجاءِ سوى القَليلْ

* * *

إنِّي صحبتُكُما زما ناً كنتُمَا فيهِ مَعي

صحب الليل والعزوبة زمناً

ذِئْبينِ: ينهشُ واحدٌ قلبي، وآخرُ أَضْلُعي

* * *

ما هذهِ الطُّرُقُ الحسا نُ بِتُرْبِها ونَباتِها

ماءُ المحبَّةِ والحيا ةِ يَفيضُ مِنْ جَنَباتِها

* * *

ما هذهِ الأنغامُ؟ هلْ هِيَ مِنْ مَلائِكَةِ السَّماءْ

أمْ هــــذهِ نِـــــعَــــمُ الـــزَّوا ج تـدفَّـقَـتْ فـي ذا الـمَـسـاءْ؟

* * *

مـا هـــذهِ الـصَّـحـــراءُ، لا مـاءٌ يَـفـيـضُ ولا نَـبـاتْ
مـا هـذهَ الـحـيَّـاتُ يُـفْـ ـسِـدُ سُـمُّـهـا مـاءَ الـحَـيَـاةْ

* * *

مـا هــذهِ الأصْــواتُ؟ هــل ضـوضـاءُ سُـكـانِ الـلُّـحُـودْ؟
أم هـــذه نِـــقَـــمُ الـــزَّوا جِ، وتِـلْـكَ صَـلـصَـلَـةُ الـقُـيـودْ

* * *

وغــداً يـرافـقُـنـي الـوُشَـا ةُ إلـى الـكَـنِـيـسـةِ بَـاسِـمِـيـنْ
ولِـكُـلِّـهِـمْ وَجْـهُ الـمَـسـيـ ـحِ، وقَـلْـبُ يُـودَاسَ الـلَّـعـيـنْ

يوداس: يهوذا الذي أسلم المسيح للجنود

* * *

وغـــداً نَـــمُـــرُّ بِـــكُـــلِّ آ نِـسَـةٍ تـقـولُ بِـمَـغْـزِلِ:
يـا لَـيْـتـنـي كـنـتُ الـعـرو سَ، وكـانَ هـذا الـعـرسُ لـي

١٣ الحب المغدور

قال إلياس فرحات في محبوبته الأولى:

خُصْلَةُ الشَّعْرِ التي أعطَيْتِنيها عِنْدما البَيْنُ دَعَاني بِالنَّفيرْ

أعطته خصلة من شعرها عربون بقاء الود عندما دعاه البين، أي الفراق، بالنفير، أي بنداء الرحيل

لم أزَلْ أتْلوُ سُطُورَ الحُبِّ فيها وسأتْلوُها إلى اليومِ الأخِيرْ

* * *

هِيَ أصْفَى مِنْكِ حُبَّاً ووِدَادَا هِيَ أوْفَى مِنْكِ رَعْيَاً لِلذِّمَمْ
هِيَ في غَيِّ الصِّبَى لم تَتَمادَى هِيَ لم تَتْبَعْ هَوىً جَرَّ نَدَمْ
أنْتِ قَوَّضْتِ مِنَ الحبِّ العِمَادَا أنتِ خُنْتِ العهدَ عَمْدَاً، وَهْيَ لَمْ

يبدو أن محبوبته سرعان ما تزوجت بعد رحيله. أثبتنا القصيدة لأنها من بواكيره، ولأن شباب النت فرحون بها جداً

١٤ مندوب القِرَدة

ساو باولو ـ البرازيل ١٩١٨:

رَاعَ القرودَ حديثُ الناسِ إذ وَجَدُوا مِنْهُمْ فَريقاً يُرَاعِي قَوْلَ دَرْوِينِ

فَعَيَّنُوا نائباً عَنْهُمْ يسيرُ إلى مَوْلَى المَوَالي وسلطانِ السلاطينِ

القردة بعثوا مندوباً إلى الخالق احتجاجاً على نظرية داروين

إلى الذي لم يكلِّفْ نفسَهُ تَعَباً في خَلْقِهِ الأرضَ إلّا قولَهُ: كُوني

فَسارَ نائِبُهُمْ يحتَجُّ باسْمِهِمُ على ادِّعَاءِ المجاذِيبِ المجانينِ

مَوْلايَ، قالَ، وقدْ داسَتْ قوائِمُهُ سَجَّادَةَ العرشِ بعدَ العُنْفِ واللِّينِ:

قد قامَ في الغرْبِ مخلوقٌ بِلا ذَنَبِ مِنْ نسلِ آدمَ أشباهِ الشياطينِ

المخلوق الذي بلا ذنب هو تشارلز داروين

يقولُ: إنَّا وَهُمْ فَرْعانِ، بينَهُمَا قُرْبى يُؤَيِّدُها قُرْبُ التَّكَاوينِ

التكاوين: الأشكال (ذلك الشبه غير المنكور بين خِلقة القرد وخِلقة الإنسان)

فَبِالأَصالةِ عنْ نَفْسي أُكَذِّبُهُ وبالنِّيَابَةِ عنْ كلِّ السَّعَادِينِ

السعادين: القرود، والكلمة بحسب بطرس البستاني ليست من كلام العرب، لكنها من كلام بلاد الشام

قالوا: ارتقَى جدُّهُمْ عَنْ جَدِّنَا، وَهُمُ أَحَطُّ مَا صَنعتْ كفَّاكَ مِنْ طينِ

يَكْفِي السَّعَادِينَ فَخْراً أنَّها عَرَفَتْ مَعنى السعادةِ عَفْواً دونَ تَلْقينِ

وأنَّها تَجْهَلُ الكِذْبَ الذي أَخَذَتْ منهُ الحكوماتُ أركانَ الدَّواوينِ

لا تَعْرِفُ الدِّينَ في غيرِ الإخاءِ، ولا تَجني على الخَلْقِ باسمِ اللَّهِ والدِّينِ

تسويد الأبيات الثلاثة للشاعر عمران القفيني

لا لِلبَطارِكِ تَعْنُو في سياستِها ولا تجوعُ لإشباعِ المَطارِينِ

تعنو: تخضع، البطرك: رئيس الأساقفة، المطران: رتبة دون البطرك

ولا تُمَزِّقُ أوطاناً مُقدَّسَةً بُغْضاً لأحمَدَ، أو حُبّاً لِمَارُونِ

ولا تَبيعُ مِنَ الأغرابِ مَوطِنَها كلَّا! ولَوْ غَمَرُوها بالنَّياشِينِ

الغابُ تَجْمَعُها مِنْ كلِّ طَائفةٍ تَحْيَا الصَّعَاليكُ فيها كالسَّلاطينِ

هُنَا أَسَرَّ بِأُذْنِ القِرْدِ خالِقُهُ: يَكْفي! فَهذي أُمورٌ ليسَ تَعنيني

إنِّي قَطَعْتُ عَلاقَاتي بِأجمَعِها   مَعَ الخَلائِقِ طُرًّا دونَ تَعيينِ

إني قطعت علاقاتي بأجمعها (كاملةً) مع المخلوقات طراً (جميعاً)

١٥ خذوا بعثاتكم عنا

عذرتُكَ لو وَجَدْتُ لديْكَ عُذْرا   ولكِنِّي أراكَ أتَيْتَ نُكْرا

غَرَسْتَ بِنَا التَّعَصُّبَ مِنْ قديمٍ   فَأثْمَرَ لَوْعَةً وأسَىً وضُرًّا

يخاطب المحتل الأوروبي الذي قديماً (في زمن الحروب الصليبية) بدأ يغرس التعصب

بعثْتَ لنا الوُفُودَ فَمَزَّقَتْنا،   كَمَا عَلَّمْتَها، شَطْراً فَشَطْرا

خُذُوا بِعْثَاتِكُمْ عنَّا، فأنتُمْ   بِهَا مِنْ كلِّ أهلِ الأرضِ أحْرَى

ولا تَدْعُوا إلى الإيمانِ شَعْباً   يَرى الإكراهَ في الإيمانِ كُفْرَا

ولا تَتْلُوا لنا الإنجيلَ، إنَّا   كَتَبْنَاهُ لَكُمْ، سَطْراً فَسَطْرا

وإنَّا نَرْفُضُ الإحسانَ مِنْكُمْ   فهلْ تُعطونَنا الإحسانَ جَبْرا؟

١٦ وجدان الحبيبة الضائعة

قال إلياس فرحات ١٩٢٠ :

سكِرتُ بعينيكِ منذُ الأزلْ   وها أنا في سَكرتي لم أزَلْ

ألا تذكرينَ الزَّمانَ القديمَ   ألا تذكرينَ العصورَ الأُوَلْ

ألا تَذْكُرِينَ بِأنَّا وُجِدْنَا   مُحِبَّيْنِ قبلَ وجودِ الغَزَلْ

فَصَيَّرَنَا اللَّهُ زوْجَ حَمَامٍ   نُغَنِّي الضُّحى، ونُغَنِّي الطَّفَلْ

الطفل: الغروب

وفي ليلةٍ مِنْ ليالي الشتاءِ   وقد هَطَلَ الثَّلْجُ مَعْ ما هَطَلْ

أَضَعْتُكِ بينَ الغصونِ، ومَنْ   أضاعَ الرفيقَ أضاعَ الجَذَلْ

الجذل: الفرح

فَنادَيْتُكِ الليلَ حتَّى انجلَى   ونَاديْتُكِ العمرَ حتَّى اضْمَحَلْ

ولمَّا التقيْنَا بِذَاكَ المساءِ   وكنتِ كأنَّكِ نجمٌ أطَلْ

سألْتُكِ باللَّحْظِ: هلْ تذكرينَ الزَّ-   مانَ القديمَ فقلتِ: أجلْ

يُسَائِلُنِي الصَّحْبُ عنْ رَسمِهَا   ومـا رَسْـمُـهـا صـورةٌ تُـبْـتَـذَلْ

طلب الصحب رؤية رسمها، أي صورتها، ولكن الصورة لا تبتذل وتعرض للأصحاب

وإنَّ الـمُـصَـوِّرَ مـهـمـا أَجَـادَ   تَـظَـلُّ الإجـادَةُ دونَ الأَقَـلْ

فَكَمْ صـوَّرُوا الـمُقَلَ السَّاحِراتِ   ومَـا صـوَّرُوا سِـحْـرَ تـلـكَ الـمُـقَلْ

المقل: العيون

وكَـمْ صَـوَّرُوا قُـبَـلَ الـعَاشـقـيـنَ   فَـهَـلْ صـوَّرُوا طَـعْـمَ تـلـكَ الـقُـبَـلْ

التسويد للأبيات الثلاثة: عمران القفيني

١٧ التقي

أنا التَّقِيُّ الذي ما الكُفْرُ مِنْ شِيَمِي   أَهْوَى المسيحَ، وأَحسُو دائِماً دَمَهُ

فكرة مسيحية أن احتساء نبيذ صُلِّيَ عليه يجعل دم المسيح وبركته يتغلغلان في جسم المؤمن

مَا مِنْ صليبٍ بَدَا فِي نَحْرِ غَانِيَةٍ   إلّا وأحـبَـبْـتُ أنْ أدنُـو فَـأَلْـثِـمَـهُ

١٨ رجال الدين

يـا رَاعِـيـاً ضَـحَّـى لأَجْـ   ـلِ قـطـيـعِـهِ بِـحَـيَـاتِـهِ

اِحْـفَـظْ قـطـيـعَـكَ إنَّـهُ   أَمْـسَـى قَـتـيـلَ رُعَـاتِـهِ

يدعو السيد المسيح الذي ضحى بحياته لأجل الناس أن يحفظ هؤلاء الناس الآن، لأن رعاتهم من رجال الدين هم الذين يقتلونهم

الـشَّـعْـبُ فـي زمـنِ الـمـجـا   عَـةِ آكِـلٌ جَـزَمـاتِـهِ

حلت مجاعة بلبنان في أيام الحرب العالمية الأولى. جزماته: أحذيته

والـدَّيْـرُ مـمـتَـنِـعٌ، ورَبُّ   الـدَّيْـرِ فـي غُـرُفَـاتِـهِ

رب الدير: كبير رجال الدين

والـنـاسُ حـولَ الـديـرِ نَـا   ظِـرَةٌ إلـى شُـرُفَـاَتِـهِ

يَـتَـلَـمَّـسُـونَ جِـدارَهُ   مُـسْـتَـنْـزِلـيـنَ هِـبَـاتِـهِ

يلمسون جدار الدير تبركاً مستنزلين هباته (متوسلين كي تنزل عطاياه)

لـو شـاءَ أشـبـعَـهُـمْ بِـمَـا   يُـلْـقِـيـهِ مِـنْ فَـضَـلاتِـهِ

لو شاء الدير لأشبع الناس بما يزيد عن حاجته من قوت. وكانت أملاك الكنائس في لبنان واسعة

أو شـاءَ أغـنـاهُـمْ بِـتَـا ج كـبـيـرِهِ وَعَـصَـاتِـهِ

عصاته: عصاه

لـكـنَّـهُـمْ مـاتُـوا لِـمَـوْ تِ الـفَـضْـلِ بَـيْـنَ ذَوَاتِـهِ

يقصد ذويه

مـاتُـوا، ورَبُّ الـدَّيْـرِ لـم يَـبْـذُلْ، وَلا عَـبَـرَاتِـهِ

لم يعطهم حتى دموعه

١٩ تردد العذراء

ولَـرُبَّ يـومٍ مـا ذَكَـرْتُ جـمـالَـه إلَّا بَـكَـيـتُ جـمـالَـهُ بِـسَـخـاءِ

مُتماشِيينِ على الرصيفِ، وسِرُّنا بـادٍ عـلـى وَجَـنـاتِـنـا بِـجَـلاءِ

بـيـنَـا نُـحَـاولُ كَـتْـمَـهُ بِـسُـكـوتِـنـا وبِـمَـشْـيِـنـا الـهـادي، وبـالإِغْـضـاءِ

بينا: بينما، الإغضاء: الإطراق وتجنب النظر

نَـفَـحَ الـهـواءُ رداءَهـا، وكـأنَّـهُ قَـصَـدَ الـمُـزَاحَ فَـحَـكَّـهُ بِـرِدائـي

فَمَضَيْتُ أجتنِبُ الطريقَ مُحَاذِراً أهـلَ الـطـريـقِ كـأنـهُـمْ أعـدائـي

ومَضَتْ تُرافِقُني، وفي خُطُواتِها سِـرُّ الـكِـيَـاسَـةِ مُـعْـلَـنٌ لـلـرَّائـي

حتَّى بَلَغْـنا في الظَّهيرةِ رَوْضَةً يـا حُـسْـنَ تِـلْـكَ الـرَّوْضَـةِ الـغَـنَّـاءِ

وَسُعَتْ وضاقَ مَمَرُّها، فكأنَّها جُـعِـلَـتْ بشكلِ هَيـاكِـلِ الـقُـدَماءِ

وكأنَّما غَرَسَ الهوى شَجَراتِهَا لِـتَـكُـونَ لـلـعُـشَّـاقِ خـيـرَ خِـبَـاءِ

فدخلتُ تَصحَبُنِي الفتاةُ بِحَالةٍ كـادتْ تـكـونُ كـحـالـةِ الإغـمـاءِ

سَكْرَى ولم تَذُقِ الشرابَ، وإنَّما بـعـضُ الـحـديـثِ يـدورُ كـالـصَّـهـباءِ

غـازلْتُـها، وأَثَرْتُ كـامِنَ وَجدِها فَـبَـكَـتْ بُـكَـاءَ تـولُّـهٍ وحَـيَـاءِ

وتَـنَـهَّـدَتْ فـتـصـاعـدتْ زَفَـراتُـهـا مـمـزوجـةً بِـصَـدى خَـريـرِ الـمـاءِ

تُـغْـضـي وتَـرنُـو عِـفَّـةً وصَـبَـابَـةً فـيـظـلُّ يَـأسـي عـالـقـاً بِـرَجـائـي

وتـروحُ عـابِـسـةً لِـغَـيْـرِ تَـمَـنُّـعٍ وتـجـيءُ بَـاسـمـةً لِـغَـيـرِ رِضَـاءِ

تَـدنُـو إلـيَّ بِـلَـوْعـةٍ لأَضُـمَّـهـا وتَـصُـدُّنـي عـنْ ضَـمِّـهَـا بِـجَـفـاءِ

وأَشَـدُّ حـالاتِ الـغـرامِ حـلاوةً حـالٌ تُـرِيـكَ تَـرَدُّدَ الـعَـذْراءِ

ما زالَ يُقْعِدُها الهوى ويُقِيمُها حتَّى ارتَمَتْ مَنْهوكَةَ الأعضاءِ
فأقَمْتُها ولَثِمْتُها بِحَرارةٍ صَعِدَتْ إلى شَفَتَيَّ مِنْ أحشائي

لثمتها: قبّلتها

والنهرُ أَنصَتَ مُصْغِياً، مُتَعَلِّماً سحرَ البيانِ، لِقُبْلَةٍ خَرْساءِ

٢٠ متى ينتهي مسعاكم المتنافر

لقد حالَتِ الأحوالُ في مَلعبِ الصِّبا وراعَتْ حماماتِ الغديرِ الكواسِرُ

حالت (تغيرت) الأحوال في ملعب الصبا (لبنان)، والكواسر (الطيور الجارحة) راعت الأحوال (أخافت) الحمامات

كأَنَّ الأُلى ظَلُّوا به مِنْ رجالِه نِساءٌ شِنَاعٌ جاهلاتٌ عَواقِرُ
إذا أبصَروا الدينارَ خَفَّتْ قلوبُهُمْ إليهِ، ولو أنَّ السبيلَ مَعَايِرُ

معاير: أمور معيبة

وما في الغِنَى عارٌ، ولكنْ مُرِيدُهُ على أَيَّةِ الحالاتِ للعارِ صائِرُ

الذي يريد الدينار على أية الحالات (بغض النظر عن الوسائل) سيقع في العار

دَعُونا مِنَ الألقابِ تُلْهُونَنا بِها فَما تخدعُ الأحرارَ هذي المَسَاخِرُ
فَبِيعوا نياشينَ المذلَّةِ، واشْتَروا بأثْمانِها بَعضَ الحَيا، ثم فاخِرُوا
عليكُمْ سلامُ اللَّهِ يا آلَ يَعْرُبٍ مَتَى يَنْتَهِي مَسْعَاكُمُ المُتَنافِرُ
لقدْ وَحَّدَ العلمُ العبيدَ، وأنتُمُ قبائلُ تُفْنِي بعضَها، وعَشائِرُ
أليسَ لكُمْ يا قومُ بعدَ محمَّدٍ نبيٌّ لأصنامِ السياسةِ كاسرُ
أما من فتىً حرٍّ إذا هبَّ للوَغى تَهُبُّ البوادي خلفَه والحواضِرُ
أَكُلُّ مُناكُمْ أن تقوموا بِغَزوةٍ تُعَدُّ بِها الأرباحُ، وَهْيَ خَسائِرُ

٢١ شكوى فقير

هَنيئاً لَكُمْ حولَ الخِوَانِ اجتمَاعُكُمْ وصاحِبُكُمْ يَطْوِي الفَيَافِي بِلا زَادِ

الخوان: المائدة، الفيافي: الصحارى

وعِنْدَكُمُ الماءُ النَّمِيرُ مَسِيلُهُ جُزَافاً على وَجْهِ الثَّرَى، وأَنا صَادِ

النمير: الكثير، صادٍ: عطشان

وأولادُكُمْ في الجُوخِ تَدْفَا جسومُهُمْ   فَمَا هَمُّكُمْ أنْ يَقْتُلَ البردُ أوْلادي

الجوخ: قماش من صوف كان مشهوراً جداً قبل عصر الجينز

تَمُرُّ على صدري الخُطُوبُ، كأنَّما   بَنَتْهُ لها الأقدارُ جِسراً على وَادِ
سَأَبْعُدُ عَنْكُمْ ما حَييتُ بِفَاقَتي   لِكَيْ لا يَهِيجَ البؤسُ عَيْشَكُمُ الهادِي

سأبتعد عنكم طول حياتي

٢٢ الزهرة الراهبة

أَطَلَّتْ مِنَ الدَّيْرِ عندِ الضُّحَى   وفي نَاظِرَيْها بَريقُ الأسَى
فَتاةٌ كَأَنَّ الإلَهَ بَرَاها   لِيَجْعَلَها فِتْنَةً لِلنُّهَى

براها: خلقها، النهى: العقل

تُجَمِّعُ مِنْ حَوْلِهِ ضُمَّةً   مِنَ الزَّهْرِ تُهْدَى لِفَادي الوَرَى

تجمع من حول الدير باقة أزهار، وفادي الورى: المسيح

فَبَيْنَا تَسِيرُ على مَهْلِهَا   وتَجمعُها مِنْ هُنا وهُنا
رأتْ زهرةً في أعالي الجِدارِ   تُداعِبُها نَسَماتُ الصَّبَا
وقد زادَ في قَدْرِها أنَّها   تَعِزُّ على مِنْ يُريدُ الجَنَى

الجنى: القَطْف

فحرَّكَ منظرُها نفسَها   وقالتْ بملءِ الحَنانِ لها:
أُخَيَّةُ! يَهنيكِ هذا السُّمُوُّ   وهذا البَهاءُ، وهذا الرِّضَى
ولكنْ، أما كانَ أشهَى لديكِ   جِوَارُ الأزاهيرِ، بينَ الرُّبَى
تَحومُ عليكِ بناتُ القَفِيرِ   وتَسعى إليكِ صَبَايا القُرَى

بنات القفير: النحل (والقفير خلية النحل)

لأَنتِ تَعيشينَ في عُزْلَةٍ،   فلا في السماءِ، ولا في الثَّرَى
لِمَنْ خلقَ اللَّهُ هذا الجمالَ   ومَنْ يتنشَّقُ هذا الشَّذَا؟
وفي الليلِ سارَتْ إلى خِدْرِها   وفي قلبِها مِثْلُ نارِ الغَضَى

الغضى: شجر صلب الحطب، يعطي ناراً حامية

ولمَّا نَضَتْ ثوبَها لِتَنامَ   تَبَيَّنَ مِنْ حُسنِها ما اختَفى

فَـمـدَّتْ إلـى صـدرِهـا كـفَّـهـا   وقـد فَـتَّـحَ الـوردُ تـحـتَ الـنَّـدَى
وقـالَ لـهـا قـائـلٌ صـامِـتٌ   وكـانَ الـذي قـيلَ رجعَ الصَّدَى:
وأنـتِ تـعـيـشـيـنَ فـي عُـزْلـةٍ   فـلا فـي الـسـمـاءِ، ولا فـي الثَّرَى
لِـمَـنْ خـلـقَ الـلَّـهُ هـذا الـجـمـالَ   ومَـنْ يـتـنـشَّـقُ هـذا الـشَّـذَا

٢٣ يحسدونني شعري

لـلـنـاسِ فـيـمـا يَـأْلَـفـونَ رِضَـا   وَلَـوَ انَّ فـيـهِ الـجـوعَ والـمَـرَضَـا
ولـقـد أَلِـفْـتُ الـشـعـرَ مـنـذُ أَضَـا   نـجـمُ الـحـيـاةِ، فَـيَـا عـذولُ قَـدِ

أضا: أضاء، قدِ: اكفف، خَلاصْ بقى

* * *

لا تُـصْـغِ لـلـفـئـةِ الـتـي هَـرَفَـتْ   حَـسَـداً بِـمَـا جَـهِـلَـتْ ومـا عَـرَفَـتْ

هرفت: ثرثرت

فالريحُ فـوقَ الـبـحـرِ كـمْ عـصفتْ   والـبـحـرُ لـم يَـنْـقُـصْ ولـم يَـزِدِ

* * *

يـا حَـاسِـدي شِـعـري! طُـلاوَتُـهُ   سِـحْـرٌ، وقـد تُـحْـيـي تِـلاوَتُـهُ

يا من حسدني شعري! طلاوته (رقته) سحر وتلاوته تحيي النفوس

وأراكَ، مـا اشْـتَـدَّتْ حـلاوتُـهُ   تَـشْـتَـدُّ فـيـكَ مـرارةُ الـحَـسَـدِ

* * *

الـشـعـرُ لـلأرواحِ يـنـتـسِـبُ   فـي بـعـضِـهـا أمٌّ لـه وأَبُ
لـكـنَّ أرواحَ الأُلـى صَـخَـبُـوا   عَـقُـمَـتْ فـلـمْ تـحـبَـلْ، ولـم تَـلِـدِ

٢٤ درس للإسبان

قال فرحات إثر دخول فرنسا الحرب في المغرب إلى جانب إسبانيا، وكان ذلك على إثر موقعة انتصر فيها مغاربة الريف بقيادة عبد الكريم الخطابي على الإسبان:

لكَ الصارِمُ القَاضيِ على كُلِّ صارمِ   لِذَبْحِ العِدَى يُرجَى، وكَبْحِ المَظالِمِ

يخاطب عبد الكريم الخطابي قائد ثورة الريف المغربي

فَقُلْتَ لأُورُبَّا، وسيفُكَ مُصْلَتٌ: رويدَكِ! لَسْنا بعضَ تلكَ السَّوائِمِ

مصلت: مسلول، السوائم: المواشي

أحاولُ أنْ أُثْنيِ عليكَ، فلا أَرَى كلاماً جديراً في بطونِ المعاجمِ
سَرَتْ كَهرباءُ العزمِ مِنْ خَيرِ مُهْجَةٍ إلى خيرِ كفٍّ، صافَحَتْ خيرَ قائِمِ

قائم: مقبض السيف

وصُلْتَ على الإسبانِ صَوْلَةَ مؤمِنٍ بِقُوَّةِ حقِّ الشعبِ، لا بالتَّمَائمِ
لقد عَلِمتْ مدريدُ أنَّك غُولُها وأنَّ بلادَ الريفِ غِيلُ الضَّراغِمِ

غولها: قاتلها ومغتالها، غِيل الضراغم: غابة الأسود

وما علِمتْ عَفْواً، ولكنْ تعلَّمَتْ بمدرسةٍ أستاذُها غيرُ نائمِ

٢٥ الحمار المذهَّب

قلْ لِمَنْ يَحْسَبُ الثيابَ على المَرْ ءِ تُعَلِّي المَقَامَ، أنْ يتأدَّبْ
فَجَوادٌ مِنْ غيرِ سَرْجٍ لَخَيْرٌ مِنْ حِمارٍ عليهِ سَرْجٌ مُذَهَّبْ

٢٦ أذناب فرنسا

خُلِقْنا والشَّقاءُ بنا مُحيطٌ وعشنا، والرَّجاءُ يعيشُ فِينا
تُعَلِّلُنَا التي انتهكتْ حِمَانا بِمُختَلِفِ الوُعُودِ، وما تَفِينا

هذه فرنسا

أَطابِخَةَ الحَصَى! مَهْلاً فَإنَّا لَغَيرُ صِغَارِكِ المُتَضَوِّرِينا

إشارة إلى قصة عمر بن الخطاب وقد رأى امرأة تطبخ الحصى لكي تعلل أطفالها المتضورين جوعاً

وأَلْبَسَكِ انتصارُكِ ثوبَ عارٍ سحبتِ ذيولَهُ في مَيْسَلونَا

في ميسلون تصدى العرب للفرنسيين المحتلين عام ١٩٢٠

عرفتُ دمشقَ يومَ عرفتُ نفسي فَتَىً يَسْترخِصُ الأدبَ الثَّمِينا

يسترخص الأدب: يبذل في سبيله كل شيء ولا يراه غالي الثمن

كأنَّ شبابَها أُسْدٌ غِضابٌ ولكنْ، لا نُيُوبَ لِتَسْتَعِينا
كأنَّ الحقَّ أسكَرَهُمْ، فثاروا وسارُوا بِالعِصِيِّ يُقاتِلُونا

رأوْا في مَيْسلونَ الموتَ مَجداً   فماتوا، دونَها، مُسْتَبسِلينا
وخَرَّ الحقُّ لم يعرفْ نَصيراً   يلوذُ بهِ مِنَ المُتَمَدِّنينا
ورُبَّتَ أُمَّةٍ بالحقِّ حُبْلَى   لِفَرْطِ الضَّعْفِ أسقَطَتِ الجَنينا

ربت: أي ربَّ

سَلُوا عبدَ الكريمِ تَرَوْا عَجيباً   غريباً يدهشُ الرجلَ الفَطينا

عبد الكريم الخطابي المناضل في الريف المغربي

يَصولُ على الفيالِقِ في مَلِيلا   فَيَضْطَرِبُ الوَرَى في بَرْسَلونَا

يحارب الإسبان في مليلية، فتهتز برشلونة بإسبانيا

ألا مَنْ مُبْلِغٌ لبنانَ عنِّي   كَلاماً صادقاً حُرّاً رَصينا
يَعيبُكَ أنَّ بعضَ بَنِيكَ صُمٌّ   فهُمْ لا يسمعونَ، ولا يَعُونا
فُصِلْتَ مِنَ الشآمِ، وأنتَ مِنْها   ولولاهُمْ لَدُمْتَ لهَا خَدِينَا

خدين: رفيق

وليسَ سوى التعصبِ مِنْ حدودٍ   فلا حيَّا الحَيا المتعصِّبينا

التعصب وحده يصنع الحدود بين لبنان وسورية، فلا حيا الحيا (المطر) المتعصبين

ويُخْجِلُني وقوفُكَ يومَ رِيعَتْ   أوانِسُها وقوفَ الشَّامِتِينا

ريعت: أُخيفت. فقد قصفت فرنسا دمشق بالمدافع عام ١٩٢٥

ألم يجمعْ غُلاةُ بَنِيكَ مَالاً   تُمَدُّ به عِيَالُ المُعْتَدينا

غلاة بنيك: المتطرفون من أبنائك

ألم يَشْرُوا لِغازي الشامِ سَيْفاً   فَوَاخَجَلي بِمَنْ لا يَخْجَلونَا
ومَا هُمْ، حَسْبَما يَحْكُونَ، مِنْها   ولا عَرَباً، ولا مُسْتَعرِبينا

أولئك البعض يقولون إنهم ليسوا من الشام ولا من العرب

فإن كانوا كذلِكَ، لستُ أدري   بِمَنْ وبِأَيِّ شَيءٍ يَفْخَرونَا
وليسَ لَهُمْ لسانٌ مستقِلٌّ   ولا أدَبٌ به يَتَمَيَّزُونا
ولا مِنْهُمْ فتىَ التَّشريعِ مُوسَى   ولا عيسى الذي أحيا الدَّفينا
ولا طهَ الكريمُ، ولا عليٌّ   ولا عُمَرٌ أميرُ المؤمنينا

ولم يَكُ قَطُّ فَخْرُ الذِّينِ مِنْهُمْ ولا المتمردونَ السَّابِقونا
وإن بني شِهَابَ كَآلِ مَعْنٍ إلى العَرَبِ الأمَاجِدِ يَنتَمُونَا

الأسرة الشهابية والأسرة المعنية اللتان حكمتا في جبل لبنان تنتسبان إلى العرب

وَهَبْ أبناءَكَ الغاوِينَ صَاغُوا مِنَ الأوهامِ أجداداً عُيُونَا

عيون: وجهاء، ويشير إلى تمسك بعض بني قومه بالانتساب إلى الفينيقيين

فَفِي الدَّعوى لَهُمْ عارٌ جديدٌ يُضاعِفُ عارَهُمْ، لو يعقِلُونَا
إذا نَسَلَ الأبيُّ الحرُّ عَبْداً أَسَأْنا في حليلَتِه الظُّنونا

حليلته: زوجته

٢٧ وردة ذات جناحين

سلمى! عجيبٌ كلَّما لُحْتِ لِي أسمعُ قلبِي سائِلاً عَيْنِي
فَراشةٌ ذاتُ شَذا وردَةٍ أمْ وردةٌ ذاتُ جَناحَيْنِ

٢٨ قوة التفاحة

قال إلياس فرحات (لعروسين):

إنَّ تفاحةَ حَوَّاءَ التي حَرَّمَ اللَّهُ على الناسِ جَناها

جناها: قطفها

أودعَ اللَّهُ بِها مِنْ لُطْفِهِ قوةً لا يُدرِكُ الفكرُ مَداها
لم تكنْ أمُّ الوَرى آثمةً عندما خالَفَتِ الرَّبَّ الإلها
قد رأَتْ تفاحةَ تدعو، فلم يَكْفِها، مما اعتَراها، أنْ تَراهَا
إنَّما الظَّمآنُ يزدادُ ظَمَاً حينَما تُبْصِرُ عينَاهُ المِيَاها
جَنَّةُ الحبِّ أُبيحَتْ لَكُمَا فاتْرُكا الدُّنيا وسِيرا في رُبَاها
واقْطِفا تفاحةَ الحبِّ، فَلا طعمَ لِلعيشِ إذا لم تَقْطِفاهَا

٢٩ لبنان ينبت فيه الأَرْز والجزر

ماذا تحاولُ مِنِّي أيُّها النَّفَرُ؟ والأرضُ تعلمُ أنِّي الشَّاعرُ الخَطِرُ

الخطر: يقصد الخطير أي المهم

يا نَافِخَ القمرِ الزاهي، لِيُطْفِئَهُ   تَفْنَى قُواكَ، ومَا يَدري بِكَ القَمَرُ
قومٌ! لقدْ أنكَروا جهلاً أَرُومَتَهُمْ   مُسْتَمْسِكينَ بِقوم ما لهمْ أثَرُ

أرومة: أصل، بعض بني قومه أنكروا العروبة وتمسكوا بالهوية الفينيقية

لولا التعصبُ كانوا كلُّهُمْ عرباً   فَلْتَهنَأِ العُرْبُ لم يَعْلَقْ بِها الوَضَرُ

الوضر: الوسَخ

ما كلُّ مَنْ حَمَلَتْ أرضٌ ذَوِي رَحِمٍ   لُبْنانُ يَنْبُتُ فيهِ الأَرْزُ والجَزَرُ
لسنا نصدِّقُ دَعوىً ليسَ يُثْبِتُها   صِدْقُ الفِعَالِ ولو جاءَتْ بِها السُّوَرُ

٣٠ العقل والنقل

أيها الناسُ! قد مُنِحتُمْ عقولاً   ليس تَرضَى بِما سِوى البُرهانِ
حَكِّموها في كلِّ بادٍ وخافٍ   فَهْيَ فوقَ الإنجيلِ والقرآنِ
عزِّزوا الحبَّ في البلادِ إذا شئْـ   ـتُمْ تَروْها تَعِزُّ بالعُمْرانِ
كافِرٌ يعشقُ المكارِمَ خيرٌ   مِنْ لئيمٍ يغوصُ في الإيمانِ

التسويد لعمران القفيني

٣١ السر عند القتيل

قال فرحات يرثي رشيد معلوف وقد قتل في ظروف غامضة بالبرازيل:

يا أخي، يا رشيدُ! ليتَكَ تدري   كيفَ دقَّتْ مطارقُ البينِ ظهري
كلُّنا للرَّدَى، وقد سَبَقَ اليوْ   مَ إليهِ السَّبَّاقُ في كلِّ أمرِ
ويْحَ عينيِ! وقد رَأَتْكَ مُسَجَّى   كَمْ بَكَتْ مِنْ شمائلٍ فيكَ غُرٍّ

الشمائل الغر: الخصال الناصعة

وكأنِّي طُعِنْتُ بينَ ضلوعي   طعنةً قوَّضَتْ دعائمَ عمْري
يا قَتيلاً مَضى، وخَلَّفَ سِرّاً   خَلْفَ سِرٍّ، عَليهِمَا ألفُ سِتْرِ
حَبَّذا لوْ شَفَيْتَ حَرَّ غليلي   بِجَوابٍ فيهِ صراحةُ حُرِّ
كيفَ أُرْدِيتَ؟ هَلْ بِعَدْلٍ كَمَا يز   عُمُ مُرْدِيكَ باسماً عَنْ مَكْرِ
أم قَضَى اللَّهُ أنْ تموتَ بريئاً   ويفوزَ الجاني بأكذَبِ عُذْرِ

أَشـهـيـدُ الإقـدامِ أنـتَ؟ فَـقِـدْمـاً قـد عـرفـنـاكَ بِـالـمـنـيَّـةِ تُـزْري
أم شـهـيدُ الـهـوى؟ ولـسـتُ أُبـالـي أنْ يقـولـوا هـذا الـهـوى غـيرُ عُـذْري
أنـتَ عـنـديَ فـي الـحـالـتـينِ بـريءٌ ولْـيَـقُـلْ مـا يـشـاءُ صـاحـبُ هَـذْرِ

٣٢ الضمير الحي

تـوالـتْ هُـمـومُ الـحـيـاةِ عَـلَـيَّـا ولـولا ضـمـيـري لَـعِـشْـتُ خَـلِـيَّـا

* * *

وسـابَـقْـتُ فـي الـشـعـرِ فـرسـانَـه فـقـصَّـرْتُ عـنْ فـارِسٍ مُـفْـلِـحِ
فـقـلـتُ: أُعَـرْقِـلُ مـيـدانَـه، فـقـالَ ضـمـيـرِي: ألا تَـسْـتَـحِ؟

* * *

فـعـدَّلْـتُ حُـبَّ الـتَّـفَـوُّقِ فِـيَّـا ولـولا ضـمـيـري تَـرَكْـتُ دَوِيَّـا
شَـكَـوْتُ ضـمـيريَ شكْوَى الـجَـهُولْ ونُـحْـتُ عـلـى الـحَـظِّ نَـوْحَ الـغُـرَابِ
فـأَسـمَـعَـنـيِ الـلَّـهُ صـوْتـاً يَـقُـوُلْ: أَتَـشْـكُـو ضـمـيـرَكَ يـا ابْـنَ الـتُّـرَابِ

* * *

ولـولا ضـمـيـرُكَ مـا كـنـتَ شَـيَّـا ولـو كـنـتَ مِـنْ نَـيِّـرَاتِ الـثُّـرَيَّـا

٣٣ ظالمون وجبناء

أَلَّـفَ الـظالـمونَ في الـشَّـامِ لـلـظُّلْـ ـمِ كـتـابـاً مُـقَـسَّـمـاً أبـوابـا

الظالمون هم الذين أيدوا فرنسا في احتلالها سورية ولبنان

يَحْسَبونَ الأشجارَ مِنْ شِدَّةِ الذُّعْـ ـرِ دُرُوزاً، وظِـلَّـهَـا أَعْـرَابـا

ثار الدروز على الفرنسيين ثورة مشهورة في عام ١٩٢٥

يسـألـونَ الـنَّـجَـاةَ مِـنْ سيـفِ سـلـطا نَ، وهـيـهـاتَ سُـؤْلُـهُـمْ أنْ يُـجَـابـا

سلطان الأطرش زعيم الثورة الدرزية

٣٤ لولا الجذر ما رفع الغصن رأسه

قال فرحات يرد على فوزي المعلوف الذي أنشد في النادي الفينيقي في الربو دي جانيرو قصيدة مطلعها: خلِّ البداوةَ رمحَها وحسامَها/ والجاهليةَ نوقَها وخيامَها:

حَـيِّ الـبـداوةَ: نـوقَـهـا وخِـيـامَـهـا والـجَـاهـلـيـةَ: رمـحَـهـا وحـسـامَـهـا

حيَّتْكَ أشباحُ القديم، وسلَّمَتْ فَمِنَ العدالةِ أنْ تَرُدَّ سلامَها

أأراكَ تَنْسَى جاهليَّةَ تَدْمُرٍ وأراكَ تنسى جِلَّقاً: إسلامَها

وأَراكَ تَحْقِرُ بَعْلَبَكَّ، وقد نَبَتْ عنها العصورُ، وحاذَرَتْ أصنامَها

نبت (ابتعدت) عنها مصائب الزمن، ولم تستطع أن تزيل تماثيلها

أتَرُدُّ مصرٌ غولَهَا عنْ نيلِها لو سايَرَتْكَ فهدَّمَتْ أهرامَها

ليس افتتانُكَ بالفتاةِ نَقيصَةً ما دمتَ تعرفُ للعجوزِ مَقَامَها

لولا الجذورُ المطمئِنَّةُ في الثَّرى ما كانتِ الأغصانُ ترفَعُ هامَها

هامها: رؤوسها

هذي بلادُكَ مَسْرَحٌ لِحَوادِثٍ جَهِلَتْ نبوءاتُ الكتابِ ختامَها

إنْ تُلْوَ هامتُها فقد غَسَلَتْ، بما سَفَكَتْهُ مِنْ مُهَجِ العِدَى، أقدامَها

أرضٌ تُوحِّدُها العروبةُ، فَلْيَصِلْ لبنانُها حُورانَها وشآمَها

ما خَطَّطَ الدينُ التُّخومَ لأُمَّةٍ إلَّا وقد نَخَرَ الفسادُ عظامَها

التخوم: الحدود. يقول: لا يجوز أن تُرسم الحدود على أسس دينية

٣٥ حياة مشقات

أُراقبُ في الظَّلماءِ ما الليلُ يحجُبُ وأقرأُ في الأسحارِ ما اللَّهُ يكتبُ

وأَستعرِضُ الأيامَ، يومي الذي مَضَى دليلٌ على يومي الذي أَتَرَقَّبُ

فلا تسألوا عنِّي، وحَظِّي، فإنَّنا لأمثالِ أهلِ الشرقِ والغربِ مَضْرِبُ

طَوَى الدَّهْرُ مِنْ عُمْري ثلاثينَ حِجَّةً طَوَيْتُ بها الأصقاعَ أسعى وأَدْأَبُ

أُغَرِّبُ خلفَ الرِّزْقِ، وَهْوَ مُشَرِّقٌ وأُقْسِمُ لو شَرَّقْتُ، كانَ يُغَرِّبُ

وأَنْفِرُ مِنْ وادٍ لِطَوْدٍ، كأنني، وقد بَوَّقَ الدَّاعونَ للصَّيْدِ، رَبْرَبُ

طود: جبل، بوّق: نفخ بالبوق، الربرب: سرب الغزلان

لئِنْ غرَّدَتْ للشَّاعِرِينَ بَلابِلٌ فإنَّ غرابَ الشُّؤْمِ حولِيَ يَنْعَبُ

وإن كانَ عِلْماً ثابتاً قولُ بعضِهِمْ: لِكُلِّ امرئٍ نَجْمٌ، فَنَجمي المُذَنَّبُ

المذنب: مذنَّب هالي، وظهوره مشؤوم

ومَرْكَبةٍ للنَّقْلِ راحتْ يجُرُّها حصانانِ: محمَرٌّ هزيلٌ، وأَشْهَبُ

جلستُ إلى حُوذِيِّها، ووراءنا صناديقُ فيها ما يَسُرُّ ويُعْجِبُ

الحوذي: سائق العربة

حَوَتْ سِلَعاً مِنْ كلِّ نوعٍ، يبيعُها فتىً ما استحلَّ البيعَ لولا التَّغَرُّبُ

البيع عارٌ في أخلاقيات الإقطاع والبداوة، والعرب تفتخر بالنهب والغزو، وتأنف من الحِرَف ومن التجارة. على أن شعراء المهجر كرهوا البيع وهجوه هجاء مُرّاً، لأن رفاقهم التجار أغنياء، وهم قليلو الحيلة في التجارة يحاولونها وقلما يصيبون نجاحاً

وراحتْ كأنَّ البرَّ بحرٌ، نِجَادُهُ وأغوارُهُ أمواجُه، وَهْيَ مَرْكَبُ

كأن نجاد (هضاب) البر وأغواره (منخفضاته) أمواج بحر، وكأنما المركبة البرية، في سيرها هذا، مركب بحري

تَبِينُ وتَخْفَى في الرُّبى وحِيالَها فَيَحْسَبُها الرَّاؤُونَ تَطفُو وتَرسُبُ

حيالها: بقربها

وتَدْخُلُ قلبَ الغَابِ والصُّبحُ مُسْفِرٌ فَنَحْسَبُ أنَّ الليلَ لِلَّيْلِ مُعْقِبُ

تدخل المركبة قلب الغابة فجراً، فكأن الليل استمر؛ فظلام الغابة معقبٌ (تالٍ) لِلَّيل الحقيقي

تَمُرُّ على صُمِّ الصَّفا عجلاتُها فتَسْمَعُ قلبَ الصخرِ يشكو ويَصْخَبُ

الصفا: الصخر

وتَرْقُصُ فوقَ الناتِئاتِ مِنَ الحَصَى فَنُوشِكُ، مِنْ تلكَ الخلاعةِ، نُقْلَبُ

نَبيتُ بِأَكواخٍ خَلَتْ مِنْ أُناسِها وقامَ عليها البومُ يبكي ويندُبُ

مُفَكَّكةٌ جدرانُها وسقوفُها يُطِلُّ علينا النجمُ منها، ويَغْرُبُ

عليها نقوشٌ لم تُخَطَّطْ بِرِيشَةٍ تَظُنُّ صِباغاً لونَها، وَهْوَ طُحْلُبُ

يُغَنِّي لنا فيها الهواءُ كأنَّهُ يُنَوِّمُنا، والبردُ للنَّومِ مُذْهِبُ

فَنُمْسِي، وفي أجفانِنَا الشوقُ للكَرى ونُضحي، وجمرُ السُّهْدِ فِيهِنَّ يُلْهِبُ

ومَأْكلُنا ممَّا نَصيدُ، وطالما طَوَيْنا، لأنَّ الصَّيْدَ عنَّا مُغَيَّبُ

طوينا: نمنا جياعاً

ونَشْرَبُ ممَّا تَشْرَبُ الخيلُ تارةً وطَوْراً تعافُ الخيلُ ما نحنُ نَشْرَبُ

حَياةُ مَشَقَّاتٍ، ولكنْ لِبُعْدَها عنِ الذلِّ تصفو للأبِيِّ، وتَعْذُبُ

وقد نَلتقي بعضَ الجميلاتِ صدفةً فَيُطْرِبْنَنا، والمبْدِعُ الغِيدَ مُطْرِبُ

وكلُّ مكانٍ فيهِ للحُسْنِ مَرْتَعٌ ... ولِلطَّرْفِ مَلهىً فيه للحبِّ مَلْعَبُ

الطرف: البصر

وما تلتقي عينا فتاةٍ حَيِيَّةٍ ... وعينا فَتىً، إلا لِكُوبِيد مَأْرَبُ

كوبيد: كيوبيد إله الغرام عند الرومان، وهو ابن فينوس لمن يعنيه النسب

وهل أنَا إلَّا شاعِرٌ لانَ قلبُهُ ... فليسَ له مِنْ صَوْلَةِ الحسنِ مَهْرَبُ

صولة: هجمة

نَفَتْني مِنَ المُدْنِ العَواصِمِ عِزَّتي ... فَرُحْتُ بأَطْرَافِ الولاياتِ أَضْرِبُ

أعاشِرُ مَنْ لو عاشرَ القردُ بعضَهُمْ ... لما رَدَّ عَنْ دَرْوينَ قَبْرٌ مُقَبَّبُ

أعاشر قوماً غادرين، لو أن القرد عاشرهم لذهب ينبش قبر داروين، الذي زعم أن أصل الإنسان قرد، غضباً لأمة القرود. ولَمَا كان ثناه عن القبر كونُه مقبباً (محمياً بقبة)

وأُنْصِتُ مضطراً إلى كلِّ أَبْلَهٍ ... كأنِّي بأسرارِ البلاهةِ معجَبُ

وأكرهُ أشياءً رفيقي يحبُّها ... وأرغبُ في أشياءَ عنْهُنَّ يَرغبُ

وأَرْهَبُ قطاعَ الطريقِ، وربما ... تعمَّدتُ إظهارَ السلاحِ لِيَرهبُوا

فَعِزُّ الفَتى الطاوِي الفيافي مُسَدَّسٌ ... كما أنَّ عِزَّ الليثِ نابٌ ومِخْلَبُ

وما صِينَ حقٌّ لا سلاحَ لِرَبِّهِ ... وأضعفُ أنواعِ السلاحِ التَّأَدُّبُ

ولولا نيوبُ الأُسْدِ كانتْ ذليلةً ... تُسَاطُ، وتَعْنُو للشَّكيمِ، وتُرْكَبُ

تساط: تضرب بالسوط، تعنو: تخضع، الشكيم: الحديدة في فم الحصان

وكَمْ ظالمٍ يستعبدُ الناسَ عَنْوَةً ... وحُجَّتُهُ الكبرى الحسامُ المُشطَّبُ

المشطب: المحزز بخطوط طولية، وكانوا يستجيدونه

أقولُ لِنفسي كلَّما عضَّها الأذى ... فآلَمَها: صَبراً! ففي الصبرِ مَكْسَبُ

لئنْ كانَ صعباً حملُكِ الهمَّ والأذى ... فَحَمْلُكِ مَنَّ الناسِ لا شَكَّ أصعبُ

فلولا إباءٌ مازَجَ الطبعَ لم يكُنْ ... لِمِثلي مجيءٌ في البَراري ومَذْهَبُ

ولولا رَجائي أن تَظَلِّي بعيدةً ... عنِ الظُّلمِ لم يُوطَأْ بِرِجْلَيَّ سَبْسَبُ

سبسب: صحراء

فلا تَعْذُلِي صَحْباً دَرَوْا بي، وما عُنُوا ... بِأَمْري، فَهُمْ مِنِّي إلى الفقرِ أقربُ

ولا تَأْمُلِي مِنْ غيرِ صَحْبِي معونَةً ... فَما تُخْصِبُ الكَفَّانِ والقَلْبُ مُجْدِبُ

ولا تَرتَجي الإخلاصَ مِنْ كلِّ باسِمٍ ... ففي الباسِمِينَ المُبْغِضُ المُتَحَبِّبُ

ولو كانَ كلُّ المُظْهِرينَ لِيَ الوَفا ... وَفِيِّينَ، لم يُعْجِزْكِ يا نَفْسُ مَطْلَبُ

عَتَبْتُ على ناسٍ أضاعُوا مودَّتي ... وكلُّ كريمٍ خانَهُ الصَّحْبُ يَعْتَبُ

فقد زعموا أنِّي هجوْتُ حَبيبَهُمْ ... وأنِّي سأهجُو غيرَه حينَ أَخْطُبُ

ولستُ بهَجَّاءٍ، ولكِنَّهُ الهَوى ... إذا قاد نفسَ المرءِ، فالنُّورُ غَيْهَبُ

أنا مَنْ يَرَى أنَّ الرِّيَاءَ مَعَرَّةٌ ... وأنَّ خبيثَ القولِ في الصدقِ طَيِّبُ

وما أنَا إلَّا كالزَّمانِ وأهلِهِ ... أَعافُ وأَسْتَحْلي وأَرضى وأغضبُ

فأيُّ هجاءٍ في مَقالِي لِعَقْرَبٍ ... لَهَا وَلَعٌ بالشَّرِّ إنَّكِ عَقْرَبُ

أَذَنْبٌ إذا سَمَّى الفَتى الشيءَ باسْمِهِ ... إذن ربُّكَ المُوحي لِآدَمَ مُذْنِبُ

إشارة إلى ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١]

فَيَا نفسُ إلَّا أنتِ مَا لَكِ؛ واعلمي ... بِأَنْ كلُّ بَرْقٍ، غَيْرَ بَرْقِكِ، خُلَّبُ

خُلَّب: كاذب، لا يأتي بمطر

تَعِبْتِ إذا استنظَرْتِ خيراً مِنَ الورى ... ومُسْتَقْطِرُ السَّلوَى مِنَ الصَّابِ يَتْعَبُ

السلوى: طعام حلو، الصاب: شجر عصارته مُرَّة

٣٦ مدح المدح

لا تَعْذُلَنَّ على المَدائِحِ إنْ تَكُنْ ... تَجْني ثمارَ الخيرِ مِنْ كَلِمَاتِها

إنَّ المديحَ على الفضائلِ مُكْثِرٌ ... مِنْها، مُقِلٌّ مِنْ عَديدِ عُدَاتِها

مدح الفضائل يكثِّرها، ويقلل من أعدائها العديدين

وإذا الكريمَ مدحتَهُ بِقَصيدةٍ ... قَرَأَ اللئيمُ الذَّمَّ في أبياتِهَا

فامْدَحْ كرامَ النَّاسِ مغتبِطاً، وَدَعْ ... زُمَرَ اللئامِ تموتُ في حَسَراتِها

٣٧ ميسلون المنارة

قولُوا لِغورُو، كُلَّمَا لَمَعَتْ ... أَزْرارُهُ فاختَالَ وابْتَسَما:

الأزرار المذهبة لبزته العسكرية تلمع

إن الذينَ ذَبَحْتَهُمْ تَركُوا ... ذِكْراً يُجَدَّدُ كلَّما قَدُمَا

مَـجْـدُ الـشَّـآمِ بِـمَـيْـسَـلـونَ غَـدَا غَـرْسـاً سَـقَـوْهُ دِمـاءَهُـمْ فَـنَـمـا

ولَـسَـوفَ تُـبْـصِـرُ فـي الـقـريـبِ لـهُ ظِـلاً يَـعُـمُّ الـعُـرْبَ والـعَـجَـمَـا

كانت لبطل ميسلون يوسف العظمة بصيرة، وكان مقداماً، ومستعداً للتضحية. أصر على أن يخرج للقاء الفرنسيين المدججين بدباباتهم، وهو في عسكر ضعيف. وكانت حجته بيت المتنبي: لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى/حتى يراق على جوانبه الدم، قيل إنه تمثل بهذا البيت عند الملك فيصل المتردد في شأن مواجهة الفرنسيين. وأثخن الفرنسيون في جند العظمة في ميسلون، واستشهد. ولكن فكرة العروبة رسخت في أرض الشام رسوخاً، وغدت العروبة ديناً لأهل الشام، يعبر عنه الشعراء والمسرحيون والسياسيون، ولا يجرؤ أحد على مخالفته. كان لوقفة يوسف العظمة أثر كبير في اعتزاز الناس بعروبتهم وبأصلهم وباستقلال بلدهم، وبرفض المحتل

٣٨ من أخمص البحر حتى مفرِق الجبل

دارَ العُروبةِ، دارَ الحُبِّ والغَزَلِ! هاجَرْتُ منكِ، وقلبي فيكِ لم يَزَلِ

لا تَـخْـدَعَـنَّـكِ أصـواتٌ يُـكَـبِّـرُهَـا بُـوقُ الغـريـبِ لِغَـدْرٍ بِـالـوَفـاءِ طُـلـي

بوق الغريب: العرب الذين يروجون أفكار المحتل الفرنسي في لبنان وسورية

إنَّ الـعـروبَـةَ فـي لُـبـنـانَ سـائِـدَةٌ مِنْ أخمَصِ البَحْرِ حتَّى مَفْرِقِ الجَبَلِ

فَلْيَنْظُرِ الناسُ: هَلْ مِنْ أُمَّةٍ فَعَلَتْ لِلْمَجْدِ فِعْلَ رُعَاةِ الشَّاءِ والإبِلِ

في بـضـعَـةٍ مِـنْ عُـقـودٍ غيـرِ بَـالِـغَـةٍ قَـرْنـاً تَـتَـوَّجَـتِ الـغَـبـراءُ بِـالـعُـقُـلِ

الغبراء: الأرض، العقل: جمع عقال وهو هالة الكوفية، ففي أقلَّ مِن قرن حكم العرب المسلمون بلاداً شاسعة

سَلْ عَنْ معارِفِهِمْ في كلِّ مَسألةٍ أمَّا عنِ الأدبِ السَّامي، فلا تَسَلِ

هُمْ صاحِبُوهُ، وهُمْ أربابُ دولَتِه في العصرِ هَذا، وما وَلَّى، وسَوْفَ يَلي

إرثٌ، لَـعَـمْـرُكَ مـا كِـدْنَـا نَـعِـزُّ بِـه حتَّى أَضَعْنَاهُ بـالإهـمـالِ والكَسَلِ

٣٩ الحاكم والعمامة

إذا مَلِكٌ لـم يـدْعَـمِ الـعـلـمُ مُـلْـكَـهُ فـلـيـسَ بِـمُـغْـنٍ عـنـه أنْ يَـتَـعَـمَّـمـا

تَـوَهَّـمَ أنَّ الـديـنَ إرسـالُ لِـحْـيَـةٍ فَـأَضْـحَـكَ ربَّ الـديـنِ مِـمَّـا تَـوَهَّـمـا

هَنِيئاً لِشَعْبٍ نَاهضٍ أَغْضَبَ اللِّحى عـلـى أنَّـه أرْضـى الـنَّـبـيَّ الـمـعـظَّـمَـا

وأَشْـفَـقَ أنْ يـقـتـادَهُ مُـتـعـصِّـبٌ يُـعَـوِّجُ مِـنْ أخـلاقِـهِ مـا تَـقَـوَّمَـا

إذا الدينُ ماشَى العلمَ كان قِلادَةً فإنْ عاقَهُ عنْ سيرِهِ كانَ أَدْهَما

الأدهم: القيد

إذا الشيخُ والقِسِّيسُ لم يُكْرِمَا الحِجَا وأحكامَهُ فَلْيبرأِ الدِّينُ مِنْهُما

الحجا: العقل

إذا أنتَ أَدَّيْتَ الفرائضَ كلَّها ولم تَحْوِ حُسْنَ الخُلْقِ، لم تَكُ مُسْلِمَا

سلامٌ على الإسلامِ أيامَ مجدِهِ طويلٌ عريضٌ يَغْمُرُ الأرضَ والسَّمَا

نَغارُ على الإسلامِ حتَّى كأنَّنا بَنُوه، ونَأْبى أنْ نَراهُ مُهَشَّمَا

وهل هَشَّم الإسلامَ إلَّا شيوخُهُ وهلْ غيرُهُمْ يَبْغي لهُ الجَهْلَ مَرْهَمَا

وهلْ غَيْرُ خُدَّامِ الدياناتِ زمرةً تَرَى في خَسَارِ الشَّعْبِ كَسْباً ومَغْنَما

وسَدُّوا طَريقَ الفِكْرِ عنْ كلِّ مؤمنٍ وأَلْقَوْا نَسيجَاً فوقَ عينيهِ أَقْتَما

يَخَافُ إذا مَرَّ النعاسُ بِجَفنِهِ بِغَيْرِ رِضاهُمْ أنْ ينامَ فَيَأْثَما

ويَخْشَى إذا لم يُرْضِهِمْ شَكْلُ ثوبِهِ ولونُ حِذائَيْهِ عَذَابَ جَهنَّما

يبالغ رجال الدين في التدخل في يوميات المؤمن، ويبالغ المؤمن في طلب فتاواهم في كل ما يعرض له من شؤون حياته

ومِنْ نَكَباتِ الدَّهْرِ أنَّ نفوذَهُمْ يَعُمُّ عديمَ العلْمِ والمُتَعَلِّمَا

وأَكْبَرُ مِنْ كُبرى البَلِيَّاتِ حاكِمٌ إذا هلَّ شهرُ الصَّوْمِ صامَ وصَوَّمَا

فلمْ يُبْقِ في كلِّ المدينةِ حانَةً ولم يُبْقِ في كلِّ المدينةِ مَطعَمَا

تَغَرَّبْ تجدْ في الغربِ في كُلِّ مَحْفِلٍ أَوانِسَ يَفْضَحْنَ الجُمَانَ المنظَّمَا

الجمان المنظم: اللؤلؤ المنظوم عقداً

وإنْ يَكُ بَيْنَ السافراتِ فَوَاجِرٌ فَفيهنَّ مَنْ يَحكينَ بِالطُّهْرِ مَرْيَما

يحكين: يشبهن

وليسَ حجابُ الوجهِ إلَّا سخافةً تَعلَّمَها الإنسانُ، فيما تَعَلَّما

سَرَتْ سَرَيانَ الداءِ، والداءُ مُعْضِلٌ إذا لم يُعَاجَلْ بالدَّواءِ تَحَكَّما

فَذَنْبُ (أَمَانِ اللَّهِ) لا في اقتلاعِهَا ولكنَّه في طيشِه حينَ أَقدَمَا

أمان الله ملك الأفغان، سقط عن عرشه (في ١٩٢٩) لسياساته المتحررة في مسائل المرأة والمجتمع والدين

تـعـجَّـلَ أمـراً شـاءَهُ، غـيـرَ آبِـهٍ ... لِعَاداتِ شَعْبٍ بعضُها خالَطَ الدَّمَا

وَمَنْ سَدَّ مجرىَ النهرِ يوماً، ولم يَكُنْ ... أَعَـدَّ لـهُ مـجـرىً جـديـداً، تَـنَـدَّمـا

وكـلُّ بِـنَـاءٍ لـم يُـؤَسِّـسْـهُ رَبُّـهُ ... على صَخْرَةِ العلمِ الصحيحِ تَهَدَّمَا

ربه: صاحبه

٤٠ تأبين الحسين بن علي

قال فرحات في حفل أقيم، لتأبين الحسين بن علي شريف مكة، في ساو باولو ١٩٣١:

أُمَّـةُ الـعُـرْبِ، أمـةُ الـقـدسِ تَـبْـغـي ... نـورَ وجـهِ الـحـسـيـنِ قـبـلَ غـيـابِـهْ

فـالـتَقَـتْ عـنـدَ نـعـشِـه، وَهْـيَ كـانـتْ ... فـي الـمُـلِـمَّـاتِ تَـلْـتـقـي عـنـدَ بـابِـهْ

الملمات: المصاعب

ذلـكَ الـتـاجُ كـانَ قِـشْـرَةَ مـجـدٍ ... لا تُـريـدُ الأحـرارُ غـيـرَ لُـبَـابِـهْ

ذلك التاج كان مجرد رمز، والأحرار يريدون لبابه (جوهره)

إنَّـمـا يَـغـضَـبُ الـوَفِـيُّ لِـغَـدْرٍ ... قـد تَـوالَـى عـلـيـهِ مِـنْ أصـحـابِـهْ

عـاهَـدُوهُ، ولـم يَـفُـوا وَهْـوَ مِـمَّـنْ ... نَـزَّهَ الـعـهـدَ جَـدُّهُـمْ فـي كـتـابِـهْ

الإنجليز عاهدوا الحسين على تأسيس دولة عربية يملكها، وهو رجل كان جده (الرسول) قد نزه العهد (جعله منزهاً عن النكث) في كتابه (القرآن)

٤١ يا رسول الله

قال فرحات في عيد المولد النبوي:

بـيـنـمـا الـكـونُ ظـلامٌ دامـسٌ ... فُـتِـحَـتْ فـي مَـكَّـةٍ لـلـنُّـورِ كُـوَّةْ

إنَّ فـي الإسـلامِ لِـلْـعُـرْبِ عُـلَـىً ... إنَّ فـي الإسـلامِ لـلـنَّـاسِ أُخُـوَّةْ

فـادْرُسِ الإسـلامَ يـا جـاهِـلَـهُ ... تَـلْـقَ بـطـشَ الـلَّـهِ فـيـهِ وحُـنُـوَّهْ

يـا رسـولَ الـلَّـهِ! إنَّـا أمَّـةٌ ... زَجَّـهـا الـتَّـضـلـيـلُ في أعـمَـقِ هُـوَّةْ

ذلـكَ الـجـهـلُ الـذي حـاربْـتَـهُ ... لـم يـزلْ يُـظْـهِـرُ لـلـشـرقِ عُـتُـوَّهْ

قُـلْ لأتـبـاعِـكَ: صَـلُّـوا وادرُسُـوا ... إنَّـمـا الـدِّيـنُ هـدىً والـعـلـمُ قُـوَّةْ

٤٢ قل هنَّ، والتزم الأدب

قُلْ: هُنَّ، والتزِمِ الأَدَبْ ... وابْعُدْ بِهِنَّ عَنِ الرِّيَبْ
وهِبَاتُ رَبِّكَ لا تُعَدُّ ... وَهُنَّ أَحْسَنُ ما وَهَبْ
لِلغيدِ ما احتَمَلَ الرِّجَا ... لُ مِنَ المتاعبِ والكُرَبْ
وَلَهُنَّ ما كَسَبَ ابنُ آ ... دَمَ بالحلالِ، ومَا نَهَبْ
ولأَجْلِهِنَّ تَسيلُ أَنْـ ... ـهارُ الدِّماءِ على الذَّهَبْ
لو لم يَكُنَّ على الثَّرى ... لا الفَنُّ كانَ، ولا الأدبْ
يَغضَبنَ للسَّبَبِ الطَّفيـ ... ـفِ، وكم غضِبْنَ بِلا سَبَبْ
ولَهُنَّ سلطانُ الجَما ... لِ، على الرِّضَى ومَعَ الغَضَبْ

٤٣ صور على الجدران

أشقَى النساءِ على الثرى أُمٌّ قَضَتْ ... أيامَها في وَحْدَةِ النُّسَّاكِ
أبناؤُها مَلأُوا البُيوتَ، وبيتُها ... خَالٍ مِنَ الحُدَّاثِ والضُحَّاكِ

الحداث: المتحدثون، والحداث كلمة اخترعها المتنبي (فما يُفهِمُ الحدَّاثَ إلا التراجم)، واقرأ القصيدة المقبلة ففيها رأي فرحات في اختراع المتنبي للألفاظ

سُحِرُوا بِمَزْعومِ الغِنَى، فَتَحَوَّلوا ... صَوُراً على الجُدْرَانِ دونَ حَراكِ

تحول أبناؤها إلى مجرد صور معلقة على جدران بيتها، فقد هاجروا جميعاً ولم تبق إلا صورهم. هذا طيب الطيب كله.. بيت بديع

وتُسَائِلُ الأَقْمَارَ: أينَ مَحَلُّهُمْ؟ ... ومتَى يكونُ مِنَ الإِسَارِ فِكَاكي
رَكِبُوا الخِضَمَّ إلى النُّضارِ فَلَيْتَني ... أَلْقَيْتُ نفسي فيهِ للأسماكِ

الخضم: البحر، النضار: الذهب

وقَضَتْ مُلَوَّعَةَ الفؤادِ، وعَيْنُها ... تَجْتَالُ بينَ البابِ والشُّبَّاكِ
أُمَّاهُ! ليسَ على الغريبِ مَلامَةٌ ... بعضُ الذي يَدْهَى الغريبَ دَهَاكِ
شِبْنَا، وغَيَّرتِ الخطوبُ وجوهَنَا ... وتعَكَّرَ الصَّافي، وحَالَ الزَّاكي

حال: تحول، الزاكي: الطيب

لم يبقَ فينَا مِنْ طفولتِنَا سِوى ... وَمَضاتِ برقٍ مِنْ شعاعِ هُدَاكِ

رَبَّيْتِنا عَرَباً، وحولَكِ نِسْوَةٌ أُوْلِعْنَ بالإفرنْجِ والأتراكِ

٤٤ سلطان الشعراء

قال فرحات، في ألفية أبي الطيب المتنبي ١٩٣٥:

أبو الطَّيِّبِ الكاسي المعاني بِلَفْظِهِ كما كَسَتِ الغيدَ الشُّفُوفُ النَّواعِمُ

الشفوف: الملابس الرقيقة

لهُ السُّلْطَةُ العليا على كلِّ شاعِرٍ فلا يَدَّعِ التَّجديدَ في الشِّعْرِ ناظِمُ

لقدْ بَلَّغَتْهُ السَّبْقَ في حَلْبَةِ النُّهَى جِيَادُ قَوافٍ ما لَهُنَّ شَكَائِمُ

أمكنته من السبق في حلبة النهى (العقل) خيول من القوافي ليس لها شكائم (حدائد فم الفرس)

مَتَى تَلْقَ فيها مَنْطِقاً غَيْرَ جائِزٍ فَجَوِّزْهُ، وَلْتَلْقَ اللهيبَ المعاجِمُ

منطقاً: نُطقاً وكلاماً. إذا لقيت لفظة عند المتنبي لا يجيزها المعجم، فاعتبرها صحيحة وإلى النار بكل المعاجم

هُوَ المَنْجَمُ المُعْيِي اللُّصوصَ نَفَادُهُ وكم نَفِدَتْ مِنْ ألفِ عامٍ مَناجِمُ

المعيي: المعجز، نفاده: انتهاء مادته

يُجَدِّدُ، ما كَرَّ الزمانُ، شبابَهُ وتُنْسَخُ أقوالُ الوَرَى، وهو دَائِمُ

تُنسخ: تُلغى

كأَنَّكَ مِنْهُ في مَغَاوِرِ جِنَّةٍ على كلِّ بابٍ لِلمَعاني طَلاسِمُ

الجِنَّة: الجنّ

متَى مَا تَلِجْ بَاباً بَدا لَكَ غيرُهُ وبَانَتْ سَرادِيبٌ، ولاحتْ مَعَالِمُ

أَنَطْمَعُ أنْ نَرْقَى إليكَ بَلاغَةً وجَوُّكَ جَوٌّ تَتَّقيهِ القَشَاعِمُ

القشاعم: النسور

وما وحْدَهُ الجاني علينَا، وإنَّما خَوَافٍ لنا مَنْتَوفَةٌ، وقَوادِمُ

الجاني علينا، فلا نلحق، ليس عظمة المتنبي فحسب، بل لأن لنا خوافيَ (الريش المستور داخل الجناح) وقوادم (الريش الظاهر) منتوفة.. أي أن حصيلتنا من اللغة والتألق ضعيفة

وهَلْ يستقيمُ النظْمُ والنثْرُ لامْرِئٍ يَبيعُ ويَشْري، مُرْغَماً، ويُساوِمُ

ممارسة التجارة سبب خمولنا في الشعر

٤٥ رفقاً فديتك في ضمي وتقبيلي

أَفدي بِروحيِ التي زارتْ، وما سَأَلتْ عمَّا سيحدُثُ، مِنْ قالٍ ومِنْ قِيلِ

سَدَّ الهوى أُذُنيْها، وَهْوَ يدفعُها إلَيَّ عنْ كلِّ تَحريمٍ وتحليلِ

وَلْهَى تقولُ، وقد طوَّقْتُها بِيَدي: رِفقاً، فَدَيْتُكَ، في ضَمِّي وتَقبيلي

أَزَلْتَ تَجميلَ وَجهي، قُلْتُ: إنَّ لَفي هذا الجمالِ غنىً عنْ كلِّ تجميلِ

وما اكْتِحالُكِ! والألحاظُ فاتِكَةٌ تَرنُو فتَرمي فتُصْمي دونَ تَكحيلِ؟

ترنو: تنظر، ترمي: تطلق سهامها، تصمي: تصيب

ما كانَ أَنْضَبَ عَيْشي قبلَ أنْ رَتَعَتْ عيناي مِنْكِ بِريفِ الحُسْنِ والنِّيلِ

وقد جمع المتنبي بين «الريف» و«النيل» في بيته: (من عبيدي إن عشت لي ألف كافو/رٍ، ولي من نداك ريف ونيل)، فصارت الكلمتان بمثابة «تعبير» أدبي يشير إلى منتهى النعمة

إنِّي لأنظِمُ شِعراً فيكِ، تَنْقُلُه عَنِّي الخلائقُ مِنْ جيلٍ إلى جيلِ

حُبِّيكِ دِيني، وشِعْري فيكِ أَنْزَلَهُ ربُّ الجمالِ ليُتْلَى كالأناجيلِ

٤٦ غريبات اللسان

بكيتُ فقالَ أصحابي: أَتبكي؟ فقلتُ مضَى الشبابُ، فَهَلْ أُغَنِّي؟

بِأَيٍّ وسيلةٍ أُرضي الغَواني وشِعْري عِندهُنَّ عَزيفُ جِنٍّ

العزيف: صوت الريح، وصوت ما كانوا يتخيلون أنه الجن. يقول: هنَّ لا يفهمن شعره لأنهن برازيليات

غَريباتُ اللسانِ، يَرَيْنَ شَكْلي وليسَ يَرَيْنَ مَعْرِفتي وفَنِّي

يُرِقْنَ على أديمِ الأرضِ خَمري إذا لم يُرْضِهِنَّ جمالُ دَنِّي

تريق الحسان البرازيليات على أديم (وجه) الأرض خمري، عندما يرين دنّي فلا يرضيهن. يقول: هن لا يعرفن حقيقتي بل يرين شكلي فقط

٤٧ أشهى الثمار

قلتُ والغِيدُ قد مَرَرْنَ: ألا انْظُرْ إنَّ أشهَى الثِّمارِ هَذي النُّهودُ

لو خَلَتْ جَنَّةُ الإلهِ مِنَ الحُو رِ لَمَا ماتَ في الجِهادِ شهيدُ

٤٨ تكافؤ الفرص

نريدُ، لِكَيْ نَمْشِي مَعَ الناسِ، دولةً ... مُوَطَّدَةً، بِالعدلِ تَنمُو وتَحْتَمِي

فَلا مُؤْمنٌ يمشي على حَقِّ كافرٍ ... ولا مسلمٌ يعلُو على غيرِ مسلمِ

ولا مَنصِبٌ حِلٌّ لأبناءِ مِلَّةٍ ... ومَنْ يَبْغِهِ مِنْ سائرِ الناسِ يَأْثمِ

إذا لم يكنْ لي مِنْ أبي مَا لإخْوَتي ... وقَاسى عذابَ الموتِ لم أَتَرَحَّمِ

وما بيَ أَطماعٌ أثارتْ تَأَلُّمي ... ولكنَّ حِرماني مُثيرٌ تَأَلُّمي

يَقيناً لَوَ انَّ اللَّهَ لم يَنْهَ آدماً ... لمَا هَزَّهُ شوقٌ لِأَكْلِ المُحَرَّمِ

٤٩ الأَسطُرلاب

لَهَفِي على عهدِ الصِّبا، لم يَبقَ لي ... منهُ سوى أُمنِيَّةِ المُتَصابي

وغَدا الحسانُ، إذا جلسْنَ إلى الهوى ... بينَ الخمائلِ، ما حَسَبْنَ حِسَابي

هُنَّ النجومُ، ورصْدُهُنَّ لُبَانَتِي، ... أَنَّى اتَّجَهْنَ أَدرْتُ أَسْطُرْلابي

لبانتي: بغيتي

٥٠ لا شكرَ لمأمور

رأيتُ النَّحْلَ ما ينفكُّـ ... بالأزهارِ مُهْتَمَّا

فَمَنْ عَلَّمَهُ التَّوْفيـ ... ـرَ، والبخلَ بِمَا لَمَّا

لَمَّ: جَمَعَ

ومَنْ حَوَّلَ بعضَ الشَّهْـ ... ـدِ في إبرَتِهِ سُمَّا

هُوَ ابنُ الفِطْرَةِ المضطَرُّ ... أنْ يحترمَ الأُمَّا

فلا تَمْدَحْ إذا سَرَّ ... ولا تَشْتُمْ إذا غَمَّا

فَما يَستأهِلُ المأمُو ... رُ لا مَدْحاً، ولا ذَمَّا

٥١ الجود بالموجود

وليسَ فَقْرِيَ طِفْلاً عُمْرُهُ سَنَةٌ ... لكنَّهُ تَوْأَمِي، لَمَّا نَمَوْتُ نَمَا

وإنَّ ربَّةَ بيتي غيرُ مُذْنِبةٍ ... ما ذنبُها، وأَنَا عوَّدْتُها الكَرَما

لا ذنبَ إلَّا على كَفٍّ بُلِيتُ بِهَا إنْ تَأخُذِ النَّيلَ تُعْطِ النِّيلَ والهَرَما

أي أن كفه سخية، إن نالت من المال شيئاً أعطت الآخرين أكثر منه

٥٢ التظاهر بالتقى

قال فرحات، يداعب صديقه الخوري جورج قصاص، وكسرت رجله:

أَكَسَرْتَها! وَهِيَ التي حَمَلَتْكَ مِنْ عهدِ الفِطامْ

وتَحَمَّلَتْ، قبل احتِلا مِكَ، مِنْكَ شَيْطَنَةَ الغُلامْ

ومَشَتْ، وأنتَ فتىً، بِطَيْـ ـشِكَ في سَراديبِ الغَرامْ

ثَقُلَتْ عليها جُبَّةٌ لَو جَلَّلَتْ جَمَلاً لَنَامْ

نُشِرَتْ عليها لِحْيَةٌ شَمطاءُ تَضْحَكُ في الظلامْ

الشمطاء: التي اختلط بياض شعرها بسواده، وعلى هذا فالعجوز الشمطاء ليست الطاعنة في السن بل المرأة التي في سن الأربعين مثلاً، على كل حال الصبغة غيرت كل شيء

وَلَهَانَ حَمْلُ النَّكْبَتَيـ ـنِ لَوَ انَّهُ مِسْكُ الخِتامْ

ولهان (كان يهون) حمل الجبة واللحية لو وقف الأمر عند هذا الحد

إن التَّظاهُرَ بالتُّقَى كافٍ لِتَحْطيمِ العِظامْ

٥٣ جميلة والكهل

وَمَهما يُحِطْ بي مِنْ سرورٍ وغِبْطَةٍ يَظَلُّ لهيبُ الوجدِ لِلقلبِ كاوِيَا

فلَوْ جِئْتُ أبغي حاجةً عندَ غادةٍ لَقالتْ ليَ: ارجِعْ حيثُما كنتَ ثَاوِيَا

ثاوياً: مقيماً

أَضَعْتَ لدى غيري شَباباً أَظُنُّهُ، لِمَا فيكَ مِنْ آثارِهِ، كان بَاهِيا

وما جئتَني إلَّا بِشَيْبٍ وصَلْعَةٍ لِتَأخُذَ ما لم تُعْطِ إذْ كنتَ غَانِيَا

غانياً: متحلياً بالجمال

٥٤ كل شيء حلو في أوانه

وإنـي لَيُزْعِجُني نَاشِئٌ يُفَكِّرُ كَالهَرِمِ الأَدْرَدِ

الأدرد: الفاقد الأسنان

وأَحْسَبُ أنَّ الحِجَا في الصِّبَا رِدَاءٌ كبيرٌ على المُرْتَدي

الحجا: العقل

ولا بُدَّ لِلمرْءِ مِنْ ضِلَّةٍ مَتَى تَأْتِ في وقْتِها تُحْمَدِ

ضلة: ضلال

٥٥ الشعر الواضح

إنَّ شِعري لَصُورةٌ لِحَياتي لا غموضٌ فيهِ، ولا تَعقيدُ
لا كَشِعْرٍ يُذِيبُ قارِئُهُ المُخَّ- لِيَدْري مَنْ قالَهُ مَا يُرِيدُ

إعادة تركيب كلمات البيت: لا كشعر يذيب قارئه المخ ليدري ما الذي يريده الذي قال الشعر

٥٦ لبنان والشام

ما جاءَ لبنانٌ وفي سورِيَّةٍ خبزٌ، ولَنْ يَعْرَى وفيها مَلْبَسُ
لبنانُ في دِينِ العروبةِ مَذْهَبٌ أمَّا العروبةُ فَهْيِ دِينٌ أَقْدَسُ
لبنانُ في عِقْدِ العروبةِ دُرَّةٌ فَهْوَ النفيسُ لَدَيَّ، وَهْيَ الأَنْفَسُ
أَعَلى الدِّمَشْقِيينَ في بيروتَ أَنْ يَتَحَمَّلوُا التَّعْبِيرَ، أو يَتَجَنَّسُوا؟
هذا اختراعُ الآكِلينَ إلهَهُمْ قامتْ تُؤَيِّدُهُ عجوزٌ مُومِسُ

هذه العجوز هي فرنسا المحتلة

نَفَخَتْ بِهِمْ روحَ العَداءِ لِيَعْرُبٍ فَتَفَيْنَقُوا في ظلِّها، وتَفَرْنَسُوا

٥٧ نار في الرأس وإعصار

أغارَ الشَّيْبُ والصَّلَعُ عليَّ، فَهَدَّني الجَزَعُ
هُما كالنارِ والإعصا رِ: لا تُبْقي، ولا يَدَعُ
فَتُحْرِقُ كَيفَما اندلَعَتْ، وحيثُ يهبُّ يَقْتَلِعُ
أضاءَ الجِلْدُ مذْ أَخَذَتْ دَيَاجي الشَّعْرِ تَنْقَشِعُ

دياجي: ظلمات.. يعني الشعر الأسود

وما زالتْ تَضِيقُ الوَا حُ، والصَّحْراءُ تَتَّسِعُ

الواح: الواحات، الصحراء: الصلعة التي تجلل رأسه

٥٨ قلوبنا معك

قال فرحات، في وداع صديق:

يـا مَـنْ يُـفـارِقُـنـا، ويَـأْ خُـذُ، فـي حـقـيـبَـتِـه، الـقُـلـوبـا
خُـذْهـا، فـإنْ بَـقِـيَـتْ وأنْـ ـتَ مـضـيْـتَ نَـخْـشَـى أنْ تَـذُوبَـا

٥٩ الثأر نضالاً

قال فرحات، في نكبة فلسطين:

قـلْ لِـلْـمُـغِـيـرِ عـلـى مَـنـازِلِـنـا كـالـسَّـيْـلِ يَـنْـفُـذُ، مِـنْ هُـنـا وَهُـنـا
حَـمَّـلْـتَ نـفـسَـكَ فـوقَ طـاقَـتِـهـا ورَكِـبْـتَ وَيْـحَـكَ مَـرْكَـبـاً خَـشِـنَـا
إنْ لـم يَـكُـنْ زَمَـنٌ يُـوافِـقُـنَـا لِـلـثَّـأْرِ مِـنْـكَ، سَـنَـخْـلُـقُ الـزَّمَـنـا
دُقُّـوا وغَـنُّـوا فـي مَـآتِـمِـنَـا لَـكُـمُ الـبَـدَاءَةُ، والـخِـتـامُ لَـنَـا

٦٠ السيوف الصدئة

ومـاذا نُـرَجِّـي مِـنْ سُـيـوفٍ كـثـيـرةٍ يَـمانِـيَّـةٍ، لـكـنْ تَـأَكَّـلَـهَـا الـصَّـدَا
مُـلـوكٌ ظَـنَـنَّـاهُـمْ صُـقـوراً، وعِـنـدمـا غُـزِيـنا رأَيْـنَـا صـاحِـبَ الـتـاجِ هُـدْهُـدا
لَهَوْا عنْ عِصَاباتِ العِدَى باخْتِلافِهِمْ فكانوا على الأوطانِ شَرّاً مِنَ العِدَى
وراحـوا يَـحُـلُّـونَ الـقَـضـايـا كـأَنَّـهُـمْ يَحُلُّونَ في الظلماءِ خَيْطاً مُعَقَّدا
وأَنَّى يَحُلُّ الحِقْدَ والجهلَ والهوى جِدالٌ عقيمٌ ينتهي مِثْلَما ابْتَدا
مَـطـامِـعُ أفـرادٍ بِـمِـيـراثِ أمَّـةٍ مـبـعـثـرةٍ، يَـخْـشَـوْنَ أنْ تَـتَـوَحَّـدا

٦١ دهاء المصفقين

أَيَـرُدُّ عَـزْمُـكُـمُ الـحـقـوقَ لأهـلِـهـا فَـتَـرى لَـكُـمْ فـوقَ الـلـواءِ لِـوَاءَ؟
ونَـرى فـلـسـطـيـنَ الأسـيـرةَ حُـرَّةً تـمـشـي، وتـرفَـعُ رأسَـهـا خُـيَـلاءَ
هَـذِي وذاكَ لَـنَـا، ولـم نَـخْـسَـرْهُـمَـا لـو أنَّ فـي بَـعْـضِ الـوجـوهِ حَـيـاءَ

لم نخسر الحقوق ولا اللواء

أرأَيْـتُـمُ الـزُّعَـمـاءَ كـيـفَ تـخـاذَلـوا أرأَيـتُـمُ الأقـيَـالَ والأُمَـراءَ

الأقيال: الملوك

يـتَـزاءَرُونَ كـأنَّـهُـمْ أُسْـدٌ، فَـإِنْ لـمحوُا العِدَى انقَلَبَ الزئيرُ مُوَاءَ
كَثُرَ الـمـلوكُ، فـكلُّ مَنْطِقِة لَـها مَـلِـكٌ يُـقِـيـمُ الـجـنـدَ والـوُزَراءَ
والـكـائِـدونَ لَـنَـا يَـرَوْنَ هـلاكَـنـا بِـعِـثـارِهِ، فـيُـصَـفِّـقُـونَ دَهَـاءَ

٦٢ الاستخفاف بالخليع

لبنانُ، يا وطني! فديتُكَ مَوْطِناً مُضْنىً يَصُدُّ عَنِ الدَّوَاءِ الشَّافي
إني أرَى، يا «مَصْدَرَ الإشعاعِ»، في دَعْـوَاكَ ألـوانـاً مِـنَ الإسـرافِ

أكثر الداعون إلى استقلالية لبنان من وصفه بأنه مصدر الإشعاع في الشرق

لبنانُ، إنْ تُرْضِ العروبةَ كانَ لي في القولِ فيكَ مِنَ النجوم قَوَافِ
يا شيخُ! ما لَكَ، والثلوجُ كثيفةٌ حِرْزٌ سوى هـذا الـفِرَاشِ الـدَّافي
القلبُ أنتَ، وما شِغَافُكَ غَيْرَها أَرَأَى امْـرُؤٌ قـلْـبـاً بِـغَـيْـرِ شِـغَـافِ

الشغاف: الغشاء المحيط بالقلب، ولبنان هو القلب وشغافه العروبة

والعُرْبُ أهلُكَ، لن يُقابَلَ مُعْرِضٌ عـنْ أهـلِـهِ إلَّا بـالاسْـتِـخْـفَـافِ
ما أنـتَ إلَّا هُـمْ، فَـهُـمْ لَـكَ مَـعْـدِنٌ هَـذي الـرِّيَـاضُ أصولُـهُـنَّ فَـيَـافِ

فيافٍ: صحارى

والتَّمْرُ في أَعْلى النَّخِيلِ مُنَاخُهُ وحَـيَـاتُـهُ بـالـجَـذْرِ والألْـيـافِ

مناخه: موضعه

٦٣ ذات المسامير

دعَوْتُها في ضُحَى «مِيدي» لِنَهرُبَ مِنْ أمِّ الضَّجيجِ إلى إحدى ضَواحيِها
ثـم انـتـهـيـنـا إلـى كـوخٍ، مـوائـدُه تشكو الفراغَ، ويشكو الجوعَ آتِيها
طابَ الجلوسُ، وطابتْ ثَمَّ مَأْدُبةٌ مـا فـي الـمـآدبِ طُرّاً ما يُحاكِيها

ثَمَّ: هناك، طراً: جميعاً، يحاكيها: يشبهها

شَطيرتانِ، وكأسانِ ارْتَوَى بِهِمَا قَلبانِ ما عَرَفا في العيشِ تَمْويها
على خِوَانٍ غليظِ الوجهِ مُتَّسِخٍ والساقُ مَشْلولةٌ أَعْيَتْ مُدَاويها

خوان: منضدة، ويبدو أن تلك المنضدة كانت ككل المناضد في كل متنزهات الدنيا: فيها رجل مشلولة يتعب المتنزهون في مداواتها بقطع مطوية من الورق المقوى

إذا اتَّكَأتَ عليهِ مالَ، فانقلبتْ عنهُ الزُّجاجةُ، يجري الماءُ مِنْ فِيها
تبدُو مساميرُه السوداءُ بارزةً في وجهِه، فتزيدُ الوجهَ تَشْويها
ونحنُ في نَشْوةٍ، مما يُحيطُ بنا مِنَ الجمالِ، سألْنا الدهرَ يُبْقيها

٦٤ «الويل للمنهزم»

لم يبقَ في الميدانِ، بعـ ـدَ زوالِ دولةِ هتلرِ..
أحدٌ يُخيفُ الأغنيا ءَ سوى العدوِّ الأصفرِ

* * *

وهناكَ بِضْعَةُ أَرْؤُسٍ قد أينعتْ لم تُقْطَفِ
ومِنَ المعابِدِ والبيو تِ بقيةٌ لم تُنْسَفِ

* * *

ويريدُ يَهْوَةُ أنْ يُطَهِّـ ـرَ باللهيبِ وبالدَّمِ

يهوة: يقصد اليهود

أرضاً تكونُ لِشَعْبِه الـ ـمختارِ دارَ تَنَعُّمِ

* * *

ويريدُها لَهُمُ، فَلا بَشَرٌ سواهُمْ يَنْطِقُ..
فيها ولا ثورٌ يخو رُ، ولا حمارٌ يَنْهَقُ

* * *

وطَوى طُرُومَنُ، عندمَا ار تَفَعَ النهارُ، كتابَهُ

ترومان: رئيس الولايات المتحدة عند انتهاء الحرب العالمية الثانية، وهو مجرم هيروشيما

وأعدَّ، مُرْتاحَ الضميـ ـرِ، إلى الوزيرِ جوابَهُ

* * *

قَذفوا هِروشيما بِرَفْـ ـشٍ مِنْ شُوَاظِ جَهَنَّمِ

الرفش: مِجْرفة التراب، الطورية، شواظ: لهيب

فَقَضتْ تُكَفِّنُها الجريـ ـمةُ بالرمادِ الأَسْحَمِ

الأسحم: الأسود

* * *

ذابَتْ بِحَرٍّ قذيفةِ الـ ـمُتَهَوِّدِ المُتَعَبِّدِ
وتبخرتْ فكأنما هِيَ شحمةٌ في مَوْقِدِ

* * *

وتلقَّتِ اليابانُ، بالصَّـ ـبرِ الجميلِ، جراحَها
واستسلمتْ كحمامةٍ كسرَ العُقابُ جَناحَها

* * *

أما الأُلى صَهَرُوا المديـ ـنةَ باللَّظَى المتأجِّجِ

الألى: الذين

فلقدْ مَضَوْا يَترنَّمو نَ بكلِّ صوتِ مُزْعِجِ

* * *

وتألَّفتْ دارُ القضا ءِ، وكانَ مِنْ مأساتِها
أنَّ الأُلى ارتكبوا الجريـ ـمةَ مِنْ كبارِ قُضاتِها

المنتصرون عقدوا المحاكمات لمجرمي الحرب المنهزمين، أما جرائمهم الذرية وغير الذرية فمضت بلا عقاب

٦٥ التزيُّن بالتجديف

قال فرحات، مخاطباً الشاعر نصر سمعان:

قال نصرٌ، وقد رأى صورةَ الطِّفـ ـلِ بحِضْنِ البَتولِ فوقَ الحمارِ
ورأى يوسُفاً يقودُ إلى مصـ ـرَ الحمارَ الصَّبورَ عبرَ القِفَارِ
هل رَوَى رحلةَ المسيحِ إلى الأهـ ـرامِ طفلاً في الكُتْبِ غيرُ الحَوَارِي؟

الحواري: أحد تلاميذ المسيح

أَحِمَارٌ يجتازُ صحراءَ سَيْنا ءَ وَينجُو مِنْ فاتكاتِ الضَّوارِي؟
ثم أينَ العَلِيقُ للجَحْشِ، أينَ الـ ـماءُ، أينَ الغِذاءُ للسُّفَّارِ

العليق: العلف الذي يعلق بمخلاة في رقبة الدابة

إنَّ في دينِنا غرائبَ، لا ير ضى بها عاقلٌ بِلا استفسارِ
قلتُ: يا نصرُ ليس للعقلِ في الأد يانِ شُغْلٌ، فاتركْ عقيمَ الحِوَارِ

أنـتَ تـدري بـأنَّ ربَّـكَ، يـا نـصـ ـرُ، كـريـمٌ، وأنَّـهُ ذو اقـتـدارِ
فـي رِضـاه عـنِ الـحـمـيرِ بَـرَاهيـ ـنٌ فِـصَـاحٌ عَـنْ صِـحَّـةِ الأخـبـارِ
إنَّ هـذا الـحـمـارَ، يا نـصرُ، لـو لـم يُنْجِ عيسَى مِنْ سَطْوَةِ الأشرارِ
ما رأيـنَـا الـتـوفـيـقَ يُـوشِـكُ أنْ يـجـ ـعَـلَـهُ الـلَّـهُ طَـوْعَ كـلِّ حـمـارِ

٦٦ نموت رويداً

قال فرحات، عام ١٩٥٤ في رثاء صبري غراب:

نموتُ رويداً؛ كلَّما ماتَ صاحبٌ لنا ماتَ في أضلاعِنا أملٌ مُغْرِ
فكلُّ وَداعٍ مِنْ حبيبٍ مُفارِقٍ أُحِسُّ له شيئاً يودِّعُ في صدري
لقد سَوَّدَتْ شِعْرِي الليالي، بِجَعْلِه مَرَاثِيَ للأحبابِ مُذْ بَيَّضَتْ شَعْرِي

٦٧ وإنما.. عَنوة أخذناها

في مَيْسَلُونَ اهتدتْ دِمشقُ وقد ضَلَّتْ فَرنسا وخابَ مَسعَاها
فُـزْنـا بِـحُـرِّيـةِ الـشَّـآمِ فـلا يـفْـتَـحْ خَـؤونٌ بِـحُـجَّـةٍ فَـاهَـا
لـم تُـعْـطِـنَـاهَـا لِـجُـودِهـا هِـبَـةً وإنَّـمـا عَـنْـوةً أخـذنَـاهـا

٦٨ هل نحن شعبان؟

قال فرحات، وأراد أن ينشدها في استقبال رئيس لبنان كميل شمعون، وحيل بينه وبين ذلك، فأرسلها إليه:

لما رأيتُ غيابي طالَ عَنْ وَطني وطالَ شوقي إلى أهلي وخُلَّاني
ولم أكنْ بِغَنِيٍّ، يستطيعُ إذا ما شاءَ، جَعْلَ قَصِيِّ الأرضِ كالدَّاني
خَشِيتُ أنْ أتَلَقَّى الموتَ مغتَرِباً فإنَّ موتَ غريبِ الدارِ مَوْتَانِ

التسويد للمغترب عمران القفيني

وخِفْتُ ألَّا أرى الزَّهْرَ، الذي ابتسمَتْ عيونُه لِقِمَاطي، فوقَ أكفاني

الزهر الذي تفتح فكأنه ابتسم لقماطي، والقماط لِفاعٌ يلف به الرضيع.. وهو الكوفلية، أخاف إلا أرى الزهر فوق كفني.. يقول: أخاف أن أموت في الغربة

فَصِحْتُ يا ربِّ جَدِّدْ مِنْ رَجائِيَ ما أَبلَى الزمانُ، ورَمِّمْ صَرْحَ إيماني

رُدَّ الغريبَ إلى الأرضِ التي احتضَنَتْ أحـلامَـه وَهْـيَ أَطـفـالٌ بِـتَـحْـنَـانِ

عندما كانت أحلامه في طفولتها

شَمْعُونُ! نحنُ هُنَا مِنْ كلِّ ناحيةٍ فانظرْ، وكنْ حَكَماً، هل نحنُ شَعْبَانِ

قبل يومين من تصحيحنا الأول للنص (٢٠/٤/٢٠٠٩) تم رسمياً تعيين ميشال خوري أول سفير لبناني في دمشق، في خطوة رمزية إلى أنه ليس لسورية وضع خاص في لبنان. والآن ونحن نجري التصحيح الأخير ـ نرجو ذلك ـ تستقبل لبنان نصف مليون لاجئ سوري على أراضيها فروا من الحرب الأهلية. المسألة معقدة بين البلدين

هذي دِمَشقُ وذي بَيروتُ، إنهما في طَلْعَةِ الوطنِ المحبوبِ عَيْنانِ

طلعة: وجه

لَسنا نُفَضِّلُ، مَهْمَا نَلْقَ مِنْ عَنَتٍ، عَيناً على أختِها؛ لَسْنا بِعُورانِ

عوران: جمع أعور

٦٩ حينما يصبح الزواج شارعاً ذا اتجاهين

قال فرحات، في تموز ١٩٥٤:

ليستْ عروبتُنا خُرافةَ جِنَّةٍ تَرْوِي العجائزُ في الدُّجى أخبارَها

الجنة: الجنّ

ليستْ عروبتُنا مَطِيَّةَ حالِمٍ بِأَرِيكةٍ مستسْهِلٍ أخطارَها
ليستْ عروبتُنا طُقوسَ ديانةٍ تُذْكي الجهالةُ بالتعصبِ نارَها
ما همَّها مَنْ لم يُصَلِّ ولم يَصُمْ، ما دامَ يحمي في الحروبِ ذِمَارَها

ذمارها: حماها وشرفها

كلُّ البلادِ لِكلِّ مَنْ وُلِدُوا بِها، لا شيءَ يَحْرِمُ بُقْعَةً زُوَّارَها
كلُّ المناصِبِ للذي هوَ أَهْلُهَا، لا شَرْعَ يمنعُهُ إذا ما اختارَها
كلُّ البناتِ لِكُلِّ طالبِ زوجةٍ، لا دينَ يُبْعِدُ عنْ بثينةَ جارَها

٧٠ الشعر المجود تجويداً

قال فرحات، في يوبيل جريدة إيليا أبو ماضي «السمير»:

الصبحُ يدعُو والمساءُ يُرَدِّدُ: ليتَ «السَّميرَ» على الزمانِ تُخَلَّدُ

تِيهاً أبا ماضي فإنَّكَ سَيِّدٌ   في فَنِّهِ، يَسْعَى إليهِ سَيِّدُ

تيهاً: لك أن تفتخر

يا صاحِبَ الشِّعْرِ الذي جَوَّدْتَهُ   حتَّى لَنَقْرَأُهُ ونحنُ نُجَوِّدُ

٧١ فيم التقاطع

فيمَ التقاطُعُ، والأوطانُ تجمعُنا   قُمْ نَغْسِلِ القلبَ مما فيهِ مِنْ وَضَرِ

وضر: وسخ

ما دُمْتَ محترِماً حَقِّي فأنتَ أخي   آمنتَ باللَّهِ، أم آمنتَ بالحجرِ

٧٢ المتفنن في الكذب

إنَّا سَكَتْنَا عنِ الكذَّابِ فانفتحتْ   قُدَّامَهُ لِفنونِ الكِذْبِ أبوابُ

يُلْقي علينا أحاديثاً ملفَّقةً   ولا نقولُ لهُ اسكُتْ، أنتَ كذَّابُ

٧٣ الأهل والفضل في أزمة

ما حيلَتي بِكبارٍ، في نُفوسِهِمُ   ذُلُّ الصِّغَارِ، وفي أخلاقِهِمْ عِوَجُ

مُذْ بَشَّرَتْ بِهِمُ الدَّايَاتُ، أهلُهُمُ   والفضْلُ في أَزَمَاتٍ ليسَ تَنْفَرِجُ

منذ ميلادهم حين بشرت القوابل بهؤلاء الناس، ظل أهلُهم والمكارم واقعين جميعاً في أزمات

٧٤ ربوبية الموت

آمِنْ بما شئتَ في بطنِ الترابِ ومَا   فوقَ الكواكبِ، واتركْني وإيماني

لم أَدْرِ كالموتِ رَبّاً صادقاً نَفَذَتْ   أحكامُ سلطانِه في كلِّ سُلْطانِ

لا يَرتشي بِنُذورِ النَّاذِرِينَ، ولا   يُبْغَى رِضاهُ بِقُدَّاسٍ وقُرْبانِ

وكلُّ رَبٍّ إلى البرهانِ مُفْتَقِرٌ   والموتُ لم يفتقرْ يوماً لِبُرهانِ

٧٥ الدهر والبشر.. والأذى

تَشكو أذَى الدَّهْرِ شَكْوى لا أَساسَ لها   فالدهرُ لم يَرتكِبْ إثماً، ولم يَجُرِ

لا يُقْفِلُ البشرُ الأبوابَ إنْ رَقَدُوا   خوفاً مِنَ الدَّهرِ، بل خوفاً مِنَ البَشَرِ

٧٦ لا يؤكل الجوز..

كم مِنْ غَنِيٍّ بَخِيلٍ، كلَّما لَمَحَتْ عينَاهُ وجهَ فَقيرٍ خَفَّ يَسْتَتِرُ
تَرنُو إلى مالِهِ الوُرَّاثُ قائلةً: لا يُؤكَلُ الجوزُ إلَّا حينَ ينكَسِرُ

٧٧ الشعر والتجارة

يا شاعِرَ العَرَبِ احذَرْ أنْ يُقالَ غداً: كُحْلُ التجارةِ أعمَى شاعِرَ العَرَبِ
إنْ ضاقَ عيشُكَ كُنْ مَسَّاحَ أحذيةٍ لا تاجِراً يَغتني بالغِشِّ والكَذِبِ

تسويد عمران القفيني

٧٨ الناذرة للدير

ما كنتُ آسُو عَليلاً أمُّهُ هُرِعَتْ لِلدَّيْرِ تَنْذُرُ أموالاً لِرُهْبانِ

آسو: أداوي

إنْ عاشَ فالفضلُ للديرِ الذي نَذَرَتْ له، وإنْ ماتَ فالآسي هو الجَاني

٧٩ الدنيا مصالح

لا يَخْدَعَنَّكَ محتاجٌ إليكَ إذا فيما يَسُرُّكَ مِنْ أموالِهِ بَذَلا
إنَّ ابنَ آدَمَ لا يُعطيكَ نَعْجَتَهُ إلَّا لِيأخُذَ مِنْكَ الثَّوْرَ والجَمَلا
لو يعرِفُ الكبْشُ أنَّ القائِمينَ على تسمينِه يُضْمِرونَ الشَّرَّ مَا أَكَلا

تسويد عمران القفيني للبيتين

٨٠ أبواب المواخير

لِلغربِ في الشَّرْقِ عاداتٌ مُقَدَّمَةٌ كانتْ، وما بَرِحَتْ، أوْلى بِتَأْخيرِ
لا تَبْتَغُوها، فَكَمْ مِنْ زَهرةٍ حَسُنَتْ في النَّاظِرَيْنِ، وساءَتْ في المناخِيرِ

الناظرين: العينين، المناخير: الأنوف

قولوا لِكُلِّ أبٍ في الشرقِ محتَرَمٍ إنَّ المَرَاقِصَ أبوابُ المَواخِيرِ

الماخور: بيت الجماع

٨١ فائدة الروح

قالوا هُوَ الجَسَدُ الجَمُّ الفَوائِدِ إنْ ... يُصْبِحْ بِلا الرُّوحِ لم يَنفعْ ولم يُفِدِ
لكنَّهُمْ لم يقولوا: أيُّ فائِدةٍ تُرْجَى ... مِنَ الروحِ إنْ تُصبِحْ بِلا جَسَدِ
هذا يَصيرُ تُراباً رُبَّما صَنَعُوا ... منهُ وِعاءً لِشُرْبِ الطَّائرِ الغَرِدِ
وتلكَ كانتْ خيالاً تائِهاً أبداً ... وسوف تَبقَى كما كانتْ إلى الأَبَدِ

٨٢ الاحتكاك

شَرِّقْ وغَرِّبْ فقد يَغْنَى أخُو سَفَرٍ ... عنْ كلِّ ما تَجْمَعُ الأسفارُ مِنْ حِكَمِ

الأسفار: الكتب

والمرءُ لا يَرْتَقِي مَهْمَا تَلا كُتُباً ... إلَّا إذا احْتَكَّ بالأفرادِ والأُمَمِ

ويقول الشارح: كثرة الأسفار تزيد العميق عمقاً، والسطحي سطحيةً

٨٣ ضد الرمزية

إنِّي لأَعجَبُ مِنْ آدابِ رابِطةٍ ... قد أَوْجَدتْ في نظامِ الشِّعرِ تَشويشا

لعله يقصد الرابطة القلمية التي أسسها في نيويورك جبران ونعيمة وأصحابهما؟

شنَّتْ على الأَدَبِ الميمونِ غارَتَها ... فأمعنتْ فيهِ تشويها وتَخْدِيشا
طارتْ فخِلْنَا نُسوراً فوقَنا ارتفعتْ ... ثم استَقَرَّتْ فكانتْ كلُّها رِيشا
أشعَارُها عَلْقَمٌ، مَعْ أنَّها شَرِبَتْ ... مِنْ ماءِ صَنِّينَ والعاصي وقَادِيشا

٨٤ شرير بالفطرة

المرءُ يولَدُ شِرِّيراً، فإنْ غَفَلَتْ ... عينُ المهذِّبِ عنهُ هَكَذا لَبِثا
إنْ لم تَكُنْ قُدوةً للوُلْدِ صالِحَةً ... أنفقْتَ مالَكَ في إصلاحِهِمْ عَبَثا

٨٥ قلة فهم المناديل

لو يُجمَعُ الدمعُ منذُ اغتيلَ هابيلُ ... لما استَطالَ على أقرانِهِ النِّيلُ

لن يفتخر النيل عندئذ بأنه نهر عظيم، فنهر الدموع سيكون أعظم منه

والخَدُّ يعلمُ ما في الدمع مِنْ حُرَقٍ ... وليس تَعْلَمُ ما فيه المَنادِيلُ

٨٦ الأدنياء والذهب

وليسَ لأدنِياءِ النَّفْسِ مَجْدٌ ولو رَصَفوا المنازلَ باللآلي
ولو صاغوا النُّضَارَ لَهُمْ نِعَالاً تَظَلُّ نفوسُهُمْ تحتَ النِّعالِ

٨٧ الشاعر تاجراً

فلاسفةُ الأعارِبِ مِنْ قرونٍ قدِ احتَقَروا التِّجَارَ، وقد أصابُوا

التِّجار: التُّجار

فما سوقُ التِّجارةِ غيرُ غابٍ تَنَاهَشُ في جَوانِبِها الذِّئابُ
رُمِيتُ بِها، وما في الكفِّ ظُفْرٌ أذودُ به، ومَا في الفَكِّ نابُ
فلم يَسلمْ مِنَ التَّمْزيقِ جِلدي ولم تَسْلَمْ على جِلدي الثِّيابُ

٨٨ حر لولا ثلاث

خُلِقْتُ مُسَيَّراً، وأموتُ قَسْرا وَلِي امرأةٌ، فَكيفَ أكونُ حُرَّا

٨٩ المهد والنعش

حياةٌ هذهِ الدنيا ومَوتٌ فلا تُنْفِقْ ضِياءَ العينِ سُهْدَا
فأَعْقَلُ مَنْ رأيتُ فتىً حَكيمٌ يُشَيِّدُ مَنزِلاً ويَشُقُّ لَحْدَا
ونَجَّارٌ يَرَى دَفْناً وزَفّاً فَيَصْنَعُ مِنْ بَقَايا النَّعْشِ مَهْدَا

٩٠ استرزاق

كتابُ مسيحِكُمْ سهلٌ صَريحٌ فَما هذي الزَّوَائِدُ والحَواشي
وما هذي الطُّقُوسُ إذنْ إذا لم تَكُنْ حِيَلاً لِتَحصيلِ المَعَاشِ

٩١ لا نريد أن نتذكره

وحَقِّكَ! مَا لِنَعْشِ المَيْتِ مَعْنىً ولا مَعنىً لِتَعْميقِ القبورِ
فليسَ القبرُ أفضلَ مِنْ عَرَاءٍ تَهُبُّ عليهِ ناشِرَةُ العُطورِ

ناشرة العطور: يقصد العطور الزكية

وليسَ الدودُ أشرفَ مِنْ نُسُورٍ تُرَفْرِفُ بينَ أمواجِ الأثيرِ

ولـكـنَّ الأنـامَ تـخـافُ مَـرأىً   يَـلـوحُ لـهـا بِـهِ سـوءُ الـمَـصِـيـرِ

٩٢ قيمة المجد الغابر

أذَلُّ شعـوبِ هـذي الأرضِ شعـبٌ   تـراه بِـذكـرِ سـالِـفِـهِ وَلُـوعَـا

إذا مـاتَ الإبـاءُ بِـصَـدْرِ شعـبٍ   فـقـد مـاتَـتْ مـآثِـرُهُ جَـمـيـعَـا

٩٣ مديح جهنم

أُحِـبُّ الـنَّـارَ، لا كُـفْـراً ولـكـنْ   لأنَّ الـنـارَ مَـصـدَرُ كـلِّ نـورِ

وأَعـشـقُـهـا لأنَّ الـدِّيـنَ فِـيـهـا   يَـزُجُّ الـثَّـائـريـنَ عـلـى الـغُـرورِ

يعشق جهنم لأن الدين يدخل فيها الثائرين ضد الغرور

فـإنْ كـانَ الـشُّـمَـيِّـلُ والـمَـعَـرِّي   ورَهـطُـهُـمَـا هـنـالِـكَ في الـسَّـعِـيـرِ

شبلي الشميل، وهو ابن قرية شاعرنا كفر شيما، كان داعية نظرية التطور في مطلع القرن العشرين

فقد فَضَّلْتُ سُكْنَى النارِ مَعْهُمْ   على سُكْنَى السَّماءِ مَعَ الحَمِيرِ

٩٤ معيار الصلاح

تَـعـويـدُ كَـفَّـيْـكَ الـصَّـلاحَ أَبَـرُّ مِـنْ   تَـعـويـدِ رِجلَـيْـكَ الـوقـوفَ بِـمَـسْـجِـدِ

أنَـا لا أُصَـدِّقُ أنَّ لِـصَّـاً مـؤمـنـاً   أَدْنَـى لِـرَبِّـكَ مِـنْ شـريـفٍ مُـلْـحِـدِ

٩٥ الأجنبية عندما تتنقب

تَـتَـبَـرْقَـعُ الـمُـتَـفَـرْنِـجَـاتُ سَـوافِـراً   بِـبَـراقِـعٍ مِـنْ نَـسْـجِـهِـنَّ كِـثَـافِ

يَـصْـبِـغْـنَ هـاتِـيـكَ الـخُـدودَ تَـبَـرُّجَـاً   فَـالـصِّـبـغُ بَـادٍ والـخُـدُودُ خَـوَافِ

٩٦ فن القناعة

مـا لِـلأنـامِ يُـفَـتِّـشُـونَ عـنِ الـسَّـنـى   والـشَّـمـسُ تَـغـمُـرُ أَجْـبُـلاً وسُـهُـولا

السنى: الضوء

وتَـعَـلَّـمُـوا كـلَّ الـفـنـونِ، ولـم يَـزَلْ   فَـنُّ الـقَـنـاعَـةِ عـنـدَهُـمْ مَـجْـهُـولا

٩٧ ثمن الحرية

لا تَطْمَعَنَّ بِوَصْلِها حُرِّيَةً حتَّى يكونَ لَديْكَ سَيفٌ فاصِلُ
لو كانَ مَحْضُ الوُدِّ يكفيها لَمَا فازَ الكَمالُ بِها، وخابَ الكامِلُ

الكمال: مصطفى كمال أتاتورك، والكامل: مصطفى كامل. وقد أسس أتاتورك بقوة السلاح دولة تركية حديثة، ولم ينجح حزب مصطفى كامل «الوطني» في تحقيق إنجاز ملموس في مصر

٩٨ في كل سلة بيضة

ازفُفْ بناتِكَ في المَذَاهِبِ كلِّها لِلمؤمنينَ، وعابِدي الأصنامِ
واقرِنْ بِهذا الحَبْلِ بَطْرَكَ تابِعي عيسى، بِشَيْخِ مشايِخِ الإسلامِ
حتى إذا نَفَثَ التَّعَصُّبُ سُمَّهُ مَنَعَتْ أذاهُ وشائِجُ الأَرحامِ

٩٩ المتمسحون ذلاً

إنَّ الأنامَ، وما إخالُكَ جاهلاً، عَبْدٌ يَذِلُّ، وسَيِّدٌ يَتَحكَّمُ
فإذا رأيتَ الظُّلْمَ يُنْشِبُ ظُفْرَهُ فَبِجِلْدِ شَعْبٍ قَلَّمَا يَتألَّمُ

١٠٠ إباء حتى النهاية

مَنَّ الغَنِيُّ عَلَيَّ، فانتفَضَتْ لَه شَعَرَاتُ نَاصِيَتي كَريشِ القُنْفُذِ
ورَمَيْتُه بِسهامِ نَقْدٍ إنْ تَقَعْ يوماً على صُمِّ الجَنادِلِ تَنْفُذِ

الجنادل: الصخور

أَنا لا أُطِيقُ المَنَّ مِنْ تِلْكَ التي رَدَّتْ صِبَايَ، فَكَيفَ مِنْ هَذا الذي
لَوْ مَنَّ رَبُّكَ بالحياةِ على الورى لَبَصَقْتُ حَوبائي، وقلتُ له: خُذِ

حوبائي: نفسي

١٠١ الإيمان قيداً

كلُّ امرئٍ يَرجُو، ولكنْ بعضُهُمْ غَالَى فَغَلَّ العقلَ بالإيمانِ

غلَّ: قيَّد

إنَّ الرَّجاءَ مِنَ الصَّوابِ، فإنْ يَفُتْ حَدَّ الحَياةِ غَدَا مِنَ الهَذَيانِ

١٠٢ شعراء الغموض

أصحابُنا المتمرِّدونَ خيالُهُمْ ... تَقْضي قُرَيْشُ به، وتَحْيا حِمْيَرُ

تقضي قريش: تموت قريش (فلغة قريش هي لغة القرآن وهي الأفصح، وأما لغة حمير اليمانية فقد أصبحت بعد الإسلام مهملة غير موسومة بالفصاحة)

لُغَةٌ مُشَوَّشَةٌ، ومَعنىً حائرٌ ... خَلْفَ المجازِ، ومَنْطِقٌ مُتَعَثِّرُ

وزَعيمُهُمْ في زَعمِهِمْ مُتَفَنِّنٌ ... عَجَباً أكانَ الفَنُّ فِيما يُضْمَرُ

لا الأرضُ تفهَمُ ما يُسَطِّرُهُ، ولا ... ذاكَ الزَّعيمُ، ولا السَّماءُ تُفَسِّرُ

١٠٣ صفحة الوفيات

أسلافُنا كانوا إذا ماتَ امرُؤٌ ... يستأجِرونَ لِنَدْبِهِ نِسوانَا

يَنْسُبْنَ للميْتِ العزيزِ فَضيلَةً ... صِدْقاً، وألفَ فضيلةٍ بُهْتَانا

أمَّا الذين عرفْتُهُمْ في عصرِنا ... مِمَّنْ يريدونَ العُلُوَّ مَكانا

يَستأجِرُونَ لِيَمْدَحُوا أمواتَهُمْ ... صُحُفاً أَحَطَّ مِنَ النَّوادِبِ شَانا

النوادب: النائحات

١٠٤ مناعة ضد المديح

قَالوا مُدِحْتَ، ألا تُجَنُّ مَسَرَّةً ... فَضحكْتُ ممَّنْ قالَ بِاستهزاءِ

أنَا ليسَ يَرْفعُني المديحُ إذا هَمَى ... والشَّتْمُ ليس يَحُطُّ مِنْ عَليائي

همى: هطل كالمطر

أنَا في الفِعالِ وفي المَقالِ وفي الحِجَا ... والروحِ مختَلِفٌ عَنِ الشُّعَراءِ

إمدَحْ، فَمَدْحُكَ لا يَشُدُّ عِمَامَتي ... واشتُمْ، فَشتمُكَ لا يَحُلُّ حِذائي

١٠٥ ما ذنبي إن كان هذا رأيي

ربَّاهُ مَا ذَنبي! وأنتَ مَنحتَني ... عَقْلاً يُمَيِّزُ لِلكلامِ مَعَانيِ

ويَوَدُّ لو هَتَكَ الستائرَ كُلَّها ... لِيَرى الذي في الغيبِ رَأْيَ عِيَانِ

كم فاتِحٍ ذَبَحَ الرجالَ وما عَفَا ... لولا دَعارَتُهُ عَنِ النِّسْوانِ

مُتَسَلِّحاً بِكتَابِهِ، وكتابُهُ ... يُعْزَى إليكَ، فَمَنْ تُراهُ الجَاني

١٠٦ القبلة المتوهجة

يَهنِيكِ نَوْمُكِ يا سُعادُ، كأنَّهُ … نومُ الرَّضِيعِ على ذراعِ المُرْضِعِ

سعاد ابنة الشاعر. وللمهجري زكي قنصل قصيدة في ابنة له توفيت، واسمها أيضاً سعاد

يَهنِيكِ يا وَلَدِي السُّكُونُ مُحَرِّكاً … بَجَلالِ هيبتِهِ سَواكِنَ أدمُعِي

كَمْ قُبْلَةٍ تَهفُو إلى شَفَتَيَّ مِنْ … قَلبِي الحزينِ الوَالِهِ المُتَفَجِّعِ

حتَّى إذا وَجَدَتْ سريرَكِ خالياً … رَجَعَتْ فصارتْ جمرةً في أَضْلُعِي

١٠٧ هدية تأبى أن تسيل

يا دمعةً نَشِفَتْ، ولاذِعُ حَرِّها … يَمْتَدُّ مِنْ قَلْبِي إلى أَجْفَانِي

إنِّي لَدَى قبرِ الحبيبةِ واقفٌ … في عيدِ مَوْلِدِها، فَما أَشقانِي

لم آتِها بهديَّةٍ، إلاكِ يَا … رَمْزَ الحنانِ وصورَةَ الوِجْدانِ

الهدية الوحيدة: الدمعة

فِيضِي فإنَّكِ كُلُّ مَا في طاقَتِي … وأعزُّ ما في مُهْجَتِي وجَنَانِي

١٠٨ الشاعر واللقمة

قَالوا: أتُشرِكُ بالقَرِيضِ تِجارَةً … سَلَكَتْ مِنَ التَّمويهِ كلَّ طَرِيقِ

والشاعرُ المطبوعُ، كيف تقلَّبَتْ … دُنياه، مَطبوعٌ على التَّحْلِيقِ

فأجبتُهُمْ: ليستْ مواعِظُكُمْ سِوى … هَذَرٍ، وعِفَّتُكُمْ سوى تَلفِيقِ

أَأَعيشُ مِنْ مَرْحَى التي هِيَ نَقْدُكُمْ؟ … ويَعيشُ أولادي على التَّصْفيقِ؟

١٠٩ الإنسان والحذاء

نَعِيبُ على الإسكافِ أنْ لم يجِدْ لَنا … حِذاءً جَميلاً غيرَ وَاهٍ، ولا قَاسِ

ونَحْمَدُ رَبّاً يَخْلُقُ المَرْءَ قَاسِياً … سَخِيفاً حَوَى العَيبَيْنِ في القَلْبِ والرَّاسِ

حَيَاءً مِنَ الإسْكَافِ يا رَبِّ، ولْيَكُنْ … صَنِيعُكَ خِلْواً مِنْ عُيُوبٍ وأَدْنَاسِ

إذا كانَ صُنْعُ الخُفِّ يُوجِبُ دِقَّةً … فكيف بِصُنْعِ الناسِ، يا خالقَ النَّاسِ!

١١٠ صغار النفوس

نصحتُكَ لا تَأْمَنْ صغيراً، ولا تَخَفْ … كبيراً، فما في الحَجْمِ هَمُّ المُفَكِّرِ

أشَـدُّ الـعِـدَى فَـتْـكـاً بِـأَبْـنـاءِ آدَمٍ جَراثيمُ يُعيِي فَحْصُها كلَّ مِجْهَرِ

١١١ الاختيار

حَقَرْتُ الغِنَى سَعْياً إلى الشِّعْرِ فانجَلَى لِعَيْنِيَ جَامُ العُمْرِ بِالحُبِّ مُتْرَعَا

الجام هو الجاط هو الوعاء

ولما حَقَرْتُ الشِّعْرَ سَعْياً إلى الغِنَى أَضَعْتُ الغِنَى والشِّعْرَ والحبَّ أَجْمَعَا

١١٢ فضل فرنسا

يَـلـومُـونَـنـا جَـهـلاً بِـحُـبِّ فَـرَنْـسَـةٍ ونحنُ، وحقِّ الحبِّ، بالعُذْرِ أخلَقُ

يسخر.. نحن معذورون في حبنا فرنسا

فـإنَّ لَـهـا فَـضْـلاً عَـلـيْـنـا ومِـنَّـةً وبـيـضَ أَيَـادٍ لا تـكـادُ تُـصَـدَّقُ

أمِنَّا لُصُوصَ الغربِ والشَّرقِ بَعدَها فـمـا تـركَـتْ شَـيـئـاً بِـلُـبْـنـانَ يُـسرَقُ

١١٣ الشاعر والقارئ

عجِبْتُ لِمَنْ يَطوِي ليالِيه ساهِراً يُفتِّشُ عنْ مَعنىً غَريبٍ فَيَلقَاهُ

فَيَنْظِمُهُ شِعْراً، ولا فرقَ عندَه إذا مَا اهتَدَى قُرَّاؤُه فيهِ أو تَاهُوا

ألا إنَّ خَيْرَ الشِّعْرِ ما سَاغَ لفظُه وما كانَ مِمَّا يسبِقُ اللفْظَ مَعنَاهُ

إذا جَاءَني المعنَى الغَريبُ فَمَرْحَباً وإنْ لـم يَـجِـئْ لا ردَّ غـربَـتَـه الـلَّـهُ

١١٤ في هجاء البشر

هَـذِي الـحـيـاةُ، وأنـتَ تـعـرِفُـهـا، غَـرَّارَةٌ فـي الـسِّـرِّ والـجَـهْـرِ

غرارة: خداعة

والـنـاسُ أَقـذَارٌ تُـجَـمِّـعُـهـا الـ ـأَقـدَارُ تَـحْـتَ أَظـافِـرِ الـدَّهْـرِ

١١٥ دورة الفتك

إنَّ الـخَـلائِـقَ أنـهُـرٌ تَـجـرِي إلـى الـبـحـرِ الـوسـيـعْ

يَـصِـلُ الـبَـطِـيءُ إلـيـه كُـرْ هـاً مِـثْـلَـمـا يَـصِـلُ الـسَّـرِيـعْ

فَـالـشَّـاةُ تَـفْـتِـكُ بِـالـكَـلا والـذِّئْـبُ يَـفْـتِـكُ بِـالـقَـطِـيـعْ

الكلا: الكلأ، أي العشب

والصَّقْرُ يَفْتِكُ بالقَطَا	والموتُ يَفْتِكُ بِالجميعْ

١١٦ أتباع الطقوس

هذي كنائِسُكُمْ تَكا	دُ تُضَيِّقُ الكونَ الفَسيحْ
غَصَّتْ بِأَتباعِ الطُّقو	سِ، فأينَ أتباعُ المَسيحْ؟

إلياس فرحات
فهرس القوافي

مصطفى وهبي التل
(عرار)
(١٨٩٩ ـ ١٩٤٩)

هذا شاعر لم يسهر لقصيدة. فجاء شعره مفككاً، فإن رأيت له طويلة فهي مرقَّعةُ الدروايش. وجاءت قوافيه قلقة، فإن رأيت له قافية صادحة فهذا توفيق.

ولأنه كان متمرداً جاءت بعض أبياته حارة، ولا يندر أن تجتمع له نتف من هنا ومن هناك قالها في شهر أو شهرين، وألصق بعضها ببعض فيكون من ذلك قصيدة حلوة. ولا يندر أن يقول قصيدة حلوة متماسكة.. لا، بل يندر.

وانظر ما يفعل التنخيل في شعر شاعر مهمِل متصعلك كعرار. أنعم النظر في الصفحات التي تلي وانظر إلى هذا الشاعر كيف تعملق.

أتراني معجباً بما صنعت بعرار ولعرار؟ إي وربي.

يا لفرَحي بما أنفقت من ليالٍ طوالٍ وأنا أعتني بالشعراء وأهذب لهم دواوينهم.

كنت أعلّم طلبة الصحافة، في قسم الإذاعة. ذات يوم قلت لنفسي: أُعطيهم واجباً خفيفاً يناسبهم، فهم طلبة لم يتح لهم أن يعملوا في الميدان. طلبت منهم أن يصنعوا عرضاً للصحف. ليس لأخبارها، فأخبار الصحف عتيقة، وأجدُّ منها أخبار الإذاعة، وأجدُّ منهما أخبار الإنترنت. إذن فليعرضوا المقالات التي نشرتها صحف اليوم. هيَّا.

ما أكبر ما كانت دهشتي وأنا أراهم يقعون، في المقالة بعد المقالة، على العبارات المكرورة التي لا جدة فيها ولا فكرة ولا تحليل و.. لا شيء.

تعلَّمت أنَّ استخلاص زبدة المقالة أمر لا يقوم به إلا من هو ناضج في المهنة والتجربة والحياة.

ولا أزعم أن اختيار الأشعار صعب الصعوبة نفسها، ولا أنه يقتضي الخبرة فحسب. فرب عاميٍّ يطرب لبيت لا يطرب له حتى الشاعر الذي قاله، وللعامي أن يطرب. ورب فقيه يختار أبياتاً يعدها من خير واردات وادي عبقر، ويأتي ناقد فيراها سمجة غثة. ورب شعرور يصادف أبياتاً فيها كلمات من قبيل «البنفسج، والسنونو، وتلألؤات الغسق في نسغ الليمون» فيصيح - صيح عليه - صيحات استحسان.

غير أنه مما ثبت في أذهان أهل التراث الشعري العربي منذ حماسة أبي تمام أن اختيار الشعر يدل على ذوق صاحب الاختيار، وأن الاختيار أمر جليل.

أما أن الاختيار يدل على ذوق صاحبه فلا أشك في ذلك. وأما أنه أمر جليل، فذلك محتاج إلى بعض نظر.

لكل امرئ أن يختار من الشعر ما يعجبه. وأنا واحد من الآلاف الذين يقرأُون الشعر، ويعجبهم منه ما يريدون أن يعجبهم. وما يميزني ليس أكثر من أنني أنفق الوقت في الانتقاء والطباعة وتصحيح أغلاط الطباعة في نسختي وفي الديوان نفسه، ثم التشكيل ثم الشرح ثم الفهرسة. ما يميز مجموعتي هذه ليس أكثر من الجهد المبذول.

وأريد أن أتعرض لكلمة قالها القدماء عن حماسة أبي تمام وكررها المؤلفون مئات المرات في كتبهم: «أبو تمام في الحماسة أشعر منه في شعره». وأبدأ بالقول إنني لست موافقاً على هذا الحكم. فلو أعطيت قصيدة الطغرائي لأي متأدب وطلبت منه أن يختار عيونها، فلست أشك في أنه سيلتقط بسرعة البيت: (أعلل النفس بالآمال، أرقبها/ ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل). ولست أشك في أنه سيلتقط بضعة أبيات قبل هذا البيت وبضعة أبيات بعده. وقد أجريت تجربة: نظرت في بعض مواقع الإنترنت ورأيت كيف اختار بعضهم من هذه القصيدة. وقلت في نفسي: ولو اخترت أنا من هذه القصيدة بضعة أبيات، أو لو تأخر زمن أبي تمام وقيض له أن يختار منها، فلعله ولعلني لن نصنع أفضل مما صنع غيرنا.

ما الذي أدهش التبريزي حتى يقول عبارته البليدة: «أبو تمام في اختياره أشعر منه في شعره»؟ ومن هو التبريزي في ميزان النقد. ولماذا نكرر مثل هذه العبارة؟ بلادة!

لا، لم أعد شديد الفرح، أو الافتخار، بما صنعته لعرار وبعرار. قد صنعت ما يمكن أن يصنعه أي أحد. فشعر عرار سهل في لغته وفي معانيه. ولا يقتضي إلا أقل الجهد في الضبط والتشكيل، والشرح.

ومثلما فعلت مع عرار، مصطفى وهبي التل، شاعر الأردن الأشهر، فعلت مع غيره. وبقي عليَّ أن أعض بنان الندم على عشرين أو ثلاثين مرة تحدثت فيها عن اختياراتي حديث المعجب بما صنع.

عرار

ولد «مصطفى وهبي» بن صالح التل لأسرة معروفة في مدينة إربد بشمال الأردن. أبوه متعلم، وفتح مدرسة. واستقى الشاعر علومه في مكتب عنبر بدمشق في أواخر سني الدولة العثمانية، وكانت بعض الدروس بالتركية، وكان متمرداً غريب الطباع، ونُقل إلى مدرسة ببيروت ثم عاد إلى مكتب عنبر، واجتاز فحص الحقوق في الأردن. وعمل في التعليم في إربد بشمال الأردن، والكرك في جنوبه. وعندما كان في الخامسة والعشرين بدأ الحكم العربي في الأردن بمقدم الأمير عبد الله بن الحسين. وتولى الشاعر مهام إدارية عليا في عدة مناطق.

وخير من عرف نفسية عرار وشاعريته أمير البلد. كان عبد الله بن الحسين شاعراً، ومتذوقاً للشعر، وذا روح سمحة. وكان كثير الإنعام على الشاعر «النهَّاب الوهَّاب» بحسب قول الأمير. وسيعيش عرار ربع قرن في ظل الأمير عبد الله، (ثم ثلاث سنين وعبد الله ملك على شرق الأردن بعد الاستقلال الاسمي عام ١٩٤٦). ولا فرق بين عهد الإمارة والمملكة إلا في الاسم، فالإنجليز هم أصحاب الأمر وقائد الجيش منهم.

كان الأمير ينعم على الشاعر بالهبات ويرسل به إلى السجن أو المنفى.. مرة هكذا ومرة هكذا. فالشاعر طويل اللسان، منحرف في سلوكه، متمرد، سكير.

كان عرار يعرف قواعد الفارسية ويحتفظ بمعجم، وبهذا ترجم عدداً من رباعيات الخيام. لكنه كان يعرف التركية معرفة معقولة مكنته من الاستعانة

باللوائح القانونية. وكان يعرف العربية مما قرأ من كتب قليلة وما حفظ من شعر، لكنه قرزم طويلاً وهو يسدد ويقارب في اللغة والعروض، واشتد عوده فيهما متأخراً، لكنه مات ولما يأخذ نفسه بإتقان أداته الإتقان الذي يوجبه عليه اتباع الإرث الشعري الفصيح. لئن خسر من هذا الإهمال أشياء فقد أفاد أخرى. لم يكن واسع الحفظ، فنجا من التقليد، ولم يكن يعير مسائل اللغة كبير اهتمام فقال شعراً على السجية، فما خلص من شعره من العلل فهو من الشعر الأصيل العالي.

قضى حياته بين النُّدمان، وهم بالعشرات: بعضهم من موظفي الدولة، وكان يلتقي بهم في كوخ أعده أحدهم للشراب، فهذا «كوخ الندامى»؛ وبعضهم من أصدقائه الغجر الذين كان يرتاد مضاربهم في وادي الشتا، ووادي السير، وهما قرب عمَّان، ووادي اليابس في الشمال قرب عجلون.

وقع أشعاره باسم عرار، لعل ذلك من البيت المنسوب للمجنون: (تمتع من شميم عرار نجد/ فما بعد العشية من عرار)، أو من بيت عمرو بن شأس: (أرادت عراراً بالهوان، ومن يرد/ لعمري عراراً بالهوان فقد ظلم). وكان شاعرنا يعرف البيتين كما أخبرنا صاحبه ومترجمه يعقوب العودات في كتابه عن الشاعر.

وقد جمع عرار شعره في ديوان نوى أن يسميه «عشيات وادي اليابس»، ونُشر الديوان بعد موته بأربع سنين. لكن أكثر من نسخة صدرت بعد ذلك واحتوت على أبيات كثيرة لم ترد في النسخة الأولى. وأخذنا من نشرة زياد الزعبي. على أننا كنا قرأنا الطبعة الأولى في زمن غابر، ونسخنا منها أبياتاً، وانعقدت بيننا وبين هذه الأبيات صداقة عُمْر. فإذا ما رأيتني شديد الحماسة لبعض الأبيات التي تجدها أنت ضعيفة فاعلم أن المشكلة فيّ، فما أصعب أن يفتَكَّ المرء من سحر أبيات عرفها في مقتبل العمر.

١ شامة الدنيا

بالنفسِ يا شيخُ مِن تَقواكَ أشياءُ ضاقتْ بها مِنْ فَسيحِ الصدرِ أَرجاءُ

يخاطب الشيخ عبود النجار، وقد جاء إلى الأردن من الحجاز مع الملك عبد الله ابن شريف مكة الحسين

يا شيخُ ما العِلْمُ؟ حسبُ المرءِ مَعْرِفَةً أنَّ الشِّفاهَ بِوادِي السِّيرِ لَمْيَاءُ

وادي السِّير، على وزن الريم: مكان كان خويرج عمَّان وصار دويخلها، وكانت تسكنه جماعة من النوَر، الغجر، وشفاه فتياتهم لمياء، أي مسمرة

أَكُلَّ يومينِ تَرمِيني بِموْعِظَةٍ فَضفاضَةٍ نَسجُها: فِقهٌ وإفْتَاءُ

موعظتك منسوجة طولاً بالفقه وعرضاً بالفتوى

دمشقُ! يا جنَّةَ الدنيا وشامَتَها إنْ لم يكنْ فيكِ عن لَمْيَاءَ أنباءُ..

ويا دمشق! يا جنة الدنيا وشامتها، أي خال الحسن الأسود في وجنة الدنيا، إن لم يكن فيك أخبار عن المحبوبة التي اسمها «المياء». . أليس كان أحلى لو قال: يا شام يا جنة الدنيا وشامتها؟ ربما لم تخطر بباله، وربما رأى فيها تقعراً

فالقلبُ أَشهى إليهِ منكِ بَلْقَعَةٌ مِنْ سهلِ إرْبِدَ لا عُشْبٌ ولا ماءُ

فأفضل منك بلقعة، أرض جرداء، في سهل إربد، بشمال الأردن، خلت من العشب والماء

٢ أهكذا!

قالها، ١٩٣١، وهو في «مادبا» منفيّاً:

أَهكذا! حتى ولا مَرحَبا لِلَّهِ أشكُو قلبَكِ القُلَّبا

القُلَّب: المتقلب

أَهكذا! حتى ولا نظرةً ألمَحُ فيها وَمْضَ شوقٍ خَبا

خبا: خمد

أَهكذا! حتى ولا لَفْتَةً أَنسِمُ منها عَرفَكِ الطَّيِّبا

عَرف: رائحة طيبة

نَاشَدْتُكِ اللَّهَ، وأيَّامَنا ونَشوةَ الحُبِّ بِوادِي الصِّبا

حلَّفتك بالله وبأيامنا الماضيات وبنشوة الحب في زمن الصبا والشباب

وغُصَّةَ الذِّكْرى وآلامَها وحُرْمَةَ الماضِي وما غَيَّبا

وحلفتك بما تتركه الذكرى من مرارة في الحلق، وبحرمة الماضي وما غاب فيه من أمور كانت بيننا

لا تَسأليني أيَّ سِرٍّ لقد أَحالَ عُمْرِي خاطِراً مُرعِبا

عمَّانُ ضَاقَتْ بِي، وقد جِئْتُكُمْ أَنتَجِعُ الآمالَ في مَادَبا

ضاقت بي عمان وجئت أنتجع الآمال، أسعى وراء الأمل المنشود، في مادبا، القرية الأردنية

كَمْ رَصَّعَتْ أُفْقِي نُجومُ المُنى ثم تَهاوَتْ كوكباً كوكبا

ما أحيلى هذه القصيدة! بعض حلاوة شعر عرار أنه قلما قلد الأقدمين

٣ وطأة الأربعين

أَهَويً؟ ولاتَ اليومَ حينَ تَصابِ   وجَوَىً؟ وقد غَمَزَ المَشيبُ شَبابي

أيزورني الغرام؟ ولات حين تصابٍ، أي فات وقت اللهو. أيعتريني الجوى، ألم الفراق؟ وقد غمز المشيب شبابي، لكزه وقَرصَهُ قرصة تأنيب

والأربَعونَ بِقَضِّها وقَضيضِها   جَثَمتْ مُزَمْجِرَةً قُبالَةَ بابي

سن الأربعين بقضها وقضيضها، بكل ما فيها، أقعَت تزمجر قبالة باب بيتي تهددني بانتهاء زمن اللهو

٤ مساورة الدهر

«أَشَرِبْتَ؟» إي والـلَّـهِ إنِّـ   ـي قد شَرِبْتُ، وسوف أَشْرَبْ

أشربت؟ سؤال استنكاري كثيراً ما سمعه الشاعر وهو يأتي مجلس القوم متطوحاً سكران

الدهرُ يلعبُ بي وسو   ف بهِ، بِفضلِ الكأسِ، أَلْعَبْ

٥ أخو حانات

إنِّي أخو طَرَبٍ أعيشُ لِأَنْتَشي   عَلَّ الزمانَ يَدوخُ مِنْ نَشَواتي

سَكرانُ؟ قد صَدَقُوا وربِّ محمدٍ   إنِّي أخو طَرَبٍ فَتى حاناتِ

٦ الوطن؟ البقاء في حياتكم!

هاتِها واشْرَبْ فإنَّ العيدَ فِصْحُ   وقبيحٌ بِالفَتى في العيدِ يَصْحُو

إنَّ هذا العمرَ ليلٌ ما لـه   يا أخِي في غيرِ أُفْقِ الكأسِ صُبْحُ

سَكِرَ الدهرُ فقُلْ لي كيف أصحُو   والنَّدَى يَبْخَلُ والجُودُ يَشِحُّ

الزمن سكران فالندى، أي السخاء، يقل، والجود يصبح نادراً

وأنا يا سيِّدي المُفتِي كما   قلتَ عنِّي: حيثُ يَنحُو الحبُّ أَنْحُو

ينحو: يتجه

وأَمانِيَّ شَبابٌ فاتَها   مِثْلَما فاتَ بَني الأُرْدُنِّ نُجْحُ

أمنياتي فتيَّة، وقد فاتها النجح ولم تحقق المراد، مثلما فات أهل الأردن تحقيق أمنياتهم

أيها الباكي على أوطانِهِ   لا يَرُدُّ الرُّوحَ لِلمَيِّتِ نَوْحُ

٧ اليهود والغنيمة

نشرت سنة ١٩٣٣:

عـبُّـودُ شـيـخٌ اسـمُـهُ عَـبُّـودُ
وفِـقْـهُـهُ مُـخـتـصـرٌ مُـفـيـدُ
مـوضـوعُـه: فـي الـجـنَّـةِ الـخُـلـودُ
حِـصَّـةُ مَـنْ فـي جـيـبِـهِ نُـقـودُ
فـي مَـوطِـنٍ سـكـانُـه عَـبـيـدُ
هـيـهـاتَ مـنِّـي كـلُّ مـا أريـدُ
إن فـازَ بِـالـغـنـيـمَـةِ الـيـهـودُ
فـحَـوْضُـهُـمْ لا حَـوضُـكَ الـمَـوْرُودُ
فَـلْـيَـهْـنِـكَ الـقـيـامُ والـقُـعُـودُ

فليهنك: هنيئاً لك

ويَـهْـنِـكَ الـركـوعُ والـسـجـودُ

٨ رثاء الهبر

أشيع، سنة ١٩٣٤، أن «الهبر» شيخ النور مات:

مُتْ كما شِئْتَ فالنَّدامَى بِلَهْوٍ — ليس مِنْ شأنِهِمْ عليكَ الحِدَادُ
أَيُّـهذا الترابُ بُورِكْتَ مِنْ قا — ضٍ لِأحكامِهِ اسْتراحَ العِبادُ

٩ بعناه فباعنا

عـبودُ قالَ، فـما لـنا ومـقالِـهِ: — السُّكْرُ في نظرِ الشريعةِ مُنْكَرُ

عبود: هو عبود النجار، الشيخ المفتي

والخمرُ رِجْسٌ، والكؤوسُ بِرأْسِ مَنْ — شَربوا بِها يومَ الحسابِ تُكَسَّرُ
إنَّ الإلَـهَ الـحـقَّ جَـلَّ جـلالُـهُ — مِنْ أنْ يقولَ بِقولِ شيخِكَ أَكبرُ
فَهَلُمَّ نَشْرَبُها فَلَوْنُ حَبابِها — ذَهَبٌ كَشَعْرِ الشَّرْكَسِيَّةِ أشقَرُ

هيا نشرب الخمر فلون حبابها، فقاقيعها ذهبي كشعر الشركسية، الفتاة من الشركس، وهم بعض أهل الأردن، وفيهم بياض بشرة وشُقرة شعر

أَوَلَمْ تَرَ العُرَفَاءَ كيف تَهَوَّدُوا أَوَلَمْ تَرَ المُتَعَلِّمينَ تَنَصَّرُوا

العرفاء: العارفون المثقفون

والبائِعينَ بِلادَهُمْ بِقُلامَةٍ قد أَقدَمُوا، والمُخْلِصينَ تَقَهْقَروا؟

ألا ترى الذين باعوا بلادهم بقلامة ظفر يتصدرون المجالس، والمخلصين لقضايا الوطن يتراجعون؟

فَالحُرُّ فينا لِلعُلُوجِ مَطِيَّةٌ والعَفُّ منا لِليهودِ يُسَمْسِرُ

أحرار الوطن يأتمرون بأمر العلوج، الإنجليز الذين كانوا يديرون للملك عبد الله إمارة شرق الأردن جيشاً واقتصاداً، والعف منا، أي العفيف، يسمسر لليهود ويتوسط للتسهيل لهم، ولم تكن لهم آنذاك دولة بفلسطين، وكان للأمير عبد الله لقاءات كثيرة مع زعمائهم

بِعْنا العُروبَةَ بِالوظيفةِ، وانبَرى لِيَبيعَ غَورَ أَبي عُبَيْدَةَ أَزْعَرُ

تصدى لمنح امتيازات في غور «أبي عبيدة»، حيث قبر الصحابي أبي عبيدة عامر بن الجراح، قرب مدينة السلط، أزعر.. والأزعر في كلام أهل الأردن هو القصير، ولم يكن في البلاد أقصر من الأمير عبد الله بن الحسين

لا تَعْجَبَنَّ لِفعلِنا، فنفوسُنا رغمَ الظواهرِ بِالدَّناءَةِ تَزْخَرُ

يا هَبْرُ يا طَبَّالُ، يا مَنْ قَومُهُ مِنْ كلِّ سَفْسَطَةٍ تَغُلُّ تَحَرَّرُوا..

يا هبر، والهبر زعيم النَّوَر، يا من قومه قد تحرروا من كل حذلقة تغل المرء وتقيده..

إنَّا على ما قَدَّرُوهُ لِشَأْنِنا مِنْ قيمَةٍ مِنْ شِسْعِ نعلِكَ أَحْقَرُ

اعتبارنا عند الإنجليز أقل قيمة من شسع نعلك، أي من السير الجلدي الذي على وجه النعل

حاكَ الصَّغارُ لَنا رِداءَ رِئاسَةٍ يَلْهُو بِقَرْضِ خُيوطِهِ المُسْتَعْمِرُ

الصغار والذل قد نسج لنا ثوباً من الرئاسة، فزعم بعضنا أنهم يتصدرون للزعامة، ولكن المستعمر يتسلى بقرض خيوط هذا الثوب وإفراغ رئاستنا المزعومة من محتواها

يا هَبْرُ! هاتِ لِيَ الرَّبابَةَ وانطَلِقْ بي حيثُ قومُكَ أَسْهَلُوا أم أَصْحَرُوا

هيا لنذهب ومعنا الربابة إلى قومك.. أكانوا في السهل أم في الصحراء. وكان النور ينشدون أغنياتهم على أنغام الربابة، واندمجوا بشكل حسن في المجتمع الأردني الذي منحهم المواطنة والاستقرار

أنَا مثلُكُمْ أصبحتُ لا أرضٌ، ولا أهلٌ، ولا دارٌ، ولا لِيَ مَعْشَرُ

١٠ نفسي خضراء

ظَبَيَاتِ وادي السَّيرِ هل نَفَرَتْ مِنْ سِرْبِكُنَّ الظَّبْيَةُ السَّمْرا؟

يا فتيات وادي السير، وكان هذا الوادي قرب عمّان ودخل الآن فيها، هل شَرَدَت الفتاة السمراء من السرب؟

فَهِيَ التي خطَّتْ أنامِلُها في سِفْرِ حُبِّي آيَةً غَرَّا
وتَلَتْ عليَّ مِنَ الهوى سُوَراً رَتَّلْتُها مُتَرَنِّماً شِعْرَا
ومَضَيْتُ أَسأَلُ كلَّ فاتنةٍ كَرَماً وجُوداً نَظْرَةً شَزْرى

أتسول من كل فاتنة نظرة، ولو شزرى، أي غاضبة

رَيَّانَةَ الألْحاظِ مِنْ حَوَرٍ زِيدي رِسالَةَ حبِّنا سَطْرا

يا من تلمع ألحاظها، عيناها، بمائهما وبما فيهما من حور، شدة سواد في شدة بياض واصلي معي درب الغرام

ما زالَ قلبُكِ ما يزالُ بِهِ رَمَقٌ، ونفسيَ لم تَزَلْ خَضْرا

ما زال في قلبك رمق، بقية حياة، ونفسي ما زالت خضراء، والنفس الخضراء هي المقبلة على الغرام.. وقالوا أيضاً عن الكهل المتطلع إلى زواج أو غرام إن نفسه «طرية»

سَكْرانَةَ الألْحاظِ مَرْحَمَةً جِنِّي عليَّ بِنظْرَةٍ سَكْرَى
وإذا مَدَدْتُ إلى يديْكِ يَدي فَتَلَمَّسي لِتَسَوُّلي عُذْرا
فحياةُ أمثالي إذا صَفِرَتْ مِنْ عَطْفِ مِثْلِكِ أصبحتْ صِفْرا

صفرت: خلت

هلا اتَّقَيْتِ اللَّهَ في كَبِدٍ حَرَّى، وعيشٍ لم يَزَلْ مُرَّا
وَثَّابَةَ النَّهْدَيْنِ حَاجَتُنا لِزَكاةِ حُسْنِكِ لم تَعُدْ سِرَّا

يطالبها أن تدفع له زكاة عن جمالها.. قبلة مثلاً

شِبْنَا وحُبُّكِ ما يَزالُ فَتىً غَضَّ الإهابِ يُغازِلُ الدَّهْرا

غض الإهاب: طري الجلد

١١ الحال الماشية

أصبحْتُ أشربُ كُنْياكاً ويَشْرَبُني ولَسْتُ أَدري لَعَمْرِي أَيُّنا سَكِرا

الكنياك شراب يجلب الدفء للجسم والصداع للرأس

ويَسـألـونَـكَ عـن حـالـيِ أَمَـاشِـيَـةٌ؟ فـقـل لَـهُـمْ: إِنَّـهـا تَـمْـشـي بِـهِ لِـوَرا

١٢ بين الخرابيش

ليتَ الوقوفَ بِوادي السِّيرِ إجباري وليتَ جارَكَ يا وَادي الشِّتا جاري

كان قوم من النَّوَر، غجر بلاد الشام، يسكنون وادي السير ووادي الشتا، وكانوا أهل طرب وغناء، وكان الشاعر لاطِياً بمضاربهم لا يكاد يفارقها

ظَنَنْتُني جُزْتُ عن طَرْدِ الهَوى، فإذا حِـسـابُـهُ لـم يَـزَلْ فـي دَفْـتـرِي جَـارِ

طرد الهوى: صيد الحسان. والحساب الجاري في دفتر البقال حساب مفتوح يشتري صاحبه الأشياء ويدفع لاحقاً

ومـا تَـوَهَّـمْـتُـهُ زُهْـداً ورُحْـتُ بـه أعلِّلُ النفسَ غيرُ الواقِعِ الجَاري

زهدي الوهمي الذي خدعت به نفسي مختلف عن حقيقة مشاعري

يـا هَـبْـرُ، هـاتِ، فـإن الـلَّـهَ بـارئَـنـا وخَـالِـقَ الـكَـرْمِ، رَبٌّ جِـدُّ غَـفَّـارِ

هات شرابك يا هبر، يا زعيم النور، فالله، الذي خلق كروم العنب التي تؤول إلى خمر، غفور

وصَاحِبٍ مِنْ بَنِي النَّجَّارِ عِمَّتُهُ كـأنَّـمـا هِـيَ بَـارَاشُـوتُ طَـيَّـارِ

رب صاحب من بني النجار، وهو المفتي عبود النجار، له عمامة كبيرة كأنها مظلة

يَـرى مَـواعِـظَـهُ وَقْـفـاً عـلـى أُذُنـي وأنَّ رأسَ الـتُّـقَـى زَجْـرِي وإِنـذَارِي
كَـأنَّ عَـمَّـانَ لـم تَـعْـرِفْ أخـا طَـرَبٍ غـيـرِي يَـحُـجُّ إلـى حَـانـاتِ خَـمَّـارِ
الناسُ قَالوا، وهَبْهُمْ يا أخي غَرِقُوا فـيـما يُخُوضُونَ مِنْ شَتْمٍ وإِهْجَارِ

إهجار: هُجْر القول وفُحشه

فمَـا لِأَهْـوائِـهِـمْ شـأنٌ يَـزيـدُ عـلـى شَـأْنِ الأَثَـافِـيِّ بـيـنَ الـقِـدْرِ والـنَّـارِ

أهواء الناس وآراءهم لا قيمة لها سوى قيمة الأثافي، أي حجارة الموقد، وليس لحجارة الموقد من قيمة سوى الإسناد، فالقيمة الحقيقية هي للنار وللقدر

بـيـنَ الـخَـرابـيـشِ لا عَـبْـدٌ ولا أَمَـةٌ ولا أَرِقَّـــاءُ فـــي أزيـــاءِ أَحْـــرارِ

الخرابيش: بيوت النور

ولا جُـنَـاةٌ ولا أَرْضٌ يُـضَـرِّجُـهـا دَمٌ زَكِـيٌّ، ولا أَخَّـاذَ بِـالـثَّـارِ

العلاقات بين النور سهلة، فلا قتل ولا جنايات لاكتشاف علاقة بين شاب وفتاة

ولا نُضَارٌ ولا دَخْلٌ ضَرِيبَتُهُ تُجْبَى، ولا بَيْدَرٌ يُمْنَى بِعَشَّارِ

وليس عندهم نضار، أي ذهب، ولا ضريبة دخل، وليست لهم زراعة وبيدر حصاد يمنى، أي يبتلى، بعشار يفرض ضريبةً مقدارها عُشْر المحصول

الكُلُّ زُطٌّ، مُسَاوَاةٌ مُحَقَّقَةٌ تَنفي الفَوارِقَ بينَ الجارِ والجارِ

الزط: قوم عاشوا على الهامش الاقتصادي لمجتمعات عربية وغير عربية منذ القدم

بين الخَرابِيشِ لا كِذْبٌ ولا مَلَقٌ ولا وُشَاةٌ ولا رُوَّادُ أَخبارِ

ملق: تملق، رواد أخبار: ناس يتسقطون الأخبار ويتسلون أو يتاجرون بها

ولا جَواسِيسَ أَنَّى سِرْتُ لاحَقَني أَوْغَادُهُمْ خِلْسَةً يَقْفُونَ آثاري

بين الخَرابيشِ لا حِبْرٌ ولا وَرَقٌ ولا يَراعٌ ولا تَدْوينُ أَسفارِ

يراع: قلم

يا بِنْتُ! وادي الشِّتَا هَشَّتْ خَمائِلُهُ لِعَارِضٍ هَلَّ مِنْ وَسْمِيٍّ مِبْدَارِ

يا بنت، لقد انحنت خمائل وادي الشتا، نباتاته، لعارض هل، لسحاب ظهر، من وسمي مبدار، من مطر ربيعي باكر

دَعي المدينَةَ لا يَخْدَعْكِ باطِلُها فَزَيْفُها بيِّنٌ مِنْ غيرِ مِنظارِ

خَدَّاكِ يا بنتُ مِنْ دَحْنُونِ دِيرَتِنا سُبحانَهُ بَارِئِ الأُرْدُنِّ مِنْ بَاري

الدحنون: زهر أحمر، وسماه بعضهم الصاقِصلي، وبعضهم الحَنُّون

١٣ صحبة الكاس

للشيخِ عَبُّودَ - لا رَثَّتْ عِمَامَتُهُ - وَعْظٌ أَضيقُ به ذَرعاً وجُلَّاسي

«لا رثت عمامته» أي لا اهترأت، دعاء طريف لشيخ

يا شيخُ دَعْني مِن التَّقوى وآلتِها إِنِّي استَعَضْتُ عن الأَذْكارِ بِالكاسِ

الأذكار: الابتهالات

١٤ رضعت هواها

أفي كُلِّ يومٍ أنتَ مُضْنىً مُرَوَّعُ تَشوقُكَ أَوْطانٌ وتُصْبِيكَ أَرْبُعُ

مضنى: مريض بالحب، مروع: خائف من الفراق، تصبيك أربع: تَشُوقُكَ مواضع وتجعلك تحنُّ إليها

تَعَشَّقْتَها طِفلاً صغيراً كأنَّما رَضِعْتَ هَواها قبلَما كنتَ تَرْضَعُ

١٥ أنا شاعر الأردن

رثاء فؤاد ابن عم الشاعر:

إنَّ المنيَّةَ لا تَطيشُ سهامُها فابْنُ القصورِ يموتَ كابْنِ الشارعِ
قد قَارَعَتْني الحادثاتُ فلم تَنَلْ مِنِّي خَلا إرغامَ أَنفِ مُقارِعي

حاربتني المصائب، ولم تنل مني، لم تضعضعني، اللهم إلا أنها أذلت خصمي عندما رآني صامداً

لكنَّ فَقدَكَ يا فؤادُ، وإن يَكُنْ أَجَلاً دَنا، سيظَلُّ شَرَّ فَواجِعي
حتَّى القبورُ تَجوعُ، تلكَ عَجيبةٌ وَيْحَ القَويِّ مِنَ الضعيفِ الجائِعِ
أَفؤادُ جِئْتُكَ للسلامِ فَحَيِّني واجْتَحْ حُدودَ الرَّمْسِ إنْ تَكُ سامِعي

يريده أن يجتاح حدود الرمس، أي القبر

أنا مُصْطَفَى وَهْبِي، أتعرِفُ مَنْ أنا؟ أنا شاعرُ الأردُنِّ غيرَ مُدافَعِ

غير مدافَع: غير منازَع.. لا ينازعه أحد في دعواه

قد جئتُ أستَجْديكَ ردَّ تحيَّتي رُدَّ التحيةَ، عَلَّ ردَّكَ نافِعي

١٦ حب الشركسية

خَليلَيَّ حُبُّ الشَّركَسِيَّةِ شَفَّني ولم يُبْقِ مِنِّي غيرَ حِبٌّ على وَرَقْ

غيرها ناشر الديوان وجعلها «غير حبر على ورق» قائلاً إنها «خطأ واضح». ربما كان محقاً. لكن يعقوب العودات في كتابه يجعلها «حب على ورق»، وأحببنا أن نكسر الحاء، فالحِب هو الحبيب، وهي بكسر الحاء أقرب إلى «حبر»، وبذلك تتم النكتة

ولم يُبْقِ مِنِّي غيرَ رَسْمٍ تَرَوْنَهُ وقَلبٍ لِغَيرِ الشَّرْكَسِيَّةِ ما خَفَقْ

رسم: طلل، آثار منازل

١٧ الحياة كؤوس

قَسماً بِوادِي السِّيرِ والبلدِ الذي فيه الحسانُ نَصَبْنَ لي أَشْراكا

وادي السير: موضع قرب عمان كانت فيه مضارب للنور، أشراك: مصايد

إن الحياةَ هِيَ الكؤوسُ وربَّما كان الضلالُ بِهِنَّ بعضَ هُداكا

وشَرِبْتُ كُنْياكاً وقلتُ لِصاحِبِي: لا عَاشَ مَنْ لا يَشْرَبُ الكُنْيَاكا

الكنياك: من المسكرات الرديئة

١٨ من أنا لولاكِ؟

صَرَعَتْهُ بعدَ تَطاحُنٍ وعِراكِ لُغةُ العيونِ وجَرْعَةُ الكُنياكِ

الكنياك: مسكر رديء

يا ظَبْيَةَ الوادِي، وما الوادِي إذا لم تُؤْنِسيهِ؟ ومَنْ أنا لَولاكِ؟

١٩ ما تحرك

يا شيخُ اِكْفِ الطِّبَّ شَرَّكْ فالطِّبُّ ليسَ يُقيمُ أَمرَكْ

أصيب الشيخ فؤاد الخطيب بارتخاء! والتمس علاجاً يقيم ما ارتخى منه، وكلمة أمرك في البيت دخلها تصحيف فمن شاء صححه ومن شاء تجاهله. أردنا أن نتأدب ونتجاهل مثل هذا الشعر، ثم رأيناه أُنشد في حضرة أمير البلاد.. فقلنا: لا والله لا نكون أتقى من ابن شريف مكة!

تَاللهِ لو شاءَ المسيـ ـحُ له حَراكاً ما تَحَرَّكْ

ومما نقل أن المسيح أقام المقعدين وشفى المرضى

فَأَرِحْ أطبَّاءَ المديـ ـنةِ، واكفِهِمْ يا شيخُ شَرَّكْ

٢٠ هبَّ الهوا

هبَّ الهَوا وشَجاكَ أن نَسيمَهُ في ضَفَّةِ الأردنِّ ريحَ سَمُومِ

هب الهواء وأحزنك أنه في ضفة نهر الأردن الشرقية كان ريح سموم عاتية رملية

وأنا وأنتَ أَذَلُّ مِنْ وَتَدٍ، ومِنْ عَيْرٍ بِإِسْطَبْلِ الهَوانِ مُقيمِ

يضربون المثل بذلة الوتد الذي يدق على رأسه دقاً في الأرض، والعير الحمار، وهو هنا ماكث في إسطبله مهاناً

والشعبُ أضيعُ عندَهُمْ مِنْ سائلٍ قَذِرٍ يَمُدُّ ذِراعَهُ لِلَئيمِ

سائل: متسول

يا مُدَّعِي عَامِ اللِّواءِ بَلاؤُنا سَيَظَلُّ مهما خَصَّصوهُ عُمُومي

المدعي العام: النائب العام

خَلِّ الجَريمةَ، إنَّ سِرَّ وقوعِها   لو رُحْتَ تَنْشُدُهُ تَجِدْهُ حُكُومي

تنشده: تطلبه

لا يَستقيمُ الظِّلُّ يا ابْنَ أخي إذا   ما كان أصلُ العُودِ غيرَ قَويمِ

لا يستقيم الناس ما دام الأصل، أي الحكم، منحرفاً.. فكيف يستقيم الظل والعود غير مستقيم؟

زَيْتونُ بُرمَا رَغْمَ أنفِكَ دَاشِرٌ   ما زالَ وَهْوَ كذاكَ منذُ قَديمِ

أشجار الزيتون في منطقة بُرما عند عجلون مفرقة في الجبال وداشرة، مشاع لمن يقطفها، وهذا شأنها من قديم. والمثل الأردني يقول: «زيتون برما داشر، وتعيَّشوا يا هَمَل». والمغزى أن الأمور في البلد سائبة كزيتون برما

هَبَّ الهَوا، وأنا وأنتَ يَهُمُّنا   قبضُ المعاشِ بِيومِهِ المَعلومِ

ما كان في الأردنِّ مِنْ رجلٍ له   صفةُ الرجولةِ في ثيابِ زَعيمِ

ليس في الأردن زعيم يتصف بالرجولة

وحكومةُ السُّفهاءِ لم نَعرِفْ لها   وَجهاً بهذا المَوطِنَ المشؤُومِ

حكومتنا لها ألف وجه فلا نعرف ماذا تريد

باعوا البلادَ وحَضرتي وجنابَكُمْ   لكنْ بِلا ثمنٍ، إلى حاييمِ

حاييم اسم عبري، رمز ليهود فلسطين. وكان للحكم في إمارة شرق الأردن علاقات بالمستوطنين اليهود إبان الانتداب البريطاني على البلدين

٢١ زمن صعلوك

لَمَّا وجدتُ مكارمَ الـ   ـأخلاقِ في الدنيا كلامْ

ورأيتُ أن المَيْنَ والتَّـ   ـدْليسَ أوفى بالمَرامْ

لما رأيت المين، الكذب، والتدليس، إخفاء الحق، أحسن تحقيقاً للغايات

حَرَّرتُ نَفسي مِن قيو   دِ الفضلِ في عُرْفِ الكِرامْ

وزَجَجْتُها في زُمْرَةِ الـ   ـمُتَصَعْلِكينَ مَع الطَّغامْ

أدخلت نفسي في عصبة الصعاليك مع الطغام، الدهماء

وأَهَبْتُ بالساقي أنَ اسْـ   ـرِعْ بِالسُّلافَةِ يا غُلامْ

السلافة: الخمر

إنَّ الـقَـداسـةَ لـو تَـقـيِ   يـا شـيـخُ مِـنْ وَقْـعِ الـسِّـهـامْ . .

لو أن القداسة تقي وتحمي من السهام . .

مـا اسـتُـهـدِفَ الـبـيـتُ الـحـرا   مُ لِـمَـا تَـرى ، وخَـلاكَ ذَامْ

لما استُهدف البيت الحرام بمكة ، واستولى عليه الحكم السعودي من شريف مكة الحسين بن علي عام ١٩٢٤ ، وخلاك ذام . . دعاء . . أي عدَّاك العيب

فَـاقْـصِـرْ حَـديـثَ الـفِـقْـهِ يـا   عَـبُّـودُ لا تَـزِدِ الـمَـلامْ

فيا شيخ عبود ، أيها المفتي الذي هجر الحجاز إلى الأردن مع الأمير عبد الله ، كف عن التكلم بالفقه ولا تكثر من اللوم

واذهـبْ ودَعْـنـي اسْـتَـضـيِ   ءُ بِـنُـورِ رَاقِـصَـةِ الـظـلامْ
وتَـمـايَـلَـتْ فـأمـالَ عَـقْـ   ـلـي فـي تَـثَـنِّـيـهِ الـقَـوامْ
يـا بـنـتُ يـا مَـنْ أَمْـرُهـا   لَـمَّـا تَـعـاوَجَـتِ اسْـتَـقـامْ

عندما تمايلت الراقصة استقام أمرها وكانت في أحسن حالاتها

لـولا الـرغـيـفُ وفَـقْـرُ أهْـ   ـلِـكِ واحْـتـيـاجُـكِ لـلـطـعـامْ
هـل كـنـتِ تَـرْضَـيْـنَ الـحـيـا   ةَ كَـذا ، وفـي هـذا الـمَـقـامْ
يـا لُـقـمـةَ الـخـبـزِ الـتـي   أَشْـقَـتْ بِـحـاجَـتِـهـا الأنـامْ

٢٢ الحور العين

هَبَلَتْكَ أمُّكَ ، والحديثُ شجونُ   ظَبَياتُ وادي السِّيرِ حُورٌ عِينُ

ثكلتك أمك . . انظر إلى الغجريات من فتيات «وادي السير» فهن كالحور العين

سَلمَى! بِماحِصَ قد تألَّقَ مَوْهِناً   برقٌ ، وبَلَّ ثَرى الفُحَيْصِ هَتُونُ

يا سلمى! يا فتاة ماحص ، وهي قرية قرب عمَّان ، قد تألَّق ليلاً برق ، وبل تراب الفحيص ، قرية أخرى ، سحاب هتون ، ماطر

هل تَذكُرينَ تَدَلُّهي وتَوَلُّهي   بِكِ ، والحياةُ كما أُريدُ تَكونُ

أتذكرين هيامي بك أيام كانت الحياة تجري على هواي

وذَوائِبي لم تَشْتَعِلْ شَيْباً ، ولم   تَزحَفْ عَلَيَّ ، وقد كبِرتُ ، غُضُونُ

وخصلات شعري لم تكن قد شابت ، ولم تزحف على وجهي التجاعيد

٢٣ التوبة

كتب في منفاه بالعقبة:

أَمَــــوْلانـــــا، أَمَـــوْلانـــــا! هَــجَــرْنــا الــدَنَّ والــحــانــا

يا مولانا الشيخ! قد هجرنا الدن، جرَّة الخمر، والحانة

وبُــدِّلْــنــا مِــنَ الــمَــنــظــو مِ والــمَــنــثــورِ قــرآنــا

ولم نعد ننظم شعراً ولا نكتب نثراً، فكل كلامنا صار قرآناً

كــأنَّــا لــم نــكــنْ بِــالأمْــ ــسِ مِــنْ سُــكــانِ عَــمَّــانــا

طال مكثنا في المنفى بالعقبة، فكاننا لم نكن نسكن العاصمة عمان

ولــم نَــسْــحَــبْ لِــكُــلِّ هــوىً بِــوادِي الــسِّــيــرِ أرْدَانــا

وكأننا لم نسحب أردانتا، أكمامنا، لكل غرام يلوح لنا في «وادي السير» قرب عمان

ولا فــي جُــرْعَــةِ الــوِسْــكِــيِّ- قــد أَغْــرَقْــتُ أَحــزانــا

وكأني ما كنت أغرق أحزاني في كأس الوسكي

أمــــولانـــــا، أمــــولانــــا بِــأَيْــلَــةَ طَــالَ مَــثْــوانــا

طال مثواي، مكوثي، منفياً في أيلة، العقبة

وكــم بِــالــحِــصْــنِ فَــاتِــنَــةٍ تَــذوبُ أَسَــىً لِــذِكْــرانــا

ما أكثر الفاتنات في قرية «الحصن» اللائي يذبن حزناً لذكرى وصالنا

تــظُــنُّ وقــد أَطَــلَّ الــصَّــيْــ ــفُ أنَّ لِــقــاءَنــا حــانَــا

الفاتنة منهن تظن أن اللقاء قد حان مع قدوم الصيف

تُــســائِــلُ مَــنْ تُــصَــادِفُــهُ: رُجــوعُ عَــرارَ هَــلْ آنَــا

آنَ: أزف وحلَّ وقته

فــقُــلْ لِــلــشَّــوْقِ أهــلُ الــذَّوْ قِ مــا اهْــتَــمُّــوا بِــشَــكْــوَانــا

وأَبْــلِــغْ شــيــخَــنــا عَــبُّــو دَ عــنَّــا بــعــضَ مــا كــانــا

لِــنَــسْــتَــفْــتِــيِــهِ هــلْ صَــحَّــتْ بِــهــذا الــشــكــلِ تَــقــوَانــا؟

فهل صحت تقوانا بهذه التوبة يا شيخ عبود؟

٢٤ توبة عن التوبة

وَهِمْتَ فليسَ ما سَمَّيْـ ـتَهُ الإيمانَ إيمانا

أنت واهم يا عرار فليس إيمانك هذا صحيحاً

وذُو الشوقِ القديم إذا تَذَكَّرَ عادَ وَلهانا

فَدعْ عنكَ الهُراءَ، وقُمْ نُذِعْ لِلناسِ إعلانا

ألا مَنْ يشتري بِالحَا نِ، والألحانِ تَقوَانا

من يبادلنا فيأخذ تقوانا ويمنحنا الحانة والغناء؟

بِسِعْرِ صَلاةِ أُسبوعٍ بِبعضِ الكأسِ مَلآنا

نصلي أسبوعاً مقابل بعض الكأس

لَوَ انِّي أَرْأَسُ الوُزَرا ءَ أو قَاضٍ كَمَولانا

لَأَلْغَيْتُ العِقابَ، ولم أَدَعْ لِلنَّفْيِ إمْكانا

أَمَا وأَنا مَنِ اتَّخَذُو هُ لِلإرهَاقِ مَيْدَانا..

وبما أنني أصبحت مطية لأحكامهم التي ترهقني..

فَهاتِ الكَأْسَ مُتْرَعَةً مِنَ الصَّهْباءِ أَلْوَانا

فهات الكأس مملوءةً من الصهباء، أي الخمر، بأنواعها

وقُلْ إنْ قِيلَ لا عَفْوٌ لَعَلَّ العَفْوَ لا كَانا

ولست بحاجة لعفوهم عني وردي من منفاي

فَعَيْنُ العَزْمِ تَرمُقُنا وعينُ الحَزْمِ تَرعَانا

ولُطْفُ الكأسِ إثْرَ الكأْ سِ نَشْرَبُها تَوَلَّانا

فَحَسْبي بِالنَّخيلِ البَا سِقِ الفَيْنَانِ جِيرانا

وأنا راض بنخيل العقبة الفينان، العالي الظليل

وبِالنُّوريَّةِ الحَسنا ءِ والصَّحراءِ نُدْمَانا

٢٥ الدارعة

قد أُعْطِيَ الناسُ ما شاءُوا وما رَغِبوا أمَّا الرَّزَايا فكانتْ مِنْ عَطَايانا

الرزايا: المصائب

مَنْ كان يَحسَبُ أنَّ العُرْبَ يَخدَعُهُمْ مَنْ كُنتَ تَحسَبُهُمْ لِلعُرْبِ أَخْدَانا؟

من ذا ظن أن العرب سيخدعهم من كانوا لهم أخداناً، أصدقاء؟ فالإنجليز خدعوا الشريف حسين بعد الحرب العالمية الأولى ولم يمنحوه دولة عربية يحكمها

أَبا طَلالٍ، وأنتَ اليومَ رائِدُنا نَغدُو إليكَ إذا ما الدهرُ عادانا

يا أبا طلال، الأمير عبد الله أمير شرق الأردن، نأتيك عندما يعادينا الزمن

فَخُذْ بِأيدِيَنا يا ابْنَ النَّبِيِّ وَثِبْ فإنَّكَ اليومَ بعدَ اللّهِ مَلجانا

فساعدنا، وأنت من سلالة النبي، واقفز لدفع الظلم

أَطْلالُ يافا وحيْفا أَمسِ بَرْقُهُما قد رَفَّ وَهْناً فَأشْجانا وأَبكانا

قد رأينا أمس برقاً يلمع من جهة يافا وحيفا بفلسطين فأحزننا

يا ابْنَ النبيِّ أَلم، عَنْ أهلِ أَنْدَلُسٍ، تَأتيكَ دارِعَةٌ تَروِي حَكايانا؟

ألم تأتك امرأة من الأندلس المغتصبة وهي لا تلبس إلا درعها، ثوبها الداخلي، لتروي ما يحدث؟ وكان يأتي رجال ونساء من الأندلس يروون قصصاً عن فظائع الغزاة أيام سقوط الأندلس. ويقولون عن المرأة التي تخرج من بيتها مكشوفة الفرع، أي الشعر، وبلباس البيت: خرجت فارعة دارعة

٢٦ بالماء والصابون

لا تَذْهَبَنَّ إلى مَعَانَ فما بِها مِنْ واضِحِ النَّشَواتِ غيرُ ظُنونِ

معان: بلدة بجنوب الأردن، النشوة: السُّكر

يا قائِدَ الدَّرَكِ المُلَمِّعِ سيفُه بِالماءِ والإسفَنْجِ والصَّابونِ

الدرك: شرطة الحدود

حَسْبي مِنَ الماضي ومِنْ أحلامِه ذكرى تَوَامُضُ برقِها يُشْجِيني

توامض: لمعان

واقْصُرْ مَلامَكَ، إنَّني رَجُلٌ لقد بِالكأسِ بِعْتُ خَوابِياً مِنْ ديني

الخوابي: جرار الخمر الكبيرة.. وهي الدنان

٢٧ باب العفو

إنَّ الزمانَ، ولا أقولُ زماني، بينَ الطَّوابِعِ والرُّسومِ رَماني

الطوابع: طوابع الواردات التي يلصقونها على المعاملات الرسمية، والرسوم: ضرائب المعاملات. وكان شاعرنا موظفاً

وأَحالَ لَذَّاتي وَساوِسَ حاسِبٍ   يَهذي بِضَرْبِ ثَلاثَةٍ بِثَمانِ

فانظُرْ إلى النُّدْمانِ كيف تفرَّقوا   بَعدي، وكيف عَلَا الغبارُ دِناني

الدنان: جرار الخمر

وإلى قَريضيَ كيف أَصبحَ تافهاً   وإلى بليغِ القولِ كيف عَصاني

قريضي: شعري

يا أختَ سَلمى في غِناكِ عُذُوبَةٌ   تُبكي ويُغرِقُ دمعُها أَحْزاني

أَهْلُوكِ قد جَعَلُوا جمالَكِ سِلعَةً   تُشرَى، وبَاع بَنُو أبِي أَوْطَاني

وذَوُوكِ قد مَنَعُوكِ كلَّ كَرَامةٍ   وأنا كذلكَ حَارِسِي سَجَّاني

يا بِنْتُ! تحقيقُ العَدالَةِ رُكْنُهُ   وَلَعُ القُضاةِ بِراحةِ الوِجْدانِ

وَلَعي بِكأسٍ في ارتِشَافِ رَحيقِهِ   سُكْرٌ يُحيلُ النائباتِ أَماني

ولع القضاة براحة الوجدان كوَلَعي بالكأس التي في رشف خمرها سكر يجعل المصائب أمنيات جميلة

ويُريكِ فِقْهَ الشيخِ أقوالاً بها   ما أَنْزلَ الرحمنُ مِنْ سلطانِ

فإذا جهنَّمُ جنَّةٌ، وإذا الأَسى   نُعْمَى، وإذْ نُوَبُ الزمانِ أَغانِ

النوب: المصائب

وإذا بِعَفْوِ اللَّهُ يَفْتَحُ مُغلقاً   عَبُّودُ أَوْصَدَهُ على الغُفْرانِ

يا شيخُ، قولُكَ «مَا أشَدَّ عِقابَه»   غَمْزٌ بِوَصْفِ الرَّاحِمِ الرحمنِ

حديثك أيها الشيخ عن عقاب الله تعريض برحمته

يا ربِّ إنْ بَلْفُورُ أَنْفَذَ وعدَهُ   كم مُسْلِمٍ يبقَى وكم نَصْراني

وكِيانُ مَسْجِدِ قَريَتي مَنْ ذَا الذي   يُبْقي عليهِ إذا أُزيلَ كِياني

هَاتِ اسقِني قَعْوَارُ، ليسَ يَهُمُّني   قولُ الوُشَاةِ: عَرارُ سَكرانانِ

قعوار: صاحب حانة في عمان.

فالكأُسُ لولا اليأسُ ما هَشَّتْ لهُ   كَبِدٌ ولا حَدَبَتْ عليهِ يَدانِ

حدبت: انحنت عطفاً

٢٨ القاضي والمرابون

قولوا لِعَبُّودَ عَلَّ القولَ يَشْفِيني   إنَّ المُرابِينَ إخوانُ الشياطينِ

قولوا للمفتي عبود إن المرابين إخوان الشياطين

أَأَسْجُنُ الناسَ إرضاءً لِخاطِرِكُمْ   وَخَشْيَةَ العَزلِ مِنْ ذَا المَنصِبِ الدُّونِ؟

وأنا بوصفي قاضياً لن أسجن الناس الذين تخلفوا عن سداد ديونهم للمرابين ولست أخشى العزل من هذا المنصب الدون، الدنيء

إنَّ الصَّعاليكَ مِثلي مُفلِسُونَ وَهُمْ   لِمِثلِ هذا الزمانِ الزِّفْتِ خَبُّوني

الصعاليك ادخروني لأساعدهم في هذا الزمن الرديء

والأَمْرُ لو كانَ لي لم تَفْرَحُوا أبداً   مِنْ أجلِ دَيْنٍ لَكُمْ يَوماً بِمَسْجُونِ

فَبَلِّطُوا البَحرَ غَيْظاً مِنْ مُعامَلَتي   وبِالجَحيمِ إنِ اسْطَعْتُمْ فَزُجُوني

بلطوا البحر: افعلوا ما تشاؤون

٢٩ معلقة عرار

كتبها الشاعر بيتاً بيتاً وبيتين بيتين ولم يرتبها، وجمعها الناس من هنا وثَمّ. ورتبنا أبياتها، وما غيَّرنا كلماتها. كُتبت هذه القصيدة الفاخرة كما كُتبت المعلقات. هي معلقة شاعرنا:

عفَا الصَّفَا وانْتَفَى مِنْ كُوخِ نُدماني   وأَوْشَكَ الشَّكُّ أن يُودِي بِإيماني

عفا الصفا: انتهى، عهد الصفاء

لقد تَنَكَّرَ لي أَهْلِي وأنكَرَني   صَحْبِي، وأَقْرَبُ مَنْ أَدنَيْتُ أَقصَاني

أينَ النَّدامَى؟ مَضَى كُلٌّ لِطِيَّتِهِ   وخَلَّفُوني بهذا الكوخِ وَحْدَاني

كل لطيته: كل لشأنه. وكان للشاعر وصحبه كوخ يلتقون فيه، فانفض سامرهم

يا رَاهِبَ الدَّيْرِ تُبْنا عن مَحبَّتِهِمْ   وقد أَنَبْنَا فَلا كاني ولا ماني

أنبنا: رجعنا، لا كاني ولا ماني: لا تقل كان وحدث، وأقفل الموضوع

شِبْنا ورَانَ على الفَوْدَيْنِ مُتَّزِنٌ   مِنَ المَشِيبِ بَكى حظِّي وأبكاني

ران: جثم وساد على الفودين، السالفين، شيب متزن يدعو للوقار، لكنه أحزنني فكأنه بكى حظي العاثر

يا راهِبَ الديرِ تُبْنا، والحياةُ، كما   تَرى، تَلَوَّى لِمِثلي لَيَّ ثُعبانِ

الحياة، كما ترى، تتلوّى لمن هم مساكين مثلي كما يتلوى الثعبان

قُلْ لِلسَّوَادِنِ يَفتَحْنَ الصَّوامِعَ لِي   فَالريحُ صِرٌّ وبَرْدُ الغَوْرِ آذاني

قل للراهبات السوادن، خادمات الدير.. جمع سادنة، أن يفتحن لي الصوامع حيث ينام المتعبدون، فالريح صر، باردة، والبرد في غور نهر الأردن آذاني

اِفتَحْ لِيَ البابَ وادْمِجْني بِزُمْرَتِكُمْ   فبردُ جِلْعَادَ يا بُونا تَحدَّاني

جلعاد: جبل قرب السلط، يا بونا: يا أبانا، خطاب العلماني، أي الذي ليس من رجال الدين، للكاهن

يا بِنْتُ! وادي الشِّتَا صَرَّتْ جنادِبُهُ   وشَنَّفَتْ سمْعَهُ نَايَاتُ رُعيانِ

يا بنت! «وادي الشتا» صوتت الجنادب فيه، وأطربت الأسماعَ أنغام الناي من الرعيان، فقد جاء الربيع

خَدَّاكِ يا بِنْتُ مِنْ دَحْنُونِ دِيرَتِنا   رُوحِي فِداءُ الخُدَيْدِ الأحمرِ القَاني

خداكِ يا بنت من دحنون قريتنا، والدحنون هو الزهر الأحمر المسمى الصاقصلي أو الحَنُّون

قالوا يُحِبُّ، أَجَلْ، إنِّي أُحِبُّ. مَتى   كان الهوى سُبَّةً يا أهلَ عَمَّانِ؟

يا مَيُّ شِبْنا وما تُبْنا، فهل نَزَلَتْ   بما انتَهَيْنا إِلَيْهِ آيُ قُرآن؟

هل نزل في القرآن ما يحرم العشق بعد الشيب؟

قَالوا تُعَاقِرُها؟ قولوا لهُمْ: عَلناً،   إنِّي أُعاقِرُها في كلِّ دُكَّانِ

دكان: حانة، وسمت العرب الحانة حانوتاً، فمن هنا سماها عرار دكاناً

قالَ الأَطباءُ لا تَشربْ، فقلتُ لهُمْ:   الشُّرْبُ لا الطِّبُّ عَافاني وأَبْرَاني

أبراني: أبرأني وشفاني

ماذا على الناسِ مِنْ سُكْرِي وعَربَدَتِي   ماذا على الناسِ مِنْ كُفري وإيماني؟

ماذا على الناسِ مِنْ قَولِي لَهُمْ أَحدٌ   رَبِّي، وقَوْلِي لَهُمْ: رَبِّي له ثَانِ؟

ماذا على الناسِ مِنْ لَهْوِي ومِنْ عَبَثِي   ماذا على الناسِ مِنْ جَهْلِي وعِرْفاني؟

ماذا على الناسِ مِنْ حُبِّي مُكَحَّلَةً   بينَ الخَرابِيشِ أهواها وتَهواني؟

الخرابيش: بيوت النوَر في الأردن

قَالوا: تَدَمْشَقَ قُولوا: ما يَزالُ على   عِلَّاتِهِ إِرْبِدِيَّ اللونِ حُورانِي

زعموني تشبهت بأهل دمشق المترفين، لكنني ما زلت ابن مدينة إربد، بشمال الأردن، الواقعة في سهول حوران

فَهَاكَنِي كَيَتَامَى الزُّطِّ لا أَحَدٌ   يَرثِي لِحالِي ولا إنسانَ يَرعانِي

فهاكني، انظر إليَّ، كاليتامى من أولاد الزط، قوم رحل فقراء

يا أُرْدُنِيَّاتُ إنْ أَوْدَيْتُ مُغترباً   فَانْسُجْنَها بِأَبِي أَنْتُنَّ أَكفانِي

أوديت: متّ

وقُلْنَ لِلصَّحْبِ وَارُوا بَعْضَ أَعْظُمِهِ   في تَلِّ إِرْبِدَ أو في سفحِ شيحَان

ووُوري جثمان عرار في تل إربد عندما مات عام ١٩٤٩، لا في سفح جبل شيحان بالجنوب

عسَى وعَلَّ بهِ يوماً مُكَحَّلَةٌ   تَمُرُّ تتْلُو عليهِ حِزْبَ قُرآن

الحزب من القرآن: نحو من عشر صفحات، وهو نصف الجزء

ولْيَبْكِ وادي الشِّتا بَعدي جَآذِرَهُ   ولْيَبْكِ حَسْبُونَ بَعدي مَاءُ حُسْبانِ

ليبك «وادي الشتا» جميلاته اللائي غادرتهن، وليبك حسبونَ، موضع قديم، ماء بلدة حسبان

قَالوا: لِشِعْرِكَ عُشَّاقٌ بِوُدِّهِمُ   أن يجمَعُوا بعضَهُ في شبهِ ديوانِ

فقلتُ شِعريَ أَشْلاءٌ مُبَعثَرَةٌ،   كأنَّها عُمُرِي، في كلِّ مَيدانِ

أمَّا أنا فَبِحَسْبِي مَا أُكَابِدُهُ   مِنْ لَوعَةٌ أَجَّجَتْ يا ناسُ نيرانِي

يا جيرَةَ البانِ هذا البانُ بانُكُمُ   يا لَيْتَهُ لم يكنْ يا جيرَةَ البانِ

يخاطب الساكنين بجوار شجر البان

تَلُومُنِي أَنَّنِي يا ابْنِي أُعَاقِرُها   يا «وَصْفَ» هَبْنِي جَلالَ الدِّينِ دُوَّانِي

يخاطب ولده وصفي، الذي سيصبح رئيس وزراء.. وكان الولد يلوم أباه على معاقرته الخمر، وجلال الدين الدوَّاني فارسي من قدامى المشايخ، ولعله كان يبيح الشراب!

تُرِيدُنِي وَيْكَ شَيْخاً كُلُّهُ وَرَعٌ   ذا مَرْكَبٌ خَشِنٌ يَأباهُ شيْطانِي

شيطاني: الشيطان الذي يلهمني الشعر، ذا: هذا

إِلَيْكَها مِنْ أبِي وَصْفِي مُجَلْجِلَةً   أَبا طَلالٍ وما قَوْلِي بِبُهْتانِ

خذها من أبي وصفي، من الشاعر عرار، رسالة مجلجلة، صاخبة، يا أبا طلال، أيها الأمير عبد الله، وقولي ليس افتراء. ومما يعاب على المرء أن يكتني في مخاطبة أمير، لكن شاعرنا غاضب..

رَفعْتَ كلَّ وَضيعٍ لا يُقامُ له   إلَّا بِسُوقِ الخَنا وَزْنٌ بِميزانِ

رفعت مقام كل وضيع، حقير، لا وزن له إلا في سوق الخنا، والعيب

هَلَّا رَعَيْتَ رَعاكَ اللَّهُ حُرْمَتَنا   هَلَّا جَزَيْتَ تَفانِينا بِإِحسان

مَولايَ شعبُكَ مَكْلُومُ الحَشا وبه   مِنْ غَضِّ طَرْفِكَ والإهمالِ داءانِ

شعبك مجروح القلب لأنك تغض طرفك، أي تتجاهل مشكلاته، وتهمل شؤونه

مَولايَ إن المَطايا لا تسيرُ إلى   غاياتِها إنْ عَلاها غيرُ فُرسانِ

لا تصل الخيل إلى مقصدها إن ركبها من لا يحسنون الركوب، ومن تعينهم من الرجال غير أكفاء

يافَا عَروسُ فِلَسْطينَ التي غَبَرَتْ   ما في يَدَيَّ خَلا شَجْوي وأَشجاني

غبرت: مضت

يا أهلَ يافا لقد طَوَّقْتُمُ عُنُقِي   شَتَّى العُقُودِ فَمِنْ بِرٍّ لِإِحسانِ

٣٠ رثاء صحفي

قال يرثي خليل نصر صاحب جريدة «الأردن»، ومات قبل عرار بستة أشهر:

شيخَ الصِّحَافةِ! زارَ الموتُ صَوْمَعَتي   وسوفَ أَلْحَقُ يا شَيْخي بِإِخْواني

وسوفَ أُخبِرُهُمْ عنْ سوءِ طالِعِنا   وعن رَزَايا بَنِي قَومِي وجِيراني

رزايا: مصائب

٣١ وادي الشتا

هل تذكرينَ، وأنتِ مِن غُزْلانِهِ،   وادِي الشِّتا، والعمرُ في رَيْعانِهِ

هل تذكرين «وادي الشتا» وأنت من فتياته الجميلات، وكان العمر في أوائله؟ في البيت تقديم وتأخير يأباه النحوي ويرضاه من يذوق الشعر

يا مَيُّ! جِلْعَادُ الأَشَمُّ كعهدِه   ما زالَ يَرْبِضُ جاثماً بِمَكانِهِ

جبل جلعاد العالي على حاله رابض جاثم ثاوٍ مقعٍ في مكانه

والغَوْرُ مَا انْفَكَّتْ غَدائِرُ نَبْتِهِ   وزُهُورُهُ تَحنُو على غُدْرانِهِ

وفي الغور، المنطقة المنخفضة التي يجري بها نهر الأردن، ظلت غدائر النبات، خصلات الشجيرات أي أغصانها الطرية، وظلت الزهور تحنو وتميل على الغدران، جداول الماء

وسَمَاءُ إِرْبِدَ ما يَزالُ سَحابُها   يَسْقِي سُهُولَ الحِصْنِ مِنْ هَتَّانِهِ

«الحصن» اسم موضع، هتانه: وابله

يا مَيُّ! مَا بَرِحَتْ حَمائِمُ سِدْرِنا   تَشْدُو مُصَفِّقَةً على أغصانِهِ

السدر: من الشجر

فتَعَهَّدي قلبي بِحُبِّكِ، واسمَعي   ما شِئْتِ مِنْ شَدْوي ومِنْ ألحانِهِ
يا مَيُّ! قد عادَ الربيعُ وعَاوَدَتْ   نفسي وَساوِسُ قَصفِهِ ودِنانِهِ

عاد الربيع وعاد إلى نفسي التفكير في القصف، اللهو، ودنان الخمر، خوابيها وجرارها

فاذْني شِفَاهَكِ مِنْ فَمي وتَوَسَّدي   صَدْري يَكُفَّ الدهرُ عنْ عُدوانِهِ
هَاتي شِفَاهَكِ، فالحياةُ جَوادُها   شَرِسٌ، وليسَ فَتَاكِ مِنْ فُرسَانِهِ

جواد الحياة، أي حصانها، شرس صعب.. وأنا لست من فرسان هذا الحصان.. أنا لا أصلح للحياة الرصينة

وادي الشِّتَا هذا، وتِلْكَ مَلاعِبي   أَيَّامَ كنتُ وكنتِ مِنْ جيرانِهِ

وادي الشتا: موضع قرب ناعور غرب عمان عاصمة الأردن، ملاعبي: ساحاتي.. والأصل الساحات التي تلعب فيها الريح

فاذْني شِفاهَكِ مِنْ فمي إن لم يكُنْ   يَا مَيُّ قَلبُكِ قُدَّ مِنْ صَوَّانِهِ

قبليني إن لم يكن قلبك قاسياً كأنه مقدود من الصوان في منطقة وادي الشتا، وكل واد لا بد أن يقابله جبل!

وتَوَسَّدي صَدري وحَسْبُكِ نِعْمَةً   هذا الذي تُوحينَ مِنْ خَفَقانِهِ

يكفيك فخراً أن خفقان قلبي هو بسبب ما توحين إليه من معاني الحب

ورَأَيتُ أنَّ اللَّهَ أوسعُ رَحْمةً   مِمَّا يَظُنُّ البعضُ مِنْ عُبْدانِهِ

٣٢ منازل برلين

قال عرار، وكان صديقه محمد أبو غنيمة كتب له رسالة عن الحياة في برلين:

أقولُ لِرَبِّي حينَ أَنْشَأَ جَنَّةً   وزَيَّنَها بالوُلْدِ والحُورِ والعِينِ

الحور: ذوات الأعين التي اشتد سوادها في اشتداد بياض، والعين: ذوات الأعين الواسعة

أَيَعْلَمُ أنا قد حَظِينا بمثلِها   وأَحسنِ منها في منازلِ بَرلينِ؟

٣٣ الفارس والمطية

كان أحمد الظاهر المدعي العام قد أساء استقبال الهبر شيخ النور:

يا مُدَّعِي عَامِ اللِّوا   ءِ وخيرَ مَنْ فَهِمَ القضيَّةْ
والعَدْلُ يَقْضي أن تُعا   مِلَ زَائِرِيكَ على السَّوِيَّةْ

الـهَـبْـرُ جـاءَكَ لـلـسـلا م فـكـيـفَ تـمـنَـعُـهُ الـتـحـيـةْ
أَلِأَنَّ كُـسْـوَتَـهُ مُـمَـزَّ قَـةٌ وهـيـئـتـه زَرِيَّـةْ؟

هيئته زرية: شكله مشعث مُهَزْغَل

قـد صَـدَّهُ جُـنْـدِيُّـكَ الـ ـفَـظُّ الـغـلـيـظُ بِـلا رَوِيَّـةْ
وأَبَـى عـلـيـهِ أن يَـرا كَ، فـجـاءَ مُـمْـتَـعِـضـاً إِلَـيَّـهْ
يَـشْـكُـو الـذي لاقـاهُ مِـنْ شَـطَـطٍ بِـدارِ الـعَـادِلِـيَّـةْ
ويـقـولُ إنَّ زِيـارَةَ الـ حُـكَّـامِ، لا كَـانَـتْ، بَـلِـيَّـةْ

الحكام: القضاة، كذا استعملتها العرب قديماً، وكذا استعملها الناس في بعض بلاد الشام حديثاً

فـاسْـرِعْ وكَـفِّـرْ يـا هَـدا كَ الـلَّـهُ عَـنْ تِـلـكَ الـخَـطِـيَّـةْ
فـالـهَـبْـرُ مِـثْـلِـيَ ثُـمَّ مِـثْـ ـلُـكَ أُرْدُنِـيُّ الـتَّـابِـعِـيَّـةْ

التابعية: الجنسية

وَأَدِرْ كُـؤُوسَـكَ يـا أبَـا نَـاصِـيـفَ مُـتْـرَعَـةً رَوِيَّـةْ

يدعو أبا ناصيف، صاحب الحانة، إلى أن يدير كؤوس الشراب مترعة مملوءة مرتوية بما فيها

إنَّ الـذي تُـسْـبَـى مَـوا طِـنُـهُ تَـحِـلُّ لَـه الـسَّـبِـيَّـةْ

السبية: السبيئة، الخمر المشتراة

عَـبُّـودُ يَـا نَـاعِـيَ الـنَّـهـا رِ عـلـى الـمَـآذِنِ فـي الـعَـشِـيَّـةْ

يخاطب الشيخ عبود الذي يؤذن للمغرب فكأنه ينعى النهار

لـيـسَ الـهُـدى وَقْـفـاً عـلـى فِـقْـهِ الـشـيـوخِ الأزهَـرِيَّـةْ
إنَّ الـحـيـاةَ لـهـا قـوا عـدُ غـيـرُ مَـتْـنِ الـخَـزْرَجِـيَّـةْ
فَـنَـبـيـذُ قَـعْـوارَ الـلَّـذيـ ـذُ وأَنَّـةُ الـنـايِ الـشَّـجِـيَّـةْ

قعوار صاحب حانة بعمّان

وهُـيـامُـنـا بِـالـغَـانِـيـا تِ مِـنَ الأمـورِ الـجَـوهَـرِيَّـةْ
أوَمَـا تَـرانـيَ، والـمَـشـيـ ـبُ كـمـا تَـراهُ بِـعَـارِضَـيَّـهْ..

ألست تراني وقد وخط الشيب عارضيَّ، أي جانبي رأسي..

مَـا زِلْـتُ خَـفَّـاقَ الـفُـؤا دِ ولـم تَـزَلْ نـفـسـي طَـرِيَّـةْ

.. ألا تراني، وقد شبت، ما زلت عاشقاً، ونفسي طرية، أي مقبلة على الغرام

والـقـلـبُ مـا تَـنـفَـكُّ تَـمـ ـلأُ سَـاحَـهُ خَـطَـرَاتُ مَـيَّـةْ

ساحه: ساحاته، خطرات: خطوات

دَنِـفٌ تُـطَـارِدُهُ الـعَـجُـو زُ ولا تُـهَـادِنُـهُ الـصَّـبِـيَّـةْ

دنف: مريض عشقاً

ولَـسـوفَ تَـبـقَـى لِـلـصَّـبا بَـةِ فـي ثَـرى رَمْـسـي بَـقِـيَّـةْ

الصبابة: الهوى، رمسي: قبري

كَـمْ فَـارسٍ هُـوَ فـي الـحـقـيـ ـقـةِ عـنـد راكِـبِـهِ مَـطِـيَّـةْ

الفارس: راكب الفرس، المطية: الفرس

ومُـدَجَّـجٍ قـادَ الـسَّـرِيَّـ ـةَ وَهْـوَ قَـوَّادُ الـسَّـرِيَّـةْ

مدجج: شاكي السلاح

هَـاتِ اسْـقِـنـي؛ مَـا لِـلـحـيا ةِ بِـغـيـرِ عَـرْبَـدَةٍ مَـزِيَّـةْ

واسْـبَـأْ لـنـا، إن الـزِّقَـا قَ مَـبـاءَةُ الأُمَـمِ الـسَّـبِـيَّـةْ

اسبأ، اشتر خمراً، فزقاق الخمر، وهي قِرَبُ جِلْد تُتَّخَذُ للخمر، هي المصير السيء للأمم السبية المغتصبة الحقوق

تَـرْكُ الـتُّـقَـى خـيـرٌ بِـعـلْـ ـمِ الـلَّـهِ مِـنْ نُـسُـكِ الـتَّـقِـيَّـةْ

ترك التقوى أحسن من النسك الكاذب الذي يتخذ تقية، واجهة لاتقاء الشر

٣٤ استقلال كرتوني

يـا هَـبْـرٌ اسـتِـقـلالُـنـا الـكَـرتُـونـي

أَخْـرَجَـنـي كَـمـا تَـرى عـن دِيـنـي

فَـدُرْتُ بـيـن الـنـاسِ كـالـمـجـنـونِ

أسـأَلُـهُـمْ عـنـه فـمـا دَلُّـونـي

أَسألُ الناسَ عن استقلالنا . .

إلَّا عـلـى قَـعْـوارَ والـخَـمَّـارَةْ

قعوار: صاحب حانة، والخمارة هي الحانة

٣٥ الأعين السود

يا أَهْلَ عـمَّانَ إنَّ الأعْيُنَ السُّودَا فَـتَـنَّـنـا وفَـتَـنَّ الـشـيـخَ عَـبُّـودَا

الشيخ عبود النجار هو المفتي الذي جاء مع الأمير عبد الله من الحجاز في أوائل العشرينات من القرن العشرين إلى الأردن

٣٦ المفاليس

الـلَّـهُ يـعـلـمُ والأيـامُ شَـاهِـدَةٌ أنَّـا كِـرامٌ ولـكِـنَّـا مَـفـالـيِـسُ

مصطفى وهبي التل
فهرس القوافي

إبراهيم طوقان
(١٩٠٥ ـ ١٩٤١)

ها هو ذا شاعر درس في مدرسة المطران الإنجليزية بالقدس صبياً، وفي الجامعة الأميركية ببيروت شاباً، وها هو ذا شعره؛ فانظر فيه لا تر للإنجليزية ولا لثقافتها أثراً. لن ترى إلا فصاحة عربية نقية.

هي سنوات الطفولة، هي المدرسة العربية، وهو البيت الذي كان يتكلم العربية، فإن كانت فيه خادم فهي عربية أيضاً. وكان في بيت إبراهيم طوقان خادمة وربما أكثر، فهو من أسرة ذات حظ وافر من اليسار. نشأ طفلاً مدللاً، وزادته الأمراض التي بدأت تعتاده يافعاً دلالاً. وكان بطبيعته عابثاً لاهياً، وقلَّ في تلك الأسرة جاد رصين، والقائل أعرف الناس بهم فهم خؤولته.

منذ سنوات الدراسة في الجامعة الأميركية بدأ يتجلى ما في شخصية شاعرنا من عبث وخفة.

ونلتمس طريقاً إلى تصنيف أشعار إبراهيم طوقان ـ وهي على كل حال قليلة ولا تحتاج إلى كثير تصنيف ـ بأن نسلكها في سلكين: قصائد الغزل، وقصائد التوبيخ.

فأما الغزل فهو ما عرفت؛ وأما التوبيخ فهو ما صبه الشاعر على رؤوس بني قومه، وخصوصاً كبار زعمائهم، من قوارع الكلم لتقاعسهم، ونومهم عن موجة عاتية ستبتلع وطنهم. فرغم أن طوقان مات قبل نكبة فلسطين بسبع سنين، فقد قال من الشعر ما يشهد له بأنه قرأ الوضع قراءة عميقة، وأحس في أعماقه بما هو مقدم على فلسطين من نكبة سيراها الآخرون فظيعة بعد فوات الأوان.

امتلك بصيرة سياسية. بصَّره بحقيقة وضع البلاد وتهافت زعمائها أنه من

عائلة كانت لها في الماضي زعامة، وجرَّأه على أن يسلق الشعب وزعماءه بقصائد تسيل سخرية وتأنيباً أن عائلته ظلت تحتفظ بأملاك أعفته من الوقوف بالأبواب.

غير أن العائلة ذات الأطيان والعقار لا تبيع أطياناً وعقارات كي تيسر المال لأبنائها اللاهين، فلا بد لهم من عمل يقوتهم، ولا سيما في زمن أخذ الإقطاع فيه ينحسر بسرعة عن بلاد الشام. فعمل طوقان في التدريس أشهراً (كانت كافية ليخرج علينا بقصيدته: وأرى حماراً بعد ذلك كله/ رفع المضاف إليه والمفعولا)، وعمل مديراً للبرامج في الإذاعة الفلسطينية بضع سنين. ولم يوفق كثيراً في أعماله لكسل فيه وعبث، ولأن المرض كان يأخذه من مستشفى إلى مستشفى.. في القدس والقاهرة وبيروت.

نقول إنه كسول مادحين، فالشاعر ممدوح بما يذم به غير الشاعر.

مات إبراهيم طوقان عن ست وثلاثين سنة. وخلف لنا ديواناً، وأختاً شاعرة هي فدوى طوقان.

وعليَّ للشاعرة اعتذاران، لا بد من إزجائهما حتى وإن كانت قد انتقلت إلى دار الحق.

كنت أقرأ أشعاراً كثيرة في الراديو وأنا أعمل في هيئة الإذاعة البريطانية، وكنت أكثر من الاستشهاد بشعر مظفر النواب. وكانت فدوى تسمعني، وتقول لي إنها تسمعني. ولم أكن أستشهد بشعرها. والسبب الوحيد أن ديوانها لم يكن عندي في لندن، كان ذلك قبل الإنترنت، وكان عندي ديوان مظفر النواب. وفاتني أن أوضح لها ذلك.. توفيت وهي لا تعرف أنني لم أقصد إلى تجاهلها. ما كان أعظم بلادتي.

وعدت إلى بلدي فلسطين، ولم أقل جملة اعتذارية كانت ضرورية: يا ست فدوى ـ وهكذا يناديها أهل نابلس ـ للأسف لم يكن ديوانك بحوزتي في عاصمة الضباب، وإلا فقد كان يسعدني أن أقتطف من أشعارك. لا، لم أقل شيئاً من ذلك. كنت بليد الإحساس. أينفعني أن أعتذر الآن؟

وقصدتها يوماً، وكانت في شيخوختها العالية، وسجلت معها لقاءً طويلاً. وشغلتني الشواغل عن بث اللقاء. وتوفيت فدوى طوقان. فرأيت أن من الدناءة أن أبثه. أأكون سابقت إليها عزرائيل؟ ثم فطن إلى الأشرطة زملاء لي في معهد

الإعلام بجامعة بيرزيت، فكان لا بد من إذاعة الحديث. أينفعني أن أعتذر الآن؟

كانت، وهي في شيخوختها تلك، حيية رقيقة كأنها فتاة في الثامنة عشرة. ولئن كنت لا أعتقد أن الشعر يورث، ولا أصدق ما قالوه من أن زهير بن أبي سلمى ورث ابنيه الشعر، فإن ما لمسته من رهافة ورقة فدوى طوقان يوشك أن يثنيني عن اعتقادي.

واعتذار ثالث: يا ست فدوى، هذا الكتاب بأجزائه الخمسة مخصص للشعر العمودي فقط، وشعرك الجميل الرقيق كان في معظمه من شعر التفعيلة. فلا مكان لشعرك هنا. أيرضيك أن أكتفي بشعر أخيك إبراهيم؟ لعله يرضيك.

إلى ما اخترته من شعر إبراهيم طوقان.

١ تخاذل

عجباً لِقَومي مُقعَدينَ ونُوَّماً ... وعَدُوُّهُمْ عن سَحْقِهِمْ لا يَنْثني
عجباً لِقومي كلُّهُمْ بُكْمٌ، ومَنْ ... يَنطِقْ يَقُلْ: يا لَيتَنِي ولعلَّني

٢ الراعي الذئب

وَطَنِي مُرْهَقٌ وأهلي نِيامٌ ... واسْتحالَ الرَّاعِي فأصْبحَ ذِيبا
لَهْفَ نفسي، وهُمْ سُكارَى غُرورٍ، ... كيفَ يُبدي مَخالباً ونُيوبا؟

٣ المتقاعس

أفنيتَ يا مسكينُ عُمـ ... ـرَكَ بالتأوُّهِ والحَزَنْ
وقَعدتَ مَكتوفَ اليديْـ ... ـنِ، تقولُ: حارَبَني الزمنْ
ما لم تَقُمْ بالعِبْءِ أنـ ... ـتَ، فمَنْ يَقومُ بهِ إذنْ؟

* * *

كم قلتَ: «أَمراضُ البلا ... دِ»، وأَنتَ مِن أمراضِها
و«الشؤمُ عِلَّتُها»، فهلَ ... فَتَّشْتَ عن أَعْراضِها؟
أُقعُدْ، فما أنتَ الذي ... يسعَى إلى إنهاضِها

* * *

أَضْحَى التَّشاؤُمُ في حديـ ـثِكِ بِالغريزَةِ والسَّلِيقَةْ
مِثلَ الغُرابِ، نَعَى الديا رَ، وأَسمَعَ الدنيا نَعِيقَهْ
أَمَلٌ يَلوحُ بَريقُهُ فاسْتَهْدِ يا هذا بَرِيقَهْ
ما ضاقَ عيشُكَ لو سعيـ ـتَ له، ولو لم تَشْكُ ضِيقَهْ

* * *

لكنْ تَوَهَّمْتَ السَّقا مَ، فَأَسْقَمَ الوَهْمُ البَدَنْ
وظننتَ أَنَّكَ قد وَهَنْـ ـتَ، فَدَبَّ في العظمِ الوَهَنْ
والمرءُ يُرهِبُهُ الرَّدَى ما دامَ يَنظُرُ لِلكَفَنْ

٤ بائعو الأرض

باعُوا البلادَ إلى أعدائِهِمْ طَمعاً بِالمالِ لكِنَّما أَوطانَهُمْ باعُوا
قد يُعذَرُونَ لو انَّ الجوعَ أَرغَمَهُمْ واللَّهِ ما عَطِشوا يوماً ولا جاعوا
أعداؤُنا، منذُ أن كانوا، صَيارِفَةٌ ونحن، منذُ هَبَطْنا الأرضَ زُرَّاعُ

اليهود كان صيارفة يتعاملون بالمال، والفلسطينيون أهل أرض وفلاحة

يا بائعَ الأرضِ لم تَحفِلْ بِعاقِبَةٍ ولا تعلَّمْتَ أنَّ الخَصْمَ خَدَّاعُ
فَكِّرْ بِموتِكَ في أرضٍ نشأْتَ بِها واترُكْ لِقبرِكَ أرضاً طُولُها باعُ

الباع: ما بين وُسطاويك فاتحاً ذراعيك على جنبيك

٥ فلسطين المنسية شعرياً

جئتُكُمْ عاتباً بَلابِلَ مِصرٍ؛ بُلبُلُ الروضِ عَتْبُهُ أَلحانُ

يعاتب شعراء مصر

كم بِلادٍ تَهُزُّكُمْ ليس فيها لَكُمُ جِيرَةٌ ولا إخوانُ
خَطْبُنا لا يَهُزُّ شوقِي ولكنْ جاءَ رُوما فَهَزَّهُ الرُّومانُ

يشير إلى قصيدة شوقي (قف بروما وشاهد الأمر واشهد/ أن للملك مالكاً سبحانه) وفيها يقف معتبراً بزوال إمبراطورية الرومان وبقاء آثارهم التي تدل على عظمة بائدة

خَطْبُنا لا يَهُزُّ حَافِظَ إبرا هيمَ لكنْ تَهُزُّهُ اليابانُ

يشير إلى تعاطف حافظ إبراهيم مع اليابان في حربها مع روسيا، وفيها يقول على لسان ممرضة يابانية (أنا يابانية لا أنثني/ عن مرادي أو أذوق العطبا)

ما لِمُطرانَ يا فِلَسْطِينَ شأنٌ بِكِ، لكنْ له بِنيرُونَ شَانُ

يشير إلى قصيدة مطران عن نيرون حارق روما، ومنها البيت: (أي شيء كان نيرون الذي/ عبدوه، كان فظ الطبع غرا)

سيقولُون قُدِّسَتْ هذهِ الأر ضُ، فما إنْ لنا بِها شَيْطانُ

الشعراء، منذ الأعشى، يزعمون أن لهم شياطين من الجن توحي لهم بالشعر. وقد يقول شعراء مصر المذكورون إنه ليس في فلسطين شياطين لقداستها، لذا لم يذكروها في شعرهم

بلْ فِلَسْطينُ بِالشَّياطينِ مَلْأَى ضَجَّتِ الإنْسُ مِنهُمُ والجانُ

إنْ بَلَوْتُمْ منهُمْ فريقاً فإنَّا قد رمانا باثْنَيْنِ هذا الزمانُ

إن كنتم يا أهل مصر بلوتم، أي اختبرتم، فريقاً واحداً من الشياطين، وهؤلاء هم الإنجليز الذين كانوا يحتلون مصر، فنحن ابتلينا بفريقين: الإنجليز، واليهود

٦ الفدائي

عن فدائي وقف بباب دار الحكومة بالقدس وأصاب برصاصة النائب العام البريطاني الذي أمعن في النكاية بالفلسطينيين، أيام الانتداب البريطاني على فلسطين

لا تَسَلْ عن سَلامَتِهْ رُوحُهُ فوق رَاحَتِهْ

بَدَّلَتْهُ هُمُومُهُ كَفَناً مِن وِسادَتِهْ

بينَ جَنْبَيْهِ خافِقٌ يَتَلَظَّى بِغايَتِهْ

خافق: قلب.. وقلب الفدائي يتلظى ملتهباً لا يشغله سوى غايته وهدفه الوطني

* * *

هُوَ بِالبابِ وَاقِفُ والرَّدَى منهُ خَائِفُ

وقف الفدائي عند الباب وجرح بالرصاص النائب العام

فاهْدَأي يا عَواصِفُ خَجَلاً مِن جَراءَتِهْ

* * *

صَامِتٌ لو تَكَلَّما لَفَظَ النارَ والدَّما

قُلْ لِمَنْ عابَ صَمْتَهُ خُلِقَ الحَزْمُ أَبْكَما

عابوا على الفدائي أنه لجأ للسلاح ولم يسبق ذلك بتقديم شكوى من ظلم النائب العام

وأَخُو الحَزْمِ لم تَزَلْ يَدُهُ تَسْبِقُ الفَما

٧ موشح الشهداء

في خضم هبّة البراق ١٩٢٩، حاكم المحتل البريطاني ثلاثة شبان هم: فؤاد حجازي، وعطا الزير ومحمد جمجوم، وشنقهم يوم الثلاثاء ١٧ حزيران/ يونيو ١٩٣٠

لَمَّا تَعَرَّضَ نَجمُكَ المَنحُوسُ   وتَرَنَّحَتْ بِعُرَى الحِبالِ رُؤُوسُ

يخاطب يوم الثلاثاء، لقد اعترض نجم النحس لهذا اليوم في السماء، وترنحت رؤوس الشهداء بحبال المشنقة ذات العرى، جمع عروة

نَاحَ الأَذانُ وأَعْوَلَ النَّاقوسُ   فاللَّيلُ أَكْدَرُ، والنهارُ عَبوسُ

عندها صار صوت الأذان كأنه النواح وصوت النواقيس، الأجراس،كأنه العويل، وصار الليل مكدراً والنهار عابساً

طَفِقَتْ تَثورُ عَواصِفُ   وعَواطِفُ

والموتُ حيناً طَائِفُ   أو خاطِفُ

والمِعْوَلُ الأَبَدِيُّ يُمْعِنُ في الثَّرى   لِيَرُدَّهُمْ في قلبِها المُتَحَجِّرِ

وأخذ المعول، الفأس الأبدي وهو الموت، يحفر الأرض كي يرد الشهداء إلى قلب الأرض وإلى التراب الذي منه خلق البشر

* * *

يومٌ أَطَلَّ على العُصورِ الخالِيَةْ   ودَعا: أَمَرَّ على الوَرى أَمْثَالِيَهْ؟

يوم الثلاثاء المشؤوم هذا يقول للعصور: هل مر على البشر مثلي؟

فأَجابَهُ يومٌ: أَجَلْ، أنا رَاوِيَةْ   لِمَحاكِمِ التَّفتيشِ، تلكَ البَاغِيَةْ

فأجابه أحد الأيام المنصرمة: أجل، فأنا أروي ما صنعت محاكم التفتيش بعد سقوط الأندلس

ولقد شَهِدْتُ عجائِبا   وغرائِبا

لكنَّ فيكَ مصائِبا   ونوائِبا

لم أَلْقَ أشْباهاً لها في جَوْرِها   فاسْأَلْ سِوايَ، وكمْ بِها مِنْ مُنكَرِ

ولكن فيك يا يوم الثلاثاء مصائب ليس لها شبيه في الظلم، فاسأل غيري، وما أكثر المنكرات التي ارتكبت فيك

* * *

وإذا بِيَومٍ راسِفٍ بِقُيودِهِ   فأجابَ، والتاريخُ بعضُ شُهودِهِ:

وجاء يوم آخر يرسف، أي يمشي متثاقلاً والقيود في ساقيه، ذلك هو اليوم الذي شهد العبودية، فقال.. والتاريخ يشهد على صدقه:

أُنـظُـرْ إلـى بـيـضِ الـرَّقـيـقِ وسُـودِهِ   مَـن شـاءَ كـانُـوا مِـلْـكَـهُ بِـنُـقـودِهِ

انظر إلى من بالتاريخ من العبيد، بيضاً وسوداً، يباعون بالمال

بَـشَـرٌ يُـبـاعُ ويُـشـتَـرى   فـتَـحَـرَّرا

ومـشـى الـزَّمـانُ الـقَـهـقَـرى   فـيـمـا أرى

كان للعبودية زمنها ثم تحرر البشر منها. لكن، ها هو الزمن يعود القهقرى إلى سابق عهد العبودية..

فسمعتُ مَن مَنَعَ الرَّقيقَ وبَيعَهُ   نادى على الأحرارِ: يا مَن يَشتري

فالذين منعوا العبودية، الإنجليز (رسمياً بقرار برلماني ١٨٠٧)، أخذوا يبيعون الأحرار لا العبيد باستعمارهم البلاد وأهلها. التسويد للشاعر عمران القفيني

* * *

وإذا بِـيـوم حـالِـكِ الـجِـلـبـابِ   مُـتَـرَنِّـحٍ مِـن نَـشْـوَةِ الأَوْصَـابِ

وجاء يوم آخر يلبس ثوباً أسود، ويترنح من نشوة، أي ذهول، الأوصاب، أي الأوجاع

فأجابَ: كَلَّا، دونَ ما بِكَ ما بي   أنا في رُبَى عالَيْهِ ضَاعَ شَبابي

فقال هذا اليوم: ما بي أقل مما حل بك، لقد ضاع شبابي في ربى مدينة «عاليهْ» اللبنانية التي شنق فيها جمال باشا السفاح الوطنيين في سني الحرب العالمية الأولى

وشَـهِـدْتُ لِـلـسَّـفـاحِ مـا   أَبْـكَـى دمـا

ويـلٌ لـه مـا أَظْـلَـمـا   لـكِـنَّـمـا..

لـم أَلْـقَ مِـثـلَـكَ طـالِـعـاً فـي رَوْعَـةٍ   فـاذهَـبْ لَـعـلَّـكَ أنـتَ يـومُ الـمَـحْـشَـرِ

لكن، لم أر يوماً مثلك تطلع شمسه في روعة، والروعة هي الروع أي الخوف، فلعلك أنت يوم القيامة يا يوم الثلاثاء

* * *

الـيـومُ تُـنـكِـرُهُ الـلَّـيـالـي الـغَـابِـرَةْ   وتَـظَـلُّ تَـرمُـقُـهُ بِـعـيـنٍ حَـائِـرَةْ

هذا اليوم، الثلاثاء الذي أعدم فيه الرجال الثلاثة، تجده الليالي الغابرة منكراً شديداً

عـجـباً لِأَحكـامِ الـقـضـاءِ الـجـائِـرَةْ   فَـأَخَـفُّـهـا أَمـثـالُ ظُـلْـمٍ سَـائِـرَةْ

وطَـنٌ يَـسـيـرُ إلـى الـفـنـاءْ   بِـلا رَجـاءْ

والـداءُ لـيـسَ لـه دَواءْ   إلَّا الإبـاءْ

إنَّ الإِبـاءَ مَـنـاعَـةٌ، إنْ تَـشـتَـمِـلْ   نَـفسٌ عـلـيـهِ تَـمُـتْ ولَـمَّـا تُـقْـهَـرِ

* * *

الـكـلُّ يَـرجُـو أنْ يُـبَـكِّـرَ عَـفْـوُهُ   نَـدعُـو لَـه أَلّا يُـكَـدَّرَ صَـفْـوُهُ

الآمال تتجه إليه، إلى المندوب السامي البريطاني، ليجيء عفوُه باكراً

إن كـان هـذا عَـطْـفُـهُ وحُـنُـوُّهُ   عـاشتْ جَـلالَـتُـهُ وعـاشَ سُـمُـوُّهُ

حَـمَـلَ الـبـريـدُ مـفَـصَّـلا   مـا أُجْـمِـلا

هـلّا اكـتـفَـيْـتَ تَـوَسُّـلا   وتَـسَـوُّلا

البريد حمل لنا التفاصيل، فلا داعي للتوسل وتسول العطف البريطاني، وكانت الهيئات العربية قد أرسلت رسائل الاسترحام الكثيرة

والـمـوتُ فـي أخـذِ الـكـلام وردِّهِ   فَـخُـذِ الـحـياةَ عنِ الطريقِ الأقصَرِ

الموت كامن في تلك الرسائل والردود عليها، فخذ أيها المحتل الحياة من الطريق الأقصر، وخلّصنا!

* * *

ضـاقَ الـبـريـدُ ومـا تَـغَـيَّـرَ حـالُ   والـذلُّ فـيـهِ سُـطـورُنـا أَشـكـالُ

خُـسـرانُـنـا الأَرواحُ والأمـوالُ   وكَـرامـةٌ ـ يـا حَـسْـرتـا ـ أَسْـمـالُ

البريد ضاق برسائل الاسترحام، وأسطر هذه الرسائل يتجلى فيها ذلنا، وذلنا عبارة عن خسارتنا للأرواح والأموال والكرامة التي غدت شبيهة بالأسمال، أي الثياب الممزقة

أَوَتُـبـصِـرونَ وتـسـألـونْ   مـاذا يـكـونْ؟

إنَّ الـخِـداعَ لـه فُـنـونْ   مـثـلُ الـجُـنـونْ

هيهاتَ، فالنفسُ الذَّليلةُ لو غَدَتْ   مَخلُوقَةً مِن أَعْيُنٍ لم تُبصِرِ

* * *

أَنَّـى لِـشـاكٍ صـوتُـه أنْ يُـسـمَـعـا؟   أَنَّـى لِـبـاكٍ دَمْـعُـهُ أنْ يَـنـفَـعـا؟

صـخـرٌ أحـسَّ رجـاءَنـا فـتَـصَـدَّعـا   وأتـى الـرجـاءُ قُـلوبَـهُـمْ فتـقَـطَّـعـا

لا تَـعـجَـبـوا، فـمِـنَ الـصُّـخـورْ   نَـبـعٌ يَـفُـورْ

ولَـهُـمْ قـلـوبٌ كـالـقـبـورْ   بِـلا شُـعـورْ

لا تَـلـتَـمِـسْ يـومـاً رجـاءً عـنـد مَـنْ   جَـرَّبْـتَـهُ فـوجَـدْتَـهُ لـم يَـشْـعُـرِ

* * *

الساعات الثلاث

قرروا تنفيذ الإعدام في ثلاث ساعات: ساعة لكل شهيد وها هي الساعات تتحدث عن نفسها وعن أصحابها

الساعة الأولى

أنا ساعَةُ النفسِ الأَبِيَّةْ — الفضلُ لي بالأَسْبَقِيَّةْ
أنا بِكْرُ ساعاتٍ ثَلا — ثٍ، كلُّها رمزُ الحَمِيَّةْ
بِنْتُ القضيَّةِ إنَّ لي — أثراً جليلاً في القَضِيَّةْ
أَثَرُ السيوفِ المَشْرَفِيَّـ — ـةِ، والرِّماحِ الزَّاعِبِيَّةْ
أَوْدَعْتُ، في مُهَجِ الشَّبيـ — ـبَةِ، نَفْحَةَ الرُّوحِ الوَفِيَّةْ
لا بُدَّ مِن يومٍ لَهُمْ — يَسقي العِدَى كأسَ المَنِيَّةْ
قَسَماً بِروحِ فؤادَ تَصْـ — ـعدُ مِنْ جَوانِحِهِ زَكِيَّةْ
تأتي السَّماءَ حَفِيَّةً — فَتَحِلُّ جَنَّتَها العَلِيَّةْ

حفية: السماء تحتفي بها

ما نالَ مَرْتَبَةَ الخُلو — دِ بِغيرِ تَضحيةٍ رَضِيَّةْ
عاشتْ نُفوسٌ في سبيـ — ـلِ بِلادِها ذَهَبَتْ ضَحِيَّةْ

الساعة الثانية

أنا ساعةُ الرجلِ العَتِيدِ — أنا ساعةُ البأسِ الشَّديدِ
أنا ساعةُ الموتِ المُشَرِّ — فِ كلَّ ذي فِعلٍ مَجيدِ
بَطَلِي يُحَطِّمُ قَيدَهُ — رَمزاً لِتَحطيمِ القُيودِ

قيل إن محمد جمجوم فك قيده وأسرع كي يسبق عطا الزير إلى الشهادة

زَاحَمْتُ مَن قَبْلي لِأَسْـ — ـبِقَهُ إلى شَرَفِ الخُلُودِ
وقَدَحْتُ، في مُهَجِ الشبا — بِ، شَرارَةَ العَزْمِ الوَطيدِ
هَيهاتَ يُخْدَعُ بِالوُعو — دِ، وأنْ يُخَدَّرَ بِالعُهُودِ

الشباب لن يخدع بوعود المحتلين

قَسَماً بِروحِ محمدٍ — تَلقَى الرَّدَى حُلْوَ الوُرُودِ

استحلى عمران القفيني موقع الورود هنا، فهي جمع وردة، وهي الورود أي القدوم، وكلا المعنيين يقوم به اللفظ

قسماً بِأُمِّكَ عند مو — تِكَ، وَهْيَ تَهتِفُ بالنَّشيدِ
وتَرى العَزاءَ عنِ ابنِها — في صيتِهِ الحسنِ البَعيدِ
ما نالَ مَنْ خَدمَ البلا — دَ أجلَّ مِنْ أَجْرِ الشَّهيدِ

الساعة الثالثة

أنا ساعةُ الرجلِ الصَّبورِ — أنا ساعةُ القلبِ الكبيرِ
رمزُ الثَّباتِ إلى النها — يةِ، في الخطيرِ مِنَ الأُمورِ
بَطلي أَشَدُّ على لقا — ءِ الموتِ من صُمِّ الصُّخورِ
جَذْلانُ يَرتَقِبُ الرَّدَى — فاعْجَبْ لِمَوْتٍ في سُرورِ
يَلقَى الإلَهَ مُخَضَّبَ الـ — ـكَفَّيْنِ في يومِ النُّشُورِ

خضاب الكفين رمز للفرح، فهو جذلان فرح وهو يرتقب الموت

صَبْرُ الشبابِ على المُصا — بِ، وَدِيعَتي مِلْءُ الصُّدورِ
أَنْذَرْتُ أعداءَ البلا — دِ بِشَرٍّ يومٍ مُسْتَطيرِ
قَسماً بِروحِكَ يا عَطا — ءُ، وجَنَّةِ المَلِكِ القَديرِ
وصِغارِكَ الأشبالِ تبـ — ـكي اللَّيْثَ بِالدَّمعِ الغَزيرِ
ما أَنقَذَ الوطنَ المُفَدَّ — ى غيرُ صَبَّارٍ جَسُورِ

الخاتمة

أَجسادُهُمْ في تُرْبَةِ الأوطانِ — أرواحُهُمْ في جنةِ الرِّضْوانِ
وهناكَ لا شَكوى مِن الطُّغيانِ — وهناكَ فَيْضُ العفوِ والغُفرانِ
لا تَرْجُ عفواً مِن سِواهْ — هُوَ الإلَهْ
وَهُوَ الذي مَلَكَتْ يَداهْ — كلَّ جَاهْ
جَبَروتُهُ فوق الذين يَغُرُّهُمْ — جَبَروتُهُمْ في بَرِّهِمْ والأَبْحُرِ

هذا موشح مبني بناء محكماً، ويشي ـ رغم بعض التجوز في النحو ـ بفحولة شاعر في الرابعة والعشرين من عمره. ولما بذل الشاعر من جهد وفكر وهو يبني موشحه، ويحشر فيه الإيماءات التاريخية، فقدَ السهولة. ولعل أهل فلسطين في ذلك الزمن رددوا هذا الموشح معجبين بوقع ألفاظه الفخيمة، ومتأثرين ببعض الأبيات السهلة؛ لكن التغلغل إلى المعاني لا يأتي من القراءة الأولى، ويحتاج إلى معرفة لغوية غير هينة. هذا شاعر ركب الصعب ليعبر عن مشاعر شعب حزين وقلق، وكان أليق به لو قال شعراً سهلاً في مثل هذا المقام. إذا حاكمنا طوقان بدستور البلاغة، فهو لم يبلُغ

ولم يبلُغ. وإذا نظرنا إليه شاعراً لم يجاوز القرزمة إلا قليلاً فهو فحل متين اللغة. وسيمضي إبراهيم طوقان في الشعر والحياة اثنتي عشرة سنة أخرى، وسيقول شعراً من أرق وأعذب الشعر. الصفحات المقبلة ستخبرك بذلك

٨ لجان

لـجـنـةٌ إِثْـرَ لـجـنـةٍ إِثْـرَ لـجـنـةْ   كَلِّفُوا «الـخـاطِـرَ الـكَـريـمَ» بِـهُدْنَـةْ

توالى لجان تقصي الحقائق، فهلا كلفتم «خاطركم» أي أنفسكم بهدنة تكف فيها اللجان عن القدوم إلينا؟

ولِـجـانٌ تَـلـيِ، وأُخـرى تُـوَلِّـي   هـكـذا يُـبْـدِعُ الـسـيـاسـيُّ فَـنَّـهْ

تلي: أي تليها وتتبعها

مَـرحـبـاً بـالـوفـودِ شـكـراً لِـقَـوْمٍ   جَـمـعَـتْـهُـمْ خطوبُـنـا الـمُـرْجَـحِـنَّـةْ

مرحباً بالوفود العربية التي تزور فلسطين وتجمعهم خطوبنا المرجحنة، أي مصائبنا المتمايلة إعياءً (وألقى الشاعر بالأبيات في الترحيب ببعض هذه الوفود عام ١٩٣٠)

نحن لولا الخطوبُ ما جَمَعَتْنا   بـعـدَ طـولِ الأعـمـارِ إلَّا الـجَـنَّـةْ

عمران القفيني: «ما ألطف هذه السخرية!»

٩ تحية مصر

أُحِبُّ مصرَ، ولكنْ مصرُ راغِبةٌ   عنِّي فتُعرِضُ مِنْ حينٍ إلى حينِ

وإن بَكَتْ، لا بَكَتْ هَمّاً، فقد عَلِمَتْ   وأَيـقَـنَـتْ أن ذاكَ الـهَـمَّ يُـبْـكـيـنـي

إذا بكت مصر، وأدعو الله ألا يبكيها من أي هموم، فهي تعلم أن بكاءها وهمومها تبكيني

ما لي ولِلسُّقْمْ أَخشاهُ وأَسأَلُ عن   طـبـيـبِهِ وعـمـادُ الـدِّيـنِ يَـشـفـيـنـي

كان الشاعر في مصر عام ١٩٢٢ طلباً للعلاج، وعلاجه الأمثل شارع عماد الدين بما فيه من مسارح وسينمات

هـذا، ومـصـرُ بَـسـاتـيـنٌ مـنـمَّـقـةٌ   شـبـابُـهـا بـعـضُ أزهـارِ الـبـسـاتـيـنِ

خاضُوا ميادينَ مِنْ جِدٍّ ومن لَعِبٍ   فأحرَزُوا الـسَّبْقَ في كلِّ الـميادينِ

١٠ صوموا تصحوا

حَـبَّـذا لـو يَـصـومُ مِـنَّـا زعـيـمٌ   مثلَ غَنْدي عسى يُفيدُ صيامُهْ

لا يَصُمْ عن طعامِه؛ في فِلَسْطيـ ـنَ يموتُ الزعيمُ لولا طَعامُهْ
لِيَصُمْ عن مَبيعِهِ الأرضَ يَحْفَظْ بُقعةً تستريحُ فيها عظامُهْ

وكان بعض أثرياء، وبعض زعماء، فلسطين ممن باع أرضاً لليهود

كلَّ يومٍ حزبٌ وحُلْمٌ فَحَدِّثْ عن ضعيفٍ سلاحُهُ أحلامُهْ
بَطَلٌ إن عَلا المنابرَ، كَرَّا رٌ، سريعٌ عند الفِعالِ انهِزامُهْ

كرار: هاجم.. ومن ذلك «الكرُّ والفرُّ»

١١ الزعماء

وطني مُبْتلىً بِعُصْبَةِ دلَّا لِينَ لا يتَّقُونَ فيهِ اللَّهَ

الدلال: المروِّج للبضاعة، يدل عليها المشترين ويغريهم بها

في ثِيابٍ تُريكَ عِزّاً، ولكنْ حَشْوُها الذُلُّ والرِّياءُ سَدَاها

ثيابهم أنيقة تشعرك بأن القوم أعزة، فزعماء فلسطين كانوا أيامئذ أثرياءها التقليديين، لكن ما بداخل الثياب نفوس ذليلة؛ والثياب سداها، أي نسيجها، من الرياء والنفاق

ووجوهٍ صَفيقَةٍ ليس تَنْدَى بِجُلودٍ مَدبُوغَةٍ تَغْشَاها

وجوههم صفيقة، صلبة لا يظهر عليها الخجل، ولا تندى، لا تَعرَق خجلاً، وتغشاها وتغطيها جلود كأنها الجلود المدبوغة الميتة

وصدورٍ كأنهُنَّ قبورٌ مُظلِماتٌ قلوبُهُمْ مَوتاها

صدورهم كالقبور، وقلوبهم هي الموتى الذين في القبور

حُسِبُوا في الرجالِ، هل كانَتِ الأنْـ ـعامُ إلَّا لِمِثْلِهِمْ أشْباهَا؟
يا رجالَ البلادِ، يا قادةَ الأمَّـ ـةِ، ماذا دهاكُمُ ودهاها؟
عرفَ الناسُ والمنابرُ والأقـ ـلامُ أفضالَكُمْ فهاتُوا سواها

يسخر منهم: قد عرفنا فضائلكم الكلامية فهاتوا غيرها!

اِنفِرُوا أيُّها النِّيامُ فهذا يومَ لا يَنفَعُ العيونَ كَراها

كراها: نومها

نَبِّئُوني عن القَوِيِّ متى كا نَ رحيماً، هيهاتَ! مَنْ عَزَّ تَاها

أعداؤنا أقوياء فلا عجب ألا تكون عندهم رحمة، فمن كان عزيزاً قوياً كان تياهاً متكبراً مبرزاً قوته

لا يَـلـيـنُ الـقـويُّ حـتـى يُـلاقـيِ مِـثْـلَـهُ عِـزَّةً وبَـطْـشـاً وجـاهـا
ولن يلين لنا أعداؤنا الأقوياء حتى نجابههم بعزة وقوة وبطش وجاه، مكانة عالية

١٢ الشهيد

عَـبـسَ الـخَـطْـبُ فـابـتَـسَـمْ وطَـغَـى الـهـولُ فـاقْـتَـحَـمْ
رابِـطُ الـجَـأْشِ والـنُّـهَـى ثـابـتُ الـقـلـبِ والـقَـدَمْ
رابط الجأش: صابر متماسك، النهى: العقل

سـارَ فـي مَـنـهـجِ الـعُـلا يَـطـرُقُ الـخُـلْـدَ مـنـزلا
لا يُـبـالـي، مُـكَـبَّـلاً نـالَـه أمْ مُـجَـدَّلا
مجدل: مصروع قتيل

فَـهْـوَ رَهْـنٌ بِـمـا عَـزَمْ

* * *

لا تـقُـلْ أيـنَ جِـسـمُـهُ واسْـمُـهُ فـي فَـمِ الـزَّمَـنْ
إنَّـهُ كـوكـبُ الـهُـدى لاحَ فـي غَـيْـهَـبِ الـمِـحَـنْ
الشهيد كوكب نهتدي به ويظهر في ظلام المصائب

أيُّ وجـهٍ تَـهَـلَّـلا يَـرِدُ الـمـوتَ مُـقْـبِـلا
يا لوجهه المتهلل المشرق الذي ورد الموت مقبلاً عليه

صَـعَّـدَ الـروحَ مُـرْسِـلا لَـحـنَـهُ يُـنْـشِـدُ الـمَـلا:
يرسل روحه للأعالي مرسلاً بذلك لحناً ينشده أمام الملأ الأعلى، الملائكة، واللحن هو أنه منذور لله وللوطن

أنـا لـلَّـهِ والـوَطَـنْ

١٣ أشباه الرجال

أحرارَنا! قد كشفْتُمْ عن بطولَتِكُمْ غِـطـاءَهـا يـومَ تـوقـيـعِ الـكَـفـالاتِ
يسخر: يا أحرارنا ظهرت بطولاتكم يوم طلب منكم توقيع صكوك الكفالة للإفراج عنكم بعد اعتقالكم بتهمة تنظيم المضاهرات، فوقعتموها

أنـتـمْ رجـالُ خِـطـابـاتٍ مـنـمَّـقَـةٍ كما عَلِمْنا، وأبطالُ احتِجاجاتِ

ولو أُصيبَ بِجُرْحٍ بعضُكُمْ خَطَأً فيها، إذن لَرَتَعْتُمْ بِالحَفاواتِ

لو أصيب أحدكم بجراح في مظاهرة احتجاج لرتع في احتفاء الناس به وتمجيدهم بطولته

بل حِكمَةُ اللَّهِ كانتْ في سلامَتِكُمْ لِأَنَّكُمْ غيرُ أَهْلٍ للشَّهاداتِ

أَضحَتْ فِلَسْطينُ مِنْ غيظٍ تَصيحُ بِكُمْ: خَلُّوا الطريقَ، فَلَسْتُمْ مِنْ رِجالاتي

١٤ استعدوا للرحيل

هَزُلَتْ قضيَّتُكُمْ فلا لَحْمٌ هناكَ ولا دَمُ

ضَمَرَتْ إلى بَلَدِيَّةٍ فيها العِدا تتحَكَّمُ

أصبح كل همكم الاختصام على نتائج الانتخابات البلدية، والبلديات يتحكم فيها أصلاً المحتل البريطاني

يا قومُ ليس عدوُّكُمْ مِمَّنْ يلينُ ويَرحمُ

يا قومُ ليس أمامَكُمْ إلّا الجَلاءُ فَحَزِّمُوا

١٥ سواد

لا تَلُمْني إنْ لم أَجِدْ مِنْ وَميضٍ لِرجاءٍ ما بينَ هذا السَّوادِ

١٦ السماسرة

أمّا سَماسِرَةُ البلادِ فَعُصبةٌ عَارٌ على أهلِ البلادِ بَقاؤُها

السماسرة: رجال كانوا يسعون بين عربي يملك الأرض ويهودي يريد شراءها

هُمْ أهلُ نَجدَتِها، وإن أَنْكَرْتَهُمْ، وهُمُ، وأَنْفُكَ راغِمٌ، زُعَماؤُها

وحُماتُها، وبِهِمْ يَتِمُّ خَرابُها وعلى يَدَيْهِمْ بَيْعُها وشِراؤُها

١٧ أيها المحتلون

قد شَهِدنا لِعهدِكُمْ بالعدالَةْ وخَتَمْنا لِجُندِكُمْ بالبَسالَةْ

يسخر من البريطانيين المحتلين

وعَرفْنا بِكُمْ صديقاً وفيّاً كيف ننسى انتِدابَهُ واحتِلالَهْ

وخَجِلْنا مِنْ لُطفِكُمْ يومَ قُلْتُمْ وعدُ بَلْفورَ نافِذٌ لا مَحالَةْ

ونشرح هذا الشعر في مارس ٢٠١٧، وبعد أشهر يحتفل وعد بلفور بعيد مولده المئة، وهو وعد بريطاني لليهود بوطن قومي لهم في فلسطين

كلُّ أَفضالِكُمْ على الرأسِ والعيـ ـنِ، وليستْ في حاجةٍ لِدَلالَةْ
ولئنْ ساءَ حالُنا فكَفانا أنَّكُمْ عندَنا بأحسنِ حَالَةْ
غيرَ أنَّ الطريقَ طالَتْ علينا وعليكُمْ، فما لنا والإِطالَةْ؟
أَجَلاءٌ عن البلادِ تُريدو نَ فَنَجْلوُ، أم مَحقَنا والإِزَالَةْ؟

١٨ عودة نوح

مَنْ كانَ يُنكرُ نوحاً أو سفينَتَه فإنَّ نُوحاً بِأمرِ اللَّهِ قد عادا
حَلَّ الوَبالُ بِعيبالٍ فَمالَ به يا هَيْبَةَ اللَّهِ إِبْراقاً وإِرْعادا

عيبال: الجبل الشمالي لمدينة نابلس، ويقصد عموم المدينة

منذُ احتَلَلْتُمْ وشُؤْمُ العيشِ يُرهِقُنا فقراً وجَوْراً وإِتعاساً وإِفسادا
بِفضلِكُمْ قد طَغَى طُوفَانُ هِجرَتِهِمْ وكانَ وعداً تَلَقَّيْناهُ إِيعَادا

كالفَيَضان الذي حل بنابلس ثمة طُوفان هو هجرة اليهود التي سهل أمرها المحتلون البريطانيون، كانت وعداً، هو وعد بلفور، وتحولت إلى إيعاد، تهديد لوجودنا

واليومَ، مِن شُؤْمِكُمْ، نُبْلَى بِكارثةٍ هذا هُوَ الطينُ والماءُ الذي زَادا

واليوم لشؤمكم علينا نبتلى بكارثة الفيضان.. وينظر الشاعر إلى ما جاء به الفيضان من طين ووحل، ويخطر بباله المثل «زاد الطين بِلَّة»

١٩ أيها الثقيل!

أنتَ كالِاحتلالِ زَهْواً وكِبْراً أنتَ كالِانتدابِ عُجْباً وتِيها

العجب والتيه: التكبر

أنتَ كالهِجرةِ التي فَرضُوها ليس مِنْ حيلَةٍ لِقَوْمِكَ فيها

أنت أيها الثقيل كهجرة اليهود القادمين إلى فلسطين أفواجاً ولا حيلة لنا فيها، وكذا لا حيلة لنا فيك

أنتَ أَنْكَى مِنْ بائِعِ الأرضِ عندي أنتَ أعذَارُهُ التي يَدَّعيها
لكَ وَجْهٌ كأنَّهُ وجهُ سِمسا رِ على شَرطِ أن يَكُونَ وَجيها

وجهك كوجه السمسار بائع الأرض للعدو، شرط أن يكون سمساراً من الوجهاء الأثرياء فهذا أقبح له

وجَبينٌ مثلُ الجريدَةِ لَمَّا لم تَجِدْ كاتباً عفيفاً نزيها

وحديثٌ فيه ابْتِذالُ «احتِجاجٍ» كُلَّما نَمَّقُوهُ عادَ كَريها

حديثك فيه ابتذال كابتذال عرائض الاحتجاج التي كان الناس «يرفعونها» للسلطات المحتلة بدل أن يقاوموا الاحتلال

جُمِعتْ فيكَ عُصْبةٌ للبَلايا وأرى كلَّ أُمَّةٍ تَشْتَكيها

هذا أسلوب «الاستطراد» في الشعر، وقد قعَّد له أبو تمام؛ فعندما قال في امرأة (يا نَكبَةً هَشَمَتْ أنْفَ السُّرورِ بِها/ وميتَةً أبْقَتِ العُزَّابَ عُزَّابا) سأل تلميذه البحتري: ما هذا؟ فقال البحتري: لا أدري. فقال أبو تمام: هذا الاستطراد.. أن تُوهم السامع بمعنى وأنت تقصد غيره. وفي البيت يترحم أبو تمام على المرأة المتوفاة لأن السرور زال بموتها، وعاد العزاب عزاباً بحق، وهو يقصد أنها كانت تلهو ـ على الأقل ـ معهم. فهو يهجوها ويُكَشِّخ زوجها في الحقيقة. وطوقان فرش الاستطراد على قصيدة يوهمنا فيها أنه يهجو ثقيلاً من الثقلاء ولكنه يرمي إلى هجاء السماسرة والصحفيين المنافقين. راجع في «الاستطراد» الشعري أمثلة كثيرة سقناها في كتابنا «تجدد الشعر» وهو الجزء الثاني من خماسية «الزبدة» التي بيديك جزؤها الأخير

٢٠ لنا خصمان

أَمامَكَ أيُّها العربيُّ يومٌ تَشيبُ لِهَوْلِهُ سودُ النَّواصي

وأنتَ، كما عهِدْتُكَ، لا تُبالي بِغيرِ مظاهرِ العَبَثِ الرِّخاصِ

لنا خَصمانِ: ذو حَوْلٍ وطَوْلٍ وآخرُ ذو احتِيالٍ واقْتِناصِ

لنا خصمان، أحدهما له حول وطول: جبروت وقوة، وهو البريطانيون، والآخر محتال يقتنص أرضنا اقتناصاً هو اليهود

تَواصَوْا بينَهُمْ فأَتَى وَبالاً وإذلالاً لنا ذاكَ التواصي

تواصوا: اتفقوا وأوصى بعضهم بعضاً

مناهجُ للإبادَةِ واضِحاتٌ وبِالحُسنَى تُنَفَّذُ والرَّصاصِ

٢١ يا زعماءنا

أنتُمُ المُخْلِصُونَ لِلوَطَنِيَّةْ أنتمُ الحامِلونَ عِبْءَ القَضيَّةْ

يسخر من زعماء فلسطين أيام الاحتلال البريطاني

أنتُمُ العامِلونَ مِن غيرِ قولٍ بارَكَ اللَّهُ في الزُّنودِ القَوِيَّةْ

وبَيانٌ منكُمْ يُعادِلُ جيشاً بِمُعَدَّاتِ زَحفِهِ الحربِيَّةْ

واجتِماعٌ منكُمْ يَرُدُّ علينا غابِرَ المجدِ مِنْ فُتوحِ أُمَيَّةْ

وخَلاصُ البلادِ صَارَ على البا ... بِ، وجَاءتْ أعيادُهُ الوَرْدِيَّةْ
مَا جَحَدْنا أفْضَالَكُمْ غيرَ أنّا ... لم تَزَلْ في نفوسِنا أُمْنِيَّةْ
في يَدَيْنا بَقيَّةٌ مِنْ بلادٍ ... فاسْتَريحُوا كيْ لا تَطيرَ البَقِيَّةْ

٢٢ الرقم ألف

يُهاجِرُ أَلْفٌ، ثم أَلْفٌ مُهَرَّباً ... ويَدخُلُ أَلْفٌ سَائِحاً، غيرَ آيِبِ

يدخل اليهود فلسطين بالهجرة المسموح بها من قبل المحتل البريطاني، وبالتهرب، ويدخلون سياحة لكن بلا إياب

وأَلْفُ جوازٍ ثم أَلْفُ وسيلةٍ ... لِتسهيلِ ما يَلْقَوْنَهُ مِنْ مَصاعِبِ
وفي البحرِ آلافٌ كأنَّ عُبابَهُ ... وأَمواجَهُ مَشحُونةٌ في المَراكِبِ

وفي البحر مراكب تقل آلاف اليهود، فكأن عباب البحر وأمواجه هي الموجودة داخل السفن لكثرة ما بها من البشر

بَنِي وَطني، هل يَقْظَةٌ بعدَ رَقْدَةٍ؟ ... وهل مِنْ شُعاعٍ بين تلكَ الغَياهِبِ؟
فَوَاللَّهِ ما أَدري، ولِلْيأْسِ هَبَّةٌ، ... أُنادي أَميناً أم أُهيبُ بِراغِبِ؟

هل أنادي أمين الحسيني أم راغب النشاشيبي الزعيمين اللذين كانا يتنازعان على الزعامة؟

٢٣ لمن الربيع؟

أَرَأَيْتَ مملكةَ الربيـ ... ـعِ، يُعيدُ رَونَقَها الربيعُ؟
ويُتَوَّجُ الراعي بها ... مَلِكاً، رَعِيَّتُهُ القطيعُ
الذئْبُ يَرهَبُهُ، ويَلْـ ... ـثِمُ كَفَّهُ الحَمَلُ الوَديعُ

يلثم: يقبِّل

فَرَحُ الربيعِ لِمَنْ له ... أرضٌ، وليسَ لِمَنْ يَبيعُ

٢٤ أوهام الظُّلَّام

علامَ احتِراسُكِ؟ لا أَعلَمُ ... وفيمَ احتِشادُكِ؟ لا أفهَمُ

حشدت حكومة الاحتلال البريطاني في فلسطين قواتها تحسباً من مظاهرات في «موسم النبي موسى»، وهو موسم شعبي شبه ديني يقام سنوياً قرب أريحا ويحضره المنشدون والفرق الصوفية والباعة المتجولون

وهل في فِلَسطينَ ما تَرهَبينَ سوى أنَّه اجتَمَعَ «الموسِمُ»؟
جَوادٌ بِراكِبِهِ عاثِرٌ وأينَ له الفارسُ المُعْلَمُ؟

فلسطين مثل حصان يعثر براكبه، ولا فارسَ معلماً له، أي الفارس الذي يضع شارة التميز والبطولة

وسيفٌ بِحامِلِهِ ساخِرٌ وأين له الكفُّ والمِعْصَمُ؟
مَظاهِرُ، ليس بِها ما يُخيفُ ولكنَّما خافَ مَنْ يَظْلِمُ

٢٥ عزة الإسلام

يومٌ بِداجِيَةِ الزمانِ ضِياءُ وبَهاؤُهُ لِلخافِقَيْنِ بَهاءُ

مولد النبي كان يوماً مضيئاً في ظلام الزمن، وكان بهاء هذا اليوم وإشراقه بهاء للخافقين، الشرق والغرب

وإذا مِنَ الفَوضَى نِظامٌ معجِزٌ وقِيادَةٌ وسِيادةٌ ودَهاءُ

الإسلام جاء بالنظام المعجز بعد الفوضى

وإذا الخِيامُ قُصورُ أمْلَاكِ الوَرى وإذا القِفارُ دِمَشْقُ والزَّوْرَاءُ

خيام العرب تحولت بالإسلام إلى قصور لملوك البشر، وقفار العرب وصحراؤهم صارت حواضر الدنيا كدمشق والزوراء، بغداد

وعلى رُبُوعِ الصينِ كَبَّرَ فَيْلَقٌ وبِأرْضِ قُسْطَنطِينَ رَفَّ لِواءُ

أرض قسطنطين: بلاد الروم، تركيا الحالية

تلكَ الخَوارِقُ إنْ طَلَبْتَ أدِلَّةً ثَبَتَ البُراقُ بِهِنَّ والإسْراءُ

هذا التمدن السريع وتلك الانتصارات الباهرة المعجزة أدلة تثبت حدوث معجزات أخرى كالبراق الذي أسرى بالنبي ثم عرج به إلى السماء

نزلَ الكِتابُ على النَّبِيِّ محمَّدٍ، ما يَصنعُ الخُطباءُ والشعراءُ!

القرآن جعل الخطباء والشعراء يدركون أن بلاغتهم ضئيلة القيمة بجانبه

نَادَيْتُ قَومي لا أُخَصِّصُ مُسلِماً أَبناءُ يَعْرُبَ في الخُطوبِ سَواءُ

أبناء يعرب: يعني العرب جميعاً. فإذا قال البحتري «نحن، أبناءَ يعرب، أعرب الناس لساناً» فهو يعني اليمانيين ليس غير

إنَّ الكتابَ شَريعَةُ استِقلالِكُمْ فَتَدَبَّرُوهُ وأنتُمُ الخُلَفاءُ

القرآن دستوركم إذ تسعون للاستقلال، فتدبروا معانيه فهو في مقام الدستور وأنتم في مقام الخلفاء

٢٦ الزلزال

أَدُمــوعُ الــنِّـســاءِ والأطــفــالِ　　تجرحُ القلبَ أم دُموعُ الرجالِ؟

بَــلَــدٌ كــانَ آمِـنـا مـطـمـئـنـاً　　فــرمــاهُ الــقــضــاءُ بــالــزِّلــزالِ

مَـادَتِ الأرضُ ثـم شَبَّـتْ وأَلْـقَـتْ　　مـا عـلـى ظـهـرِهـا مِـنَ الأَثْـقـالِ

مادت الأرض ومالت، ثم شبت، ارتفعت، ورمت ما عليها من أبنية

فــإذا الــدُّورُ وَهْــيَ إمَّــا قــبــورٌ　　تــحــتَــهـا أهــلُـهـا، وإمَّـا خَـوالِ

خوال: خالية من الناس. وفي زلزال ١٩٢٧ بفلسطين، خرج أهالي نابلس من بيوتهم وتفرقوا في الجبال

رَبِّ إنَّ الـكُـروبَ تَـتْـرَى عـلـيـنـا　　حَـسْـبُـنـا كَـرْبُ هِـجْـرَةٍ واحـتِـلالِ

تترى: متوالية، والهجرة المقصودة: هجرة اليهود إلى فلسطين، فشاعرنا مات قبل أن يهجَّر الفلسطينيون من بلدهم

٢٧ الطريق المعبد

لـي بـالـحـيـاةِ تَـعَـلُّـقٌ وتَـشَـدُّدُ　　والعُمرُ ما بَعْدَ الـمَدى فَسيَنْفَدُ

نَــفَــسٌ أُرَدِّدُهُ وأعــلَــمُ أنَّــهُ　　لِـلـموتِ بـيـن جـوانِـحـي يَـتَـرَدَّدُ

يتردد نَفَسي بين أضلاعي وكأنه خطوات المسير نحو الموت

ويُـلِـمُّ بـي أَلَـمٌ أُخَـاتِـلُـه بِـمـا　　يَصِفُ الطبيبُ فَيَسْتَكينُ ويَخْمُدُ

أخاتله: أخادعه

ويَسُرُّني أَنّي نَجَوْتُ مِن الأَذى،　　ويْـلـي! كـأنّيَ إنْ نَـجَـوْتُ مُـخَـلَّـدُ

وكـأنَّـنـي ضَـلَّـلْـتُ سيْـرَ مَـنِـيَّـتـي　　إنَّ الـطـريـقَ إلـى الـفَـنـاءِ مُـعَـبَّـدُ

كأنني بتناول الدواء قد جعلت موتي يضل الطريق إليَّ. . لكن، هيهات، فطريق الموت معبد

هيهاتَ لستَ بِخادِعٍ عَينَ الرَّدَى　　عينُ الرَّدَى يَقظَى، وعَيْنُكَ تَرقُدُ

٢٨ رثاء شريف مكة

رحــمــةُ الــلَّــهِ عــلــيــهِ إنــهُ　　غــالَــهُ الــيــأسُ، وكــانَ الأَمَــلا

ويْــحَ قــومٍ خَــذَلُــوهُ بــعــدمــا　　أخــذُوا الــمــيــثــاقَ ألَّا يَــخْــذُلا

ويح الإنجليز الذين غدروا بشريف مكة وخذلوه بعد أن أخذوا تعهداً منه ألا يخذُلهم هو في حربهم ضد الدولة العثمانية

كـادَتِ الـكـأسُ الـتـي فـي قُـبـرُصٍ　　تُـشْـبِـهُ الـكـأسَ الـتـي فـي كَـرْبَـلا

كاد موته منفياً في قبرص، ١٩٣١، يشبه مقتل الحسين بن علي في كربلاء

٢٩ رثاء فيصل العراق

شَـيِّـعـي الـلـيـلَ وقُـومـي اسـتَـقْـبِـلـي　　طَـلْـعَـةَ الـشـمـسِ وراءَ الـكَـرمِـلِ

يا فلسطين ودعي ليلك وقومي استقبلي طلوع الشمس وراء جبل الكرمل بحيفا.. وكان جثمان فيصل ملك العراق قد نقل من سويسرا حيث توفي، ١٩٣٣، إلى ميناء حيفا في طريقه إلى مثواه الأخير في بغداد، وخرج الفلسطينيون يستقبلون الجثمان

واخْشَعي! يُوشِكُ أنْ يَغْشَى الحِمَى　　يـا فِـلَـسـطـيـنُ سَـنـىً مِـنْ فـيـصـلِ

اخشعي يا فلسطين، اخفضي بصرك، إذ يكاد يغشى البلاد سنى، نور ساطع، من فيصل

ذلـكَ الـفُـلْـكُ الـذي يَـحْـمِـلُـهُ　　مِـثْـلَـهُ مـنـذُ جَـرى لـم يَـحْـمِـلِ

الفلك، أي السفينة، الذي حمل فيصلاً لم يحمل شخصاً مثله منذ أن جرى في الماء، أي منذ أن صنع البشر السفن

لـو تَـعَـدَّى لُـجَّـةَ الـبـحـرِ بـه　　خَـاضَ فـي لُـجَّـةِ دَمْـعٍ مُـسْـبَـلِ

لو أن السفينة خرجت من البحر إلى اليابسة فلا بأس.. ستخوض في بحر من الدموع المسبلة الهاطلة حزناً على الفقيد

رَاقِـدٌ يَـنْـعُـمُ فـي ضَـجْـعَـتِـه　　خَـلَّـفَ الـدُّنـيـا بـهِ فـي شُـغُـلِ

مات فيصل وترك الدنيا منشغلة بذكره والحزن عليه

أَيـقَـظَ الـلَّـوعَـةَ فـيـهـا والأسـى　　وغـفـا بـيـنَـهـمـا لـم يَـحْـفِـلِ

ما الـذي أعـدَدْتِ مِن طيِبِ القِرى　　يـا فِـلَـسـطـيـنُ لِـضـيـفٍ مُـعْـجَـلِ؟

القرى: طعام الضيف

لا أرى أرضـاً نُـلاقـيـهِ بِـهـا　　قـد أضـاعَ الأرضَ بَـيْـعُ الـسِّـفَـلِ

أضاع الأرض السفلة الذين باعوها لليهود

فـاسْـتُـري وَجْـهَـكِ لا يَـلْـمَـحْ عـلـى　　صَـفـحَـتَـيْـهِ الـخِـزيَ فـوقَ الـخَـجَـلِ

مَـن هَـفـا لِـلـمَـثَـلِ الأعـلـى يَـجِـدْ　　فـي بَـنـي هَـاشِـمِ اعْـلـى مَـثَـلِ

هفا: اشتاق

أَيُّـكُـمْ يـا آلَ بـيـتِ الـمـصـطـفـى　　مـا قـضـى مُـسْـتَـشْـهِـداً مـنـذُ عَـلـي؟

٣٠ حسرة على وطن يتسرب

وطنِي أخافُ عليكَ قوماً أصبحُوا ... يَتساءلون: مَنِ الزعيمُ الأَلْيَقُ؟
لا تفتَحُوا بابَ الشِّقاقِ فإنَّهُ ... بابٌ على سُودِ العَواقبِ مُغْلَقُ

باب الشقاق، والاختلاف، مغلق فإن فتحتموه فوراءه عواقب وخيمة

أمَّا الزَّعامَةُ فالحوادِثُ أُمُّها ... تُعطَى على قَدْرِ الفِداءِ وتُرْزَقُ

الزعامة تنال بوقوف الزعيم في وجه الحوادث التي تحل بالبلد، وبقدر ما يقدم من تضحية

يا ابنَ البلادِ، وأنتَ سَيِّدُ أرضِها ... وسمائِها، إنِّي عليكَ لَمُشْفِقُ
ماذا يَرُدُّ الظُّلْمَ عنكَ، أَحَسْرَةٌ ... أم زَفْرةٌ، أم عَبْرةٌ تَترَقْرَقُ؟
لا تَلْجأَنَّ إذا ظُلِمْتَ لِمَنْطِقٍ ... فهناكَ أَضْيَعُ ما يَكُونُ المنطِقُ

لا ينفع المنطق، أي الكلام والخطابات والاحتجاجات، في مواجهة الظلم، فلا بد من مقاومة

٣١ رثاء الشيخ سعيد الكرمي

سلفٌ صالحٌ، بقيَّةُ قومٍ ... باركَ اللَّهُ عَهدَكُمْ في العُهودِ
عَرفُوا الخيرَ، أكرَمُوا فاعِليهِ ... جَهِلُوا اللُّؤمَ جَهْلَهُمْ لِلجُحودِ
وإذا ما تَجَرَّدُوا لِعَداءٍ ... وَقَفُوا بِالعَداءِ عندَ حُدودِ

هذا معنى يدركه كرام الناس فقط

مَا أَشَدَّ افتِقارِنا لِسُمُوِّ الْـ ... ـخُلْقِ في هذهِ الليالي السُّودِ
مَا لَكُمْ! بَعْضُكُمْ يُمَزِّقُ بَعضاً ... أَفَرَغْتُمْ مِنَ العدوِّ اللَّدودِ؟
إِذْهَبوا في البلادِ طُولاً وعَرضاً ... وانظُروا ما لِخَصْمِكُمْ مِنْ جُهودِ

انظروا جهود خصمكم اليهودي الذي يبني المستوطنات ويتسلح

والمَسُوا بِاليديْنِ صَرحاً مَنيعاً ... شادَ أركانَهُ بِعزمٍ وَطيدِ

٣٢ المخدوعون

تَمَكَّنَ الذُّلُّ مِن قومِي فلا عَجَبٌ ... أَلَّا يُبالُوا بِتقريعٍ وتأنيبِ
ما أشرفَ العُذْرَ لو أنَّ الوَغَى نَثَرتْ ... أَشلاءَهُمْ بين مَطْعونٍ ومَضْروبِ

كان يكون لهم عذر لو أن الحرب نثرت أشلاءهم قتلى

لكنْ دهَتْهُمْ أساليبُ العُداةِ وهُمْ سَاهُونَ لاهُونَ عن تلكَ الأساليبِ

لكنهم وقعوا في شراك أساليب الأعداء

ويَقنَعُونَ بِمَبْذُولٍ يُلَوِّحُهُ مُستعمِرُوهُمْ بِتَبْعيدٍ وتَقريبِ

ويقنعون بما يمنحه لهم المحتل من فتات، وما يقدمه من وعود، وبتبعيده وتقريبه، و«التبعيد والتقريب» تعني الدهاء السياسي، واللفظ جاء عند البحتري (أَحْكَمْتَ مَا دَبَّرْتَ بِالتَّبْعِيدِ، والتَّـ ـقْرِيبِ، والتَّصْعِيبِ، والتَّسْهِيلِ)

كأنَّهُمْ لم يُشَيِّدْ مَجْدُ أَوَّلِهِمْ على السيوفِ وأَطرافِ الأَنابيبِ

أطراف الأنابيب: أطراف الرماح

٣٣ رثاء أديب منصور

وقد اغتالته العصابات الصهيونية بقنبلة موقوتة وكان زميلاً للشاعر في الإذاعة الفلسطينية

تُفيضُ أكالِيلَهُ طِيبَها ودونَ شَمائِلِهِ كلُّ طيبْ

الأكاليل على قبره تبعث عطر أزهارها، ولكن شمائله، خصاله وصفاته، أحسن من كل طيب

وعُدْتُ عنِ القبرِ في العائدينَ أمامي نَحيبٌ وخَلْفي نَحيبْ

٣٤ يا طير!

قُلتُ للطيرِ حينَ أصبحَ يَشدُو: أيها الطيرُ عِمْ صَباحاً! فَرَدَّا

ثُمَّ غَنَّى أُنشودةً عن حبيبٍ لم يكنْ ظالماً ولا خانَ عَهْدا

أَضرَمَ الذِّكرياتِ بي ثم وَلَّى، لا رماكَ الصيَّادُ، أَسرَفْتَ جِدًّا

أشعل هذا الطائر الذكريات بقلبي ثم طار، وأدعو لك أيها الطائر ألا يرميك صياد، لكنك أسرفت في بعث ذكرياتي من مرقدها

٣٥ في المكتبة

وغَريرةٍ في المكتبةْ بجمالِها مُتَنَقِّبَةْ

كأنها تضع نقاباً على وجهها هو في الواقع جمالها

جلستْ لِتقرأَ أو لِتكـ ـتُبَ ما المعلمُ رَتَّبَهْ

فدنوْتُ أَسْتَرِقُ الخُطَى حتى جلستُ بِمَقْرُبَةْ

وحـبـســتُ، حـتـى لا أرى، أنـفـاسِـيَ الـمُـتَـلَـهِّـبَـةْ
ونَـهَـيْـتُ قـلـبـي عـن خـفـوقٍ فـاضـحٍ، فَـتَـجَـنَّـبَـهْ
رَاقـبْـتُـهـا، فـشـهِـدْتُ أنَّـ الـلَّـهَ أجـزَلَ فـي الـهِـبَـةْ
حَـمَـلَ الـثَّـرى مـنـهـا عـلـى نُـورِ الـيَـدينِ وقَـلَّـبَـهْ

عندما خلقها الله حمل ترابها على نور يديه وقلبه تقليباً، وهو يصنع منه طينها

وسَـقـاهُ فـي الـفِـردَوْسِ مَـخْـتـومَ الـرَّحـيـقِ ورَكَّـبَـهْ

وسقى ترابها من الرحيق الفردوسي المختوم، من خمر الجنة المختوم عليه في دنانه، وركَّب من التراب والخمر طين هذه المخلوقة

فـإذا بِـهـا مَـلَـكٌ تَـنَـزَّ لَ لِـلـقـلـوبِ الـمُـتـعَـبـةْ

فكأنها من الملائكة

يـا لـيـتَ حَـظَّ كِـتـابِـهـا لِـضُـلـوعِـيَ الـمُـتَـعَـذِّبَـةْ

ليت ضلوعي بيديها بدل كتابها

حَـضَـنَـتْـهُ تـقـرأُ مـا حَـوى وحَـنَـتْ عـلـيـهِ ومـا انْـتَـبَـهْ

حمار هذا الكتاب الذي لم ينتبه إلى أن أليس تحتضنه (لعل القصيدة قيلت في «أليس تين» الشامية التي كانت تدرس في الجامعة الأميركية آنذاك وفتنت عقول عدة شعراء منهم العراقي والشامي والفلسطيني، وهي الآن في الغالب قد رجعت إلى تراب الله، إلا إن كانت عمرت إلى سن المئة وعشر سنين)

فـإذا انـتَـهـى وجـهٌ ونـا لَ ذَكـاؤُهـا مـا اسْـتَـوعَـبَـهْ

وجه: أي صفحة

سَـمـحَـتْ لأَنْـمُـلِـهـا الـجـمـيـ ـلِ بِـريـقِـهـا كـي تَـقْـلِـبَـهْ
وسَـمِـعْـتُ وَهْـيَ تُـغَـمْـغِـمُ الـ ـكَـلِـمـاتِ نَـجـوى مُـطْـرِبَـةْ

يقول الشارح: كأنها كبعض زميلاتي عفا الله عنهن، ممن كن يدرسن بالتمتمة، لا تعرف عيونهن القراءة بلا لسان

ورأيْـتُ فـي الـفَـمِ بِـدعَـةً خَـلَّابَـةً مُـسْـتَـعْـذَبَـةْ
إحـدَى الـثَّـنـايـا الـنَّـيِّـرا تِ، بَـدَتْ، ولـيـسَ لـهـا شَـبَـهْ

الثنايا: الأسنان، النيرات: اللامعات

مَـثْـلُـومَـةً مِـن طَـرْفِـهـا لا تَـحْـسَـبَـنْـهـا مَـثْـلَـبَـةْ

سنها مكسور من طرفة، لكن هذا ليس مثلبة، ليس عيباً

هِيَ، لو عَلِمتَ، مِنَ المَحا سِنِ عندَ أرفَعِ مَرتَبَةْ
هِيَ مَصدرُ السَّيئاتِ تُكْ سِبُها صَدىً، ما أعْذَبَهْ

كان ثاحبنا يتمتع بكلامها، وللناث فيما يعشقون مذاهب

٣٦ القلب القافز

سَلامٌ عليكِ ولو شَفَّني مِنَ الوجْدِ واليأسِ ما شَفَّني

شفني: أهزلني وأنحل جسمي

أداري غَرامَكِ جَهْدَ الحليمِ فما يَستريحُ، وما أَنْثَني
وقلبي كما يشتَهيهِ الهوى لِغيرِ جَمالِكِ لم يُذْعِنِ
خَفُوقٌ، ولو شِئتِ سَكَّنْتِهِ ولو شاءَ غيرُكِ لم يَسْكُنِ
سَقيمٌ، ولو شئتِ أَبْرَأْتِهِ بِعَطْفِكِ مِنْ دائِهِ المُزْمِنِ
إذا كنتِ منهُ تِجاهَ اليَمينِ يَخِفُّ إلى جانِبي الأَيْمَنِ

يقفز قلبه إلى الجانب الأيمن إن كانت المحبوبة تجلس إلى يمينه

٣٧ طيفها

ما أشدَّ الهوى، وما أطولَ الليـ لَ، وما أبعدَ الكرى عن جفوني
رُبَّ ذكرى، وما هَجَعْتُ، استحالت لخيالٍ سرى فأذْكى شجوني

رب ذكرى استحالت، أي تحولت، قبل أن أنام إلى خيال، طيف، فأذكى، وأشعل، هذا الطيف مشاعري

ضَمَّني، ثم ردَّني وتلاشى في الدياجي كما تلاشى أنيني
راعَني أمرُه فنبَّهتُ مَن حو لِيَ ذُعراً بِصَرخةٍ في السكونِ
سألوني فلم أُجِبْ، بل تناوَمْـ تُ، فناموا، ولِلأسى خَلَّفوني

٣٨ حبيبتي أحلى

ما رَونقُ الفجرِ والظلماءُ عاكفةٌ إذا تَنَفَّسَ نُوراً في حناياها..

يبدأ تشبيهاً طويلاً: ليس رونق الفجر، أي أوله، عندما يتنفس الفجر ويبدأ بالظهور في حنايا الظلماء ووسطها..

فهَبَّتِ الطَّيرُ تَدعُو الطَّيرَ مرسِلةً   مِن الأغاريدِ أحلاها وأشجاها

وتهب الطيور مستيقظة يدعو بعضها بعضاً بأحلى زقزقة وتغريد..

ولا الورودُ كأمثالِ الخُدودِ، وقد   تفتَّحَتْ في الرياضِ الفيحِ تَغشَاها..

وليست الورود، التي تشبه خدود الحسان، عندما تتفتح هذه الورود وتغشى وتغطي الرياض الفيح، أي الفيحاء العطرة..

كَلَّا ولا قَطَراتُ الطَّلِّ كامِنةً   في الأُقْحُوانِ وأُمُّ الشَّهْدِ تَرعاها..

وليس قطرات الطل، أي الندى، المختبئة في الأقحوان، بينما أم الشهد، وهي النحلة، ترعى القطرات وتحنو عليها (أو إن شئت ترعى النحلات الأقحوانات مثلما يرعى الخروف العشب)..

يوماً بأجملَ مِن مَيٍّ إذا ابتسمَتْ   تحت النِّقابِ ولاحتْ لي ثناياها

كل هذا ليس أجمل من ابتسامة ميّ تحت نقابها، وقد لمعت ـ برغم النقاب ـ أسنانها البيض

٣٩ وجع أسنان

رسالةٌ واهاً لها واها   شَرِقْتُ بالدمعِ لِفَحواها

مِن غادةٍ عَذَّبني نأيُها   ما ضَرَّ لو كنتُ وإِيَّاها

أضراسُها تُؤلِمُها ليتَني   أَشكُو الذي سبَّبَ شكواها

تلكَ ثَناياها التي نُضِّدَتْ   عِقدَيْنِ والمَكسُورُ إحْداها

والسن المكسور أحد هذه الأسنان التي تتشكل في عِقدين، وكلامه بلا شك عن فاتنته وزميلته في الجامعة الأميركية ذات السن المكسور

آثارُها في شَفَتي لم تزلْ   يا ضُلَّ مَن يَجهَلُ مَعناها

٤٠ في دير قديس

لم ألقَ بين لَيالِيَّ التي سَلَفتْ   كَليلةٍ بِتُّها في «دَيْرِ قِدِّيسِ»

دير قديس قرية فلسطينية

ضَمَمْتُ حسناءَ لم يُخلَقْ لها مَثَلٌ   بين الحسانِ ولا حُورِ الفَراديسِ

ما عرشُ بِلقِيسَ في إبَّانِ دولتِها   ولا سليمانُ مَزفوفاً لِبِلقيسِ

يوماً بأَعظَمَ مِنَّا في السريرِ وقد   دامَ العِناقُ إلى قَرعِ النَّواقيسِ

٤١ كُفْر كَنَّا

جُزْتُ بِالحَيِّ في العَشِيِّ فَهَبَّتْ نَفْحةٌ أَنعشتْ فؤادِي المُعَنَّى

جزت بالحي، أي مررت به، عِشاءً فهبت نسمة أنعشت قلبي المتعَب

قُلتُ: مِنها؛ ودُرْتُ أنظُرُ حولِي نظراتِ الملهوفِ يُسرى ويُمنى

قلت لنفسي: لا بد أنها نسمة من عطر الحبيبة

وإذا طَيِّبٌ جَنِيٌّ مِن الرُّمَّـ ـانِ مثلُ النُّهودِ لَوْ هِيَ تُجنَى

فإذا بها رائحة رمان جني، مقطوف لتوه، كأنه النهود لو جاز عليها أن تقطف

وافَقَتْ نَظرَتي نِداءَ غُلامٍ: (ناصِرِي يا رُمَّانُ.. مِنْ كُفْرِ كَنَّا)

رأيت غلاماً ينادي على الرمان، وينسبه إلى مدينة الناصرة وقرية كفر كنا

قلتُ أَسْرِعْ به فِدىً لكَ مَالِي وتَرَنَّمْ بِذكْرِهِ وتَغَنَّ

يا رسولَ الحبيبِ مِن حيثُ لم تَدْ رِ، لقد جِئتَنِي بِما أَتَمَنَّى

ذكره الرمان بغراميات كانت له في كفر كنا

٤٢ الشيء بالشيء يذكر

أُسائلُ البدرَ حَيرا نَ عنكِ إنْ هُوَ أَسْفَرْ

ذَكَرْتُ وجهَكِ فيه والشيءُ بالشيءِ يُذْكَرْ

كوني بِوُدِّكِ كالبد رِ فَهْوَ يَخفَى ويَظهرْ

ليكن ودك كالبدر يغيب ثم يظهر.. فأما ودك فهو غائب دائماً

٤٣ راكضاً نحو الحبيبة

رُبَّ يومٍ كأنَّما كَرَعَ البَحْـ ـرَ، فَغَطَّى السماءَ بِالمُعْصِراتِ

كأنّ هذا اليوم كرع، أي شرب، البحر، فتغطت السماء بالمعصرات، أي الغيوم

يَتزاحَمْنَ في الفضاءِ الهُوَيْنى مُسْبِلاتِ الذيولِ مُنهَمِراتِ

تتزاحم الغيوم في السماء لكنها تسير الهوينى، بطيئةً، وتسبل وترخي ذيولها على هيئة أمطار

عَصفَ الشوقُ يومَذاكَ بِأضلا عِي، فَأزْرى بثورةِ العاصفاتِ

الشوق هز صدري فأزرى بثورة العواصف أي صغّرها بالنسبة إليه

لم يزلْ بيِ حتى تَجشَّمْتُ هولَ السَّـ ـير عَدْواً إلى الحبيبِ المُؤَاتي

ظل الشوق يعصف بي حتى تجشمت هول السير وتحمَّلت صعوبته ركضاً نحو الحبيب المؤاتي، الموافق لي في شعوره

أتَقَرَّى بينَ الهضابِ طريقي مُستنيراً مَقادِحَ الزَّفَراتِ

أتقرى طريقي وأتحسسه بين الهضاب لشدة ما بالجو من قتامة، وتهديني في الطريق البروق التي كأنها تنقدح من زفرات قلبي المشوق

أَتْرَعَتْ لي كأسَ المُدامِ وقالتْ: هاكَ، لا تَرْفُضَنَّها بِحياتي!

ملأت لي الحبيبة كأس الخمر وقالت: بحياتي، لا ترفضها!

قلتُ: منها اشْربي قليلاً، فلمَّا مَزَجتْها بريقِها، قلتُ: هَاتي

طلب عمران القفيني تسويد هذا البيت.. أليس الريق هو البصاق يا صاحبي!

٤٤ حبيبة الأمس

كم قائلٍ: لو كنتَ تَلقاها لأنْكَرَتْ عَيناكَ مَرآها

ذابلةً ناحلةً، قد مَحَتْ يدُ الأسى القاسي مُحَيَّاها

لا تَلْقَها، لا تَرَها، إنَّها مَرَّ بها الموتُ فَأخطَاها

يقولون لي: لا تذهب للقاء حبيبتك القديمة، فهي نصف ميتة، كأن الموت قصدها لكنه أخطأ الطريق إليها

وسائِلٍ: هل بَقِيَتْ فَضْلةٌ لديكَ مِن حُبِّها وذِكراها؟

قد مَرَّ عامانِ وهَا ثالثٌ وواحدٌ كافٍ لِتَنساها

مر عامان، وها قد مر عام ثالث.. وكان عام واحد ـ لا ثلاثة ـ كافياً لكي تنساها

وأنتَ كالنحلةِ مِن زهرةٍ لِزهرةٍ تُسليكَ إيَّاها

تسليك: تنسيك

أخطَأْتُما لم تَعرِفا ما الهوى كِلاكُما عَن كُنْهِهِ تاها

كنهه: حقيقته

السُّقْمُ لا يَصرفُ وجهَ امْرِئٍ عن وجهِ مَحبوبٍ وإنْ شَاهَا

شاه: أصبح مشوهاً

مَظلومةٌ سيقَتْ إلى ظالمٍ نَغَّصَ مَغداها ومَسْراها

هذه امرأة مظلومة زوجوها برجل ظالمٍ، فنغص مغداها ومسراها، أي ذهابها وإيابها

كـان أَبُـوهـا راعِـيـاً غـاشـمـاً، لـلـذِّئْـبِ لا لِـلـحُـبِّ رَبَّـاهـا

٤٥ أَعذارها

يـا حُـلـوةَ الـعـيـنـيـنِ يـا قـاسِـيَـةْ سَـرعـانَ مـا أَصبحْـتِ لـي نَـاسِـيَـةْ
سَـيِّـدتـي، ذنْـبُـكِ، مـهـمـا يَـكُـنْ، تــغــفِـرُهُ أَعــذارُكِ الــوَاهِـيَــةْ

٤٦ الحمائم البيض

بـيِـضُ الـحَـمـائِـمِ حَـسْـبُـهُـنَّـهْ أَنّــي أُرَدِّدُ سَــجْــعَــهُــنَّــهْ

الحمامات البيض يكفيهن فخراً أنني ـ أنا الشاعر ـ أردد غناءهن

رَمْــزُ الــسَّــلامَــةِ والــوَدا عَـةِ مـنـذُ بَـدْءِ الـخَـلْـقِ هُـنَّـهْ
فــي كــلِّ رَوضٍ فــوق دا نِـيَـةِ الـقُـطـوفِ لَـهُـنَّ أَنَّـةْ

لهن أنين في كل بستان فوق القطوف الدانية المتدلية القريبة

ويَــمِــلْــنَ والأَغــصــانَ مــا خـطَـرَ الـنـسـيـمُ بِـرَوْضِـهِـنَّـهْ

يملن مع الأغصان كلما مر النسيم بالبستان

فــإذا صَــلاهُــنَّ الــهَــجــيــ ـرُ هَـبَـبْـنَ نـحـوَ غَـديـرِهِـنَّـهْ

إذا لسعتهن حرارة الشمس ذهبن إلى الغدير

يَـهـبِـطْـنَ بـعـدَ الـحَـوْمِ مِـثــ ـلَ الـوَحْـيِ، لا تَـدري بِـهِـنَّـهْ

يحمن حوماً حول الماء ثم يهبطن بهدوء كأنهن الوحي الذي ينزل على الشاعر.. فالشاعر يأتيه الوحي والإلهام فجأة لا يدري كيف أتى.. وقد جاءك يا شاعرنا وحي مملوء الجراب بكل جميل في هذه القصيدة التي امتدحها كثيراً أخوك الأكبر أحمد طوقان وترنم بها مع أصحابه في بيروت

فــإذا وَقَــعْــنَ عــلــى الــغَــديــ ـرِ، تَــرتَّــبَــتْ أَسْــرابُــهُــنَّــهْ
صَــفَّــيْــنِ طُــولَ الــضَّــفَّــتَــيْــ ـنِ، تَـعَـرَّجـا بِـوُقُـوفِـهِـنَّـهْ

تقف الحمامات صفين على الضفتين ورغم أن الأسراب مرتبة فهي تُبرز تعرُّجَ الغدير لأنها تحدد ضفتيه بوضوح

كُــلٌّ تُــقَــبِّــلُ رَســمَــهــا فـي الـمـاءِ سـاعـةَ شُـرْبِـهِـنَّـهْ
يُـطـفِـئْـنَ حَـرَّ جُـسُـومِـهِـنَّ بِـغَـمْـسِـهِـنَّ صُـدورَهُـنَّـهْ
يَـقَـعُ الـرَّشـاشُ إذا انْـتَـفَـضْــ ـنَ لَآلِـئـاً لِـرُؤوسِـهِـنَّــهْ

تنتفض الحمائم فتقع نقاط من الماء فوق رؤوسهن فكأنها اللآلئ

ويَطِرْنَ بَعدَ الإبْتِرا دِ إلى الغُصونِ مُهودِهِنَّهْ
تُنْبِيكَ أجنِحةٌ تُصَفِّـ قُ كيفَ كانَ سُرورُهُنَّهْ

تنبيك: تخبرك

ويُقِرُّ عينَكَ عَبْثُهُنَّ إذا جَثَمْنَ، بِريشِهِنَّهْ

يفرحك منظرهن وهن يعبثن قليلاً بريشهن عندما يجثمن أي يقعدن

وتَخالُهُنَّ بِلا رُؤو سٍ حينَ يُقبِلُ لَيلُهُنَّهْ
أَخْفَيْنَها تَحتَ الجَنا حِ، ونِمْنَ مِلءَ جُفونِهِنَّهْ
كم هِجْنَني ورَوَيْتُ عَنْـ ـهُنَّ الهَديلَ، فَدَيْتُهُنَّهْ!

أنقل عنهن صوت الهديل الذي يصدرنه فكأنني راوية يروي ما يقلن

المُحسِناتُ إلى المريـ ـضِ، غَدَوْنَ أشباهاً لَهُنَّهْ
الروضُ كالمستشفيا تِ، دَوَاؤُها إيناسُهُنَّهْ

الدواء الحقيقي الموجود في المستشفيات هو الأنس الذي تدخله الممرضات على نفوس المرضى

مَا الكَهرباءُ وطِبُّها بِأَجَلَّ مِن نَظَراتِهِنَّهْ

ليس الطب الحديث أجلَّ، ولا أهمَّ، من نظرات الممرضات الحانية

يَشفي العليلَ عَناؤُهُنَّ ـ وعَطْفُهُنَّ ولُطْفُهُنَّهْ
مُرُّ الدواءِ بِفيكَ حُلْـ ـوٌ مِن عُذوبةِ نُطْقِهِنَّهْ
مَهلاً، فَعندي فارِقٌ بينَ الحَمامِ وبينَهُنَّهْ
فَلَرُبَّما انقطعَ الحما ئِمُ في الدُّجى عن شَدْوِهِنَّهْ
أمَّا جميلُ المُحسِنا تِ، ففي النهارِ وفي الدُّجُنَّةْ

الدجنة: الليل

٤٧ لم نوفر غادة

رَبِّ أَطعِمْني غُلاماً شاعِراً لِدَواعي الحُسْنِ مِثلي مُذْعِنا

أطعمني، ارزقني، يا رب ولداً شاعراً يذعن ويخضع مثلي للجمال

وَلْيَكُنْ مِثلَ أبيهِ: إنَّنا لم نُوَفِّرْ غادةً في شِعرِنا

لم نوفر: لم نترك من معاكساتنا

بَـرَقَـتْ لـه مَـسـنـونـةٌ تَـتـلَـهَّـبُ   أمضَـى مِنَ القَدَرِ المُتاحِ وأَغْلَبُ

برقت السكين للديك الرومي، ديك الحبش، مسنونة حادة غلابة كأنها القدر المتاح، القريب

حَزَّتْ فلا حَدُّ الحديدِ مُخضَّبٌ   بِدَمٍ ولا نَحْرُ الذَّبيحِ مُخَضَّبُ

حزت السكين عنق الديك فلم يتخضب حديد السكين بالدم، ولا تخضب عنق الديك! فمن سرعة سير السكين لم يعلق بها دم

وجَرى يَصيحُ مُصَفِّقاً حيناً، فلا   بَصَرٌ يَزُوغُ ولا خُطىً تَتَنَكَّبُ

ركض الديك حيناً، بعض الوقت، يصفق بجناحيه في مشية عادية وخطاه غير متنكبة بل ثابتة وبصره سليم لا يزوغ

حتى غَلَتْ بِيَ رِيبةٌ فَسأَلْتُهُمْ:   خانَ السلاحُ أمِ المَنِيَّةُ تَكذِبُ؟

تفاقمت في نفسي ريبة: هل أخفق حد السكين؟ أم أن الموت كذب ولم يأت للمسكين؟

قالوا: حَلاوةُ رُوحِهِ رَقَصَتْ بِه   فَأَجَبْتُهُمْ ما كلُّ رَقْصٍ يُطْرِبُ

حلاوة الروح: الصحوة الأخيرة قبل الموت، وفيها ينشط الإنسان، وغير الإنسان، ويبدو كأنه شفي من مرضه

هَيهاتَ، دُونَكَهُ، قَضَى، فإذا به   صَعِقٌ يُشَرِّقُ تارةً ويُغَرِّبُ

لكن هيهات.. فدونكه، أي انظر إليه! لقد جاءه الموت، وهو الآن صعق، مصعوق كأنما ضربته صاعقة، وأخذ يضطرب في مشيته

وإذا بهِ يَزْوَرُّ مُختَلِفَ الخُطى   وزَكِيَّةٌ مَوْتُورَةٌ تَتَصَبَّبُ

أخذ يزورُّ، أي يميل، وخطاه تختلف يضع اليمين مكان اليسار والعكس مشية المخمور، وأخذت الزكية، أي دماؤه الزكية الحارَّة، تتصبب

يَعدُو فَيَجْذِبُهُ العَياءُ فيَرتَمي   ويكادُ يَظفَرُ بالحياةِ فتَهْرُبُ
مُتَدفِّقٌ بِدمائِهِ مُتقلِّبٌ   مُتعلِّقٌ بِذَمائِهِ مُتَوَثِّبُ

دمائه أخذت تتدفق، وهو يتقلب، ويتعلق بذمائه، أي ببقية روحه، وجسمه ينتفض وثباً

أَعَذابُهُ يُدعَى حَلاوَةَ رُوحِهِ؟   كم مَنطقٍ فيهِ الحَقيقةُ تُقْلَبُ!
إنَّ الحَلاوَةَ في فَمٍ مُتَلَمِّظٍ   شَرَهاً لِيشرَبَ ما الضَّحِيَّةُ تَسْكُبُ

الطعم الحلو إنما هو في فمٍ متلمظ، متمطق فيه حركة للِّسان على سقف الحلق، وهي ما يفعله الجائع المقبل على طعام شهي

هِيَ فَرحَةُ العيدِ التي قَامتْ على   أَلَمِ الحياةِ. وكُلُّ عيدٍ طَيِّبُ!

فرحة عيد الميلاد تقوم على ألم فقدان الحياة للديكة الرومية. وعلى كل حال: عيدكم مبارك! أراد بعض الناس أن يفسروا القصيدة تفسيراً سياسياً وطنياً، ولا أرى ذلك، كان شاعرنا مباشراً في وطنياته

٤٩ كثرة الشم

وَرْدَةٌ تَبْهرُ العُيونَ، ولكنْ   كثرةُ الشَّمِّ قد أضاعَتْ شَذاها

هكذا يتخيل الرجل المرأة اللعوب ذات العلاقات الكثيرة، وهذا بالطبع من باب حصرم. جاء الثعلب كرماً وقفز إلى العقود فقصر عنه، فقال: هو حصرم

٥٠ الدم الخفيف

وطبيبٍ رأى صحيفةَ وَجهي   شاحِباً لونُها وعُودي نَحيفا

قال لا بُدَّ مِن دَمٍ، لك نُعطيـ   ـهِ نقيًّاً مِلْءَ العُروقِ عنيفا

لَكَ ما شئتَ يا طبيبُ، ولكنْ،   أعطِني مِنْ دمٍ يكونُ خفيفا!

التسويد لعمران القفيني

٥١ اقعد للمعلم

شوقي يقولُ، وما دَرى بِمصيبَتي: قُمْ لِلمعلِّمِ وَفِّهِ التَّبْجيلا

يحيل إلى قصيدة شوقي في المعلم: قم للمعلم وفه التبجيلا/كاد المعلم أن يكون رسولا

أُقْعُدْ، فديْتُكَ، هل يكونُ مُبَجَّلاً   مَن كانَ لِلنَّشْءِ الصغارِ خليلا؟

يرد على قول شوقي «قم» بقوله «اقعد». . ثم يندم الشاعر لقوله لأمير الشعراء «اقعد» فيردفها بـ «فديتك». والمعلم الذي يعاشر الصبية يصبح عقله صغيراً كعقولهم. . قالها الجاحظ، ونقولها، وقد قضينا في التعليم شطر العمر

ويكادُ يَفْلَقُني الأميرُ بقولِه: كادَ المعلمُ أن يكونَ رسولا

يفلقني: يغيظني حتى ليشقني شقاً

لو جرَّبَ التعليمَ شوقي ساعةً   لَقضَى الحياةَ شَقاوةً وخُمولا

الخمول: قلة الشهرة

حَسْبُ المعلمِ غُمَّةً وكآبةً   مَرأى الدفاتِرِ بُكرَةً وأَصيلا

مِئةٌ على مِئةٍ إذا هِيَ صُلِّحَتْ ... وَجَدَ العَمَى نحوَ العيونِ سبيلا
ولو انَّ في التَّصليحِ نَفْعاً يُرتَجى ... وأَبيكَ، لم أَكُ بِالعيونِ بَخيلا
لكنْ، أُصَلِّحُ غَلْطةً نَحْوِيَّةً ... مَثلاً، وأَتَّخِذُ الكتابَ دليلا

الكتاب: القرآن

مُسْتشهداً بِالغُرِّ مِن آياتِه، ... أو بِالحديثِ مُفَصَّلاً تفصيلا

استشهد بآيات الكتاب الكريم الغراء، وبحديث الرسول

وأغوصُ في الشِّعرِ القديمِ فَأَنْتقي ... ما ليس مُلتَبِساً ولا مَبْذُولا

يستشهد بأبيات لا لبس في دلالتها، وليست من الأبيات المبذولة التي كثر دورانها على الألسن

وأكادُ أَبعَثُ سِيبَوَيْهِ مِنَ البِلَى ... وذَوِيهِ مِن أهلِ القُرونِ الأُولى

البلى: تحلل الجسم بعد الموت

فَأَرى حِماراً بعدَ ذلكَ كُلِّهِ ... رفعَ المُضافَ إليهِ والمفعولا
لا تَعجَبُوا إنْ صِحْتُ يوماً صَيْحةً ... ووقعتُ ما بينَ البُنوكِ قَتيلا

البنوك: مقاعد التلامذة ذوات المناضد الملتصقة بها

يا مَنْ يُريدُ الِانتِحارَ! وَجدْتَهُ ... إنَّ المعلِّمَ لا يعيشُ طويلا

لمن يريد انتحاراً! قد وجدتَ الانتحار يا هذا.. كن معلماً. فالمعلم لا يعيش طويلاً

٥٢ نعمة العافية

إليكَ تَوجَّهْتُ يا خالِقي ... بِشُكرٍ على نعمةِ العافِيةْ
إذا هِيَ وَلَّتْ، فَمَنْ قادِرٌ ... سِواكَ على رَدِّها ثانيةْ؟
وما لِلطبيبِ يدٌ في الشِّفاءِ ... وَلكنَّها يَدُكَ الشَّافِيَةْ
تَبارَكْتَ، أنتَ مُعيدُ الحياةِ ... مَتى شِئتَ في الأَعْظُمِ البَالِيَةْ
وأنتَ المُفَرِّجُ كَرْبَ الضَّعيفِ ... وأَنتَ المُجيرُ مِن العَادِيَةْ

العادية: المصيبة

إبراهيم طوقان
فهرس القوافي

عبد الكريم الكرْمي
(أبو سلمى)
(١٩٠٩ ـ ١٩٨٠)

كان أبو سلمى قد سمع من بعض الطلبة المغاربة في فلسطين أن أهاليهم يحتفظون بمفاتيح بيوتهم في الأندلس، فعندما أُخرج على وجهه من فلسطين احتفظ بمفتاح مكتبه وبيته. ليس للذكرى فقط، بل كان ككل فلسطيني لاجئ في ذلك الزمن موقناً بعودة سريعة. لم يكن ساذجاً سذاجة خليل السكاكيني الأديب الفلسطيني المشهور، الذي كان من العلم والاطلاع على درجة لا تغفر له سذاجته التي بدت في مذكراته الضافية. والسكاكيني ترك بيتاً جميلاً بناه بحُرِّ ماله في القدس الغربية. غير أن أبو سلمى لم يكن في حصافة زميله، الأكبر منه بأربع سنين، إبراهيم طوقان. فرغم أن طوقان مات قبل النكبة بسنين سبع، فإنه تنبأ بها في شعره، ووصفها كأنه يراها.

كان أبو سلمى يوم ترك مكتب المحاماة الذي يملكه في حيفا يخطو نحو الأربعين. كان رجلاً واعياً، وكان قد بنى لنفسه حياة في بلده، ثم إذا هو يُقتَلَع اقتلاعة سنرى لها في شعره كبير الأثر. أبو سلمى شاعر ما بعد النكبة، وطوقان شاعر ما قبل النكبة.

ولد عبد الكريم الكرمي (أبو سلمى) في طولكرم بفلسطين، وهي مدينة صغيرة. أو هي قرية كبيرة جعلها سعيد الكرمي وأولاده الكثيرون مدينة كبيرة بما أرسلوا من إشعاع ثقافي.

انظر أيها القارئ إلى كلمة «إشعاع ثقافي»، وأمعن النظر. أرأيت كيف صرتُ أكتب مثلهم، مثل الأكاديميين ـ جعلهم الله مُثلة ـ، وكانوا طالما زكموا أنفي وهم يتحدثون عن «لغة الشاعر» و«صوته الشعري» و«تجربته الشعرية».

كيف يمكن لامرئ يستعمل عبارة «تجربته الشعرية» أن يأتيك بشيء يسر قلبك؟

حتى وأنا أحدثك عن النكبة وضياع فلسطين.. كنت أحس أنني دخلت في زمرة اللاطمين المتحسرين. ليس أن العالم طيب، فالعالم ملعون. وليس أنني لم أتأثر شخصياً بالنكبة فالنكسة. ولكنني لا أريد أن أنوب عن شاعرنا الغاضب النائح. سأترك ميدان الغضب والنواح لأبو سلمى.

فقط غضبت على نفسي عندما قلت عبارة «إشعاع ثقافي».

أمامي كومة كتب ومقالات عن أبو سلمى وكلها اجترار قبيح. سمعت الموسيقى الأندلسية النائحة في فاس، وقرأت قصيدة أبي البقاء الرندي في رثاء الأندلس. هذا فن. ولكنني لا أطيق أن أقرأ فقرة من النواح الأكاديمي على الأندلس أو على فلسطين. الأكاديميون ناس مجردون من الإحساس. يقرأون الشعر ويحُلُّونه، أي ينثرونه، حلّاً قبيحاً. يحملون بنادق خشبية يناضلون بها، وينفخون في بوق نحاسي يقلدون به صوت الكمان. هم كالنائحة ـ نيح عليهم ـ المأجورة التي تنوح لتطعم أطفالها.

كنت أقول إن الشاعر ولد في طولكرم. وهذه المدينة زرتها مرتين، ومرة. زرتها طفلاً صغيراً مع جدي. ومشى بي في سوق عتيق مسقوف. كان منظر الدكاكين وأمامها مصاطب يجلس عليها الناس يشربون شايهم، من المناظر التي انحفرت في ذاكرتي.

ومضت خمسون سنة وصورة ذلك السوق حية في ذهني. ولم أجرؤ على زيارة طولكرم ـ التي تبعد عن مدينتي ثلاثة وعشرين كيلومتراً ـ مرة أخرى. ليس للإبقاء على تلك الصورة المضمخة بطيب الطفولة، وليس خوفاً من رؤية هذا السوق وقد تغير أو باد. لست رومنسياً إلى هذا الحد. لكنه الكسل والجبن. أنا رجل لا أغامر، ولا أسافر، ولا أفعل شيئاً إلا إذا دعا إليه داع. أسافر إلى أقصى الأرض مأموراً بالسفر من جانب مديري، أو ملتمساً الرزق، أو مضطراً لأن أطفالي أمروني أن آخذهم إلى سيرك أو حديقة. السياحة شيء لا أفهمه، بلْهَ أن أرتكبه.

مضت خمسون سنة، ثم أمرني صديقي الإعلامي عبد الرحمن عثمان أن آخذه إلى طولكرم لشراء بذار خيار بلدي لصديقنا المشترك الإعلامي المخضرم حكم عبد الهادي، الذي اشتهى أن يزرع في حديقة بيته الجديد في بون خياراً

بلدياً ذا رائحة تملأ البيت، وليس كالخيار الألماني الذي نجد له في أفواهنا الشرقية طعم الكرتون. فشددت الرحال. رأيت السوق على حاله. تبدد السحر؟ لا، بل صار لهذا السوق في ذهني صورتان.

المرة الثالثة التي زرت فيها طولكرم كانت في أعماق الطفولة كالزيارة الأولى. أخذني عم من أعمامي لزيارة رجل من أصدقاء العائلة في طولكرم. وفي بيته رأيت تمثالاً لحصان ذهبي، وحدقت في التمثال. ليس تحديق طفل بريء. بل تحديق طفل غير بريء. لمست بشعور ربّاني أن الرجل سيلتقط نظرتي، وقد يعطيني التمثال، وهذا ما حدث بالضبط. ولئن كنت طفلاً خبيثاً، فإنني صرت فيما تلا من الأعوام أبياً مترفعاً عن حاجات الغير، ربتني الأيام. وهذا مخاض طويل. لكن التمثال لبث في بيتنا سنوات كثيرة حتى تقشف ذهبه وبان من تحته الجبس الرخيص. رب اهدني السبيل إلى أن أكون مثل أبو خيري الجلاد، الرجل الطيب الذي أعطاني الحصان، فأسمحَ بما عندي وأُقرَّ عين طفل يتخابث، وطفل لا يتخابث.

لن أحدثك طويلاً عما أكسبتنيه الأيام من صفات حسنة، وأقسم بهذا الحرف العربي الذي أراه يتدفق على الشاشة أمامي أن عيوبي الباقيات كفيلة بإدخال أمة من الناس في جهنم. بعضنا يزهو متكبراً وبعضنا يزهو متواضعاً، وكله زهو.

عرفت من عائلة الكرمي أخا أبو سلمى، المعجمي المشهور حسن الكرمي. التقيته مرة واحدة وهو في التسعين. كانت بقيت له في الحياة عشر سنوات، فهو ممن مات عن مئة. وعرفت ابنتين لحسن الكرمي معرفة طيبة: سهام وغادة. أما شاعرنا الذي عاش حتى سنة ١٩٨٠ فما التقيته قط.

في طفولته الباكرة رأى أبو سلمى عساكر الترك يأخذون أباه مخفوراً من طولكرم إلى الشام. وعانت الأسرة الفاقة بعض الوقت. ولكن الشيخ سعيد الكرمي سرعان ما التحق بركب العروبة في الشام. زال الحكم التركي بانتهاء الحرب العالمية الأولى، والتحقت العائلة بعائلها في الشام. كان الشاعر في نحو العاشرة، ودرس في الشام. أبوه الشيخ سعيد رجل علم وشعر وفقه، وكانت له مكانة في بلده، وكانت له مكانة في الشام أيام الحكم العربي القصير، ولسعيد الكرمي شعر فيه ظرف ويشي بأن الرجل فقيه ذو أدب ولغة.

درس أبو سلمى في مكتب عنبر. ومكتب عنبر مدرسة حملت مشعل اللغة

العربية بعد زوال التتريك عن المدرسة. وفي فترة قصيرة تخرج فيها عدد من كبار الأدباء والشعراء.

في الشام بدأ أبو سلمى يقول الشعر. شجعه أستاذه. وأستاذ اللغة العربية في ذلك الزمن هو كأستاذ اللغة الإنجليزية في بلاد اللغة الإنجليزية في زمننا. أستاذ الإنجليزية عند الإنجليز هو أستاذ الضمير الوطني. هو الشخص المكلف بشحن التلاميذ بثقافتهم الوطنية. هو من يدخل شكسبير وبايرون وشلي في خلاياهم العصبية لتكون هذه الشوامخ الأدبية الطين والصخر في أرض التلميذ، فكل ما اكتسب بعدئذ في يفاعته وشبابه ورجولته من علوم ومعارف فهو مغروس في طين وجدانه الوطني. وأستاذ اللغة العربية في زمننا شخص نال في الشهادة الثانوية درجات قليلة، فحاول جاهداً أن يتخصص في الهندسة أو الطب فأخفق، فإن كان والده ثرياً بعثه إلى دولة فقيرة ليدرس الطب أو الهندسة، وإن كان والده متوسط الحال، فلا مكان له إلا كلية اللغة العربية الرديئة في جامعة عربية رديئة. ثم التدريس في مدارس سينقل إليها رداءته.

صادفت أربعة من أساتذة اللغة العربية الرديئين، وأنفقت ما قد يصل إلى سبع سنوات تحت سلطتهم لم أستفد فيها منهم شيئاً. وصادفت أحمد حماد، وبشير مقبول، ويوسف الأشقر، وكانوا ثلاثتهم ممن يحب العربية ويتقنها، وبمحبته لها يوصلها إلى طلابه. للثلاثة في عنقي دين.

كأنني كنت أتحدث عن أبو سلمى؟

أستاذه شجعه على قول الشعر. وذات يوم سمع منه بيتاً تغزل فيه بسلمى. ولا سلمى. هو اسم. وفي حصة مقبلة قال له: ها، ما جديدك يا أبو سلمى؟ فكان اللقب الذي غلب على اسم عبد الكريم الكرمي.

بعد الشام، كانت الأسرة في الأردن، والحكم فيها هاشمي كالحكم الذي زال عن الشام بدخول الفرنسيين. ثم درس أبو سلمى الحقوق في مدرسة بالقدس. ثم أدى الامتحان تحت السلطة الانتدابية البريطانية. وعمل في القدس وفي حيفا محامياً. وتزوج فتاة من عكا. وعندما اشتدت النكبة رحل أبو سلمى وزوجته وولده سعيد إلى الشام. وسُمح له هناك بممارسة المحاماة.

رأى النكبة بعينيه. رأى وطنه يغتصب. أيرى المرء أمه تغتصب ويظل الشخص نفسه؟ لم يبق لشاعرنا همٌّ في الحياة إلا أن يصرخ غاضباً يستنهض

همم العرب والمسلمين والسوفييت، ويشتم الزعماء المتقاعسين. لكنه لم يكن ملتاثاً. ظل يتسلل إلى القصيدة الغزلية، ويكتب قصائد للأطفال، وأخذ يحضر المؤتمرات. كان ذا مزاج شبه متمرد. تمرد محسوب في الغالب.

قال في فلسطين قبل النكبة قصائد أزعجت المحتل الإنجليزي، وأزعجت زعماء العرب. وقال بعد النكبة قصائد ليس فيها ما يؤدي إلى حبس، لكن فيها فضيلة أنها حارة حرارة الاغتصاب الذي رآه أبو سلمى بعينيه.

ولأن أبو سلمى أصبح شاعر مؤتمرات ومحافل فإن شعره صار شعراً سهلاً مملوءاً بالشعارات. هو نوع من الشعر.

كان لأبو سلمى قضية.. لعله كان رصيناً رزيناً مثل مَن عرفتُ من أبناء عائلته. وأكاد أجزم أنه كان رصيناً. فكيف لرجل رصين أن يجوب قارات العالم حاضراً المؤتمرات ملقياً الأشعار؟ كانت قضيته تغفر له هذا التسويق لشعره. وكانت قلوب العرب ومصالح حكومات المعسكر الشرقي مع القضية. فأسمع شاعرنا صوته، ونال من التصفيق ما أثلج فؤاده.

أرى أصعب شيء على الفنان تسويقه نفسه. الحمد لله أنني لست شاعراً، فلن أطيق أن أقف أمام جمع في أمسية شعرية ألقي عليهم شعري.

وقد كتبت خمسة كتب كبيرة، هذا آخرها وأصغرها، استعرضت فيها حياة وشعر عشرات الشعراء. بعضهم عظيم كالمتنبي وبعضهم رقيق كالعباس بن الأحنف. ولو خيروني أن أكون صورة عن واحد من شعرائي لما اخترت سوى ابن الرومي. والسبب أنه كان يقعد في السوق يقرأ أشعاره لأصحابه، فإذا مدح أميراً فهو يرسل إليه القصيدة مكتوبة، بعد أن يكون ملأها تبرماً من الزمن ومن الفقر.. ومن الأمير وبخله. ولو خيروني أن أكون صورة لأحد الرسامين لما اخترت سوى فان غوخ. فقد رسم مئات اللوحات، ولم يبع لوحة واحدة في حياته. ما أصعب أن يسوق المرء نفسه. وقد كتبت بوستات قليلة على الفيس بوك في الإعلان عن صدور كتب لي. وأقول لك إنني كنت أذوب خجلاً وأنا أصنع ذلك. هذا وأنا لست فناناً، فكيف بالفنان يضع ذوب قلبه في قصيدة أو لوحة ثم يرى نفسه مضطراً إلى تسويق عمله في أمسية شعرية أو معرض؟ ألستَ تحترم أولئك العمال والمهندسين الذين تراهم في مصنع السيارات يحيلون الحديد إلى قطعة من الإعجاز التقني؟ فما قولك في البائع المتأنق في معرض السيارات، وما رأيك في أكاذيبه؟ من حسن حظ أولئك العمال والمهندسين أنهم لا يسوقون السيارات بأنفسهم.

دفن عبد الكريم الكرمي في مخيم اليرموك بظاهر دمشق. أوصى بأن يدفن في أقرب بقعة من فلسطين.

١ جبل النار

جبلَ النارِ يا أعزَّ الجبالِ   أنتَ، لا زِلْتَ، مَعقِدَ الآمالِ

جبل النار: مدينة نابلس وما حولها

ما ذَكرنا حِماكَ إلّا انتَسَبْنا   وانْتَشَتْ نَخْوَةً رؤوسُ الرجالِ

أي انتسبنا إليك مفتخرين بهذه النسبة

أيها الثائرونَ في جبلِ النا   رِ، سلاماً يا زِينةَ الأبطالِ
تَحملون الأرواحَ فوق أكُفٍّ   وتَبيعونَها، ولكِنْ غَوالِ
جبلَ النارِ! لم تُخَلِّدْكَ إلّا   ثورةٌ في سبيلِ الاستقلالِ
جبلَ النارِ! اِقذِفِ النارَ حتى   نُبصرَ النورَ، يا أعزَّ الجبالِ

٢ لهب القصيد

أنشُرْ على لَهَبِ القصيدِ   شكوى العبيدِ إلى العبيدِ

إنها لشكوى أرددها، لكنها شكوى عبد إلى عبد: فالفلسطيني، المنشغل بأعقاب ثورة ١٩٣٦ والمنكوب بالإنجليز وبتمدد النفوذ الصهيوني، يشكو حاله إلى الحكام العرب المقيدين بقيود الدول الغربية المسيطرة على مقدراتهم.. والقصيدة قيلت بعد ثورة ٣٦ بقليل

شكوى يُردِّدُها الزما   نُ غداً إلى الأبدِ الأبيدِ
قالوا: الملوكُ! وإنَّهُمْ   لا يملكونَ سوى الهَبيدِ

الهبيد: الحنظل

سُحْقاً لِمَنْ لا يَعرفو   نَ سوى التَّعلُّلِ بالوعودِ
إنّي لأُرسلُها مُجَلْـ   ـجِلَةً إلى الملِكِ السُّعودي

مجلجلة: عالية الصوت

أستارُ مكةَ كيفَ تُسْـ   ـدِلُها على الخصمِ اللَّدودِ
تَأبَى الصَّحارى أن يُدَنِّـ   ـسَ رملَها فِلْبي ومُودي

جون فِلبي: موظف بالخارجية البريطانية كان يعمل في السعودية وتسمى بعبد الله، مودي: السكرتير العام في حكومة فلسطين، ثم انتقل إلى السعودية

لـن تَـطْـهُـرَ الـدنـيـا وفـيـــ ـهـا الإنـجـلـيـزُ عـلـى صَـعـيـدِ

الصعيد: التراب

لـو كـان رَبِّـي إنـجـلـيـــ ـزِيّـاً دَعَـوْتُ إلـى الـجُـحُـودِ

وأبـو طَـلالٍ فـي رُبَـى عَـمَّـانَ يـحـلُـمُ بِـالـحُـدودِ

أبو طلال: عبد الله الأول، أمير شرق الأردن آنذاك

أُقـعُـدْ فَـلـسـتَ أخـا الـعُـلـى والـمـجـدِ، وانـعَـمْ بِـالـقُـعـودِ

واحـكُـمْ عـلـى الـشِّـطْـرَنْـجِ لـيـــ ـس عـلـى الـفَـيـالِـقِ والـجـنـودِ

كان عبد الله الأول بن الحسين مغرماً بالشطرنج

يـا دولَـةَ الأَصـنـامِ خـيـــ ـرٌ مـنـكِ مَـمـلَـكَـةُ الـقُـرودِ

كانت المملكة الهاشمية في الأردن آنذاك إمارة غير مستقلة، وكانت تتقاضى المال والدعم السياسي والعسكري من الإنجليز المرابطين بضباطهم في شرق الأردن

عَـرِّجْ عـلـى الـيـمـنِ الـسـعـيـــ ـدِ ولـيـس بِـالـيـمـنِ الـسـعـيـدِ

واذكُـرْ إمـامـاً لا يـزا لُ يـعـيـشَ فـي دنـيـا ثَـمُـودِ

الإمام يحيى حاكم اليمن آنذاك

وسـيـوفُـهُ أَثَـرِيَّـةٌ يـا تَـعْـسَ هـاتِـيـكَ الـغُـمـودِ

لا يملك سلاحاً سوى سيوف عتيقة، فيا لتعس أغمادها

تَـفـنَـى الـحـيـاةُ وقـومُـهُ مـا بـيـنَ قـاتٍ أو هُـجـودِ

واعـطِـفْ عـلـى بـغـدادَ وانْـــ ـدُبْ عـرشَ هـارونَ الـرَّشـيـدِ

خَـلَّاهُ فـيـصـلُ لـلـذِّئـا بِ مُـغـيـرَةً حـولَ الـوَلـيـدِ

مات فيصل الأول ١٩٣٣، قبل القصيدة بأربع سنين، وترك على العرش ابنه غازي، وكان وقت القصيدة في الرابعة والعشرين

واهـبِـطْ إلـى مِـصْـرَ الـهَـلـو كِ وقُـلْ لـهـا يـا مِـصْـرُ مـيـدي

الهلوك: المرأة الساقطة، لعل الشاعر رأى فنون التمثيل والرقص تزدهر في مصر فلم يعجبه ذلك، ميدي: تمايلي وتحركي

يـا مِـصْـرُ ضَـيَّـعْـتِ الـمُـنَـى   بـيـنَ الـفَـريـدَةِ والـفَـريـدِ

الفريدة: الملكة فريدة، وتزوج بها الملك فاروق عام ١٩٣٨

دَعْ سُـبْـحَـةَ الـتَّـضْـلـيـلِ واخْـ   ـلَـعْ عـنـكَ كـاذِبَـةَ الـبُـرودِ

البرود: الأثواب

إيـهٍ مُـلـوكَ الـعُـرْبِ! لا   كُـنـتُـمْ مـلـوكـاً فـي الـوُجـودِ

هـل تَـشـهـدونَ مَـحـاكِـمَ الـتَّـ   ـفْـتـيـشِ فـي الـعـصـرِ الـجـديـدِ

هل ترون محاكمات الإنجليز للوطنيين الفلسطينيين، وما أدت إليه من شنق بعضهم، فهي تشبه محاكم التفتيش المتوحشة في إسبانيا بعد زوال الدولة العربية في الأندلس

قـومُـوا اسْـمَـعُـوا مِـن كـلِّ نـا   حِـيَـةٍ يَـصـيـحُ دَمُ الـشـهـيـدِ

قـومُـوا انـظُـروا الـقَـسَّـامَ يُـشْـ   ـرِقُ نـورُه فـوقَ الـصُّـرودِ

الشيخ عز الدين القسام: استشهد في فلسطين ١٩٣٥، الصرود: القمم

يُـوحـي إلـى الـدنـيـا ومَـن   فـيـهـا بِـأسـرارِ الـخـلـودِ

قـومُـوا انـظُـروا فَـرْحـانَ فَـو   قَ جَـبـيـنِـهِ أَثَـرُ الـسُّـجـودِ

الشيخ فرحان السعدي: شنقه الإنجليز وعمره سبعون عاماً، في ١٩٣٧

يَـمـشـي إلـى حَـبْـلِ الـشَّـهـا   دةِ صـائـمـاً مَـشـيَ الأُسـودِ

سَـبـعـونَ عـامـاً فـي سـبـيـ   ـلِ الـلَّـهِ والـحـقِّ الـتَّـلـيـدِ

التليد: القديم الثابت

خَـجِـلَ الـشـبـابُ مِـنَ الـمَـشـيـ   ـبِ، بـل الـسِّـنـونَ مِـن الـعُـقـودِ

قـومُـوا انـظُـروا الأهـلـيـنَ بـيـ   ـنَ الـوعـدِ ضـاعـوا والـوَعـيـدِ

مـا بـيـنَ مُـلْـقـىً فـي الـسُّـجـو   نِ وبـيـنَ مَـنـفِـيٍّ شَـريـدِ

أو بـيـنَ أرمَـلـةٍ تُـوَلْـ   ـوِلُ أو يَـتـيـمٍ أو فـقـيـدِ

قـومُـوا انـظُـروا الـوطـنَ الـذَّبـيـ   ـحَ مِـن الـوريـدِ إلـى الـوريـدِ

تَـتـزاحَـمُ الأجـيـالُ دا   مِـيَـةَ الـخُـطـى فـوقَ الـلُّـحـودِ

إيـهِ شُـعـوبَ الـعُـرْبِ أنـ   ـتُـمْ مَـبـعـثُ الأمـلِ الـوَحـيـدِ

سِـيرُوا عـلـى الـتُّـرْبِ الـمُـخَـضَّـ   ـبِ، والـثِـمُـوا أثـرَ الـجُـدودِ

الثموا: قبّلوا

حُـرِّيَّـةُ الإنـسـانِ بـالـدَّمِ تُـشـتَـرى لا بِـالـوُعـودِ
إيـهِ فِـلَـسْـطِـيـنُ! اقْـحَـمـي لُـجَـجَ الـلَّـهـيـبِ ولا تَـحـيـدي
لا تَـصْـهَـرُ الأَغـلالَ غـيـرُ جَـهَـنَّـمِ الـهـولِ الـشـديـدِ

٣ اليرموك حية

مـعـركـةُ الـيَـرمـوكِ هـذا نَـقْـعُـهـا يـروحُ فـوقَ هـامِـنـا ويَـغـتـدي

ها هو نقع، أي غبار، معركة اليرموك يروح ويجيء فوق هامنا، رؤوسنا

يُـطِـلُّ مِـن بيـنِ الـعـصـورِ عـاطـراً فـيـهِ مِـن الـمـاضـي عـبـيرُ الـسُّـؤدَدِ

٤ أرض الجهاد

دَرَجَ الـمـجـدُ عـلـى أرضِ الـجـهـادِ فـالـثِـمِ الـتُّـرْبَ وقُـلْ: هَـذي بِـلادي

المجد قد درج، أي تعلم المشي، على أرض فلسطين، أرض الجهاد، فالثم، أي قبّل، التراب وافتخر بأنها بلدك

خَـفَـقَـتْ فـيـهِ قُـلـوبٌ حُـرَّةٌ كـيـف لا أَجـعَـلُـهُ الـدهـرَ وِسـادي

وسادي: مخدتي. . أي أنه يريد أن يوسد ويدفن في تراب فلسطين. ودفن أبو سلمى في دمشق ١٩٨٠

وطـنـيِ! أنـتَ بَـقـايـا أمـلٍ خَـضَّـبَـتْـهُ عَـبَـراتٌ مِـن فُـؤادي

عبرات: دموع

مـا الـذي جَـرَّحَ جَـنـبَـيْـكَ؟ أَجِـبْ كَـيـدُ أَبـنـائِـكَ أم كـيـدُ الأَعـادي
لا تَـقُـلْ هـذا تُـرابٌ جـامـدٌ إنَّـمـا الأحـيـاءُ فـي هـذا الـجَـمـادِ
واحـفَـظِ الأَجـيـالَ فـي ذاكَ الـثَّـرى فـالـدَّمُ الـحُـرُّ مِـن الـتُّـرْبِ يُـنـادي

٥ كله استعمار

يا حـادِبِـينَ عـلى الضَّعيفِ رُويْدَكُمْ تَـاريـخُـكُـمْ فـي صَـفْـحَـتَـيْـهِ الـعـارُ

أيها الإنجليز الذين تدَّعون الحدب، العطف، على الضعفاء! تاريخكم مليء بالعار. وكان الإنجليز يحتجون على قسوة المستعمر الفرنسي في سورية

فـهُـنـا تَـجُـرُّونَ الـقـيـودَ دَوامِـيـاً وهـنـاكَ فـي أَيـدِيـكُـمُ الأَزهـارُ
وهُنا الشياطينُ استَجارَتْ مِنْكُمُ وهُـنـاكَ أنـتُـمْ قُـبَّـةٌ ومَـزارُ
لا تَذكُروا حقَّ الضَّعيفَ؛ فَكُلُّكُمْ مُـسـتَـعْـمِـرونَ، وكُـلُّـهُ اسـتِـعـمـارُ

التسويد من الشاعر عمران القفيني

٦ التقسيم

أَهْـدَوْا بِـلادِيَ لَـجـنـةً مَـلَـكِـيَّـةً حتى تَـحُـلَّ مشاكِـلَ الـمستقبَـلِ
دَرَسَتْ، فما وَجَدَتْ سوى تقسيمِها حَـلّاً، فكـان الـحَـلُّ أكـبرَ مُـشْـكِـلِ

٧ إلى إبراهيم طوقان

أَيْ أَبا جَعْفَرٍ أَبا الشِّعْرِ والعِطْـ ـرِ! تَـنَـقَّـلْ عـلـى رَوابـيِ الـخُـلُـودِ

أي: يا. يخاطب إبراهيم طوقان المتوفى ١٩٤١، راثياً

قـد تَـحـرَّرْتَ مِـن قُـيـودِ الـلَّـيـالـيِ كـيـف تَـمـضـيِ ولـم تَـحُـلَّ قُـيـودي؟

قد تحررت من قيود الزمن بموتك، وتركتني مقيداً في الحياة

٨ قالوا يساريون

أهــلاً بــعُــمَّــالِ الــبــلا دِ يُــحــاربــونَ مَــنِ اســتَــبَــدَّا
قــالــوا: يَــســارِيُّــونَ قُــلْــ ـتُ: أُجِـلُّـهُـمْ عـمـلاً ومَـبْـدَا

سيرفع توفيق زَيَّاد، الشاعر الفلسطيني، النغمة بعد سنين، فيقول: قالوا شيوعيون قلت أجلهم/ حمراً بعزمهم الشعوب تحرر

وطــنٌ عــلــى أَيْــدِيــهِــمُ يَــجْــنــيِ مَــعَ الأيــامِ سَــعْــدَا

بعد سنة من القصيدة، وألقيت عام ١٩٤٧، سقطت فلسطين وقامت دولة إسرائيل

لـم يَـعـرِفُـوا كـيـفَ الـمـبـا دِئُ تُـشْـتَـرى عَـدّاً ونَـقْـدا
هــذيِ الــمَــطــارِقُ والــمَــنــا جِـلُ تَـحـصُـدُ الـظُّـلّامَ حَـصْـدا

المطرقة والمنجل: رمز الشيوعية السوفييتية

وتُــحَــرِّرُ الإنــســانَ حــتَّــ ـى لا تَـرى فـي الـكـونِ عَـبْـدا

٩ الظلم المنظم

كـلَّ يـومـيـنِ لـجـنـةٌ فـكـتـابٌ لا نـرى فـيـهِ غـيـرَ ظُـلْـم مـنـظَّـمْ

وأشهر هذه الكتب «الكتاب الأبيض» لعام ١٩٣٩ وفيه خطة بريطانية لجعل فلسطين دولة واحدة مع زيادة الهجرة اليهودية إليها. المعنى لحافظ إبراهيم، وقال سنة ١٩٠٧: لقد كان فينا الظلمُ فوضَى فَهُذِّبَتْ/ حَواشيِهِ حتى باتَ ظلماً منظَّما

يَـهـدُرُ الـعـدلُ حـامـيـاً كـلَّ أرضٍ فـإذا زارَ أرضَـنـا صـارَ أَبْـكَـمْ

لا تقولوا: «الحُقوقُ»، ما دامَ حَقِّي في فِلَسطينَ خَلْفَ دَمعِيَ يَجْثُمْ
لا تقولوا: هذي الشَّرائِعُ مِنَّا، شِرْعَةُ الغابِ مِنْكُمُ اليومَ أَرْحَمْ

لا تقولوا إن شرائع حقوق الإنسان جاءت من عندكم، فشريعة الغاب أرحم منكم

نِعمةُ اللَّهِ أنتَ يا وَطنِي الغا لي، وفي ظِلِّكَ المُقَدَّسِ نَنْعُمْ
كلُّ بيتٍ نَراهُ حَبَّةَ عَيْنٍ كلُّ عَيْنٍ في أَرضِنا عَيْنُ زَمْزَمْ
ذَرَّةٌ مِن تُرابِكَ الطُّهْرِ خيرٌ مِنْ عُروشٍ خلفَ الحُدودِ وأَعْظَمْ

١٠ لا أحد

شَخْصٌ يُسَمَّى «لا أَحَدْ» كان يَطُوفُ في البلَدْ
ويَختَفي وراءَهُ كلُّ فتاةٍ وَوَلَدْ
مَن كَسرَ الزُّجاجا وأطفَأَ السِّراجا؟
هل أنتَ يا زِيادُ أم أنتِ يا سُعادُ؟
كلٌّ يقولُ: لا أَحَدْ
وإن أَتى يومُ الأَحَدْ فأنتَ ضَيَّعتَ الرَّشَدْ
إذْ تَختَفي فاكِهَةٌ ما مثلُها عندَ أَحَدْ
مَن أَخَذَ المِفتاحا وأَكَلَ التُّفّاحا
مَن خَطَفَ العُنقُودا وأنكَرَ العُهودا
كلٌّ يقولُ: لا أَحَدْ
يا مَن يُسمَّى «لا أَحَدْ» اِرْحَلْ وغِبْ عنِ البَلَدْ
حتى يَرى كُلُّ امْرِئٍ ما ضاعَ منه وافتَقَدْ
«لا أَحَدٌ» مِسكينُ وما له مُعينُ
يظلِمُهُ الإنسانُ وما لهُ لِسانُ

١١ هجاء الزعماء

زعماءٌ دَنَّسُوا تاريخَكُمْ ومُلوكٌ شَرَّدوكُمْ دونَ ذَنْبِ
وجيوشٌ غَفَرَ اللَّهُ لها سَلَّمَتْ أوطانَكُمْ مِن غيرِ حربِ
دولٌ تَحسَبُها شَرقِيَّةً وإذا أَمْعَنْتَ فالحاكِمُ غَربي

يـومَ هَـزَّتْ لِـلـوَغـى رايـاتِـهـا حكَمَتْ فيهِ على تَشريدِ شَعبِ
أيـهـا الـبـاكـيِ وهـل يُـجـدي الـبُـكـا بـعـدمـا أصـبـحـتَ فـي كـلِّ مَـهَـبِّ
يـا أخـيِ مـا ضـاعَ مـنَّـا وَطَـنٌ خَـالِـدٌ نـحـمِـلُـهُ فـي كـلِّ قَـلـبِ

١٢ سنعود

خَلَعْتُ على مَلاعِبِها شَبابي وأَحلامي على خُضْرِ الرَّوابي

يخاطب دمشق: فقد قضى فيها عهد الشباب، انتقل إليها وهو في نحو العاشرة. والملاعب هي الساحات تلعب فيها الريح

وَلـي فـي كـلِّ مُـنْـعَـطَـفٍ لِـقـاءٌ مُـوَشَّـىً بِـالـسَّـلامِ وبِـالـعِـتـابِ
ومـا رَوَتِ الـمُـروجُ سـوى غِـنـائـي ومـا رَوَّى الـكُـرومَ سِـوى شَـرابـي
دَرَجْتُ على ثَراكِ ومِلْءُ نَفسي عبيرُ الخالِدينَ مِنَ التُّرابِ

درج أول مشيه على تراب دمشق، وامتلأت نفسه بذكريات الخالدين من أبطال العروبة والإسلام

وعدتُ إلى حِماكِ خَيالَ شعبٍ يَطوفُ على الطُّلولِ وفي الشِّعابِ

وعاد إلى دمشق لاجئاً بعد ضياع فلسطين «شبه شعب»، يسكن الطلول، الخرائب، والشعاب، الطرق الجبلية

أَتُـنـكـرنـي دِمشقُ، وكـان عَـهْـدي بـهـا أَلَّا تُـلَـوِّحَ بِـالـسَّـرابِ
فِلَسْطينُ الحَبيبةُ كيف أَغْفُو وفي عينَيَّ أَطيافُ العذابِ
تَمُرُّ قوافلُ الأَيامِ تَروي مُؤامَرَةَ الأَعادي والصِّحابِ
فِلَسْطينُ الحبيبةُ كيفَ أَحيا بعيداً عن سهولِكِ والهِضابِ؟
تُناديني الشَّواطِئُ باكِياتٍ وفي سَمْعِ الزمانِ صَدَى انتِحابِ
تُناديني الجداولُ شارِداتٍ تسيرُ غريبةً دونَ اغتِرابِ
ويسأَلُني الرِّفاقُ أَلا لِقاءٌ وهل مِن عَودَةٍ بعدَ الغِيابِ؟
غداً سنعودُ والأَجيالُ تُصغي إلى وَقْعِ الخُطى عند الإيابِ
أَجلْ، ستَعودُ آلافُ الضَّحايا ضحايا الظلمِ تَفتَحُ كلَّ بابِ

١٣ كيف لا أغني؟

يـا جـارتـيِ كـيـفَ لا أُغَـنِّـي؟ وأنـتِ أَحـلَـى مِـنَ الـتَّـمَـنِّـي

ويَحمِلُ الشوقُ كلَّ صُبْحٍ رسالةَ العاشِقينَ مِنِّي

١٤ العدوان الثلاثي

طَلَعَ الصباحُ على الصَّعيدِ الطاهِرِ لـمَّا أطلَّ جَمالُ عبدُ الناصِرِ

الصعيد الطاهر: التراب الطاهر

زحفَتْ قَراصِنَةُ البحارِ مَعَ الدُّجَى متَحالِفينَ مَعَ الذَّليلِ الماكِرِ

القراصنة هم الإنجليز والفرنسيون، والذليل الماكر الإسرائيليون، والثلاثة قاموا بالعدوان الثلاثي على مصر سنة ١٩٥٦

كانوا، وما بَرِحُوا، حُثَالَةَ عالَمٍ مستعمِرينَ مِنَ الطِّرازِ الفاجِرِ

هُمْ شَرَّدوا أهلِي وهُمْ سَلبُوهُمُ وطناً تَفَرَّدَ بالجمالِ الساحِرِ

١٥ ليتهم صمتوا

أَجَلْ! هُوَ الشِّعرُ يَعلُو وجهَهُ الخَجَلُ فكيف لا تخجَلُ الأحرارُ والمُثُلُ

ما الشِّعرُ إنْ لم يَلُحْ فيهِ سَنا وطنٍ ولم يُعَطِّرْهُ منهُ السهلُ والجبلُ

أَهلِي على الدهر تُدمِينِي جِراحُهُمُ في حُبِّهِمْ يَتَساوَى العُذْرُ والعَذَلُ

لا فرق بين من يعذرني ومن يلومني في حبي لأهلي، فحبهم ثابت في قلبي

أَطوفُ أَحمِلُ، أَنَّى سِرْتُ، نَكْبَتَهُمْ كأنَّني طيفُ نارٍ والحِمى طَلَلُ

قالَ الملوكُ: غداً نحمِي ديارَكُمُ ليتَ الأذلَّاءَ ما قالوا وما فَعلوا

وعَلَّلُونا بِساحِ المجدِ نَنزِلُها إذا بِهِمْ ساعةَ الجُلَّى، هُمُ العِلَلُ

صبَّرونا تصبيراً بالقول إننا سوف ننزل ساحات المجد؛ وفي ساعة الجلى، ساعة الجد، تبين أنهم هم العلل، الأسقام

قالوا: الكرامةُ! قلنا: أين صاحبُها؟ قالوا: الرجولةُ! قلنا: أَيُّهُمْ رَجُلُ؟

وكيف تُنقِذُ أَرضَ العُرْبِ جامِعةٌ يَسودُها مبدأُ التَّفريقِ والجَدَلُ

«الجامعة العربية» من يومها محفل فرقة وجدل

مَن يشتري وطناً أو يبتغي بَدَلاً وأين في الكونِ أو في الجَنَّةِ البَدَلُ؟

١٦ تاجروا باسمنا

لا تَسَلْني، فلن أُطيقَ جَوابا كيف أبكي الديارَ والأحبابا

لا تسألني كيف أستطيع الاستمرار في بكاء الديار والأحباب، فلن أتمكن من الإجابة

كلَّما لاحَ مِن فِلَسطينَ بَرْقٌ خَفقَ القلبُ في القصيدِ وذابا

ما بَعُدْنا عن طيبِ أرضِكِ إلّا زادَنا البُعد مِن ثَراكِ اقْتِرابا

وزَرَعنا الأَشواقَ في كلِّ أرضٍ ليتَها أنبتَتْ قَناً وحِرابا

القنا: الرماح، الحراب: الخناجر

إنَّ قَومي في الضَّفَّتيْنِ اسْتَكانُوا ليتَ شِعري متى أَراهُمْ غِضابا

الضفة الشرقية: شرق الأردن، والضفة الغربية: قطعة من فلسطين بقيت بيد العرب بعد نكبة ١٩٤٨ ودخلت تحت حكم الأردن

تاجَرُوا باسمِنا وباسْمِ فِلَسْطيـ ـنَ، فكانُوا العُداةَ والأَصْحابا

ثم قالوا خانَ البلادَ بَنُوها كذَبُوا إنَّنا أَعَزُّ جَنابا

العرب تفاهموا مع الإنجليز ومع اليهود، وبعد النكبة قالوا إن الفلسطينيين خانوا بلدهم، وهم كاذبون فنحن أعز من أن نخون بلدنا

هَتَفوا لِلوَغى، ولَمَّا التَقَيْنا حارَبُونا وحالَفوا الإنْتِدابا

هتف العرب هتاف الحرب، والتقينا بهم على أرض فلسطين فحاربونا وحالفوا الانتداب البريطاني

ثم رَاحوا يُدَلِّلونَ علينا يومَ صِرْنا بِفضلِهِمْ أَسْلابا

راحوا يدللون علينا، ينادون علينا نداء الباعة والدلالين، ويجمعون باسم نكبتنا الأموال، عندما صرنا بسببهم أسلاباً، أي غنائم

١٧ في انتظار الفجر

كُلَّما قلتُ: أَطَلَّ الفجرُ غابا أَتُرى تغدُو فِلَسطينُ سَرابا؟

الصورة في الشطر الأول لا تستدعي صورة السراب في الشطر الثاني، وإن استدعى المعنى المعنى. ولكن بعض أبيات الشعر مثل مذيعات التلفزيون: تكون المذيعة قليلة الإلمام بمادتها، ضعيفة في لغتها، ولكن الله يمنحها قبولاً لدى المشاهدين. هذا بيت راعني جماله

بَحَّتِ الأرضُ تُناديِ شعبَها ثم لَمَّا تسمَعِ الأرضُ جوابا

بَحَّت: بُحَّ صوتها

جشَمَ الأعداءُ ما حولَ الحِمى وعدا أهلِي على أهلِي ذِئابا

هذا في أوائل الستينات، وسْط انقلابات سورية والعراق، ثم انفصام الوحدة بين مصر وسورية، والاضطراب في الأردن بين تنامي الحركة المعارضة للملك، وقمع السلطات لها، كل هذا كان يسيطر على الدول المحيطة بفلسطين

صرخَتْ مِنَّا الجِراحاتُ عِتاباً كيف لا يَسمَعُ أهلُونا العِتابا

نحن في النَّكْبَةِ أَصْفَى جَوْهراً كُلَّما اشتَدَّ لَهيبُ النَّارِ طابا

يا أَحِبَّايَ! أمَا آنَ لكُمْ أنْ تقولُوها صُراحاً وصَوابا

تاجَرَ الأهلُ بِالآمِكُمُ ثم يَرجُونَ مِن الشعبِ ثَوابا

١٨ أرضنا تنتظر

إلى متى، وأَرْضُنا تَنتَظِرُ طالَ السُّرَى وما أَطَلَّ القَمَرُ

السرى: سير الليل

مَواكِبُ النَّصْرِ التي مَرَّتْ بِنا ليس لها على الدُّروبِ أَثَرُ

مواكب النصر نراها في شوارع العواصم، ولا أثر لها في الدروب المؤدية للجبهات. وكلمة دروب منذ العصر العباسي تعني الطرق المؤدية إلى بلاد الروم، وهي طرق الجهاد، (جاز الدروبَ إلى ما خلف خَرشنة/ وزال عنها وذاك الروع لم يزُلِ) المتنبي

أَسأَلُ عن أهلِي، ومن يَسمَعُني؟ أين بَقايا الأَهلِ؟ هل هُمْ بَشَرُ؟

١٩ من المحيط إلى الخليج!

لا تقولوا: موجُ الخليجِ تَلاقى مَعَ موجِ المحيطِ في أفراحِ

يومئ إلى شعار «العرب أمة واحدة من المحيط إلى الخليج»

ودُويْلاتُكُمْ! سَلُوها. فما كا نتْ دُويْلاتُكُمْ سِوى أَشْباحِ

لا تقولوا: بِنا الكَرامةُ تَعْتَزُّ وفوقَ الجِباهِ عَارُ افتِضاحِ

تَتَغَنَّوْنَ بِالبُطولةِ والأَنْـ ـجُمُ تَبكي على الحِمى المُستَباحِ

لا تقولوا: عُروبَةٌ، وفِلَسْطيـ ـنُ تُنادي: متى يُفَكُّ سَراحي

٢٠ لا جديد

هُمْ جَحَدوا نضالَ الشعبِ حتى كأَنَّ الشعبَ خَصمُهُمُ اللَّدودُ

أَرانِبُ إنْ تَعَرَّضَ أَجْنَبِيٌّ وهُمْ أَبداً على أَهْلِي أُسودُ
تُلَعْلِعُ في جوانِبِ كلِّ أُفْقٍ بَيانَاتٌ، وليس بِها جَديدُ

طرافة البيت تكون أحياناً بوجود مبالغة تصل حد الاستحالة، وطرافة هذا البيت في انعدام المبالغة حدَّ الانكفاء إلى التلطيف.. تلك البيانات «ليس بها جديد» فقط! بل بها عنتريات فارغة وأكاذيب

٢١ إنه أسبوع!

عَزَلوا الشعبَ مثلَما شاءَ الِاستعـ ـمارُ. يا لِلعبيدِ! كيفَ تُطيعُ
ثم قالوا: هذي الجيوشُ دُروعٌ ليتَها لم تكنْ هناكَ دُروعُ
ووراءَ الجيوشِ صوتٌ يُدَوِّي لا تُراعُوا فإِنَّهُ أُسبُوعُ

كان زعماء العرب يخففون عن الفلسطينيين بُعيد النكبة بالقول: لا تخافوا! هو أسبوع، ويعود اللاجئون إلى ديارهم

وإذا بِالسِّنينَ تَمضي ثِقالاً أَثْقَلَتْها خيانةٌ وخُضوعُ
وفِلَسْطينُ، وَهْيَ دنيا البُطولا تِ، تُنادي، وأَينَ أَينَ السَّميعُ
ما لنا اليومَ لا نُعَدُّ مِن العُرْ بِ، وغابَ التَّأْهيلُ والتَّوْديعُ

لم يكن لفلسطين آنذاك مقعد في الجامعة العربية، ودخلت فلسطين الجامعة عام ١٩٧٦، وبدأ اللاجئون الفلسطينيون في الدول العربية المحيطة بفلسطين يشعرون أنهم ضيوف ثقال، وبدأت الدول تفرض عليهم قيوداً شتى في السكنى والعمل والسفر، ولم تمنحهم الجنسية سوى الأردن

٢٢ ألف هَلا

ما لِيَ أرى الأُفْقَ حَلا هلْ عُدْتِ؟ يا أَلْفَ هَلا
مَرَّ النسيمُ عاطِراً قالَ: مَرَرْتِ أَوَّلا
يا طيبَهُ لَمَّا رَوى عنكِ الشَّذَا وأَقْبَلا
والزهرُ تاهَ عندما شَمَّ وذاقَ القُبَلا

عندما شمته وقبلته فالزهر هو الذي شم الحبيبة لا العكس! طريف

هيهاتَ أن يذبُلَ بعـ ـدَ اليومِ، لا لنْ يَذْبُلا
الشعرُ لم يَنقُلْ سِوى عن شَفَتيْكِ الغَزَلا
لكنَّ قلبِي وحدَهُ يَهوى التي تقولُ: لا
عيناكِ يا فاتِنَتِي صَيَّرَتاني مَثَلا

٢٣ شرف الحرف

رَايَةُ الشِّعرِ رَفرَفَتْ، نَسْجُها الشو ... قُ، وشَرْحُ الشَّوْقِ القديمِ طويلُ
قد زَها في ظِلالِها الحرفُ والمجـ ... ـدُ يَميلانِ حيث كانتْ تَميلُ
إنَّهُ الشعرُ كالأُناسِيِّ في الكوْ ... نِ: فَحرْفٌ حُرٌّ وحَرْفٌ ذَليلُ

من الشعر ما هو شامخ صادق، ومنه ما يطبل للحاكم.. كالبشر

أيها الحامِلونُ أَلْوِيَةَ الشعـ ... ـرِ تَهاوى السِّتارُ والتَّمْثيلُ
فاهبِطوا لا تُرابِطُوا في البروجِ الـ ... ـبيِضِ فالشِّعرُ كلُّه مَسؤُولُ
شَرفُ الحرفِ أنْ يَذودَ عن الحقِّ ـ ... فإنْ رُمْتُمُ المَقالَ فقُولوا
لا تقولوا: قلبُ العروبةِ خَفَّا ... قٌ وفيهِ الدَّاءُ العُضالُ الوَبيلُ

العضال: المستعصي، الوبيل: الشديد

٢٤ يا صباح الخير

كلُّ يومٍ تقولُ لي: يا صَباحَ الـ ... ـخيرِ أَشهَى مِنَ النَّبيذِ المُعَتَّقْ

٢٥ الكثير القليل

كَثُرَتْ بينَنا الدُّوَيْلاتُ زُوراً ... وقليلٌ واللَّهِ هذا الكَثيرُ

٢٦ بعد النكسة

أيها الحامِلونَ أَلْوِيَةَ العا ... رِ! تَخَلَّوْا عن حَوْمَةِ المَيْدانِ

هذا عام ١٩٦٨، وكانت النكسة في العام الماضي شديدة الوقع

سَلِّمُوا الشعبَ أَمرَهُ واستَريحُوا ... يا حُماةَ الأَصنامِ والأوثانِ
كلُّ جيشٍ يَكونُ حرباً على الشعـ ... ـبِ ذَليلٌ إذا التَقى الجَمْعانِ
عاصِفٌ بينَ أهلِهِ، ونَسيمٌ ... لِلْمُغيرينَ، شَأْنَ كلِّ جَبانِ
يَأْنَفُ التُّرْبُ أنْ تَمُرُّوا عليهِ ... وتُصابُ الرِّمالُ بالغَثَيانِ
كلَّ يومٍ تُجدِّدونَ الشِّعارا ... تِ فِراراً مِن أَزْمَةِ الوِجْدانِ
بعدَ «حربِ التَّحريرِ» قد أَصبحَ اليو ... مَ شِعاراً «إزالَةُ العُدْوانِ»

اتخذت الأنظمة العربية المهزومة شعار «إزالة آثار العدوان» بعد نكسة ٦٧، ولم تعد تطلق شعار «تحرير فلسطين»

ثـم حُـرِّيَّـةٌ تَـقـولـونَ لِـلـنَّـا   سِ، ومـا فـيـكُـمُ سـوى سَجَّـانِ
وتقولونَ: نحنُ نَحكُمُ باسْمِ الشَّـ   ـعبِ، أَستَغْفِـرُ العظيـمَ الشَّـانِ
أيها الأَهْلُ في القِطاعِ وفي الضَّفَّـ   ـةِ لـو تُـنْـطِـقُ الـدمـوعُ لِـسـانـي
نـحـنُ أَسْـرى وأَنْـتُـمُ أَنْـتُـمُ الأَحْـ   ـرارُ خـلـفَ الـسُّـجونِ والقُـضـبانِ

٢٧ العواصم

أيـهـا الـحـاكـمـونَ بِـاسْـمِ بِـلادي   مـا الـذي تـغـزِلـونَ خلفَ الـسِّـتـارِ
كلُّ حُكْمٍ يَطغَى على الشعبِ بِاسْمِ الشَّـ   ـعْـبِ حُـكْـمٌ مَـصـيـرُهُ لِـلـبَـوارِ

البوار: الخراب

أَصبحتْ هذهِ العواصِمُ بعدَ الـ   ـقُـدْسِ رُكْـنـاً فـي مُـتْـحَـفِ الآثـارِ
قَـرَّرُوا الـزَّحْـفَ لِـلـجِـهـادِ، إذا هُـمْ   أَخـذُوا يَـزحـفُـونَ خـلـفَ قَـرارِ

بعد أن كانت الأنظمة العربية تتعهد بالزحف على العدو أخذت تستجدي قراراً أممياً، وصدر القرار ٢٤٢ من مجلس الأمن في أواخر عام ٦٧

أيـهـا الـحـاكِـمونَ، ما يَـنفَـعُ الـحُـكْـ   ـمُ إذا مـا اخْـتَـفـى وراءَ شِـعـارِ؟
تَـتـغَـنَّـوْنَ بِـالـشُّـهـورِ وبِـالأَيَّـ   ـامِ، يـا حَـسْـرتـا عـلـى الأَعْـمـارِ
فَـحُـزَيْـرانُ قـد مَـحـا أَشْـهُـرَ الـثَّـوْ   راتِ: تَـمُّـوزَهـا إلـى آذارِ

وكثرت تسمية الانقلابات العربية بأسماء الأشهر، وخصوصاً تموز وآذار في العراق وسورية. فأما حزيران فهو شهر النكسة ١٩٦٧. قال بدوي الجبل: (مُحِيَتْ أَشْهُرُ الرَّبيعِ، فَلا أَيَّـ/ارُ مِن دَهرِنا ولا نِيسانُ) قالها قبل شاعرنا بنحو عشرين سنة

٢٨ دول وسلطات

أَنـا أَبْـكِـي الأَحياءَ! عاشُوا وهانُوا   وتـسـاوَتْ حَـيـاتُـهُـمْ والـمَـمـاتُ
نَـسَـمـاتُ الأُرْدُنِّ أَنـفـاسُ أَهـلـي   وَهْـيَ فـي كـلِّ مُـنْـحَـنىً عَـطِـراتُ

وكان الأردن وقت إلقاء القصيدة في مايو/أيار ١٩٧٠ يشهد الحركة الفدائية، وسيشهد هزيمتها في الصراع مع النظام بعد أربعة أشهر وانتقال المقاتلين الفلسطينيين إلى لبنان لكي يهزموا مرة أخرى بعد اثنتي عشرة سنة

وَوَراءَ الأُفـقِ الـمُـضَـمَّـخِ بِـالـنَّـقْـ   ـعِ أُنـاسٌ أَعْـمَـتْـهُـمُ الـشَّـهَـواتُ

وراء أفق الأردن المعطر بالنقع، بغبار المعارك في الأعمال الفدائية ضد إسرائيل، هناك أنظمة لا تهمها سوى المصالح الضيقة للزمر الحاكمة

ودِفـاعـاً عـن الـعُـروبَـةِ نَـجْـتـا حُ الـمـنـايـا، ومِـنْـهُـمُ الـدَّعَـواتُ

هؤلاء البعيدون عن النضال يروننا نجتاح الموت ويكتفون بالدعاء لنا

ودموعُ الـخـليـجِ خَـضَّبَـتِ الـبحـ ـرَ، وفـي مَـكَّـةٍ بَـكـى عَـرَفـاتُ

عرفات: جبل عرفات

ويَـقـولـونَ: مـا لـنـا وفِـلَـسْـطـيـ ـنَ! لَـديْـنـا الـبِـتـرُولُ والـشَّـرِكـاتُ

يَـتَـغـنَّـوْن بِـالـكُـنـوزِ ضَـلالاً وهُـمُ، لـو سَـأَلْـتَ عـنـهُـمْ، جُـباةُ

هم فقط يجبون المال لكي يقدموه لشركات النفط التي كانت تنال حصة كبيرة من عوائده

وبِـلادي كـانـتْ مُـوَحَّـدَةَ الأَرْ جـاءِ، والـوَجْـهُ واحِـدٌ والـسِّـمـاتُ

وإذا بِـالـحِـمـى مَـواطِـنُ شَـتَّـى وإذا بِـالـوُجُـوهِ فـيـهـا فِـئـاتُ

أصبح الناس في المواطن الشتيتة في دنيا العرب فئات، فهذا مواطن، وهذا مقيم، وهذا لاجئ بعد أن كانت الدول العربية كتلة واحدة قبل الاستعمار

دُولٌ أَيْـنَـمـا ذهـبـتَ عَـديـدَا تٌ، وفـي كُـلِّ دَولـةٍ سُـلُـطـاتُ

وحُـدودٌ! لا بـاركَ الـلَّـهُ فـيـهـا بـيـنَ أَهـلـيِ الـمُـشَـرَّديـنَ مِـئـاتُ

شَـرُّ مـا فـي دنـيـا الـعـروبـةِ أن يُـعْـ ـزَلَ شـعـبٌ، وتَـحْـكُـمَ الـثُّـكُـنـاتُ

٢٩ شعراء المديح

فـي كـلِّ عـامٍ نَـلـتَـقـي، وعـلـى أفـواهِـنـا حَـلَـقٌ مِـن الـزَّرَدِ

أفواهنا مكممة بالجنازير والسلاسل

كـلُّ الـحـروفِ تـظـلُّ شـارِدَةً إن لـم تَـقُـلْ مـا دارَ فـي الـخَـلَـدِ

شـعـراءُ قـد حَـمَـلُـوا مَـبـاخِـرَهُـمْ وأَتَـوْا إلـى الـمـيْـدانِ بِـالـعَـدَدِ

جـاءُوا وقـد مَـسَـحَـتْ شِـفـاهَـهُـمُ أَعـتـابَ مُـقـتَـدِرٍ ومُـغْـتَـضِـدِ

الشعراء يمسحون بشفاههم وأشعارهم أعتاب السلاطين، كما كان يفعل شعراء الماضي إذ يمدحون الخلفاء والأمراء

٣٠ عشق فلقاء فاعتناق

قُـولـيِ، بِـمَـنْ أَوْدَعَ فـي عَـيْـنَـيْـكِ سِـرَّ الأَلَـقِ:

قولي، وأحلّفك بالله الذي وضع في عينيك سر البريق:

هــل تُــجْــمُــلُ الــحــيــاةُ والــ ـعُــمْــرُ إذا لــم نَــعْــشَــقِ
وكـيـف يَـحـلُـو الـشـوقُ فـي الـدُّ ـنـيـا إذا لـم نَـلْـتَـقِ
ومــا الــهَــوى إذا تَــلا قَــيْــنــا، ولــم نَــعْــتَــنِــقِ؟

لولا غزلياتك الطيبة يا أبو سلمى لوصمناك بالشاعر السياسي صاحب الشعارات الطنانة، فعلاً أبو سلمى.. وسلمى هي حبيبته لا ابنته، لقبوه بها

٣١ تحت الدرج

هــنــاكَ تــحــتَ الــدَّرَجِ مَــا لَــكِ لــم تُــعَــرِّجــي
يَــلُــفُّــنــا لــيــلُ الــهــوى مــعــاً ولا مِــن حَــرَجِ
ويَــهــتَــدي ثَــغــرِي إلــى ثــغــرِكِ رَغْــمَ الــدَّلَــجِ

الدلج: يقصد الظلام

عــلــى سَــنَــى أَعْــيُــنِــنــا ومــا بِــهــا مِــن وَهَــجِ

ثغره يعثر على ثغرها على السنى، النور، المنبعث من عينيهما

٣٢ دمي روى

دَمـي رَوَى، فَـلْـتَـصْـمُـتِ الأَلْـسُـنُ أَروَعُ شـعـرِ الـقـلـبِ لا يُـعْـلَـنُ
مـا شَـهـرُ تِـشـريـنَ إذا لـم يَـعُـدْ لـي بَـيْـدَري والـكَـرْمُ والـمَـسْـكَـنُ

القصيدة ألقيت عام ١٩٧٥، وكانت سورية ومصر قد حاربتا إسرائيل في تشرين الأول/أكتوبر عام ٧٣، وهللتا لانتصار كبير، غير أن هدف الحرب كان تحريك عملية مصالحة راكدة لا استرداد أرض سليبة، وتحقق التحريك بالنسبة لمصر

وأَيُّ نَــصْــرٍ! وأَنــا لــم أَزَلْ مُــشَــرَّداً ولــيــس لــي مَــوْطِــنُ
تَـفـنَـى الـزَّعـامـاتُ وأَشْـبـاهُـهـا والـخـالِـدانِ: الـشـعـبُ والـمَـوْطِـنُ

عبد الكريم الكرْمي
(أبو سلمى)
فهرس القوافي

محمد سليمان الأحمد
(بدوي الجبل)
(١٩٠٠ ـ ١٩٨١)

أقدم لك أيها القارئ شاعراً مناضلاً، وفي تقديمي أحدثك عن نضالي أنا.

لست مناضلاً.

حقق معي الإسرائيليون ثلاث مرات. مرة لَمُّوني من الشارع كما يَلُمُّون الناس في ساعة هرج ومرج، ولموا معي عدداً من الطلبة، كان ذلك في رام الله بفلسطين. وقفت في مخفرهم ووجهي إلى الجدار مع من وقف. مر جندي وأنالني من سلاحه ضربة على صفحة الوجه.. كأنني كنت مائل الرأس قليلاً ولم يعجبه أن يرى أحدنا غير ملتزم بإلصاق وجهه بالجدار.. وألصقته. في التحقيق قال لي الضابط: تبدو أكبر سناً من هؤلاء الطلبة؟ قلت له: كنت مدة من الزمن في ألمانيا. سألني متحمساً عن البوندس ليغا. قلت له: لا علاقة لي بكرة القدم. قال لي: اذهب إلى بيتك. فذهبت. وسيق بعض من اعتقلوا معي إلى السجن فالمحاكمة. وحكم على بعضهم بسنة ونصفٍ حبساً. فقط لأنهم كانوا في المكان الخطأ في الوقت الخطأ.

وحقق معي الإسرائيليون، بلا ضربة على صفحة وجهي، مرتين أخريين، وفيهما أيضاً ذهبت إلى البيت.

عندما كنت في ألمانيا أحببت أن أتعرف على النضال الفلسطيني، وكان هذا «النضال» موجوداً في تلك السنين في لبنان. كان هذا قبل غزو إسرائيل لبنان عام ١٩٨٢. ذهبت إلى لبنان «وناضلت» بضعة أسابيع. وتعرفت على النضال. صنعة شريفة. وفي أوقات محنة الوطن لا بد من نضال. لكن نضالنا

الفلسطيني كان مزوداً بمال عربي كثير، فكان الزعماء يدفعون للفقراء المال على هيئة ما كانوا يسمونه «مخصصات» لكي يقوموا بالنضال. شيء طبيعي. لن تطلب من الجنرال أن يقاتل بيديه، بل أن يقود. هي صنعة شريفة.

وقنعت بعد حين أن أناضل نضالاً من المرتبة الثالثة: مرتبة أضعف الإيمان. لم يستطع اليساريون أن يضموني إلى صفوفهم لأنني لم أكتف بقراءة ما قرأوا من الكتب الحمراء، بل تجاوزتها إلى كتب من كل لون، فاستقامت الأمور في ذهني على غير ما يهوى التحزب. ولم يُقبِل الوطنيون الآخرون على مجرد الطلب إليَّ أن أنضم إلى صفوفهم. كانت بصيرتهم حادة، فرأوا أنني لست، بالخلقة، مناضلاً فتركوني بحالي. حتى أولئك الذين استضافوني في فترة لبنان النضالية لم يعرضوا علي التحزب معهم. نَعَشَ الله قلوبهم.

كان المال العربي الذي تدفق على المقاومة الفلسطينية مالاً سياسياً، ولم أر فيه ما يشين. فبه أبقى أولئك المناضلون شمعة القضية متقدة.

وناضلت بالقلم مرة. فعندما بدأت السلطة الفلسطينية مسيرتها الغريبة بعد معاهدة أوسلو ١٩٩٣، تحول النضال إلى سياسة، وظل المناضلون المستقيلون يتغنون بالنضال.

كنت آنذاك أعمل في إذاعة لندن. وأجاءتني الظروف إلى الضفة الغربية وقطاع غزة. ذهبت إلى أريحا لزيارة الإذاعة الفلسطينية. سمعت مدير البرامج يصيح بالناس. . نجوى كرم وديانا حداد فقط، لا نريد أي أغان وطنية. مفهوم! كانت السلطة تأمل في تعاون وثيق مع الاحتلال لإنشاء دولة في الضفة وغزة. وكان المحتل أخبث مما تصوروا.

كنت وقتها ناضجاً نضج عنقود عنب يكاد يعصر نفسه بلا عاصر. كنت فاهماً المعادلة أحسن من إسحق رابين وزميله في الصفقة ياسر عرفات.

وبعد قليل عدت إلى بلدي وعملت في الجامعة وفي بعض الإذاعات المحلية التي أخذت تنشأ وتتكاثر بسرعة. ومثلما قرأ إدوارد سعيد اتفاقية أوسلو قرأتها، وقرأت أيضاً ما كتبه عنها. نعم، قرأت ذينك الكتابين الممنوعين اللذين كتبهما عنها.

وفي مارس آذار عام ٢٠٠٣ كتبت أول كتاب أكتبه، ونشرته على حسابي، ولم ترض المطبعة أن تضع اسمها على الكتاب. انتقدت في كتابي السلطة

ورئيسها. وكان من حسن طالعي أن الكتاب لم يجد سوى ثمانية مشترين، فوفرت على نفسي أن أواجه محققي السلطة. ووزعت بقية النسخ في جامعتي، جامعة بيرزيت. وأذكر هنا، على سبيل التحية، أن رئيس الجامعة حنا ناصر ابتاع خمسين نسخة كي يهديها لزوار مكتبه، وهو الذي كان عضواً في اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير، والذي أصبح رئيساً للجنة الانتخابات. كانت منه جرأة، وشموخاً.

نضال فلسطين الرسمي حتى يومنا هذا صنعة شريفة. وثمة من الشباب المناضلين من يحمل روحه على راحته. هناك من يضحي، ولا أنكر على المضحي تضحيته. ولا أرى أن أي شكل من أشكال النضال يشبه أي شكل من أشكال التسليم بالأمر الواقع. وأضعف أشكال النضال نضالي.. النضال على طريقة أضعف الإيمان.

لكن نضال أبناء العائلات الغنية ليس أفضل من نضالي، فلئن كان نضالي مسالماً لا يؤذيني ولا يؤذي المحتل، فهو بريء من المال. لكن نضال العائلات الغنية ماكينة تعمل بالمال، وتتوقف عن الحركة في غيابه.

شاعرنا المناضل

شاعرنا المناضل بدوي الجبل ابن أسرة إقطاعية. كان وزيراً في عهد الاحتلال الفرنسي، وكان منسجماً مع مشروع الفرنسيين القاضي بتقسيم سورية إلى دويلات طائفية. ثم رأى أن المشروع متعثر، ومع ذلك لم يعد إلى الصف الوطني إلا بكثير من التلكؤ. وظل يناضل. وظل يرسل الأشعار الملتهبة، لكنه لم يكن جريئاً مثلما قد توحي بعض أبياته. كان ينتقد أولي الأمر بعد الاستقلال بكثير من الالتواء. لكنه صب جام غضبه على الوحدة بين سورية ومصر، وعلى عبد الناصر، ففي دولة الوحدة لم يجد له دوراً.

على أن شاعرنا قال قصيدة موجعة بعد هزيمة عام ١٩٦٧، وكان جريئاً، وتعرض للأذى.

بدوي الجبل عنتري غضوب رومنسي مجدف. وهو يحاول أن يجعل لغته قديمة، يتفاصح. وله، على كل عيوبه، شعر حار. ولا نختار من الشعراء إلا صاحب الشعر الحار. فاخترناه، واخترنا من شعره. وأصابنا عنت ونحن نشرح شعره لما فيه من تعمل وتَقِيَّة سياسية والتواء لغوي. هذا عن شعره الجيد الذي اخترناه، وأما ما سترناه فهو مستور في ديوانه.

هذا ابن زعيم إقطاعي. أنيق ويفتخر بأناقته، وصاحب مناصب وزارية، وينفي نفسه إلى لبنان أو إلى إستانبول أو إلى جنيف عندما يكون خارج دائرة السلطة. وعندما أحكم أبناء طائفته، العلوية، قبضتهم على السلطة كان قد أسن، وكانوا من غير الإقطاعيين.. وإن أصبحوا فيما بعد من كبار الأغنياء. لذا ظل بدوي الجبل غاضباً.

لقد ناضل بدوي الجبل ضد الفرنسيين في بدء نزولهم إلى شاطئ سورية، وسجن وأوذي. وسجنوه مرة أخرى في أواخر استعمارهم سورية، وبين المرتين تعاون معهم كثيراً، وانضم إلى الصف الوطني طويلاً.. لكن متأخراً.

ولد بدوي الجبل في مطلع القرن العشرين. وأراح بعض الدارسين أنفسهم من تقليب «دفاتر نفوس» غير موجودة أصلاً فجعلوا مولده عام ١٩٠٠. أبوه رجل أدب وفقه وسيادة. كان من كبار سادة جبل العلويين في شمال غرب سورية. وكان الأب صاحب شعر وأدب وعضواً في مجمع دمشق. وقرأ الطفل على أبيه دواوين كبار الشعراء القدامى ودرس في مدارس اللاذقية، وربما أيضاً في مكتب عنبر بدمشق، تلك المدرسة التي تخرج فيها عدد من كبار أدباء ذلك الزمن.

وقال محمد الشعر باكراً. ومحمد هو اسمه، وسليمان الأحمد هو اسم والده. فشاعرنا هو (محمد سليمان الأحمد). ولقَّبه صاحب مجلة ألف باء الدمشقية «بدوي الجبل» باكراً، وأكل اللقب الاسم.

خاض محمد سليمان الأحمد، بدوي الجبل، في السياسة في حياة والده. كان العلويون في منطقتهم الجبلية يعيشون ضمن اقتصاد إقطاعي لا يختلف كثيراً عما هو موجود في بقية الريف السوري. على أن المدن السورية شهدت تشكيلات برجوازية صاعدة، فنشأت الصناعات المتوسطة بجانب الحرف القديمة، وتقدمت المهن العالية كالطب والمحاماة وأصبح أربابها يصعدون السلم الاجتماعي. وتسارع نمو الطبقات الناشئة في المدن في العهد الفرنسي. ووقفت المدينة السورية في وجه المحتل الفرنسي مطالبة بالاستقلال، وتصدر هذا المطلب زعماء تقليديون، معظمهم من المدن، وانضم إليهم زعماء تقليديون من الريف مثل سلطان باشا الأطرش في جبل الدروز بالجنوب. وعندما كانت تتشكل الحكومات كان الزعماء الإقطاعيون من الدروز والعلويين ينالون تمثيلاً.

وعندما أراد الفرنسيون تقسيم سورية طائفياً رفض زعيم الدروز سلطان الأطرش، ولم يرفض عدد من زعماء العلويين، ومنهم شاعرنا.

ثم تبين أن الحركة الوطنية قوية. فانضم شاعرنا إلى الحركة، وكان نائباً ووزيراً عدة مرات.

وقبل أن يخرج الفرنسيون من سورية بمدة قصيرة سلطوا الطائرات والمدافع على دمشق، ١٩٤٥. كان فارس الخوري يومذاك في سان فرانسيسكو يوقع على اتفاق إنشاء هيئة الأمم المتحدة. قتل الفرنسيون ٤٠٠ دمشقي في هذا القصف الوقح.. ثم خرجوا من سورية.

حكم المدنيون سورية ثلاث سنين، ثم جاء الانقلاب الأول بالعسكريّ «حسني الزعيم»، والزعيم جزء من اسمه، وبعد أربعة أشهر وفي العام نفسه، ١٩٤٩، شرب من الكأس نفسها وأُعدم. وجاء مدنيون، ثم جاء العسكري أديب الشيشكلي، ثم أُقصي، ثم اغتيل في منفاه.

كان بدوي الجبل دائم التأنق، لا يغادر ربطة عنقه ولا بذلته منتظراً القعود في دور سياسي. واتحدت سورية ومصر في ظروف معقدة، وفقد بدوي الجبل، ومعه النخبة السياسية السورية، الدور، فقال في عبد الناصر أهاجي مفعمة بالروح الإقليمية الضيقة، لكنها كانت أشعاراً بليغة لأنها انطلقت من قلب عامر بالعاطفة.. عاطفة الكراهية، والغضب لما لحق به من تهميش. قالها من منفاه.

وانقلب الجيش في سورية على الوحدة، وانفصمت عام ١٩٦١. وبالتدريج تبين أن حزب البعث الذي أمسك بالحكم بعد ذلك بقليل يوجهه ضباط علويون، وأن الطبيعة المدنية والعقائدية له مجرد قناع. كان صلاح جديد ومحمد عمران وحافظ الأسد ثلاثتهم من العلويين، وكان سليم حاطوم درزياً. ولتكملة القصة فإن جديد سجن ٢٣ سنة حتى مات، وعمران اغتيل، وحاطوم أعدم بالرصاص، وأما حافظ الأسد، فحكم سورية، ثم حكمها ابنه بشار بالاستناد إلى قاعدة علوية في الأساس.

على أن العلويين الذين حكموا سورية بعد عام ١٩٦٣ لم يكونوا من سادة الإقطاع، ولا من برجوازية المدن. كانوا ممن يريد القضاء على النخبة القديمة.. لقد محقوا سياسياً أثرياء حمص ودمشق، وعصفوا بالزعامات التقليدية للدروز والعلويين. وفقد شاعرنا للأبد دوره السياسي، فلم يستفد من علويته في الزمن العلوي شيئاً. اللهم إلا في أخريات حياته عندما كان حكم حافظ الأسد حنوناً على الشاعر الشيخ.

رأينا بدوي الجبل ينفجر بقصيدة صاخبة عقب هزيمة ١٩٦٧، سخر فيها من الضباط وقرَّعهم تقريعاً. بعد هذه القصيدة اختطفت جماعة من الأشقياء الشاعر وأوسعته ضرباً، وكانت إصابته بالغة، وعاش بعدها حتى عام ١٩٨١، لكن صامتاً عليلاً، ولقي من الحكم العلوي بعض العطف، ولعل صمته كان الثمن.

لم نقل شيئاً عن شعر بدوي الجبل. لكننا في سياق شرحنا أبياته سنعلق على أشياء. ولن ننسى تسويد فرائد أبياته، وله تحليقات جديرة بأن يحفظها المرء ويذاكر بها إخوانه.

التفتُّ إلى شعر بدوي الجبل أول مرة عندما سمعت له بيتاً يفتخر فيه بشعره: (الخالدان ـ ولا أعد الشمس ـ شعري والزمانُ). فقلت في نفسي: قد فاتني أن أقرأ الرجل. وعندما قرأته وجدت له أبياتاً قوية غاية القوة. وبعض ما يطلبه المرء في الشعر العمودي: المذاكرة. يجلس المرء مع أصحابه ويتذاكرون الأحداث والمواقف، ويرصع المرء كلامه بالمثل وبالنادرة وببيت الشعر. فإذا ما جاء ببيت شعر قاعدٍ في محله، معبّرٍ عن الموقف تعبيراً حلواً، فاح في المجلس عطر ذكي. فأما إذا استل كل جليس هاتفه وأخذ ينقل عنه فإن المجلس يصبح مجالس، ويغيض الأنس.

قبحاً لمجلس يتصدره الشيخ غوغل!

١ بعد المشيب

يُرنِّح شِعري باللِّوى كلَّ بَانَةٍ ويَندَى بِشعري فيهِ كُلُّ كَثيبِ

يحرك شعري في موضع «اللوى» الصحراوي كل شجرة من أشجار البان ويجعلها تترنح، وترطب أشعاري كثبانَ الرمل بالندى

ولولا الجراحُ الدامياتُ بِمهجتِي لَأسكَرَ نَجداً والحجازَ نَسيبي

النسيب: شعر الغزل في مطالع القصائد

وعَرَّتْنِيَ الأيامُ مِمَّنْ أُحبُّهُمْ كَأيْكٍ، تَحاماهُ الربيعُ، سَليبِ

حرمني الزمن من أحبائي فصرت مثل بستان سليب من البهجة وقد تحاماه، وتجنَّبه، الربيع

ورُبَّ بَعيدٍ عنكَ أَحلَى مِن المُنى ورُبَّ قريبِ الدَّارِ غيرُ قريبِ

يحلو البعيد بعينيك فكأنه أحلى من الأمنيات، وقد يكون قريب المكان منك بعيداً عن قلبك

وَوَيْحَ الغَواني: ما أَمِنْتُ خُطوبَها   وقد أَمِنَتْ بعدَ المَشيبِ خُطوبي

الويل للحسناوات فأنا لست آمناً من تأثيرهن في نفسي، وأما هنَّ فلا تأثير لي فيهن بعد مشيبي

٢ باب إلى الله

بَيْني وبينَ اللَّهِ، مِن   ثِقتي بِلُطفِ اللَّهِ، بابُ

ثمة باب يوصلني إلى الله هو ثقتي بلطفه

أَبداً أَلوذُ به وتَعْـ   ـرِفُني الأَرائِكُ والرِّحابُ

ألوذ بالله وألتجئ إليه دوماً، وتعرفني الأرائك، أي مقاعد الجنة، ورحابها

يا رَبِّ: بَابُكَ لا يَرُدُّ   اللَّائِذِينَ بِهِ حِجابُ

يا رب: لا يرد أي حجاب أو ستر أولئك الملتجئين إليك

مِفتاحُهُ بِيَدي يَقيـ   ـنٌ لا يُلِمُّ بِهِ ارْتِيابُ

مفتاح الباب الموصل لله بيدي، وهو عبارة عن يقين لا شكَّ يُلم به أو يخالطه

وعِبادَةٌ لا الحَشْرُ أَمـ   ـلاها عَلَيَّ ولا الحِسابُ

وهذا المفتاح هو أيضاً العبادة التي لا يمليها علي، ولا يدفعني إليها، خوف من الحشر والحساب

٣ شماتة بالمحتل ١٩٤١

يا سامِرَ الحَيِّ هل تَعنيكَ شَكْوانا   رَقَّ الحَديدُ وما رَقُّوا لِبَلْوانا

أيها القوم في مجلس سمرهم هل تهمكم شكوانا؟ لقد رقَّ الحديد ولان ولم ترق قلوب الناس لبلوانا، أي مصيبتنا

ويلَ الشُّعوبِ التي لم تَسْقِ مِن دَمِها   ثاراتِها الحُمْرَ أَحقاداً وأَضْغانا

الويل للشعوب التي لا تضحي بدمها لأخذ الثأر من الظالمين، ولا تضمر الحقد والبغض لهم

تَرَنَّحَ السَّوْطُ في يُمْنى مُعَذِّبِها   رَيَّانَ مِن دَمِها المَسفُوحِ سَكرانا

السوط يهتز في اليد اليمنى لمن يعذب هذه الشعوب، وهذا السوط يترنح كالسكران وقد ارتوى من دم تلك الشعوب

تُغْضي على الذُّلِّ غُفراناً لِظالِمِها   تَأَنَّقَ الذُّلُّ حتى صارَ غُفرانا

والشعوب المظلومة تغضي، وتطأطئ الرأس، ذليلة، وتغفر للظالم. لقد صار الذل أنيقاً وتحول إلى صورة غفران، فيا للمهزلة

أَلَـمَّ، والـلـيـلُ قـد أرْخَـى ذَوائِـبَـهُ، طـيـفٌ مِـن الـشَّـامِ حَيَّـانـا فَـأَحْـيَـانـا

بينما الليل قد أرخى خصلات شعره الأسود.. ألمَّ بنا، أي جاءنا، طيف من الشام وحيانا فأحيانا ونَعَشنا

فَمَنْ رأى بِنتَ مَروانَ انْحَنَتْ تَعَباً مِـنَ الـسَّـلاسِـلِ يَـرْحَـمْ بِـنـتَ مَـروانـا

فكل من رأى الشام، وهي بنت مروان بن الحكم والأمويين، وقد انحنت تعبى من سلاسل المحتل الفرنسي، يرق لها ويشفق عليها

هل في الشَّآمِ، وهل في القدسِ والِدةٌ لا تَشتَكي الثُّكلَ إعْوالاً وإِرْنانا؟

فالأمهات في الشام، تحت الاحتلال الفرنسي، وفي القدس، تحت الاحتلال البريطاني والتغلغل الصهيوني، هذا عام ١٩٤١، كلهن يشتكين الثكل ويصدر عنهن العويل والإرنان، النواح

يُعطِي الشَّهيدُ؛ فلا واللَّهِ ما شَهِدتْ عيني كإِحسانِهِ في القومِ إِحسانا

الشهيد معطاء، ولا أحد يعطي عطاءه

وغايةُ الجُودِ أنْ يَسقيِ الثَّرى دَمَهُ عندَ الكِفاحِ، ويَلقَى اللَّهَ ظَمْآنا

قُلْ لِلأُلَى اسْتعْبَدُوا الدنيا لِسَيْفِهِمُ مَنْ قَسَّمَ الناسَ أحراراً وعُبْدانا؟

الألى: الذين

إِنِّي لأَشْـمَـتُ بِـالـجـبَّـارِ يَـصْـرَعُـهُ طَـاغٍ ويُـرهِـقُـهُ ظُـلـمـاً وطُـغـيـانـا

يا لشماتتي بالجبار الفرنسي وقد صرعه عدو طاغ وظلمه، وكانت ألمانيا قد احتلت فرنسا في بدايات الحرب العالمية الثانية، وهذا زمن القصيدة

سَمعْتُ باريسَ تَشكوُ زَهْوَ فَاتِحِها هَـلَّا تَـذَكَّـرْتِ يـا بـاريـسُ شَـكْـوانـا

الزهو: التكبر

والخيلُ في المسجدِ المَحزُونِ جَائِلَةٌ على الـمُـصَـلِّـينَ أَشياخاً وفِتيانا

كانت خيل العسكر الفرنسي قد دنست المسجد الأموي بدمشق قبل حين

إذا انـفـجَـرْتِ مِـن الـعُـدوانِ بـاكـيـةً لَـطـالَـمـا سُـمْـتِـنـا بَـغـيـاً وعُـدوانـا

إذا انفجرت بالبكاء يا فرنسا فطالما سمتنا، وعرَّضتِنا، للظلم والعدوان

عشرينَ عاماً شَرِبْنا الكأسَ مُتْرَعَةً مِنَ الأذى، فَتَمَلَّيْ صِرْفَها الآنا

مضت عليك عشرون سنة، منذ ١٩٢١، وأنت يا فرنسا تسقيننا الكأس مملوءة أذىً، فتملي، جربي، الشراب نفسه صرفاً خالصاً الآنَ

مَا لِلطَّواغيتِ في باريسَ قد مُسِخُوا ... على الأرائِكِ خُدَّاماً وأعْوانا

ما لي أرى الطواغيت، الجبابرة، الفرنسيين قد مسخوا وأخذوا يتصرفون بإزاء الغازي الألماني كالخدم والأعوان وهم جالسون على مقاعدهم لا يحاربون بل لقد شبعوا استسلاماً

تَمَلْمَلَ الفاتِحونَ الصِّيدُ وازْدَلَفُوا ... إلى السيوفِ زَرافاتٍ ووُحْدانا

يصف ثورة العرب أيام الحسين بن علي: لقد تحرك العرب الفاتحون الصيد، الكرام السادة، وازدلفوا إلى السيوف، هبوا نحوها، جماعات وأفراداً

ولِلجِيادِ صَهيلٌ في شَكائِمِها ... تكادُ تَشْرَبُه الصَّحْراءُ أَلْحانا

وخيولهم تصهل والشكائم، تلك الحدائد، في أفواهها، وتكاد الصحراء تشرب هذا الصهيل مستمتعة به كأنه الألحان. . فقد قاد الشريف حسين العرب في هجمات ضد جنود الترك في نهايات الحرب العالمية الأولى

السَّابِقاتِ وما أَرْخَوْا أَعِنَّتَها ... والحامِلاتُ المنايا الحُمْرَ فُرسانا

هذه الخيول العربية سابقة ولا تُرْخَى لها المقاود، بل تظل مشدودة كنايةً عن المضي وعدم الاستراحة، وهي تحمل فرساناً هم كالموت الأحمر على عدوهم

شَدَّ الحُسيْنُ على الطُّغْيانِ مُقْتَحِماً ... فزلزَلَ اللَّهُ لِلطُّغيانِ بُنيانا

اقتحم الشريف حسين بجنوده معاقل الظلم التركي فزلزل الله بنيان الظالمين

يا صاحِبَ النَّصْرِ في الهيجاءِ كيف غَدا ... نصرُ المعاركِ عندَ السِّلْمِ خِذْلانا؟

أيها الشريف حسين! يا من انتصر في الحرب. . كيف تحول النصر إلى خذلان لك من جانب حلفائك الإنجليز؟

ترى السِّياسَةَ لَوْناً واحداً، ويَرى ... لها حَليفُكَ أشكالاً وألْوانا

أنت ترى السياسة لوناً واحداً، هو الصدق المحض، ولكن حليفك الغادر يراها أشكالاً وألواناً

٤ رسالة إلى أبي

يا راكِبَ الوَجْناءِ، أَخْمَلَ عَهْدُها ... إِبِلاً ظِماءً في الفَلاةِ طِلاحا

يخاطب راكب السيارة ويسميها باسم الناقة، والناقة الوجناء هي الغليظة ذات الوجنتين البارزتين، ويتحسر على الإبل فالسيارة أخملت، أي ذهبت بشهرة، الإبل الظامئة الطلاح، أي المتعبة في الفلاة، أي الصحراء. يريد الشاعر أن يستعرض معجمه العتيق!

اِنْزِلْ على خيرِ الأُبُوَّةِ رَحمةً ... تَسَعُ الحياةَ وعِفَّةً وصَلاحا

انزل يا راكب السيارة على خير أب، على أبي الحنون الذي يتميز بالعفة والصلاح

يَشكُو السَّقامَ فإنْ هَتَفْتَ أَمامَه ... بِاسْمي تَهَلَّلَ وَجهُهُ وارْتاحا

التسويد لعمران القفيني

وأَطِلْ حديثَكَ يَسْتَعِدْهُ تَعَلُّلاً ... بالذِّكْرِ لا لِتَزِيدَهُ إِيضاحا

حدثه عني واسترسل في حديثك وسيستعيده تعللاً بذكري وتلذذاً بحديثك عني، وليس لأنه يطلب توضيحاً

وإذا أَلَحَّ فَلِلْحَنانِ عُذُوبَةٌ ... في مُقْلَتَيْهِ تُحَبِّبُ الإِلْحاحا

وإذا ألح عليك فستجد في عينيه حنان الأبوة الذي يحبب لك إلحاحه

٥ عيد الجلاء

القصيدة من بنات عام ١٩٤٦، وفي ١٧ نيسان/ أبريل منه انسحب آخر جندي فرنسي من سورية. ويوجد اليوم ـ ونحن نكتب هذا الشرح في مارس ٢٠١٧ ـ جنود من ثلاث دول في سورية، ومقاتلون من بضع عشرة دولة أخرى

اَلزَّغارِيدُ فقد جُنَّ الإِباءْ ... مِن صِفاتِ اللَّهِ هذي الكِبْرِياءْ

لتنطلق الزغاريد بمناسبة جلاء المستعمر فقد انتشينا بالفخر وبرفضنا الذلَّ حدَّ الجنون، وكبرياء كهذه هي من صفات الله

بِنتُ مَروانَ اصْطَفاها رَبُّها ... لا يَشاءُ اللَّهُ إِلَّا ما تَشاء

لقد اختار الله بنت مروان، أي الشام التي كان يحكمها الأمويون من بني مروان، والله يرضى ما ترضى

هِيَ في غَسَّانَ بَأْسٌ ونَدىً ... وَهْيَ في الإِسلامِ فَتْحٌ وبَلاءْ

الشام أيام الغساسنة قوة وسخاء، ومع قدوم الإسلام أصبحت الشام عنوان فتح وبلاء حسن وشجاعة في المعارك

جَمْرَةُ الحقِّ، فَسُبحانَ الذي ... صاغَ هذا الجَمْرَ مِن ظِلٍّ وماءْ

اَلوُرودُ الحُمْرُ ذِكرى وهَوىً ... وطُيوفٌ مِن جِراحِ الشُّهَداءْ

الورود الحمر لها معانٍ شتى.. منها أنها طيوف، أشباح، تذكرنا بجراح الشهداء

خُيَلاءُ الحَقِّ في عَدْنٍ لَكُمْ ... يَغْفِرُ اللَّهُ لِقَومي الخُيَلاءْ

أيها الشهداء لكم في الجنة أن تختالوا والله يغفر هذه الخيلاء، الزهو والافتخار

واعْذِروا عَدْناً على غَيْرَتِها ... إِنَّها والشَّامَ في الحُسْنِ سَواءْ

والتمسوا العذر لجنات عدن لإحساسها بالغيرة، فهي جميلة مثل الشام، والجميلة غَيرَى

كيفَ أنْسَى يا زَعِيمِي ليلةً عَصَفَتْ نيرانُها بالأَبْرِياءْ

كيف أنسى أيها الزعيم، شكري القوتلي، الليلة التي قصفت فيها فرنسا المدنيين بالمدافع

غُوطَةُ الشَّامِ جَحيمٌ فائِرٌ والميادينُ طِعانٌ ورِماءْ

الطعان: الضرب بالرماح، والرماء: رمي السهام

ما شَكى الشَّاكونَ فيها ظَمَأً أَكْؤُسُ الحِقدِ رَوِيَّاتٌ مِلاءْ

في تلك الجحيم لم يشكُ المناضلون العطش، فقد كانت كؤوس الحقد على المحتل رويَّة وممتلئة

مَلَكَ الطَّاغي الثَّنايا عَنْوةً واستَحَرَّ القتلُ واشْتَدَّ البَلاءْ

الثنايا: الطرق الجبلية، استحر: اشتد وصار حاراً، البلاء: القتال

وتَجارَى الأُمَوِيُّونَ إلى غَمْرَةِ الموتِ، وفازَ السُّعَداءْ

تجارى الأمويون، تراكض أهل الشام نحو الموت، وفاز بالشهادة السعداء منهم

جُنَّتِ النَّخْوَةُ قَحطانِيَّةً وَهْيَ عَزْلاءُ، وجُنَّ الأَقْوِياءْ

النخوة اشتعلت في النفوس وكانت قحطانية عزلاء غير مسلحة، وجن الفرنسيون من هذه الشجاعة (والأمويون عدنانيون قرشيون، ولكن الغساسنة الذين حكموا الشام في الجاهلية يمنيون قحطانيون)

عُنْفُ باريسَ شَجاني أَمْرُهُ بِدْعَةُ الأَقْدارِ عُنْفُ الجُبَناءْ

أحزنني وأربكني عنف الفرنسيين، وإنها لإحدى غرائب القدر أن يكون الجبان عنيفاً

٦ بدعة الذل ١٩٥٠

في الذكرى الخامسة عشرة لوفاة المناضل إبراهيم هنانو

مُحِيَتْ أَشْهُرُ الرَّبيعِ، فَلا أَيَّـ ـارُ مِن دَهرِنا ولا نِيسانُ

أيار: مايو، نيسان: أبريل

لا شَقيقُ النُّعمانِ في غُوطَةِ الشَّا مِ، ولا عِطْرُهُ ولا النُّعْمانُ

لم يعد ثم في غوطة الشام شقائق النعمان ولا عطرها ولا النعمان نفسه (وكان من ملوك الغساسنة في الشام النعمان بن المنذر، وكان عند المناذرة في العراق النعمان بن المنذر أيضاً. . فتأمل) وبالمناسبة فشقائق النعمان لها رائحة بغيضة وزوالها من المستحبات، لكن الشاعر ظن أن قراءه ومستمعيه لم يشموا الشقائق في حياتهم

يَعرِفُ الفَجرُ أنَّ دَمْعِيَ أَصْفَى مِن نَداهُ، ويَعرِفُ الرَّيْحانُ

تَعْرِفُ الرَّاحُ أنَّ دَمْعِي سُلافٌ وجُفُوني كُؤوسُها والدِّنانُ

السلاف: أجود الخمر، والدنان: خوابي الخمر الكبيرة

أنـا أَبْـكـيِ لِـلَّـيْـلِ أَوْحَـشَـهُ الـبَـدْ ـرُ، ولِـلْـقـلْـبِ هَـدَّهُ الـحِـرمـانُ

أبكي لليل وقد أوحشه غياب البدر، وللقلب وقد أثقله الحرمان

أنـا أَبكـيِ لِلْهَـمِّ يَـأْوِي إلى القلـ ـبِ، فَيقْسُو على الغَرِيبِ الـمَكانُ

أنـا أَرثـيِ لِـلْـمُـتْـرَفِـيـنَ فـمـا يُـبْـ ـدِعُ إِلَّا الـشَّـقـاءُ والأَحْـزانُ

أرثي لحال الأغنياء السعداء! نعم، لأن الإبداع لا يأتي إلَّا ممن يعانون الشقاء والحزن. فـ/ مساكين الأغنياء

وأنـا الـمُـتْـرَفُ الأَنـيـقُ، ولـكِـنْ تَـرَفـيِ صـاغَ فَـنَّـهُ الـرَّحـمـنُ

لكنني مترف وغني ـ وكان شاعرنا كذلك فعلاً ـ لكن ترفي مختلف.. إنه من صنع الله

أنـا أَبْـكـيِ لِـكُـلِّ قَـيْـدٍ، فَـأَبـكـيِ لِـقَـرِيـضـيِ تَـغُـلُّـهُ الأَوْزانُ

أبكي لكل تقييد للحرية، حتى للشعر لأن الوزن يقيده

وهُـمُـومـيِ مُـعَـطَّـراتٌ، عـلـيـهـا مِـن شَـبـابـيِ الـطُّـمُـوحُ والـرَّيْـعـانُ

همومي هموم الشاعر المحلق فهي معطرة، وشبابي يضفي عليها طموحاً وريعاناً، والريعان أول الشباب

لـم أَضِقْ بالـهُـمومِ قلباً، وهل ضَا قَ بِـشَـتَّـى عُـطـورِهِ الـبُـسـتـانُ

والهُمومُ الحِسانُ تفعلُ في الأَنْـ ـفُسِ ما تفعلُ الغَواني الحِسانُ

الهموم تبعث الشعر والفن، وتفعل في النفس ما يفعله جمال الجميلات من توق وشوق وغيظ وحنين، ومن حسد لأزواج أولئك الجميلات

وأنـا الـوالِـدُ الـرَّحـيـمُ، وأَبـنـا ئـيِ هُـمـومُ الـحـيـاةِ والأَشْـجـانُ

عَقَّنـيِ الأَقْـرَبـونَ في غَـمْـرَةِ الـخَـطْـ ـبِ، وعَـقَّ الـلِّـدَاتُ والإِخْـوانُ

اللدات: الأقران والأصحاب

سوفَ يُمليِ التَّاريخُ عَنِّيَ ما يُمْـ ـلـيِ، فَتَخْزَى بِظُلْـمِـيَ الأَوْطانُ

سيسجل التاريخ قصتي وسيصيب الخزي وطني الذي ظلمني

أيـنَ حُـرِّيَّـتـيِ؟ فـلـم يَـبْـقَ حُـرّاً مِـنْ جَـهِـيـرِ الـنِّـداءِ إِلَّا الأَذانُ

كانت سورية وقت إلقاء القصيدة، في نوفمبر تشرين الثاني ١٩٥٠، قد خرجت من انقلابي حسني الزعيم فسامي الحناوي، وآل الحكم إلى الرئيس هاشم الأتاسي.. ويصف الشاعر تلك الفترة بأنها فترة تقييد للحريات، فلم يكن مسموحاً بأي نداء سوى الأذان

نحنُ تاريخُ هذهِ الأُمَّةِ الفَخْـ ـمُ، ونحنُ المكانُ والسُّكَّانُ
تَخْجَلُ الخيلُ بِالذَّليلِ اذا صا لَتْ، ويَشقَى سَرْجٌ ويَشكُو عِنانُ
يَتَلَوَّى على الحِبالِ فُنوناً أَوَزيرٌ في الدَّسْتَ أم بَهْلَوانُ؟

الذليل يتلوى وهو يمسك بحبل الحصان ويتفنن في التيه، فهل هو وزير في دست الحكم، أي مجلسه، أم بهلوان؟ وكان حسني الزعيم صاحب أول انقلاب، ١٩٤٩، يفاخر بأنه ألغى حكم العائلات الإقطاعية.. وشاعرنا كان من قبل وزيراً، في أكثر من حكومة، عن عائلة إقطاعية في عهد الاحتلال الفرنسي

أَنِسُوا مِنه بِالنُّعُومَةِ واللِّيـ ـنِ، ولا بِدْعَ، إنَّه أُفْعُوانُ

أنس الوزراء بنعومة ولين الرئيس المدني هاشم الأتاسي.. لا عجب فهو أفعوان

ليس خَلْفَ البُرودِ إلَّا هَباءٌ فاحْكُمِ الناسَ أيُّها الطَّيْلَسانُ

خلف برود، ثياب، الرئيس المدني هباء.. فهو مفرغ من القيمة السياسية ـ ذلك أن العسكر سلموه الحكم تسليماً وحكموا من ورائه ـ حسناً.. احكمي الناس أيتها البذلة

لا يُهِينُ الشعوبَ إلَّا رِضاها رَضِيَ الناسُ بالهوانِ فَهَانوا

التسويد للشاعر الصديق عمران القفيني

بِدعةُ الذُّلِّ حين لا يذكُرُ الإنـ ـسانُ في الشامِ أنهُ إنسانُ
أنتَ أَقْوَى مِن المنايا وأقوى مِن أذَى الدهرِ فاسْتَفِقْ يا هَنانُو

يهيب بالمناضل إبراهيم هنانو الذي مات قبل خمس عشرة سنة أن يصحو ليواجه الحكام الحاليين

٧ نم بقلبي

في ذكرى سعد الله الجابري

نَمْ بِقَلْبِي، ولو قَدَرْتُ مَنَعْتُ الـ ـقلبَ، حتَّى تَقَرَّ فيهِ، الخُفُوقا

نم في قلبي أيها المناضل، سعد الله الجابري، ولو استطعت لمنعت قلبي من الخفقان حتى تستقر فيه مرتاحاً

نَمْ بِعَيْنِي، فقد فَرَشْتُ لكَ الأَحـ ـلامَ، مُخْضَلَّةَ الوُرودِ، طَرِيقا

نم في عيني، وقد فرشت فيها لك طريقاً من الأحلام وعلى جانبيه الورود المخضلة، النديّة

إنَّ قَلبِي خَمِيلَةٌ تُنْبِتُ الأَحـ ـزانَ: وَرْداً ونَرْجِساً وشَقِيقا

خميلة: بستان

أنا والهَمُّ، كُلَّما أقْبَلَ الهَمُّـ ... مَشُوقٌ يَلقَى أخاهُ المَشُوقا

سَكِرَ الشِّعْرُ مِن سُلافي، وعَبَّتْ ... مِن دِناني فَجُنَّتِ المُوسِيقا

لا تَلُمْنا إذا تَركْنا المَياديـ ... ـنَ سُمُوّاً بِحَقِّنا وَوُثُوقا

لا تلمنا، أيها المرحوم سعد الله الجابري، إذ ترانا تركنا ميدان السياسة مترفعين عارفين قدر أنفسنا

فالأصيلُ العَتيقُ يَأْنَفُ شَوْطاً ... لم يُشَاهِدْ فيهِ أصيلاً عَتيقا

فالحصان العتيق، الأصيل، يأنف الشوط، الحلبة، الذي لم يشاهد فيه حصاناً أصيلاً مثله

ذَلَّ شَوْطٌ يكونُ بينَ البَراذيـ ... ـنِ، فلا سابِقاً ولا مَسْبُوقا

وذليل هو ذلك المضمار، وتلك الحلبة، حيث البراذين، البغال، فلا سابق ولا مسبوق في مثل هذا المضمار بل هو مرتع للبغال

لم تُحَمْحِمْ تَختالُ بِالحُسْنِ والقُوَّ ... ةِ، بل حَمْحَمَتْ تُريدُ العَليقا

والبغال لا تصدر صوت الحمحمة، الصهيل الخفيف، تيهاً بجمالها وقوتها، بل هي تطلب به العليق، العلف

ما نَزلْنا عنِ السُّروجِ عَياءً ... لو رَكِبْنا لَما أطاقُوا اللُّحُوقا

لم ننزل عن السروج، ولم نترك العمل السياسي، إرهاقاً.. ولو مارسناه لما لحقَنا أحد في ميادينه

سُدَّةُ الحكمِ بعدَ آسادِ خَفَّا ... نَ تَضُمُّ الأحلافَ شَاءً ونُوقا

فعلى سدة الحكم الآن ـ بعد انقضاء زمن أُسود منطقة خَفَّان ـ أحلاف من الشياه والنياق

أَبْطَرَ الحَاقِدينَ حِلْمُ أبي حَسَّـ ... ـانَ، والحِلْمُ أنْ تُقيلَ الصَّديقا

والرئيس أبو حسان ـ شكري القوّتلي ـ قد دلل الحاقدين حتى بطروا وأنكروا النعمة، وعلينا أن نكون حليمين فنغض عن خطإه

إنَّ عُنفَ العِتابِ يُؤْذي أحِبَّا ... يَ، وأحْلاهُ ما يَكونُ رَقيقا

جَمْرَةُ الحِقدِ في السَّرائِرِ لولا ... ذُلُّ أصحابِها لَشَبَّتْ حَريقا

الحقد كالجمرة في سرائر الحاقدين، أي ضمائرهم، ولولا ذلتهم لشب حريق من هذه الجمرة

قد أَرَقْنا دِماءَنا فَسَلُوهُ ... أيُّ دَمْعٍ مِن مُقْلَتَيْهِ أُريقا

حَمَّلُوهُ ما لا يُطيقُ، وكانَتْ ... بِدْعَةً تُخْجِلُ العُلَى أنْ يُطيقا

لقد حملوا الرئيس المضعوف أكثر من طاقته، ولو كان يُطيق التصدي لكان ذلك بدعة لا ترضى بها المعالي، فهو ليس أهلاً

دَعْكَ مِن زَحْمَةِ العَواصِفِ واتْرُكْ لِلعُقابِ السَّماءَ والتَّحليقا
خَلَقَ اللَّهُ لِلعَظائِمِ والمَجْـ ـدِ فَريقاً، ولِلصِّغارِ فَريقا

الصغار: الحقارة. أهذا هو العتاب «الرقيق» يا شاعرنا؟

٨ يا وحشة الثأر

في تتويج فيصل الثاني على العراق ١٩٥٣

أَيَطْمَعُ الشعرُ بِالإحسانِ يَغمُرُهُ والشعرُ يَغمُرُ دنيا اللَّهِ إحسانا

لا يطمع الشعر ولا الشاعر بإحسان الناس، فالشعر يغمر الدنيا إحساناً. يريد الشاعر أن يقول إنه يصدح في مناسبة تتويج فيصل الثاني، وقد بلغ الثامنة عشرة، لا لأجل المال بل لتعلقه بإرث الهاشميين

لو شاءَ أَنزَلَ بَدرَ التِّمِّ فاحتَفَلَتْ بهِ النَّدامَى سِراجاً في زَوايانا

لو شاء الشعر لأنزل البدر عند تمامه لكي يكون مجرد سراج في الزاوية يحتفي به السمار. بيت جميل كالذي قبله.. ولكننا نقف وقفة نقلد فيها النقاد القدامى: ما أوقحك أيها الشاعر، تقول شعراً في ملك لم يكد يعتدل التاج على رأسه، وتفجؤه بصورة البدر نازلاً وقاعداً في زاوية؟ سبقت المتنبي في الوقاحة عندما كان أول بيت قاله في مدح كافور: كفى بك داء أن ترى الموت شافيا، وسبقت جريراً في قوله لعبد الملك: أتصحو؟ بل فؤادك غير صاح. وعذر الشاعرين القديمين مبسوط متاح: فكلاهما تكلم عن أحزان قلبه. وأنت ذهبت بك الكبرياء كل مذهب.. ثم رحت تجدف. انتظر التجديف في الأبيات اللاحقة

نُشارِكُ اللَّهَ، جَلَّ اللَّهُ، قُدرَتَهُ ولا نَضيقُ بها خَلقاً وإتْقانا
وأينَ إنسانُهُ المصنُوعُ مِن حَمَأٍ مِمَّنْ خَلقْناهُ أَطْياباً وأَلحانا!

يقارن بين الإنسان الذي خلقه الله من حمأ، طين، وبين الشعر الذي يخلقه الشاعر من الطيب والألحان

يا خالِقَ القلبِ! أَبْدَعْنا صَبابَتَهُ يا خَالِقَ الحُسْنِ! أَبْدَعْناهُ أَلوَانا

يخاطب الله ﷻ: يا من خلق القلب! نحن الشعراء أبدعنا للقلب الصبابة، العشق؛ ويا من خلق الجمال! نحن جعلناه ألواناً شتى بخيالاتنا

نُشارِكُ الناسَ بَلواهُمْ وإِنْ بَعُدُوا ولا نُشارِكُ أَدناهُمْ بِبَلوَانا

يفتخر الشاعر: نحن الشعراء نشارك الناس في أحزانهم ولو بعُدوا، ولا نشاركهم في أحزاننا نحن وإن قرُبوا

ضَمَّتْ مَحَبَّتُنا الأَشتاتَ واتَّسَعَتْ تَحنُو على الكونِ أجناساً وأديانا

ستنطوي الجَنَّةُ النَّشْوى فلا مَلَكاً   ولا نَعيماً ولا حُوراً وَوِلْدانا

لن تبقى الجنة المنتشية بالفرح، فلا ملائكة ولا نعيم ولا حور ولا ولدان

يَفنَى الجميعُ، ويبقَى اللَّهُ مُنْفَرِداً   فلا أنيسَ لِنورِ اللَّهِ لَوْلانا

ويبقى الله.. والذي يعبّر عن نور الله هم الشعراء

يا صاحِبَ التَّاجِ! دنيا اللَّهِ ما عَرَفَتْ   إِلَّا عَمائِمَكُمْ في الشرقِ تيجَانا

هذا مدح خالص: يا فيصل الثاني! التيجان الحقيقية في الشرق هي عمائم آل هاشم

أَصْفَيْتُ آلَ رسولِ اللَّهِ عاطِفَتي   وكنتُ شاعِرَكُمْ نُعْمى وأحزانا

ومـا رَضيتُ جَزاءً في مودَّتِكُمْ   لا يَعْدِمُ الحرُّ أَقْواتاً وأَكْفانا

لم أقبل بمكافأة على حبي لكم، والحر لن يموت من جوع، وإن مات لم يعدم الكفن

وأُكْرِمُ العيدَ عن عَتْبٍ هَمَمْتُ بهِ   لو شئتُ أوسَعْتُهُ جَهراً وتِبيانا

وسأكرم بهذه المناسبة بعدم ذكر عتاب كنت نويت أن أبوح به، ولو شئت لجهرت به.. وكانت الأسرة الهاشمية تحكم الأردن، وضاعت فلسطين ولم تنقذها جيوش العراق والأردن وغيرها من الدول العربية، وكان عبد الله الأول بن الحسين ملك الأردن وقت ضياع فلسطين القائد العام للجيوش العربية، وعبد الله أخو جد فيصل الثاني الممدوح

قد اسْتَرَدَّ السَّبايا كُلُّ منهَزِمٍ   لم تَبقَ في رِقِّها إلَّا سبايانا

وما لَمَحْتُ سِياطَ الظلمِ دَامِيةً   إلَّا عَرَفْتُ عليها لَحْمَ أَسْرانا

ولا نَموتُ على حَدِّ الظُّبا أَنَفاً   حتى لقد خَجِلَتْ مِنَّا منايانا

الظبا: شفرات السيوف

يا وَحْشَةَ الثَّأْرِ لم يَنْهَدْ له أَحَدٌ   فاستَنْجَدَ الثَّأْرُ أَجْداثاً وأَكْفانا

الثأر لنكبة فلسطين يشعر بالوحشة لأنه لم ينهد، ينهض، أحد للأخذ به، فراح الثأر يستنجد التاريخ القديم

٩ الحدود المصطنعة

يا بُناةَ الحدودِ لا تعرفُ الصحـ   ـراءُ في زَحمَةِ الأعاصيرِ حدًّا

وكانت الحدود، والقصيدة بنت عام ١٩٣٩، قد أصبحت راسخة بين الشام والعراق

١٠ ولا أعدُّ الشمس!

كــافُــورُ قــد جُــنَّ الــزَّمــانُ وإلــيــكَ آلَ الــصَّــوْلَــجــانُ

هذه القصيدة في هجاء جمال عبد الناصر، يشبهه الشاعر بكافور الإخشيدي. وكان بدوي الجبل من أشد معارضي الوحدة بين سورية ومصر عام ١٩٥٨

الــهــاشِــمــيُّــونَ انْــطَــوَوْا وأُمَــيَّــةٌ كــانُــوا فَــبَــانُــوا

بانوا: ابتعدوا

كــافُــورُ جَــمِّــعْ حــولَ عَــرْ شِــكَ كــلَّ مَــنْ حَــقَــدُوا وهــانُــوا

هانوا: ذَلُّوا

حَــــرِّكْ دُمــــاكَ فــــإنْ أَرَدْ تَ قَــسَــوْا، وإنْ آثَــرْتَ لانُــوا

حرك دماك، جمع دمية، فهم ينفذون أوامرك. وكان عبد الناصر قد جعل عبد الحميد السراج السوري يدَه اليمنى في سورية، وكان قاسياً، وحدث أن طلب إليه عبد الناصر مرة أن يخفف قبضته، ثم بعد ذلك جعل فوقه عبد الحكيم عامر.. فكان في تعيينه الإسراع في خراب الوحدة

الــنَّــاعِــمُــونَ عــلــى الــيَــهُــو دِ، عــلــى رَعِــيَّــتِــكَ الــخِــشَــانُ

أَشْبَــعْــتَ بِــالــخُــطَــبِ الــجــيــا عَ، فــكُــلُّ هــادِرَةٍ خِــوانُ

أشبعت بخطبك الجائعين! يهزأ. فكل خطبة هادرة صاخبة بمثابة خِوان، مائدة

اِلــحَــنْ وكَــرِّرْ مــا تَــشــا ءُ فــإِنَّــهــا الــخُــطَــبُ الــحِــســانُ

وكان عبد الناصر يخطب بالعامية في مصر وبالفصحى في الشام وكان غير بعيد عن الخطأ النحوي

كــافُــورُ قــد عَــنَــتِ الــوجُــو هُ فــكــيــفَ لا يَــعْــنُــو الــبَــيــانُ؟

عنت الوجوه، خضعت، وبالتالي خضع البيان، خضع الشعر والأدب والإعلام

هَــمَــدَتْ حَــمِــيَّــتُــنــا عــلــى الــ ـجُــلَّــى، ومَــاتَ الــعُــنْــفُــوانُ

خمدت حماستنا للجلى، لعظائم الأمور، ولم يعد فينا عنفوان

والــذُّلُّ أَطْــيــابُ الــعَــبِــيـ ـدِ، فَــمــا الــبَــخُــورُ ومــا الــلِّــبــانُ؟

العبيد يَستحسن منهم سادتهم أن يكونوا أذلاء، فهذا هو عطرهم، لا البخور ولا اللبان العطري

والــظــلْــمُ مِــن طَــبْــعِ الــجــبــا نِ، وكــلُّ طــاغِــيَــةٍ جــبــانُ

أَمُــمَــزِّقَ الأَرْحــامِ! لا يُــبْــنَــى عــلــى الــحِــقْــدِ الــكِــيــانُ

والــشَّــتْــمُ مِــنْ آلاتِ نَــصــ ـرِكَ، لا الـضِّرابُ ولا الـطِّـعَـانُ

كان الإعلام المصري يستخدم السخرية والألفاظ الرديئة لإسقاط بعض الزعماء العرب في أعين شعوبهم.. مثال: «حسين بن زين» لملك الأردن، و«شخبوط بن لخبوط» لأمير أبو ظبي سلف زايد بن سلطان

مَــن أنــتَ؟ عــاصِــفَــةٌ وتــذ هَـبُ مِـثـلَـمـا انـقَـشَـعَ الـدُّخَـانُ

مَـن أنـتَ؟ لـولا صَـوْلُـة الـطُّـ ـغـيــانِ؛ أنــتَ إذنْ فُــلانُ

كــافُــورُ عــرشُــكَ لِـلـفـنـا ءِ، ورُبَّـــمـــا آنَ الأوَانُ

اَلـــخـــالِـــدانِ، ولا أُعُـــدُّ الـشَّـمـسَ، شِـعـريَ والـزَّمـانُ

فالشمس ليست خالدة.. فقط شعر بدوي الجبل والزمان

١١ فرعون عاد

فِـرعَـوْنُ عـادَ فـكـيـفَ كـيـ ـفَ، وقـد عَـصَـفْـتَ بِـهِ يَـعـودُ؟

فرعون القديم قد عاد لمصر في صورة جمال عبد الناصر، فكيف يا رب يعود بعد أن عصفت به وأغرقته؟ القصيدة تعود لسنة ١٩٦٦

أَرضُ الـكِـنـانَـةِ مـا بـهـا إلَّا الـمُـتَـوَّجُ والـعَـبـيـدُ

يـا قـاتِـلاً بِـأَخٍ أخـا هُ، كـلا قَـتـيـلَـيْـكَ الـشَّـهـيـدُ

كِـدْ لِـلـنَّـبِـيِّ ودِيـنِـهِ الـلَّـهُ فـوقَـكَ إذْ تَـكـيـدُ

بـادَ الـطُّـغَـاةُ جَـمـيـعُـهُـمْ أمَّـا الـشـعـوبُ فـلا تَـبـيـدُ

١٢ عاد الغريب

نظمها وقد عاد من غربة قسرية

تَحنُو على اليأسِ في قلبي فتَغْمُرُهُ نُوراً، وتُبدِعُ فيه الصبرَ والجَلَدا

يتغزل بامرأة فهي تحنو على قلبه وتزوده بالجلد، أي الصبر

حُـورِيَّـةٌ طـافَ جِـبـريـلٌ بِـجَـنَّـتِـهِ يـريـدُ نِـدّاً لِـريَّـاهـا فـمـا وَجَـدا

طاف جبريل بالجنة يبحث عن حورية تكون مساوية في رياها، عطرها، لهذه المرأة فما وجد

يَسـومُـنـا الصَّـنـمُ الطاغي عِـبادتَـه لـن تَـعبُـدَ الشـامُ إلَّا الواحدَ الأَحَـدا

يهجو عبد الناصر بعد فض الوحدة بين مصر وسورية

وجهُ الشَّآمِ، الذي رَقَّتْ بَشاشَتُهُ   مِنَ النعيمِ، لِغيرِ اللَّهِ ما سَجَدا
جَهْدُ العُفاةِ مِنَ العُمَّالِ جِزْيَتُهُ   وكلُّ ما قَطَفَ الفلَّاحُ أو حَصَدا

جهد العفاة، الفقراء، من العمال يذهب كأنه الجزية، وكذا محصول الفلاح

هذا المُدِلُّ على الدُّنيا بِصَوْلَتِهِ   ما صالَ إلَّا على قَومِي ولا حَشَدا

هذا المزهو بصولته، قوته، لا يصول ولا يحشد قوته إلا على قومي

١٣ الاختصار

جنيف ١٩٦٣

قد اختُصِرَتْ دنيا بِقلبي وعَالَمٌ   كما اختَصَرَ العِلمَ الشَّتيتَ رَقيمُ

هذه الفاتنة اختصرت الدنيا ووضعتها في قلبي العاشق، مثلما يختصر الرقيم، الكتاب، العلم الشتيت، أي المفرق، بين صفحاته

وتُوجَزُ في قارُورَةِ العِطرِ رَوضَةٌ   وتوجَزُ في كأسِ الرَّحيقِ كُرومُ

هذا مثلما تجتمع خلاصة البستان في قارورة عطر، ومثلما يجتمع في كأس الرحيق، أي الخمر، كروم العنب

وأُعْرِضُ إعراضَ الخَلِيِّ مِن الهوى   وبي مِن هواها مُقْعِدٌ ومُقيمُ

أعرض عنها كأنني خلي، خالي القلب من العشق، ولكن هواها يقيمني ويقعدني قلقاً وانشغالاً

١٤ النكسة ١٩٦٧

أيُّها المُستَعيرُ أَلْفَ عَتادٍ   لِأَعاديكَ كلُّ ما تَستَعيرُ
اَلقِلاعُ المُحَصَّناتُ، إذا الجُبـ   ـنُ حَماها، خَوَرْنَقٌ وسَديرُ

القلاع الحصينة تصبح مجرد قصور، مثل الخورنق والسدير قصري المناذرة في العراق، إذا كانت في حماية الجبان

لم يُعانِ الوَغى لِواءٌ ولا عا   نى فريقٌ أهوالَها ومُشيرُ

لم يذق أصحاب الرتب العسكرية الكبيرة أهوال الحرب

رُتَبٌ صَنْعَةُ الدَّواوينِ ما شا   رَكَ فيها قُرُّ الوَغى والهَجيرُ

هذه الرتب لم تصنع في الميدان بل في مكاتب الحكم، ولم يشارك في صنعها القر، البرد، والهجير، الحر، في ميدان القتال

وتَطيرُ النُّسورُ في زَحمَةِ النَّجْـ ـمِ، وفـي عُـشِّـهِ الـبُـغـاثُ يَـطـيـرُ

النسور تطير عالياً حتى لتزاحم النجوم، وأما البغاث، الطيور الضعيفة، فتحوم حول أعشاشها

جَـبُـنَ الـقـادَةُ الـكـبـارُ وفَـرُّوا وبَـكَـى لِـلـفِـرارِ جَـيْـشٌ جَـسُـورُ

هُزِمَ الحاكِمونَ والشَّعْبُ في الأَصْـ ـفادِ، فالحُكْمُ وحدَهُ المَكسُورُ

الأصفاد: القيود

نحن أَسرَى، ولو شَمَسْنا على القَيْـ ـدِ لَـمـا نـالَـنـا الـعَـدُوُّ الـمُـغـيـرُ

شمسنا: تمردنا

لا تُشَقُّ الجُيوبُ في مِحْنَةِ القُد سِ، ولـكـنَّـهـا تُـشَـقُّ الـصُّـدورُ

لن يَعيشَ الغازي وفي الأَنْفُسِ الحِقْـ ـدُ عليهِ، وفي النُّفوسِ السَّعيرُ

أَشْـتِـراكِـيَّـةٌ! وكَـنْـزٌ مِـنَ الـدُّرِّ وَزَهْــوٌ ومِــنـبَــرٌ وسَــريــرُ؟

أتدَّعون الاشتراكية، وعندكم الكنوز، وفيكم التكبر ومنابر الخطب الحماسية وسرير الحكم، أي العرش؟

أَشْـتِـراكِـيَّـةٌ! فـإنْ مَـرَّ طَـاغٍ صُـفَّ جُـنـدٌ لـه ودَوَّى نَـفـيـرُ؟

أتدَّعون الاشتراكية، فإن مر حاكم ظالم اصطف له الجنود ودوى له النفير، البوق؟

لِصِغارِ النُّفوسِ كانتْ صَغيرا تُ الأَماني، ولِلخَطيرِ الخَطيرُ

يَنْدُرُ المجدُ، والدُّروبُ إلى المجـ ـدِ صِـعـابٌ، ويَـكْـثُـرُ الـتَّـزْويـرُ

المجد عملة نادرة، وطريقه صعب، وما أكثر من يزور أفعالاً لم يفعلها لنيل مجد وهمي

كيف يَغشَى الوغَى ويَظْفَرُ فيها حـاكِـمٌ مُـتْـرَفٌ وشَـعْـبٌ فـقـيـرُ

مِـحْـنـةُ الـعُـرْبِ: أُمَّـةٌ لـم تُـهـادِنْ فـاتِـحـيـهـا، وحَـاكِـمٌ مَـأْجُـورُ

العرب ثاروا على المحتلين، ولكن الحكام كانوا مأجورين للأجانب

لا يَـقـودُ الـشـعـوبَ ظُـلْـمٌ وفـقـرٌ وسِـبـابٌ مُـكَـرَّرٌ مَـسْـعُـورُ

الظلم والفقر والردح الإعلامي المسعور لا تقود الشعوب

كـل حُـكْـمٍ لـه، وإنْ طَـالَـتِ الأَيَّـ ـامُ، يَـومـانِ: أَوَّلٌ وأَخـيـرُ

ما آنق هذا البيت

كُلُّ طاغٍ مهما استبَدَّ ضَعيفٌ كُلُّ شعبٍ مهما اسْتَكانَ قديرُ

وَهَبَ اللّهُ بعضَ أسمائِهِ لِلشَّـ ـعبِ، فَهْوَ القَديرُ وَهْوَ الغَفورُ

١٥ قومية الأساطير

في رثاء رياض الصلح ١٩٥٢

ما لِأَمجادِنا وما لِعَبيدِ اَلأساطِيرُ مَجدُهُمْ والطُّلُولُ

ما أكبر الفرق بين أمجادنا وبين «أمجاد» الحكام التي هي مجرد أساطير وأطلال خربة، هي عبارة عن الافتخار بالماضي

بِئسَ قَومِيَّةٌ يُؤرِّخُها الظَّنُّ ويَبني أَحسابَها التَّأويلُ

ما أسوأ القومية المستندة إلى الظنون، والتأويلات

غُوطَةَ الشامِ! هل شَجاكِ بَيانٌ مِن قَريضي كأنَّهُ التَّنزيلُ

هل أحزنك أيتها الشام بياني الشعري الذي يشبه التنزيل، الرسالة الإلهية

وعِتابٌ كالجَمْرِ صُنْتُكِ عنهُ جَزَعاً أن يَنالَ منكِ عَذُولُ

وثمة عتاب حار كالجمر، وقد حميتك منه خشية أن يقدح فيك اللائمون

أَيْسَرُ الجُهْدِ أَنْ تَضِجِّي وتَشْكي قد يَرُجُّ الطُّغيانَ قالٌ وقيلُ

أبسط ما يمكنك يا سورية أن تحتجي وترفعي الصوت، فلعل ضجيج الاحتجاج يرج الطغيان

واعذِري الهامِسينَ خَوفاً فما يهَـ ـدِرُ عندَ الصِّيالِ إلَّا الفُحولُ

والتمسي العذر لمن يهمسون همساً.. فهم ليسوا أهلاً للتصدي، ولا يهدر بصوت عال في الصيال، الهجوم، إلا الفحول

١٦ غربة الروح

في رثاء فارس الخوري ١٩٦٢

جَلَّ شِعري، أَقيهِ بِالرُّوحِ مِنْ كُلِّ هَوانٍ، والشِّعْرُ كَالعِرْضِ يُوقَى

لم يَضِقْ بِالعَدُوِّ حِلمي وغُفرا نِي، وأَفْدي بِمُقْلَتَيَّ الصَّديقا

أغفر حتى للعدو، وأما الصديق فأفديه بعينيّ

يا قُبورَ اللِّداتِ: كلُّ شَقيقٍ حاضِنٌ في الثَّرى أَخاهُ الشَّقيقا

اللدات: الأقران، الأصحاب

وَسِعَتْ هذهِ القُبورُ فُؤادي كيفَ تَشكُو، وَهْيَ السَّماوَاتُ، ضِيقا

كيف لا تُنْبِتُ الرَّياحِينَ والشَّو   قَ، وقلبي على ثَراها أُريقا
إن عَتَبْنا على الكِنانَةِ إدْلا   لاً فقد يُعْتِبُ الصديقُ الصديقا

لئن عتبنا على الكنانة، أي مصر، إدلالاً، محبة واجتراء، فقد يُعتب الصديق صديقه، أي يُرضيه

وَهَبَتْنا فِرعَوْنَها وَوَهَبْنا   ها، على العُسْرِ، يُوسُفَ الصِّدِّيقا

وهبتنا مصر فرعونها، ووهبناها رغم فقرنا يوسف الصديق.. والقصيدة قيلت بعد أشهر من انفصام الوحدة بين سورية ومصر، وكان رئيس دولة الوحدة عبد الناصر، الذي يصفه الشاعر بفرعون وكافور

كيف يَشْري العَبيدَ كافُورُ بِالما   لِ، وكافُورُ كان عَبْداً رَقيقا
ما لِقَومي غالَ الحِمامُ فريقاً   مِنْهُمُ، والعُقوقُ غالَ فَريقا

الموت غال، انتاب، بعض قومي، والعقوق انتاب بعضهم

نحن كُنَّا الزِّلزَالَ نَعصِفُ بِالشَّرْ   قِ، نَرُجُّ الشعوبَ حتى تُفيقا
فابْتَدَعْنا مِنَ الرُّؤى واقِعَ الحَقِّـ   ومِنْ غَمْرَةِ الظلامِ البَريقا

هذا في زمن الفينيقيين، وفي زمن الرسالات السماوية

يا رَئيسي مِن أربَعينَ زَحَمْنا   ها إباءً مُرّاً وبأُساً حَنيقا

يا رئيسي فارس الخوري، وكان الشاعر وزيراً في أكثر من حكومة رئيسها فارس الخوري، لقد ملأنا الدنيا برفضنا الاحتلال وبالغضب والبأس، أي القوة، من أربعين عاماً

يَرِدُ الخَطْبُ منكَ قلباً سَرِيّاً   وبَياناً عَفّاً ووجْهاً طَليقا

كانت تأتيك المصيبة فتجد قلبك سرياً، شريفاً، ولسانك عفيفاً، ووجهك طليقاً

مَنْ يَعُلُّ النَّدِيَّ بَعدَكَ بِالشَّهْـ   ـدِ المُصَفَّى ومَنْ يَسُدُّ الفُتوقا؟

من سيسقي النديَّ، أهل المجلس، بعدك بالكلام الحلو الذي كأنه العسل، ومن سيسد الفتوق، يحل المشاكل؟

١٧ المُجاهر

في حفلة ذكرى إبراهيم هنانو ١٩٤٥

وما أَكْبَرَتْ نفسي سوى الحقِّ قُوَّةً   وإن كان في الدنيا لها النَّهْيُ والأَمْرُ
وكنتُ إذا الطاغي رماني رميتُه   فلا نُصْرَتي هَمسٌ ولا غَضَبي سِرُّ
وأَحْمِلُ عن إخوانِيَ العُسْرَ هانِئاً   ويُبْعِدُني عنهُمْ إذا أَيْسَرُوا اليُسْرُ

تَلَفَّتُّ لا شَملي جَميعٌ، ولا الهوى قريبٌ، ولا فَرْعُ الصِّبا عَبِقٌ نَضِرُ

شملي جميع: أي ملموم ومجتمع

١٨ بكاء

إلى ابنته جهينة التي ماتت في صباها ١٩٥٨

طاحَ الزمانُ بِإخواني وأَوْرَدَهُمْ على الحُتوفِ، فلا عَيْنٌ ولا أَثَرُ

طوح الزمن بأصحابي، وجعلهم يردون حوض الموت، فلم يبق لا عين ولا أثر، لا شخص ولا أثر من آثاره

أصبحتُ بعدَهُمُ حيرانَ منفرداً والريحُ مُعْوِلَةٌ والليلُ مُعتَكِرُ

الريح معولة: تصفر صفيراً كأنه العويل، الليل معتكر: مظلم

أَحنُو على كلِّ قبرٍ مِن قبورِهِمُ أَبكيهِ، حتى بَكى مِن لَوعَتي الحَجَرُ

١٩ أمنية صعبة

في رثاء كامل مروة صاحب جريدة الحياة

ما لِلمنيَّةِ أَدعُوها وتَبتَعِدُ أَمَرُّ مِن كلِّ حَتْفٍ بعضُ ما أَجِدُ

أطلبُ الموت ويبتعد عني؛ وبعض الذي أجده، أي أعانيه، أمر من كل موت

ظَمآنُ أَشْهَدُ وِرْدَ الموتِ عن كَثَبٍ والوَارِدونَ أَحِبَّائي ولا أَرِدُ

أرى حوض الموت عن قرب، ويرده أحبائي ولا أرده

دَعَوْتُ خِدْنَيَّ مِن دَمعٍ ومِن جَلَدٍ فأَسعَفَ الدمعُ، لكنْ خانَني الجَلَدُ

ناديت صاحبيَّ، وهما الدمع والجلد، أي الصبر، فأسعفني الدمع فنزل، وخانني الصبر فلم أصبر

ورُبَّ شاكٍ فَسادَ العصرِ، يَظْلِمُهُ، لم يَفْسُدِ العصرُ، لكنْ أهلُهُ فَسَدُوا

٢٠ البحث عن اليقين

جِنانُ لُبنانَ حَسْبي منكِ وَارِفَةٌ فيها النَّدِيَّانِ مِن رَوْحٍ ورَيْحانِ

يا جنات لبنان يكفيني منك الأشجار الوارفة الممتدة الظل التي فيها الروح، النسيم، والريحان، وكلاهما طري نديّ

يُثيرُ بي كلُّ حُسْنٍ فِتنةً وهَوىً فما أَمُرُّ بِماءٍ غيرَ صَدْيانِ

كل حسن يثير فيَّ الفتنة والغرام، فلا أمر بنبع إلا وأجدُني صديان، عطشان. هو لا يرتوي من الجمال مهما تكاثف

قد صَوَّرَ الوَحْيُ أَلوانَ النَّعيمِ على مِثالِ ما فيكَ مِنْ حُسْنٍ وأَلْوانِ

الوحي، الذي جاء بالقرآن، وصف الجنة بمثل ما فيك يا لبنان من أنواع الجمال

وزادَ فيها خُلوداً ما عُنيتُ بِهِ أَشْهَى اللُّباناتِ، في حُكْمِ النُّهَى، الفاني

وزاد القرآن فجعل الجنة خالدة، ولستُ معنيّاً بالخلود لأن أشهى اللبانات، اللذائذ، في حكم العقل هي اللذائذ المؤقتة

لا يَعْذُبُ الوَصْلُ إلَّا أنْ يُخامِرَهُ خوفُ المُحِبِّينَ مِن نأْيٍ وهِجْرانِ

لا يكون الوصل عذباً إلا إذا خالطه خوف المحبين من البعد والهجران

ولا هَناءَ بِنُعْمى لا تَخافُ لها فَقْداً، ولا تُبْتَلَى منها بِحِرمانِ

لو يَعلمونَ مَناحِيَ النَّفْسِ ما خَلَعُوا ثوبَ الخُلودِ على نُعْمَى وأَحْزانِ

لو يعلمون خبايا النفس الإنسانية لما ألبسوا النعيم والجحيم ثوب الخلود

ما لِلخُلودِ وما لِلحُسْنِ يَزعُمُهُ هيهاتَ عُرِّيَ مِن حُسنٍ وإتْقانِ

الجمال الذي يزعم لنفسه الخلود يكون مسلوباً من روعته واكتماله

يُضْفي الجَمالَ على الأَيَّامِ مُقْتَدِرٌ مِن (التَّحَوُّلِ) ذو عِزٍّ وسُلطانِ

الذي يكسو الزمن جمالاً هو ذلك المقتدر الذي اسمه (التحول) فهو قوي عزيز

عَنا لهُ الكونُ مأخُوذاً بِفِتنَتِهِ مِن أَنْجُمٍ ومَكاناتٍ وأَزْمانِ

خضع الكون للتحول.. النجوم والأمكنة والأزمنة كل شيء يتحول ويتغير

وعاطِفاتٍ وأَرْواحٍ وأَخْيِلَةٍ تَغزُو الوُجودَ وآراءٍ وأَدْيانِ

وكذا يخضع للتحول العواطف والأرواح وثمرات العقول من أخيلة وآراء، وكذا الأديان

وربَّما فَقِهَتْ مِن أَمْرِهِ عَجَباً قبلَ الهُداةِ عصا مُوسى بْنِ عِمْرانِ

عصا موسى عرفت التحول قبل الهداة، الأنبياء.. فقد تحولت تلك العصا إلى أفعى

لِيُؤْمِنِ الناسُ ما شاءُوا بِرَبِّهِمُ فَبِالتَّحَوُّلِ بعدَ اللَّهِ إيماني

تَسمُو إلى أُفْقِهِ القُدْسِيِّ، طاهِرَةً طُهْرَ الدموعِ، تَسابيحي وأَلحاني

ترتفع إلى آفاق التحول المقدسة صلوات شاعرنا وألحانه

كَفَرْتُ بِالرُّوحِ بعدَ الرَّيْبِ آوِنَةً   وكانَ زُلْفى إلى نَجْواهُ كُفْراني

بعد أن كنت شاكاً بعض الوقت أنكرت وجود الروح، وكان كفري بالروح من بعض الزلفى، التقرب، إلى الله في مناجاتي له

وقَرَّبَ الناسُ ما شاءُوا لِمَذْبَحِهِ   وما تَقَبَّلَ مِنهُمْ غيرَ قُرباني

قرب الناس، قدموا القرابين، لله ولم يتقبل سوى قرباني أنا

أَعْلَنْتُ، حينَ أَسَرُّوا أَمْرَهُمْ فَرَقاً   يا بُعْدَ ما بينَ إِسْرارٍ وإِعْلانِ

فأنا كنت صريحاً بينما أخفى الناس أمرهم فرقاً، خوفاً، والفرق كبير بين من يجهر ومن يُسِرّ

إنَّ الخُلودَ وما تَرْوِي مَزاعِمُهُمْ   عنِ السَّعادَةِ في الأُخْرى نَقيضانِ

الخلود والسعادة في الأخرى، أي الآخرة، نقيضان

لا يَخْدَعُ اللَّهُ قوماً يُؤْمِنونَ بِهِ   فتِلْكَ خُدْعَةُ إنسانٍ لإنسانِ

الله لا يخدع من يؤمن به، لكن مسألة الخلود خدعة من إنسان لإنسان

جِنانُ رَبِّكَ في سِرِّ الخُلودِ غَدَتْ   وكُلُّ آوٍ إِليها رَازِحٌ وَانِ

من بعض أمر الخلود أن جنة الله تصبح وكل من يأوي إليها رازح، متعب، وانٍ، متثاقل كسلان

مَلَّ المُقيمونَ فيها مِن هَناءَتِهِمْ   كَما يَمَلُّ السَّقامَ المُدْنَفُ العاني

المقيم في الجنة يمل من السعادة مثلما يمل المدنف العاني، المريض الفقير

تَمضي العُصورُ عليْهِمْ وَهْيَ واحِدَةٌ   اليومُ كالأمْسِ فيها ضَاحِكٌ هَاني

الزمن واحد لا تغير فيه وكله سعادة وهناء.. يا للملل

ولا يُحِبُّونَ، لكنْ تِلكَ طَائِفَةٌ   مِن ماجِناتٍ خَليعاتٍ ومُجَّانِ

ليس في الجنة حب.. بل تفريغ شهوات

ولا يُناجُونَ في أَحْلامِهِمْ أَمَلاً   مُحَبَّباً بينَ إِنْكارٍ وإِيْقانِ

وأهل الجنة لا يحلمون بآمال يترقبونها بين إنكار لحدوثها وتأكد منه.. فليس في الجنة إلا اليقين المطلق

مِن كُلِّ مَن أَبْلَتِ الأَدْهارُ جِدَّتَهُ   فما يُحَرِّكُهُ تَدلِيلُ رِضْوانِ

وكل من فيها صار عتيقاً مع مرور الدهور، ولم يعد يحركه تدليل رضوان، خازن الجنة، له

يُنادِمُ الحُورَ، لكنْ غيرَ مُغْتَبِطٍ   ويَشربُ الرَّاحَ لكنْ غيرَ ظَمآنِ

لَوَدَّ في كلِّ مَا يُجْرِيهِ مِن عَسَلٍ   ومِن خُمورٍ ومِن دُرٍّ وعِقْيانِ

الدر: اللؤلؤ، العقيان: الذهب

هُنَيْهَةً مِن شَقاءٍ يَطمَئِنُّ بِها   إلى مُناجاةِ آلامٍ وأشْجانِ

يود نزيل الجنة لو حصل على لحظة شقاء

إذا تَذكَّرَ دُنياهُ هَفا وَلَعاً   إلى حبيبٍ وصَهْباءٍ ونُدْمانِ

يشتاق إلى الدنيا

وراحَ يبحثُ في المجهولِ عن أملٍ   وعن شَقاءٍ وعن أهلٍ وخُلّانِ

أمَّا الغَواني فَصَخْرٌ لا يُحَرِّكُها   نَجوَى مُحِبٍّ ولا تَدليلُ وَلْهانِ

نساء الجنة كالصخر الجامد

لا تَعرِفُ الحُبَّ إلّا مَحْضَ تَلْبيَةٍ   لِعابِرينَ مِن الأبْرارِ فِتيَانِ

فهن فقط يلبين طلبات ولبانات فتيان الجنة

ولا تَحِنُّ إلى رُوحٍ وعاطِفةٍ   فالحبُّ في مَلَكُوتِ اللَّهِ جُثْماني

حب هؤلاء الحور حب جسدي

مِن كُلِّ مُرْتَجَّةِ الأَرْدافِ حَالِيةٍ   بِالحُسْنِ أَخَّاذَةٍ بِالسِّحْرِ مِفتانِ

وكل منهن حالية، متحلية، بالجمال، ولها الأرداف المرتجة

خَبا لَهيبُ المُنَى في رُوحِها فَغَدَتْ   وحُسْنُها في جُلاهُ حُسْنُ أَوْثانِ

في جلاه: في حقيقته الظاهرة

جَنَى الخلودُ عليها فَهْيَ شاكِيَةٌ   إلى الأُنُوثَةِ ذاكَ الخائِنَ الجاني

تشكو حورية الجنة الخلود الذي جنى عليها وسلبها الروح

ولِلخُلودِ على أَهلِ الجَحيمِ يَدٌ   تُجْزَى معَ الدهرِ إحساناً بِإحسانِ

وللخلود يد، أي نعمة ومعروف، على أهل النار..

اَلكافِرونَ لِطولِ العَهْدِ قد أَلِفُوا   بِقاعِها نُضْجَ أرْواحٍ وأَبْدانِ

فهم لطول ما اعتادوا النار ألفوا في قاع الجحيم احتراق جلودهم وأرواحهم ونضجها

وقد تُزَفُّ بِها والحَفْلُ مُحْتَشِدٌ   سَجِينَةٌ مِن ضَحاياها لِسجَّانِ

قد تتزوج سجينة من سجينات الجحيم أحد السجانين

فأصْبَحَتْ وَهْيَ مِن ماءٍ ومِن مَدَرٍ   شَيطانَةً تَتَصَبَّى كلَّ شَيْطانِ

فبعد أن كانت إنسانة أصلها ماء ومدر، طين، صارت شيطانة تتصبى، وتغري، الشياطين

وربَّما صَحِبُوا فيها زَبانِيَةً ... بعدَ القِلَى إِلْفَ إخوانٍ لإِخْوَانِ

وقد تنعقد الصحبة بين نزلاء جهنم وبين الزبانية، حراسها، بعد القلى، العداوة

لا يَأْلَمُونَ ولا تَشْكُو جُسومُهُمُ ... مِنَ اللَّظَى، فَهْيِ نيرانٌ بِنيرانِ

يذهب الألم بعد طول معاشرة النار لأهل النار.. كلها نيران في نيران

مَليحَةَ الدَّلِّ مِن غَسَّانَ! لا بَلِيَتْ ... شَمائِلُ الصِّيدِ مِن أَقْيالِ غَسَّانِ

يا مليحة الدلال، أيتها الشامية من بنات الغساسنة! عاشت ولا بليت صفات الصيد، السادة، من أقيال، أي ملوك، غسان

أَتأْذَنينَ بِإِنْشادٍ، فما جُلِيَتْ ... إلَّا لِحُسْنِكِ أَشْعارِي وأَوْزاني

طَوَّفْتُ في هذه الدنيا على مَهَلٍ ... طَوافَ أَشْعَثَ مَاضِي العَزْمِ يَقْظانِ

تُظِلُّني مِصْرُ أَحياناً وآوِنَةً ... أُعاقِرُ الخَمْرَ في جَنَّاتِ بَغْدانِ

وقد صَحِبْتُ شعوبَ الأرضِ مِن عَرَبٍ ... شُمِّ الأُنوفِ إلى رُومٍ وكِلْدانِ

مُفَتِّشاً عن عَزاءِ النَّفْسِ، لا لَعِبي ... أَدَّى إليْهِ ولا حِلْمي وعِرْفاني

أطوف في الدنيا مفتشاً عن فرح لقلبي، فلم أحصل عليه لا من اللهو ولا من الحِلم والرصانة ولا من المعرفة

مُسائِلاً عنهُ، حتى قد عَيِيتُ بِهِ، ... إِرْثَ الفَلاسِفِ مِن هِنْدٍ ويُونانِ

فما رأَيْتُ لهُ عيْناً ولا أَثَراً ... ولا أفادَ طَوافي غيرَ خِذْلاني

ثم انْثَنَيْتُ ورَكْبي جِدُّ مُتَّئِدٍ ... مِن الوَنَى ورَفيقي جِدُّ حَيرانِ

ثم رجعت من بحثي عن الفرح وركبي، موكبي، متئد بطيء من الونى، التعب، ورفيقي حيران

والبيدُ أَوسَعُ مِن صدرِ الحليمِ مَدىً ... ولِلسَّرابِ بِها آلافُ غُدْرانِ

الصحراء أوسع من صدر الرجل الحليم، وبها آلاف الغدران، جمع غدير، لكنها كلها من سراب. تشبيه معكوس سقيم: يشبهون صدر الحليم بالصحراء فهذه مبالغة لطيفة، فإن عكستها سمجت

ظَمْأَى حَيارى، وخَلْفَ الرَّكْبِ طائِفَةٌ ... حُمْرُ اللَّواحِظِ مِن أُسْدٍ وذُؤْبانِ

الغدران السرابية عطشى، وخلف المسافرين أسود وذئاب حمر اللواحظ، أي العيون

فَأَيْقَنَ القومُ بِالجُلَّى وقد صَمَتُوا ... لِهَيْبَةِ الموتِ وَهْوَ المُقْبِلُ الدَّاني

أيقن القوم أن الأمر عظيم جليل، وصمتوا لهيبة الموت المقترب

حتى إذا اليأسُ لم تَتْرُكْ مَرارَتُهُ ... إلَّا بَقِيَّةَ صبرٍ غيرِ خَزْيانِ

لم يترك اليأس سوى قليل من الصبر المتحلي بالأنفة البعيد عن العار

لاحَتْ خِيامُكِ بِالصَّحراءِ مُونَقَةً   أبْـهـى وأزْيَـنَ مِـن عَـرْشٍ وإيـوانِ

عندئذ لاحت خيامك يا بنت غسان مونقة، جميلة، أبهى من العرش وإيوان كسرى

فَـكَـبَّرَ الـرَّكْـبُ مُـرتـاحـاً إلـى أمـلٍ   عَذْبِ المُجاجَةِ حالي الوَشْيِ رَيَّانِ

كبر المسافرون وركنت نفوسهم إلى هذا الأمل العذب المجاجة، الارتشاف، الذي كأنه حالٍ، متحلٍّ، بحليّ الوشي، وريان، مرتوٍ

فـمـا فَـتَـحْـتُ جُـفـونـي وَهْـيَ دامِـيَـةٌ   مِـن الـرِّمـالِ، أعـانَ الـلّـهُ أجْـفـانـي

حتى لَمَحْتُكِ خَلْفَ السِّتْرِ ضاحِكَةً   إلـى جَـوارٍ وحُـجّـابٍ وغِـلْـمـانِ

فَقَرَّتِ النَّفْسُ لا شَكوى ولا تَعَبٌ   ولا لَـجَـاجَـةُ إيـمـانٍ وكُـفْـرانِ

قرت نفسي ولم تعد تعاني من سقم أو تعب، ولا من المماحكة بين الإيمان والكفر.. فكأن هذه الفتاة الغسانية هي طمأنينة النفس التي يصل إليها المرء فلا يعود يخاف شيئاً في دنياه ولا في أخراه

وأبصَرَتْ بعدَ طُولِ البحثِ غايَتَها   فـأذْعَـنَـتْ لِـهـواهـا أيَّ إذْعـانِ

وجدت النفس غايتها فخضعت لهواها.. وجدت يقينها المنبعث من أعماقها

رَأَتْ بِعيْنيْكِ يا لَيْلى وقد يَئِسَتْ   عَـزاءَهـا لا بِـإنْـجـيـلٍ وفُـرقـانِ

عزاء النفس هو في ليلى.. في هذا اليقين الذاتي وليس في الكتب السماوية

سِرُّ السَّعادَةِ في الدنيا وإنْ خَفِيَتْ   تَجلُوهُ مِنكِ على الأكْوانِ عَيْنانِ

السعادة دنيوية

آمَنْتُ بِالحُبِّ ما شاءَتْ عُذُوبَتُهُ   آمَنْتُ بِالحُبِّ فَهْوَ الهادِمُ البَاني

اليقين هو الحب

٢١ احتضان الوجود

طَهَّرْتُ آثامي البَريئَةَ في لَظَى   قُبَلٍ كأحلامِ النَّعيمِ عِذابِ

وَسَدْتُكِ اليُمنَى لَعَلِّيَ في غَدٍ   أَرِدُ الحِسابَ ووَجْنَتاكِ كِتابي

ونَعِمْتُ أَلْمَحُ في جُفونِكِ رَغْبَةً   خَجْلَى صَريعَةَ نَشْوةٍ ودُعابِ

لا تَغْفُ تَحْلُمْ بِالنُّجومِ فَيَرتَمي   منها، لِرَشْفِ لَمَاكَ، أَلْفُ شِهابِ

إن بقيت صاحياً فستحلم بالنجوم فيرتمي عليك ألف شهاب لرشف لماك، لتقبيل فمك

لا تَغْفُ وأْثَمْ في هَواكَ ولا تَخَفْ   نُسُكي أَمانُكَ في غَدٍ وثَوابي

لا تغف ولا تخف الإثم في حبك، فنسكي أمان لك أيها المحب وهو ثواب لي..

هـيـهـاتَ وِزْرُكَ لا أَنُـوءُ بِـحَـمْـلِـهِ   إنْ صَـحَّ أَمْـرُ قِـيـامَـةٍ وحِـسـابِ

يتراجع: لكن ذنبك كبير ولا أستطيع حمله إن صح أمر يوم القيامة والحساب

يا رَبِّ عَـفْـوَكَ قد ثَـمِـلْـتُ فَـخَـلِّـنـي   لِـغَـوايَـتـي وتَـهَـتُّـكـي وشَـرابـي
أَحْـلامُ جَـبَّـارِ الـسَّـمَـاواتِ الـعُـلَـى   نَـزَلَـتْ عَـلَـيَّ وضَـمَّـهـا جِـلْـبـابـي

هذا من أفكار المتصوفة الذي يرون في جلابيبهم جزءاً من ذات الإله

خُـلِـقَـتْ بِـبَـيْـدائـي الـظَّـمِـيـئَـةِ جَـنَّـةٌ   ثَـرثَـارَةُ الأَلْـوانِ والأَطْـيـابِ
فـإذا الـحَـيـاةُ عـلـى جَـلالَـةِ قَـدْرِهـا   داري، وهـذا الأُفْـقُ بـعـضُ رِحـابـي
وإذا الـكـواكِـبُ مِـن لِـداتِ طُـفـولـتـي   والـكـونُ والأَجْـيـالُ مِـن أَصْـحـابـي

لدات: أصحاب. عندما يفرح الإنسان يرى الكون يرقص له. فتح الشاعر القروي فتحاً شعرياً عندما قال: (مثّلوا لي هذا الوجود بشيء/ أنا لا أستطيع ضم الوجود) معنىً طلبتْه الشعراء كثيراً وتركته للمهجري الفصيح. الشاعر القروي من شعراء هذا الكتاب

٢٢ عبادة الجمال

شَـجـاهـا مِـن عُـهـودِكَ مـا شَـجـاهـا   وجَـنَّ الـلَّـيـلُ فـادَّكَـرَتْ أَسـاهـا

أحزنت النفسَ عهود الشباب الزائل، وجن الليل، غطى الكون، فتذكرت النفس وجعها

هَـفَـتْ لِـشَـبـابِـهـا وصَـبَـتْ إلـيـهِ   ورَقَّ لـهـا الـنَّـصِـيـحُ فـمـا لَـحـاهـا

اشتاقت النفس للشباب، ورق لها الناصح فما لحاها، ما وبخها

وهَـيـهـاتَ الـشَّـبـابُ ! وأيـنَ مـنـه   مُـنـىً لِـلـنَّـفْـسِ تَـعْـثُـرُ فـي وَجَـاهـا

بعُد الشباب وامتنع رده، وشتان ما بينه وبين الأمنيات الحالية التي تتعثر في وجاها، حفاها.. فكأنها تسير حافية وتتعثر

ومـا عُـذْرُ الـشَّـبـابِ كَـبِـرتُ فـيـهِ   وَلـي نَـفْـسٌ فَـتِـيَّـاتٌ مُـنـاهـا

لا عذر للشباب، ففي أيامه كنت كبيراً لا شاباً، وكانت لي نفس ذات طموحات فتية قوية

سَـقـاهـا مِـن سُـلافَـتِـهِ كُـؤُوسـاً   وحَـنَّـتْ لِـلـمـزيـدِ فـمـا سَـقـاهـا

الشباب سقى نفسي من خمره، وحنت نفسي للمزيد لكنه لم يسقها لأنها نفس تتوق للمعالي ولا يمكن للمرء أن يتمتع ويلهو وأن يطلب المعالي في الوقت نفسه

يُـراخـي بِـالـعِـنـانِ لَـهـا رُوَيْـداً   فـإنْ وَثَـبَـتْ لِـغـايَـتِـهـا ثَـنـاهـا

الشباب يرخي للنفس المقوَد قليلاً فإن وثبت تريد المزيد ثناها وشد المقود

وتَدْعُوها الفُتونُ وهُنَّ سِحْرٌ فَتُطْرِقُ لا تُلَبِّي مَن دَعاها

الفتنة تغري النفس، والنفس تطرق مترددة ثم لا تلبي الدعوة

مُعَذَّبَةٌ، إذا لَمَحَتْ جَمالاً هَفَتْ وَجْداً وعاوَدَها ضَناها

النفس معذبة تحس بقلق كلما رأت جمالاً ويعود إليها ما نسيته من عذابها

ويا نَفْسي عَبَدْتُكِ عنْ يَقينٍ وحَسْبي قد عَبَدْتُ بِكِ الإِلَها

هذه عبادة الشعراء. يعبدون ما يتخيلون أنه ذات الإله حلت في نفوسهم

بَرِئْتُ إلى الحَقيقَةِ مِن غُواةٍ تَفِرُّ مِن الصَّباحِ إلى دُجاها

أنا بريء من الضالين الذين يتركون نور الحقيقة الصباحي ويبتغون دجاها، أي ليلها

تُريدُ رِضاكَ تَقييداً وأَسْراً وأَيْن رِضاكَ رَبِّي مِن رِضاها

هذه الغواة تريد رضى الله بتقييد النفس، ورضى الله لا يكون كذلك

وأَنْكَرَ قُدْرَةَ الخَلَّاقِ رُوحٌ رأى صُوَرَ الجَمالِ وما اشْتَهاها

لِمَنْ جُلِيَتْ بِزينَتِها عَروساً وفِيمَ أَحَبَّها ولِمَنْ بَراها؟

فلمن برزت صور الجمال كالعروس؟ ولمن خلق الله الجمال إن لم نتمتع به بلا قيود؟

عَبَدْتُكَ في الجَمالِ، ولا أُبالي ضَلالُ النَّفْسِ ذلكَ أم هُداها

٢٣ الحقيقة والأمنيات

إنَّ الذي خلقَ الحقيقةَ عَلقَماً خلقَ المُنَى لِلوارِدِينَ شَمولا

إذا كانت الحقيقة مرة كالعلقم، فالأماني عذبة كالشمول، الخمر

تَتصارَعانِ ولا تَرى إحداهُما ظَفَراً لِتَبْسُطَ حُكمَها وتَطُولا

الحقيقة والأمنيات في صراع لا غلبة فيه لأيهما

تَدعُو المُنى زُمَرَ القُلوبِ وأُختُها تَدعُو بَصائِرَ في الوَغَى وعُقولا

الأماني تنادي القلوب، وأختها، أي الحقيقة تخاطب البصائر والعقول

والكونُ بينَ الضَّرَّتَيْنِ مُقَسَّمٌ فاشْهدْ قَبيلاً يَسْتَبيحُ قَبيلا

الكون مقسوم بين ناس حالمين وناس عقلاء

٢٤ لا يمَّحين

أحـبـبْـتُـهـا سـاحِـرةً كـالـرُّؤَى   مُـبْـهَـمَـةً غـامِـضَـةً كـالـظُّـنـونْ

حبيبته ساحرة غامضة

مَجنونَـةً، والـحُـسْـنُ لـم تَـكْـتَـمِـلْ   فِـتـنَـتُـهُ إلَّا بِـبـعـضِ الـجُـنـونْ

والجمال لا يكتمل إلا ببعض الجنون والنزق

أَرى عـلـى خَـدَّيْـكِ فـيـمـا أَرى   بِـأَلْـفِ لَـوْنٍ قُـبَـلَ الـعـاشِـقـيـنْ

يحس بأن حبيبته مر بها عشاق كثر

مِـنْ قُـبْـلَـةٍ خـائِـنَـةٍ مَـرَّةً   وقُـبْـلَـةٍ وادِعَـةٍ فـي الـجَـبـيـنْ

وقُـبْـلَـةٍ حَـمـراءَ مـثـلِ الـلَّـظَـى   وقُـبْـلَـةٍ بَـيـضـاءَ مـثـلِ الـيَـقـيـنْ

هذه أصناف القبلات التي يتخيل محبوبته قد مرت بها

تَـأْبَـيْـنَ إلَّا مَـحْـوَ آيـاتِـهـا   وهُـنَّ يـا لَـيْـلايَ لا يَـمَّـحِـيـنْ

لا تُـنْـكـرِي حُـبَّـكِ لـي، إنَّـنـي   أَسْـتَـشْـهِـدُ الـرَّيْـحانَ والـيـاسَـمِـيـنْ

أستشهد: أطلب شهادة

٢٥ حديث الشقراء

يـا سـاكِـبَ الـشِّـعـرِ خَـمـراً   مِـن شِـعْـرِ رَبِّـكَ خَـدِّي

الفتاة تقول للشاعر إن شعره خمر ولكن خدَّها كأنه شعر قاله الله

ومِـن مَـعـانـيـهِ عِـطْـري   ومِـن قَـوافـيـهِ وَرْدي

تَـأَنَّـقَ الـلَّـهُ دَهـراً   يُـعـيـدُ فِـيَّ ويُـبْـدي

حـتـى جَـلانِـيَ شِـعْـراً   يـا حَـسْـرَةَ الـشِّـعْـرِ بَـعْـدي

دُنْـيـايَ أَحْـلـى وأَغْـلـى   مِـن أَلْـفِ جَـنَّـةِ خُـلْـدِ

البيت الأخير جاء في ذيل القصيدة بعيداً عن إخوته، وهو على لسان الشاعر لا الفتاة

٢٦ حب واشتهاء

أَيُّـهـا الـضـاحِـكُ الـطَّـروبُ أَلا تَـأْ   سَـى لِـهـذي الـدُّمـوعِ فـي عَـيْـنَـيَّـا

أنـا أَبْـكـي وكَـرَّمَ الـلَّـهُ والـحُـسْـ   ـنُ عـنِ الـدمـعِ خَـدَّكَ الـوَرْدِيَّـا

يا حبيبي دَعْني أُقَبِّلُ خَدَّيْـ ـكَ، وأَشْتَفُّ ثَغْرَكَ اللُّؤْلُؤِيَّا
اَلهوَى جَنَّةٌ بِقَلْبِيَ والشَّهْـ ـوَةُ نارٌ حَمْراءُ في شَفَتَيَّا
مِهْرجانٌ لِمُتْعَةِ الجِسْمِ حَالٍ يَرْحَمُ اللَّهُ حُبَّنا العُذْرِيَّا

حالٍ: متزين بالحُلِيّ. بعد حديثه عن نار الشهوة الحمراء يترحم، ولا عجب، على زمن حبه العذري البريء

٢٧ الورد المفتون

تَزَيَّنَ الوَردُ أَلواناً لِيفتِنَنا أَيخلِفُ الوَرْدُ أَنّا ما فَتَنّاهُ
يا مَن سَقانا كؤوسَ الهجرِ مُتْرَعَةً بكى بساطُ الهوى لمَّا طويناه

٢٨ لبنان والشام

لُبنانُ والغُوطَةُ الخَضْراءُ ضَمَّهُما ما شئتَ مِن أَدبٍ عالٍ ومِن نَسَبِ

لبنان والشام يتحدان أدباً ونسباً

ما في اتِّحادِهِما تَاللهِ مِن عَجَبٍ هذا الفِراقُ لَعَمري مُنتَهى العَجَبِ

الفراق الذي تم بين الشام ولبنان بإرادة فرنسية إنجليزية في سايكس بيكو هو العجيب

لِلخُلْفِ في الناسِ أَنْواعٌ وأَغْرَبُها خُلْفُ الشَّقيقَيْنِ مِن قَومي بِلا سَبَبِ
لِلضَّادِ تَرجِعُ أَنسابٌ مُفَرَّقَةٌ فَالضَّادُ أَفضَلُ أُمٍّ بَرَّةٍ وأَبِ
وكانَ لي مِقْوَلٌ كالسَّيْفِ مُنْصَلِتاً فحَطَّمَ الظُّلْمُ حَدَّ المِقْوَلِ الذَّرِبِ

مقول: لسان، منصلت: مسلول، الذرب: المنطلق الفصيح

لَأَرْحَلَنَّ فَلِي في الأرضِ مُتَّسَعٌ إنْ ضاقَ بي صَدرُ هذا الموطِنِ الرَّحِبِ

محمد سليمان الأحمد
(بدوي الجبل)
فهرس القوافي

عمر أبو ريشة
(١٩١٠ ـ ١٩٩٠)

كانت نِعَم عيتاني تنتج لي برنامجاً تلفزياً عن الشعر، اسمه «قال الشاعر»، بثثنا منه مئتين واثنتين وخمسين حلقة من قناة الجزيرة. وكانت من بين عشرين أو ثلاثين شخصاً صححوا لي أغلاطي النحوية في رحلة عملي في الإذاعة والتلفزيون. قلت لها مرة، وأردتُ أن أُورد عليها ما يشبه الأحجية: أَتعلمين أن غزة قرية صغيرة؟ فهزت رأسها ببرودها المعهود. فأردفتُ: وليست غزة التي بفلسطين. فقالت: بل غزة التي في البقاع بلبنان. قلت لها: بالضبط. وانكمشتُ. انكمشتُ لأنني كنت أحاجيها في شأن قرية تقع في بلدها، فامتص برود ردها حرارة الأحجية، لا هي عجزت فأورثتني فخراً، ولا هي حزرت بحرارة تبعث في المجلس بعض صخب. وزادتني انكماشاً إذ قالت: ولنا في غزةِ البقاع بيت، وعشنا فيه مدةً في أيام الحرب الأهلية.

ومضت بضع سنين، ودعتني نِعَم إلى حفل عرضت فيه فلمها التسجيلي الطويل (كان يا ما كان. . مرتين!) ويصور مأساة الحرب الأهلية في لبنان ومأساة الحرب الأهلية في سورية، وقد حضرت زميلتي المأساتين، وبينهما أكثر من ربع قرن، طفلةً فراشدة. وحضرتْهما. . في غزة.

بعد العرض هنأت زميلتي لأنها أولاً قفزت من سفينة الوظيفة فلم تعد «زميلة» لي، وانطلقت تنتج وحدها سائرة في طريق الإبداع، وهنأتها ثانياً لأنها قطعت شوطاً بعيداً بين أول أفلامها (سوبَر ـ فُل) وبين هذا الفلم.

وذاب برنامجي التلفزي في بحر الظلمات، وبحر الظلمات هو المحيط الأطلسي كما سماه أجدادنا، وهو اليوم الاسم الثاني لليوتيوب. مضت زميلتي إلى عمل أكثر إبداعاً ودواماً. والخلود نسبي. وسيذهب كل شيء في النهاية.

ولكن، الانغماس في برامج الإذاعة والتلفزة سنوات طويلة لا يليق إلا بالكسلان أو قليل الموهبة. ولعلي أحدهما أو كلاهما. ما زلت أحرث السبخة، وأبذر فيها لآلئ عمري، وأنتظر أن تنبت عقوداً وأساور.

جاءتني اليوم رسالة إلكترونية من أحد تلك المواقع التي تعلق ببريدك كالقَرادة، وتنفحك بالمواعظ. كانت موعظة اليوم مكونة من كلمة واحدة: «تحرَّكْ».

بعد أسابيع قليلة سأنتهي من عصر الشعراء وتجفيفهم، وسأُودع المطبعة هذا الكتاب الخامس والأخير، وأتحرر، وأتحرك، ولا أتحرَّز، ولا أتحرق حسرة على ما فات ولا شوقاً إلى ما سيأتي. مضى زمن الدهشة.

وهيهات التحرر! ما ذقت في عمري كله حلاوة الكسل. ما استطعت قط أن أقضي نهاراً لا أعمل فيه شيئاً.

قد تقبَل بي نِعَم مساعداً يحمل لها مُعَدَّات التصوير ويجري وراءها من موقع إلى موقع! فتكون سياحةٌ ويكون عملٌ في آن معاً.

لا. لا أريد أن أرى العالم، فقد رأيت منه ما يكفي. وقد جاءتني كلمةٌ قالها جان بول سارتر شحمةً على فطيرة، قال: كل ما عرفتُه عن الحياة إنما عرفتُه من الكتب.

حان أن ننصرف إلى شاعرنا الجوال الذي عاش عشرين سنة متنقلاً بين بلد وبلد سفيراً لسورية. وكان من قبل يتنقل بين حلب وقرية غزة في البقاع بلبنان.. تذكُرونها! حيث كان يفر إذا اشتد عليه الطلب في أيام الحكم الفرنسي.

عمر أبو ريشة

عمر أبو ريشة من حلب. وحلب الآن مدينة مدمرة. ولأنها من ملاعب يفاعتي، قلت فيها قبل أسابيع، وأنا الآن أكتب في أبريل ٢٠١٧، أبياتاً:

قد كانَ في الوُسعِ، لكنْ ما حَميناها ... ودمَّروها، ولا حتى بَكيْناها
قد صَدَّتِ الرومَ طولَ الدهرِ صامِدَةً ... ونحن في ظَهرِها غدراً طَعنَّاها
غَطُّوا القتيلةَ حتى لا نَرى حلباً ... ولا تَرانا، كأنَّا ما عَرفناها
غَطُّوا القتيلةَ حتى لا تُذَكِّرَكُمْ ... أنَّ القتيلةَ أعراضٌ دَفنَّاها

غَطُّوا القتيلةَ، ليس الرُّوسُ وحدَهُمُ   بل نحن مِن قبلِهِمْ كنَّا ذبَحناها

ولا أزيد القارئ من هذا، فبعد الحسرة يأتي كلام عن السائل والمسؤول عن نكبة حلب، وليس هذا مما ينفتح له قلب كتاب عن الشعر، ولا مما ينشرح له صدر الأيام المقبلة التي سيُكتب فيها التاريخ في عدة نسخ.

ولد شاعر حلب المشهور في عكَّا بفلسطين عند أخواله في سنة ١٩١٠. وفي عكا درس المرحلة الإبتدائية، ومع دخول الإنجليز فلسطين، وعمر في الثامنة من عمره، أخذتْ مؤدبةٌ خاصة تأتي إلى البيت وتعلمه اللغة الإنجليزية. كان أخواله من عائلة مشهورة بالتصوف، وكان جو البيت في عكا جو أذكار وتسابيح ومجالس درس. وعاد الصبي مع أمه وأخته الكبيرة سارة إلى كنف أبي الأسرة في حلب وقد انتهت الحرب العالمية الأولى، وانتهى بانتهائها الحكم العثماني من بلاد العرب. كان الأب منفياً مغضوباً عليه من جانب إستانبول لمساعدته الأرمن وإيوائهم في المحنة التي تعرضوا لها على أيدي الأتراك في سنوات الحرب.

التحق عمر في حلب بمدرسة، ثم بأخرى، ثم توجه إلى بيروت وعمره أربع عشرة سنة ليدرس في الصفوف الثانوية بالجامعة الأميركية. وتخرج وهو في السابعة عشرة من العمر بعد أن درس العلوم والآداب. وكان ممن علمه العربية هناك أنيس الخوري المقدسي وجبرائيل جبور. وما بلغ الثامنة عشرة حتى توجه إلى إنجلترا ليتعلم صناعة الغزل. تمرن في المصانع ودرس في جامعة مانشستر كيمياء الغزل والنسيج أربع سنين. كان على وشك الزواج بفتاة إنجليزية، لكن الموت عاجلها فحزن، وكتب في ذلك شعراً.

عاد إلى حلب شاباً في الثانية والعشرين. ولم يوفق في فتح مصنع للغزل. ولم تنجح الأسرة الإقطاعية في الانتقال إلى عصر الصناعة.. ولا البلد نجح في مثل هذه النقلة. كانت فرنسا تحتل سورية آنذاك. وكان احتلالها مصحوباً بالقمع والتسلط الشديدين.

آل أبو ريشة عرب تمتد جذورهم القبليَّة بعيداً، ويفخرون بنسبهم، وكان أجداد شاعرنا ولاة وحكام أقاليم في العصر العثماني، وكانت عائلة أمه راسخة في الصوفية. وبعد انفصال البلاد العربية في الشام عن جسم الدولة العثمانية شاطرَ قادة المجتمعات الشريفَ حسين وأولاده حلم بناء دولة عربية مستقلة. وبدأت العائلات الإقطاعية تحلم بالاستمرار في قيادة المجتمع مع التحول إلى

التصنيع. وسرعان ما ذبح المنتصرون في الحرب الأولى الحلم العربي باتفاقية سايكس ـ بيكو، فكان تقسيم بلاد الشام إلى دول، وكان أن جاء المنتصرون ليحكموها باسم الانتداب.

واجتمعت القوى البرجوازية الصاعدة، ذات الجذور الإقطاعية، تقاوم الحكم الفرنسي وتسعى إلى استقلال تقود فيه المجتمع إلى نهوض صناعي وتعليمي. كان رجال الكتلة الوطنية: فارس الخوري، وشكري القوتلي، وهاشم الأتاسي، وإبراهيم هنانو، وسعد الله الجابري، وجميل مردم بك يمثلون هذا التوجه الذي أصبح القاطرة التي تقود النضال السياسي، وأحياناً العُنفيّ، ضد الاستعمار الفرنسي. وكان في المحمل الآخر عبد الرحمن الشهبندر وسلطان الأطرش اللذان قادا ثورة الجنوب السوري، دمشق وجبل العرب، في أواسط العشرينات.

كان للكتلة الوطنية الأثر الأكبر في هذه الحقبة، وإلى جانب الكتلة نشأ تنظيم شبابي ينتهج خط الكتلة الوطنية ويأتمر بأمر كهولها. وكان عمر أبو ريشة من أقطاب هذا التنظيم الذي عرف باسم «الشباب الوطني». فلما وقع رجالات الكتلة معاهدة مع فرنسا عام ١٩٣٦، عارض «الشباب الوطني»، ومعه شاعرنا المعاهدة، مثلما عارضها خط الشهبندر ـ الأطرش. ولم تصادق فرنسا على المعاهدة، ونالت الكتلة الوطنية لطمة، لكنها ظلت القاطرة التي ستتولى أمر سورية بعد الاستقلال عام ١٩٤٦.

مع انشقاقه عن الكتلة الوطنية، وسخريته شعراً من المعاهدة التي عقدتها، انصرف عمر أبو ريشة إلى تأسيس دار كتب في حلب، وأصبح مديراً لها نحو عشر سنين. وترشح مرتين للنيابة ولم يوفق.

في عام ١٩٤٩، وبعد بضع سنين من الحكم المدني غير المستقر، جاء انقلاب حسني الزعيم، وبعده بأشهر انقلاب سامي الحناوي، وعين عمر أبو ريشة مفوضاً لسورية في البرازيل، ثم رقي إلى سفير، وبقي في أميركا اللاتينية، تصحبه زوجته وابنته رفيف وولده شافع، نحو خمس سنين كان فيها يمثل سورية في البرازيل وتشيلي والأرجنتين.

ثم إلى الهند سفيراً خمس سنين حتى ما بعد قيام الوحدة بين مصر وسورية، ثم إلى النمسا سفيراً للجمهورية العربية المتحدة، دولة الوحدة، ثم سفيراً في واشنطن لسورية ثلاث سنين، ثم عودة إلى الهند سفيراً لسورية ست

سنين. فذلك: عشرون عاماً قضاها الشاعر في السلك الدبلوماسي. وفي عام ١٩٧٠ تقاعد وسكن في بيروت. عاش في تقاعده عشرين سنة.

ينفح المداحون سيرة عمر أبو ريشة حتى لتشبه سيرة عمر بن الخطاب. لذا لا يذكرون له حباً عاصفاً وهو يقترب من السبعين أدى إلى ترك العشيقة المتزوجة زوجَها. لقد تعرف عليها وهي مع زوجها، وكانت ترافقه زوجته.

وحاول أن يقنع زوجته بتقبل الوضع الجديد لكنها رفضت، ورفض أبناؤه، وخاصموه حتى النهاية.

الكاتب جهاد فاضل، الذي ساقه الله ليلون حياة أدبائنا بلون فضائحي جميل، يطلق على السيدة سعاد، صفة الزوجة «الثانية أو الأخيرة» لعمر أبو ريشة.. كأنه يعرض بأنه كان للشاعر زوجات أخريات في تاريخه الطويل وجغرافياه الواسعة.

في العشرين سنة الأخيرة من حياة الشاعر قال القليل، وكانت له علاقة قوية بالمملكة العربية السعودية بدأت بلقاء مع الملك فيصل بن عبد العزيز. وله فيه بيتان جميلان:

يا ابنَ عبدِ العزيزِ! وانتفضَ العزُّ ... وأَصْغى وقالَ مَن ناداني

قلتُ: ذاكَ الجريحُ في القدسِ في سَيْـ ... ـناءَ في الضَّفَّتينِ في الجَوْلانِ

توفي عمر أبو ريشة عن ثمانين سنة، عام ١٩٩٠، بعد أن مكث على سرير المرض في مستشفى بالرياض سبعة أشهر. ونقل جثمانه إلى حلب.

١ وامعتصماه في آذان صمَّاء

بعد نكبة فلسطين ١٩٤٨:

أُمَّتي، هل لكِ بينَ الأُممِ ... مِنبرٌ لِلسيفِ أو لِلقلمِ؟

أَتلقَّاكِ وطَرْفي مُطرِقٌ ... خَجَلاً مِن أَمْسِكِ المُنصَرِمِ

ويكادُ الدمعُ يَهمي عابِثاً ... بِبَقايا كِبرياءِ الأَلَمِ

يكاد دمعي يسيل فكأنما يعبث بما تبقى من الكبرياء التي هي كبرياء المتألم لا كبرياء المنتصر السعيد

أينَ دُنياكِ التي أَوْحَتْ إلى ... وَتَري كُلَّ يَتيمِ النَّغَمِ؟

يا أمتي أين أيامك الماضية المجيدة التي أوحت إليَّ بالأنغام الفريدة اليتيمة التي لا تشاكلها أنغام؟

كـم تَـخَـطَّـيْـتُ عـلـى أصـدائِـهِ مَـلـعَـبَ الـعِـزِّ ومَـغـنـى الـشَّـمَـمِ

على أصداء ذلك النغم كنت أسير قاطعاً ملعب العز، والملعب الساحة في لغتنا القديمة، ومغنى الشمم، أي مربع الشموخ

وتـهـاديـتُ كـأنّـي سـاحِـبٌ مِـئْـزَرِي فـوقَ جِـبـاهِ الأَنْـجُـمِ

كنت أسر متهادياً، متمهلاً مختالاً، وكأنني أسحب ذيل ثوبي فوق جبين النجم

أُمَّـتـي كـم غُـصَّـةٍ دَامِـيَـةٍ خَـنَـقَـتْ نَـجوى عُـلاكِ فـي فَـمـي

ما أكثر الغصص الدامية التي خنقت في حلقي مناجاتي لأمجادك، فلم أعد أستطيع التغني بهذه الأمجاد

أَيُّ جُـرْحٍ فـي إِبـائـي رَاعِـفٍ فـاتَـه الآسـي، فـلـم يَـلْـتَـئِـمِ!

ما هذا الجرح الراعف، النازف، الذي أصاب إبائي وشموخي وفاته الآسي، أي الطبيب، فلم يندمل!

أَلإِسـرائـيـلَ تـعـلُـو رايَـةٌ فـي حِـمَـى الـمَـهْـدِ وظِـلِّ الـحَـرَمِ

رفعت إسرائيل رايتها في أرض مهد عيسى، وفي ظلال الحرم القدسي.. وبعد هذه القصيدة بتسعة عشر عاماً ستحتل إسرائيل بيت لحم والقدس ولن تبقى رايتها على مقربة منهما فقط

كـيـف أَغـضَـيْـتِ عـلـى الـذُّلِّ، ولـم تَـنـفُـضِـي عـنـكِ غُـبـارَ الـتُّـهَـمِ؟

يا أمتي كيف سكتِّ على الذل، ولم تنفضي عنك تهمة الجبن والاستخذاء؟

أوَمَـا كُـنـتِ إذا الـبَـغْـيُ اعـتَـدى مـوجـةً مِـن لَـهَـبٍ أو مِـن دَمِ؟

فـيـم أَقـدمْـتِ، وأَحـجَـمْـتِ؟ ولـم يَـشْـتَـفِ الـثـأْرُ، ولـم تَـنـتَـقِـمـي

إِسـمَـعِـي نَـوْحَ الـحَـزانـى واطْـرَبـي وانـظُـرِي دمـعَ الـيَـتـامـى وابْـسِـمـي

ودَعـي الـقـادَةَ فـي أهـوائِـهـا تَـتـفـانـى فـي خَـسِـيـسِ الـمَـغْـنَـمِ

اتركي الزعماء يفنون كل طاقاتهم لنيل المغانم الخسيسة التافهة

رُبَّ «وامُـعـتَـصِـمـاهُ» انـطَـلَـقَـتْ مِـلْءَ أفـواهِ الـبَـنـاتِ الـيُـتَّـمِ..

ثمة صرخة «وامعتصماه» انطلقت من أفواه البنات اليتامى مستغيثةً..

لامَـسَـتْ أسـمـاعَـهُـمْ لـكـنَّـهـا لـم تُـلامِـسْ نَـخـوةَ الـمـعـتَـصِـمِ

هذه الصرخة لامست أسماع الزعماء، ولكنها لم تلامس فيهم نخوة كنخوة الخليفة المعتصم الذي لبى نداء تلك المرأة العربية التي صرخت «وامعتصماه» وحارب الروم

أُمَّـتـي كـم صَـنَـمٍ مَـجَّـدْتِـهِ لـم يَـكُـنْ يَـحـمِـلُ طُـهْـرَ الـصَّـنَـمِ

لا يُـلامُ الـذِّئْـبُ فـي عُـدوانِـه   إنْ يَـكُ الـراعـيِ عَـدُوَّ الـغَـنَـمِ
فـاحبِـسي الـشـكـوى، فلولاكِ لَمَـا   كـان فـي الـحـكـمِ عـبـيـدُ الـدِّرْهَـمِ

٢ حيلة الذليل

رَبِّ طَـوَّقْـتَ مَـغـانـيِـ   ـنـا جَـمـالاً وجـلالا

مغانينا: ربوعنا، بلادنا

ونَـشـرتَ الـخـيـرَ فـيـهِـنَّ   يَـمـيـنـاً وشِـمـالا
وتَـجـلَّـيْـتَ عـلـيْـهِـنَّ   صـلـيـبـاً وهـلالا
رَبِّ هـذي جَـنَّـةُ الـدنـ   ـيـا، عـبـيـراً وظِـلالا
كـيـفَ نَـمـشـي فـي رُبـاهـا الـ   ـخُـضْـرِ، تـيـهـاً واخـتِـيـالا..
وجِـراحُ الـذلِّ نُـخْـفـيـ   ـهـا عـن الـعِـزِّ احْـتِـيـالا؟
رُدَّهـا قَـفـراءَ، إنْ شِـئْـ   ـتَ، ومَـوِّجْـهـا رِمـالا

يا رب اجعل أرضنا قفراء، جدباء، ولتموج فيها رمال الصحراء..

نـحـن نَـهـواهـا عـلـى الـجَـدْ   بِ إذا أعـطَـتْ رِجـالا

نحب الأرض مجدبة إن كانت تلد رجالاً شامخين

٣ الثريُّ النفطي

بـدويٌّ، أَوْرَقَ الـصـخـرُ لـه   وجـرى بِـالـسَّـلْـسَـبـيـلِ الـبَـلْـقَـعُ

سمع الشاعر عن ثري نفطي أنفق في ليلة ستين ألف دولار على عشيقة، فهذا الرجل الثري خرج له من الصخر نفط كأنه بستان مورق، وتفجر البلقع، الأرض المجدبة، بنبع سلسبيل.. لكنْ من نفط. القصيدة مؤرخة بعام ١٩٥٤، قبل أن تكون للشاعر علاقة حسنة بمنطقة الخليج

فـإذا الـنَّـخْـوَةُ والـكِـبْـرُ عـلـى   تَـرَفِ الأيـامِ جُـرحٌ مُـوجِـعُ

فتحولت النخوة والكبرياء إلى جرح بوجود هذا الترف

هـانَـتِ الـخـيـلُ عـلـى فُـرسـانِـهـا   وانْـطَـوَتْ تـلـكَ الـسـيـوفُ الـقُـطَّـعُ

وترك العرب خيلهم وانتهى زمن السيوف القاطعة

والـخِـيـامُ الـشُّـمُّ مَـالَـتْ، وهَـوَتْ   وعَـوَتْ فـيـهـا الـريـاحُ الأَربَـعُ

الرياح عند قدمائنا: الصبا والقبول والدبور والنكباء.. وقيل غير ذلك

والـبُـطـولاتُ، عـلـى غُـربَـتِـهـا   فـي مَـغـانـيـنـا، جِـيـاعٌ خُـشَّـعُ
هـكـذا تُـقـتَـحَـمُ الـقـدسُ عـلـى   غـاصِـبـيـهـا، هـكـذا تُـستَـرجَـعُ!

يهزأ: أهكذا نسترجع القدس؟

٤ على أرائكهم

في تأبين الأخطل الصغير، وتوفي عام ١٩٦٨:

كـتـائِـبٌ بِـالـنـضـالِ الـحـقِّ مُـؤمـنـةٌ   إذا الطَّواغيتُ مِن إيمانِها سَخِروا

الجنود في كتائبهم يؤمنون بالنضال الحقيقي، في حين أن الزعماء المستبدين يسخرون من هذا الإيمان

إن خُوطِبوا كَذَبوا أو طُولِبوا غَضِبوا   أو حُورِبوا هَرَبوا أو صُوحِبوا غَدَروا
خافُوا على العارِ، أنْ يُمْحَى، فكان لَهُمْ   على الرِّباطِ، لِدعمِ العارِ، مُؤْتَمَرُ

هذا عن مؤتمر القمة العربي في الرباط، وجاء بعد النكسة وفشل الزعماء العرب في التوصل إلى أي قرار فيه

على أرائِكِهِمْ، سبحانَ خالِقِهِمْ   عاشُوا وما شَعَروا، ماتُوا وما قُبِروا
عفْواً، بِشَارَةُ، بعضُ البوحِ ضِقْتُ به   فَسالَ فوق فَمي، حَرَّانَ، يَسْتَعِرُ

بشارة الخوري الذي قيلت القصيدة في تأبينه

خَنَقْتُ بِالدمعَةِ الخَرساءِ أكثرَهُ،   وأَقْتَلُ الدمعِ ما لا يَلمَحُ البَصرُ

خنقت أكثر بوْحي بدمعة خرساء، دمعة داخلية لم تظهر للعيان، وأكثر الدمع إيذاء ما لا يظهر

٥ تجاهلت السؤال

ركب الشاعر الطائرة في أميركا الجنوبية، وجلست بجانبه حسناء إسبانية جذورها عربية، ١٩٤٩:

قلتُ: يا حسناءُ، مَن أنتِ؟ ومِن   أَيِّ دَوْحٍ أَفْـرَعَ الـغُـصْـنُ وطَـالا؟

دوح: شجرة وارفة الظل كبيرة

وأَجـابَـتْ: أنـا مِـن أَنْـدَلُـسٍ   جـنـةِ الـدنـيـا سـهـولاً وجـبـالا
وجُـدودي، أَلْـمَـحُ الـدهـرَ عـلـى   ذكـرِهِـمْ يَـطـوي جَـنـاحَـيْـهِ جَـلالا
بُـورِكَـتْ صـحـراؤُهُـمْ كـمْ زَخَـرَتْ   بِـالـمُـروءَاتِ ريـاحـاً ورمـالا

هؤلاءِ الصِّيدُ قومي، فانْتَسِبْ إنْ تَجِدْ أكرَمَ مِن قَومي رِجالا

الصيد: الأسياد

أَطْرقَ القلبُ، وغامَتْ أَعْيُنِي بِرُؤَاها، وتَجاهَلْتُ السُّؤالا

٦ معبد وعرايا

زار معبداً فيه تماثيل عارية تمثل الرجال والنساء في أوضاع جد «طبيعية»، ١٩٥٧:

مَن مِنكُما وَهَبَ الأمانْ لِأَخيهِ، أنتَ أمِ الزمانْ؟

أيها المعبد الهندي المهيب بسكونه وطمأنينته، هل أنت أعطيت الأمان للزمان أم هو أعطاك الأمان؟

كَمْ دُمْيَةٍ ذَلَّ الرُّخا مُ على انتِفاضَتِها وهانْ

كأن التماثيل انتفضت وخرجت من الرخام فأذلته وقهرته

طَلَبَتْ فَأَعْطى، واشْرَأَبَّـ ـتْ فانحنَى، وقَسَتْ فَلانْ

طلبت التماثيل من الرخام أن ينصاع لأمرها حتى تتكون وقست عليه فلان لأمرها فتشكلتْ

وتَكادُ تَنقُلُ ظِلَّها وتَسيرُ مُطْلَقَةَ العِنانْ

لشدة شبهها بالشخوص الحية فإن التماثيل تكاد تتحرك

هذانِ نِضْوا صَبْوَةٍ مجنونةٍ، يَتعانَقانْ

هذا تمثال لشخصين أنضاهما العشق المجنون، أي أتعبهما، وهما متعانقان

وتَلوحُ إحداهُنَّ ذا هِلَةً مُرَوَّعَةَ الجَنانْ

وهذه امرأة مرتبكة خائفة

وكأنَّها شَعَرتْ بِنَهْـ ـدَيْها أرادا يَشْرُدانْ

فلَها على طَوقَيْهِما كَفّانِ لا تَتَزَحْزَحانْ

ومُراهِقٍ مُستَسْلِمٍ لِقِيادِ غانِيَةٍ عَوانْ

وهذا تمثال شاب مع بائعة هوى عوان، نَصَفٍ غيرِ شابة

رَدَّ الربيعُ لها، فَرَقَّـ ـتْ طَلْعَةً وزَهَتْ لِيانْ

قد استردت بعض فتنة شبابها فكانت طلعتها بهية وجسمها ليِّناً فهي مزهوة مفتخرة

أَهْوَتْ عليهِ فاكْتَسَى بالياسَمِينِ الخَيْزُرانْ

يبدو أن المراهق خيزراني القوام نحيل، والعاشقة سمينة كشجرة ياسمين وارفة

وتَـمَـهَّـلَـتْ، لا وَهْـجُـهـا فَـانٍ، ولا الـيَـنْـبـوعُ فَـانْ
وحِـيـالَـهـا ثِـنْـتـانِ مِـن أَتـرابِـهـا مَـنْـسِـيَّـتـانْ
زُمَّـتْ شِـفـاهُـهُـمـا عـلـى مـعـسـولِ مـا تَـتَـسـاقَـيـانْ
وسَـهَـتْ جُـفـونُـهُـمـا عـلـى أَطْـيـافِ مـا تَـتَـشَـهَّـيـانْ

يبدو أن المرأتين متعانقتان عشقاً

ونَـدِيٌّ كُـهَّـانٍ تَـضَـوَّ عَ فـي مَـجـامِـرِهِ الـدُّخـانْ

وهذا تمثال لمجلس كهان وقد فاح دخان عطري من مجامره

وصُـنُـوجُـهُ وكُـؤُوسُـهُ طـافَـتْ بـهـا زُمَـرُ الـقِـيـانْ

والقيان، أي الجواري، يطفن ساقيات بالكؤوس، مصوتات بالصاجات في أكفهنّ

يَـرقُـصْـنَ فـي إغـرائِـهِـنَّ وكـلُّ قَـدٍّ، أُفْـعُـوانْ
وغَـوِيَّـةٍ ظَـمْـأَى تَـفَـنَّـنَ فـي رِضـاهـا ظـامِـئـانْ

وهذه امرأة غاوية ومعها رجلان ظامئان للعشق، وتماثيل الهند مشهورة بما تصور من أوضاع العشق

هَـامـا بـمـا اقْـتَـسَـمـا فَـكُـلٌّ عـنـدَ مَـوْرِدِهِ اسْـتَـكـانْ

وكل رجل من هذين قانع بالموضع الذي أخذه من المرأة

هـذا مَـطـاوِيـهـا اسـتَـطـاب، وذا نَـوافِـرَهـا اسْـتَـلانْ

أحدهما أعجبه ما ضمر من جسمها، والآخر منشغل بما كان من جسمها نافراً، أعوذ بالله، لَشعرك يا أبا ريشة أفضح من تلك التماثيل

وصَـبِـيَّـةٍ مَـمْـشـوقَـةٍ هِـيَ والـغَـوايَـةُ تَـوْأَمـانْ
يَـهـفُـو الـقَـمـيـصُ لِـمَـسِّ خَـصْـرَيْـهـا، وتَـأْبـى الـحَـلْـمَـتـانْ

يريد قميص الصبية الممشوقة أن يمس خصريها ولكن صدرها البارز يبعده عن بقية جسمها

«كـاجْـراوُ»! هـل مِـنْ حُـرْمَـةٍ لَـكَ عـنـدَ رائـيـهـا تُـصـانْ

يا معبد كاجراو، لم تترك شيئاً من الحرمات مصوناً مستوراً

كـم زائـرٍ أَدْمـى فُـؤَا دَكَ مـا أَسَـرَّ ومـا أَبـانْ

كم من زائر أحزنك أيها المعبد بمشاعره التي أبداها وتلك التي أسرها في نفسه

أَخـفَـى الـرِّضَـى وتَـظـاهَـرَتْ بِـالـسُّـخْـطِ، عـيـنـاهُ الـلَّـتـانْ.

في ضمير الزائر رضى وانشراح لهذه التماثيل الإباحية، ولكنه يتظاهر بالاشمئزاز، والسخط بادٍ في عينيه اللتين..

تَــتَــحَــرَّيَــانِ وتَــنــهــلا   نِ وتُــكْــسَــرانِ وتَــحْــلُــمَــانْ

.. تحدقان وتتمعنان وتحلمان..

مَــزَّقْــتَ أقْــنِــعَــةَ الــحَــيَــا   ةِ، ومــا عــلــيــهــا مِــن دِهــانْ

وجَــلَــوْتَــهــا فــي عُــرْيِــهــا   فــتــرفَّــعَــتْ بــعــد امْــتِــهــانْ

جلوت حقيقة الشهوات البشرية أيها المعبد فأصبحت آيات فن بعد أن كانت ممتهنة مرذولة

لا تَــسْــأَلَــنَّ فــلــن أُجــيــ   ـبَ، وظُــنَّ بــي مــا أنــتَ ظَــانْ

أنــا مــثــلُ غَــيــري لا يُــرى   لــيَ مِــن كُــوى سِــجْــنــي كِــيَــانْ

لن أفصح عن مشاعري، فأنا مثل غيري لا تبدو حقيقتي من نوافذ سجني الضيقة.. سجن التقاليد والمحرمات

أنــا مُــطْــمــئــنٌّ بِــالــقِــنــا   عِ، ورافِــلٌ بِــالــطَّــيْــلَــســانْ

وأنا مطمئن بهذا الوضع، وبما أستر به مشاعري من طيلسان، ثوب، ومن قناع

«كــاجْــراوُ»! لــولا الــعــجــزُ والــ   ـحِــرمــانُ مــا كــانَ الــجَــبــانْ

نحن نجبن عن اقتراف الممنوع، والسبب الحرمان والعجز

٧ كبرياء بلبل

(تعليقاً على قول الجاحظ: «البلبل لا ينسِلُ في قفص») ١٩٤٤:

لــو يــعــلــمُ الــصــيَّــادُ مــا صَــيْــدُهُ   لــم يَــجــعــلِ الــبُــلــبــلَ فــي صَــيْــدِهِ

أَلْــفَــيْــتُــهُ يــنــثُــرُ أَلــحــانَــهُ   كــأنَّــمــا يــنــثُــرُ مِــن كِــبْــدِهِ

رأيت البلبل في القفص يغرد بحزن، كأنما ينثر كبده نثراً

أَسْــقَــمَــهُ الــعَــيْــشُ عــلــى وَفْــرِهِ   لَــمَّــا رآهُ لــيــس مِــن كَــدِّهِ

أمرضه أن يعيش على طعام يقدم له في القفص ولم يتعب في تحصيله

فــعــافَ دُنــيــاهُ ولــم يَــتَّــخِــذْ   عُــشَّــاً، ولــم يَــحْــمِــلْ سوى زُهْــدِهِ

كــأنَّــهُ مِــن طُــولِ مــا مَــضَّــهُ   مِــن عَــبَــثِ الــدهــرِ ومِــن كَــيْــدِهِ

مضه: آذاه

أَبَــى عــلــيــهِ الــكِــبْــرُ أنْ يُــورِثَ الــ   ـأفــراخَ ذُلَّ الــقَــيْــدِ مِــن بَــعْــدِهِ

لكبريائه لم ينجب أفراخاً حتى لا يرثوا القيد ويكونوا محبوسين مثله في القفص

٨ نسر

١٩٣٨

أَصبحَ السَّفْحُ مَلعباً لِلنُّسورِ فاغضَبي يا ذُرَى الجبالِ وثُوري

بعد أن كانت النسور تحلق فوق القمم أصبح ملعبها، ساحتها، السفح، فلتغضب الذرى، القمم، لهذا الوضع

إنَّ لِلجُرْحِ صَيْحَةً فابْعَثِيها في سَماعِ الدُّنَى فَحيحَ سَعيرِ

إنَّهُ لم يَعُدْ يُكَحِّلُ جَفْنَ النَّـ ـجْمِ تيهاً بِريشِهِ المَنْثُورِ

هَجرَ الوكرَ ذاهِلاً وعلى عيـ ـنَيْهِ شيءٌ مِن الوَداعِ الأَخيرِ

هجر وكره في القمة لأنه لم يعد يستطيع الوصول إلى القمة، وكان ذاهلاً وعلى عينيه «شيء» أي دمع بسبب الوداع الأخير للقمة

تارِكاً خلْفَهُ مَواكِبَ سُحْبٍ تَتهاوى مِن أُفْقِها المَسحُورِ

هبط النسر العجوز تاركاً في الأعالي الغيوم تهوي في أفق السماء.. لكن فوقَه

هبطَ السَّفحَ طاوِياً مِن جَناحَيْـ ـهِ على كلِّ مَطمَحٍ مَقْبورِ

فَتَبارَتْ عَصائِبُ الطيرِ ما بيـ ـنَ شَرُودٍ مِنَ الأذى ونَفُورِ

جماعات الطيور هربت من أذى النسر الكاسر، وهي طيور ضعيفة تفر وتنفر اتقاء أذى النسر

لا تَطيري جَوَّابَةَ السَّفْحِ فالنَّسْـ ـرُ إذا ما خَبِرْتِه لم تَطيري

لا تطيري أيتها الطيور الضعيفة التي تجوب السفح ولا تقوى على القمم، ولا تهربي، فلو عرفت أن النسر فقد قوته لما طرت بعيداً عنه

نَسَلَ الوَهْنُ مِخْلَبَيْهِ، وأَدْمَتْ مَنكِبَيْهِ عَواصِفُ المَقْدُورِ

النسر الآن ضعيف وقد نسل الضعف مخلبيه نسلاً واستلَّها استلالاً، وسال دم من كتفيه بسبب القدر الغلاب

والوَقارُ الذي يَشيعُ عليهِ فَضْلَةُ الإرْثِ مِن سَحيقِ الدُّهورِ

وما عليه من وقار هو مجرد إرث من زمن سابق سحيق بعيد

وَقَفَ النَّسْرُ جائِعاً يَتَلَوَّى فوقَ شِلْوٍ على الرِّمالِ نَثيرِ

وقف النسر جائعاً يتلوى ألماً فوق شلو، عضو من الأعضاء والجمع أشلاء، وقد نُثِر على الرمل

وعِجافُ البُغاثِ تَدْفَعُهُ بالـ ـمِخْلَبِ الغَضِّ والجَناحِ القَصيرِ

لكن البغاث، الطيور الضعيفة، العجفاء النحيلة اجترأت على النسر وصارت تدفعه بعيداً بمخالبها الطرية وأجنحتها القصيرة

فَسَرَتْ فيهِ رَعْشَةٌ مِن جُنونِ الـ ـكِبْرِ واهتَزَّ هِزَّةَ المَقْرورِ

سرت في جسم النسر رعشة كبرياء واهتز كما يهتز المقرور، المصاب بالقر أي البرد

ومَضى ساحِباً على الأُفُقِ الأَغْـ ـبَرِ أنقاضَ هَيْكَلٍ مَنخُورِ

وسحب نفسه على الأفق المغبر وطار.. كأن جسمه هيكلٌ متهاوٍ منخور، غير صلد

وإذا ما أَتى الغَياهِبَ واجْتا زَ مَدى الظَّنِّ مِن ضميرِ الأَثيرِ..

وعندما وصل إلى الغياهب، المكان المظلم بعيداً، وطار إلى أبعد مما تصل إليه الظنون في جوف الأثير، أي السماء..

جَلجَلَتْ منهُ زَعْقَةٌ نَشَّتِ الآ فاقَ حَرَّى مِن وَهْجِها المُسْتَطيرِ

صرخ بزعيق اهتزت له الآفاق لما به من غضب مستطير

وهَوى جُثَّةً على الذِّرْوَةِ الشَّمَّـ ـاءِ في حِضْنِ وَكْرِهِ المَهْجُورِ

وبطيرانه العالي هذا الذي أجبر نفسه عليه رغم ضعفه، وصل هذه المرة إلى الذروة، القمة، التي كان ضعفه قد حرمه منها.. ثم سقط جثةً على القمة عند وكره القديم الذي هجره طويلاً بسبب ضعفه

لَمْلِمي يا ذُرى الجبالِ بَقايا النَّـ ـسْرِ، وارْمي بِها صُدورَ العُصورِ

أيُّها النَّسْرُ هل أَعُودُ كما عُدْ تَ، أَمِ السَّفْحُ قد أَماتَ شُعوري؟

الشاعر يشبه نفسه بالنسر الضعيف، فهل يغضب غضبة أخيرة فيعود إلى قمته ولو كلفه ذلك حياته، أم أن تعوده البقاء على السفح، في مرتبة نازلة عن مستواه، قد أمات شعوره؟

٩ تغيَّرتْ

١٩٥٨

وأَتَيْتُ مِرآتي وعِطْرِيَ في يَدي فَبَصُرْتُ ما لا كنتُ فيها أُبْصِرُ

فخَفَضْتُ طَرْفِي، ذاهِلاً مَتوجِّعاً ونَفَرْتُ منها عاتِباً أَسْتَنْكِرُ

خانَتْ عُهودَ مودَّتي، فتغيَّرَتْ ما كنتُ أَحسَبُ أنَّها تتغيَّرُ

النكتة: أن المرآة هي التي تغيرت، لا أنه فوجئ بأنه هو تغير وشاخ

١٠ القصيدة.. وكسب العيش

١٩٦٢:

هي والدنيا وما بينَهُما غُصَصي الحَرَّى وأهوائي العَنيدَةْ

هي القصيدة التي أريد أن أبلغ بها ذروة المجد.. والدنيا التي أسعى في مناكبها متقلداً الوظائف والمناصب.. وبينهما أحس بغصص، وآلام، وأحس بضغط من ميولي الأدبية العنيدة

رِحلَةٌ للشَّوْقِ، لم أَبْلُغْ بِها ما أَرَتْني مِن فراديسَ بَعيدَةْ

لم أستطع بلوغ الفردوس البعيد، المرتبة العليا، في رحلتي هذه

طالَ دَرْبي، وانتهى زادي لَهُ ومَضى عُمْري على ظَهْرِ قَصيدَةْ

طال بي درب الشعر والإبداع، ولم أكن تزودت للدرب بما يكفيني.. وعمري انقضى وأنا أركب شيطان الشعر آملاً ان يوصلني إلى الخلود. كل شاعر يتوق إلى أن يكون متنبي العصر!

١١ عُودي

١٩٦٥

قالَتْ مَلِلْتُكَ، اِذْهَبْ لستُ نادِمَةً على فراقِكَ، إنَّ الحبَّ ليس لَنا

سَقيتُكَ المُرَّ مِن كأسِي، شَفَيْتُ بِها حِقدي عليكَ، وما لِي عن شَقاكَ غِنى

الحبيبة سعيدة بأنها عذبته بحبها، وما كان ليهدأ بالها إلا بعد أن ترى الحبيب شقياً معذباً

قالتْ، وقالتْ، ولم أَهْمِسْ بِمِسْمَعِها ما ثارَ مِن غُصَصِي الحَرَّى وما سَكَنا

ظلت تفح بفحيح غضبها وهو ساكت لا يعبر عن آلامه الكبيرة، سواء ما ثار منها أم ما كبته في قلبه

تَركْتُ حُجْرَتَها، والدِّفْءَ مُنْسرحاً والعطرَ منسكباً، والعمرَ مُرْتَهَنا

ترك غرفتها وترك دفء العشق، وهجر العطر، وتحرر من ارتهان عمره في حبها

وسِرْتُ في وَحشَتي، والليلُ مُلْتَحِفٌ بِالزَّمْهَريرِ، وما في الأُفْقِ وَمْضُ سَنا

وسار في الليل تصاحبه وحشته، وكان الليل ملتفاً بالزمهرير، ولم يكن في الأفق بصيص نور

ولم أَكَدْ أَجْتَلي دَرْبي على حَدَسٍ وأَسْتَلِينُ عليهِ المَرْكَبَ الخَشِنا..

وما كاد يجتلي ويرى طريقه بالتلمس والتخمين في هذا الظلام، ويحس بأن سيره صار آمناً فكأنه وجد المركب المضطرب قد أصبح سلساً..

حتى سَمِعْتُ وَرائي رَجْعَ زَفْرَتِها حتى لَمَسْتُ حِيالي قَدَّها اللَّدِنا

حتى سمع وراءه صوت تنفسها.. وحتى لمس بجانبه قدها اللين

نَسيتُ ما بِيَ، هَزَّتْني فُجاءَتُها وفَجَّرَتْ مِن حَناني كُلَّ ما كَمَنا

نسي ما به من ألم الإهانة والصدّ، وهزته هذه المفاجأة، وأعادت إليه الحنان الكامن في قلبه

وصِحْتُ يا فِتْنَتي، ما تَفعلِينَ هُنا؟ اَلبَرْدُ يُؤْذيكِ، عُودي، لن أَعودَ أَنا

وقال لها: أيتها المرأة التي فتنتني، ماذا تفعلين؟ البرد يؤذيك فعودي إلى غرفتك. لكن، أنا.. لن أعود

١٢ وصية

١٩٦٥

إنَّها حُجْرتي لقد صَدِئَ النِّسْـ ـيانُ فيها، وشاخَ فيها السُّكوتُ
أُدخُلي بِالشُّموعِ، فَهْيِ مِن الظُّلْـ ـمَةِ وَكْرٌ في صِدْرِها مَنْحُوتُ

يطلب للمحبوبة أن تدخل غرفته بشموع تبدد الظلمة. فغرفته كأنها وكر منحوت نحتاً.. ليس من صخر.. بل منحوت من صدر الظلمة

وانْقُلي الخَطْوَ بِاتِّئادٍ فقد يَجْـ ـفَلُ مِنكِ الغُبارُ والعَنْكَبُوتُ

سيري بطيئة لئلاً «يخاف» الغبار فيثور، ويتحرك العنكبوت. و«يجفل الغبار» جديدة وفيها شعر بديع

عند كأسي المكسورِ حُزْمَةُ أَوْراقٍ، وعُمْرٌ في دَفَّتَيْها شَتيتُ

ستجدين حزمة أوراق فيها قصائدي، وفيها عمري مشتتاً في طواياها

اِحمِليها، ماضي شَبابِك فيها والفتونُ، الذي عليهِ شَقيتُ

هذه القصائد الغزلية فيها عصارة مشاعري إزاءك في أيام شبابك، وفيها الفتنة التي عذبتني

اِقرَأيها، لا تَحْجُبي الخُلْدَ عَنِّي أنشُريها، لا تَترُكيني أَموتُ

اقرأي القصائد، فهذا سيخلدني، وانشريها فهذا يحميني من موت اسمي بعد أن يموت جسمي

١٣ بعد فوات الأوان

١٩٦٢:

غابَ، ولن يَرجِعَ، يا ليتني أَعطَيْتُهُ بعضَ أماني الحياةْ

بعد موته تتمنى المرأة لو أنها كانت أعطته ما يتمنى من الوصل والرضا

يا ليتني أَطبَقْتُ أجفانَهُ قبلَ الرَّدى، بِالقُبْلَةِ المُشْتَهاةْ

تتمنى لو أنها أطبقت أجفانه قبل أن يموت بالقبلة التي طالما حلم بها

أَشْعُرُ بِالوَحْشَةِ مِن بعدِهِ ولم يكنْ لي فيهِ مِن أُمْنِياتْ

أشعر بوحشة بعد موته، مع أنني في حياته لم أكن أتمنى وصاله

كم مَرَّ بي والشوقُ يُزْري بِهِ ولم يَجِدْ مِنِّي إليهِ التِفَاتْ

كان يمر بي والشوق يعذبه، ولا ألتفتُ إليه

مـا لـيِ إذا مـا زَارَنـي طَـيـفُـهُ أمْسَحُ مِن أجْفانِيَ الدّامِعاتْ؟

والآن يزورني طيفه وأتذكره فتدمع عيناي

لـيـس سِـواهُ، بـيـنَ أتْـرابِـهِ كـان يَـرى أنّـيَ أحْـلَـى فَـتـاةْ

فقط هو، من بين كل أصحابه، كان يراني أجمل فتاة

١٤ لا تنتقي كلماتك

١٩٦٦

حَدِّثيني عمّا يَضِجُّ بِجَنْبَيْـ ـكِ، وعمّا يَثورُ مِن رَغَباتِكْ

حَدِّثيني، قُصّي جَناحَ ظُنوني حَدِّثيني، لا تَنْتَقي كَلِماتِكْ

تكلمي ولا تجعلي ظنوني وشكوكي تطير بعيداً بأجنحة. قُصِّي أجنحة ظنوني، وقولي كل شيء كيفما خطر ببالك «ولا تنتقي كلماتك». ما أكثر ما في هذه العبارة الأخيرة من شعر

١٥ عالم من نساء

١٩٦٤

سـارَتْ إلى الـمَـركَبِ مَشْدُوهَةً مـعـقـودةً أجـفـانُـهـا بِـالـسـمـاءْ

مشت نحو السفينة هائمة حيرى، وعيناها في السماء

وغـابَ فـي الـيَـمِّ، وغـابَـتْ بِـهِ وغـابَ عَـنّـي عـالَـمٌ مِـنْ نِـسـاءْ

وغاب المركب في البحر، وغابت المحبوبة معه، وبغيابها غاب عني عالم النساء.. فهي كانت عالماً من نساء..

١٦ القيد الضروري

أتراه قال هذه القصيدة عن زوجته؟ هكذا فسرناها. ١٩٦٦

لم أزَلْ أسحَبُ قيدي مُتعَباً وجراحي لم تَزَلْ تَشْتُمُ قَيْدي

قيد الزواج يتعبني، وآلامي تلعن هذا القيد الذي قيدت نفسي به

أنا أقبلْتُ عليهِ راضياً بعدما غَيَّبْتُ في عينَيْكِ رُشدي

قد تزوجت راضياً بعد أن فقدت صوابي في عينيك

كم تَغاضَيْتُ حياءً، كلَّما أَوْمَأَتْ لي مِن كُوى الإِشْفاقِ أَيْدِ

كنت، كرجل متزوج، أخجل عندما تمتد إليَّ يد مشفقة على عذاباتي تريد أن تأخذني إلى حب آخر ووضع آخر

ما تَبَقَّى غيرُ هذا القيدِ لي في بقايا الليلِ مِن هَمٍّ وسُهْدِ

ما بقي من همومي سوى هذا القيد

إنَّه عُمري فَلَنْ أرمي بِهِ لا أُطيقُ السَّيْرَ في الوَحْشَةِ وَحْدي

قيد الزواج هو عمري، ولن أتخلص منه.. فهو يؤنس وحشتي ولا أطيق السير بدونه

١٧ انتقي لي حكاية

بعد عودته من بابل ونينوى قال هذه القصيدة، ونرى أنه يقصد عودته من لقاء مع المحبوبة، أو هكذا شاء خيالنا، ١٩٥٣:

عُدْتُ مِن عالَمٍ، تألَّقَ في عيْـ ـنَيْنِ فَيَّاضَتَيْنِ بالأَسرارِ

عاد من لقاء من المحبوبة.. عاد من عالم عينيها المليئتين بالأسرار

فيهِما يَغرَقُ الخَيالُ، وتَنْهارُ الأماني، وتَسْتَحِمُّ الدَّراري

في عينيها لا يبقى مجال لخيال فهما أبعد من كل خيال، وتنهار كل الأمنيات أمام أمنية الوصل معها، وفي عينيها لو تعلمون.. تستحم النجوم. تعساً للذكور.. يجدون امرأة فاتنة، فائقة الجمال، وقوية، ومنيعة.. ولا يستريح بالهم إلا أن يطفئوا بريق عينيها.. تباً لهم.. ولها!

كَثُرَتْ فيهِما حِكاياتُ نَعْمائي، وعَزَّتْ، وحارَ فيها اخْتِياري

في عينيها حكايات كثيرة عن النعمة التي أنا فيها بسبب لقائي بهذه الفاتنة، وعزيزة هذه النعماء وممتنعة.. فأنا معذب بهاتين العينين.. وقد احترت أي حكاية من الحكايات الوهمية هذه أختار

ما تُراني، يا بِدْعَةَ الحُسْنِ، أَرْوي لِصِحابي، وكلُّهُمْ في انتِظاري؟

ايتها الفائقة الجمال! ماذا سأقول لأصحابي عن هذه العلاقة المبتورة.. كلهم ينتظرونني لأروي لهم..

اِنتَقي لي حِكايَةً، ربَّما شَكَّ صِحابي في الصِّدْقِ مِن أَخْباري

قولي لي حكاية عن علاقتنا الصعبة هذه كي أرويها للأصحاب، فقد يشكون في حكاية أبتدعها بنفسي. كل تفسيري للقصيدة تفسير بحسب ما تخيلت.. اقرأها واشعر بها وحدك.. هذه قصيدة لا تفسر

١٨ نلعب معاً

١٩٥٠

أحْبَبْتِني، أَحببْتِ أنْ تَلعَبي   وتَسْحَبي الذَّيْلَ على الكَوكَبِ

أحببتني لهواً، وافتخاراً لكي تفتخري بذلك وكأنك تسيرين في السماء وتسحبين ذيلك على الكواكب

وتَسمَعي نَجْواكِ مُخْضَلَّةً   على شِفاهِ الزَّمَنِ الأشْيَبِ

أحببتني لكي تسمعي همساتنا نديَّة مخضلة على شفتي الزمن العتيق.. تريدين أن يقال دائماً.. كانت حبيبة فلان.. حسناً..

أُمْنِيَّةٌ، أدركتِها فاغْرِفي   ما شِئتِ مِن نَعمائِها واشْربي

لقد أدركت أمنيتك، فاغرفي من هذه النعمة ما شئت.. فأنا أيضاً مستمتع

١٩ أطهر من الخجل

١٩٤٦

ألفيتُها ساهِمَةً   شارِدَةً تَأمُّلا

نادَيْتُها، فالتَفَتَتْ   نَهداً، وشَعراً مُرْسَلا

فما انْثَنَتْ حائِرَةً   ولا رَنَتْ تَدَلُّلا

فقط التفتت.. ليس بحيرة؛ ولا هي رنت، أي نظرت، بدلال وغنج

ولا دَرَتْ وَجْنَتُها   مِن خَجَلٍ تَبَدُّلا

كأنَّها في طُهْرِها   أَطْهَرُ مِن أنْ تَخْجَلا

هذه صغيرة يا أبا ريشة. وفيروز تقول لك: «حلوة والخصر بيلوي.. ما بتعرف أنها حلوي// لا تفوقها ع حالا.. بلكي شغلت لها بالا»، وبالفصحى: «حلوة وجسمها بدأ يأخذ شكله، ولا تعرف أنها حلوة/ لا تجعلها تعي ذلك، فسوف تشغل لها بالها»

٢٠ سر السراب

١٩٤٦

لا تَحسَبيني سَالِياً، إنْ تَلمَحي   في ناظِري، هذا الذُّهولَ المُبْهَما

سالياً: ناسياً، ومهملاً الحب

إنْ تَهتِكي سِرَّ السَّرابِ وَجَدْتِهِ   حُلُمَ الرِّمالِ الهاجِعاتِ على الظَّما

الهاجعات: النائمات. هذا شعر لا يشرح.. بل يقرأ بخشوع

٢١ شرف الوثبة

ألقيت في حفلة، ١٩٤٧، ابتهاجاً بعيد جلاء الفرنسيين:

يا عَروسَ المجدِ، تِيهِي واسْحَبِي   في مَغانِينا ذُيولَ الشُّهُبِ

يا ربة المجد تبختري واسحبي ذيول شهب السماء في أراضينا

لن تَرَيْ حَفْنَةَ رَملٍ فوقَها   لم تُعَطَّرْ بِدِما حُرٍّ أبي

لن تري فوق مغانينا حفة رمل إلا وقد عطرتها دماء شهيد حر

دَرَجَ البَغْيُ عليها حِقْبَةً   وهَوى دونَ بُلوغِ الأَرَبِ

مشى الظلم فوق أراضينا زمناً، ولم يحقق هدفه

لا يموتُ الحقُّ، مهما لَطَمَتْ   عارِضَيْهِ قَبضَةُ المُغْتَصِبِ

عارضيه: خديه

مِن هُنا شَقَّ الهُدى أكمامَهُ   وتَهادى مَوْكِباً في مَوْكِبِ

من بلادنا شق هدى الإسلام أكمامه، كما يشق الزهر أكمامه، وأخذ الإسلام ينتشر بعد أن وصل الشام.. فمن الشام بدأ فتح الاندلس غرباً وكان الوصول إلى حدود الصين شرقاً

وأتى الدُّنيا فرَفَّتْ طَرَباً   وانتَشَتْ مِن عَبْقِهِ المُنْسَكِبِ

وطار الإسلام شرقاً وغرباً وشعرت الدنيا بنشوة من عبيره وتسامحه

وتَغَنَّتْ بالمُروءاتِ التي   عَرَفَتْها في فَتاها العَربي

وتغنت الدنيا بشهامة النبي العربي

أَصْيَدٌ، ضاقَتْ به صَحْراؤُهُ   فَأَعَدَّتْهُ لِأُفْقٍ أَرْحَبِ

النبي أصيد، سيد ماجد، أعدته صحراؤه لبلوغ أفق أوسع

هَبَّ لِلفَتْحِ، فَأَدْمى تَحْتَهُ   حافِرُ المُهْرِ جَبينَ الكَوكَبِ

حوافر خيل المسلمين وصلت إلى أبعد مكان، فكأنها داست جبين الكوكب فنزف دماً

سَكِرَتْ أَجيالُنا في زَهْوِها   وغَفَتْ عن كَيدِ دَهرٍ قُلَّبِ

أجيالنا اللاحقة سكرت في زهو، وتكبر، للانتصار.. وأصابها الغرور غافلة عن مكائد الدهر المتقلب

وصَحَوْنا، فإذا أعناقُنا مُثقَلاتٌ بِقُيودِ الأَجْنبي

ثم إذا نحن نرى الأجانب يطوقون أعناقنا بقيود الانتداب والاحتلال

نحن مِن ضَعْفٍ بَنَيْنا قُوَّةً لم تَلِنْ لِلمارِجِ المُلْتَهِبِ

من ضعفنا في القديم صنعنا قوة لا تلين للمارج، اللهب، فهي أقوى من الحديد الذي يلين للنار

كم لنا مِن مَيْسَلونٍ نَفَضَتْ عن جَناحَيْها غُبارَ التَّعَبِ

خضنا معركة ميسلون وأشباهها، فنفضنا بذلك غبار الإنهاك والتراخي

كم نَبَتْ أَسيافُنا في مَلْعَبٍ وكَبَتْ أفراسُنا في مَلْعَبِ

كثيراً ما خابت سيوفنا في ملعب، أي ساحة قتال، وكثيراً ما عثرت خيولنا فلم نحقق الانتصار

مِن نِضالٍ عاثِرٍ مُصْطَخِبٍ لِنِضالٍ عاثِرٍ مُصْطَخِبِ

سرنا من نضال فاشل لنضال فاشل

شَرَفُ الوَثْبَةِ أنْ تَرضَى العُلا غَلَبَ الواثِبُ أم لم يَغْلِبِ

الشرف في الوثبة النضالية أن يكون فيها رضاً للمعالي والمجد بغض النظر عن الانتصار

فَالتَفِتْ مِن كُوَّةِ الفِرْدَوْسِ يا فَيْصَلَ العَلياءِ وانظُرْ واعْجَبِ

فيا فيصل الأول ـ وتوفي عام ١٩٣٣ قبل استقلال سورية بثلاث عشرة سنة، وفي زمنه وقعت ميسلون ـ التفت من نافذة الجنة التي حللتها، وانظر كيف تحقق الاستقلال

أَتَرى كيفَ اشْتَفَى الثأرُ مِن الـ ـفاتِحِ المُسْتَرِقِ المُسْتَلِبِ

ضَلَّتِ الأُمَّةُ إنْ أَرْخَتْ على جُرحِ ماضيها كَثيفَ الحُجُبِ

أينَ في القُدسِ ضُلوعٌ غَضَّةٌ لم تُلامِسْها ذُنابَى عَقْرَبِ؟

ليس في القدس ضلوع إلا وقد لسعتها ذنابى، أي حُمَةُ أي إبرة ـ العقرب الصهيوني

وَقَفَ التاريخُ في مِحْرابِها وِقْفَةَ المُرْتَجِفِ المُضْطَرِبِ

التاريخ ينتظر حدوث شيء في فلسطين. . والتاريخ قلق. معه حق، فهذا قيل قبل النكبة بقليل. .

يا روابي القدسِ، يا مَجْلَى السَّنا يا رُؤَى عيسى على جَفْنِ النَّبي

تلال القدس هي مجلى السنا، مكان تجلي الضوء المتمثل في الرسالات السماوية، وهي رؤى عيسى ورسالته التي تجلت أيضاً في جفن محمد فهي رؤى محمد أيضاً

دونَ عَليائِكِ في الرَّحْبِ المَدى صَهْلَةُ الخَيْلِ وَوَهْجُ القُضُبِ

دون مكانتك العليَّة يا قدس، دونها أي يحميها ويقف دونها، في التاريخ الممتد ثمة خيول تصهل وقضب، أي سيوف، تتوهج. ما كان أرخص الكلام في ذلك الزمن! وما أكثر جعجعات عمر أبو ريشة وشموخياته، وعروبياته

٢٢ اعتذار أنيق للراحل

في تأبين الزعيم من الكتلة الوطنية سعد الله الجابري، ١٩٤٧:

هيكلَ الخُلْدِ، جئتُ أَسْكُبُ نَجوا ... كَ رُؤَىً في مَحاجِرِ الآبادِ

يا قبر سعد الله الجابري، يا هيكل الخلود، أتيت أسكب مناجاتي إياك، لكي تصبح رؤية ودليلاً في محاجر، عيون، المستقبل حتى الأبد الأبيد

في مَحاريبِكَ الوَضيئَةِ تَغفُو ... كِبرياءُ الآباءِ والأَجدادِ

في محرابك، أي وسطك، أيها الضريح كبرياء أسلافنا، فالجابري يمثل مجد الآباء

قد تَساوَى لَدَيْكَ حالِبُ شَاةٍ ... في مَجالِ الفِدا وسَيِّدُ نادِ

كنت لا تفرق بين راعي شياه وسيد من السادة في مجال الوطنية والنضال

أيُّ قَبْرٍ وقفتُ أَرْنُو إليهِ ... والأَسى مَالِكٌ عليَّ قِيادي؟

الأسى، الحزن، يملك زمامي ولا سيطرة لي عليه

ما تبقَّى مِنْ أَمْسِهِ غيرُ طَيْفٍ ... رائِحٍ في رُؤَى الحياةِ وغَادِ

بقي من تاريخ سعد الله مجرد طيف يروح ويجيء أمام عيون الناس

وغداً تَهْدَأُ الشُّجونُ، ويَخْبُو ... لاعِجُ الشوقِ في الضُلوعِ الصَّوادي

غداً يخف الحزن، وينطفئ لاعج، لهيب، الشوق في الضلوع الصوادي، العطشى

وتَمُرُّ الأجيالُ سائِلَةً: مَنْ ... كان سَعْدٌ، وما له مِن أَيادِ؟

وستأتي أجيال تسأل: من كان سعد، وما كانت أياديه، أي فضائله؟

مَن تُراهُ بينَ المُلوكِ، وبين الـ ... ـفاتِحينَ الغُزاةِ والقُوَّادِ؟

وهل كان ملكاً أم من الفاتحين أم القادة؟ كدت تهجوه يا أبا ريشة

أيُّها السائلونَ، كم زُيِّفَ الدُّرُّ ... وأَمسى قَلائِدَ الأَجْيادِ

يا من تسألون هذا السؤال! كثيراً ما رأينا اللؤلؤ الزائف وقد أمسى قلائد الأجياد، أي عقوداً في الأعناق

كم قُبورٍ تَنَفَّسَ الطِّيبُ منها ... ما حدا بِاسْمِها على الدهرِ حادِ

ما أكثر القبور التي حوت عظماء النفوس حتى لتصعد منها رائحة الطيب، ولكن لا أحد يذكر أصحابها

رُبَّ ثَاوٍ وراءَها، كان في قا ... فِلَةِ الحَقِّ، خيرَ ساعٍ وفَادِ

ورب ثاو، راقد، في هذه القبور كان خير فادٍ لزملائه بنفسه ضمن قافلة النضال والحق

حَمَلَ الجُرْحَ صامتاً مُطمَئِنّاً   وأتى رَبَّهُ على مِيعَادِ

هذا الراقد حمل جرحه بصمت، ومات مطمئناً. وسعد الله الجابري مات ميتة عادية على فراشه ١٩٤٧

ودَمُ المؤمنينَ ما ضاعَ عندَ اللَّـ   ـهِ أَجْراً، إنْ ضاعَ عند العِبادِ

قارَعَ البَغْيَ وَهْوَ أعْزَلُ إلّا   مِن سِلاحَيْنِ، نَخْوَةٍ واعْتِدادِ

سلاحه كان الشهامة والاعتداد بالنفس وبالوطن

سَعدُ، يا سَعدُ، إنَّهُ لَنِداءٌ   مِن حنينٍ، فهلْ عَرفْتَ المُنادي

أذهَلَتْني عنكَ انتفاضَةُ روُحي   في سماءِ عُلْوِيَّةِ الأمْدادِ

أذهلتني فابتعدت عنك في سنوات النضال انتفاضة الروح الشبابية في سماء الروح.. وكان الشاعر من مجموعة «الشباب الوطني» التي رفضت المعاهدة التي عقدتها مع المحتل الفرنسي «الكتلة الوطنية»، ١٩٣٦، والجابري من أبرز زعمائها

فَتَرَنَّحْتُ أَحْسَبُ السُّحْبَ تَهوِي   تحتَ مَهدِي والنَّجْمَ فوقَ وِسادي

كنت شاباً متحمساً أترنح افتخاراً فكأن الغيوم تتهاوى تحت سريري، وكأن النجم فوق وسادتي

أنا يا سَعْدُ، ما طَوَيْتُ على اللُّؤْ   مِ جَناحِي، ولا جَرَحْتُ اعتِقادي

شَهِدَ اللَّهُ، ما انْتَقَدْتُكَ إلّا   طَمعاً أنْ أراكَ فوقَ انتِقادي

وكَفى المرءَ رِفْعَةً أنْ يُعادَى   في ميادينِ مَجْدِهِ، ويُعادي

مِلْءُ سَمْعِ الجِهادِ صَيْحَةُ ثأْرٍ   تَنْفُضُ الجَمْرَ مِن خِلالِ الرَّمادِ

في الوطن الآن صيحة ثأر

غَمَزَتْ نَخْوَةَ البِلادِ، فهبَّتْ   تتلظَّى حَواضِراً وبَوادِ

هذه الصيحة نخست البلاد في خاصرتها وأثارت نخوتها، فهبت البلاد مشتعلة مدناً وبواديَ

وتَنادَتْ حُماتُها لِروابِي الـ   ـقدسِ مَحمُولَةً على الأحْقادِ

ونادى حماة الديار بعضهم بعضاً للذهاب للقدس يحدوهم الغضب والحقد على الظلم. كان هذا سنة ١٩٤٧، وجاء فلسطين من سورية جيش الإنقاذ بقيادة فوزي القاوقجي ولم يصنع شيئاً.. أو على الأقل هذه كانت النتيجة.. حماسة و«حقد» على رأي شاعرنا.. ولا تخطيط ولا تنظيم

أَيْ فِلَسْطينُ! ما العروبةُ لولا   قَبَسٌ مِن سَنا النُّبُوَّةِ هادِ

٢٣ فلتكن إنساناً

في ألفية المعري ١٩٤٤:

عالَمُ الوهمِ نحن صُغْنا رُؤَاهُ   وأَرَدْناهُ أن يكونَ فَكانا

نحن نصوغ عالماً من الفكر، وهو وهم، أو أننا نخترع الدين ونريده أن يكون حقيقة فيكون؟ المعنى في بطن الشاعر، والشاعر في بطن قبره

لستَ تَستطيعُ أن تكونَ إلهاً   فإنِ اسْطَعْتَ، فَلْتَكُنْ إنسانا

لا يستطيع المرء أن يكون إلهاً كما كان يبشر نيتشة وجماعة اليوجينية في أوروبا، وخاصة إنجلترا التي أسس فيها غولتون هذا المذهب على أبواب القرن العشرين، وأبو ريشة قضى بضع سنين في إنجلترا في الربع الثاني من القرن العشرين

ما العزاءُ الذي نَحَرْتَ لهُ العُمْـ   ـرَ، وقَدَّمْتَهُ لهُ قُربانا؟

ما الشيء الذي عزاك وصبَّرك حتى ذبحت عمرك بزهدك وصومك وقدمت هذا العمر قرباناً لهذا الشيء؟

أتَصَبَّاكَ مَوردٌ مِن وَراءِ الـ   ـغيبِ تَغْشَى نَعيمَهُ جَذْلانا؟

هل تصباك، وأغراك، مورد، كما نبع الماء، في الغيب.. وكنت موقناً أنك ستأتيه جذلان فرِحاً؟ وأبو ريشة متحير في شأن أبي العلاء الذي أسرف في الشك والتشكيك في الآخرة. ولأن أبا ريشة ذو خلفية صوفية ودينية متينة فهو غير متحمس حماسة شعراء معاصرين كثر لفكر أبي العلاء المتشكك.. هو فقط متحير بإزاء زاهد المعرة

٢٤ القلم والمبراة

قال الشاعر، عام ١٩٤٥، وقد تراجع الرئيس الأميركي فرانكلين روزفلت عن مواثيق بشأن الحقوق والحريات:

أَتَرْقُصُ الطيرُ في أَشْراكِ صائِدِها   ويَحْرُسُ الذئبُ في أَعْطانِها الغَنَما؟

هل ترقص الطيور في شبكة الصياد؟ وهل يحرس الذئب الغنم في مباركها ويحميها؟

ومَا المَواثيقُ إنْ فَاهَ القويُّ بِها   ونَصَّبَ الخَتْلَ في أَقْداسِها حَكَما؟

ما قيمة المواثق التي يقدمها القوي جاعلاً الغدر حكما يسيطر على هيبتها ويغيرها كيفما شاء؟

ما كانَ أَغْناهُ عن تَزويرِ غَايَتِه   مَن يَحْمِلُ السيفَ لا يَبْرِي به قَلَما

لماذا يُتعِب القوي نفسه في تزويق غاياته؟ غاياته واضحة: حامل السيف لا ينوي أن يبري به القلم

٢٥ سيد الأنبياء

١٩٤١

قَد أَتى طَوْدَهُ المُوَشَّحَ بالنُّو ... رِ، وأَغْفَى في ظِلِّ غارِ حِراءِ

طوده: جبله

وإذا هاتِفٌ يَصيحُ بِهِ اقرَأْ ... فَيُدَوِّي الوُجودُ بِالأَصْداءِ

وإذا الأرضُ والسماءُ شِفاهٌ ... تَتَغَنَّى بِسَيِّدِ الأنبياءِ

٢٦ شموخ

قال وقد خرج من سجن الفرنسيين، ١٩٤٥:

غَمَزَتْهُ عَرائِسُ العَيْشِ إغرا ... ءً، فلم تَستَبِحْ حِمَى عُنْفُوانِهْ

غمزت، أي لكزت بمرفقها، عرائس العيش، مغريات الحياة، هذا الشاعر ولكنها لم تستطع استباحة شموخه

شاعِرٌ لو شَكا الحياةَ لَكانَتْ ... سَرَواتُ المُلوكِ مِن نُدْمانِهْ

لو كان غرض الشاعر أن يشكو من شظف العيش وضيق الرزق لتمكن من بلوغ أمانيه ولأصبح السراة، السادة، من الملوك من أصدقائه

عادَ لِلدَّوحِ عَندَليبُكَ يا شِعْـ ... ـرُ، وماتَ النَّعيبُ في غِربانِهْ

قد خرجت من السجن، فها قد عاد عندليب الشعر للإنشاد، ومات نعيب غربان الدوح، أي الشجرة الوارفة

أيْ فِلَسْطينُ! يا ابْتِسامَةَ عيسى ... لِجِراحِ الأذى على جُثْمانِهْ

قبل خمس سنوات من هذه القصيدة كان أبو ريشة قد ترشح للانتخابات ولكن أحد كبار المشايخ حض الناس على عدم التصويت له لأنه كان قال بيتاً يشبه هذا البيت، وصَلَبَ فيه المسيح، كان قال: (كصرير المسمار في كف عيسى/ليس تنسى صداه أذن الليالي)، واضطر الشاعر لسحب ترشحه. وها هو يجعل للمسيح جثماناً.. الشعراء مهما بلغ بهم التدين إسلامياً تظل تستهويهم صورة المسيح المخلِّص الذي افتدى البشرية بنفسه

يا تَثَنِّي البُراقِ في ليلةِ الإسْـ ... ـراءِ، والوَحْيُ مُمْسِكٌ بِعِنانِهْ

فلسطين شهدت البراق يتثنى والوحي، جبريل، يمسك بزمامه بينما البراق يصعد من القدس إلى السماء بالرسول

٢٧ خالد

١٩٣٨

لم يَلُحْ قبلُ في كِنانَةِ مَخْزُو ... مَ سِنانٌ كَمِثْلِ هذا السِّنانِ

لم يظهر في جعبة قبيلة مخزوم سنانُ رمحٍ مثل خالد بن الوليد

صَدَقَ العَهْدَ، فالفُتوح تَوالَى ... وصَدى خالدٍ بِكُلِّ مكانِ

لم تُزَعْزِعْ مِن عَزْمِهِ إمْرَةُ الفا ... روقِ، بل فَجَّرَتْهُ فَيْضَ تَفانِ

لم يضعف همته أمر عمر بن الخطاب بعزله عن الجيش، بل ازداد تفانياً

وإذا راضَتِ العَقيدةُ قلباً ... فمِنَ الصَّعْبِ أنْ يَكونَ أَناني

يا مُسَجَّىً في قُبَّةِ الخُلْدِ يا خا ... لِدُ، هل مِنْ تَلَفُّتٍ لِبَياني؟

لا رَعاني الصِّبا إذا عَصَفَ البَغْـ ... ـيُ، وألفَى فَمي ضَريحَ لِساني

لا تمتعت بشبابي ذا عربد الظلم فوجد لساني قابعاً في فمي ساكتاً وكأنَّ فمي قبر لهذا اللسان

أنا مِن أُمَّةٍ أَفاقَتْ على العِزِّ ... وأَغْفَتْ مَغْمُوسَةً في الهَوانِ

عرشُها الرَّثُّ مِن حِرابِ المُغيرِيـ ... ـنَ وأَعْلامُها مِنَ الأَكْفانِ

عرش أمتي الآن رث مهترئ لأنه مبني على اتفاقيات مع المستعمرين، ورايتنا أكفان ضحاياهم

لا تَقُلْ ذَلَّتِ الرجولةُ يا خا ... لدُ، واسْتَسْلَمَتْ إلى الأحزانِ

قُمْ تَلَفَّتْ تَرَ الجنودُ، كما كا ... نُوا مَنارَ الإباءِ والعُنْفُوانِ

ما تَخَلَّوْا عنِ الجِهادِ، ولكنْ ... قادَهُمْ، كلُّ خائِنٍ وجَبانِ

٢٨ العبقرية والأعداء

في حفل تكريم الشاعر أحمد الصافي النجفي، ١٩٣٣:

مُنْتَهى الفَخْرِ أنْ تُعادَى، فلولا الـ ... ـعَبقَرِيَّاتُ لم تَكُ الأعداءُ

أَرسِلِ الشِّعْرَ مِثلَما تَطْلُبُ النَّفْـ ... ـسُ، وحَلِّقْ ما شاءَتِ العَلياءُ

٢٩ شفاعة العشرين

أَفْدِي الحِسانَ وأيُّ صَبٍّـ ... لا يَكونُ فِداءَهُنَّهْ

صب: عاشق

الـمُـسْـبِـلاتُ شُـعـورَهُـنَّـ ـالـسُّـودَ فـوقَ نُـحـورِهِـنَّـهْ
مـا سِـرْنَ إلّا والـفـؤا دُ سَـرى وصَـفَّـق إِثْـرَهُـنَّـهْ
بـاريـسُ لـن أَنْـسـى مَـهـا كِ، ولا الـكَـواعِـبَ مِـن فِـيَـنَّـهْ

مهاك نساؤك المشبهات المها، أي بقر الوحش. فينَّه: فيينَّا

حـيـثُ الـهَـوى فَـرْضٌ عَـلَـيَّـ ـوقُـبْـلَـةُ الـوَجَـنـاتِ سُـنَّـةْ
أَغْـوَيْـنَـنـي بـعـدَ الـمَـتـا بِ عـن الـهـوى فَـتَـبِـعْـتُـهُـنَّـهْ
فـي الـصُّـبْـحِ أَبْـرَمْـتُ الـعُـهـو دَ، وفـي الـمـسـاءِ نَـقَـضْـتُـهُـنَّـهْ
هَـذي ذُنـوبـيَ إِنَّـمـا الـ ـعِـشْـرونَ تَـشْـفَـعُ لـي بِـهِـنَّـهْ

كونه في نحو العشرين من عمره يشفع له هذا اللهو. وكان مر بباريس وفيينا وهو عائد من إنجلترا بعد انتهاء دراسته

عمر أبو ريشة
فهرس القوافي

إبراهيم ناجي
(١٨٩٨ ـ ١٩٥٣)

لـمَّا كانت مادتنا في هذا الكتاب مقصورة على الشعر العمودي فنحن واقعون تحت اتهام جاهز بأننا تقليديون رافضون كل ما جاء بعد الشعر العمودي من أشكال. وفي سياق دفاعنا عن أنفسنا سنتحدث عن «الإرهاق اللغوي»، وهذا مصطلح سككته لتوي، وسنتحدث عن الرومنسية، وعن الرمز، وعن التعبير بجرس اللفظة، والتعبير بمعناها، وعن التعبير بجرسها وبمعناها معاً. وإنما أحشر هذه العناوين هنا كي أذكِّر نفسي بها.

أفهَمُ قول من يقول: «كانت روحي كسطح البحيرة قبل أن يعمل فيه سرب النوارس تنقيراً، كانت كوجه الورقة قبل أن تغزوها غربان الكلمات. .» هذا تعبير عن هدوء الروح قبل حلول القلق جاء في تشبيهين متعاقبين. حسناً، كلام مفهوم من مبتدئ، نصفق له قليلاً. لكنني، لا أفهم قول من يقول: «تأجج الملح منبعثاً من بنفسج قلب البحيرة العذبة كي يشجي روحي الحافية إلا من سؤر قلب يحاول أن ينبض». فلا أعرف كيف يتأجج الملح، ولا أستطيع أن أصور لنفسي هذه الروح «الحافية» التي تنتعل «سؤر قلب»، وما هو بالله عليك سؤر القلب؟

(حاشية صغيرة: والله إنك لتحس في أعماقك بأنني أستمتع وأنا أصوغ مثل هذه العبارات التي لا معنى لها. ليتك تمنحني سطرين أو ثلاثة كي أمارس هذه الهواية! هيا؟ لا، كفى).

ثمة فارق بين عبارة ذات معنى، وعبارة فارغة فيها ألفاظ ذات قعقعة. والعبارة ذات المعنى قد تكون أدباً وقد لا تكون، فأما سؤر القلب فهو ليس كلاماً مفيداً أصلاً.

قد تشتبك المجازات في تشكيل يحس المرء بجماله قبل أن يتمكن من النفاذ إلى كل معانيه، وأجمل من هذا أن تتعاقب التشبيهات والمجازات في سلسلة تدخل القلب والعقل معاً دون أن يضطر المرء إلى بذل جهد.

جاء ناس إلى عالم الأدب الوجداني (أقصد بذلك الشعر والخاطرة) يعرضون علينا صناديق مقفلة قائلين: اشتروها قبل أن تفتحوها. فإذا ما فتحناها ورأيناها فارغة قالوا: ألم تكن صناديق جميلة؟ ألم تتمتعوا بأحاسيس الترقب والقلق والفرح وأنتم تعالجون أقفالها؟

ههنا ستراني تقليدياً بحق. لا أريد الفن التجريدي، ولا الأدب الرمزي الذي لا يرمز إلا إلى نفسه.

جاءت بعد شوقي جماعة رومنسية اتخذت من شوقي ومن مطران أبوين غير شرعيين. اجتمع تحت عباءة شوقي، قبيل موته، شعراء اتخذوا لنفسهم اسم «جماعة أبوللو». وكانوا رومنسيين.

ما أشد ما تشبه مسيرة الشعر العربي الفصيح في القرن العشرين النمط المعروف في دنيا الأدب والموسيقى والرسم (كلاسيك ثم رومنس). الكلاسيك: رصانة وعناية بالشكل وانضباط في العواطف وفي الأداة، والأداة تكون لغةً عند الشعراء وقوالب نغمية عند الموسيقيين، وشكلاً ولوناً عند الرسامين. والرومنس: تخفُّفٌ من الرصانة، وتحرر في الشكل، وتعبير حر عن العواطف، وتغيير على الأداة.

ترى هذا النمط «الخالد» وكأنه من طبائع الأشياء: الأب صارم منضبط وابنه متحرر متفلت. ثم يصبح الابن أباً فينضبط ويأتي الحفيد متحرراً ويتكرر النمط. ولا يندر أن ينعكس النمط مع بقائه على نمطيته: فيكون الأب متحرراً متفلتاً، ثم إذا ابنُه يقلد جده في الانضباط.

في القرن العشرين كان القدماء ـ شوقي وحافظ والرصافي والجواهري ـ كلاسيكيين، ثم تبعهم شعراء المهجر وشعراء أبوللو فكانوا رومنسيين. وهذا حين أتناول الظاهرة التي دعوتها «الإرهاق اللغوي».

اسهوهلت اللغة على ألسنة الرومنسيين، ليس فقط لأنهم أرادوها سهلة، بل لأن طبع اللغة التغير. وجاء شاعرنا إبراهيم ناجي في هذا المفترق الذي يلتقي عنده الطريق القادم من الأزهر بالطريق المتجه نحو نزار قباني. فعند ناجي

من اللغة القديمة ألفاظ وتراكيب منثورة في شعره، وهو يصيب ويخطئ في وضع الألفاظ والأساليب القديمة في مواضعها، ولا أشك لحظة في أنه كان يدرك، كلما انحرف انحرافةً، أنه قد انحرف، ولكن المعنى يسوقه. ونال على تلك «الأخطاء» لسعات نقدية جعلته يكتئب بعد صدور أول دواوينه، ويفكر في ترك الشعر.

عند هذا المفترق اللغوي بين العربية الصحيحة الفصيحة القديمة وبين عربية نزار قباني التي هي عربية صحيحة فصيحة جديدة، وقع الشعر في «الإرهاق اللغوي». وقع في هذه الحفرة كثيرون من شعراء المهجر، ولعل أبرز الناجين منهم الشاعر القروي. ربما لأنه اشتغل بالتدريس بضع سنين في مقتبل حياته، ولأنه لم يعرف لغة غير العربية ولم يشغل ذهنه بعلوم وفنون سوى الشعر ولغة العرب.

ورغم أننا سعينا، فيما اخترناه من شعر ناجي، إلى انتقاء العيون فلن تعدم خطأً هنا وانحرافاً هناك في اللغة. وكان في الزمرة الأبوللية من هو أقوم من ناجي لغة، ولم نجعله من شعراء كتابنا، فمقياسنا يجل عن اللغة.

شعر ناجي ـ برغم ما ذكرنا في الفقرات الثلاث السابقة ـ شعر بريء من حذلقة الرمزيين. يكون أحياناً حشرجة مخنوق يريد أن يعبر عن معنى فتقصر أداته اللغوية فيخابط بيديه ورجليه، فيقول له السامع: وصلت الفكرة. ويكون أحياناً جدولاً عذباً. وما أكثر ما يكون. فأما الرمزيون فترى الحذلوق من حذالقتهم يريدك أن تؤلف بالنيابة عنه القصيدة.. يعطيك مفردات لكل منها «جَرَس» واصنع يا قارئ من هذه «الأجراس» سيمفونيتك. يقول لك: «طاف طير النشوة مخترقاً قلب ظلمة البنفسج، ففاح ليمون الشفة بحزن مغلف بفرحة الفراق». فتفضل وحِسَّ، إن كنت تُحِسُّ، بما في هذه الكلمات من رنين. فأما نزار قباني فينسج لك بساطاً من التشبيهات والمجازات في كلمات سهلة، ويتعانق اللفظ والمعنى في شعره عناق حبيبين. فإن سألتَ، ملتمساً مني أن أستطرد: فلماذا لا نراك أدخلت نزاراً حظيرتك؟ فالجواب أن نزاراً توهج في شعر التفعيلة، فهو خارج من صفة هذا الكتاب الذي أراد أن يؤبن الشعر العمودي.

إبراهيم ناجي

ولد في حي شبرا بالقاهرة وكان ثاني سبعةٍ من أبناء العائلة. وكان في بيت أهله كتب، وكان أبوه يشجعه على القراءة ويشتري له الدواوين. قرأ المتنبي والشريف الرضي وشوقي وحافظاً، وسمع أباه يروي لأمه قصة «أوليفر تويست» لديكنز. واشترى له أبوه قصة ديكنز الأخرى «ديفيد كوبرفيلد» فحفرت في نفسه عميقاً. وأثارته قسوة معلم رياضيات سوري، في المدرسة التوفيقية الثانوية، ولكنه تبين خلف هذه القسوة اهتماماً به، وحثه هذا الاهتمام على أن يدرس ويتفوق، وأن يتخذ طريق الدراسة العلمية، ولتفوقه أدخل كلية الطب، وتخرج من القصر العيني وهو في نحو الرابعة والعشرين من عمره طبيباً باطنياً. كان يقرأ الإنجليزية، وتعلم الفرنسية.

اكتشف بعد تخرجه أنه مصاب بالسكري فاضطرب لذلك، ثم دهسته سيارة فكسرت ساقه، فعولج في لندن ثلاثة أشهر. تزوج سامية، وهي ابنة مسؤول كبير في القاهرة. وأنجب ثلاث بنات: أميرة وضوحية ومحاسن.

هذا لتعرف أنه كان شخصاً عادياً.

كانت له عيادته الخاصة في حي شبرا، ولكنه ظل يشتغل في الوظائف الحكومية. عاش شبابه في زمن كان فيه شوقي وحافظ ومطران يملأون الدنيا شعراً. ولم يستطع أن، ولا سعى إلى أن، يقلد أحداً منهم. فكان نفسه. وكان رجل أسرة في بيته، لا يصنع شيئاً في يوم الجمعة إلا أن يجلس في كرسيه الهزاز وحوله زوجته وبناته. وكان هائماً بجمال الجميلات في العيادة، وفي كل مكان. فأما «عِفَّت» ملهمته الأولى ففتاة في الحي أحبها حب مراهقين ومضت في سبيلها. وأما الممثلات فقد قال القصائد في زينب صدقي وسامية جمال وزوزو ماضي وزوزو حمدي الحكيم، وأعجب بأمينة رزق. وبعد موته بإحدى عشرة سنة غنت له أم كلثوم الأطلال التي لفقها لها ـ قيل صالح جودت ـ من قصيدتين لناجي، وأُبدلت الكلمات الأولى (يا فؤادي «رحم الله» الهوى) فجُعلت (يا فؤادي «أين أيام» الهوى) وبهذه الكلمات سجلت أم كلثوم الأسطوانة التي سمعتُها في صباي. ثم كأن أحمد رامي استثقل الصيغة الجديدة فجعلها (يا فؤادي «لا تسل» أين الهوى) وهذا ما درج في الحفلات. وكسبت أطلال الحفلات من الصيغة الجديدة هذه «اللا تسل» فهي أحسن للغناء، وكسبت أن السنباطي مد «يديّ» فجعلها «يديَّا» في مقطع «أعطني حريتي»، وكان المقطع في التسجيل مقيد القافية على الأصل. وخسرت أطلال الحفلات إطلالة

قصيرة وجميلة لعود السنباطي في بداية المقدمة، فانفرد محمد عبده صالح على قانونه بالصولو.

وبعد أغنية «الأطلال» بشهرتها المدوية زعمت عدة ممثلات أنهن ملهمات الشاعر. وصارت مسألة الملهِمة الحقيقية علكة في حلوق الصحف والتلافيز. ولولا الأطلال لما عرف الكثيرون إبراهيم ناجي.

لم يكن إبراهيم ناجي الوادع الباكي ولا الهائم الشاكي، كان يعشق المرأة، ويستلهم من عطور اللائي يمررن بعيادته من جميلات الشاشة والمسرح الشعر؛ أوليس الجائع الذي يرى ويشم لذيذ الأطعمة أقدر على وصفها ممن ملأ بطنه منها؟ وأقدر على وصفها، أيضاً، ممن لم يرها أصلاً؟

كان ناجي أيضاً أسد مجالس. كان سريع البديهة مجلجل الضحكة، يملك حافظة قوية تعينه في تزيين كلامه بالأشعار. كان يحضر مجالس كبار الأباظيين، وكانت له في العقد الأخير من حياته رابطة للأدباء هو رئيسها، وكان يحاضر في الطب وفي شكسبير. وقد كتب كتباً ومقالات في الأدب والاجتماع. فهذا جانب من شخصيته مختلف عما يبوح به معظم شعره.

أحيل ناجي إلى المعاش من وظيفته الحكومية في أعقاب ثورة الضباط الأحرار، ومات بعد أشهر في عيادته بشبرا بالقاهرة عام ١٩٥٣.

١ نطوف حولك

متى يَرِقُّ السُّخْطُ يا قاسي ... ويَلتقي المَنْسِيُّ والنَّاسي

وأنتَ مثلُ النَّجْمِ في المُنْتَأَى ... وفي السَّنا الخاطفِ كَالماسِ

من حيث المنتأى، أي البعد، فأنت كالنجم، ومن حيث السنا، أي البريق، فأنت كالماس

يَرنُو له الناسُ ويَبْغُونَهُ ... وما يُبالي النَّجْمُ بِالناسِ

وأنتَ كأسُ الحُسْنِ، لكِنَّنا ... مثلُ حُبابٍ حامَ بِالكاسِ

حباب: فقاقيع

٢ اسألي القُبلة

تُسائِلُني عيناكِ عن سالِفِ الهوى ... بِقلبي، وتَسْتَقصي قديمَ دُيونِ

عيناكِ تبحثان في عينيَّ عما بقي من الحب القديم بقلبي، وتتفحصان هذه الديون القديمة التي يجب علي تسديدها الآن، فقد كنتُ نلتُ منك الكثير

إذا كنتِ في شَكٍّ سَلي القُبلَةَ التي أَذاعَتْ مِنَ الأَسرارِ كلَّ دَفينِ
مُناجاةَ أشواقٍ، وتَجديدَ مَوْثِقٍ وتَبديدَ أَوْهامٍ، وفَضَّ ظُنونِ

القبلة التي تبادلناها الآن ـ قبل التفحص بالعيون ـ تشهد بتجديد الموثق، أي العهد والجمع مواثيق، وتبدد الأوهام وتفض وتنهي الظنون

وشَكوى جَوىً قاسٍ وسُقْمٍ مُبَرِّحٍ وتَسهيدَ أجفانٍ، وصبرَ سِنينِ

والقبلة تحمل من المعاني قسوة البعد عنكِ، وسهر عينيَّ وصبري كل هذه السنين

٣ تأديب المغرورين

وفي سبيلِ الزَّادِ والمَأكَلِ نملأُ صدرَ الأرضِ إِعْوَالا

إعوالا: بكاء وعويلاً

كم يَسخَرُ النَّجْمُ بِنا مِنْ عَلِ وكَمْ يَرانا اللَّهُ أَطْفالا

* * *

يا رَبِّ غُفرانَكَ إِنَّا صِغَارْ نَدِبُّ في الدنيا دَبيبَ الغُرورْ
نَسحَبُ في الأرضِ ذُيولَ الصَّغارْ والشَّيْبُ تأْديبٌ لَنا والقُبورْ

الصغار: الحقارة

٤ إحساس النهاية

كان على فراش المرض وشعر أنه «ينتهي» فقال:

واضَياعَ الحُزنِ والدَّمْـ ـعِ على العُمْرِ المُضاعِ
وهُتافَ القلبِ بِالشَّكْـ ـوى على غيرِ انتِفاعِ
طالَ بي سُهدي وإِعْيا ئي، وقد حانَ اضْطِجاعي
وإذا الراحةُ حانَتْ بعدَ لأيٍ ونِزاعِ

بعد لأي: بعد إبطاء، نزاع: احتضار

فَصُدورُ الغيدِ سِيَّا نِ وأنيابُ السِّباعِ

٥ صدر الظلام

قَـد صـارَ حُـبُّ الـحـيـاةِ مِـنَّـا   يُـقْـنِـعُ بِـالـجِـيـفَـةِ الـسِّـبـاعْ

التعلق بالحياة يجعل الضواري والأسود تقنع بالميْتة.. حب الحياة يقنع المرء بالنزول عن مرتبته إلى دركة مرذولة

وعَـلَّـمَ الـسَّـمْـحَ أن يَـضِـنَّـا   وثَـبَّـتَ الـجُـبْـنَ فـي الـطِّـبـاعْ

حب الحياة يجعل السخي ضنيناً بخيلاً، ويجعل المرء جباناً

* * *

كـأنَّ صـدرَ الـظَّـلامِ ضـاقْ   مِـن كَـثْـرَةِ الـبَـثِّ كُـلَّ حـيـنْ

البث: الشكوى

يـا وَيْـحَـهُ كـيـفَ قـد أَطـاقْ   شكـوى البَـرايا علـى السِّـنيـنْ؟

كيف تحمَّل صدر الليل شكوى البرايا، أي البشر، طول الدهر؟

٦ يوم من العشق الأفلاطوني

هل منكَ يومُ رِضاً ضَنَّ الزمانُ بِهِ   أَعيـا خيـالـيِ وأَضْنـانـي تَـوَقُّـعُهُ

تـعـالَ، وادْنُ بِـيـومٍ لا نُـحِـسُّ بِـهِ   أَجسـادَنـا فـي صَـفـاءٍ لا نُـضَـيِّـعُهُ

إنِّي أُحِسُّك تَجرِي في صميمِ دمِي   أنتَ الحياةُ، وأنتَ الكونُ أَجمَعُهُ

هـيـهـاتَ يَـخـلُـدُ حُـسْـنٌ لا يُـؤَلِّـهُـهُ   شـعـرٌ مِـن الـنَّـسَـقِ الأَعـلـى ويَـرْفَـعُـهُ

«يرفعه» هذه ضعيفة بعد «يؤلهه»

٧ الحمام الباكي

مـا بِـالـرِّيـاضِ؟ كـآبـةٌ فـي أَرضِـهـا   وسـحـابـةٌ تَـغـشَـى أديـمَ سَـمـاهـا

أديم سماها: وجه سمائها

جَـمَـدَتْ حَـمـائِـمُ أَيْـكِـهـا وأَنـا الـذي   شـاكَـيْـتُـهـا فـاغْـرَوْرَقَـتْ عَـيْـنـاهـا

جمدت الحمائم في الأيك، أي البستان، وأنا كنت أشاكي الحمائم، أتبادل معها الشكوى، فتلمع الدموع في عيونها

٨ العاشق الحالاتيّ

عَــبَـرَتْ بــي نَــشْــوَةٌ مِــن فَــرَحٍ   فَرَقَصْنا، أنا والقلبُ، سُكارى
وعَــرانــا طــائِــفٌ مِــن خَــبَــلٍ   فــانــدَفَــعْـنـا في الأمـانـي نَـتَـبَارى

عرانا، داخَلنا واعترانا، خبل وجنون أطاف بنا، وأخذنا أنا وقلبي نتبارى في الأمنيات المستحيلة

* * *

رُبَّ قَــولٍ كــنــتُ قــد أَعــدَدْتُــهُ   لــكَ إذْ أَلْـقــاكَ يَــأْبَــى أن يُــطــيِــعــا
وحــبــيــسٍ مِــن عِــتــابٍ فــي فَــمــي   قــد عَــصــانــي، فــتَــفَــجَّــرْتُ دُمــوعــا

٩ أحمد شوقي

أيــن الأمــيــنُ عــلــى الإمــا   رةِ، والــحــريــصُ عــلــى الــلِّـواءْ
قَــبَــسٌ أضــاءَ الــعــالَــمِــيــ   ــنَ كــمــا تُــضــيءُ لــهُــمْ ذُكــاءْ

ذكاء: الشمس

ثــم اخــتَــفــى خــلــفَ الــغُــيــو   بِ مــخــلِّــفــاً ظُــلَــمَ الــمــســاءْ
فــكــأنَّــمــا هِــبَــةُ الــسَّــمــا   ءِ قــد اسْــتَــردَّتْــهــا الــســمــاءْ

١٠ لم يسهر سوانا

كــم تــجــرَّعْــنــا هَــوانــا   ولَــقــيِــنــا فــي هَــوانــا

تجرعنا الهوان، أي الذل، ولقينا المر في الهوى

وإذا حَــلَّ الــهــوى هَــيْــ   ــهــاتَ تَــدري كــيــف كــانــا
يــا حــبــيــبــي هَــدأَ الــلــيْــ   ــلُ ولــم يَــســهــرْ سِــوانــا
لا الــدُّجــى ضَــمَّــدَ جُــرحَــيْــ   ــنــا، ولا الــصُّــبْــحُ شَــفــانــا
لا الــهــوى رَقَّ عــلــى الــشــا   كــي ولا قــاســيــهِ لانــا

لا عطَفَ الحب على الشاكي، المريض عشقاً، ولا قسوة الحب لانت

١١ وجدتها

أدركـتُ عـنـدَكَ يَـومِـيَ الـمَـوْعـودا   ولَـقـيِـتُ فـيـكَ مِـثـالِـيَ الـمـنـشـودا
وافَرحَتي بِكَ! فَرْحَةَ الطِّفلِ الذي   يَـلـهُـو ويَـخـلُـقُ كـلَّ يـومٍ عـيـدا

وافَرحَتي بِكَ! فَرْحَةَ الطَّيرِ الذي مَلأَ الروابيَ المُصْغِياتِ نشيدا

١٢ في الواقع أيها السادة..

أَبَكَتْ عيونُكُمُ الضَّعيفَ يَصيرُ في نابِ القَويِّ فَريسةَ استِعبادِ؟
فَتَبَيَّنُوا إذنِ الحَقيقةَ واعْلَموا أن الطبيعةَ هكذا مِنْ عادِ

عاد: أخت ثمود

الجوُّ مِلْكُ النَّسْرِ يَغشاهُ على ما يَشتَهي، والغابُ لِلآساد

يغشاه: يأتيه

١٣ تأبين شوقي

ألقيت عام ١٩٣٣، في ذكرى عام على وفاته:

عامٌ مضى وكأنَّ أمسِ نَعيَّهُ يا ما أقَلَّ العامَ في الأَعمارِ
هيهاتَ أَنْسى قبلَ بَيْنِكَ ساعةً جَمَعَتْ صِحابَكَ في غُروبِ نَهارِ

بينك: فراقك

والشمسُ في سُقْمِ الغُروبِ، وأنتَ في لونِ الشُّحوبِ مُعَصْفَرٌ بِبَهارِ

الشمس كانت محمرة مصفرة في الغروب كالمريض، وأنت شاحب كأن على وجهك العصفر، البهار الأصفر

مَنَحَتْ وقد ذهبتْ شُعاعاً غارباً كَسَناكَ طَوَّافاً على السُّمَّارِ

سناك: ضوءُكَ

تشكُو لِيَ الضعفَ المُلِمَّ لَعلَّ في طِبِّي مُقيلاً مِن وَشيكِ عِثارِ

تشكو لي الضعف الذي ألم بك لعل في معرفتي الطبية ما يقيل عثرتك الوشيكة

ووَجَمْتُ! أَلمَحُ في الغُيوبِ نِهايَةً وأَرى بِعيْنيَ غايَةَ المِضْمارِ

لمحت في الغيب، فيما سيحدث لاحقاً، أن النهاية قريبة، وأن غاية المضمار، نهاية الشوط، وشيكة

وأرى النُّبوغَ، وقد تَهاوى نَجْمُهُ والعبقريَّةَ وَهْيَ في الإِدْبارِ

الإدبار: التراجع والنكوص

أَوَلَمْ يكنْ لكَ مِن حِمامِكَ عاصِماً ذاكَ الجَبينُ مُكَلَّلاً بِالغارِ؟

ألم يكن لك من مجدك ومن جبينك المكلل بأوراق الغار ما يعصمك ويحميك من الموت؟

وَلَّيْتَ في إِثْرِ الذينَ رَثيتَهُمْ ... وأَقَمْتَ فيهِمْ مَأْتَمَ الأَشعارِ
والدهرُ يَقذِفُ بِالمنايا دُفَّقاً ... فمضَيْتَ في مُتَدَفِّقِ التيَّارِ

١٤ ويل لمن لم يجدها.. ويل لمن وجدها

هِيَ قصةُ الدنيا، وكم مِن آدمٍ ... مِنَّا له دمعٌ على حَوَّاءِ
كلٌّ به قَيْسٌ؛ إذا جَنَّ الدُّجى ... نَزَعَ الإباءَ وباحَ بِالبُرَحاءِ

في ضمير كل إنسان يوجد عاشق كقيس، فإذا جن الدجى، أي غطى الليل الدنيا، نزع الإنسان قناعه وترك شموخه وباح ببرحائه وعذابات قلبه

فإذا تَدارَكَهُ النهارُ طَوى المَدا ... مِعَ في الفؤادِ، وظُنَّ في السُّعَداءِ

فإذا جاء النهار أخفى الإنسان الدموع في قلبه، فظنه الناس من السعداء

كلٌّ له لَيْلى، ومَن لم يَلْقَها ... فحياتُه عبَثٌ ومَحْضُ هَباءِ

١٥ مخلوقون للحب

كأنَّ قلوبَنا خُلِقَتْ لِأمرٍ ... فمُذْ أَبْصَرْنَ مَن نَهوى نَسينا

القلوب نسينَ ما خلقن له لدن رؤية المحبوب

شُغِلْنَ عن الحياةِ ونِمْنَ عنها ... وبِتْنَ بِمَنْ نُحبُّ مُوَكَّلينا
فإنْ مُلِئَتْ عُروقٌ مِن دِماءٍ ... فإنَّا قد مَلأناها حَنينا

١٦ الأطلال

هي الأغنية المشهورة، شرحَ الديوان القصيدة بالعبارة: «التقيا وتحابا، ثم انتهت القصة بأن صارت أطلال جسد، وصار هو أطلال روح»:

يا فُؤادي رَحِمَ اللَّهُ الهوى ... كان صَرحاً مِن خيالٍ فَهوى
اِسقِني واشْرَبْ على أطلالِهِ ... وارْوِ عَنِّي طَالَما الدَّمْعُ رَوى

اسقني يا قلبي واشرب أنت على أطلال ذلك الحب، وارتو من شرابك بالنيابة عني، فأنا كثيراً ما ارتويت من دمعي

كيف ذاكَ الحبُّ أمْسى خبراً ... وحديثاً مِن أَحاديثِ الجَوى

الجوى: الفراق

* * *

لستُ أنساكَ وقد أغْرَيْتَني بِفَمٍ عَذْبِ المُناداةِ رَقيقْ
ويدٍ تَمتَدُّ نَحوي كَيَدٍ مِن خلالِ الموجِ مُدَّتْ لِغريقْ
آهِ يا قِبْلَةَ أقدامي إذا شَكَتِ الأقدامُ أشواكَ الطريقْ
وبَريقاً يَظْمأُ السَّاري له أينَ في عينيْكَ ذَيَّاكَ البَريقْ؟

يا من كنت بريقاً يحتاجه الساري، السائر ليلاً، أين ذاك البريق في عينيك الآن؟

* * *

أين مِن عيْني حَبيبٌ ساحِرٌ فيهِ نُبْلٌ وجَلالٌ وحَياءْ؟

لم أعد أرى ذلك الحبيب الساحر.. بعد مرور السنين

واثِقُ الخُطْوَةِ يَمشي مَلِكاً ظالِمُ الحُسْنِ شَهِيُّ الكِبْرِياءْ

الحبيب يمشي بثقة كأنه ملِك من الملوك، وهو يظلمني بجماله، وأشتهي كبرياءه. تغنيها أم كلثوم ملَكاً، أي ملاكاً.. ولا نرى للملاك أن يمشي على الأرض. غنتها عام ١٩٦٤، وكان الحكم الجمهوري في مصر يريد للناس أن ينسوا أن في اللغة العربية كلمة مِلِك

عَبِقُ السِّحْرِ كأنفاسِ الرُّبَى ساهِمُ الطَّرْفِ كأحلامِ المساءْ

* * *

أين مِنِّي مجلسٌ أنتَ بِهِ فِتنةٌ تَمَّتْ سَناءً وسَنَا

يتذكر مجلساً ضمه مع الحبيب، وكان الحبيب فتنة تمت سناء، عُلُوّاً، وسنا، ضياءً

وأنا حُبٌّ وقلبٌ ودَمٌ وفَراشٌ حائِرٌ منكَ دنا

كان في ذلك المجلس يدنو من حبيبه بحيْرة وحذر كما تدنو الفراشة من النار. ألست تدنو هكذا من فتاة متألقة يضج المجلس بجمالها؟ وأنت أيتها المرأة! أرى عينيك يتراقص فيهما بريق الإعجاب، وتميلين مبتعدة أو مقتربة بحذر عن شاب وسيم واثق يشع فتنة

ومِن الشوقِ رسولٌ بيْنَنا ونديمٌ قدَّمَ الكَأْسَ لَنا
فَسَقانا فانتَفَضْنا لحظةً لِغُبارٍ آدَمِيٍّ مَسَّنا

كأنهما انتفضا، ورفضا أن يشوه تلك الفتنة ذلك الغبار الآدمي من الشهوة والشبق

* * *

يا حبيباً زُرْتُ يوماً أيْكَهُ طائرَ الشوقِ أُغَنِّي أَلَمي

أيك: بستان

لَـكَ إبْـطـاءُ الـمُـدِلِّ الـمُـنْـعِـمِ وتَـجَـنِّـي الـقـادرِ الـمُـحْـتَـكِـمِ

يبطئ المحبوب في القدوم للقيا محبوبه بدلال المنعم المتفضل، وهو يتجنّى عليه معتزاً بقدرته وتحكمه في العلاقة..

وحَـنـيـنـي لَـكَ يَـكـوي أَضْـلُـعـي والـثَّـوانـي جَـمَـراتٌ فـي دَمـي

وأنـا مُـرتَـقِـبٌ فـي مَـوضِـعـي مُـرْهِـفَ الـسَّـمْـعِ لِـوقْـعِ الـقَـدَمِ

والعاشق الولهان واقف مرهِفاً سمعه لوقع أقدام الحبيب منتظراً قدومه

* * *

أعـطِـنـي حُـرِّيَّـتـي أطـلِـقْ يَـدَيّ إنَّـني أَعـطَـيْـتُ ما استَـبْـقَـيْـتُ شَـيّ

آهِ مِـن قـيـدِكَ أَدمَـى مِـعـصَـمَـيّ لِـمَ أُبـقـيـهِ؟ ومـا أَبْـقـى عَـلَـيّ

ما احـتِـفـاظـي بِـعُـهـودٍ لـم تَـصُـنْـهـا وإلـى مَ الأَسْـرُ والـدنـيـا لَـدَيّ

ها أنـا جَـفَّـتْ دُموعي فاعْـفُ عنها إنَّـهـا قَـبـلَـكَ لـم تُـبْـذَلْ لِـحَـيّ

* * *

هــاكَ مــا قــد صَـبَّـتِ الـرِّيــ ـحُ بِـــأُذْنِ الـــشَّـــاعِـــرِ

وَهْــيَ تُــغْــري الـقـلـبَ إغْـرا ءَ الـنَّـصـيـحِ الـفـاجِـرِ

الريح تغري الشاعر بالسلوان وهجر الحبيب ذي الدلال

* * *

أيُّــهــا الــشـاعِــرُ تَـغْـفُــو تَــذْكُــرُ الـعــهــدَ وتَـصْـحُــو

تقول الريح للشاعر: إنك تنام وتصحو على ذكر الحبيب

وإذا مـــا الْـــتَـــامَ جُـــرْحٌ جَـدَّ بِـالـتَّـذْكـارِ جُـرْحُ

وإذا ما التام، أي التأم وشفيَ، جرح جلبت لك الذكرى جرحاً غيره.. ما هذا؟

فـتـعـلَّـمْ كـيـفَ تَـنـسَـى وتـعـلَّـمْ كـيـفَ تَـمْـحُـو

* * *

هــاكَ فــانـظُــرْ عــددَ الـرَّمْــ ـلِ قُــلــوبــاً ونِــســاءْ

الريح توسوس للشاعر: ما أكثر النساء! رُح ابحث عن غيرها

فـتَـخَـيَّـرْ مــا تــشــاءْ ذَهَــبَ الــعُــمْــرُ هَــبـاءْ

ضـلَّ فــي الأرضِ الــذي يـنــ ـشُــدُ أبـنــاءَ الــسَّــمــاءْ

واهم من يبحث في الأرض عن مخلوقة كأنها من حوريات الجنة.. هذا غير موجود

أيُّ رُوحــــانِـــيَّـــةٍ تُــعْـــ ــصَــرُ مِــن طــيــنٍ ومــاءْ

فلا روحانية في أي مخلوق خلقه الله من طين وماء

* * *

أيـهـا الـرِّيـحُ أَجَـلْ، لَـكِـنَّـمـا هِـيَ حُـبِّـي وتَـعِـلَّاتـي ويَـأْسـي

تعلاتي: ما يصبِّرني في هذه الدنيا

هِيَ في الـغَـيـبِ لِقـلـبي خُـلِقَـتْ أَشرقَتْ لِي قبلَ أن تُشرِقَ شَمسي

وعـلـى مـوعـدِهـا أطـبَـقْـتُ عـيـنـي وعـلـى تَـذكـارِهـا وَسَّـدْتُ رأسـي

* * *

يـا حـبـيـبـي كـلُّ شَـيءٍ بِـقـضـاءْ مـا بِـأَيْـدِيـنـا خُـلِـقْـنـا تُـعَـسـاءْ

رُبَّـمـا تَـجْـمَـعُـنـا أَقْـدَارُنـا ذاتَ يـوم بَـعـدَمـا عَـزَّ الـلِّـقـاءْ

فــإذا أَنْـــكَـــرَ خِـــلٌّ خِـــلَّـــهُ وتَـلاقَـيْـنـا لِـقـاءَ الـغُـربـاءْ

الخل: الحبيب

ومــضَــى كــلٌّ إلــى غــايَــتِــهِ لا تقُلْ شيئاً! وقلْ لِي الحَظَّ شاءْ

في الأغنية (لا تقل شئنا فإن الحظ شاء) وهذا تحسين جيد على الأصل. في الأغنية مقاطع من قصيدة أخرى وضعناها تحت هذه

١٧ سبقنا ظلنا

لِمَ يـا هـاجِـرُ أَصبـحْـتَ رحـيـمـا والـحـنـانُ الـجَـمُّ والـرِّقَّـةُ فـيـمـا؟

لِمَ تَـسـقـيـنِـيَ مِـن شَـهْـدٍ رُضـاباً وتُـلاقـيـنـي عَـطـوفـاً وكَـريـمـا؟

لماذا تسقيني ريقك الشبيه بالعسل

كـلُّ شـيءٍ صـارَ مُـرّاً فـي فـمـي بعـدَمـا أَصبحْتُ بِـالدنيـا عَـليمـا

آهِ مَــنْ يَــأخُــذُ عُــمــرِي كُــلَّــهُ ويُـعـيـدُ الـطِّـفـلَ والـجَـهـلَ الـقَـديـمـا

* * *

هـل رأى الـحُـبُّ سُـكـارى مِـثـلَـنـا؟ كـم بَـنَـيْـنـا مِـن خـيـالٍ حـولَـنـا

ومَــشَــيْــنــا فــي طــريــقٍ مُــقـمِــرٍ تَـثِـبُ الـفُـرحَـةُ فـيـهِ قَـبْـلَـنـا

تثب: تقفز

وتَـطَـلَّـعْـنـا إلـى أنْـجُـمِـهِ فَـتَـهـاوَيْـنَ وأصـبـحْـنَ لَـنـا

نظرنا إلى النجوم التي ظهرت لنا في الطريق المقمر فتنزلن وأصبحن مِلْكاً لنا

وضَحِكْنا ضِحْكَ طِفْلَيْنِ مَعاً وعَـدَوْنـا فَـسَـبَـقْـنـا ظِـلَّـنـا

* * *

وانـتَـبَـهـنـا بـعـدَمـا زالَ الـرَّحـيـقْ وأَفَـقْـنـا، لـيـتَ أَنَّـا لا نُـفـيـقْ

الرحيق: الخمر.. بعدما أفاقا من خمرة الحب قالا: ليتنا لا نفيق

يَـقْـظَـةٌ طـاحـتْ بِـأحـلامِ الـكَـرى وتَـولَّـى الـلـيـلُ، والـلـيـلُ صَـديـقْ

الكرى: النوم، تولّى: ذهب

وإذا الـــنــورُ نَــذيــرٌ طــالِــعٌ وإذا الـفـجـرُ مُـطِـلٌّ كـالـحَـريـقْ

النور كان نذيراً، ينذر بشرّ، والفجر المحمر رأيناه كالحريق.. فبعد نشوة الحب يأتي القلق والخوف من مقبل الايام

وإذا الـدنـيـا كـمـا نـعـرِفُـهـا وإذا الأحـبـابُ كُـلٌّ فـي طَـريـقْ

١٨ مفعول عكسي

كـانـتْ لـنـا كـأسٌ وكـانـتْ قِـصَّـةٌ هـذا الـحُـبـابُ أعـادَهـا ورَوَاهـا

الحباب: الفقاقيع

ما زِلْتَ تَسقِيني لِتُنْسِيَنِي الهوى حتى نسِيتُ، فما ذكَرْتُ سِواها

١٩ كبرياء

وحـبـيـبٍ كـان دُنـيـا أَمَـلـي حُبُّهُ الـمِـحرابُ، والـكَـعـبَـةُ بَـيْـتُـهْ

كان الحبيب كل ما عندي من أمل في الدنيا، وكان حبه محراب صلواتي، وكان بيته كعبتي التي أطوف بها

مَـن مَـشـى يـومـاً عـلـى الـوَردِ لـه فَـطـريـقـيِ كـان شـوكـاً ومَـشَـيْـتُـهْ

مَـن سَـقـى يـومـاً بـمـاءٍ ظـامِـئـاً فـأنـا مِـن قَـدَحِ الـعُـمـرِ سَـقَـيْـتُـهْ

خـفَـقَ الـقـلـبُ لـه مـخـتَـلِـجـاً خَـفْـقَـةَ الـمِـصباحِ إذْ يَـنْـضُـبُ زَيْـتُـهْ

مختلجاً: مرتجفاً، ينضب: يجف

قـد سَـلانـيِ فـتَـنـكَّـرتُ لـهُ   وطَوى صفحةَ حُبّيِ، فطَويْتُهْ

سلاني: نسيني. من تقاليد العشق في الشعر العربي أن يظل الرجل يتذلل للمحبوبة حتى النهاية.. لا يجيز ذلك التقليد الراسخ للشاعر أن يدخل كبرياءه في القصيدة.. لكن، هناك استثناءات، قال القديم لفاطمة: (كذلك أجتوي من يجتويني)

٢٠ رسائلها

عـادَتْ إلَـيَّ الـذِّكـريـا   تُ بِـحـشْـدِهـا وزِحـامِـهـا

فـي لـيـلـةٍ لَـيْـلاءَ أَرَّ-   قَـنـيِ عَـصـيـبُ ظَـلامِـهـا

هَـدَأَتْ رسـائِـلُ حُـبِّـهـا   كـالـطـفـلِ فـي أحـلامِـهـا

فـحَـلَـفْـتُ لا رَقَـدَتْ ولا   ذاقَـتْ شَـهِـيَّ مَـنـامِـهـا

أَشـعَـلْـتُ فـيـهـا الـنـارَ تَـرْ   عـى فـي عَـزيـزِ حُـطـامِـهـا

تَـغـتـالُ قِـصَّـةَ حُـبِّـنـا   مِـن بَـدئِـهـا لِـخِـتـامِـهـا

٢١ أحتاج إليك

مِلْءَ ضُلوعيِ لَظىً، وأَعْجَبُهُ   أَنّيِ بِهذا اللهيبِ أَبْتَرِدُ

يا تارِكيِ حيثُ كانَ مجلِسُنا   وحيثُ غَنَّاكَ قلبِيَ الغَرِدُ

أَرنُو إلى الناسِ في جُموعِهِمُ   أَشْقَتْهُمُ الحادِثاتُ أم سَعِدُوا

تَفرَّقُوا أم بها قد احتَشَدُوا   وغَوَّرُوا هابِطينَ أم صَعِدُوا

غوروا: هبطوا وادياً

إنّيِ غريبٌ، تَعالَ يا سَكَنيِ   فليسِ ليِ في زِحامِهِمْ أحَدُ

٢٢ نمشي معاً

نَمشيِ وقد طالَ الطريقُ بنا   ونَوَدُّ لو نَمشيِ إلى الأَبَدِ

ونَوَدُّ لو خَلَتِ الحياةُ لنا   كَطَريقِنا، وغَدَتْ بِلا أَحَدِ

نود لو كانت حياتنا خالية من الناس كطريقنا هذا

٢٣ أين المقرّ؟

اِلتَقَيْنا كما التَقَى بعدَ تَطْوا   فٍ على القَفْرِ في السُّرَى أَنْضاءُ

التقينا، نحن البشر، كما التقى بعد طول السير في القفر، الصحراء، أنضاء، متعبون مهزولون من سير الليل

قَطَعُوا شَوْطَهُمْ على الدَّمِ والشَّوْ ... كِ وَراحُوا على اللَّهيبِ وجاءُوا
ما بَقائيِ؟ وأَجْمَلُ العمرِ وَلَّى ... وانتظاري حتى يَحينَ الشتاءُ؟

ما الفائدة من حياتي وقد ذهب أجمل العمر، ولماذا أنتظر شتاء العمر وأرذله؟

مَرَّ يَومي كأَمْسِهِ: مَسْرَحاً تُعْـ ... ـرَضُ فيه الحياةُ والأَحياءُ
آدمٌ كَالقَديم، قَلْباً وتَفْكيـ ... ـراً، ولكِنْ تُبَدَّلُ الأَزياءُ

أنا آدمٌ، كآدم القديم أبي البشر، ولم يتغير سوى الأزياء

لم يَحُلْ طَبعُهُ، ولا ذاتَ يومٍ ... لَبِسَتْ غيرَ نفسِها حَوَّاءُ

لم يحل، لم يتغير طَّبع الرجل، ولا طبع المرأة

والنُّضارُ المَعْبودُ قُدْسٌ وقُربا ... نٌ وربٌّ، والشَّهْوَةُ الجَوْفاءُ

النضار: الذهب

والحُطامُ الفاني عليهِ اقْتِتالٌ ... والأَماني بَريقُها إِغْراءُ
وسفينٌ تَمُرُّ إِثْرَ سَفينٍ ... والرِّياحُ اللَّذَّاتُ والأَهْواءُ

الناس كسفينة تتلوها سفينة، والرياح التي تحرك السفن، أي الدوافع التي تحرك الناس، هي لذاتهم وأهواؤهم

والغيوبُ المُحَجَّباتُ رِحابٌ ... تَعِبَتْ في رُموزِها الحُكَماءُ

والغيوب المحجوبة عنا رحاب، رحبة واسعة، وقد تعب الحكماء في فك رموزها

٢٤ ليلاك

لا القومُ راحُوا بِأخبارٍ ولا جاءُوا ... ولا لِقلبِكَ عن لَيْلاكَ أَنباءُ
يا ليلُ مَن عَلَّمَ الأَطيارَ قِصَّتَنا ... وكيف تَدري الصَّبا أَنّا أَحِبَّاءُ

علَّم: أخبر، الصبا: ريح الصبا

٢٥ الاعتصار

يا سَجينَ الحياةِ أينَ الفِرارُ ... أَوْصَدَ الليلُ بابَهُ والنَّهارُ
فَلِمَنْ لَفْتَةٌ، وفيمَ ارْتِقابٌ؟ ... ليس بعدَ الذي انتَظرتَ انتِظارُ
والتَّعِلَّاتُ مِن هوىً وشَبابٍ ... قِصَّةٌ مُسْدَلٌ عليها السِّتارُ

التعلات، التصبيرات التي يتلهى بها الإنسان، كالحب والشباب هي مسألة وقتية سرعان ما تزول ويسدل عليها الستار

ما الذي يَبتغِي العليلُ المُسَجَّى؟ قد تَولَّى العُوَّادُ والسُّمَّارُ

بعد أن ذهب العواد، زائرو المريض، والسمار، الساهرون للمسامرة، ماذا بقي للمريض الممدد المسجَّى؟

يا ديارَ الحبيبِ هل كان حُلْماً مُلْتَقىً دونَ مَوعِدٍ يا دِيارُ؟

يخاطب دار الحبيب، ويتذكر ذلك اللقاء المفاجئ الذي كان كالحلم.. يتذكر عشقاً قديماً

يا عَزيزَ الجَنَى عليكَ سلامٌ كيفَ جادَتْ بِقربِكَ الأَقْدارُ؟

أيها المحبوب الذي كان مثل فاكهة صعبة الجني، كيف حدث وكان القدر سخياً وسمح بلقائنا؟

بُورِكَ الكَرْمُ والقُطوفُ، وأَوْقا تٌ كأنَّ العِناقَ فيها اعْتِصارُ

بورك كَرْم العنب ذاك، وبوركت قطوفه، وبعيداً عن التشبيهات: بورك العناق بيننا الذي كان حاراً كأن أحدنا يعصر الآخر.. ربما ـ وبعودة للتشبيه ـ مثلما يعتصر الناس قطوف العنب لصنع الخمر

٢٦ ثقب في ظلمة الليل

قد بَلَوْتُ الويلَ ليلاً، لا بَلَوْتَا وأنا أَبْدَأُ يَومي بِالمَساءِ

جربت العذاب في ليل، لا جعلك الله تجربه.. وأنا أبدأ يومي بالمساء لأنني ساهر طول الليل

وعَرَفْتُ الضِّيقَ، ضِيقَ القلبِ، حتى لم أَجِدْ في الكونِ ثُقْباً مِن رَجاءِ

٢٧ كلام لا ينتهي

يا شَطْرَ نَفسِي وغَرامِي الوَحيدْ ما شئتِ يا لَيْلَايَ لا ما أُريدْ

يا شطر نفسي، يا نصف نفسي، الأمر أمرك

يا مَن رَأَتْ حُزنِي العَميقَ البعيدْ دَاويْتِ لِي جُرحِي بِجُرْحٍ جَديدْ

* * *

هَيَّا، أَجَلْ هَيَّا. إلى أَيْنا؟ لِحَيْثُ نَحكي حُلْمَ رُوحَيْنا

لِحَيْثُ نَروِي سِرَّ قَلبَيْنا فإِنْ فَرَغْنا مِن حَديثٍ نُعيدْ

٢٨ رثاء الشاعر الهمشري

لا تَجْزَعُوا لِلشاعرِ المُلْهَمِ ما ماتَ، لكِنْ صارَ في الأَنْجُمِ

ما كانَ إلَّا زائِراً عابِراً لِأَيِّ سِرٍّ جاءَ، لم نَعْلَمِ

٢٩ سبحانه

في رثاء الدكتور عبد الواحد الوكيل وزير الصحة:

لا صَحْوَ مِن سِنَةِ المَنونِ وإنَّما ... سَهِرَ الخُلُودُ عليكَ حيثُ تَنامُ

لن تصحو من سنة، نوم، الموت.. غير أن الخلود ساهر عليك ضامن لك بقاء الذِّكر

أنتَ الطبيبُ، وقد بَلَوْتُ حَياتَهُ ... ومجالُها الأوجاعُ والأَسْقامُ

أنت طبيب، وأنا جربت حياة الطبيب، ومجالها مجال أوجاع وأمراض

أيُّ الأُساةِ هُوَ المُدِلُّ بِنفسِهِ؟ ... سُبحانَ مَن تُحْنَى لَديْهِ الهَامُ

أي الأساة، أي الأطباء، يعتز بنفسه؟ سبحان الله الذي يحني الجميع رؤوسهم لمشيئته

٣٠ خلود الشعراء

وأُولو الشِّعرِ المَصابيحُ التي ... حطَّمَتْهُنَّ رِياحُ الصَّحراءْ

أهل الشعر مصابيح تتحطم برياح الصحراء، يموت الشعراء.. ولكن..

خُلِّدَتْ أَنْوارُهُمْ رغمَ البِلَى ... وبها المُدلِجُ في الليل اسْتَضاءْ

يموتون وتبقي أنوارهم رغم البلى، أي تحلل الأجساد، ويستضيء المدلج، السائر ليلاً، بهذه الأنوار

سوف يَفنَى القولُ إلّا قولَهُمْ ... ويَموتُ الناسُ إلّا الشُّعَراءْ

٣١ عمر النجم

في تكريم الدكتور علي إبراهيم؟

إليكَ أَزُفُّ في اليومِ الجليلِ ... تحيَّاتِ الزَّميلِ إلى الزَّميلِ

نُبايِعُ منكَ فَنّاً عَبْقَرِيّاً ... وعقلاً في العقولِ بِلا مَثيلِ

ولو أنَّ الأُلَى أنقَذْتَ جاءُوا ... يُؤَدُّونَ القَديمَ مِن الجَميلِ..

الألى: الذين، الجميل: المعروف

ولو أَنَّ الأُلَى عَلَّمْتَ جاءُوا ... يُؤَدُّونَ القَليلَ مِن القَليلِ..

ولو مَنحُوكَ عُمْرَهُمُ جميعاً ... وما هُوَ بِالكثيرِ ولا الجَزيلِ..

لو منحك كل هؤلاء أعمارهم، وما هذا بالكثير بالقياس إلى معروفك..

٣٢ الرجل الكامل

قال في الوزير عبد الحميد عبد الحق:

أنتَ فوق التَّكريم فوقَ الثَّناءِ جَلَّ ما قد أَسْدَيْتَ عن إِطْراءِ

أسديت: قدَّمْت من معروف، إطراء: مدح

لم نُكَرِّمْكَ لِلوِزارَةِ والمَنْـ ـصِبِ والمجدِ والسَّنا والرُّواءِ

السنا: النور، الرواء: الطلعة البهية

نحنُ قومٌ نَهيمُ بِالرجلِ الكا ملِ يَمضي لِلأمرِ دونَ التِواءِ

ما جَمالُ الرَّبيعِ في الرَّوضِ إنْ لم يَشْدُ طيرٌ في الرَّوضَةِ الغنَّاءِ

ما جَمالُ السَّماءِ والبَدْرِ إنْ لم يَشْدُ سَارٍ في اللَّيلةِ القَمْراءِ

واضَياعَ النُّبوغِ في مِصرَ إنْ لم تتحدَّثْ منابِرُ الخُطباءِ

واضَياعَ النُّبوغِ في مِصرَ إنْ لم يَكُ تَخليدُهُ على الشُّعراءِ

٣٣ الأوجه الصَّفراء

أَجَلْ! إنَّ ذا يومٌ لِمَنْ يَفتَدي مِصْرا فَمِصْرُ هِيَ المِحْرابُ والجُنَّةُ الكُبرى

مصر هي المحراب الذي نقدم إليه صلوات الولاء

نَبُثُّ بِها رُوحَ الحياةِ قَوِيَّةً ونَقْتُلُ فيها الضَّنْكَ والذُّلَّ والفَقْرا

نبث بمصر روح الحياة، ونقتل الضنك، الشقاء

سَلاماً شبابَ النيلِ في كلِّ مَوقِفٍ على الدهرِ يَجني المجدَ أو يَجلِبُ الفَخْرا

تَعالَوْا لِنَمْحُو الجهلَ والعِلَلَ التي أَحاطَتْ بِنا كالسَّيْلِ تَغمُرُنا غَمْرا

تَعالَوْا نُشَيِّدْ مَلجَأً، رُبَّ مَلْجَأٍ يَضُمُّ حُطامَ البُؤْسِ والأَوْجُهَ الصَّفْرا

يدعو لتشييد ملجأ للأيتام الذين اصفرت وجوههم من سوء التغذية

٣٤ عينان

طَوى السِّنينَ وشَقَّ الغيبَ والظُّلَما بَرْقٌ تَألَّقَ في عينيْك وابتَسما

يا ساريَ البرقِ مِن نَجْمَيْنِ يُومِضُ لي   ماذا تُخَبِّئُ لي الأقدارُ خلفَهُما؟

أيها البرق الذي سرى ليلاً من عيني المحبوب اللتين تشبهان نجمين، ماذا يخبئ لي القدر خلف هاتين العينين؟

أَجِئْتَ بي عَتَباتِ الخُلْدِ؟ أم شَركاً   نَصَبْتَ لي مِن خِداعِ الوهمِ، أم حُلُما؟
حَمَلْتَني لِسماءٍ قد سَرَيْتُ لها   بالرُّوحِ والفِكرِ، لم أَنْقُلْ لها قَدَما
شَفَّتْ سَديماً ورَقَّتْ في غَلائِلِها   فَكِدْتُ أُبْصِرُ فيها اللَّوْحَ والقَلَما

هذه السماء شف سديمها، نجومها المتجمِّعة، ورقَّت غلائلها، شفوفها، حتى إنني أكاد أبصر اللوح المحفوظ والقلم الذي يسجل أعمال العباد.. كان سيسجد الفرزدق لهذا البيت لو سمعه!

يا لِلغَديرَيْنِ في عينيكَ إذ لَمَعا   بِالشوقِ يُومِضُ خَلفَ الماءِ مُضْطَرِما
ولِلنَقيضَيْنِ في كأسَيْنِ قد جُمِعا   فالرَّاوِيانِ هُما، والظَّامِئانِ هُما

عيناك كأنهما كأسان اجتمع فيهما نقيضان، فهما يرويان المحبوب بالحب، وهما ظامئان يطلبان المزيد

بِأَيِّ قَوْسٍ وسَهْمٍ صائبٍ ويَدٍ   هَواكَ يا أَيُّها الطَّاغِي الجميلُ رَمَى

٣٥ عز اللقاء

قَدَرٌ أرادَ شَقاءَنا   لا أنتِ شئتِ ولا أَنا
عزَّ التَّلاقي، والحُظو   ظُ السُّودُ حالَتْ بينَنا
قد كِدْتُ أكفُرُ بالهوى   لو لم أَكُنْ بِكِ مُؤْمِنا

٣٦ المدينة الظالمة

ضَحِكَتْ لِعَيْنَيَّ المصابيحُ التي   تعلُو رؤُوسَ الليلِ كالتِّيجانِ

تلك أنوار المدينة تلمع من بعيد للتائه في صحرائه فيخالها تضحك له

ورأيتُ أنوارَ المدينةِ بعدَما   طالَ المَسيرُ وكَلَّتِ القَدمانِ
فإذا المدينةُ كالضَّبابِ تَبَخَّرَتْ   وتكشَّفَتْ ليَ عن كَذُوبِ أماني

كذوب أماني: أماني كاذبة

٣٧ اعتذار غريب

قال يهجو الشاعر عبد الحميد الديب وقد سخر منه في مجلس:

رجُلاً أرى بِاللَّهِ أم حَشَرَةْ   سبحانَ مَن بِعبيدِهِ حَشَرَهْ

أرأَيْـتَ قِـرداً فـي الـحـديـقـةِ قـد فَـلَّـتْـهُ أُنـثَـاهُ عـلـى شَـجَـرَةْ؟
يـا عَـبْـقَـرِيَّـاً فـي شَـنـاعَـتِـهِ وَلَـدَتْـكَ أُمُّـكَ وَهْـيَ مُـعْـتَـذِرَةْ

٣٨ أي سر فيك

أنـتَ فَـجـرٌ مِـن جَـمـالٍ وصِـبـاً كـلُّ فـجـرٍ طَـالِـعٍ ذَكَّـرَنـيـهِ

ذكرنيه: ذكرني إياه

كـيـف جـانَـبْـتُـكَ أَبـغـي سَـلْـوَةً ثـم نـاجَـيْـتُـكَ فـي كـلِّ شَـبـيـهِ

تجنبتك حتى أنساك، ثم صرت أناجيك كلما رأيت من يشبهك، لشدة شوقي إليك

أيُّـهـا الـسـاكِـنُ عـيـنـي ودَمـي أيـنَ فـي الـدنيا مـكـانٌ لـستَ فيـهِ؟

* * *

يا ليالي العُمْرِ ما سِرُّ الليالي اَلبَطيئاتِ المُمِلَّاتِ الطِّوالِ؟
مُسْرِعاتٌ مُبْطِئاتٌ وَلَها خِفَّةُ الموتِ وأثقالُ الجِبالِ

الليالي تمر مسرعة، لكنني أشعر أنها بطيئة.. فيها خفة الموت، وثقل الجبال

عَجَباً للعُمْرِ يَمضي مُسرعاً لِلمنايا بِسُلَحْفاةِ المَلالِ

العمر يمضي بنا مسرعاً نحو الموت.. لكنه لشدة الملل يبدو بطيئاً كالسلحفاة.. لم أستطع شرح سلحفاة الملال، أي الملل، التي تمضي مسرعة

* * *

طـالَـمـا مَـوَّهْـتُ بِـالـضِّـحْـكِ فـمـا غَـيَّـرَ الـتَّـمْـويـهُ رَأيـاً لَـكَ فـيَّـا

أخفي حقيقة مشاعري بضحكات مصطنعة، ولكنك لا تنخدع بها

كُـلَّـمـا تَـنـظُـرُ فـي عـيـنـي تَـرى سِـرِّيَ الـغـافـي ومَـعـنـايَ الـخَـفِـيَّـا
وتَـرى فـي عُـمْـقِ رُوحـي زهـرَةً قـد سَـقـاهـا الـحـزنُ دمـعـاً أَبـدِيَّـا

* * *

أيُّ سِـرٍّ فـيـكَ إنِّـي لـسـتُ أَدري كـلُّ مـا فـيـكَ مِـنَ الأَسـرارِ يُـغـري
خَطَرٌ يَنسابُ مِن مُفْتَرِّ ثَغْرِ فِتنَةٌ تَعصِفُ مِن لَفْتَةِ نَحْرِ

ثمة خطر ينساب من مفتر ثغر، أي ثغر مفتر منفرج عن ابتسامة، وفتنة تعصف بي من لفتة جيدك

قَدَرٌ يُنْسَجُ مِن خُصْلَةِ شَعْرِ زَورَقٌ يَسبَحُ في مَوْجَةِ عِطْرِ

في عُبابٍ غامِضِ التَّيَّارِ يَجري   واصِلاً ما بينَ عَينَيْك وعُمري

العباب: اصطخاب البحر

* * *

ها أنا عُدْتُ إلى حيثُ التَقَيْنا   في مكانٍ رَفْرَفَتْ فيهِ السَّعادَةْ

وبِه قد رَفْرَفَ الصَّمتُ علَيْنا   إنَّ في صَمْتِ المُحِبِّينَ عِبادَةْ

٣٩ أبقِها

كلَّما خلَّى حبيبي يَدَهُ   لَحظَةً قلتُ: وحُبِّي! أَبْقِها

أَبْقِها أُومِنْ إذا لامَسْتُها   أنَّ حُبِّي ليس حُلْماً وانتَهى

٤٠ شرف الألم

مَنْ يَكُنْ عَضَّ بَناناً نادِماً   فأنا قَطَّعْتُ إِبهامَ النَّدَمْ

عض الإصبع: كناية عن الندم

وإذا انْحَطَّ زمانٌ لم تَجِدْ   عالياً ذا رِفْعَةٍ إلَّا الألَمْ

٤١ الكهل والصبية

تَعَجَّبَتْ زازا، وقد   حُقَّ لَها أنْ تَعْجَبا

لَمَّا رأتْ فيَّ شُحو   بَ الشمسِ مَالَتْ مَغرِبا

وَهْيَ التي زَانَتْ مَشيـ   ـبي بِأكاليلِ الصِّبا

زازا، وهي ممثلة كانت تحب الشاعر في كهولته، زينت مشيبه بصباها. لن نعرف زازا على وجه التحقيق فقد عرف شاعرنا (زينب صدقي وزوزو ماضي وزوزو حمدي الحكيم، وأعجب بأمينة رزق).. وكل واحدة منهن عندها زاءٌ ترشحها للقب زازا

لولاكِ ما قلتُ لِشَيْ   ءٍ في الوُجودِ مَرحَبا

عَلِمْتِ يَأسي وجُنُو   ني وجَهِلْتِ السَّبَبا

يا كوكباً مهما أَكُنْ   مِن بُرْجِهِ مُقَرَّبا

فإنَّهُ يَظَلُّ في السَّـ   ـمْتِ البَعيدِ كَوكَبا

السمت: في الفلك هي النقطة العليا، ومنها كلمة زينيث الأجنبية، وعكسها نظير السمت، وهي نَدير بالأجنبية

٤٢ لا فائدة

وأعـلَـمُ أنَّ حُـبِّـي لـيـس يُـشْـفَـى ... وبُـعْـدي لـيـس يُـجْـدِيـنـي وقُـرْبـي

ولَـمَّـا لـم أجِـدْ لِـلـحُـبِّ حـلَّاً ... هَتفتُ به: كـمـا يُرضيكَ سِرْ بي

٤٣ موقف

قد هَدَّني جَزَعي عليكِ وأَدَّعي ... أنِّي غَداةَ البَيْنِ غيرُ جَزُوعِ

وأُريدُ أُشْبِعُ نَاظِريَّ فَأَنْثَني ... كيْ أَسْتَبِينَكِ مِن خلالِ دُموعي

ناظريَّ: عينيَّ

إبراهيم ناجي
فهرس القوافي

أبو القاسم الشابِّي
(١٩٠٩ ـ ١٩٣٤)

لعلك سمعت للشابي بيتاً واحداً من قصيدة واحدة؟ إن كنت تعرف «إذا الشعب يوماً» ولا تعرف شيئاً آخر من شعر أبي القاسم الشابي، فأنت مدعو إلى مأدبة عامرة، في فردوس بهيج من فراديس الروح والقلق والشعر الوجداني والسياسي.

هل امتعضت؟ المعذرة، فأنت سمعت أيضاً من كتاب المدرسة قصيدة رعوية من قصائد الغاب والبستان. فهل سمعت أبا القاسم الشابي وهو يشتم الشعب في قصيدتين كبيرتين؟ ستسمع بعد قليل.

لا نقول عن حياة الشابي إلا القليل.. بقدر سنوات عمره الخمس والعشرين. كان فيه نزق وغضب وإباء وورومنسية، واجتمع لديه ما اكتسبه من جامع الزيتونة ومن والده من لغة فصيحة، وما اكتسى به من ثوب الرومنسية الذي طبع شعر عصره. فقد كان أبو القاسم يقرأ شعر الأبولليين في مصر، وكان ينشر عندهم ويراسلهم. وبلغ من تقدير رئيسهم، الشاعر المصري أحمد زكي أبي شادي، للشابي أن طلب منه كتابة مقدمة لديوانه الينبوع؛ وفعل أبو القاسم، ومرَّر في مقدمته الضافية، التي جعلها تتكلم عن الشعر عامة، نقداً لأبي شادي بأن شعره قليل الأناقة. فأما في رسائلة الخاصة فكان يصرح بما في شعر أبي شادي من برود، وقلة اكتمال.

شكا الشابي تضخم القلب، وأنهكته العلة في أواخر سنيِه، لكنه قال ما يريد أن يقوله.

وقد أثبتنا تواريخ القصائد افتخاراً بهذا النابغة الذي امتلك كل هذا الشموخ والرقة والفصاحة في يفاعته. كان، في يومياته التي وجدت طريقها إلى

النشر، صبياً كالصبيان وشاباً كالشبان: يتخلف عنه زميله فيحنق، ويذهب وحده للتنزه، ويشكو قصور فهم الناس، وقلة معرفتهم، وتعصبهم لآرائهم. ونجده في رسائله للناقد الحليوي يتمنى لو أنه عرف لغة أجنبية. ونحن ـ بالطبع ـ سعداء بأنه لم يعرف سوى العربية، حتى لا يتلوث شعره بتقليد شعر غريب عن وجدانه، وحتى لا يتعالم، وحتى لا يفقد براءته.

لكن الشابي كان مثقفاً. كان يقرأ كثيراً، ويتشهَّى المعرفة. يشارك في الندوات الأدبية، ويشغل نفسه بالمنشورات الأدبية، وبالأفكار الكثيرة في هذا العالم. سعى إلى معرفة فكر الفلاسفة الأوروبيين، وسمع عن آينشتاين وتاق إلى أن يعرف أكثر. لكن ثقافته الأولى كانت اللغة العربية وأدبها.

ولد الشابي والاحتلال الفرنسي جاثم على تونس منذ ثمان وعشرين سنة، وسيموت ثم ستنقضي إحدى وعشرون سنة قبل أن تستقل تونس. رأى الشابي أن المشكلة ليست أساساً في الاحتلال.. بل في الشعب الذي لا يرفض الاحتلال بما يكفي، ولا يبذل جهداً لكي ينال الجدارة بالاستقلال. استنهض شاعرنا شعبه، وقرَّعه، وأشبعه لوماً. ولكن قلبه المتضخم بالمرض وبعلة الرومنسية شاء لشعره أن يكون غناء. وفاز الشابي بالحسنيين.

قيمة الشابي ليست أنه مات عن خمسٍ وعشرين سنة.

هو شاعر كبير.

١ تونس الجميلة

٢ جوان/ يونيو ١٩٢٥

لا أبالي، وإن أُريقت دمائي، فدماءُ العشاقِ دوماً مُباحَةْ

إنَّ ذا عصرُ ظُلْمَةٍ، غيرَ أني من وراءِ الظلامِ شِمْتُ صَبَاحَهْ

ذا: هذا، شمت: رأيت بعين الحدس

ضيَّع الدهرُ مجدَ شعبيِ، ولكنْ سَتَرُدُّ الحياةُ يوماً وِشَاحَهْ

٢ شعري

١٣ جوان/ يونيو ١٩٢٥

لا أنظِمُ الشعرَ أرجو به رضَاءَ الأميرِ

بــــمِــــــدْحَـــــةٍ أو رثـــــاءٍ تُــــهــدَى لِــــرَبِّ الـــــسريـــرِ
حـــســبـــي إذا قــلــتُ شِــعــراً أنْ يَــــرتــــضـــيـــه ضـــمـــيــري

٣ إلى الطاغية

١٨ فيفري/ فبراير ١٩٢٧

لك الويلُ يا صرحَ المَظالمِ مِن غدٍ إذا نهضَ المُستَضعَفونَ وصَمَّمُوا
ألا إنَّ أحْــلامَ الــبــلادِ دَفــيــنــةٌ تُجَمْجِمُ في أعماقِها ما تُجَمْجِمُ

تجمجم: تهمهم

٤ الدموع

٢٠ جوان/ يونيو ١٩٢٧

مُلِئَ الدهرُ بالخِداعِ فَكَمْ قد ضَـلَّـلَ الـنـاسَ مِـنْ إمـامٍ وقَـسِّ
كلَّما أسألُ الحياةَ عنِ الحَقِّـ تَـكُـفُّ الـحـيـاةُ عـن كـلِّ هـمـسِ
لم أجدْ في الحياةِ لحناً بديعاً يَسْتَبِيني، سوى سَكينةِ نفسي

يستبيني: يسبي خيالي ويسحرني

نـاولـتْـنـي الـحـيـاةُ كـأسـاً دِهَـاقـاً بـالأمـانـيِ، فـمـا تـنـاولـتُ كـأسـي

كأس دهاق: مملوءة

وسـقـتْـنـي مِـنَ الـتَّـعـاسـةِ أكـوا بـاً تَـجَـرَّعْـتُـهـا فَـيـا شَـدَّ تَـعْـسـي
إنَّ فـي روضـةِ الـحـيـاةِ لأشْـوَا كـاً، بِـهـا مُـزِّقَـتْ زَنـابِـقُ نـفـسـي

٥ أيها الليل

٢٤ جوان/ يونيو ١٩٢٧

أيُّها الليلُ يا أبا البؤسِ والهو لِ، أيَا هيكَلَ الحياةِ الرهيبِ
يهجَعُ الكونُ في طُمَأْنينةِ العُصـ ـفورِ طِفلاً بِصَدْرِكَ الغِربيبِ

يهجع: يرقد، الغربيب: الأسود

٦ المجد

غُرَّة أوت/ أغسطس ١٩٢٧

يَوَدُّ الفَتى لو خاضَ عاصفةَ الرَّدَى   وصَدَّ الخميسَ المَجْرَ والأسَدَ الوَرْدَا

الخميس المجر: الجيش الكبير، الأسد الورد: ذو اللون الوردي، والورد من أسماء الأسد

لِيُدْرِكَ أمجادَ الحروبِ، ولو دَرى   حقيقتَها ما رامَ مِنْ بينِها مجدا

٧ المساء الحزين

٢٠ جانفي/ يناير ١٩٢٨

تَعودُ ادِّكاراتُ ذاكَ الهوى   ولكنَّ سِحرَ الهوى لا يعودْ

ادكارات: ذكريات

تجلَّدْ، ولا تَسْتَكِنْ لِلَّيالي   فما فازَ إلَّا الصَّبُورُ الجَليدْ

ولا تَأْسَ مِنْ حَادِثاتِ الدُّهورِ   فَخَلْفَ الدَّيَاجيرِ فجرٌ جديدْ

الدياجير: الظلمات

ولولا غيومُ الشتاءِ الغِضَابُ   لما نَضَّدَ الرَّوْضُ تِلكَ الوُرودْ

نضَّد: نسَّق

ولولا ظلامُ الحياةِ العبوسُ   لما نَسَجَ الصبحُ تِلْكَ البُرُودْ

البرود: الأثواب

٨ بقايا الخريف

٢٧ فيفري/ فبراير ١٩٢٨

وقفتُ وحوْلي غديرٌ مَواتٌ   تمادَتْ به غَفَواتُ الكهوفْ

موات: مقفر، قاحل

قضَتْ في حَفَافَيْهِ تلك الزهورُ   فكفَّنَها بالصقيعِ الخريفْ

في حفافيه: على جانبيه

سوى زهرةٍ شَقِيَتْ بالحياةِ   ومَلْبَثِها بالمَقَامِ المُخِيفْ

ملبثها: مجثمها، جلوسها

وتُـرهِـبُـهـا غـادِيَـاتُ الـغَـمـامِ   وتـؤلِـمُـهـا كـلُّ ريـحٍ عَـصـوفْ

تخيفها الغيوم الغادية، المارَّة مساء، وتؤلمها الريح إذ تعصف

وتَـرنُـو لـمـا حـولَـهـا مِـنْ زهـورٍ   ومـا ثَـمَّ إلّا الـسَّـحـيِـقُ الـجَـفـيـفْ

تنظرهذه الزهرة للزهور حولها، وليس ثم، أي ليس هناك، إلا ما هو مسحوق وجاف من الزهور

فـتـبـكـي بـكـاءَ الـغـريـبِ الـوحـيـدِ   بِـشَـجْـوٍ كَـظـيـمٍ ونَـوْحٍ ضـعـيـفْ

كظيم: مكتوم

فـمـا ثَـمَّ إلّا الـصـخـورُ الـقَـوَاسـي   وإلّا الـصَّـدَى الـمُـسـتَـطَـارُ الـهَـتُـوفْ

القواسي: القاسية، المستطار: العالي الذاهب بعيداً

فـجـادَتْ بِـرُوحٍ شَـقِـيٍّ شَـجِـيٍّ   لـقـد عَـذَّبَـتْـهُ الـلـيـالـي صُـنُـوفْ

أذاقت الليالي روح الزهرة الوحيدة صنوف العذاب فخرج الروح.. وماتت الزهرة

ذكـرتُ بِـمَـضْـجَـعِـهـا الـمـطـمـئـنِّ   ومَـرْقَـدِهـا فـي الـسَّـفـيـرِ الـجَـفـيـفْ..

السفير: أوراق الشجر الساقطة، الجفيف: الجافّ

مـصـارعَ آمَـالِـيَ الـغـابِـراتِ   وخَـيْـبَـتَـهـا فـي الـصـراعِ الـعـنـيـفْ

وقـلـتُ: هـوَ الـكـونُ مَـهْـدُ الـجـمـالِ   ولـكـنْ، لِـكـلِّ جـمـالٍ خـريـفْ

وأطـرقْـتُ أُصْـغـي لـهـمـسِ الأسـى   وقـد غَـشِـيَ الـنـفـسَ هَـمٌّ كـثـيـفْ

وغـاضَـتْ ثُـمَـالَـةُ نـورِ الـنـهـارِ   وأَرْخَـى ظـلامُ الـوجـودِ الـسُّـجُـوفْ

غاضت: جفّت، ثمالة: بقية، السجوف: الستور

٩ يا رفيقي

١٦ جويليه/ يوليو ١٩٢٨

قـد تـفـكَّـرتُ فـي الـوجـودِ فـأَعْـيَـا   نـي وأَدْبَـرْتُ آيِـسَـاً لِـظَـلامـي

أدبرت: رجعت، آيساً: يائساً

أَنْـشُـدُ الـراحـةَ الـبـعـيـدةَ لـكـنْ   خـابَ ظـنِّـي وأَخْـطَـأَتْ أحـلامـي

فَـمَـعـي فـي جَـوانـحـي، أَبَـدَ الـدَّهْـ   ـرِ، فـؤادٌ إلـى الـحـقـيـقـةِ ظَـامِ

ظامٍ: ظامئ عطشان

١٠ قلت للشعر

٢٨ أكتوبر ١٩٢٨

أنـتَ يـا شِـعـرُ فِـلْـذَةٌ مـن فـؤادي تَـتـغَـنَّـى، وقـطـعـةٌ مـن وُجـودي

فلذة: قطعة

فيكَ ما في جوانِحي من حنينٍ أَبَـدِيٍّ إلـى صـمـيـمِ الـوجـودِ

أنتَ يا شعرُ قصةٌ عن حياتي أنتَ يا شعرُ صورةٌ من وجودي

فيكَ ما في الوجودِ من نغمِ حُلْـ ـوٍ، وما فيه مِن ضجيجٍ شديدِ

فيكَ ما في الوجودِ من حَسَكٍ يُدْ مي، وما فيهِ مِن غَضيضِ الوُرودِ

حسك: شوك، غضيض الورود: الورود الغضة الطرية

فيكَ ما في الوجودِ حَبَّ بنُو الأر ضِ قصيدي، أم لم يُحِبُّوا قَصيدي

فَسواءٌ على الطيورِ إذا غَنَّـ ـتْ هُتَافُ السَؤُوم والْمُسْتَعيدِ

السؤوم: الملول، المستعيد: من يطلب إعادة اللحن إعجاباً به

وسواءٌ على الورودِ: أفي الغيـ ـرَانِ فاحَتْ، أم بينَ نهدٍ وجيدِ

الغيران: الوديان الغائرة المنخفضة

١١ يا ابن أمي

٢٠ فيفري/ فبراير ١٩٢٩

خُلقتَ طليقاً كطيْفِ النسيمِ وحُرّاً كنورِ الضحى في سَمَاهْ

تُغرِّدُ كالطيرِ أينَ اندفعتَ وتشدُو بما شاءَ وحيُ الإلَهْ

كَذا صاغكَ اللّهُ يا ابْنَ الوُجودِ وأَلْقتْكَ في الكون هذي الحياةْ

فما لكَ تَرضَى بِذُلِّ القيودِ وتَحْني لِمَن كَبَّلوكَ الجِبَاهْ

وتُطْبِقُ أجفانَكَ النَيِّراتِ عنِ الفجرِ، والفجرُ عذبٌ ضِيَاهْ

أَلا انْهَضْ وسِرْ في سبيلِ الحياةِ فمَنْ نَامَ لم تنتظِرْهُ الحياةْ

في سبيل الحياة: في طريقها

ولا تخشَ مِمَّا وراءَ التِّلاعِ فما ثَمَّ إلّا الضُّحَى في صِبَاهْ

التلاع: التلال، ثَمَّ: هناك

إلى النورِ! فالنورُ عذبٌ جميلٌ　　إلى النورِ! فالنورُ ظِلُّ الإلَهْ

١٢ إلى الله

٢٩ أكتوبر ١٩٢٩

يا إلهَ الوُجُودِ! هَذي جِراح　　في فؤادي تشكو إليكَ الدَّوَاهي

هذهِ مهجةُ الشقاءِ تناجيـ　　ـكَ، فهلْ أنتَ سامعٌ، يا إلهي

يا رياحَ الوجودِ سِيري بعنفٍ　　وتَغَنَّيْ بِصَوْتِكِ الأَوَّاهِ

وانفَحِيني مِنْ روحِكِ الفَخْمِ ما يُبْـ　　ـلِغُ صوتيِ آذانَ هذا الإلهِ

فَهْوُ يُصغي إلى القويِّ، ولا يُصْـ　　ـغي لصوتٍ بينَ العواصِفِ وَاهِ

واه: ضعيف

فالوجودُ الشقيُّ غيرُ جديرٍ　　بالأغاني، وبالجمالِ الزَّاهي

خَبِّروني هلْ لِلْوَرى مِنْ إلَهٍ　　راحمٍ، مثلَ زعمِهِمْ؟ أَوَّاهِ

أواه: أتوجَّعُ

إنني لم أَجِدْهُ في هَاتِهِ الدنـ　　ـيا، فهل خَلْفَ أُفْقِها من إلَهِ

ما الذي قد أتيتُ يا قلبي البا　　كي، وماذا قد قُلْتِهِ يا شِفَاهي؟

يا إلهيِ قد أَنْطَقَ الهَمُّ قلبي　　بالذي كانَ. فاغتَفِرْ يا إلهي

١٣ النبي المجهول

٢١ جانفي/يناير ١٩٣٠

أيُّها الشعبُ ليتَني كنتُ حَطَّا　　باً فَأَهْوِي على الجُذُوعِ بفأسي

ليتني كنتُ كالسُّيولِ إذا سَا　　لَتْ تَهُدُّ القبورَ رَمْساً بِرَمْسِ

رمس: قبر

ليتَ لي قُوَّةَ العواصِفِ يا شعـ　　ـبي فَأُلْقي إليكَ ثَوْرَةَ نفسي

أنت روحٌ غَبِيَّةٌ تكرهُ النُّو　　رَ وَتقْضيِ الدُّهُورَ في لَيْلِ مَلْسِ

ملس: ظلام

في صباحِ الحياةِ ضَمَّخْتُ أكْوا　　بي، وأَتْرَعْتُها بخمرةِ نفسي

أترعتها: ملأتها

ثم نَضَّدْتُ من أزاهيرِ قلبي ... باقةً لم يَمَسَّها أيُّ إنسي
ثمَّ قدَّمْتُها إليكَ فمزَّقـ ... ـتَ وُرودي، ودُسْتَها أيَّ دَوْسِ
ثمَّ ألبستَني من الحزنِ ثوباً ... وبِشوْكِ الجبالِ توَّجْتَ رأسي

ما زال يخاطب الشعب

إنني ذاهبٌ إلى الغابِ يا شعـ ... ـبي لأقضي الحياةَ وَحْدي بِيَأْسِ
سوف أتْلُو على الطيورِ أناشيـ ... ـدي وأُفضي لها بأشواقِ نفسي
فَهْيَ تَدْري معنى الحَياةِ وتدري ... أنَّ مجدَ النفوسِ يقْظةُ حِسِّ
ثم تحتَ الصَّنَوْبَرِ الناضِرِ الحُلْـ ... ـوِ تَخُطُّ السيولُ حُفْرَةَ رَمْسي
وتَظلُّ الطيورُ تَلْغُو على قبـ ... ـري، ويَشدُو النسيمُ فوقي بِهَمْسِ
أنتَ في الكونِ قوةٌ كبَّلَتْها ... ظُلُماتُ العصورِ من أمسِ أمسِ
والشقيُّ الشقيُّ من كانَ مِثلي ... في حَسَاسِيَّتي ورِقَّةِ نفسي

١٤ شجون

٢٨ أكتوبر ١٩٣٠

عجباً لي أودُّ أنْ أفهَمَ الكو ... نَ، ونفسي لم تستَطِعْ فَهْمَ نفسي
لم أُفِدْ من حقائقِ الكونِ إلَّا ... أنَّني في الوُجودِ مُرْتَادُ رَمْسِ

رمس: قبر

١٥ أحلام شاعر

٤ أفريل ١٩٣١

ليت لي أنْ أعيشَ في هذه الدنـ ... ـيا سعيداً بوَحدَتي وانفِرادي
أصرِفُ العمرَ في الجِبالِ وفي الغا ... باتِ بينَ الصَّنَوْبَرِ المَيَّادِ

المياد: المتمايل

وأُغَنِّي معَ البلابلِ في الغا ... بِ وأُصغي إلى خريرِ الوادي
عيشةٌ للجمالِ والفنِّ أبغيـ ... ـها بعيداً عن أُمَّتي وبِلادي
لا أُعَنِّي نفسي بأحزانِ شعبي ... فَهْوَ حَيٌّ يعيشُ عَيْشَ الجَمادِ

١٦ صلوات في هيكل الحب

١٣ أكتوبر ١٩٣١

عَذْبةٌ أنتِ كالطُّفُولةِ كالأحْـ ـلامِ، كاللحنِ كالصباحِ الجَديدِ
كالسَّماءِ الضَّحُوكِ، كاللَّيْلَةِ القَمْـ ـراءِ، كالوردِ كابتسامِ الوَليدِ
كلُّ شَيْءٍ مُوَقَّعٌ فيكِ، حتى لَفتَةُ الجِيدِ واهْتِزازُ النُّهُودِ

موقع: يتحرك على إيقاع موسيقي

١٧ أراكِ

٢٤ أكتوبر ١٩٣١

أراكِ فتحلُو لديَّ الحياةُ ويملأُ نفسي صباحُ الأَمَلْ
وتنمُو بِصدريِ وُرودٌ عِذَابٌ وتَحْنُو على قَلبِيَ المُشتَعِلْ

١٨ حديث المقبرة

الشاعر يلقي نشيده أمام المقبرة في الليل، ٣ أفريل ١٩٣٢:

أتَفْنَى ابتساماتُ تلكَ الجُفُونِ ويَخْبُو توهُّجُ تلك الخُدودْ
ويَنْهَدُّ ذاكَ القَوامُ الرَّشِيقُ ويَنحَلُّ صَدْرٌ بديعٌ وجِيدْ
أتُطْوَى سَمَاواتُ هذا الوجودِ ويذهبُ هذا الفضاءُ البعيدْ
وتَهْلِكُ تلكَ النجومُ القُدامى ويَهرَمُ هذا الزمانُ العَهِيدْ

العهيد: القديم الذي بعُد عهده

أيَسْطُو على الكلِّ ليلُ الفَنَاءِ لِيَلْهُوُ بِهَا الموتُ خلفَ الوُجودْ
كَبيرٌ على النفسِ هذا العَفَاءُ وصعبٌ على القلبِ هذا الهُمُودْ

العفاء: التلاشي والزوال، الهمود: الخمود والخراب

تأَمَّلْ فإنَّ نظامَ الحياةِ نظامٌ دقيقٌ بَديعٌ فَريدْ
فمَا حَبَّبَ العَيْشَ إلَّا الفَنَاءُ ولا زَانَهُ غيرُ خوفِ اللُّحُودْ

ما أحببنا الحياة إلا لأنها فانية ويزينها في عيوننا خوفنا من اللحود، أي القبور

ولكن إذا ما لَبِسْنَا الخُلودَ ونِلْنَا كَمالَ النُّفُوسِ البَعيدْ

فـهـلْ لا نَـمَـلُّ دَوَامَ الـبَـقَـاءِ   وهـل لا نَـوَدُّ كَـمـالاً جَـدِيـدْ؟

عبر عن هذه الفكرة بدوي الجبل في أبيات كثيرة (قصيدته النونية، رقم ٢٠، في هذا الكتاب)، والفكرة موجودة في أذهاننا جميعاً، ولكن الشابي أبدع في الشطر الثاني من هذا البيت وبسط الفكرة بسلاسة

وإن جَـمـالَ الـكَـمـالِ الـطُّـمُـوحُ   ومـا دامَ فِـكْـراً يُـرى مـن بَـعـيـدْ

فـمَـا سِـحْـرُهُ إن غَـدا واقِـعَـاً   يُـحَـسُّ، وأَصْـبَـحَ شـيـئاً شَـهـيـدْ؟

عندما يكتمل الكمال بالخلود يفقد سحره ويصبح مشهوداً حاضراً

١٩ في ظل وادي الموت

٥ أفريل ١٩٣٢

نحن نـمشـي وحولَنا هاتِهِ الأكـ   ـوانُ تـمشـي، لـكـنْ لأَيَّةِ غـايَـةْ؟

نحنُ نشدوُ معَ العَصافيرِ للشمـ   ـسِ وهـذا الـربـيـعُ يـنـفُـخُ نـايَـهْ

* * *

وتَغَشَّى الضَّبابُ نفسي فصاحتْ   فـي مَـلالٍ مُـرٍّ إلـى أيـنَ أمـشـي

قلتُ سيري مع الحياةِ، فقالتْ:   ما جَنَيْنَا تُرَى من السيرِ أمْسِ؟

* * *

قـد رَقَـصْـنـا مـع الـحـيـاةِ طـويـلاً   وشَـدَوْنـا مـع الـشـبـابِ سـنـيـنَـا

وعَـدَوْنـا مَـعَ الـلـيـالـي حُـفـاةً   في شِعَابِ الـحـيـاةِ حتى دَمِينا

شعاب: طرق

وأكَـلْـنـا الـترابَ حـتـى مَـلِـلْـنـا   وشـربْـنـا الـدمـوعَ حـتـى رَوِيـنـا

ونَـشَـرْنـا الأحـلامَ والـحُـبَّ والآ   لامَ واليأسَ والأسى حيثُ شِينا

شينا: شئنا

* * *

ثـم مـاذا؟ هـذا أنـا صِرْتُ في الدنـ   ـيـا بـعـيـداً عـن لـهـوِهـا وغِـنـاهـا

غناها: غنائها

فـي ظـلامِ الـفـنـاءِ أَدْفِـنُ أيّـا   مِي ولا أسـتَـطِـيعُ حتى بُكَـاهـا

* * *

وزُهورُ الحياةِ تَهْوي بِصمتٍ   محزنٍ مُضجِرٍ على قَدَمَيَّا
جَفَّ سِحْرُ الحياةِ يا قلبِيَ البَا   كي فَهَيَّا نُجَرِّبُ الموتَ هَيَّا

هذا البيت يختم القصيدة في قفلة تبعث الرهبة في النفس، فبعد كل ما قالته القصيدة عن الملل وانحسار اللهو، جاء بصيص أمل.. هو الموت. فإذا جف سحر الحياة فلعل في الموت جديداً

٢٠ أيتها الحالمة بين العواصف

١١ فيفري/فبراير ١٩٣٣

أنتِ كالزهرةِ الجميلةِ في الغا   بِ، ولكنْ ما بينَ شوكٍ ودُودِ
أنتِ تحتَ السماءِ رُوحٌ جميلٌ   صاغَهُ اللّهُ من عبيرِ الوُرودِ
وبنُو الأرضِ كالقُرُودِ وما أضْـ   ـيَعَ عِطْرَ الورودِ بينَ القُرُودِ
أنتِ من ريشةِ الإلهِ فلا تُلْـ   ـقي بِفَنِّ السَّمَا لِجَهْلِ العَبيدِ
أنتِ لم تُخْلَقي لِيَقْرَبَكِ النا   سُ ولكنْ لتُعْبَدي من بَعيدِ

هكذا ينظر الرجل إلى الفاتنة المسكينة التي تنسج حول نفسها، من الأشعة المنبثقة من عيون الرجال، شرنقة تخنق إنسانيتها وتحيلها إلى تمثال

٢١ للتاريخ

١٦ فيفري/فبراير ١٩٣٣

البؤسُ لابْنِ الشعبِ يأكُلُ قلبَهُ   والمجدُ والإثراءُ للأغرابِ
والشعبُ مَعْصُوبُ الجفونِ مَقُسَّمٌ   كالشَّاةِ بين الذئبِ والقَصَّابِ
والحقُّ مقطوعُ اللسانِ مُكَبَّلٌ   والظلمُ يَمْرَحُ مُذْهَبَ الجِلبَابِ

مذهب الجلباب: يلبس جبة مزركشة بخيوط ذهبية

هذا قليلٌ مِنْ حياةٍ مُرَّةٍ   في دولةِ الأَنصابِ والألقابِ

الأنصاب: التماثيل المنصوبة

٢٢ الرواية الغريبة

١٧ مارس ١٩٣٣

ضَحِكْنا على الماضي البعيدِ وفي غَدٍ   ستجعلُنا الأيامُ أُضْحوكَةَ الآتي
وتلكَ هِيَ الدنيا رِوايةُ ساحِرٍ   عظيمٍ غريبِ الفنِّ مبدعِ آياتِ

٢٣ إرادة الحياة

١٦ سبتمبر ١٩٣٣

إذا الشعبُ يوماً أرادَ الحياةَ ... فلا بدَّ أن يستجيبَ القَدَرْ

ولا بدَّ لليلِ أنْ ينجلي ... ولا بدَّ للقيدِ أن ينكسِرْ

ومن لم يعانِقْهُ شوقُ الحياةِ ... تبخَّرَ في جوِّها واندثرْ

فويلٌ لمن لم تَشُقْهُ الحيا ... ةُ مِنْ صَفْعَةِ العَدَمِ المنتَصِرْ

تشقه: تستثير شوقه وتنقذه من العدم الذي يريد أن ينتصر لنفسه من الحياة التي وُجدت نقيضاً له

كذلك قالتْ لِيَ الكائناتُ ... وحدَّثني روُحُها المستَتِرْ

ودمدَمَتِ الريحُ بينَ الفِجاجِ ... وفوقَ الجبالِ وتحتَ الشَجَرْ:

لقد دمدمت الريح، وغمغمت وأصدرت صوتاً، بين الفجاج، طرق الجبل، وفوق الجبال وتحت الشجر:

إذا ما طَمِحْتُ إلى غايةٍ ... رَكِبْتُ المُنَى ونَسيتُ الحَذَرْ

قالت الريح: عندما أطمح إلى هدف فأنا أسعى لتحقيق أمنياتي وأجازف ولا أتركها تظل مجرد أمنيات

ولم أتَجَنَّبْ وُعورَ الشِّعَابِ ... ولا كَبَّةَ اللَّهَبِ المُسْتَعِرْ

والريح لا تتجنب المسالك الجبلية الوعرة، ولا كَبَّة اللهب (أي الجحيم الذي يُكَبُّ فيه الناس على وجوههم) المشتعل.. الريح لا يهمها ما الذي تهب عليه، فهي تهب هبوباً ولا تحذر شيئاً

ومَن لا يحبَّ صعودَ الجبالِ ... يَعِشْ أبَدَ الدهرِ بين الحُفَرْ

فعَجَّتْ بقلبي دماءُ الشبابِ ... وضَجَّتْ بِصدري رِياحٌ أُخَرْ

عندما سمعت كلام الريح ازدحمت دماء الشباب وعزيمته بقلبي، وتحركت في صدري رياح أخر سوى الريح التي في الخارج

وأطْرَقْتُ أُصْغي لِقَصْفِ الرُعُودِ ... وعزفِ الرياحِ ووقعِ المطرْ

وقالتْ ليَ الأرضُ لَمَّا سألْتُ: ... أيَا أمُّ هل تكرهينَ البشرْ؟

أبارِكُ في الناسِ أهلَ الطُّموحِ ... ومن يَسْتَلِذُّ ركوبَ الخطرْ

الأرض تُجيب

وألْعَنُ من لا يُمَاشي الزمانَ ... ويقنَعُ بالعيشِ عَيْشِ الحَجَرْ

هُوَ الكونُ حَيٌّ يُحِبُّ الحياةَ ... ويَحْتَقِرُ المَيْتَ مهما كَبُرْ

فَلا الأُفْقُ يَحْضُنُ مَيْتَ الطيورِ ولا النَّحْلُ يَلْثِمُ مَيْتَ الزَّهَرْ

الطائر الميت لا يحتضنه الأفق بل هو يسقط، والزهرة الميتة لا تلثمها، أي تقبّلها، النحلة

ولولا أُمومةُ قلبي الرؤومِ لما ضَمَّتِ المَيْتَ تلكَ الحُفَرْ

وتقول الأرض: لولا شعور الأمومة في قلبي الرؤوم، الحنون، فأنا بالطبع أم البشر ومن ترابي خلقوا.. لولا هذا الشعور لما ضممت الأموات في بطني

وفي ليلةٍ من ليالي الخريـ ـفِ مثقلةٍ بالأسى والضجرْ
سَكِرْتُ بها من ضياءِ النجومِ وغنَّيْتُ للحزنِ حتى سَكِرْ
سألتُ الدَّجى: هلْ تعيدُ الحياةُ لِما أذبلتْهُ ربيعَ العُمُرْ؟
فلم تتكلمْ شفاهُ الظلامِ ولم تترنَّمْ عَذارى السَّحَرْ
وقالَ ليَ الغابُ في رِقَّةٍ محبَّبَةٍ مثلِ خفْقِ الوترْ
يجيءُ الشتاءُ شتاءُ الضَّبابِ شتاءُ الثلوجِ شتاءُ المطرْ
فينطَفِئُ السِّحْرُ سحرُ الغُصونِ وسحرُ الزهورِ وسحرُ الثمرْ
وسحرُ السماءِ الشجيُّ الوديعُ وسحرُ المروجِ الشَّهِيُّ العَطِرْ
وتَهْوِي الغصونُ وأوراقُها وأزهارُ عَهْدٍ حبيبٍ نَضِرْ
وتلهُو بها الريحُ في كل وادٍ ويدفنُها السيلُ أَنَّى عَبَرْ
ويَفنَى الجَميعُ كَحُلْمٍ بَديعٍ تَأَلَّقَ في مهجةٍ وانْدَثَرْ

كل الغصون والأوراق تفنى في الشتاء مثلما يفنى الحلم بعد الصحو..

وتبقى البذورُ التي حُمِّلَتْ ذَخيرةَ عمرٍ جَميلٍ غَبَرْ
وذِكرى فُصولٍ ورُؤيا حياةٍ وأشباحَ دنيا تَلاشَتْ زُمَرْ

البذور تحمل في جوفها رؤيا الحياة التي تلاشت، كي تعيدها ثانية

مَعانِقَةً، وَهْيَ تحتَ الضَّبابِ وتحتَ الثلوجِ وتحتَ الْمَدَرْ
لِطَيْفِ الحياةِ الذي لا يُمَلُّ وقلبِ الربيعِ الشَّذِيِّ الخَضِرْ

تعانق البذور وهي تحت المدر، الطين، وفي جو الشتاء القاسي.. تعانق طيف الحياة وقلب الربيع المرتقب

وحَالمةً بأغاني الطيورِ وعِطرِ الزهورِ وطعمِ الثَّمَرْ

وتبقى البذور حالمةً بأغاني الطيور التي ستأتي لتقف على أشجار ستنمو من هذه البذور

ويـمشـيِ الـزمـانُ فـتـنـمُـوُ صُـروفٌ   وتَـذوِي صُـروفٌ وتَـحـيَـا أُخَـرْ

يمشي الزمان فتنشأ صروف، أحداث، وتذبل أحداث

وتُـصْـبـحُ أحـلامُـهـا يَـقْـظَـةً   مُـوَشَّـحَـةً بـغـمـوضِ الـسَّـحَـرْ

وتتحول أحلام البذور إلى يقظة.. فهي تبدأ بإطلاق أوائل النبت

تُـسَـائِـلُ أيـنَ ضـبـابُ الـصـبـاحِ   وسـحـرُ الـمـسـاءِ وضـوْءُ الـقَـمَـرْ

وأَسْـرابُ ذاكَ الـفَـراشِ الأَنـيـقِ   ونـحـلٌ يُـغَـنِّـي وغَـيْـمٌ يَـمُـرّ

وأيـنَ الأشـعـةُ والـكـائـنـاتُ،   وأيـنَ الـحـيـاةُ الـتـي أنْـتَـظِـرْ

ظَـمئتُ إلى الـنورِ فوقَ الغصونِ   ظمئتُ إلى الظلِّ تحتَ الشَّجرْ

ظـمـئتُ إلـى الـنـبعِ بيـن الـمروجِ   يُـغَـنِّـي ويـرقـصُ فـوقَ الـزَّهَـرْ

ظمئتُ إلى الكونِ، أين الوُجودُ   وأَنَّـى أرى الـعـالَـمَ الـمـنـتَـظَـرْ؟

هُوَ الكونُ خلفَ سُباتِ الوجودِ   وفـي أُفُـقِ الـيَـقَـظـاتِ الـكُـبَـرْ

خلف سبات الوجود ونومه في الشتاء يوجد كون سيزهر ويستيقظ

ومـا هُـوَ إلَّا كَـخَـفْـقِ الـجـنـا   حِ حتَّـى نَمَـا شَـوقُـهَـا وانـتَـصَـرْ

وتنمو البذور بقوة شوقها إلى الربيع والحياة، وتنتصر على سباتها الشتوي

فَـصَـدَّعَـتِ الأَرضَ مـن فـوقِـهـا   وأبـصَـرَتِ الـكـونَ عـذبَ الـصـورْ

تصدع، أي تشق، النباتات الأرض منطلقة من بذورها، فتبصر صور الكون الجميلة

وجـاءَ الـربـيـعُ بـأنـغـامِـه   وأحـلامِـه وصِـبَـاهُ الـعَـطِـرْ

وقـبَّـلَـهـا قُـبْـلَـةً فـي الـشِّـفَـاهِ   تُـعيـدُ الـشَّـبـابَ الـذي قـد غَـبَـرْ

الربيع يقبل النبات قبلة تعيد الشباب الذي غبر ومضى في الشتاء

وقـالَ لـهـا قـد مُـنِـحْـتِ الـحـيـاةَ   وخُـلِّـدْتِ فـي نـسـلِـكِ الْـمُـدَّخَـرْ

وبَـارَكَـكِ الـنـورُ فـاسـتـقـبِـلـي   شـبـابَ الـحـيـاةِ وخِـصْـبَ الـعُـمُـرْ

ومـن تَـعْـبُـدُ الـنـورَ أحـلامُـه   يـبـارْكُـهُ الـنـورُ أَنَّـى ظَـهَـرْ

من يحلم بالنور فسوف يباركه النور ويشرق عليه

إلـيـكِ الـفـضـاءَ إلـيـكِ الـضـيـاءَ   إلـيـكِ الـثَّرى الـحـالـمَ الـمـزدَهِـرْ

أيتها النباتات التي خرجت من البذور! إليكِ، أي خذي، الفضاء والضياء إلخ..

إليكِ الجمالَ الذي لا يَبِيدُ إليكِ الوجودَ الرحيبَ النَّضِرْ
فمِيدي كَما شئتِ فوق الحقولِ بِحُلْوِ الثمارِ وغَضِّ الزَّهَرْ

ميدي: تمايلي بما صرت تحملين من أزهار وثمار

وناجِي النسيمَ وناجِي الغيومَ وناجِي النجومَ وناجِي القمرْ
وناجِي الحياةَ وأشواقَها وفتنةَ هذا الوجودِ الأغَرّ
وشَفَّ الدُّجَى عن جمالٍ عميقٍ يُشِبُّ الخَيالَ ويُذْكِي الفِكَرْ
ومُدَّ على الكونِ سِحْرٌ غريبٌ يُصَرِّفُهُ ساحرٌ مقتدِرْ
وضاءَتْ شموعُ النجومِ الوِضاءِ وضَاعَ البَخُورُ بَخُورُ الزَّهَرْ

ضاع: تضوَّع وفاح

ورَفرَفَ رُوحٌ غَريبُ الجَمالِ بِأجنحةٍ من ضياءِ القمرْ
ورَنَّ نشيدُ الحياةِ المقدَّسُ في هيكلٍ حالمٍ قد سَحَرْ
وأعلنَ في الكونِ أنَّ الطُّموحَ لَهِيبُ الحياةِ ورُوحُ الظَّفَرْ

الطموح هو الحياة المتقدة النشطة وهو العزيمة التي تريد الانتصار

إذا طَمِحَتْ للحياةِ النفوسُ فلا بدَّ أن يستجيبَ القَدَرْ

هذه القصيدة اشتهرت بأول أبياتها، وظلمها أول أبياتها لقوته وجماله الأخاذ. هي صورة كاملة كبيرة جميلة بدأت بداية بديعة ورسمت لوحة معنوية للعزيمة المكنونة في صورة مادية للبذور التي تختزن الحياة في جوفها. القصيدة متماسكة فيما ترسمه من صور وما تعرضه من أفكار، وكلماتها عذبة الوقع على الأذن حتى لو لم يتابع السامع أفكارها، على أن فهم ما وراء الكلمات من معان دقيقة يعزز النشوة

٢٤ تحت الغصون

٢١ سبتمبر ١٩٣٣

هَهُنا في خَمائِلِ الغَابِ تَحتَ الزَّـ انِ والسِّنْدِيانِ والزَّيتونِ
أنتِ أَشهَى من الحياةِ وأَبْهَى من جمالِ الطبيعةِ الميمونِ
قد تغنيتِ منذُ حينٍ بصوتٍ ناعمٍ حالمٍ شجِيٍّ حَنونِ
فلِمَنْ كنتِ تُنشدينَ؟ فقالتْ: للضِّيَاءِ البَنَفْسَجيِّ الحزينِ
فتنهدتُ ثم قلتُ: وقلبي، مَنْ يغنِّيهِ، مَنْ يُبيدُ شُجوني؟

قالتِ: الحبُّ، ثم غنَّتْ لِقلبي   قُبَلاً عبقريةَ التَّلحينِ

يرسم صورة مغرقة في الرومنسية لفتاة لقيها تحت شجرة وقبّلها

قُبلاً علَّمَتْ فؤادي الأغاني   وأَنارَتْ له ظلامَ السنينِ
وأَفَقْنا فقلْتُ كالحالم المسـ   ـحورِ: قُولي تكلَّمي خَبِّريني
أيُّ دنيا مُسحورةٍ أيُّ رؤيَا   طالعَتْني في ضَوْءِ هَذي العيونِ
زُمَرٌ من مَلائِكِ الْمَلإِ الأعـ   ـلى يُغَنُّونَ في حُنُوٍّ حَنونِ
وصَبايا رَواقِصٌ يَتَراشَقْـ   ـنَ بِزَهْرِ التفاحِ والياسَمِينِ
في فضاءٍ مورَّدٍ حالمٍ سا   ءٍ أَطافَتْ به عَذارى الفُنونِ
وجَحيمٍ تَؤُجُّ تحتَ فراديـ   ـسَ كَأحلامِ شاعرٍ مجنونِ

عاش لحظات مسحورة مع محبوبته، ثم اعترت فؤاده فكرة: أن ما يصنعونه محرَّم.. وهنا تخيل تحت هذا الفردوس جحيماً تؤجُّ، أي تتأجج وتشتعل، كأنها خيالات شاعر مجنون

أيُّ إثمٍ مقدَّسٍ قد لَبِسْنَا   بُرْدَهُ في مسائِنا الميمونِ
فبدا طيفُ نَسْمَةٍ ساحرٌ عذ   بٌ على ثغرِها قويُّ الفُتونِ
وأجابتْ، وكلُّها فتنةٌ تُغـ   ـوي وتُغْري بالحبِّ بل بالجنونِ:
أبداً أنتَ حالمٌ فاسْأَلِ الليـ   ـلَ، فعندَ الظلامِ علمُ اليقينِ

قالت له: لا جُناح عليك! أنت فقط تحلم

وسكتْنا، وغرَّدَ الحبُّ في الغا   بِ، فأَصْغَى حتى حَفيفُ الغُصُونِ
وبنَى الليلُ والربيعُ حواليْـ   ـنا من السِّحْرِ والرُّؤَى والسكونِ
مَعبَداً للجمالِ والحبِ شِعْرِيَّـ   ـاً مَشيداً على فِجَاجِ السِّنينِ

فجاج: طرق

تَحتَهُ يَزْخَرُ الزمانُ ويجري   صَامتاً في مَسِيلِه المحزُونِ
وتَمُرُّ الأيامُ والحزنُ والمو   تُ بعيداً عن ظلِّه المأْمُونِ
ونجومُ السماءِ فيهِ شُموعٌ   أوقَدَتْها للحُبِّ رُوحُ القُرونِ
إن نارَ الحياةِ والكَوْثَرَ المنْـ   ـشودَ في ثَغْرِكِ الشَّهِيِّ الحَزينِ
فَهْوَ كأسٌ سِحْرِيَّةٌ لِرَحيقِ الـ   ـخُلْدِ قد صَاغَها إِلَهُ الفنونِ

نار الحياة كأس لرحيق، أي خمر، الخلود وقد صاغ هذه الكأس إله الفنون

قَبِّلِيني وأَسْكِرِي ثَغرِيَ الصَّا ... دي وقلبي وفتنتي وجنوني
آه ما أعذبَ الغرامَ وأحلى ... رنَّةَ اللَّثْمِ في خُشُوعِ السُّكونِ

رنة اللثم: صوت القبلات

وتَوارى الوجودُ عنَّا بما فيـ ... ـهِ وغِبْنا في عالَمٍ مفتونِ
ونَسِينا الحياةَ والموتَ والكو ... نَ وما فيه من مُنىً ومَنُونِ

٢٥ هجاء الشعب

١٥ أكتوبر ١٩٣٣

أينَ يا شعبُ قلبُك الخافقُ الحسَّـ ... ـاسُ، أينَ الطموحُ والأحلامُ؟
أين يا شعبُ روحُكَ الشاعرُ الفنَّـ ... ـانُ أينَ الخيالُ والإلهامُ؟
إن يَمَّ الحياةِ يَدْوي حَواليْـ ... ـكَ، فأينَ المغامرُ المِقْدَامُ؟
أينَ عزمُ الحياةِ؟ لا شيءَ إلَّا الـ ... ـموتُ والصمتُ والأسى والظلامُ
عُمُرٌ مَيِّتٌ وقلبٌ خَواءٌ ... ودَمٌ لا تُثيرُهُ الآلامُ

خواء: مفرغ

وحَياةٌ تَنامُ في ظلمةِ الوا ... دي، وتَنمُو من فوقِها الأوهامُ

* * *

قد مَشَتْ حولَكَ الفُصولُ وغَنَّتْـ ... ـكَ، فلم تبتهجْ ولم تترنَّمْ

يخاطب الشعب

ودَوَتْ فوقَكَ العواصفُ والأنْـ ... ـواءُ حتى أوشَكْتَ أن تَتَحَطَّمْ

الأنواء: الأمطار

وأطَافَتْ بكَ الوحوشُ ونَاشَتْـ ... ـكَ، فلم تضْطَرِبْ ولم تَتَأَلَّمْ

ناشتك: تناولتك بالمخالب

يا إلَهي أَما تُحِسُّ أَما تَشْـ ... ـدُو أما تَشْتَكِي أما تتكلَّمْ؟
أنت لا مَيِّتٌ فَيَبْلَى ولا حَيٌّ ... فيمشي، بل كائِنٌ ليس يَفْهَمْ
أبداً يَرْمُقُ الفَراغَ بِطَرْفٍ ... جَامِدٍ، لا يَرَى العَوالِمَ، مُظْلِمْ

* * *

آهِ بل أنتَ في الشعوبِ عجوزٌ　　فيلسوفٌ مَحَطَّمٌ في إهَابِهْ

في إهابة: في جِلدِه

ماتَ شوقُ الشبابِ في قلبِه الذَّا　　وِي وعزمُ الحياةِ في أعصابِهْ

الذاوي: الذابل

فمَضَى يَنْشُدُ السَّلامَ بَعيداً　　في قبورُ الزَّمانِ خَلْفَ هِضَابِهْ

وهُناكَ اصْطَفَى البقاءَ مَعَ الأمـ　　ـواتِ في قبرِ أَمْسِهِ غيرَ آبِهْ

غير آبه: غير مهتمّ

وارتَضَى القبرَ مَسكناً تتلاشى　　فيهِ أيامُ عُمْرِهِ الْمُتَشَابِهْ

وتَناسى الحياةَ والزمنَ الذَّا　　وي، وما كان من قديمِ رِغَابِهْ

فالزَمِ القبرَ فَهْوَ بيتٌ شَبيهٌ　　بِكَ في صَمْتِ قلبِه وخَرابِهْ

واعبُدِ الأَمْسَ وادَّكِرْ صُوَرَ الما　　ضي فدُنيا العجوزِ ذِكرى شبابِهْ

ادَّكر: تذكر

* * *

وإذا مَرَّتِ الحياةُ حوالَيْـ　　ـكَ جميلاً كالزَّهْرِ غَضَّاً صِبَاها

إذا مرت الحياة بقربك وصباها جميل وغض، طري، كالزهر..

تَتغنَّى الحياةُ بالشَّوْقِ والعَزْ　　مِ فَيُحْيِي قَلبَ الجَمادِ غِنَاها

غناها: غناؤها

والربيعُ الجميلُ يرقُصُ فوقُ الـ　　ـوردِ والعشبِ مُنْشِداً تَيَّاها

تياهاً: مختالاً فخوراً

فاحْذَرِ السِّحْرَ أيُّها الناسكُ القِدِّ　　يسُ إنَّ الحياةَ يُغْوِي بَهَاها

يسخر من الشعب، ويسميه الناسك والقديس لأنه يعيش في الماضي

والربيعُ الفنَّانُ شاعرُها المفـ　　ـتونُ يُغري بِحُبِّها وهَواها

وتملَّ الجَمالَ في رِمَمِ المَو　　تَى بعيداً عن سحرِها وصَدَاها

تمل الجمال، تأمله بتمعن، في بقايا الموتى بعيداً عن سحر الحياة وصداها، أي صوتها

وتـغـزَّلْ بِـسِـحْـرِ أيـامِـكَ الأُو　لى وخَلِّ الـحـيـاةَ تَـخْـطُ خُـطَـاهـا

وابقَ بين الأموات أيها الشعب العجوز وتغزل بالماضي واترك الحياة تسير سيرها بدونك.. يسخر من الشعب المستكين المتعلق بالأوهام وبالماضي

* * *

وإذا هَبَّـتِ الـطـيـورُ مَـعَ الـفـجـ　ـرِ تُغنِّي بيـنَ المروجِ الجميلةْ

وأفـاقَ الـوجـودُ لـلـعـمـلِ الـمـجـ　ـدي ولِلسَّعيِ والمعانيِ الجليلةْ

ومَشى الناسُ في الشِّعَابِ وفي الغا　بِ، وفوقَ المسالِكِ المجهولةْ

يَـنشُدُونَ الـجـمـالَ والـنـورَ والأفـ　ـراحَ والـمـجـدَ والـحـيـاةَ الـنـبـيـلـةْ

فاغْضُضِ الطَّرْفَ في الظَّلامِ وحَاذِرْ　فـتـنـةَ الـنـورِ فَـهْـيَ رُؤْيـا مَـهُـولـةْ

وصَـبـاحُ الـحـيـاةِ لا يُـوقِـظُ الـمـو　تَى ولا يَرْحَمُ الجفونَ الكَليِلَةْ

* * *

كـلُّ شـيءٍ يُـسـايِـرُ الـزمـنَ الـمـا　شيِ بِعَزْمٍ حتَّى التَّرابُ ودُودُهْ

كـلُّ شـيءٍ إلَّاكَ حَـيٌّ عَـطُـوفٌ　يُـؤْنِـسُ الـكـونَ شـوقُـهُ ونـشـيـدُهْ

فَـلـمـاذا تـعـيـشُ في الـكـونِ يا صا　حِ؟ وما فيكَ مِنْ جَنىً يَستَفِيدُهْ

جنى: ثمار. لماذا تعيش أيها الشعب؟ وليس فيك ثمار يستفيدها الكون

لـسـتَ يـا شَـيْـخُ لِـلْـحَـيـاةِ بِـأَهْـلٍ　أنـتَ داءٌ يُـبـيـدُهـا وتُـبـيـدُهْ

* * *

أنـتَ دُنـيـا يُـظِـلُّـهَـا أُفُـقُ الـمـا　ضـي ولـيـلُ الـكـآبَـةِ الأَبـدِيُّ

مـاتَ فـيـهـا الـزمـانُ والـكـونُ إلَّا　أمـسُـهـا الـغـابـرُ الـقـديـمُ الـقَـصِـيُّ

والشقيُّ الشقيُّ في الأرضِ شعبٌ　يـومُـهُ مَـيِّـتٌ، ومـاضـيـهِ حَـيُّ

٢٦ الناس

٨ ديسمبر ١٩٣٣

ما قَدَّسَ المَثلَ الأعلى وجَمَّلَهُ　في أعيُنِ الناسِ إلَّا أنه حُلُمُ

ولو مَشى فيهِمُ حَيّاً لَحَطَّمَهُ　قومٌ، وقَالوا بِخُبْثٍ إنَّهُ صَنَمُ

٢٧ متاعب العظمة

١١ ديسمبر ١٩٣٣

إذا صَغُرَتْ نفسُ الفَتى كان شوقُهُ ... صغيراً فلم يَتعَبْ ولم يَتَجَشَّمِ
ومن كانَ جَبَّارَ المطامعِ لم يَزَلْ ... يُلاقي من الدنيا ضَراوَةَ قَشْعَمِ

قشعم: نسر

٢٨ نشيد الجبار

أو هكذا غنى بروميثيوس، ١٥ ديسمبر ١٩٣٣

سأعيشُ رغمَ الدَّاءِ والأعداءِ ... كالنَّسْرِ فوقَ القِمَّةِ الشَّمَّاءِ
أَرْنُو إلى الشمسِ المضيئةِ هازئاً ... بالسُّحْبِ والأمطارِ والأَنْوَاءِ
وأَسيرُ في دنيا المشاعرِ حالماً ... غَرِداً، وتلكَ سعادةُ الشُّعَراءِ
النورُ في قلبي وبينَ جوانِحي ... فَعلامَ أَخشىَ السَّيْرَ في الظَّلْماءِ
وأقولُ للجَمْعِ الذينَ تَجَشَّمُوا ... هَدْمي وَوَدُّوا لَوْ يَخِرُّ بِنائِي

يخرّ: يسقط

وغَدَوْا يَشُبُّونَ اللَّهيبَ بِكُلِّ ما ... وَجَدوا لِيَشْوُوا فوقَهُ أَشْلائي

يشُبُّون: يشعلون، أشلائي: أطرافي

ومَضَوْا يَمُدُّونَ الخِوانَ لِيَأْكُلوا ... لَحْمي، ويرتَشِفُوا عَليهِ دِمائي:

الخوان: المائدة

إنَّ الْمَعَاوِلَ لا تَهُدُّ مناكِبي ... والنارَ لا تأتي على أعضائي
وإذا تمرَّدَتِ العواصِفُ وانتَشَى ... بِالهَوْلِ قلبُ القُبَّةِ الزرقاءِ

القبة الزرقاء: السماء

ورَأَيْتُموني طائِراً مُتَرَنِّماً ... فوق الزوابعِ في الفضاءِ النَّائي
فارْمُوا على ظِلِّي الحِجَارَةَ واخْتَفُوا ... خوفَ الرِيَاحِ الهُوجِ والأَنْوَاءِ
وهناكَ في أَمْنِ البيوتِ تَطَارَحُوا ... غَثَّ الحَديثِ ومَيِّتَ الآراءِ
وترنَّمُوا ما شِئْتُمُ بِشَتَائِمي ... وتَجَاهَرُوا ما شِئْتُمُ بِعَدائي

٢٩ الاعتراف

١٧ فيفري/ فبراير ١٩٣٤

ما كنتُ أحسَبُ بعدَ موتِكَ يا أبي ومَشاعِري عَمْياءُ بالأحزانِ
أَنّي سَأَظْمَأُ لِلْحياةِ وأَحْتَسي مِنْ نهرِها المتوهِّجِ النَّشْوانِ
حتى تَحَرَّكَتِ السِّنُونُ وأَقْبَلَتْ فِتَنُ الحياةِ بسحرِها الفتّانِ
فإذا أنا ما زلتُ طفلاً مولَعاً بتَعَقُّبِ الأَضواءِ والألوانِ
وإذا التَّشاؤُمُ بالحياةِ ورفضُها ضربٌ من البُهْتانِ والهَذَيانِ

هذا من أجمل الرثاء.. ما كان يظن عند موت والده الحبيب أنه سيحب الحياة، ولكنه بعد حين نسي.. لأنه متفائل

٣٠ شكوى ضائعة

٥ أوت/ أغسطس ١٩٣٤

يا ليلُ ما تَصْنَعُ النفسُ التي سكنَتْ هذا الوجودَ ومِنْ أَعدائِها القدرُ؟
تَنَهَّدَ الليلُ حتى قلتُ قد نُثِرَتْ تلكَ النجومُ، وماتَ الجنُّ والبَشَرُ
وعادَ للصمتِ يُصْغي في كآبتِه كالفيلسوفِ إلى الدنيا، ويفْتَكِرُ
وقَهْقَهَ القَدَرُ الجبارُ سُخْرِيَةً بِالكائِناتِ. تَضاحَكْ أَيُّها القدرُ
تَمْشي إلى العَدَمِ المحتومِ باكيةً طَوائفُ الخلقِ والأشكالُ والصُّوَرُ
وأنتَ فوقَ الأَسى والموتِ مبتسمٌ ترنُو إلى الكونِ يُبْنَى ثم يَنْدَثِرُ

٣١ الحسَّاس

١٠ أوت/ أغسطس ١٩٣٤

الشاعرُ الموهوبُ يُهْرِقُ فنَّهُ هَدْراً على الأقدامِ والأعتابِ
والعالِمُ النِّحْريرُ ينفِقُ عُمْرَهُ في فَهْمِ ألفاظٍ ودَرْسِ كتابِ

النحرير: العلامة

يَحيَا على رِمَمِ القديمِ الْمُجْتَوَى كالدُّودِ في حُمَمِ الرَّمَادِ الخَابي

المجتوى: المهجور المكروه، حمم الرماد الخابي: سواد الرماد المنطفئ

والشعبُ بينهما قطيعٌ ضائعٌ دنياهُ دنيا مَأكلٍ وشرابِ

الـويْـلُ لـلـحَـسَّـاسِ فـي دُنـيَـاهُـمُ   مـاذا يُـلاقـي مـن أَسـىً وعَـذَابِ

٣٢ فلسفة الثعبان المقدس

٢٠ أوت/ أغسطس ١٩٣٤

كـان الـربيـعُ الـحيُّ روُحـاً حـالـمـاً   غَـضَّ الـشَّـبـابِ معطَّـرَ الـجِلبـابِ
والـشـاعـرُ الـشَّحْرُورُ يرقُصُ مُنْشِداً   لـلـشـمـسِ فـوقَ الـوَرْدِ والأعـشـابِ

الشحرور: المغرد

شِـعْـرَ الـسـعـادةِ والـسـلامِ، ونـفسُـه   سَـكـرى بِـسِـحـرِ الـعـالَـمِ الـخَـلَّابِ
وراَهُ ثـعـبـانُ الـجـبـالِ فَـغَـمَّـهُ   مـا فـيـه مـن مَـرَحٍ وفـيـضِ شـبـابِ
وانـقـضَّ مُـضْـطَـغِـنـاً عـلـيـه كـأنَّـه   سَـوْطُ الـقَـضـاءِ ولَـعْـنَـةُ الأربـابِ

مضطغناً: حاملاً الضِّغْن أي الحقد

بُغِتَ الشَّقِيُّ فَصاحَ من هَوْلِ القَضا   مَـتُـلَـفِّـتـاً لـلـصَّـائِـلِ الْـمُـنْـتَـابِ:

الصائل: الهاجم، الذي يصول، المنتاب: المقتحم

لا شَـيءَ إلَّا أنَّـنـي مُـتَـغَـزِّلٌ   بـالـكـائـنـاتِ مُـغَـرِّدٌ فـي غـابـي
وسَـعـادَةُ الـضُّـعَـفـاءِ جُـرْمٌ مَـا لـه   عـنـد الـقـوِيِّ سـوى أَشَـدِّ عِـقـابِ
لا عَـدْلَ إلَّا إنْ تَـعَـادَلَـتِ الـقُـوَى   وتَـصَـادَمَ الإرهـابُ بـالإرهـابِ
فَـتَـبَـسَّـمَ الـثـعـبـانُ بـسـمـةَ هـازِئٍ   وأجـابَ فـي سَـمْـتٍ وفَـرْطِ كِـذَابِ

في سمت: في وقار

إنِّـي إلَـهٌ طَـالَـمَـا عَـبَـدَ الـوَرى   ظِـلِّـي وخَـافـوا لَـعْـنَـتِي وعِـقـابـي
وسـعـادةُ الـنـفـسِ الـتـقـيَّـةِ أنَّـهـا   يَـومـاً تَـكـونُ ضَـحِـيَّـةَ الأَرْبـابِ
أَفَـلا يَـسُـرُّكَ أن تـكـونَ ضَـحِـيَّـتـي   فَـتَـحِـلَّ فـي لَـحْـمـي وفـي أعـصـابـي
وتَـكـونَ عَـزْمـاً فـي دَمـيَ وتـوهُّـجـاً   فـي نـاظِـرِيَّ، وَحِـدَّةً فـي نـابـي

يريد الثعبان أن يفترس الشاعر ليكسب من لحمه قوة وعزماً. وكذا الزعيم المتسلط الذي يرسل الآلاف إلى الحرب فالموت، فهو يزعم لهم أن دماءهم ستشد عزم الأمة وتقويها

وتذوبَ في روُحيِ التي لا تنتهي   وتـصـيـرَ بـعـضَ أُلـوُهَـتـي وشَـبـابـي
إنِـي أردْتُ لـكَ الـخـلـودَ مُـؤَلَّـهـاً   في روُحِيَ البَاقي على الأحْقابِ

فأَجابَهُ الشُّحْرُورُ في غُصَصِ الرَّدَى والـموتُ يـخنُقُـهُ إلـيكَ جَوابي:
لا رَأْيَ للحقِّ الضعيفِ، ولا صَدَىً والـرأيُ رأيُ الـقـاهِـرِ الـغَـلَّابِ
فافعلَ مشيئَتَكَ التي قد شئتَها وارحمْ جَلالَكَ من سماع خِطابي
وكذاكَ تَتَّخِذُ المظالِمُ مَنْطِقاً عَـذْبـاً لِـتُـخْـفِـيَ سَـوْأَةَ الآرَابِ

سوأة الآراب: عورة الأهداف الشنيعة. وقف تشرشل - مثلاً - في البرلمان البريطاني، بعد أن ابتلع هتلر نصف أوروبا، وقال في خطبته المشهورة إن بريطانيا ستحارب في كل مكان إلخ إلخ.. و«إمبراطوريتُنا وراء البحار، مسلحةً ومحروسةً بالأسطول البريطاني، ستواصل الكفاح» قالها وكأن «إمبراطوريتهم» يجب أن تعاني ويموت أبناؤها من أجلهم

أبو القاسم الشابِّي

فهرس القوفي

فهد العسكر

(١٩١٥ ـ ١٩٥١)

خلق الله فهد العسكر إنساناً، وجَلاه عبد الله الأنصاري شاعراً، وجَلَوْته لك شاعراً كبيراً.

لولا صديقه هذا، عبد الله الأنصاري، الذي جمع أشعاره في طبعة أولى، ثم ثانية مزيدة، ثم ثالثة مزيدة، ثم رابعة مزيدة، ثم خامسة مزيدة.. ففي كل طبعة قصائد تضاف مما يكتشفه الصديق في أوراقٍ عند أصدقاء الشاعر وفي طوايا الجرائد، لانطوى فهد العسكر.

وجئتُ إلى هذا الشاعر الكويتي فأمطت عن أشعاره ركام الحشو.

اقرأ كتاب الأنصاري، الذي يحتوي على ديوان فهد العسكر، تجدك غائصاً في البحر تملأ كيسك بالمحارات، وينالك الإعياء وأنت تفتحها، ثم لا تخرج لك اللؤلؤة إلا بعد كثير من حبس الأنفاس، وقراع القواقع. واقرأ الصفحات المقبلة تجد اللؤلؤ.

تراني معجباً بعملي، وهو أهون عمل! بل أنا فخورٌ به.

لم أسعد بتنخيلي شاعراً من الشعراء مثلما سعدت وأنا أنخل لك فهد العسكر. كان يطيل، ويحشو، ويسمح للوزن أن يجره إلى حيث لا يجد قافية، فيضع في نهاية البيت لَبِنة تبدو ناتئة في بناء القصيدة.

روحه بارزة في كل شعره، غير أن روح كل شويعر ونويثر قد تبرز فيما يقولان. تبقى الصنعة وتبقى وَثَبات الخيال. فأما الصنعة فقد توفرت القدرة عليها لفهد العسكر، فهو صاحب وزن محكم ولغة طيبة، على ضيقٍ في معجمه، غير أنه لم يمتلك راحة البال ليصفي شعره، ولم يمتلك من العمر ما

يوصله إلى مرحلة التحكيك، ولا هو امتلك الثقافة العريضة. وأما وثبات الخيال فهي ما كنت ألهث وراءه وأنا أنتخب من شعر الرجل. ويضاف إلى محاسن شعر فهد العسكر أنه عبَّر عن حرمان شديد، وعن تمزق بين مجتمع شبه بدائي وبين أفكار واردة تعاني من غربة في هذا المجتمع، وعبَّر عن بوهيمية غير مألوفة في ذلك المكان والزمان. هذا شاعر خمريات في بلد لا تزال الخمر فيه ممنوعة بالقانون حتى يومنا هذا.

شيَّع فهدَ العسكر إلى قبره خمسة غرباء لا نعرف منهم إلا إمام المسجد. فقد كان شاعرنا خلع نفسه من الأسرة قبل أن تخلعه أو بعد أن خلعته، وعاش عزباً فقيراً في غرفة في سوق واقف بالكويت. وفقد بصره في أخريات سنيه. ولم يشهد العسكر كويت النفط إلا قليلاً، إذ مات عام ١٩٥١، بعد خمس سنوات فقط من إقلاع أول ناقلة تحمل نفط الكويت.

عاش فهد على خمر النخل تأتيه من العراق. وعاش على شوق للتماس الجسدي مع «حواء»، فإن لم يتيسر، ولم يتيسر، فلا بأس بغلام، ولم يتيسر. وغلف أحلامه الجنسية بما استطاع التقاطه من ألفاظ حركة أبوللو الرومنسية.

ازدحمت حياته القصيرة، ٣٦ عاماً ـ بين ١٩١٥ و١٩٥١ ـ، بضروب الحرمان، غير أنه أتيح له أصدقاء، ممن استنشق رياح الفكر اليساري أو الليبرالي، فحفظوا لنا ما وصلنا من شعره. وكان ينشر بعض أشعاره التي فيها قدر من التحرر والتمرد في جريدة «البحرين» في أوائل الأربعينات.

كان صديقه عبد الله الأنصاري في مصر وقت وفاته، فلم نعرف عن مرضه وموته سوى أن أيّاً من أهله أو صحبه لم يشيعه.

وقد رأيت في شعر فهد العسكر تخميسات. وهي ثلاثة أشطر يبنيها الشاعر فوق بيت لشاعر مشهور. خمَّس فهد أبياتاً من قصيدة للمتنبي، ونقلناها. كما خمَّس أبياتاً من عدة قصائد لشوقي. والتخميس تمرين كان يقوم به الشاعر الناشئ. وكان يحدث أن يقوم به الشاعر الفحل في الزمن غير الفحل. ولم أجرب التخميس قط. فلما عزمت على اقتباس شيء منه لشاعرنا، قلت: فلأجربه بنفسي حتى أحس به. فخمست أبياتاً للمعري:

زَحَمُوا ظهرَها وسَارُوا خَيارَى ... وتَوارى في بَطنِها مَن تَوارى

وقضَى اللَّهُ لِلوَرى استِمرارا ... «رُبَّ لَحْدٍ قد صار لَحْداً مِرارا»

«ضـاحِـكٍ مِـن تَـزاحُـم الأَضْـدَاد»

يَعتَرِينا في الحينِ بعدَ الحينِ نـازِلاً بِـالـكَـعـابِ والـخَـيْـزَبُـونِ

في حَشا الأرضِ كم حَشا مِن خَدينٍ «ودَفـيـنٍ عـلـى بَـقـايـا دَفـيـنِ»

«فـي طـويـلِ الأزمـانِ والآبـادِ»

تَعِبَ السَّوْطُ مِن ظُهورِ الرِّفاقِ ثـم أَوْدى احْـتِـرابُـهُـمْ بِـالـبَـواقـي

مـا شَـبـيـهُ الـشَّـامِيِّ إلَّا الـعِـراقـي «وشـبـيـهٌ صـوتُ الـنَـعِـيِّ إذا قـي»

«سَ بِـصـوتِ الـبَـشـيـرِ فـي كـلِّ نـادِ»

الآن إلى ما اخترناه من شعر فهد العسكر. فإن شئت أن تسمع قصيدة ـ قصة، تعصف بما كان يصنعه الرصافي من هذا اللون عصفاً، فأسرع في تقليب الصفحات لتصل إلى قصيدة طويلة نقلنا منها طويلاً، فوق الثلاثين بيتاً، فهي من أرق الشعر وأحلاه، وسميناها «عروس البحر».

١ لغة القوة

يا بَنِي العُرْبِ إنَّما الضَّعْفُ عارٌ إي وَرَبِّي، سَلُوا الشعوبَ القَوِيَّةْ

كم ضَعيفٍ بَكى ونادَى فَراحَتْ لِبُكاهُ تُقَهْقِهُ المِدْفَعِيَّةْ

لُغَةُ النارِ والحديدِ هِيَ الفُصـ ـحَى، وحَظُّ الضَّعيفِ منها المَنِيَّةْ

ها هِيَ الحربُ أَشْعَلُوها فَرُحْما كَ إِلَـهـي بِـالأُمَّـةِ الـعَـربِـيَّـةْ

يا بَني الفاتِحينَ حتى مَ نَبْقى في رُكُودٍ؟ أين النُّفوسُ الأَبِيَّةْ

العرب هم أبناء الفاتحين في الزمن القديم

٢ أمنيات

في الترحيب ببعثة تعليمية من فسطين، ١٩٣٦:

بـالـلَّـهِ يـا رُسُـلَ الـثـقـافَـةِ خَـبِّـرو نا، كيف حالُ الأُخْتِ يا إخْواني

أَعْني فِلَسْطِيناً، وكيفَ أَمِينُها وجُـنـودُهُ وبَـقِـيَّـةُ الـسُّـكَّـانِ

أمينها: الحاج أمين الحسيني مفتي القدس والزعيم السياسي

مـا وَعْـدُ بَـلْـفُـورٍ سِـوى أُمْـنِـيَّـةٍ ونِـداؤُهُ ضَـرْبٌ مِـن الـهَـذَيـانِ

وقولك يا فهد أمنية. أعلّق على بيتك هذا في أبريل ٢٠١٧، وبعد أشهر ستحل الذكرى المئوية لوعد بلفور، ورئيسة وزراء بريطانيا تيريزا ماي تصرح قبل أيام فقط بأن بلدها فخور بهذا الوعد

يا نَشْءُ هلْ مِن نَهْضَةٍ نُحْيِي بِها الـ ... ـمَجْدَ الأثيلَ كَنَهْضَةِ الجَابَانِ

الأثيل: القديم الثابت، الجابان: اليابان

يا نَشْءُ وَاأَسَفَا على دِينٍ غَدا ... أُحْبُولَةً لِلأَصْفَرِ الرَّنَّانِ

أحبولة: شَرَك للصيد، الأصفر الرنان: الذهب

كيف النُّهوضُ بِأُمَّةٍ بَلهاءَ، لا ... تَنْفَكُّ عَاكِفَةً على الأَوْثانِ

بِالدِّينِ قد نالَ الجُدودُ مُناهُمُ ... وغَدَوْا، ورَبِّي، بَهجَةَ الأَزْمانِ

فتَحُوا الفُتوحَ ومَهَّدُوا طُرُقَ العُلا ... واستَسْلَمَ القَاصِي لَهُمْ والدَّاني

٣ كُفِّي الملام

كُفِّي المَلامَ وعَلِّلِيني ... فالشَّكُّ أَوْدَى بِاليَقِينِ

وتَناهَبَتْ كَبِدِي الشُّجو ... نُ، فَمَنْ مُجيري مِنْ شُجوني؟

وَطَنِي! وما أَقْسَى الحيا ... ةَ بِهِ على الحُرِّ الأمينِ

وَطَنِي! وَأَدْتُ بِكَ الشَّبا ... بَ وكُلَّ ما مَلَكَتْ يَمِيني

وَطَنِي! وما سَاءَتْ بِغَيْـ ... ـرِ بَنِيكَ يا وَطَنِي ظُنُوني

رَقَصُوا على نَوْحِي وإعْـ ... ـوالي وأَطْرَبَهُمْ أَنيني

الإعوال: البكاء والعويل

وتَحامَلُوا ظُلْماً وعُدْ ... واناً عَلَيَّ وأَرْهَقُوني

فَعَرفْتُهُمْ ونَبذْتُهُمْ ... لكِنَّهُمْ لم يَعرِفُوني

وتَطاوَلَ المُتَعَصِّبو ... نَ، وما كَفَرْتُ، وكَفَّرُوني

يا قَومُ كُفُّوا؛ دِينُكُمْ ... لَكُمُ، ولِي يا قَومُ دِيني

لَيْلَى تَعالَيْ زَوِّدِيني ... قَبْلَ المَماتِ ووَدِّعِيني

ودَعِي العِتابَ إذا التَقَيْـ ... ـنا، أَو فَفِي رِفْقٍ وَلِينِ

هَيْمانَ كالمَجْنُونِ أَخْـ ... ـبِطُ في الظَّلامِ فَأَخْرِجِيني

خَفَّتْ بِيَ الأشباحُ صا ... رِخَةً، بِرَبِّكِ أَنقِذِيني

لَيلَى إذا حُمَّ الرَّحِيـ ... ـلُ وغَصَّ قَيْسُكِ بِالأَنِينِ

حم: اقترب

ولَـفَـظْـتُ رُوحـيَ فَـاطْـبَـعـيِ   قُـبَـلَ الـوَداعِ عـلـى جَـبـيِـنـي
وإذا دُفِــنْــتُ فَــبَــلِّــلــي   بِـالـدَّمْـعِ قَـبـريَ واذكُـرِيـنـي

٤ الصاهر المذيب

صَهَرتُ في قَدَحِ الصَّهباءِ أحزاني   وصُغْتُ في ذَوْبِها شِعري وألحاني
وبِتُّ في غَلَسِ الظَّلماءِ أُرْسِلُها   مِن غَوْرِ رُوحي ومِن أعماقِ وِجداني

الغلس: ظلام آخر الليل، والغسق ظلام أوَّله

يا ساقِيَ الخمرَ لا شَلَّتْ يداكَ أَدِرْ   بِنتَ النَّخيلِ فإنَّ الصَّحْوَ أَضْناني

شَلَّت: أصيبت بالشلل، بنت النخيل: خمر التمر

٥ اترك العود

هاتِ يا ساقيِ، هاتِ بِنتَ النَّخيلِ   فعَساها تَشفي عَساها غَليلي

بنت النخيل: خمر التمر، وهو عَرَقٌ كان يُجلب من العراق

هـاتِـهـا عَـلَّـنـي أُذَوِّبُ أَتْـرا   حِيَ فـيـهـا، ودَعْ هُراءَ الـعَـذُولِ
واتْرُكِ العُودَ، واسْقِنيها على نَوْ   حِ فُؤادي خِدْنِ الضَّنى وعَوِيلي

أُترك عزف العود واسقني الخمر على صوت نواح فؤادي خدن الألم، أي رفيقه

جاءَ تَحريمُها، وليس علَيْنا   بلْ على كلِّ سافِلٍ وجَهُولِ
فبِصَدْرِ المَكْروبِ نارٌ تَلَظَّى   أَوْقَدَتْها الأَشْجانُ عند الرحيلِ
لم تَطِبْ لي دُنيا الشَّقاءِ فَوالَهْـ   ـفي وشَوقي لِلعالَمِ المجهولِ
أَيُّـهـذا الـخـلـيـجُ شَرَّدْتَ أَحلا   مي، فَدَعْ لي عَواطِفي ومُيُولي
إنَّ لـي فـيـكَ، والـمـحـبَّـةُ قَـيْـدٌ،   أَغْـيَـداً ذا خَـلْـقٍ وخُـلْـقٍ نـبـيـلِ
وجَـبـيـنٍ زَاهٍ وقَـدٍّ رَشـيـقِ   وعـيـونٍ نَـشْـوَى وخَـدٍّ أَسـيـلِ

عيونه نشوى، سكرانة ذابلة، وخده أسيل، أي طويل

ومُـحَـيًّـا كـالـبـدرِ شَـعَّ سَـنـاهُ   أو كَشَمسِ الربيعِ عندَ الأُفُولِ

سناه: ضوءُه

وطِبـاعٍ أَرَقَّ مِن بَسْمَةِ الفجـ   ـرِ وروحٍ أنقَى مِن السَّلْسَبيلِ

وانْطَوَتْ شِقَّةُ النَّوى والتَقَيْنا ... بعدَ لأْيٍ وبعدَ قالٍ وقيلِ

بعد لأي: بعد إبطاء

فَسَفَحْتُ الدموعَ بين يديْهِ ... وَهْوَ في شِبْهِ حَيْرَةٍ مَذهُولِ

سفحت: سفكت

يَنْكُتُ الرَّملَ مُطرِقاً وأنا أَشْـ ... ـكُو إليهِ آلامَ دائيَ الوَبيلِ

ينكت: نقول بالعامية ينكش، والجالس أرضاً على الرمل في موقف حرجٍ من شأنه أن ينكت الرمل بعود أو بإصبع

آهِ ما أَعطَشَ الفؤادَ إلى دَمْـ ... ـعَةِ عَطفٍ مِن جَفْنِهِ المَكْحولِ

يَا لِمَرأَى الدُّموعِ وَهْيَ بَناتُ الشِّـ ... ـعرِ في مُقْلَةِ الحَيِيِّ الخَجولِ

فخَرجْنا مِن صَمْتِنا واعتَنَقْنا ... وأَخذْنا بِالضَّمِّ والتَّقبيلِ

وشَرِبْنا بِنتَ النَّخيلِ وما أَعْـ ... ـذَبَها في ظِلِّ الوِصالِ الظَّليلِ

فَسَكِرْنا فَرُحْتُ أُنْشِدُ شِعراً ... وَهْوَ يُصْغي لِشِعرِيَ المَعْسُولِ

المعسول: الحلو كأنه مخلوط بالعسل

ليلةٌ ذِكرياتُها مِلْءَ ذِهني ... وَهْيَ في ظُلمةِ الأَسى قِنديلي

ليلةٌ لا كَليلَةِ القَدْرِ بل خَيْـ ... ـرٌ وخَيْرٌ، واللَّهِ، مِن أَلْفِ جيلِ

رُبَّ صَمْتٍ يا صاحِ أَوْقَعُ بل أَبْـ ... ـلَغُ في سِحرِهِ مِن التَّنْزيلِ

التنزيل: القرآن

ودُموعُ العُشَّاقِ فَيْضٌ مِن الخُلْـ ... ـدِ وشِعْرٌ يُزْري بِشِعْرِ الفُحولِ

وخُفوقُ القلوبِ ضَرْبٌ مِن التَّسْـ ... ـبيحِ عند اللقاءِ والتَّهليلِ

التسبيح: قولة «سبحان الله»، التهليل: قولة «لا إله إلا الله»، والاستغفار. . نستغفر الله من هذا التجديف

٦ أَشعِليني

بِكِ بِالشَّوْقِ بِالضَّنى يا جارَةْ ... أَسعِفيني بِالكَأْسِ والسِّيجارةْ

بك: أي أستَنْجد بك

أَخرِجيني مِن الظَّلامِ إلى النُّو ... رِ، وفَرْضٌ أن يُسعِفَ الجارُ جارَهْ

يا عَروسَ الأحلامِ بِاللَّهِ هاتِي وخُذِي. ولْنَفُضَّ هذي البَكارَةْ
أَشعِلي تِلكَ واترعي هذه مِن خَمْرَةِ الرَّافِدَيْنِ هَاتِيكَ تَارَةْ

أشعلي السيجارة، واملأي الكأس من خمرة العراق

ودَعيني ما بين سيجارَتي والـ ـكأسِ أَبكي الصِّبا وآخُذُ ثارَهْ
خَفِّفي العَتْبَ، أَوْصِدي البابَ، قُومي واطْمَئِنِّي، فالشيخُ غادَرَ دارَهْ
لستُ أخشَى عليكِ مِن أُمِّكِ السُّو ءِ، فكمْ رَحَّبَتْ بِهذي الزِّيارَةْ
يا ابْنَةَ الشيخِ يا مُنَى النَّفسِ يا رَيْـ ـحانَةَ الحَيِّ! أَوْقَدَ الشوقُ نَارَهْ
اِنْقَعي غُلَّتي فبينَ ضُلوعي خافِقٌ شَفَّهُ الصَّدَى لا حِجارَةْ

انقعي غلتي: اروي عطشي، خافق: قلب، الصدى: العطش

ذابَ قلبي أو كادَ يا رَبَّةَ الحُسْـ ـنِ، خُذيهِ واسْتَطلِعي أَسْرارَهْ

٧ اذكريني

أُذْكُريني كُلَّما الصيفُ أَتَى يَحمِلُ البُشرَى لِأَربابِ الغَرامْ

قال أحمد رامي، وغنتها أم كلثوم في لحن السنباطي عام ١٩٣٩: «اذكريني كلما الفجر بدا».
وشطر رامي أخذه الرحبانيان كما هو وغنته فيروز

فالتَقَتْ كلُّ فتاةٍ وفَتى فإذا الدنيا سلامٌ وابتِسامْ

* * *

أُذكُريني كلَّما جاء الخَريفْ ناثراً ما نَظَمَتْ كَفُّ الربيعْ

الخريف ينثر أوراق الشجر التي أنبتها الربيع فكأنه نظمها بيده، وثمة تورية لا تخفى بين النثر والنظم

ماحِياً كلَّ أَنيقٍ ولَطيفْ ماسِخاً كلَّ جميلٍ وبَديعْ

* * *

أنا إنْ مُتُّ أَفيكُمْ يا شَبابْ شاعرٌ يَرثي شبابَ العَسْكَرِ؟
بائِسٌ مِثلِيَ عَضَّتْهُ الذِّئابْ فَغَدا مِن هَمِّهِ في سَقَرِ

هل فيكم بائس مثلي عضته ذئاب هذه الحياة فاصبح من الهم في جحيم؟

٨ يعترف بوجوده

قَبِّلْ فديتُكَ مِبسَمي دَعْ جِيدي ... وإلى اللِّقاءِ صباحَ يومِ العيدِ

فتاته تخاطبه

لا تقتربْ مِن دارِنا هُمْ أَقْسَمُوا ... أنْ يَقطَعُوا، إنْ جِئتَ، حَبلَ وَرِيدي

يا ليتَ شِعريَ هل أثارَ شُكوكَهُمْ ... حَولي، قِياميَ بالدُّجى وقُعودي؟

تقول الفتاة: هل ثارت شكوك أهلي حولي لكثرة ما أصحو في الليل قلقة؟

وتأَفُّفي وتَلَهُّفي وتَبَرُّمي ... بِهِمُ، وهذا دَيْدَنُ المَفْؤُودِ

ديدن المفؤود: عادة المصاب في قلبه

أَكَثيرةَ الشَّكْوى! حَنانَيْكِ، اهْدَأي ... وتَرَفَّقي بالشاعرِ المَنْكُودِ

يرد عليها.. يا كثيرة الشكوى! حنانيك، أي رويدَكِ، واهدأي، وارفقي بالشاعر المعذب

الصُّبْحُ لم يُسْفِرْ، وأَهْلُكِ نُوَّمٌ ... قُومي مَعي نَحسُو المُدامَ وعُودي

نحسو: نشرب

فتردَّدَتْ وتَملمَلَتْ وتَنهَّدتْ ... وبكتْ، وطَوَّقَ ساعِداها جِيدي

قالتْ هَلُمَّ إلى الشُّوَيْطِئِ، قلتُ: لا ... فهُناكَ كلُّ مُفَنِّدٍ وحَسودِ

المفند: اللائم الذي يخطّئ صاحبه

وهُنا الأَمانُ، وهَهُنا ما شئتِ مِن ... بِنتِ النَّخيلِ أوِ ابْنَةِ العُنقُودِ

بنت النخيل: عَرَق التمر، ابنة العنقود: خمر العنب

ما إنْ أَقُولُ لها خُذي مَعبُودَتي ... إلّا وقالتْ: هاتِ يا مَعْبُودي

هاتِ اسْقِنِيها لا تُعَكِّرْ صَفْوَها ... دَعْها بِلا مَزْجٍ ولا تَبْرِيدِ

فَلَكَمْ أَثارَتْ غافِيَ الإحساسِ بي ... وكَمِ اعتَرَفْتُ أَمامَها بِوُجُودي

٩ إلى الكنيسة

قالتْ وقد مَسَحتْ دُموعِيَ: لا تَنُحْ ... ومَعي اغْتَبِقْ يا عَندَليبُ وغَرِّدِ

اغتبق: اشرب الخمر مساءً، والغَبوق شراب المساء وضده الصَّبوح

قد قيلَ لي بالأمسِ إنَّكَ شاعرٌ ... فاشرَبْ على نَخبي. فلم أَتَرَدَّدِ

مـا كـان أرخَـمَ صَـوتَـهـا وأَرَقَّـهُ   حين انتَشَتْ، وشَدَتْ، وقالتْ: أَنْشِدِ

انتشت: سكرت

فَـشـرِبْـتُ ثـانِـيـةً وثـالِـثـةً إلـى   سَبْعٍ. فقالتِ: خُذْ، وزِدْ، وبِيَ اقْتَدِ

فَلِحُسْنِ حَظِّيَ أَنَّني لم أَنْصَرِفْ   حـتـى ظَـفِـرْتُ بِـقُـبْـلَـةٍ وبَـمـوْعِـدِ

كل هذا الشراب على قبلة!

يا صاحِبي قد كان ما شاءَ الهوى   فإلى الكَنِيسَةِ سِرْ بِنا لا المسجِدِ

إن قـيـلَ جُـنَّ فـإنَّ عُـذرِيَ واضِـحٌ   أو قـيـلَ تـاهَ فـفـي يَـدَيْـهـا مِـقْـوَدي

أو قيلَ ضَلَّ فَلسْتُ قبلَ زِيارتي   وتَـدَلُّـهـي بِـالـزَّاهِـدِ الـمُـتَـعَـبِّـدِ

إن قلتم إنني ضللت بالذهاب إلى كنيستها وتدلّهت وتولهت بحبها، فأنا من قبل هذا لم أكن متعبداً

بِاللَّهِ هل تُطْوَى السَّماءُ إذا هَفا   وصَـبـا لِـمُـشْـرِكَـةٍ فـؤادُ مُـوَحِّـدِ؟

هفا: مال، صبا: أَحَبَّ.. وهي مشربة بمعنى «صبأ» أي ارتدَّ عن الدين.. ولا نظنه قصد إلى هذا المعنى

فـاليومَ قَـادَتْ مَـن تُـحِـبُّ لِـدِينِـهـا   وغَـداً يَـعـودُ بـهـا لِـديـنِ مـحـمـدِ

١٠ الظبي المتحكم

ظَـبْـيٌ تَـحَـكَّـمَ بـي ولا   تَـلُـمِ الـغَـزالَ إذا تَـحَـكَّـمْ

قَـسَـمـاً بِـرِدْفَـيْـهِ، وكَـمْ   مِـن مُـدْنَـفٍ بِـالـرِّدْفِ أَقْـسَـمْ

مدنف: مريض عشقاً

أَشْـكُـو الـقَـوامَ لِـخَـصْـرِهِ   مُـتـظَـلِّـمـاً، والـخَـصْـرُ أَظْـلَـمْ

الـلَّـهَ فِـيَّ، فـإنَّ كـأْ   سِيَ مِـلْـؤُهـا بِـهـواكَ عَـلـقَـمْ

اللَّهَ: أي اتقي الله

كَـتَّـمْـتُ حُـبَّـكَ مُـرْغَـمـاً   والـحَـيُّ يُـقْـتَـلُ حـيـنَ يَـكْـتُـمْ

كـيـف الـسـبـيـلُ إلـى الـشَّـكـا   ةِ، وكـلُّ مَـن فـي الـحَـيِّ لُـوَّمْ

١١ المتيم

قال عام ١٩٣٨:

وتقولُ لي والكأْسُ خَضَّبَ كَفَّها   إنِّـي لأَهْـوى الـضَـمَّ والـتَّـقْـبِـيـلا

الكأس صبغت كفّها بلون الخمر

فتَخالُنا فوقَ الرِّمالِ، ونحن في سُكْرِ الغَرامِ، بُثَيْنَةً وجَميلا
قَدَّمْتُ قُرباناً لِمَذْبَحِ حبِّها رُوحي، متى كان المُحِبُّ بخيلا
حَوَّاءُ! والَهفي عليكِ، فما سَلا قلبي؛ ولا أَرضَى سِواكِ بَديلا

سلا: نسي حبيبه

١٢ بيع الفتاة

زَجُّوكِ وَاأَسَفَاهُ في سِجنِ التقاليدِ القديمهْ
لا دَرَّ دَرُّكَ مِن أَبٍ فَظٌّ ووالِدَةٍ لئيمهْ
يا قاتَلَ اللّهُ التَّعَصُّـ ـبَ، كم تَمَخَّضَ عن جريمهْ

* * *

قد أُدخِلَتْ ليلاً عليْـ ـهِ، فكانَ ليلاً سَرْمَدا

زوجوها ممن لا تحب فكان ليلها معه أبدياً

شَلَّتْ يَداهُ فكَمْ بِها عاثَتْ، أَلَا شَلَّتْ يَدا

شَلَّت: أصابها الشلل، يدعو عليه؛ فكم قد عاثت هذه اليد فساداً بمشاعر هذه الفتاة

وحَسَا على صَرَخاتِها دَمَها الزَّكِيَّ وعَربَدا

* * *

غَدَتِ العَذارى كالعَقا ئِدِ والمَبادِئِ والضَّمائِرْ
سِلَعاً تُباعُ وتُشْتَرى عَلَناً بِأَسْواقِ الحَواضِرْ

الحواضر: المدن

والرَّابِحونَ بِها لَهُمْ مِنَّا التَّهاني والبَشائِرْ

١٣ موشح الخمر والغرام

طرقَتْني فجرَ يومِ المَوْلِدِ وأَبُوها عاكِفٌ في المسجدِ
فالتَقى الثَّغرانِ رَغمَ الحُسَّدِ وكِلانا مُتْعَبُ القلبِ صَدي

الصدي: العطشان

* * *

ثــم قَــالَــتْ ورَذَاذُ الــمــطَــرِ   حَبَسَ الـطـيـرَ، ولَـمَّـا يَـطِـرِ
هاتِ بِنتَ النَّخلِ يا ابْنَ العَسْكَرِ   لا يُطـاقُ الصَّحْوُ في ذا البَلَدِ

بنت النخل: خمر التمر

* * *

هـاتِـهـا بَـيْـضـاءَ مِن خَـمْـرِ العِـراقِ   كـم بِـهـا حَـلَّـقَ بِـالـنُّـدْمـانِ سـاقِ
ولْـنُـعَـاقِـرْهـا مَـعـاً قـبـلَ الـفِـراقِ   ثُـم قـامَـتْ، ونَـضَـتْ مـا تَـرتَـدي

نضت ثوبها: خلعته

* * *

وفَـضَـضْـنـا خَـتْـمَـهـا والـسَّـعْـدُ بـاسِـمْ   وسَـكَـبْـنـاهـا عـلى هَـمْـسِ الـنَّـسـائِـمْ
وأَدَرْنـاهـا وأَنْـفُ الـشـيـخِ راغِـمْ   وشَـرِبْـنـاهـا، ولـم نَـقْـتَـصِـدِ

* * *

وتَـرَشَّـفْـنـا حُـمَـيَّـا الـقُـبَـلِ   وتَـرَكْـنـا الـنَّـوْمَ لِـلْـغِـرِّ الـخَـلـي
وتَـحـدَّثْـنـا عـن الـمـسـتـقـبَـلِ   وأَزَحْـنـا الـسِّـتْـرَ عـن دنـيـا الـغَـدِ

١٤ هات العود

اعزِفْ على العُودِ يا مَعبُودِيَ الثاني   وغَنِّ «يا حُبُّ أنتَ الهادِمُ البَاني»
يا ساجِيَ اللَّحْظِ والأَحلامُ شارِدَةٌ   أَسْرِعْ بِربِّكَ وامْلأْ كَأْسِيَ الثاني

ساجي اللحظ: هادئ النظرات

اعزِفْ على العُودِ ولْنَسْكَرْ، ولا حَرَجٌ   ولْنُحْيِ مَيْتَ الأَماني بِابْنَةِ الحانِ
هُنا الهوى وأَغانيهِ العِذابُ؛ هُنا   عَرائِسُ الوَحْيِ أَلقاها وتَلقَاني

١٥ خلقت لأشقى

يـا حَـبيـبي تَـمَـرْكَـزَ الـشَّـجَـنُ الـصَّـا   رِخُ بِـالـقَـلْـبِ عَـنْـوَةً واسْـتَـبـاحـا

استباح الحزن الشديد قلبي بالقوة. «تمركز» كلمة يأباها الشعر.. يا أخي غابت عنك «تحكم» و«تسلط».. لا تنفع «تمركز» فهي في مركز دائرة السماجة، وهي من كلام العاملين في دائرة المساحة

إِنَّـنـي هَـهُـنـا عـلـى شَـاطِـئِ الـرَّمْـ   ـلِ أُشـاكِـي الـنَّـوى مَـسـاءَ صَـبـاحـا

أشاكي النوى: أتبادل الشكوى مع الفراق

فأنا شاعِرٌ خُلِقْتُ لِأَشْقَى   لا لِأَلْقَى سعادَةً وفَلاحا

الفلاح: الفوز بالنعيم بطريق التقوى

١٦ رقصة القلب

ارقُصي فالقلبُ ما بيـ   ـنَ الحَنايا قد رَقَصْ

الحنايا: أضلاع الصدر، أليست منحنية!

ودَعِينا نَنْتَهِزْ، يا   رَبَّةَ الحُسْنِ، الفُرَصْ

* * *

أنا قَيْسٌ في هواها   وَهْيَ في حُبِّيَ ليلى

عاشِقانِ امْتَزَجا والـ   ـتَقَيا سِرّاً لِكَيْلا..

لكيلا.. أي لكيلا يكشفوا أمرنا ونفتضح

١٧ بلبل في الشتاء يتذكر الصيف

حَيْرانُ ما انْفَكَّ مَذهُولاً كَمُتَّهَمٍ   لم يَجْنِ ذَنباً، ولم يَنْجَحْ مُحامِيهِ

الصورة أعجبت زكريا الأنصاري كثيراً ورآها جديدة. صورة متهم بريء مذهول لأن محاميه لم ينجح في بيان براءته..

تُطِلُّ مِن كُوَّةِ الماضي عليهِ، وقدْ   أَشجاهُ حاضِرُهْ، أَطيافُ ماضيهِ

كوة: نافذة.. فأطياف الماضي تطل على البلبل، وقد أحزنه حاضره. وشعراء الرومنسية من جماعة أبوللو، الذين تأثر بهم الشاعر، يكثرون من كلمة «كوة» و«كوى».. وهي عندهم دائماً كوة الماضي

يَرنُو إليها كما يَرنُو المريضُ، وما   أَبَلَّ بعدُ، إلى عَيْنَيْ مُداوِيهِ

ينظر إلى صور الماضي نظر المريض الذي لم يشف بعد إلى عيني طبيبه

وإنْ غَفا راحَتِ الأحلامُ عابِثَةً   بِهِ، فتُدْنيهِ أحياناً وتُقْصِيهِ

فيَسْكُبُ اللَّحنَ أَنَّاتٍ يَغَصُّ بِها   وَيْحَ الشتاءِ فما أقسَى لَيالِيهِ

١٨ شقاء الشاعر

إنْ تَسَلْني فأنا ابْنُ الرَّ-   يْبِ مُذْ كُنتُ صَبِيَّا

مالك بن الريب شاعر أموي رثى نفسه وهو يجود بأنفاسه الأخيرة في قصيدة حزينة، تجدها في كتابنا «أول الشعر»

آهِ ما أشْقَى الذي يو هَبُ حِسّاً شاعِرِيَّا
الشَّجَى والأرَقُ امْتَصـ ـا السَّنَا مِن مُقْلَتَيَّا

السنا: الضوء

١٩ على الشاطئ

إنَّ لي عِندَكَ لَحناً هاتِهِ يا مَوْجُ هاتِهْ
مِن لُحُونٍ هَتَفَ الصيـ ـفُ بِها في أُمْسِياتِهْ
فَهْيَ لِلقَلْبِ، وكَمْ رَتَّـ ـلَها في صَلَواتِهْ
أنا في مَعبَدِهِ قد صُغْتُها مِن عَبَراتِهِ

* * *

كُن ضَنِينا أيُّها الليـ ـلُ بِسِرٍّ قد أذاعَهْ
تائِهٌ يَبحَثُ في جُنْـ ـحِكَ عن كَنْزٍ أضاعَهْ
هُوَ كالمَلّاحِ حينَ الْـ ـتَهَمَ اليَمُّ مَتاعَهْ
وانْبَرى للرِّيحِ والمو جِ، فلم تُغنِ الشَّجاعَةْ

٢٠ بيْعة

يحيي أمير الكويت «عبد الله السالم الصباح» عند توليه الحكم، عام ١٩٥٠ :

جاءَ الربيعُ وأنتَ راقِدْ قُمْ واشْدُ، يا رَبَّ القَصائِدْ
ما لِلبَلابِلِ حينَ يَبْـ ـتَسِمُ الصَّباحُ ولِلمَراقِدْ

البلابل ما لها وللنوم في المراقد عندما يطلع الصباح

قُمْ حَيِّهِ فيها وصُغْ بِبَهائِهِ أَسْنَى الفَرائِدْ

أيها الراقد قم، وحيِّ الصباح بالقصائد وصغ من بهاء الصباح عقوداً من أسنى، أغلى، الفرائد، أي اللآلئ

غَرّاءَ يُغْضِي النَّيِّرا نِ لِضَوْئِها قبلَ الفَراقِدْ

هذه القصائد غراء، جميلة، يغضُّ النيران، أي الشمس والقمر، الطرف لتوهجها، وكذا تغض الفراقد بصرها، والفراقد نجوم معينة في السماء

والشِّعْرُ ما اضْطَرَمَ الشُّعو رُ بِهِ، وإلَّا فَهْوَ بارِدْ

اضطرم: توقَّد

والشِّعْرُ في الأَشْرافِ حَيٌّ خالِدٌ والمالُ نافِدْ

نافد: منتهٍ

ولآلِئُ الوِجْدانِ ظُلْمٌ أن تُصاغَ لِغَيْرِ نَاقِدْ

ظلم أن تصوغ العقود الشعرية من لآلئ الوجدان لتهديها لمن ليس بناقد. والناقد هو الصيرفي الذي ينقد الدراهم الزيوف ويعزلها.. والناقد الأدبي في المعنى القديم هو من يعرف قيمة الشعر

سِرْ أيُّها الفَذُّ الهُمامُ فأنْتَ فينا اليومَ وَاحِدْ

الفذ: الفرد الأوحد، الهمام: الشخص ذو الهمة، والهمام كلمة تطلق منذ الجاهلية على الزعيم.. والنعمان كان «همام» النابغة

ولأنْتَ أعرَفُ يا ابْنَ سالِمَ بِالسِّياسَةِ والأَساوِدْ

الأساود: الأفاعي

ولأنْتَ أخبَرُ مِن سِواكَ بِمَنْ عَلا بَعضَ المَقاعِدْ

وكان أهل المقاعد في مجلس النواب الكويتي ـ وما زالوا ـ يعرفون كيف يحافظون على كلمة الناس مقابل رأي الحاكم وسلطته

ما كان أغْنَى المُقْلَةَ الحَوْراءَ عنْ تِلكَ المَراوِدْ

العين الحوراء الجميلة في غنى عن المراود، حدائد المكاحل.. والحكم الأميري يستغني عن مجلس النواب.. في رأي الشاعر

كلٌّ يَطيرُ ولِلبُزاةِ سَماؤُها وكَذا الهَداهِدْ

البزاة، الصقور، لهم سماؤهم، والهداهد، جمع هدهد، له سماؤه المنخفضة.. فليعرف كل قيمته

مَولايَ لا أَشْكُو الزمانَ وكانَ قبلَ اليومِ حاقِدْ

كلَّا ولم آسَفْ على بَصَري، ولَسْتُ بِكُمْ بِفاقِدْ

بوجودكم فكأنني لم أفقد بصري

لي فيكُمُ عَيْنٌ بِهِ، وبِكُمُ أَلُوذُ مِنَ الحَواسِدْ

لي فيكم عين به، أي بدل منه أي بدل من بصري المفقود، وبكم ألجأ من الحاسدين

هَـاكَ الـيَـمـيـنُ عـلـى الـمَـحَـبَّـ ـةِ والـوَلَا، والـلَّـهُ شـاهِـدْ

يبايعه على الولاء. في هذه القصيدة نرى فهد العسكر، وقد نضج، شاعراً سياسياً من الطراز العباسي الرفيع.. فيه ما في شعر ذلك العصر من نفاق ومن صنعة

٢١ الشامخة

لو لم تَكُنْ تَدري النَّخيلُ بِما لَها مِـن رائـعِ الآيـاتِ والأَسْـرارِ..

الآيات: دلائل الكرامة والشرف..

أوْ لم تَكُنْ تَدري بِطيبِ نِتاجِها لم تَعْلُ شامِخَةً على الأَشْجارِ..

لولا أن شجر النخيل يعرف قيمته وطيب ما ينتجه لما علا وشمخ على الأشجار جميعاً

أوَلَمْ تَرَوْا لِلْكَرْمِ كيف حَنا لَها وجَـثـا مِـن الإجْـلالِ والإكْـبـارِ

ألا ترون كيف انحنت كروم العنب وجثت على الأرض إكباراً للنخيل..

يَسخُو مُعاقِرُها فتلْقَى عندَهُ سِيَّانِ قَدْرُ الفَلْسِ والدِّينارِ

الذي يعاقر خمر التمر يصبح سخياً ويصبح الفلس عنده كالدينار لشدة جوده

٢٢ تنفيذ الحكم

قال فهد العسكر عندما علم بانتحار صديقه عبد الله السعدون:

يا أخا الرُّوحِ كيف أَصْدَرتِ الأَقْـ ـدارُ حُكماً عليكَ بالإِعْدامِ

كيفَ نَفَّذْتَهُ بِنفْسِكَ ياهـ ـذا، بِلا رَهْبَةٍ ولا إِحْجامِ؟

يا صَديقيِ الشَّهيدَ نَمْ ناعِمَ البا لِ ودَعْنا نَعيشُ كالأَنْعامِ

نَمْ، فَيَوْمي الأخيرُ ليس بِناءٍ فمَتى يا تُرَى يُصيبُ الرَّامي؟

يومي الأخير ليس نائياً بعيداً، فمتى يصيبني عزرائيل الذي يرمي الناس بسهام الموت؟

٢٣ عروس البحر

هذه قصيدة ـ قصة من نمط قصائد خليل مطران والرصافي القصصية:

غادَةٌ حَطَّمَ الفُؤادَ بُكاها ليتَ شِعري ما بالُها، ما دَهاها

قد حَباها اللَّهُ الجَمالَ، ولكِنْ لم يَصُنْهُ، يا ليتَهُ ما حَباها

وقَفَتْ عند ذَلكَ الشَّاطِئِ الرَّمْـ ـلِيِّ لَيْلاً تَبُثُّهُ شَكْواها

فَحَثَثْتُ الخُطَى إِلَيْها بِجُنْحِ اللَّـ ـيـلِ والـنـاسُ نُـوَّمٌ لِأَراهـا
فإذا بي أَمامَ عَذْراءَ تَحْكي الـ ـوَرْسَ، مِن فَرْطِ حُزْنِها، وجَنْتَاها

تحكي: تشبه، الورس: نبات أصفر يصبغون به

فشَكَتْ ظُلْمَ أُمِّها وأَبيها قاتَلَ اللَّهُ أمَّها وأَباها
أَرغَماها على الزَّواجِ بِشَيْخٍ ذي ثَراءٍ؛ مِن أَجْلِ ذا أَرْغَماها

أي لثرائه أرغماها على الزواج منه

أَمِنَ العَدْلِ أنْ تُزَفَّ «ثُرَيَّا» لِعَجُوزٍ، فأَيـنَ أيـنَ فَتاها؟

ثريا: اسمها

هلْ رأَيْتُمْ وَرْقاءَ هامَتْ بِنَسْرٍ وسَمِعْتُمْ بِوَكْرِهِ نَجْواها؟

الورقاء: الحمامة

أوْ رأَيْتُمْ غَزالَةً عَشِقَتْ، يا قَومُ، ذِئْباً وطَوَّقَتْهُ يَداها؟
هَيَّأَ الشيخُ، يا إِلَهيَ، نَعْشاً مِن حَنايا ضُلُوعِهِ لِصِباها

يحتضنها بين ضلوعه فكأن ضلوعه نعشها

ثم راحَ العجوزُ يَنْسُجُ أَكفا نَ «ثُرَيّا» مِن لِحْيَةٍ أَرْخاها
ومِنَ احْضانِهِ أَعَدَّ لها قَبْـ ـراً، وهذا ما اخْتارَهُ أَبَواها
رَبِّ رُحْماكَ بِالفَتاةِ ورِفْقاً فَكَفاها ما حَمَّلاها كَفَاها
خَسِرَتْ «خالِداً» رَفِيقَ صِباها وعلى نَبْذِ خالِدٍ أَكْرَهاها
عاهَدَتْهُ على الزَّواجِ فلم تَهْـ ـوَ سِواهُ، وما أَحَبَّ سِواها
هِيَ بِالأمسِ دُمْيَةٌ تَبْعَثُ الإِيـ ـمانَ في القلبِ جَلَّ مَن سَوَّاها

دمية: أي جميلة كاللعبة

وَهِيَ اليومَ هَيْكَلٌ مِن عِظام قاتَلَ اللَّهُ أُمَّها وأَباها
طَلَعَ الفجرُ وافترقْنا ولم أَدْ رِ، أَتَسْتَطيعُ حملَها قَدماها
أَرغَمَتْني على التَّخَلُّفِ عنها إِي ورَبِّي، وخَلَّفَتْني وَراها
تَتَخَطَّى الصُّخُورَ حتى إذا ما خارَ عزمُ الفَتاةِ أَلْقَتْ عَصاها

خار عزمها، أصابها الإنهاك، فألقت عصاها، أي كفَّت عن السير

ثم صاحَتْ: لَبَّيْك، والبحرُ ساجٍ ليتَ شِعري مَنِ الذي ناداها

ساجٍ: هادئ

رَفَعَتْ وَجْهَها ونادَتْ: إلَهي قد دَعَتْكَ العذراءُ فاقبَلْ دُعاها

رَأتِ العيشَ في جِوارِكَ أمْناً فاجعَلِ الخُلْدَ يا إلَهي قِراها

قراها.. القِرى طعام الضيف.. تريد أن يكرمها الله بالجنة

أرسلَتْ نَظرَةً إلى البحرِ لم يَعـ ـرِفْ سوى البحرِ، ويْحَهُ، مَغْزاها

أعْقَبَتْها بِصَرْخَةٍ رَدَّدَ الأُفْـ ـقُ، وقد خَيَّمَ السُّكونُ، صَداها

نَكَثَتْ شَعرَها فَراحَ نَسيمُ الـ ـفَجرِ يَلهُو بِهِ، ويَلْثِمُ فاها

حَمَّلَتْهُ إلى رفيقِ صِباها قُبَلاً لو سَمِعْتَ مُوسيقاها

حمَّلت النسيم بالقبلات ليوصلها على رفيق صباها خالد

حَجَبَتْ وجهَها بِكِلتا يدَيْها لا عنِ الموجِ حينَما وافاها..

بل عن الشَّمسِ، أُختِها، إذ أطَلَّتْ لو رأتْ وَجْهَها هَوَتْ مِن سَماها

حجبت وجهها قبل أن تقفز.. لتتفادى ضوء الشمس.. ولو رأت الشمس وجهها الجميل لسقطت من سمائها

فتحَ البحرُ، والشُّوَيْطِئُ باكٍ، لِثُرَيّا أحضانَهُ فاحْتَواها

أُعْفُ يا رَبِّ عن ثُرَيّا فهذا ما جَنَوْهُ لا ما جَنَتْهُ يداها

قَتَلوها: أبٌ وأُمٌّ وزَوْجٌ آهِ لو ماتَ هَؤُلاءِ فِداها

كم فَتاةٍ يا رَبِّ أسعَدَها الحُسْـ ـنُ! وهذي جَمالُها أشْقاها

٢٤ وحيد

يا فَتاتي حَمَّلْتِني فوقَ ما أسْـ ـطيعُ، رُحماكِ إنَّني لا أُطيقُ

لا حبيبٌ أشكُو إليهِ فيَرْثي لِشَكاتي، ولا صَديقٌ صَدوقُ

لا، ولا والِدٌ يَرِقُّ ولا أُمٌّ فَتَحْنُو، ولا شقيقٌ شَفُوقُ

٢٥ وصية

يا رفاقَ الصِّبا دَعُوني، فلا يُجْـ ـدي فَتيلاً لَوْمي، كَفانِيَ ما بي

لا يجدي فتيلاً: لا ينفع أدنى نفع

اِحفِرُوا لي قبراً على شاطِئِ البَحْـ ـرِ، لَعلَّ الأمواجَ تَبكي شبابي
وادْفِنُوني بين الصُّخورِ عسى يَهْـ ـدأُ رُوعي وثَوْرَتي واضْطِرابي
يا صُخورَ الشَّاطي بِرَبِّك إنْ مَرَّ ـ على مَرقَدي هُنا أَحْبابي
خَبِّرِيهِمْ عمَّا لَقِيتُ مِنَ الهَمِّ ـ وشَتَّى الآلامِ والأَوْصابِ

الأوصاب: الأوجاع

ساءَهُمْ أنْ أَعيشَ صَبّاً أُناغِيـ ـهِمْ بِأَشْعاريَ الرِّقاقِ العِذابِ

صباً: عاشقاً

وأنا شاعِرٌ خُلِقْتُ لِأَشْدُو لا لِأَتْلُو القُرآنَ في المِحْرابِ

٢٦ كأننا طفلان

كلُّ امْرِئٍ منكُمْ يُضاحِكُ كَأْسَهُ طَرَباً، وكأسي، وَيْحَهُ، أَبْكاني
وشَرِبْتُمُ وطَرِبْتُمُ ما كانَ أَسْـ ـعَدَكُمْ بِأَكْؤُسِكُمْ وما أَشْقاني
وأنا فَدَيْتُكَ شاعرٌ حَسْبي مِنَ الدُّ ـنْيا وما فيها فَتىً يَرعاني
أَسقيهِ آوِنَةً، ويَسقِيني وإنْ ناغَيْتُهُ بِقصائِدي ناغاني
ويَبُثُّني شَكْواهُ حينَ أَبُثُّهُ شَكوايَ والكَأْسانِ تَسْتَمِعانِ
العيدُ عِيدي يومَ أَقْطِفُ مِنْ خُدو دِكَ يا مُنايَ شقَائِقَ النُّعمانِ
العيدُ يومَ نَنامُ مِلْءَ جُفونِنا مُتَعانِقَيْنِ كأَنَّنا طِفْلانِ

٢٧ شوق إلى حواء

حَوَّاءُ أَوَّاهُ مِنْ داءٍ تَأَصَّلَ في قلبي فَعَزَّ الدَّوا، واسْتَفْحَلَ الدَّاءُ
ومِن لَواعِجِ شَوْقٍ قَطَّعَتْ كَبِدي حتى رَثَى لِيَ أَعْدَاءٌ أَلِدَّاءُ

لواعج: هموم

هَذي هِيَ الكأسُ في كَفِّي سأَشْرَبُها فَهْيَ الدَّواءُ وقد كَلَّ الأَطِبَّاءُ

كَلَّ: عجز

فلَسْتُ أَوَّلَ مُشتاقٍ تَجَرَّعَها ومُغْرَمٍ أَوْدَعَتْهُ القَبرَ حَسناءُ

٢٨ تخميس على أبي الطيب

يا لِلتَّعاسَةِ لا الأَوْتارُ تُطْرِبُني بِشَدْوِها، لا، ولا الأَنغامُ تُؤْنِسُني

فيا نَدامَى أَمِنْكُمْ مَنْ يُخَبِّرُني «أَصَخْرَةٌ أنا ما لِي لا تُحَرِّكُني»

«هَذي المُدامُ ولا هَذي الأَغارِيدُ»

بِالأَمسِ كانتْ قُطوفُ الوَصْلِ دَانِيَةً واليومَ أَضْحَتْ لِتَعْسِ الحظِّ قاصِيَةً

وضاعَ عُمْري وما حَقَّقْتُ أُمْنِيَةً «إذا أَرَدْتُ كُمَيْتَ الخمرِ صافِيَةً»

«وجَدْتُها وحَبيبُ النَّفْسِ مَفقودُ»

فهد العسكر
فهرس القوافي

عبد الله البَرَدُّوني
(١٩٢٩ ـ ١٩٩٩)

لا علاقة لي بحبيب الزحلاوي

هاجم حبيب الزحلاوي قصيدة رمزية لبشر فارس، ونشر بياناً في مجلة الرسالة بمصر، وفي مجلة الأديب بالشام قال فيه إنه سيدفع خمسة جنيهات مصرية، أو مئة ليرة سورية، لمن يستطيع تفسير القصيدة. وانبرى الأدباء يكتبون المقالات في تفسير القصيدة: فسرها «صلاح الأسير» و«زكي طليمات» و«عبد الله العلايلي» تفاسير عجيبة في اختلافها.

قرأت القصيدة، ولم أفهم منها شيئاً. هاكَ بضعة أبيات: (لو كنتِ ناصعة الجبين/ هيهات تنفضني الزيارة/ / ما روعةُ اللفظ المبين؟/ السحر من وحي العبارة/ / ظلٌّ على وهج الحنين/ رسمته معجزة الإشارة/ / خطٌّ تساقط كالحزين/ أرخى على العزم انكساره)

كان حبيب الزحلاوي صعلوك أدب. شن حملة هوجاء، في أكثر من كتاب نشره، على كبار الأدباء في زمنه. وأنا أتهيب ذلك. ولا ألسع الرمزية والرمزيين إلا لسعات خفيفة. لا أريد أن أُحشر في زمرة التقليديين.. هذا هو خوفي الحقيقي. فأما أن يشتمني الرمزيون فلست أعبأ بذلك.

لقد هجم الرمزيون على الشعر العربي في النصف الثاني من القرن العشرين، وأخافوا الناس، فكتب الناس شعراً رمزياً. فرض الرمزيون أنفسهم على الساحة الأدبية، وعلى المجلات الأدبية والملاحق الأدبية، فتبعهم الناس. لكن، لعل هناك أسباباً أخرى للاكتساح الرمزي لاحقاً، ربما نكسة عام ٦٧؟

تراني قاعداً مع أحد هؤلاء الرمزيين قِعدة التلميذ المهذب، أسمع وأهمهم، ولا أعترض على شيء. لست صعلوكاً، ولا أنا «تقليدي».

وفي هذا السِّفر الخامس والأخير من «الزبدة» لم يكن بد من الارتطام بالرمزية.

لا علاقة لي بحبيب الزحلاوي الذي كان يهاجم الناس «بالهراوة لا بالقلم»، كما قال أحد ناقديه. لكنني، وقد ارتطمتْ بي الرمزية، لا أملك إلا أن أقول إنها ظاهرة خارجة عما ألف الشعر العربي العمودي المرحوم في حياته الطويلة.

عبد الله البَرَدُّوني

عند خط المنتصف من حياته الشعرية انعطف البردوني انعطافة حادة باتجاه القصيدة الرمزية. فما كان لنا بد من اقتطاف شيء من هذا، لأننا نأخذ الشاعر كله ونحاول تمثيله للقارئ. على أنني لم أقتبس من مجموع أشعار البردوني (١٧٥٠ صفحة) إلا الأبيات التي فهمتها: كنت أدرس قصائده الرمزية درساً فأنتقي من الأبيات ما يمت إلى الشعر «المفهوم».

وقد صنع صنيع الانتقاء هذا شاعر شاب قصدني ـ وأنا بهذا مفتخر ـ في عصبة أدبية. فقد حل بي الصديق الموريتاني أحمد فال بصحبة مواطنه اللغوي الأديب إبراهيم الدويري والشاعر اليمني سلطان الكامل. وأسمعنا الكامل من شعره ما أمتع وأدهش، و«انتقى» من شعر ابن بلده عبد الله البردوني ما جعلني أعود إلى ذاكرتي المهشمة مفتشاً فيها عن أثر البردوني في نفسي.

قد كنت ألممت بالبردُّوني إلمامة سريعة في سنوات خوالٍ كان الشباب فيها يدخلون في «دين» اليسار أفواجاً. وكان البردوني معدوداً في اليساريين، فكان موضوع حديث. لسعتني رمزية الرجل المغلقة، فلم أمعن في قراءته.

وجاءني زائري اليمني وأنا أصب أسمنت السقف على هذا الكتاب. فقلت في نفسي: لا بد من صنعا.

قرأت الطبعة اليمنية لشعر البردوني. . كل صفحاتها التي اقتربت من الألفين. وانتقيت.

لا، لن ترى ألغازاً فيما سيأتي، فقد اجتهدت في تنحية كل ما لم أفهم. رأيتني أعالج شعر البردوني مثلما عالجت قبل أربعين سنة كيلو من العدس البلدي.

كنا طلاباً، وعزمنا على طبخة مجدرة، وهي عدس وأرز. حضر الأرز وغاب العدس. فأتينا دكان أبي أكرم فاشترينا كيلو عدس بلديٍّ، هذا بعد أن شنف أبو أكرم آذاننا بموشح عن مفاتن وفضائل وفوائد العدس البلدي ذي الحبة الصغيرة المكورة. ومضينا به إلى «الكومونة»، وهكذا كنا نسمي دارنا في ذلك الزمن اليساري. لم نكن ندري ونحن نحمل كيس العدس أنه يرافقنا إلى البيت مئات من المخلوقات الغريبة. وقعدنا لتنقية العدس. . وأخذت هذه المخلوقات تخرج من مكامنها في حبات العدس وتتجول. فكان لا بد من فحص كل عدسة على حدة. وطبخنا، وأكلنا. الشباب الجائعون يأكلون الزلط.

وأبيات البردوني مختلفة بعض الاختلاف عن حبات عدسنا. فهي مصابة بأكثر من السوس. فيها تساهل في اللغة وفي الوزن، وفيها حشد من أسماء المدن والأشخاص حاشد، وفيها إيماءات كثيرة إلى التاريخ وإلى الأشعار القديمة، وفيها إيماءات إلى يوميات الحياة المحلية. وفيها تلك الرمزية التي كأن شاعرنا تذرع بها كي يفلت من ضيق النسيج الشعري مثلما يتذرع المجرم بالجنون كي يفلت من الإعدام.

فلماذا نصطحب البردوني؟ الأننا نريد لليمن تمثيلاً في هذه المجموعة. كلَّا. ما كنا لنصنع ذلك ويسلمَ لنا صفاء القلب. قد صَحبنا البردوني لنسمع أبياته المعجبة الجميلة. وكنا قلنا مراراً «الشاعر بجيده لا برديئه». فماذا لو كان اقتناص جيده يحيل مختاراتنا منه إلى اجتزاآت لا تشي بما اجتُزئت منه. لا بأس. فنحن في كل مختاراتنا الشعرية نؤم مقصدين: القصيدة والبيت. وهذا بحاجة إلى بعض تفسير.

نختار القصيدة لشاعر جعل قصيدته لوحة فنية متكاملة بديعة، فإن نبا منها بيت أو بيتان أسقطنا القليل كي تزداد القصيدة بهاء، فنحن نعرف أن شاعرنا قد عز عليه تشذيب قصيدته، فنحن نشذبها له. لكنها تبقى قصيدة. ونختار أيضاً البيت الفرد أو البيتين؛ نأتي إلى القصيدة فنراها باهتة، أو قُل عادية، ثم نلمح بين ركامها بيتاً يطل برأسه. ننعم النظر، فيزيدنا البيت جمالاً كلما زدناه تحديقاً. فنقول له: تعال. ثم قد يتضرع هذا البيت إلينا فيقول: أخي، أخي! فننظر فنجد له أخاً يصلح أن يكون معه، فنأخذه. لعل البيت إنما أراد أن يزداد تألقاً إذ يجلس بجانب أخ له أقل منه جمالاً. لن نقرأ ضمير بيت الشعر. ولكنَّ هدفنا نحن من إلحاق أخيه به أن نتلذذ بالقافية تطرق السمع مرتين؛ وإنك لتنوء

بكيس تحمله بيدك، فإذا حملت كيساً آخر بيدك الأخرى توازنتَ، ومشيت في الطريق مثل البطة تميل ذات اليمين وذات الشمال.

ننزع من صدر القصيدة ضلعاً ونعرضه وحده، ولا تهمنا نظرية وحدة القصيدة. فما صحَّ في شعر ووردزورث لا يصح في شعر أحمد شوقي، ولو كره العقاد.

ونحن العرب، نستهلك الشعر بطريقتين: نسمعه مهموساً ونحن في حالة استرخاء، فتتلاعب بعواطفنا قصيدة إلياس فرحات البائية وهو يصف حياته الشاقة في البرازيل وصفاً بديعاً، أو نسمعه ينشد إنشاداً ونحن متهيأون متهيجون، فتثير فينا الحماسةَ قصيدة عمر أبو ريشة الميمية وهو ينعى على العرب الجبن والتهاون. هذه طريقة. والطريقة الثانية التي نستهلك بها الشعر: المحاضرة. نحن نحاضر بالأبيات القليلة. وهذا ما صنعه صاحبي الشاعر سلطان الكامل بشعر ابن بلده البردوني. كان يلقي في تلك الجلسة ما يحضره من أبيات لامعات. يلقي بيتاً من قصيدة وبيتين من قصيدة أخرى. وقد درج العربي على ترقيش كلامه بأبيات ينتقيها. ولئن كنت في كتابتي أكره إيراد الشعر وسط أسطر النثر، لأنني أراه يقطع السياق، فإنني أتمتع كثيراً بالأبيات التي يرصع بها المتكلم كلامه إن كان رزق سلامة الذوق وسعة الحافظة.

فهذا ما اخترته لك من شعر عبد الله البردُّوني. كلفني وقتاً وجهداً، وخلصته من آفات كثيرات، لا بد أنه بقيت منها بقية. هو شاعر تحضر أبياته المجالس فتزينها. وهو شاعر تحتشد في نفسه المشاعر فتخرج صرخات ملوثة بالآفات التي حدثناك عنها. ولا أجد لشعر البردوني شبيهاً أحسن من صوت مؤذنين لي معهما قصة يومية، بل تتكرر خمس مرات في كل يوم.

قرب بيتي، بضاحية السد في الدوحة، مسجدان. مؤذن أحدهما له صوت جميل، يسحرك. وهو يحمل في يده ساعة. ومؤذن المسجد الآخر له صوت كصفارة إنذار تالفة. وهو لا يحمل في يده ساعة. ولأن المؤذن الأول يحمل ساعة فهو الذي يبدأ برفع الأذان. أُسارع فأُسكِتُ الأغنية، وأفتح النافذة، وأصغي. وما إن ينهي التكبيرة الأولى حتى يفطن المؤذن الثاني ـ الذي لا يحمل ساعة ـ إلى أن وقت الصلاة حان، فيرفع عقيرته، ويغطي على صوت المؤذن الأول. وأظل مصغياً، وأقترب من النافذة، أريد أن ألتقط فيما بين الحين والحين صوت المؤذن الأول قبل أن يغتاله الثاني. وفي المحصلة فإنني

لا أسمع من المؤذن ذي الصوت الساحر سوى ثوان معدودة، لكنها تفرحني جداً. لم يصل بي الأمر إلى أن أسجل على شريط أذان المؤذنين، ثم أقطع الثواني القليلة التي ينفرد فيها الصوت الجميل وأصنع منها تسجيلاً قصيراً ينفرد فيه صاحبي وأسمعه وحده.

لكنني فعلت هذا بالبردوني.

البردوني شاعر. وهو مختلف. و«المختلف» متضمنة في «الشاعر»، فليس شاعراً من لا يكون مختلفاً. ولئن قال لنا مخفر الشرطة إن بصمة كل شخص مختلفة عن بصمة الآخر، فإننا في استقراء النفوس نرى البشر متشابهين.. عدا واحداً في الألف يملك الفرادة، وأما الـ ٩٩٩ فهم ينظرون إلى ذلك المتفرد نظرة إعجاب أو تعجب. وقد يكون هذا الواحد من بين الألف مجنوناً أو عالماً أو كاتباً أو شاعراً. والبردوني كان واحداً من الألف، ولم يكن مجنوناً ولا عالماً. قالوا كان كاتباً، ولم أقرأ له من النثر إلا ما جاء في مقدمات قصائده المتأخرة. فأما أنه كان شاعراً، فقد كان. وقد تثقف بالمطالعة، وعرف الشعر العربي القديم وحوادث التاريخ العربي واليمني على وجه الخصوص، وتغلغل في روح القرية اليمنية المختبئة بين الجبال.. نحن لا نراها على الخريطة بسبب الجبال، ولا نراها حاضرة في حياتنا العربية لأن الجبال صدتنا عنها. وصدع البردوني رؤوسنا بتفاصيل حياة القرية اليمنية وبأسماء الناس والأماكن. وعرف البردوني سارتر وغيفارا من مطالعاته، وسمع إذاعة لندن وكان يتابع ما يجري في العالم، فأما ما يجري في بلده فكان منغمساً فيه. وعندما كان في الأربعين من عمره أخذ يرتاد المهرجانات الثقافية في بلاد العرب الأخرى، وأخذ يحتك بالمثقفين، وشاهد الأزياء الثقافية فتزيا بها، فصدع رؤوسنا مرة أخرى برمزيته.

تسمع في شعر البردوني كلمة الجدران تتردد كاللازمة في كل قصيدة، هذه جدران العمى وجدران الجبال اليمنية التي منعت اليمن أن يتصل بالآخر وأن يتصل بعضه ببعضه، وإن لم تمنع الجدري والسل.

حياة البردوني

ولد في البَرَدُّون على ثلاثين كيلومتراً شمال ذَمار باليمن الشمالي. وأصابه الجدري فيما بين الخامسة والسادسة من عمره فكف بصره، وبدأ يتعلم في البردون مع نهاية سنته السابعة. تعلم سنتين، ثم انتقل إلى قرية «المحلة» لترعاه

أخته من أمه، المتزوجة هناك «ظبية»، وتعلم هناك بضعة أشهر. ثم انتقل إلى ذمار حيث تعلم في مدرستين: ابتدائية وعلمية. وكانت مدة إقامته في ذمار عشر سنين.

قال الشعر في نحو الثالثة عشرة، وهجا الناس فأوجعوه. كان متمرداً تمرُّد أولاد القرى، وتمرد الفقراء من أولاد القرى، فكانت فيه صعلكة نجا منها طه حسين مثلاً، رغم أنه لم يكن أقل تمرداً.

وغمس البردوني لسانه في السياسة فأيد «الثورة الدستورية»، ١٩٤٨، التي قتل في أحداثها الإمام يحيى. وسرعان ما سقطت الثورة وأمسك الإمام أحمد بن يحيى بزمام الأمر، فكان أن سجن البردوني تسعة أشهر، انتهى بعدها حراً في صنعاء «بأعجوبة تاريخية»، كما قال، ولعل هذه الأعجوبة إنما كانت ـ كما روى غيره ـ أن قصيدة له وصلت يد الإمام أحمد فقرأها فأمر بنقل الشاعر إلى صنعاء سجيناً ثم طليقاً. وفي صنعاء «تبنت» الشاب ذا العشرين دار العلوم، وكان مبرزاً، ونال شهادة «الغاية». وأصبح أستاذاً في الدار نفسها.

ظل شاعراً. قال في الإمام أحمد أشعاراً فيها بعض تمرده وفيها قدر من التقية السياسية، وكان الإمام أحمد صاحب شعر. ولكن البردوني كان جمهورياً في أعماقه. فتنفس بعد وفاة الإمام أحمد، ١٩٦٢. وظل يتنفس هواء قليلَ الأكسجين بضع سنين بينما كان الإمام البدر بن أحمد يخوض حرباً أهلية يدعمه فيها الإنجليز والسعودية مع الجمهوريين المدعومين مصرياً.

تحسنت أوضاع البردوني المعيشية بعد أن جاوز الثلاثين، فعمل في وظائف الحكومة. ولكنه لم يسكت عن الجمهوريين وما طبع حكوماتهم من فساد. ونال شاعرنا حصانة من شهرته، فقد راح يشارك في المهرجانات العربية، وانتشر شعره وذِكره عربياً بعض انتشار. وظل مثقفو اليمن يرددون أبياته القديمة الرنانة، وما تيسر من أبيات رنانة «مفهومة» تخللت قصائدة في مرحلته السريالية المتأخرة.

الذي وصف شعره المتأخر بالسريالية صديقه الشاعر عبد العزيز المقالح الذي رأى شاعرنا ينتقل من الكلاسيكية إلى الرومنتيكية إلى الكلاسيكية الجديدة إلى السريالية. ولا تحاول أن تعترض على درجات المقالح ولا على مصطلحاته، فهو سيوبخك لأنك «تَقبل استيراد علب الصلصة والفاصوليا وترفض قبول مصطلحات نقدية يستعملها كل الناس في العالم». لا نعترض.

لا، بل نوافق المقالح على مصطلح آخر وسم به البردوني وهو أن شعره يصل إلى «اللامعقول» في رمزيته.

توفي عبد الله البردوني في سنة ١٩٩٩.

ستراني في الصفحات المقبلة قد سوَّدت عشرات الأبيات، كأنني أُهيب بك أن أَصْغِ إلى هذه الروائع. وإنها لروائع. لا تأبه أيها القارئ بكل ما أسمعتك من نقد في الفقرات الماضية.. الشاعر في ديوانه غير الشاعر في ديواني.. بعد أن غربلته لك.

١ يا أمي اليمن

يا أُمِّيَ اليمنَ الخَضْرا وفاتِنتي　　منكِ الفُتونُ، ومِنِّي العِشقُ والسَّهَرُ

ها أنتِ في كل ذرَّاتي ومِلْءَ دمي　　شِعْرٌ تُعَنْقِدُهُ الذِّكْرى وتَعتَصِرُ

تعنقده: تجعله عناقيد

وأنتِ في حِضْنِ هذا الشِّعرِ فاتِنَةٌ　　تُطِلُّ منهُ، وحِيناً فيه تَستَتِرُ

٢ لا حظَّ لي في جهنم

ليتَ شِعريِ ما لي إذا رُمْتُ شيئاً　　حالَ بَيْني وبينَهُ الفقرُ واليُتْمْ

لم أَجِدْ ما أُريدُ حتى الخَطايا،　　أَحَرامٌ عَلَيَّ حتى جَهَنَّمْ

٣ كُلٌّ ومشكلته

العمرُ مُشكِلَةٌ ونحن نَزيدُها　　بِالحَلِّ إِشْكالاً إلى إِشْكالِ

لا حُرَّ في الدنيا؛ فَذُو السُّلْطانِ في　　دنياهُ عبدُ المجدِ والأَشْغالِ

والكادحُ المحرومُ عبدُ حَنينِهِ　　فيها، وربُّ المالِ عبدُ المالِ

حنينه: ربما يقصد شوقه إلى تحسن الحال

والفارغُ المِكسالُ عبدُ فَراغِهِ　　والسَّفْرُ عبدُ الحِلِّ والتَّرحالِ

السفر: المسافرون

واللصُّ عبدُ الليلِ، والدَّجَّالُ في　　دُنياهُ عبدُ نِفاقِه الدَّجَّالِ

الدجال عبد نفاقه الذي هو دجال مثله

لا حُـرَّ فـي الـدنـيـا ولا حُـرِّيَـةٌ   إنَّ الـتَّـحَـرُّرَ خُـدْعَـةُ الأَقْـوالِ
النـاسُ في الـدنـيا عبيدُ حياتِهِمْ   أبـداً عَـبـيـدُ الـمـوتِ والآجـالِ

٤ العقد المِمْراح

كـيف أنسـاهُ هل تَناسيِهِ يُجْدِي   وَهْوَ والـذكريـاتُ والشوقُ عِندي

الفتاة تناجي نفسها

وَهْوَ أَدْنى مِنَ الأَماني إلى القلـ   ـبِ، وبَيْـنـي وبـيـنَـهُ أَلْـفُ بُـعْـدِ
واشْتِهاءُ العِناقِ يَحْلُمُ في جيـ   ـدي بِأَنْـفـاسِـهِ فَـيَـمْـرَحُ عِـقْـدي

التوق للعناق يحلم في عنقي بأنفاس الحبيب فيتحرك عقدي بمرح

عـنـدمـا يَـهْـبِـطُ الـظَّـلامُ أَراهُ   مـاثِـلاً فـي تـصـوُّراتـي وسُـهْـدي
آهِ إِنِّـي إِخـالُ زَنْـدَيْـهِ فـي قَـدِّ   ـي تَـشُـدَّانِـنـي فَـيَـخْـتـالُ قَـدِّي
ثـم أُصْغـي إلى الفِراشِ فلا أَسْـ   ـمـعُ إِلَّا حـديـثَ نَـهْـدٍ لِـنَـهْـدِ

٥ فرعنوه فتفرعن

لا تَـلُـمْ قـادَتَـنـا إِنْ ظَـلَـمُـوا   ولُـمِ الشعبَ الذي أَعطَى الزِّماما
كيف يَرعَى الغَنَمَ الذِّئبُ الذي   يَنهَشُ اللَّحْمَ، ويَمْتَصُّ العِظاما
قـد يَـعِـفُّ الـظَّـالِـمُ الـجَـلَّادُ لـو   لـم تُـقَـلِّـدْهُ ضَـحـايـاهُ الـحُـسـامـا
نـأكُـلُ الـجُـوعَ ونَـسْـتَـسْـقي الـظَّـما   ونُـنـادي يَـحْـفَـظُ الـلّـهُ الإمـامـا

نأكل الجوع؟ إذن فالإغراق في الرمزية قديم عند البردوني، في زمن الإمامة

٦ بهجة الصباح

وتَـراءَى الصَّـباحُ يَـحْتَضِنُ السَّحْـ   ـرَ كما تَحْضُنُ الكُؤوسُ العُقَارا

العُقار: الخمر؛ العَقار: المبنى؛ العَقَّار: الدواء

وبَـنـاتُ الـشَّـذَى تُـحَـيِّـي شُـروقـاً   شـاعِـرِيَّـاً يُـعَـنْـقِـدُ الأَفْـكـارا

بنات الشذى: بنات العطر أي الأزهار، وهي تحيي الشروق الشعري الذي يعنقد الأفكار وينضجها

والـصَّـبـا تُـرْعِـشُ الـزُّهـورَ فَـتُـومـي   كـالـمَـنـاديـلِ فـي أَكُـفِّ الـعَـذارى

٧ الجريح

لا تَسَلْ عن أنينِه وسُهادِهْ ... إنَّ في جُرحِهِ جِراحَ بِلادِهْ
إنَّ في جُرْحِهِ جِراحاتِ شَعْبٍ ... رَاكدِ الحِسِّ حَيُّهُ كَجَمادِهْ
لا تَلُمْهُ إذا شَكا، إنَّ شَكْوا ... هُ وأَنَّاتُهُ دُخانُ اتِّقادِهْ
كلَّما قالِ آهِ أو صَعَّدَ الأنْـ ... ـفاسَ شَاهَدْتَ قِطْعَةً مِن فُؤادِهْ

٨ احتضار طفل

يرثي ولداً لعبد العزيز المقالح:

كيف انتَهى مِنْ قبلِ أن يَبْتَدي ... هل تَنْطَفي الروحُ ولمْ تُوقَدِ
حَبا مِنَ المَهدِ إلى لَحْدِهِ ... لم يَشْقَ في الدنيا ولم يَسْعَدِ
يا مَن رأى الطِّفلَ يُعاني الرَّدى ... ويَرفَعُ الكَفَّ كَمَنْ يَجْتَدي

يجتدي: يتوسل

يَهوَى أبوهُ لو يَذُودُ الرَّدى ... عنهُ، وتَهوى الأُمُّ لو تَفْتَدي
يا مَن شَهِدْتَ الطِّفلَ في موتِهِ ... أَلم تَمُتْ مِنْ رَوْعَةِ المَشْهَدِ؟

٩ المنتحر

لفظَ الرُّوحَ فاطْمَأَنَّتْ ضُلوعُهْ ... وانْطَفا شوقُهُ، ونامَ وُلُوعُهْ
أَومَأَتْ كَفُّهُ إلى خِنجَرِ المو ... تِ، وَأَوْمَا إلى الحَياةِ نُزُوعُهْ

مد كفه إلى الخنجر ولكن نزوعه، ميله، أشار إلى الحياة.. هو متردد أينتحر أم يكمل حياته

ليس يَدري أيُّ الأَمَرَّيْنِ أَحلَى ... سعيُه نَحوَ حتفِه أم رُجُوعُهْ؟
وتَراخَتْ على الفِراشِ يَداهُ ... ثم أَغْفَى وفي يَدَيْهِ نَجيعُهْ

نجيعه: دمه

حين لم يَستَطِعْ بُلوغَ مُناهُ ... ماتَ، والموتُ كُلُّ ما يَسْتَطيعُهْ
إنَّما القبرُ مَضْجَعٌ يَستَوي العا ... لَمُ فيهِ رفيعُهُ ووَضيعُهْ
يا لِظُلْمِ الحياةِ ما أَعْدَلَ القَبـ ... ـرَ، تَساوى فيهِ الوُجودُ جَميعُهْ
وانتحارُ المَضيمِ أَخْصَرُ لِلضَّيْـ ... ـمِ وأَجْدى مِن أن يَطولَ خُضُوعُهْ

مَزَّقَ العُمرَ حينَ ضَيَّعَهُ العُمْـ ـرُ، وحُمْقٌ حِفْظُ الفَتى مَنْ يُضيعُهْ

١٠ ذكرى أبي نواس

ينتقد حملة في عهد الإمام ضد باعة الخمر وشاربيها:

نحن نُبْدي عيوبَنا حين نَرمي بِالخَطايا فُلانَةً وفُلانا

نحن لو لم نَكُنْ أُصولَ الخَطايا ما رأَيْنا ظِلالَها في سِوانا

كم سَأَلْنا التَّفتيشَ عن جيفَةِ الإِثْـ ـمِ، وسِرنا والإِثْمُ يَحْدُو خُطانا

نطلب الكشف عن آثام البشر، وكلنا آثام

وهَتَكْنا مَخابِئَ الإِثمِ في الحَيِّ- وعُدْنا نُفَتِّشُ الأَكْفانا

لا تَنَمْ يا أَبا نُواسٍ، أَما كُنْـ ـتَ أَثيماً في لَهْوِهِ يَتَفانى؟

يتفانى: يفني نفسه

وهَتَكْنا عنكَ السِّتارَ كأَنْ لم يَخْطِرِ الإِثْمُ بينَنا عُريانا

إنْ تَمُتْ هَيْكلاً فقد عِشْتَ أَفْكا راً، وَأَوْرَقْتَ في الشِّفاهِ بَيانا

أينَ مِنكَ الرَّدى؟ وأَقوى مِن الأَحـ ـياءِ مَيْتٌ يُسَهِّدُ الأَذْهانا

لو وَجَدْتَ الرَّحيقَ ما ذُبْتَ شَجْواً وتَحَرَّقْتَ في المُنى أَشْجانا

لو وجدتَ الرحيق، أي الخمر، لما ذبت حزناً وتمنيتها

شاعرُ الحُبِّ حين يَهْجُرُهُ المحـ ـبوبُ يَفْتَنُّ في الحنينِ افتِنانا

ففاقد الخمر يعشقها، مثل فاقد الحبيب الذي يتفنن في وصف غرامه

بِدْعَةُ الذُّلِّ أنْ تَحِنَّ وتَبكي وتُغَنِّي الرَّشيدَ والخَيْزُرَانا

من التفنن في الذل أن تتغنى للخليفة الرشيد.. وللخيزران أمه أيضاً.. ولم يكن أبو نواس ينشد الخيزران شعره.. ولكنها وقعت في طريق القافية.. و«بدعة الذل» عبارة قالها قبل حين (عام ١٩٥٠) بدوي الجبل، وانظر القصيدة رقم ٦ في باب «بدوي الجبل» من هذا الكتاب

مَلِكٌ يَرْضَعُ الدِّنانَ كما يَهْـ ـوى، وأنتَ الذي تُغَنِّي الدِّنانا

والأَمينُ النَّديمِ يَمْنَعُكَ الخمـ ـرَ ويُحْسُو، وتَنْحَني ظَمْآنا

الأمين: ابن هارون الرشيد وخَلَفه. وكان الرشيد والأمين بعده قد منعا أبا نواس شرب الخمر في المجالس. وقال في ذلك القصائد، وذكرنا منها جانباً في باب عقدناه لأبي نواس في كتابنا «تجدد الشعر» من هذه السلسلة

وَهْوُ في القصرِ يَحْتَسي عَرَقَ الشعـ ـبِ، ويَروي القِيانَ والغِلْمانا
يَدَّعي عِصْمَةَ الملائِكَةِ الطُّهْـ ـرِ، ويَأْتي ما يُخجِلُ الشيطانا

الطهر: الطاهرون

١١ زيارة ذات غرض

وقالَتْ: مَنِ الآتي؟ فَأُرْعِدَ قلبُهُ وأَخْجَلَ عينيهِ الغَرامُ المُفاجِئُ

قرع باب الحبيبة، وجاءه صوتها فارتجف لما سيلاقي من غرام مفاجئ.. وما نراه إلا زبون مبغى

ورَفَّتْ له مِن كُلِّ مَرْأىً صَبابَةٌ وضَجَّ حَنينٌ بينَ جَنْبَيْهِ ظامِئُ
وقالَ: فَتىً تاهَتْ سفينةُ عمْرِهِ وغابَتْ وراءَ اليأسِ عنهُ المَرافِئُ
ولَفَّهُما ظِلُّ السَّكينَةِ، والهوى يُعانِدُ أَحياناً وحيناً يُمالِئُ

الغرام يعانده حيناً وحيناً يمالئه، أي يوافقه

فَحَدَّقَ يَستَقْصي مَفاتِنَ جِسمِها كما يَتَقَصَّى أَحرُفَ السَّطرِ قارِئُ
وضَمَّتْهُما في زَحْمَةِ الحبِّ نَشوَةٌ وهَوَّمَ في حِضْنِ الخَطيئَةِ خاطِئُ
فتاةٌ يَموجُ الحُسْنُ فيها، وتَرتَمي عليها الصَّباباتُ الجِياعُ الظَّوامِئُ
جَمالٌ وإِغْراءٌ ورُوحٌ نَدِيَّةٌ وجِسمٌ بِأَحضانِ الغَوايَةِ دافِئُ

١٢ إنارة النجوم

في سبيلِ الفجرِ ما لاقَيْتُ، في رِحلَةِ التِّيهِ وما سوف أُلاقي
سوف يَفنَى كلُّ قيدٍ وقُوَى كُلِّ سَفَّاحٍ، وعِطْرُ الجُرحِ باقِ
سوف تَهدي نارُ جُرحي إِخْوَتي وأُعيرُ الأَنْجُمَ الوَسْنَى احْتِراقي

الأنجم الوسنى: الناعسة التي خفَتَ ضوءُها

١٣ عبد الناصر

كانون الأول/ديسمبر ١٩٦٢:

يا لُصوصَ العُروشِ عِيبُوا جَمالا واخْجَلُوا أَنَّكُمْ قَصُرْتُمْ وطالا

جمال، هو عبد الناصر، ولصوص العروش الملوك الذين كانوا يناصبون عبد الناصر العداء في تلك الحقبة. وكان يعاديه الملك فيصل بن عبد العزيز الذي أخذ الملك عنوة

لا تَضيقُوا فإنَّ لِلشَّرَفِ العا   لي رِجالاً ولِلدَّنايا رِجالا

وقال بدوي الجبل قبل البردوني: خلق الله للعظائم والمجـ د رجالاً وللصَّغار رجالا

لا تَضيقُوا إنَّ العُروبَةَ تَدري   مَنْ جَمالٌ وتَعرِفُ السَّلَّالا

السلال: عبد الله السلال رئيس الجمهورية اليمنية بعد الإطاحة بحكم الإمام

١٤ رؤوس وعمائم

كانون الثاني/يناير ١٩٦٣، بعد أربعة أشهر من الثورة اليمنية، وألقاها في الإذاعة:

كيفَ كنَّا نَدعُوهُ مَولَىً مُطاعاً   وَهْوَ لِلإنْجِليزِ أَطْوَعُ خادِمْ

يتحدث عن الإمام أحمد، وخلع عام ١٩٦٢

هَدَّنا الضَّعْفُ فادَّعَى قُوَّةَ الجِنِّ   وبَأْسَ الرَّدى وفَتْكَ الضَّراغِمْ

ويُوَلِّي على الوِزاراتِ والحُكْـ   ـمِ رجالاً كالعانِساتِ النَّواقِمْ

العانسات الناقمات ذوات النكد

ولُصوصاً، كأنَّهُمْ قومُ يَأْجُو   جَ، صِغارَ النُّهَى كِبارَ العَمائِمْ

وفي القرآن: «قالوا يا ذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض»، النهى: العقول

يَحكُمونَ الجُمُوعَ والعَدْلُ يَبْكي   والمآسي تُدمي سُقُوفَ المَحاكِمْ

فانطَلِقْ حيثُ شِئْتَ يا فَجْرُ إنَّا   قد فَرَشْنا لكَ الدُّروبَ جَماجِمْ

١٥ الوحل الآدمي

كنتُ أَمشي فَتَفرِشونَ طريقي   نَظَراتٍ مُستَجْدِياتٍ كَسيرَةْ

هكذا العشاق للفتاة وهي في نضارتها

تَتَناجَوْنَ بَيْنَكُمْ: أَتُراها   بنتَ كِسرى أم شَهْرَزادَ الصَّغيرَةْ

لَيْتَني مُشْطُها فَأَشْتَمَّ منها   شَعرَها، أو أَكونَ فيهِ ضَفيرَةْ

كذا يقول العاشق

هكذا كُنْتُمْ أَمامي وخَلفي   غَزَلاً مُغْرِياً، وكنتُ غَريرَةْ

غريرة: جاهلة غشيمة

ولِأَنِّي أُنْثَى وأُمِّي عَجُوزٌ   ماتَ عنها أَبي، سقَطْتُ أَجيرَةْ

لَسْتُ أدري كيف انتَهى؟ مات يوماً ... ورَمى عِبْئَهُ علَيْنا وَنيرَهْ

نيره: حمله الثقيل، والنير الخشبة توضع على رقبة الثور ليجر سكة المحراث

فَتَبَنَّى الضَّياعُ طِفلاً كَسيحاً ... وأَنا، والأَسَى وأُمّاً فَقيرَةْ

فسَهِرْنا نَشْقَى ونَسْتَرجِعُ الأَمـ ... ـسَ ونَبكي أَبِي، ونَرْوِيهِ سِيرَةْ

ومَلأْتُمْ يَدي وأَشْعَلْتُمُوني ... شَمْعَةً في دُجَى الخَطايا الضَّريرَةْ

أعطيتموني المال، وأحرقتموني في ظلام الخطيئة العمياء

ولَهَوْنا حيناً، وأَشْتَى رَبيعي ... فتَعَرَّيْتُ أَرْتَدي زَمْهَريرَهْ

ثم ذهب شبابي وصار ربيعي شتاء.. فما ارتديت على عربي سوى البرد القارس

وزَعَمْتُمْ بِأَنَّني كنتُ وَحْلاً ... آدَمِيّاً، أَما شَرِبْتُمْ عَصيرَهْ؟

حَقِّرُوني يا دُودُ، لو لم تَكُونُوا ... حُقَراءَ ما كنتُ يوماً حَقيرَةْ

صَدِّقُوني إنْ قلتُ في دُورِكُمْ مِثـ ... ـلِي، فَلَسْتُ الأُولى ولَسْتُ الأَخيرَةْ

١٦ الوضع صعب

سوفَ أَبْكي ولن يُغَيِّرَ دَمعي ... أيَّ شَيْءٍ مِن وَضْعِ غَيْري ووَضْعي

١٧ شقيقة زوجته

ضَحِكَتْ له يومَ الخَميـ ... ـسِ وضِحْكَةُ الأُنثَى علامَةْ

وأَحَسَّها لَمَحَتْ هَوا ... هُ بِعَينِ زَرقاءِ اليَمامَةْ

أَيّامَ وَعْكَةِ أُخْتِها ... جاءَتْ وطَوَّلَتِ الإِقامَةْ

ودَنَتْ كَأَجْنَى كَرْمَةٍ ... تَلْهُو بِنَهْدَيْها أَمامَهْ

دنت منه أخت زوجته، كدالية عنب نضجت عناقيدها واقترب جناها وقطافها، وكانت ـ والعياذ بالله ـ تلهو بذينك اللذين ليس له مثلهما

وأَراد، فاسْتَحيا، على ... شَفَتَيْهِ مَشرُوعُ ابْتِسامَةْ

١٨ شمس صنعاء

تموز/يوليو ١٩٧٠:

صنعاءُ يا أُخْتَ القُبورِ ... ثُوري، فإنَّكِ لم تَثُوري

حـاوَلْـتِ أن تَـتَـقَـيَّـئـي　　فـي لـيـلَـةٍ عَـفَـنَ الـعُـصـورِ
فـتَـسـاقَـطَـتْ شُـرُفـاتُـكِ الـنَّـ　　ـعْـسَـى كـأعْـشـاشِ الـطـيـورِ
تـتـنَـهَّـديـنَ بِـلا أَسـىً　　أو تـضـحـكـيـنَ بِـلا سُـرورِ
مـا زال يَـخْـذُلُـكِ الـزمـا　　نُ فَـتَـبْـزُغـيـنَ لِـكَـيْ تَـغْـوري
ظل الزمان يتأخر عن نجدتك فأنت كشمس تشرق وسرعان ما تغور، أي تغرب وتسقط وراء الأفق
يـا شَـمـسَ صَـنـعـاءَ الـكَـسُـو　　لَ أَمَـا بَـدا لَـكِ أنْ تَـدُوري؟

١٩ رتابة

شباط/ فبراير ١٩٧٣ :

مِثْلَما تَعْصِرُ نَهدَيْها السَّحابَةْ　　تُمْطِرُ الجُدرانُ صَمْتاً وكَآبَةْ
يَسقُطُ الظِّلُّ على الظِّلِّ كما　　تَرتَمي فوق السَّآماتِ الذُّبابَةْ
تَسعُلُ الأَشجارُ تَحسُو ظِلَّها　　تَجْمُدُ الساعاتُ مِن بَرْدِ الرَّتابَةْ

٢٠ بعيد ووحيد

١٩٧١ :

لَـمَّـا وجَـدْتُ الـقُـربَ مـنـ　　ـكِ أَمَـرَّ مِـن سَـهَـرِ الـفِـراقِ
مِـن غـيـرِ تَـوديـعٍ ذهـبـ　　ـتُ كـمـا أَتَـيْـتُ بِـلا اتِّـفـاقِ
كـان الـلِّـقـاءُ بِـلا وُجـو　　ءٍ والـفِـراقُ بِـلا مَـآقِ
لـكِـنْ لِـمَـاذا تَـسـأَلـيـ　　ـنَ بِـمَـنْ أَهـيـمُ ومَـنْ أُلاقـي
فَـلْـتَـسْـتَـريـحـي، إِنَّـنـي　　وَحـدي، وأَحْـزانـي رِفـاقـي

٢١ سأنساكِ

لـم أَكُـنْ شَـهـريـارَ لَـكِـنْ تَـمادَتْ　　عِـشْـرَةٌ صَـوَّرَتْـكِ لـي شَـهْـرَزَادا
كـان حُـبِّـي لـكِ اعْـتِـيـاداً وإِلْـفـاً　　وسَـأَنْـسـاكِ إِلْـفَـةً واعْـتِـيـادا

٢٢ يا أسمنت!

١٩٧٢ :

هـذي الـعَـمـاراتُ الـعَـوالـي　　ضَـيَّـعْـنَ تَـجْـوالـي.. مَـجـالـي
هذه البنايات العالية جعلتني أضل طريقي وأفقد مجال الحركة الذي تعودت عليه

أَدْنُــو ولا يَــعْــرِفْــنَــنِـــي، أَبْــكــي ولا يَــسْــأَلْــنَ: مــا لــي؟

كــانَــتْ لِــعَــمِّــيَ هَــهُــنــا دارٌ تُــحــيــطُ بِــهــا الــدَّوالــي

الدوالي: شجيرات العنب

فَــغَــدَتْ عَــمــارَةَ تــاجِــرٍ هِــنــدِيٍ أبــوُهُ بُــرْتُــغــالــي

مِــن أيــن يــا أَسْــمَــنْــتُ أَمــــشــيِ ضــاعَــتِ الــدنــيــا حِــيــالــي

أُمِّــيِ! أَتَــلْــقَــيْــنَ الــغُــزا ةَ بِــوَجْــهِ مِــضــيــافٍ مِــثــالــي؟

يدعو اليمن إلى عدم التعاون مع القوى المعادية

لِــمَ لا تُــعــادِيــنَ الــعِــدَى؟ مَــن لا يُــعــادِي لا يُــوالــي

٢٣ بتنا معاً

قصيدة قديمة (١٩٤٧) نشرها بعد موت من قيلت فيه:

أَغْلَقْتَ بابَ البيتِ والدَّرْسِ في وَجهِي، سَأَلْقى الدَّرْسَ والمَوْضِعا

طرده المعلم من المدرسة ومن بيت الطلبة لعلاقة غرامية، ويتحداه الشاعر بأنه سيجد مكاناً ودروساً

يا (لُطْفُ) مَهما لُمْتَنِي لم أَدَعْ هـذا السلوكَ الشَّائِنَ المُمْتِعا

يصف سلوكه بالشائن.. لكن الممتع.. ولا يريد التخلي عنه

ولْتَمْنَعِ التعليمَ عنِّي كما تَهوى، فخيرٌ مِنكَ لن يَمْنَعا

أَبْصَرْتَنِي مِن بَيْتِها خارِجاً كالكلبِ، أَمشِي واجِفاً مُسْرِعا

واجف: مضطرب

فَلْأَعْتَرِفْ، لا ناوِياً تَوْبَةً: إنِّي ومَنْ سَمَّيْتَ بِتْنا مَعا

أعترف، وأنا لا أنوي التوبة: لقد بت معها

٢٤ تعريف اليمني

تموز/يوليو ١٩٧٠:

مُــــواطِــــنٌ بِــــلا وَطَـــــنْ لِأَنَّـــــهُ مِـــــنَ الــــيَــــمَــــنْ

تُـــبـــاعُ أَرضُ شـــعـــبِـــهِ وتُـــشـــتَـــرى بِـــلا ثَـــمَـــنْ

٢٥ صنعاء والعاشقان

١٩٧١ :

ماذا أُحَدِّثُ عن صَنعاءَ يا أَبَتي، مَليحَةٌ عاشِقاها السِّلُّ والجَرَبُ

مَاتَتْ بِصُندوقِ «وَضَّاحٍ» بِلا سببٍ ولم يَمُتْ في حَشاها العِشقُ والطَّرَبُ

يشير إلى قصة الشاعر «وضاح اليمن» الذي كان يُنشد أمَّ البنين زوجة الخليفة الوليد بن عبد الملك شعره في خيمة لها، وداهم الخليفة الخيمة فاختبأ وضاح في صندوق ثياب، فأمر الخليفة بالصندوق فدفن دون أي يفتح، وكان ذلك آخر العهد بوضاح اليمن

٢٦ بصراحة

هل تغفِرينَ لو انَّني أُبدِي الذي قد كنتُ أُخفي؟

ما كان جَبَّاراً هَوا كِ، وإنَّما قَوَّاهُ ضَعْفي

٢٧ أسود هنا نِعاج هناك

تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٧٣ :

غُزاةُ اليومِ كَالطَّاعو نِ يَخْفَى وَهْوَ يَسْتَشْري

فَظيعٌ جَهلُ ما يَجري وأَفْظَعُ منه أنْ تَدري

* * *

يَمانِيُّونَ في المنفَى ومَنْفِيُّونَ في اليَمَنِ

ومِن مُستَعمِرٍ غازٍ إلى مُستَعمِرٍ وَطَني

* * *

أَميرَ النَّفْطِ! نحن يَدا كَ، نحن أَحَدُّ أَنْيابِكْ

ومسؤُولونَ في صَنْعا وفَرَّاشُونَ في بَابِكْ

٢٨ قلبي دواتي

يا رفاقي إنْ أَحْزَنَتْ أُغنِياتي فَالمآسي حياتُكُمْ وحياتي

إنْ هَمَتْ أَحْرُفي دَمَاً فَلِأَنِّي يَمَنِيُّ المِدادِ، قَلبي دَوَاتي

همت: نزلت كالدمع، المدار: الحبر، الدواة: المِحبرة

٢٩ المتلفِّت

أيلول/ سبتمبر ١٩٧٤ :

عَـرَفْـتُـهُ يَـمَـنِـيَّـاً فـي تَـلَـفُّـتِـهِ خوفٌ، وعيْـنـاهُ تَـاريخٌ مِـنَ الـرَّمَـدِ
مِنْ خُضْـرَةِ القاتِ في عينيْهِ أَسئِلَةٌ صُـفْـرٌ تَـبـوحُ كَـعُـودٍ نِـصْـفِ مُـتَّـقِـدِ

هذه «النصف متقد» مأخوذة من بشارة الخوري في قصيدة المسلول، انظر القطعة ٥ في الباب الأول من هذا الكتاب

رأيتُ فيكَ بِلادي كلَّها اجتمَعتْ كيف التَقَى التِّسْعَةُ المليونُ في جَسَدِ
فَـوْجٌ يَـمـوتُ ونَـنْـسـاهُ بِـأَرْبَـعَـةٍ فـلـم يَـعُـدْ أَحَـدٌ يَـبْـكـي عـلـى أَحَـدِ

بأربعة: بعد أربعة ايام

وفـوقَ ذلـكَ أَلْـقَـى أَلْـفَ مُـرتَـزِقٍ في اليومِ يَسأَلُني: ما لَونُ مُعْتَقَدي؟

يقتل الناس أفواجاً ثم يأتي المنتفعون بالحروب الداخلية ويريدون التحقق من الهوية الطائفية لك فرد

٣٠ يأس

كانون الثاني/ يناير ١٩٧٤ :

نَـتَـشَـهَّـى غـداً. . يَـزيـدُ ابْـتِـعـاداً نُـرجِعُ الأَمْسَ! لا يُطِيقُ ارْتِجاعا
نَـمْـتَـطي مَـوجـةً إلـى غـيرِ مَـرْسـىً إنْ وَجَـدْنـا رِيـحـاً فَـقَـدْنـا الـشِّـراعـا

٣١ عودة المحتل

تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٧٦ :

جَـاءَنـا الـمُـحْـتَـلُّ في غـيـرِ اسْـمِـهِ لَـبِـسَـتْ وَجْـهَ الـنَّـبِـيِّ الـقَـرْصَـنَـةْ
أيَّ نَـفْـعٍ يَـجْـتَـنـي الـشـعْـبُ إذا مـاتَ فِـرْعـونُ لِـتَـبْـقَـى الـفَـرْعَـنَـةْ

٣٢ زمان بلا نوعية

تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٧٧ :

طَلَبْتُ فَطورَ اثْنينِ، قالوا بِأَنَّني وَحيدٌ، فقلتُ: اثْنينِ، إنَّ مَعي صَنْعا

ما أراه إلا كان جائعاً لم يتعش في ليلته

أَكَلْتُ وإِيَّاها رَغيفاً ونَشْرَةً   هُنا أَكَلَتْنا هَذِهِ النَّشْرَةُ الأَفْعى
زَمانٌ بِلا نَوْعِيَّةٍ ساقَ وَيْلَهُ   مَتاخِيمُ يَقْتاتُونَ أَفئِدَةَ الجَوْعى

متاخيم: مصابون بالتخمة

٣٣ دمار

١٩٧٨:

أَقْبَلَتْ كلُّها الدَّكاكِينُ وَلْهَى   كَبَغايا هَرَبْنَ مِن نَسْفِ مَلْهَى

خرج الناس من الدكاكين هاربين مولهين، خائفين، كمومسات هربن بعد نسف الملهى

لم يَعُدْ مَنْ يَجيءُ. جاءَتْ سُقوفٌ   فوقَ أُخرى، واهٍ أَتى فَوقَ أَوْهَى

ثم لم يعد أحد يجيء فالبنايات تهدمت ووقعت السقوف فوق السقوف، فهي واهية ضعيفة وقعت فوق ما هو أوهى منها

كان يَسْتَفْسِرُ الغبارُ الشَّظايا: ألمَرايا أَوِ الجِراحاتُ أَزْهَى؟
أَقْبَلَتْ كلُّها العَماراتُ عَجْلَى   تَمتَطي مَخْبَزاً، وتَجْتَرُّ مَقْهَى

هجونا رمزية البردُّوني في المقدمة! ألا مرحباً برمزية تصور حال الدمار بلغة بهذه الكثافة والجمال

٣٤ بلغ السيل الزبى

١٩٧٧:

حِدِّي سِكِّيناً حِدِّي   عُنُقي أَغْلَى مَا أُهْدي
أَرجُوكِ احْتَزِّي، عُمْري   أَضْحَى شيئاً لا يُجْدي
يَغْلُو مَشْنوقاً؛ يَهْوي   كَرَمادِ النَّعْشِ الهِندي

رماد النعش الهندي: الرماد المتخلف عن حرق الهنود الميت ونعشه

٣٥ نشور وانتقام

أيلول/سبتمبر ١٩٧٨:

لِأَنِّي دَخلْتُ السِّجْنَ شَهراً وليلةً   خَرجْتُ ولَكِنْ أَصبحَ السِّجْنُ دَاخِلي
لقد كنتُ مَحمُولاً على نَارِ قَعْرِهِ   فكيفَ تَحمَّلْتُ الذي كان حَامِلي

النار في قعر جهنم أشد استعاراً

أَتَدْرِينَ ! أَنْساني التَّمَرُّغُ هَهُنا جَبِيني، وأَنْسَتْنِي المَنافي شَمائِلي
إلى شَهْوَةِ الأَعراسِ أَسْرَجْتُ مَدْفَني ومِنْ قَطْعِ شِرياني بَدأْتُ تَواصُلي

وضعت السرج فوق قبري فجعلته حصاناً أمضي به نحو شهوة العرس والمستقبل الأفضل، ومن الألم المميت بدأت أتواصل مع الحياة

أَما كنتُ مَيْتاً! إنَّما كنتُ أَغْتَلي وأَغْلُو على قَتْلي لِأَجْتَثَّ قاتِلي

تمردت على الموت كي أقتلع قاتلي

٣٦ الأمر الواقع

مَن ذا يُسَمِّي نفسَه سيِّداً؟ هَذي العَصا، لا غيرَها، السَّيِّدَةْ
الناسُ غيرُ الناسِ، قُلْ أَصبَحُوا أَدْهَى مِن الصَّيَّادِ والمِصْيَدَةْ
الناسُ في هَذي الرُّبَى كالرُّبَى تَوارَثُوا الإخْصابَ والجَلْمَدَةْ

٣٧ ليل القمع

الليلُ أَبْرَدُ ما يَكونْ والليلُ أَسْهَدُ ما يَكونْ
وكَأَنَّ كلَّ دقيقةٍ تَبدُو مَلايِينَ القُرونْ
وكَأَنَّ فوق مَناكِبِ اللَّحَظاتِ جُدْرانَ السُّجونْ

المناكب: الأكتاف

وهناكَ تَرتَجِفُ الكُوَى وهنا يَجولُ المُخْبِرونْ

الكوى: النوافذ

والليلُ يَبْتَدِعُ التَّها ويلَ الغَريباتِ الفُنونْ
والصَّوتُ يَحْتَرِفُ الخِيا نَةَ والسُّكُوتُ كَمَنْ يَخُونْ
حتى الجُذورُ مُدانَةٌ بِذُنوبِ إنْجابِ الغُصُونْ
والليلُ مُسْتَلْقٍ كما خُورٍ يُنَقِّرُ عن زَبُونْ
الأَرْضُ نَفْسُ الأرضِ لَكِنَّ الجَحِيمَ الآخَرونْ
السِّجْنُ لِضَيْقِ السِّجْنِ لِصْقُ المَكْرُوفونُ المَكْرُوفونْ

للنظام سجونه، وله آلته الإعلامية الكاذبة

لا تَكْتَرِثْ يَقَعُ الذي لا يَدَّعِي المُسْتَطْلِعُونْ

مِـن أيِّ نَـبْـعٍ أنـتَ؟ مِـن يَـاءٍ ومِـنْ مـيـمٍ ونُـونْ

أحرف يمن

لِـلـقَـلْـبِ يـا دَيْـجُـورُ قَـلْـبٌ مِـن أَسـاطـيـرِ الـفُـتُـونْ

الديجور: الظلمة

لـن يَـعـدَمَ الأَرَقُ الـنُّـجُـومَ ولـن يَـنـامَ الـعـاشِـقُـونْ

٣٨ البقاء للأذبح

أَلا اقـتُـلْ كـلَّ مَـنْ تَـلـقَـى إذا اسْـتَـبـقَـيْـتَ لـن تَـبـقَـى

لِأَنَّ الـقـتـلَ بـعـدَ الـقـتـلِ طِـبُّ الأُمَّـةِ الـحَـمْـقَـى

طب: علاج

٣٩ الصعلوك

عن المتنبي ١٩٨٠:

مِـنْ تَـلَـظِّـي لُـمُـوعِـهِ كـادَ يَـعْـمَـى كـادَ مِـن شُـهْـرَةِ اسـمِـهِ لا يُـسَـمَّـى

من تلظي وتوقُّد لمعانه كاد المتنبي يخفى عن العيون.. كالسيارة التي تشع مصابيحها في وجهك فلا تتبينها.. كيف عرف البردوني هذا وهو ضرير؟ من شهرة المتنبي يستشهد الناس بشعره دون تسمية الشاعر

إنَّـه أَخْـطَـرُ الـصَّـعـالـيـكِ طُـرّاً إنَّـهُ يَـعْـشَـقُ الـخُـطُـوراتِ جَـمّـا

تحليل طيب لشخصية المتنبي فهو شامخ أبي في رأي معظم الناس، وهو صعلوك يعشق الخطر عند البردوني

٤٠ قزمية

هَـذي الفِـجاجُ كَأُنْثَى ما لـها رَحِمٌ هـذا الـزِّحـامُ رِجـالٌ مـا بِـهِ رَجُـلُ

هذه الطرق الواسعة تشبه أنثى لكنها لا تلد، وهذا الزحام من الرجال ليس فيه رجل حقيقي. البلد عقيم

غاصَتْ وُجوهُ الرَّوابي تحتَ أَرْجُلِها في جِلْدِ كلِّ حَصَاةٍ يَنْطَوي جَبَلُ

ظلم الدولة بعساكرها ومخابراتها يقزِّم البشر تقزيماً، ها هي الروابي تفقد وجوهها فكأنها تضع وجوهها تحت أرجلها، وكل حصاة هي عبارة عن جبل تقزم حتى صار حصاة في رابية

وكانَ يَهْمِسُ مِن خَلْفِ الهَديرِ فَمٌ   لا يُورِقُ الناسُ حتى تَذْبُلَ الدُّوَلُ

من وراء هدير الدولة وصخبها ثمة فم يقول: الناس لا يصبحون ناساً ذوي إرادة حرة إلا مع ذبول الدولة. يتمثل البردُّوني الفكر اليساري في بعض تجلياته المتطرفة، وكان مثقفو العرب في هذه الحقبة يقرأون عن برودون ويعجبون بفلسفته «الفوضوية»

٤١ ميت في قبرين

: ١٩٨٣

مُتُّ يوماً يا صَديقي، وأنا   كلَّ يَوْمٍ والرَّدَى شُرْبي وزَادي

أنتَ في قبرٍ وحيدٍ هادِئٍ   أنا في قَبْريْنِ: جِلدي وبِلادي

٤٢ الحصى أخباراً

: ١٩٨٥

ماذا يُسِرُّ لِسفْحِ الرَّبْوَةِ الحَجَرُ   كَأَنَّ كُلَّ حَصاةٍ هَهُنا خَبَرُ

يسر: يهمس. الناس في هذا المجتمع كالحصى في الربوة، وكل حصاة تهمس همساً كأن عندها خبراً، بل كأنها هي خبر

لِكُلِّ واحِدَةٍ شَكلٌ وتَمْتَمَةٌ   لَكِنْ يُوَحِّدُهُنَّ العَجْزُ والضَّجَرُ

كل حصاة لها شكل معين، وتمتمة معينة في همسها.. لكن القاسم المشترك بينها: العجز والضجر. المجتمعات العربية يفسرها أحياناً الشعر بأحسن مما تفسرها الكتب الضخام

٤٣ هذا العدم

صباحٌ ويَزْحَفُ بَدءُ المَسا   مَساءٌ وتَعدُو جِبالُ الأَسَى

تعدو: تركض

فلا الليلُ يَعرِفُ شوقَ النجومِ   ولا اليومُ يَدري مَتى أَشْمَسا

تَنامُ الصَّبِيحَاتُ عندَ البُزُوغِ   وتَنسَى العَشِيَّاتُ أنْ تَنْعَسا

وصف غائم لشعوب تنام في النهار، وتفتح عيونها ليلاً

غُبارٌ يُوَلِّي، غُبارٌ يَلي   دُخانٌ جَرى، ودُخانٌ رَسَا

وأرغِفَةٌ تَأْكُلُ الآكِلينَ   وأَشْرِبَةٌ تَحتَسي مَن حَسَا

وجَثَّتْ قَذائِفُهُمْ كلَّ غَرْسٍ   مِنَ الجَذْرِ واحتَلَّتِ المَغْرِسَا

وتِلكَ الكُراتُ التي يَمْشُطُونَ ... لِماذا يُسَمُّونَها أَرْؤُسا؟
فَلِلرِّيحِ أنْ تَرتَدِي أَوْجُهاً ... ولِلرَّمْلِ أنْ يُحْسِنَ المَلْبَسا
ويَجْتَرَّ كُثْبانَهُ خَلْفَهُ ... وبِاسْمِ الحَصَى يَرْأَسُ المَجْلِسا

لو كان البردوني مبصراً لقلنا إنه تأثر في هذا الشعر بلوحات سلفادور دالي

٤٤ الرصيف

١٩٨٣ :

يِمضي لَفيفٌ ويَليهِ لَفيفْ ... وأنتَ ثاوٍ هَهُنا يا رَصيفْ
تَستَقْرِئُ الأَقْدامَ، هل أنتَ مِن ... قِراءَةِ الأَوْجاعِ مُضْنىً أَسِيفْ
كيف تَرى الأحزانَ مِن تَحتِها؟ ... كما يَرى بِالسَّمْعِ قلبُ الكَفيفْ؟

٤٥ التلميذ ابن أبيه

١٩٨٥ :

مَصروفُهُ في كلِّ يومٍ وَفيرْ ... أَبُوهُ إِمَّا سَارِقٌ أَوْ أَميرْ
أو عِندَهُ أُمٌّ كَمُرْجَانَةٍ ... في بَيْتِها كُلَّ مَساءٍ وَزيرْ

مرجانة: الجارية الفصيحة ذات الحيلة التي ساعدت «علي بابا» ضد الحراميَّة وتزوجها

في كُلِّ يومٍ يَكْتَسي حُلَّةً ... أُخرَى، فَيَبْدُو دُمْيَةً مِن حَريرْ
يا ليتَ شِعْرِي ما اسْمُهُ؟ عَلَّهُ ... سَمِيرَةٌ، لَكِنْ يُنادَى سَميرْ
تَحديقُهُ مِثْلُ طَحينِ الحَصَى ... وخَطْوُهُ يَحْكي عَجينَ الشَّعيرْ

نظرات التلميذ بلهاء لا معنى لها كأنها دقيق مصنوع من طحن الحصى، ويخطو بدلال كأنه يسير على عجين.. هذا ما فهمت من البيت

يُبالِغُ الأُستاذُ رَشْوانُ في ... تَدْليلِهِ، يَرعاهُ كابْنِ المُديرْ
يَجتازُ صَفّاً بعدَ صَفٍّ، ومَا ... عانَى طَريقاً أو أَرادَ المَسِيرْ
هذا الذي من صَفِّنا، كَمْ تَرى ... لهُ بِصَنْعَا أو سِواها نَظيرْ؟
مَن قالَ إِنِّي أَبْتَغي رِفْعَةً ... كهذِهِ؟ هذا طُمُوحُ الحَقيرْ

٤٦ أمنية

١٩٨٧ :

مَتَى تَعرِفُ الأَمطارُ أَعْطَشَ بُقْعَةٍ وتَسعَى إلى مَن يَشْتَهِيها المَوائِدُ
تَجَدَّدْ كَقلْبِ النهرِ يا سَيِّدَ الأَسَى سَتَرتادُ عَهْداً غيرَ ما أَنْتَ عاهِدُ

أيها المواطن الحزين جدد همتك مثلما يجدد النهر ماءه بجريانه.. فسوف يأت عهد أفضل

٤٧ جهاز المخابرات

لا تَخافِي مِنهُمْ، ولكِنْ أَفيقِي صارَ مِنهُمْ مَن كانَ يُدعَى صَديقي
حَبِّذي بعضَ ما يَرَوْنَ، تَغَابَيْ فالتَّغابي يُرضِي الغَباءَ الحَقيقي
خَنَقُوا خَطَّ هَاتِفي مِن حَشاهُ وتَقَصَّوْا زَفيرَهُ وشَهِيقي
مَنْ أُؤَاخي؟ لو ذُبْتُ لُطفاً لَقالُوا إنَّ سُمِّي مُخَبَّأٌ في رَحيقي
لو تَحَوَّلْتُ فَرخَةً ثَعْلَبُوني لو تَضَفْدَعْتُ خَبَّرُوا عن نَقيقي
لو رَأَوْني أُمْسي حِماراً لَنَادَوْا خُبَراءً يُتَرْجِمُونَ نَهيقي
رَغمَ أَنفِ الذي رَماهُمْ حِيالِي ما ثَنَوْني، ولن يَسُدُّوا طَريقي

٤٨ عيون الشعر

١٩٨٨ :

الصَّمْتُ أَخْوَنُ شَيْءٍ في الفترةِ المُدْلَهِمَّةْ
هنالِكَ الشِّعْرُ أَهْدَى إلى صَميمِ المُلِمَّةْ
ما دامَ في القلبِ هَمٌّ فَلِلْقَوافي مُهِمَّةْ

٤٩ الزعماء

١٩٨٧ :

يا ذَوِي التِّيجانِ يا أَهْلَ الرِّئاسَةْ الملايينُ لَكُمْ تَفْنَى حَماسَةْ
وجُموعُ الشعبِ لاقَتْ فِيكُمُ قادةَ النصرِ وأَبطالَ السياسَةْ
كان هذا ما رَوَى إعلامُكُمْ هل تَرى هذا الجَماهيرَ المُدَاسَةْ؟

هل الجماهير التي تدوسونها، أيها الملوك والرؤساء، تراكم فعلاً قادة النصر مثلما تقول أبواقكم الإعلامية؟

جَرِّبُوا في الشَّعْبِ شَعْبِيَّتَكُمْ واخْرُجُوا يوماً بِلا أَقْوَى حِراسَةْ
أنْ تُصَافُوا مَن يُعادي شَعبَكُمْ مِثلُ راجي الطُّهْرِ مِن عَيْنِ النَّجَاسَةْ
كيف تَحْمِيكُمْ غُزاةٌ أنتُمُ عندهُمْ أَهْوَنُ مِن كِيسِ الكُنَاسَةْ؟

٥٠ أطفال الحجارة

١٩٨٨:

قُلْتُمْ سَتَسْحقُونَهُمْ كيفَ أَبَوْا أنْ يُسْحَقُوا
قالت إسرائيل إنها ستسحق الانتفاضة الفلسطينية الأولى ١٩٨٧، انتفاضة الحجارة

كلُّ مُخَيَّم على مَوْجِ اللَّهيبِ زَوْرَقُ
العُزَّلُ العَاتُونَ مِن أَعْتَى الغُزاةِ أَحْذَقُ
لقد تَعَمْلَقَ الحَصَى لِأَنَّهُمْ تَعَمْلَقُوا
أَحْجَارُهُمْ غيرُ التي إذا ارْتَمَتْ تُطَقْطِقُ
أحجار أطفال فلسطين ليست كأحجار الدامة تطقطق مجرد طقطقة..

أمَا تَرَوْنَها على أَكُفِّهِمْ تُحَمْلِقُ
تَكُرُّ مِن بَنانِهِمْ كما يَكُرُّ الفَيْلَقُ
يكر: هجم

أَهْدَى مِنَ القَطا إلى أهدافِها وأَسْبَقُ
القطا طائر معروف بالاهتداء إلى مواضع الماء، والاهتداء إلى عشه مهما بعد عنه

الضَّفَّةُ الآنَ غَدَتْ تَلْهُو بِمَنْ تَفَوَّقُوا
لِأَنَّها فاقَتْ بِلا دَعْوَى، وهُمْ تَشَدَّقُوا
يا مَن سَرَقْتُمْ مَوطِناً لقد أَبَى أنْ تَسْرِقُوا

٥١ عزرائيل.. لحظة لطفاً!

١٩٩١:

ساعَةً يا رَدَى أُتِمُّ القَصِيدَةْ هاكَ قَاتاً وَجَرَّةً وجَرِيدَةْ
خذ يا موت بعض القات وجرة ماء أو شراب وجريدة، واقعد وتسل بها حتى أتم قصيدتي

كـلُّ غُـصْــنٍ لَـهُ مَـذاقٌ جَـديـدٌ   كَـالـمَـلِـيحـاتِ كـلُّ أُخْـرى جَـديـدَةْ
أنـت تُـسْـمَـى مَـنِـيَّـةً أو حِـمـامـاً؟   قـيـلَ أُنْـثَـى الـحَـديـدِ تُـدْعَـى حَـديـدَةْ

المنية مؤنث والحِمام مذكر.. وكلتا الكلمتين تعني الموت.. ويسخر الشاعر من تعدد أسماء الموت فأنثى الحديد حديدة، وكلاهما حديد، لا فرق

يا صَديقي في القلبِ تِسْعُونَ قَلْباً   وقَـوافـي الـوَداعِ، تَـدْري! عَـنـيـدَةْ

يحس الشاعر والمبدع والزعيم الملهم أنه لا يمكن أن يموت إلا بعد أن يؤدي رسالته كاملة.. شعور خادع.. شوبرت مات وترك سيمفونيته الثامنة ناقصة، وموتسارت مات. وترك «القداس» ناقصاً، ومالر ترك سيمفونيته العاشرة ناقصة. وهتلر كان يخطط لجعل شواطئ أوكرانيا على البحر الأسود منتجعات يرتادها الألمان، بعد أن يطرد الأوكرانيين إلى مناطق بعيدة ليس فيها خبز كي يموتوا جوعاً.. وانتهت الحرب العالمية بخسران ألمانيا مساحات واسعة من أرضها، ومما خسرته بروسيا الشرقية التي هي من تليد الأرض الألمانية ـ وفيها ولد وعاش كل عمره الفيلسوف عمانوئيل كانط ـ فقد طَرد منها الروس الألمان طرداً، وسموها كالينين غراد، وما زالت روسية

عبد الله البردُّوني
فهرس القوافي

فهرس القوافي العام

القافية، فرقم القطعة، فالباب الذي تنتمي إليه

أبواب الكتاب: ١ بشارة الخوري، ٢ الشاعر القروي، ٣ إيليا أبو ماضي، ٤ إلياس فرحات، ٥ عرار، ٦ إبراهيم طوقان، ٧ أبو سلمى، ٨ بدوي الجبل، ٩ عمر أبو ريشة، ١٠ إبراهيم ناجي، ١١ أبو القاسم الشابي، ١٢ فهد العسكر، ١٣ عبد الله البردُّوني

سِنِينَا ٦ إيليا
عَرَفَانا ٢٩ بشارة الخوري
عَطَايانا ٢٥ عرار
فَكانا ٢٣ أبو ريشة
فِينا ٢٦ فرحات
فِينا ٦٣ القروي
لِبَانَا ١٨٠ القروي
لِبَلْوانا ٣ بدوي الجبل
لَحْنا ٩٧ إيليا
للفَنا ٩٦ إيليا
لَنا ١١ أبو ريشة
مُذْعِنا ٤٧ طوقان
نِسوانَا ١٠٣ فرحات
نَسِينا ١٥ ناجي
هَوانا ١٠ ناجي
والحانا ٢٣ عرار
وفُلانا ١٠ البردوني
وَهُنَا ٥٩ فرحات
أَلحانُ ٥ طوقان
الصَّوْلَجانُ ١٠ بدوي الجبل
بُرْهانُ ٦٦ القروي
عينُ ٢٢ عرار
نيسانُ ٦ بدوي الجبل
ورُهْبانُ ٢٨ إيليا
ومُجَنَّنُ ٩٢ القروي
يُعْلَنُ ٣٢ أبو سلمى
أبْكاني ٢٦ العسكر
أَجْفَاني ١٠٧ فرحات
إِخْواني ٢ العسكر
أَشْجَانِي ٨٩ القروي
أُغَنِّي ٤٦ فرحات
أَقْسَاني ٧٩ القروي
الإعلانِ ١١ فرحات
البَاني ١٤ العسكر
البُرهانِ ٣٠ فرحات
التِّبْنِ ١٢١ إيليا
التَّجَنِّي ٣٠ القروي
التَّمَنِّي ١٣ أبو سلمى
الثَّقَلانِ ٣٤ إيليا
الجَنَانِ ١٨١ القروي
السِّنانِ ٢٧ أبو ريشة
الشَّارِبَيْنِ ٨ القروي
الشياطينِ ٢٨ عرار
الكَرتُوني ٣٤ عرار
اللُّجَيْنِ ١٨ بشارة الخوري
المبِينِ ٤٨ إيليا
المَيْدانِ ٢٦ أبو سلمى
بِإِخْواني ٣٠ عرار
بالأَحزانِ ٢٩ الشابي
بالإيمانِ ١٠١ فرحات



إني أتنفّس «فوق» الماء، أتنفّس الصعداء، فبعد ثلاث عشرة سنة ها إني أخطّ الصفحة الأخيرة، صفحة الغلاف الخلفي، من آخر أجزاء هذه السلسلة (الزبدة). وسبق آخر الشعر هذا أول الشعر وتجدده وتألقه وإحياؤه. فهل أغتنم الفرصة فأغيّر اسم هذا الكتاب الأخير حتى لا يكون رقعة نعيٍ للشعر العمودي؟ الاسم حلو، وأبقيه لأنه حلو، فأما أن الشعر العمودي قد مات فمسألة سيظل فيها نظر.

ضمت سلسلة (الزبدة) خلاصة الشعر العربي على مدى ألف وخمسمئة سنة. والحلقة الأخيرة من السلسلة، وهي التي بين يديك، تضم آخر العمالقة، بعضهم مشهور شهرة مدوية وبعضهم غير مشهور:

إيليا والقروي وفرحات من المهجر، والأخطل الصغير من بيروت، وعرار من الأردن، وطوقان وأبو سلمى من فلسطين، وعمر أبو ريشة من حلب، وبدوي الجبل من الجبل، وفهد العسكر من الكويت، وناجي من مصر، والشابي من تونس، والبردُّوني من اليمن.

خلاصة شعرهم هنا، وخلاصة حياتهم. ونذكر ما سرقه فلان عن فلان، ونشرح الشعر ونلقي الضوء على المناسبة التي قيل فيها. ولا نبالغ في ذلك، فهذا ليس كتاب تاريخ، لكننا لا ندع الطرفة تفوتنا، ونحتفل بالبيت الجميل وندعو القارئ إلى تذوقه..

إلحاح قد يراه قارئ سمجاً، يقول: اتركني أتذوق بنفسي. وقد يراه قارئ ممتعاً، يقول: نعم، أريد أن يشركني الكاتب في قراءة الشعر وتذوقه.

- الكتاب مرفق بتسجيلات صوتية لمعظم قصائده بصوت المؤلف.

- مهندس الصوت: محمد ماضي، والتسجيل في استوديو معهد الجزيرة للإعلام.



القاهره - المعادي - شارع المعراج
almashriq.books@gmail.com

